

الدكتور صلاح الدين الهادي

اتجاهات الشعر في العصر الأموي

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

اتجاهات الشيعة في العصر الأيوبي



تأليف

الدكتور صلاح الدين الهادي
أستاذ الدراسات الأدبية بكلية دارالعلوم
جامعة القاهرة

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

مكتبة النجاشي < mktba.net



الناشر مكتبة النجاشي بالقاهرة

صف هذا الكتاب بطريقة الجمع التصويري

مكتبة الخانجي

ص . ب ١٣٧٥ القاهرة

الطبعة الأولى

١٤٠٧ هـ = ١٩٨٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

أحمد الله حمد الشاكرين ، وأصلى وأسلم على عبد الله ورسوله محمد ، وعلى آله أجمعين .

وبعد

فقد وجدت الباحثين في حياة الشعر في العصر الأموي ، قد تفاوتت بينهم المناهج في النظر إلى هذا الشعر ، ورصد قضاياه ، وتعليل ظواهره ، والإلمام بنواحي نشاطه ، ومختلف اتجاهاته .

منهم من اكتفى بتتبع تيار واحد من التيارات الشعرية ، التي زخر بها حقل الشعر في هذا العصر ، غير ملتفت إلى مسارات الحركة الشعرية الأخرى ، ومايينها من صلات ، فنية ، وبائية ، تجعل من هذا النتاج الفني كُلاً متلاحماً ، تتداخل ظروف تكوينه ، ومقوماته ، وبواعثه ، بحيث يكون من التعسف الفصل بين مكوناته ، وقطع اتجاهاته بعضها عن بعض .

كما يتعذر الوقوف على دقائق الصلة بين موضوعاته ، ودراسة حقائق ملامحه ، إلا من خلال نظرة شاملة ، ترعى ماينها من روابط ، فنية ، وسياسية واجتماعية ، وحضارية .

وفي العصر الأموي بخاصة ، حيث تصارعت الأهواء ، واهتزت وحدة الأمة الإسلامية ، وعادت إلى الحياة نزعات جاهلية ، مع بزوغ فجر نهضة أخذت تتطلع إلى تراث الأمم ، التي سبقت أمة العرب إلى ميادين الحضارة ، والفكر والفن

نقول : في هذا العصر لا يستطيع باحث أن يتجاهل تداخل المؤثرات والروابط في إنحاء الحياة الأدبية بعامه ، والتأثير في الحركة الشعرية وتوجيهها بخاصة .

فالواقع السياسي الذي عاشه العصر الأموي — مثلاً — لم يثمر شعراً سياسياً

يعبر عن الحزبية السياسية ، المتصارعة في هذا العصر فحسب ، وإنما كان له تأثيره أيضا في دفع ألوان أخرى من النتاج الشعري ، إلى البروز والتطور أو الذيوع والانتشار .

وكثيرا ما تضافرت عوامل سياسية ، واجتماعية ، وثقافية ، في توجيه الشعر إلى موضوع أو أكثر ، أو اتجاه أو أكثر ، من اتجاهات الشعر ، التي تحركت في هذه الفترة الهامة من حياة الدولة الإسلامية .

على أن من الباحثين من وقف جهده في دراسة الشعر الأموي عند حد النظر فيما أصاب هذا الشعر من ملامح التطور أو التجديد ، واقتضاه منهج بحثه أن يعرض عن ألوان من شعر العصر ، لم يرَ فيها — حسب مقاييسه التي ارتضاها للحكم بالتطور أو التجديد — موضوعا لدراسته ، مع أن هذه الفنون ، أو الألوان ، تتمتع بقيمة تاريخية ، وأدبية ، ولغوية ، لاتقل أهمية ، عن قضايا التطور والتجديد في الشعر الأموي .

فالشعر القبلي — مثلا — ازدهر ، وهو يشغل جزءا ضخما من ديوان الشعر الأموي ، وسجل كثيرا من أوجه الحياة الاجتماعية والقبلية في عصر بني أمية ، ومع ذلك ، فليس موضوعا للدراسة ، عند الباحثين عن مظاهر التطور والتجديد في الشعر الأموي .

ولست بهذا أتجاهل قيمة هذه الدراسات ، التي نهض بها أساتذة فضلاء محققون ، لهم مقام الأستاذية والريادة في مجال الدراسات الأدبية ، فيعلم الله أنني ما إلى هذا قصدت ، فدراساتهم وأبحاثهم في دراسة شعر العصر الأموي سدت نقصاً ، وخدمت مجالا هاما في دراسة الأدب الأموي بعامة والشعر منه بخاصة .

غاية الأمر أن اختلاف مناهجهم في دراسة الشعر الأموي ، والنظر إليه ، هي التي أوجت إلى بإعادة النظر في ديوان الشعر الأموي باتجاهاته المتعددة تصنيفا ، المؤتلفة روحا وباعثا ، وغاية ، على ضوء منهج يعالج هذا الشعر باعتباره صدى للنشاط المتكامل للحياة في هذا العصر ، وكُلًّا فنيا ، تتعدد موضوعاته ، ولكنها تتآزر ، وتتلاقى ، لتعكس هذا النشاط .

ومع أنني حرصت الحرص كله على أن يقوم منهج دراستي هذه ، على استنطاق نصوص هذا الشعر ، وذلك بالعناية بالناحية التحليلية لهذه النصوص ، فلست أنكر أنني أفدت كثيرا ، من الجهود التي فاض بها علم الأساتذة ، الذين وجهوا عنايتهم إلى دراسة جوانب من شعر هذا العصر الأدبي الهام .

فإلى هؤلاء الأساتذة العلماء أدين بالشكر والعرفان .

والله أسأل أن يجعل عملي هذا نافعا ، خالصا لوجهه الكريم ، فهو القصد ، ومنه التوفيق والعون .

صلاح الدين الهادي

منيل الروضة : ١١ من شوال ١٤٠٢ هـ

٣١ من يوليو ١٩٨٢ م

الفصل الأول

أبرزُ العوامل التي وجَّهَت الشعرَ
في العصر الأمويّ

تقديم

أول مايلفت نظر الباحث في أدب اللسان العربي بعامّة ، مايبينه وبين أحداث التاريخ وظروف البيئة من تجاوب عميق ، وارتباط وثيق ، فعلى ضوء الدراسة التاريخية للحياة العربية في بيئاتها وعصورها المختلفة ، يمكن تفسير أكثر المفاهيم التي أداها هذا الأدب ، والاتجاهات التي اندفع إليها ، كما يتأتى إدراك غير قليل من خصائصه الفنية .

ومن مظاهر هذه الصلة القوية بين الأدب والتاريخ ، خضوع الشعر العربي في مختلف أدوار حياته لتطور حياة الأمة العربية ، في النواحي : السياسية ، والاجتماعية والثقافية ، والحضارية ، والاقتصادية أيضا ، فهذه النواحي هي التي فرضت عليه ماشاءت من التغيرات ، وهي التي رسمت له مجراه واتجاهاته ، ومن هنا تعددت أطواره ، وتبدلت موضوعاته وصوره ، وألفاظه ، وأساليبه ، وكثيرا ماارتاد حقولا جديدة من المعاني ، أو غلبت عليه صياغات لم تكن مألوفة ، وكلما كانت التحولات في هذه النواحي بارزة ، مؤثرة في مسار الحياة ، كان خطر التغيرات التي تحدث في تطور الشعر ، والأدب بعامّة .

وإذن ، فعلى المؤرخ لحياة الشعر في العصر الأموي ، أن يتصدى لرصد التطورات الهامة التي وجدت في الحياة العربية الإسلامية في هذا العصر ، وأن ينظر فيها نظرا يؤدي إلى الكشف عن الملامح الهامة لنواحي هذه الحياة ، ويوضح أهميتها في توجيه شعر العصر .

تغير وجه الحياة كثيرا في الدولة الإسلامية خلال حكم الأمويين ، عما كان عليه في عصر النبوة والراشدين ؛ لتعدد أوجه الخلاف بين العصرين ، وتوفر دواعيه ، في السياسة ، والفكر والثقافة ، والحضارة ، ونظم الاجتماع .

فالثابت أن أسس الحكم التي سار عليها النبي ﷺ والراشدون من بعده ، تختلف عن نظم الحكم الملكي في ظل دولة الأمويين ، التي تشبه في مظهرها ونظامها نظم الحكم الملكي في دولتي الفرس والروم ، وإن انضوت تحت لواء الإسلام .

كما أن الخلاف بين المسلمين ، فكريا ومذهبيا وسياسيا ، لم يعرف في العصر السابق على الصورة الحادة التي نراها في عصر بني أمية ^(١) ، فقد كان الناس يعيشون حياة مثالية تُسَّاسُ بالقانون الشرعي ، الذي يفرض الواجبات ، ويعطى الحقوق ، لم يكثر بينهم الخلاف في الآراء ، ولم يتأولوا في الدين بما يخرجهم عن حقيقته ، التي تدعو الناس إلى التآلف والعدل والرحمة ، أو كما يقول الجاحظ : « كانوا على التوحيد الصحيح والإخلاص المخلص مع الألفة ، واجتماع الكلمة على الكتاب والسنة ، وليس هناك عمل قبيح ولا بدعة فاحشة ، ولا نزاع يد من طاعة ولا حسد ولا غل ولا تأول » ^(٢) أما في العهد الأموي ، فقد انقلب المسلمون أمة مختلفة الأهواء ، متعددة المنازع ، ضاربة في غمار الفتن السياسية ، والدينية والعصبية ، مما يسوِّغ لنا القول بأن « انتقال الدولة الإسلامية إلى بني أمية بعد انقلابا عظيما في تاريخ الإسلام » ^(٣) ، ونقله خطيرة في حياة المسلمين .

- ١ -

لعل من أهم ما يبرز في الحياة السياسية في العصر الأموي ، ذلك الصدع الخطير الذي ألم بحياة الجماعة الإسلامية ، وأثر تأثيرا بعيدا في تطور الأحداث فيها ، وخلفها أحزابا متناحرة ، وشيعا متنافرة .

وتضرب جذور هذا الصدع - في صورته المنذرة بالشر - إلى السنوات الأخيرة للخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان .

(١) انظر : الأدب في عصر النبوة والراشدين (للمؤلف) ص ٦ .

(٢) انظر : رسائل الجاحظ ٢ / ٧ .

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية : جورجى زيدان ١ / ١٩٢ .

فقد كانت سياسته تجرى وفق ماعرف به — في جاهليته وإسلامه — من الحياء واللين ، حتى قال النبي ﷺ في حقه : « وكيف لأستحي ممن تستحي منه الملائكة » ^(١) ، لذا كان كثير التغاضي عما يكره ، حياءً وإيثاراً للتسامح ، حتى مع من يناله منهم أذى في نفسه ^(٢) ، وهذا وإن حسن عند الحكماء ، فإنه لا يحسن أبداً في سياسة الرعية ، إذ لا بد لمقام الخلافة من هيبة في القلوب ، تقف الناس عند الحد اللائق بهم ؛ ولعل هذا هو الذي دفع عمر بن الخطاب إلى أن يعلو سعد بن أبي وقاص بالدرة ، حين زاحم الجموع المحيطة به ، ووصل إليه مُدلاً بمركره ، قائلاً له : « إنك أقبلت لاتباب سلطان الله في الأرض ، فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لن يهابك » ^(٣) ، وكان عمر يقول : إن هذا الأمر لا يصلح له إلا اللين في غير ضعف ، والقوى في غير عنف ^(٤) .

كما أن ميل عثمان إلى اللين والتسامح ، قد حال بينه وبين اتخاذ أى تدبير لمعاقبة الساعين في الفتنة ، الذين رُفعوا إليه ، وثبت أنهم على رأس مروجى الشر ضده في الأمصار ، مع اجتماع كلمة عماله ، حينما التقوا به في الموسم ، على ضرورة أخذ هؤلاء المفسدين بالشدّة ، ومنهم عمرو بن العاص ، الذي قال له : « إنك قد كنت لهم ، وتراخيت عنهم ... وأرى أن تلزم طريقة صاحبك ، فتشتد في موضع الشدة ، وتلين في موضع اللين ، إن الشدة ينبغي لمن لا يألوا الناس شراً ، واللين لمن يخلف الناس بالنصح ، وقد فرشتهما جميعاً اللين » ^(٥) .

غير أن عثمان لم يعبأ بما قالوا ، وآثر اللين ، لئلا يكون فاتح باب الفتنة ، التي كان يخافها ، ويقول : طوبى لعثمان إن مات ولم يحركها ^(٦) .

(١) المختصر في أخبار البشر ١ / ١٧٠

(٢) انظر في بعض ذلك : الكامل : لابن الأثير ٣ / ٦٥ (المطبعة الأميرية) وتاريخ الطبرى ٥ / ١١٤

(٣) تاريخ الطبرى ٥ / ٤٥

(٤) عيون الأخبار : لابن قتيبة ١ / ٩

(٥) الطبرى ٥ / ٩٩ والكامل لابن الأثير ٣ / ٦٠

(٦) الكامل لابن الأثير ٣ / ٦٠ والطبرى ٥ / ٩٤ وانظر أيضاً : تاريخ الأمم الإسلامية : الشيخ محمد

الحضري ٢ / ٤٣ ومابعدها

ثم إن عثمان اتهم بانحيازهم إلى أهل بيته المؤمنين ، وإغداق الأموال عليهم ، وتقريبهم ، وإيثار بعضهم بولاية الأعمال ، على حداثة سنهم ^(١) ، لمجرد قرابته منهم ، ودون نظر إلى مكاتبتهم في الإسلام ، أو تمكن الدين والورع في نفوسهم .

فقد عفا عن عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية ، وسمح له بدخول المدينة ، وأعطاه مائة ألف ، وكان الرسول ﷺ قد طرده إلى الطائف ، فما زال بها طريداً رسول الله وأبى بكر وعمر ، حتى استخلف عثمان فردّه ^(٢) .

كما قرب مروان بن الحكم ، وأقطعته فذك ، وهي صدقة رسول الله ﷺ التي طلبتها فاطمة ميراثاً ، فأبى أبو بكر استناداً على ما رواه عن رسول الله ﷺ : نحن معاشر الأنبياء لانورث ، ما تركناه صدقة . وقد انتزعها الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز الأموي من آل مروان ، وردها صدقة ^(٣) .

ولما فتح عبد الله بن سعد بن أبي سرح إفريقية ، وبعث بالخمسة إلى عثمان ، اشتراه مروان بخمسمائة ألف دينار ، فوضعها عنه عثمان ^(٤) .

وقد عبر الشعر عن بعض مانقم الناس من عثمان ، فقال عبد الرحمن الكندي : ^(٥)

سأحلف بالله جهد اليم — من ماترك الله أمراً سدى
ولكن خلقت لنا فتنة — لكى تُبتلى بك أو تُبتلى
فإن الأيمنين قد بينا — منار الطريق عليه الهدى
فما أخذنا درهما غيلة — وما جعلنا درهما في الهوى
دعوت اللعين فأدنيته — خلافا لسنة من قد مضى
وأعطيت مروان خمس العبا — د ظلما لهم وحميت الحمى

(١) عزل عثمان أبا موسى الأشعري عن ولاية البصرة ، وولاهها عبد الله بن عامر — ابن خاله — وهو يومئذ ابن خمس وعشرين سنة انظر : الطبري ٥ / ٥٤ ، والكامل لابن الأثير ٣ / ٣٧

(٢) العبر في خبر من غير : أبو عبد الله محمد بن أحمد الحافظ الذهبي ١ / ٣٢ ، والمختصر ١ / ١٦٩ ، وانظر : الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدى ٣ / ١٦٤ ، ومروج الذهب للمسعودى ٢ / ٣٤٣ مطبعة السعادة ١٩٥٨

(٣) المختصر ١ / ١٦٩

(٤) الكامل لابن الأثير ٣ / ٣٥ ، والمختصر ١ / ١٦٧

(٥) المختصر ١ / ١٦٩

وهكذا نقم الناس ، وفيهم كثير من المهاجرين والصحابه ، أمورا في سياسة عثمان « بعضها يتصل بمسائل دينية ، وبعضها بمسائل سياسية ، وإدارية ، واجتماعية ، ومالية ، وأكثر بعضهم من نصحه ، وأغلظ بعضهم في نصحه ، لكن عثمان لم يستجب للنصح الرقيق ، ولم يستمع للنصح الجاد الحازم ، فتفاقم الخطب ، واتسعت الهوة ^(١) » .

شاعت الفتنة في الأقاليم الإسلامية ، وكثرت القالة في سياسة عثمان وعماله في كل من الحجاز والعراق والشام ومصر ، وقد تجاهلها الخليفة حيناً ، وحذر منها باللين أحياناً ، وأعوزه الحزم كثيراً ، مما شجع بعض ذوى الهوى على إحياء الدعوى التى نبتت عقب وفاة الرسول ، القائلة بأن علياً أولى بخلافة الرسول ؛ لأنه أقرب أهله وعشيرته إليه ، ونهض بهذا الأمر عبد الله بن سبأ ، فبث دعائه يذيعون في الأمصار أن لكل نبي وصيا ، وعلى وصي محمد ، فمن أظلم ممن لم يحز وصية رسول الله ﷺ ، وأن عثمان أخذها بغير حق ، وأوصاهم أن يبدعوا بالطعن على أمرائهم ، وإظهار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليستميلوا الناس إليهم ، وسارت كتبه إلى الناقمين في كل مصر ، كما سارت كتبهم إليه ، وقرئت كتب الطعن على عمال عثمان في الأمصار ^(٢) ، مما زاد الأمر سوءاً ، وحرك الناس إلى ثورة ، أخذت بوادرها تتجمع ، حتى أعلنت عن نفسها بخروج جموع من مصر والبصرة والكوفة إلى المدينة ، وحاصرت عثمان أربعين يوماً ^(٣) ، وقيل : أكثر ^(٤) ، تمنعه من الصلاة في المسجد ، ومن الماء أيضاً ^(٥) ، ثم تسور جماعة من الثوار داره وقتلوه ، على صورة وحشية ، لانتفق مع أصول الإسلام الذى انتسبوا إليه .

كان مقتل عثمان على يد جماعة الثوار هو مفتاح باب الشر ، الذى ولجت منه الجماعة الإسلامية إلى ميدان العداوة والفرقة ، حيث التف أهل الشام ، ومن تبعهم حول معاوية ، يفضلونه على أنفسهم ، ويرونه أليق للإمامة ، ولا يرون لغيره بيعة عليهم توجب

(١) أدب السياسة في العصر الأموي : د . أحمد الحوق ٣٠ .

(٢) لمزيد من التفصيل راجع : الطبرى ٥ / ٨٨ ، والكامل لابن الأثير ٣ / ٥٩ ، وتاريخ الأمم الإسلامية ٢

(٣) المختصر ١ / ١٦٩

(٤) الطبرى ٥ / ١٢٢

(٥) الكامل لابن الأثير ٣ / ٦٧

الطاعة ^(١) وبذا كان معاوية في قوة ومنعة ، وهو فوق هذا من أهل بيت الخليفة المقتول ، الذى يحمل على — فى نظره — بعض وزر مقتله ، ويأوى تحت لوائه قتلته ^(٢) ؛ ومن ثم عقد العزم على رفض الاعتراف بخلافة آل البيت الهاشمى ممثلة فى على بن أبى طالب ، فلما وجه إليه على جرير بن عبد الله البجلي ، ليأخذه بالبيعة له ^(٣) ، ماطله ، واستنظره ، حتى قال له جرير : إن المنافق لا يصلح حتى لا يجد من الصلاة بُدَّ ، ولأحسبك تبائع ، حتى لا تجد من البيعة بُدَّ ، فقال له معاوية : إنها ليست بخُدعة الصبي عن اللبن (أى ليست أمرا هينا يتجاوز فيه) ، إنه أمر له مابعده ، فأبلغنى ريقى (يعنى أمهلنى) ، ثم استدعى عمرو بن العاص — الذى كان بفلسطين آنذاك — واستشاره ، فأشار عليه أن يرسل إلى وجوه الشام ، ويلزم عليا دم عثمان ، ويقاقله بهم ^(٤) ، وكتب لعمرو بولاية مصر طعمة ، وكتب عليه : ولا ينقض شرط طاعة ، فقال عمرو : يا غلام اكتب ، ولا تنقض طاعة شرطا ^(٥) .

ولما استوثق معاوية من طاعة شيوخ البنية من عرب الشام ، واجتمع له أمره ، رفع عقبرته ، ينشد ، لِيُسمع جريرا ^(٦) :

تطاول ليلى واعتزتنى وساوسى	لآت أتى بالثرهات الساسيس
أتانى جرير والحوادث جمّة	بتلك التى فيها اجتداع المعاطس
أكابده والسيف بينى وبينه	ولست لأثواب الدنى بلاس
إن الشام أعطت طاعة يمنية	تواصفها أشياخها فى المجالس
فإن يفعلوا أصدم عليا بجبهة	تفت عليه كل رطب ويابس
وإنى لأرجو خير مانال نائل	ومأنا من مُلك العراق بيّاس

(١) بلغ من أمر أهل الشام فى طاعة معاوية أن جعلوا لعن على بن أبى طالب سنة ينشأ عليها الصغير ويهلك عليها الكبير . (المسعودى ٣ / ٧٢ البيه)

(٢) الطبرى ٥ / ٢٣٥ ، وتاريخ الأمم الإسلامية ٢ / ٥٢

(٣) انظر : مروج الذهب السعدوى ٢ / ٣٨١ (السعادة)

(٤) الطبرى ٥ / ٢٣٥ ، وانظر : البداية والنهاية : لابن كثير ٨ / ١٢٨

(٥) الكامل فى اللغة والأدب : المبرد ١ : ٢٩ ، ومروج الذهب ٢ / ٣٦٣

(٦) المصدر السابق — الترهات : جمع ترهة (بتشديد الراء) وهى الباطل ، والساسيس بمعناها ، الجبهة :

جماعة الخيل .

وأعلن رأيه في رسالة بعث بها إلى علي ، يقول فيها : ... أما بعد ، فلعمري لو بايعك القوم الذين بايعوك ، وأنت برىء من دم عثمان ، كنت كأني بكر ، وعمر ، وعثمان ، رضى الله عنهم أجمعين ، ولكن أغريت عثمان المهاجرين ، وخدلت عنه الأنصار ، فأطاعك الجاهل ، وقوى بك الضعيف .

وقد أتى أهل الشام إلا قتالك ، حتى تدفع إليهم قتلة عثمان ، فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين .

ولعمري ما حجتك علي كحجتك على طلحة والزبير ؛ لأنهما بايعاك ، ولم أبايحك ، وما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة ؛ لأن أهل البصرة أطاعوك ، ولم يطعك أهل الشام ... (١) .

وأغلب الظن أن مذكره معاوية في هذه الرسالة من اتهام لعلي ، ماهو إلا تعلقة لإثارة الشبهة حول نوايا علي في قيامه بالأمر بعد صاحبه ، وأنه أعان عليه خصومه ، أو تخاذل عن نصرته ليحل محله ، انتصاراً للهاشمية على الأموية ، بإعادة الأمر إلى آل البيت ، والحق « أن التاريخ المنصف يرى عليا من التحريض على الثورة ، وبيئته من التقصير في حماية عثمان ، وبيئته من السرور بمقتله (٢) » .

والتاريخ المنصف أيضا ، يشهد بأن في سياسة عثمان ما يبرر نقمة بعض الناقمين عليه ، وما اقتضى لومه من بعض كبار الصحابة ، حتى كتب بعضهم إلى بعض بالقلوم إلى المدينة لمجاهدة عثمان (٣) ، مما دفع عليا بن أبي طالب إلى أن يكلمه ناصحاً ، محذراً فكان مما قال له : « ... إن شر الناس عند الله إمام جائر ضل وضلَّ به ، فأمات سنة معلومة ، وأحيا بدعة متروكة ... وإني أحذرك الله ، وأحذرك سطوته ونقماته ، فإن عذابه شديد أليم ، وأحذرك أن تكون إمام هذه الأمة المقتول ... (٤) » وأخذ عليه ضعفه مع أقربائه ، وقطعهم بالأمر دونه ، لا يرضاه الناس ، وهو يعلم فلا يغيره .

(١) الكامل للمبرد ١ / ٢٣٠

(٢) أدب السياسة : د . الخوف ١٩ ، وانظر أيضا المرجع نفسه ٣١ - ٣٢

(٣) الطبرى ٥ / ٩٦

(٤) المصدر نفسه ٥ / ٩٧ ، والكامل لابن الأثير ٣ / ٥٨

وكانت أم المؤمنين عائشة تنكر على عثمان مع من ينكر عليه ، وكانت تخرج قميص رسول الله ﷺ وشعره ، وتقول : هذا قميصه وشعره لم يبل ، وقد بلى دينه ^(١) ، ثم قامت تطالب بدمه ، وتعلن أنه قتل مظلوما ، لما علمت أن البيعة تمت بالمدينة لعل ^(٢) .

ونذكر كلمة لأم المؤمنين أم سلمة ، وجهتها لعثمان في قالب النصيحة ، نفهم منها أنها تأخذ عليه أشياء ، وأن اختلاف الناس حول سياسته ، فيه مايدل على صواب اتهامه ، « قالت أم سلمة لعثمان رحمهما الله ، وهي تعظه : يا بني ، مالى أرى رعيثك عنك نافرين ، ومن جنبك مزورين ، لاثعف طريقا كان النبي ﷺ لحبا ، ولاتقدح زندا كان أكباها ، توخ حيث توخ صاحبك ، فإنهما ثكما الأمر ثكما ، لم يظلما أحدا فتिला ، ولانقيرا ، ولايختلف إلا في ظتين ، هذه حق بنوتى ، قضيتها إليك ، ولى عليك حق الطاعة » ^(٣) .

نخلص من هذا كله إلى أن عثمان — رحمه الله — لم يكن يشتد على ولاته ويحاسبهم اشتداد عمر وحسابه فأمن الولاة جانبه واستلانوه ، ويعترف عثمان بذلك ، ويعلله بأنه لين العريكة ، سهل الخلق ، مأمون الجانب ، فكان يتهيب لوقاره وحيائه وشيخوخته أن يشتد

(١) المختصر ١ / ١٧٢

(٢) الطبرى ٥ / ١٧٢ ، والكامل لابن الأثير ٣ / ٨٠ يرى بعض المؤرخين أن أم المؤمنين عائشة إنما وقعت هذا الموقف من الإمام على ، لأنه كان ممن ألحوا على النبي ﷺ في طلاقها أيام حديث الإفك .
انظر : تاريخ الشعوب الإسلامية : كارل بروكلمان ٦٣ ، ١٣٨ .

وهناك أبيات لرجل يدعى عبيد بن أبى سلمة (ابن أم كلاب) يذكر فيها هذين الموقعين لأم المؤمنين المتغابرين ، ويذكرها بما كان منها أيام عثمان (قولها : اقتلوا نعتلا فقد كفر) في أسلوب عتاب يبدو منه أن هوى الشاعر مع الإمام على ، من هذه الأبيات :

منك البداء ومنك العير ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام م وقلت لنا إنه قد كفر
فهبنا أطعناك في قتلته وقاتله عندنا من أمر .. الخ

انظر : الطبرى ٥ / ١٧٣ والكامل لابن الأثير ٣ / ٨٠ ويروى البيتان الأولان لعمار بن ياسر قالهما يوم الجمل مع بعض الخلاف في الرواية انظر : مروج المذهب ٢ / ٣٧١ (السعادة) .

(٣) أمالى الزجاجي ١٢٧ (السعادة) . لاثعف : لاثمح ، لحبا : أوضحها . توخ : اقصد . ثكما الأمر : لزما الحق ولم ينحرفا عن الحق . الظنين : المتهم .

على الولاة ، وكان لبعض أقربائه مطامع وكان ببعضهم حاجة ، فكان ذوو المطامع منهم يحتالون عليه ، وذوو الحاجة يرفقونه عليهم باحتياجهم ، وهو لا يرى أن في مواساة هؤلاء وأولئك — بإسناد عمل من أعمال الدولة إليهم — إثماً ولا حرجاً ؛ لأنه لم يكن يسىء الظن بهم ، شأن الرجل الصالح ، الذى يظن أن كل الناس على شاكلته ، ومن هنا وقع ما وقع له من البلاء .

وأيا كانت النظرة في سياسة عثمان رضى الله عنه ونتائجها فإن ما عيننا في هذا المقام ، أن معاوية اهتبل الفرصة ، وأخذ ينادى في الناس بأن علياً يحمل وزرَ مقتل عثمان ، وينشر قميص عثمان الملطخ بالدماء على منبره بمسجد دمشق ، ونصب نفسه مطالباً بدم الخليفة المظلوم ^(١) .

وعبر عن هذه الدعوى شعراً الوليد بن عقبة بن أبى معيط — أخو عثمان من الرضاع — فقال ، مخاطباً بنى هاشم ^(٢) :

بنى هاشم إنا وما كان بيننا كصدع الصفا ما يومض الدهر شاعبة
بنى هاشم كيف الهواة بيننا وعند على درعه ونجائبه
بنى هاشم ردوا سلاح ابن أختكم ولا تنهبوه لا تحل مناهبه
غدرتم به كيما تكونوا مكانه كما غدرت يوماً بكسرى مرزبنة

فهو يردد دعوى الأمويين القائله بمسئولية على عن مقتل عثمان ، وأن الهاشميين قد غدروا به ليتمكنوا زعيمهم علياً من اغتصاب منصب الخلافة من بعده .

ولم يسع الهاشميون أن يتغاضوا عن هذا الادعاء الباطل ، فنشطوا للرد عليه وإبطاله ، ذاهبين إلى أن علياً لم يكن في حاجة إلى قتل عثمان ليثب على الخلافة ، فحقه فيها ثابت من قبل أن يتولى عثمان .

وقد هب أحد الهاشميين وهو الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب ، ليرد على شعر الوليد بن عقبة ، معبراً عن رأى آل البيت فيما ادعاه هذا الأموى قائلاً ^(٣) :

(١) لمزيد من التفصيل راجع : البداية والنهاية لابن كثير ٨ / ٢١ ، وأدب السياسة ص ١٧

(٢) الكامل للمبرد ٢ / ٢٥٦ (الأزهرية) ، والأغانى ٥ / ١٢٢ ، ومروج الذهب ٢ / ٣٥٦ (السعادة)

(٣) مروج الذهب ١ / ٣٥٧ (السعادة) .

فلا تسألونا سيفكم إن سيفكم أضيع وألقاه لدى لرؤع صاحبه
سلوا أهل مصر عن سلاح ابن أختنا فهم سلبوه سيفه وحرأبته
وكان ولي الأمر بعد محمد على وفي كل المواطن صاحبه
على ولي الله أظهر دينه وأنت مع الأشقيين فيما تحاربته

استنفر معاوية في هذه الخصومة عرب الشام ، فاستجابوا له والتفوا حوله —
كما قدمنا — أما أهل العراق ، فقد بايعوا عليا ، وبخاصة أهل الكوفة ، التي اتخذها
على عاصمة لخلافته ، ومركزا لتجميع أنصاره ، يقول المسعودي ^(١) : « كانت الكوفة
أسرع الأمصار إجابة إلى بيعة علي » .

بهذا أتيحت الفرصة لإحياء المنافسة القديمة بين عرب الشام ، الذين كانوا
يحاربون غالبا في صفوف الروم ، وعرب العراق ، الذين انضموا تحت لواء الفرس ضد
الروم ، قبل الإسلام ^(٢) .

ولعل مما يصور هذه المنافسة ، التي أحيها هذا الصراع بين الإقليمين ، قول
كعب بن جُعيل التغلبي ^(٣) ، الذي كان هواه وهوى قومه تغلب في معاوية ^(٤) :
أرى الشام تكره ملك العراق وأهل العراق لهم كارهينا
وكلّا لصاحبه مُبغضاً يرى كل ما كان من ذاك دينا
إذا مارمونا رمينا همّ ودناهم مثل ما يقرضونا
فقالوا : علىّ إمام لنا فقلنا رضينا ابن هند رضينا
وقالوا : نرى أن تدنينا له فقلنا : ألا لانرى أن ندينا
ومن دون ذلك خَرَطُ القتاد وضرب وطعن يقرّ العيوناً

(١) مروج الذهب ٢ / ٣٦٢ (السعادة) وانظر : حياة الشعر في الكوفة للدكتور يوسف خليف ٥٢

(٢) انظر : التطور والتجديد للدكتور شوقي ضيف ٣٩ ، وأدب السياسة ٣٧ والخوارج والشيعة ١٤٧

(٣) من بني عمر وبن عثم بن تغلب ، شاعر مقلد قديم في أول الإسلام ، جعله ابن سلام في الطبقة
الثالثة من فحول الإسلام ، وقال عنه أبو الفرج الأصفهاني : كان شاعر تغلب لا يأتى منهم قوما إلا أكرموه ،
وضربوا له قبة ، وله مهاجاة مع الأخطل . انظر في أخباره : طبقات فحول الشعراء ٤٨٥ والأغاني ٧ / ١٦٢ والشعر
والشعراء ٢٤٧

(٤) الكامل للمبرد ١ / ٢٣٠ (الأزهرية) . الخطوط : قشر الورق عن الشجرة اجتذايا باليد ، القتاد :
شجر له شوك أمثال الإبر ، وهذا مثل يضرب للأمر دونه مائع صعب ، يحول بينك وبينه .

كما يصورها من الجانب الآخر النجاشي^(١) صاحب عليّ وشاعره^(٢) :
 دَعَا يامعاوي مالن يكونا فقد حقق الله ماتحذروننا
 أتاكم على بأهل العراق وأهل الحجاز فما تصنعونا !؟

وبما زاد من حدة هذا الصراع ، وأدى إلى تطوره تطوراً سريعاً إلى صراع حربي ، إصرار عليّ على خلع معاوية من ولاية الشام ، وعدم قبوله أساليب السياسة والمداينة في هذا الأمر ، ورفضه القاطع لكل نصيح قدم إليه ليعالج أمر معاوية بالحيلة ، فقد أشار عليه المغيرة بن شعبة بإقرار معاوية وعبد الله بن عامر ، وسائر العمال ، على أعمالهم حتى تأتيه طاعتهم ، وطاعت جندهم ، ثم يستبدل بعد ذلك أو يترك ، ولكن علياً رفض قائلاً : والله لا أداهن في ديني ، ولا أعطي الرياء في أمري ، فأشار عليه المغيرة أن يعزل من شاء من العمال على أن يبقى على معاوية ، لأن لمعاوية جراءة ، وهو في أهل الشام مسموع منه ، وذكر له أن عنده الحجة في إثباته ، فإن عمر ولاة الشام كلها ، غير أن علياً أجابه بقوله : لا والله لأستعمل معاوية يومين أبداً^(٣)

كما غضب عليّ حين تقدم إليه ابن عمه عبد الله بن العباس بمثل هذه النصيحة قائلاً : ياأمير المؤمنين ، أنت رجل شجاع ، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول : الحرب خُدعة ؟ ومع ذلك فقد أتى عليّ إلا أن يجعل السيف بينه وبين معاوية^(٤) .

لم يكن بد إذن من أن يحشد معاوية أنصاره للقتال ، وأن يفعل عليّ مثل ذلك ، وهنا يبدو الانقسام واضحاً في صفوف الأمة الإسلامية ، وتبلور هذا الانقسام في صورة حزين : حزب علي ، وحزب معاوية ، أو فلنقل : شيعة علي ، وشيعة معاوية^(٥) .

(١) أبو الحارث قيس بن عمرو بن مالك ، أحد بني الحارث بن كعب ، شاعر من أشرف العرب ، إلا أنه كان فاسقاً ، أتى به علي بن أبي طالب وهو سكران في رمضان ، فضربه حد الحمر ، وزاده لجرأته على الله وشربه الخمر في رمضان ، وله هجاء في أهل الكوفة بسبب هذا الحد ، كما هاجى عبد الرحمن بن حسان بن ثابت فغلبه عبد الرحمن وأفحمه ، وهجا بني العجلان ، فشكوه إلى عمر بن الخطاب فهدده بقع لسانه ، انظر في أخباره وشعره : سبط الملائ ٢ / ٨٩٠ ، وخزانة الأدب ٤ / ٣٦٨ (بولاق) ، والعمدة ١ / ٦٨ ، والشعر والشعراء ١١٦ ، وديوان المعاني ١٧٦/١ .
 (٢) الكامل للمبرد ١ / ٢٣٣ (الأزهرية) .
 (٣) راجع تفصيل هذه الأخبار في مروج الذهب ٢ / ٣٦٤ (السعادة) .
 (٤) المصدر السابق .
 (٥) لفظ (الحزب) يطلق عليه في العربية أيضاً اسم الشيعة ، لكن لما تولى معاوية الملك في دولة الإسلام

كلها ، ولم يعد مجرد رئيس حزب ، أصبح استعمال لفظ (شيعة) مقصوراً على أتباع عليّ . انظر : الخوارج والشيعة ١٤٦

والتقى الفريقان في وقعة صفين الشهيرة ، التي كان من نتائجها البارزة انتصار الشام يمثلها معاوية على العراق ممثلاً في عليّ .

وليس من همنا هنا تفصيل الحديث عن أحداث هذه المعركة ، وتطوراتها ونتائجها ، لأن هذا كله مبسوط في مصادر التاريخ الإسلامي التي تعالج هذه الفترة من حياة الأمة الإسلامية .

ومع ذلك فنحن مضطرون إلى الوقوف عند نتيجة من نتائج حرب صفين ، لما لها من أهمية بالغة في ميلاد حزب إسلامي ثالث ، زاد من تصدع وَحْدَةِ الإسلام والمسلمين في العصر الأموي .

لقد تمخضت هذه الحرب عن ظهور حزب جديد ، هو حزب الخوارج الثوري ، وكان السبب المباشر لمولد هذا الحزب مسألة التحكيم في إبان معركة صفين .

فحين لاح خطر هزيمة جند معاوية في آخر أيام صفين ، أشار عمرو بن العاص على معاوية أن يأمر أهل الشام برفع المصاحف على أسنة رماحهم ، فكثرت في الجيش رفع المصاحف ، ونادى جند الشام : كتاب الله بيننا وبينكم ، وفي ذلك يقول النجاشي ^(١) : فأصبح أهل الشام قد رفعوا القنا عليها كتاب الله خير قرآن ونادوا علياً بالابن عم محمد أما تتقى أن يهلك الثقلان

وسرعان ما أحدث هذا السلوك الأثر المطلوب في كثير من أهل العراق ، خصوصاً في القراء منهم ، إذ قالوا : نجيب إلى كتاب الله ، وكان عليّ يدرك أن مافعله جند معاوية ماهو إلا حيلة قصدوا من ورائها النجاة من الهزيمة التي توشك أن تفسد عليهم أمرهم ، بيد أنه لم يستطع أن يقاوم تأثيرها في نفوس أكثر جنده ، بل هُدد شخصياً لما أراد ذلك ، بأن يُصنَّع به ماصنَّع بعثمان ، مما اضطره إلى أن يقبل التحكيم على مضض ، وأن يستدعي قائده الأشتر النخعي ، الذي كان من النصر قاب قوسين أو أدنى ؛ حتى لا يواصل القتال ، فأستجاب الأشتر للأمر رغماً عنه طاعة لعليّ .

وسعى الأشعث بن قيس — زعيم كندة بالكوفة وأحد أصحاب عليّ البارزين — بالوساطة بين الفريقين ، فذهب إلى معاوية ، وتلقى اقتراحه بالتحكيم ، واختيار عمرو بن

العاص ليكون أحد الحكمين عن أهل الشام ، وأكره على قبول أبى موسى الأشعري حكما عن أهل العراق ، ووضّح صلح مكتوب بين الفريقين على أساس هذا الاقتراح .
وما إن قرىء مضمون الاتفاق في معسكر أهل العراق ، حتى أعلن قوم أكثرهم من بنى تميم رفضهم التحكيم ؛ لأنه يجعل مصير خلافة المسلمين بين أيدي رجلين ؛ ولأن حكم الله في الأمر واضح جلي ، فقد أمر بقتال الفئة الباغية حتى تعود إلى الطاعة وتدخل في الجماعة ^(١) ؛ ولأن التحكيم على هذا النحو يعنى « شك كل فريق من المحاربين أيهما الحق ، وليس يصح هذا الشك ؛ لأنهم وقتلهم إنما حاربوا وهم مؤمنون — بلا شك — أن الحق في جانبهم ^(٢) » .

وقد عبر عروة بن أذينة الخنظلي التميمي عن هذه المعاني التي اختلجت في نفسه ونفوس الرافضين في جملة « لا حكم إلا الله ^(٣) » .

وصاروا يطاردون عليا رضي الله عنه بهذه العبارة في المسجد ، وفي الطريق ، حتى ضايقوه ، مطالبين إياه أن يقر بخطئه في قبول التحكيم ، بل رموه بالكفر لإهماله أمر الله ، وإقراره مسألة الحكمين .

ولما يئست هذه الجماعة الرافضة للتحكيم من رجوع على عما أبرم من اتفاق مع معاوية ، اجتمعوا ، وتداعوا إلى الخروج من جند على ، ومغادرة الكوفة — التي كان جيش على قد عاد إليها بعد الاتفاق على التحكيم — لإعلانا عن استنكارهم بدعة التحكيم المضلة ، رافعين شعار « لاحكم إلا الله » ولذا سمو بالمحكمة ، وقصدوا قرية قرب الكوفة تسمى حروراء فسموا أيضا بالحرورية ، وهما اسمان كثيرا ما يطلقان على الخوارج ، وأمروا عليهم رجلا منهم سموه « أمير المؤمنين » وهو عبد الله بن وهب الراسبي .

يتضح من ظروف مولد حزب الخوارج ، أنه لم ينشأ عن عصبية للعروية ، بل عن عصبية للإسلام ؛ إذ كان هدفه تقرير الأمور العامة للمسلمين — كمسألة الخلافة ، وقتال البغاة — وفقا لأوامر الله ونواهيه ، وهذا الحزب الجديد كان خارجا على المسلمين من

(١) راجع الآية ٩ من سورة الحجرات .

(٢) فجر الإسلام ١ / ٣٠٠

(٣) تاريخ الطبري ٦ / ٣١

الفريقين ، يعد دارهم دار حرب ^(١) ، ولذا تجب مجاهدتهم ، واستمر هذا الجهاد طوال عصر بني أمية .

في هذه الفترة كان شعور كثير من المسلمين متعاطفا مع عليّ ، مؤيدا لأمره ، وهؤلاء هم الذين كانوا يرون أن تكون الخلافة في بيت النبي ﷺ ، وأقرب الناس إليه حيثئذ عمه العباس بن عبد المطلب ، وابن عمه عليّ بن أبي طالب ، « ولكن العباس لم يكن من السابقين إلى الإسلام ، فقد حضر غزوة بدر مع المشركين ، ولم يسلم إلا آخراً ، فأولى الناس من قرابة النبي ﷺ عليّ بن أبي طالب ، وهو أول الناس إسلاما ، وزوج فاطمة بنت النبي ﷺ ، وجهاده وفضله وعلمه لا ينكر ^(٢) .

وكان من بني هؤلاء عدد غير قليل من الصحابة ، من المهاجرين والأنصار ، نذكر منهم سلمان الفارسي ، وأبازر الغفاري ، والمقداد بن الأسود ، وعمار بن ياسر ، وأبا التيهان ، والفضل بن العباس ، وأخاه الحبر عبد الله بن العباس ، وأبا أيوب الأنصاري ... وغيرهم ^(٣) .

وهؤلاء وأمثالهم ، ممن التفوا حول عليّ ، وآزروا أمره ، ضد معاوية ، الذي كانوا يرونه جائرا ، منحرفا عن الحق ، طامعا فيما لا يستحق ، لأنه لم يعتنق الإسلام إلا بعد الفتح .

نقول : هؤلاء يمكن أن نعدّهم نواة التشيع ، بمعناه العاطفي والسياسي ، لا بمفهومه المذهبي العقدي .

(١) لم يلبث الخوارج أن انقلبوا بحاربون عليا ، حيث قاتلوه في وقعة النهروان سنة ٣٨ أو ٣٩ هـ ولكنه هزمهم شر هزيمة ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، همازاد في إمعان الخوارج في كرهه ودفعهم إلى تدبير مكيدة قتله ، على يد عبد الرحمن بن ملجم الخارجي ، وكان زوجا — أو خاطبا — لامرأة قتل كثير من أفراد أسرتها في هذه الواقعة ، انظر : العبر للذهبي ١ / ٤٤ ، ومروج الذهب (البية) ٢ / ١٤٠ ، وتاريخ الطبري ٦ / ٣٣ وما بعدها ، وانظر تفصيل خير خروج الخوارج ، وصدامهم مع علي ، وأسماء زعمائهم في : الخوارج والشيعة ٣ وما بعدها ، ومروج الذهب ٢ / ٤١٥ — ٤١٧ (السعادة) ، وتاريخ الشعوب الإسلامية ١٤٣ .

(٢) فجر الإسلام ١ / ٢٩٧ ، وانظر : الشيعة في التاريخ ص ١٣٠ ، والشيعة في الميزان ٢٤ وما بعدها .

(٣) انظر : أصل الشيعة وأصولها ٨٦ ، والإصابة ، والاستيعاب ، في مواضع متفرقة .

بيد أن هذا التشيع العاطفى ، لم يلبث أن تطور بعد مقتل على (سنة ٤٠ هـ) (١) ، إلى عقيدة مذهبية دينية وسياسية ، تدور حول إمامة المسلمين ، وحق آل البيت فيها ؛ بحيث صارت دعوى هذا الحق شعاراً لحزب يقوم على أسس مذهبية دينية وسياسية محددة ، أخذ ينشرها ، ويجمع الأنصار حولها ، ويجاهد الأمويين ، وغيرهم ممن يخالف الشيعة على أساسها .

بعد مقتل على ، لم تبق أمام معاوية ، لكى يستتب له الأمر ، إلا مناوشات يسيرة مع الحسن الابن الأكبر لعلى ، الذى أدرك بعد تجربة يسيرة فى محاولة مجاهدة معاوية بالقوة ، تحاذل أنصاره ، واستهانتهم بأمره ، مما اضطره إلى المهادنة ، التى انتهت بقبول الصلح ، والتنازل عن الأمر لمعاوية ، حقناً للدماء ، وجمعاً لكلمة الأمة (٢) .

بعد أن استقرت الخلافة لمعاوية ، أخذ يفكر فيما يكون عليه أمر الخلافة الأموية من بعده ، واهتدى إلى تقرير مبدأ الوارثة فى الحكم ، بالعهد لابنه يزيد ، ومن ثم أخذ يمهّد لهذه البيعة بذكاء ، وصبر ، وفطنة ، وحنكة سياسية واعية (٣) ، ففضلاً عن ثقته بتأييد عرب اليمن — أحوال يزيد — لهذا الاتجاه ، استطاع بهباته السخية ، ودهائه ومرونته ، أن يستميل كثيراً من خصومه ، ومنهم بعض بنى هاشم (٤) ، أما رعوس البيت الأموى ، فقد عاملهم بحذر متبصر حكيم ؛ خشية أن يصبحوا خطراً عليه وعلى ابنه ، وكان يتمتع بمقدرة فائقة على أن يفيد مما كان لشعراء عصره من تأثير عظيم فى الرأى العام ، واستغلال هذا التأثير فى تحقيق مصالحه .

(١) قتل على ليلة الجمعة فى السابع عشر من رمضان على يد ابن ملجم ، ثم قتل قاتله وأحرق . العبر للذهبي ١ / ٤٦ .

(٢) قيل : لما صالح الحسن معاوية ، قام فخطب فى أهل الكوفة ، وقال : أيها الناس ، إن الله هداكم بأولنا ، وحقن دماءكم بآخرنا .. يا أهل الكوفة لم تذهب نفسى عنكم إلا ثلاث خصال ، مقتلکم لأنى ، وسلبکم ثقلی ، وطعنکم فى بطنی . وكانوا قد نهبوا سرادقه ، ورحله ، وطعنوا بالخنجر فى جوفه ؛ ولذا انقاد إلى الصلح ، انظر : مروج الذهب (البية) ٢ / ٥٣ .

(٣) قال أبو على الفاي : كان معاوية مجرباً ، قد حنكته الأيام ، واسع الصدر ، حليماً ، وكان يقول عن نفسه :

قد عشت فى الدهر ألواناً على لحلق شتى وقاسيت فيه اللين والطبما
لايملاً الأمر صدرى قبل مصدره ولاضيق به ذرعاً إذا وقعا

انظر : الأمالي ٢ / ٣٠٨

(٤) انظر تاريخ الشعوب الإسلامية ١ / ١٤٨

فقد أوعز إلى رجل من الأزد يقال له ذو الكلاع أن يواجه وفود الأمصار في مجلسه بطلب البيعة ليزيد ، ولما كان هذا المجلس ، قام الرجل فقال : هذا أمير المؤمنين ، وأشار بيده إلى معاوية ، فإن مات فهذا ، وأشار إلى يزيد ، فمن أرى فهذا ، وأشار إلى السيف ، ثم قال : (١) :

معاوية الخليفة لا نُمارى فإن يهلك فسائسنا يزيد
فمن غلب الشقاء عليه جهلاً تحكّم في مفارقه الحديدُ

وكان اتجاه معاوية إلى هذا النظام الوراثي في الحكم ، نقلة خطيرة في حياة المسلمين ، الذين ألفوا البيعة والشورى ، والنظم الأولى في الإسلام ، وهم بعد قريبو عهد بها ، فقد صدم كثير منهم بتحول الإمامة إلى ملك كسرى ، والخلافة إلى غضب قيصرى — كما يقول الجاحظ (٢) .

وإلى هذا التحول يشير عبد الله بن همام السلولى في قوله (٣) :

فإن تأتوا برملة أو بهند نبايعها أميرة مؤمنينا
إذا مامات كسرى قام كسرى نعد ثلاثة متناسقينَا

لهذا أحس كبار رجال الأمة ، وبخاصة في الحجاز — مهد الدعوة الأول — وعلى الأخص في مكة والمدينة ، بالسخط الشديد على هذا الاتجاه .

وكان لشخصية يزيد بن معاوية أثر كبير في شيوع هذا السخط بين المسلمين (٤) ، إذ كان — فيما يقول ابن جرير الطبرى — « متهما برقة الدين ، وشرب

(١) العمدة ١ / ٢١٢ ، وانظر أمالى القائل ١٦٢ / ١

(٢) رسائل الجاحظ ١١ / ٢

(٣) الشعر في مروج الذهب (البيعة) ٢ / ٧٠ ، والشاعر : هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن همام السلولى من بنى مرة بن صعصعة ، أخى عمر بن صعصعة ، وبنو مرة يعرفون ببني سلول ، وسلول أمهم ، غلبت عليهم ، وهو شاعر إسلامى قديم ، أدرك معاوية ، وبقي إلى أيام سليمان بن عبد الملك ، أو بعده ، وكان مكيناً عند بنى أمية ، حظياً فيهم ، وعده ابن سلا فى الطبقة الخامسة من فحول الشعراء الإسلاميين . انظر : معاهد التنقيص ١ / ٩٦ ، والشعر والشعراء ٢٤٨ ، وسمط اللآلى ٢ / ٦٨٣ ، وطبقات فحول الشعراء ٥٢٢ ، وشرح الحماسة للمرزوق ٣ / ١١٣٩

(٤) بويج يزيد ولياً للعهد سنة ٥٦ هـ ، وبويج بالخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٦٠ هـ . تاريخ الطبرى ٦ /

الخمر ، والإقبال على اللهو ، ومجالس الغناء ، ومنادمة الفساق ^(١) » ، ويطلق عليه الجاحظ « الخليع » ^(٢) .

وقد خلع هذه الأوصاف أيضا على يزيد جماعة من أشراف المدينة ، كانوا قد وفدوا عليه فأكرمهم ، وأعظم جوائزهم ، فلما عادوا إلى المدينة ، أخذوا يسبونه ، قائلين : « إنا قادمون من عند رجل ليس له دين ، يشرب الخمر ، ويعزف بالطناير ، ويضرب عنده القيان ، ويلعب بالكلاب ، ويسامر الخُراب والفتيان ... » ^(٣) وفيه يقول موسى شهوات ^(٤) :

لست منا وليس خالك منا يامضيع الصلاة بالشهوات

وليس يبعد أن تكون هذه الأخبار من الروايات المعادية لبنى أمية ^(٥) ، فرواية الطبرى التى تتحدث عن جماعة أشراف المدينة ، تضيف : وكان من أشد هؤلاء تحاملا على يزيد المنذر بن الزبير ، وكان يزيد قد أجازه بمائة ألف درهم ، فلما بلغه ما قال عنه ، قال : اللهم إني أثرته وأكرمته ، ففعل ماقد رأيت ، فاذكره بالكذب والقطبعة ^(٦) .

كما أن أبا حيان يروى مايفيد أن يزيد لم يكن يشرب الخمر ، فقد أورد قول خالد ابن يزيد بن معاوية للحجاج بن يوسف : إلى متى تقتل أهل العراق يأبأ محمد ؟ فقال الحجاج : إلى أن يكفوا عن قولهم فى أبيك ، إنه كان يشرب الخمر ^(٧) .

على أية حال لم يكذب يزيد يتولى الخلافة حتى شاع السخط ، وغلا الغضب فى صدور الغالبية من أهل الحجاز والعراق ، واتجهت أنظار الساخطين الغاضبين إلى زعيم آل البيت آنذاك ، الحسين بن على ، وكان الحسين قد رفض أن يجيب معاوية إلى بيعة يزيد

(١) تاريخ الطبرى ٧ / ٤ ، وانظر : أمالى الزجاجى ٦٩ (المبنى)

(٢) رسائل الجاحظ ٢ / ١١

(٣) تاريخ الطبرى ٧ / ٤ ، وابن الأثير (بيروت) ٤ / ١٠٢ - ١٠٤ ، وانظر خيرا عن منادمة يزيد للفساق فى : أمالى الزجاجى (المبنى) ٦٩ .

(٤) هو أبو محمد موسى بن يسار مولى بنى سهم القرشيين ، وهو أخو اسماعيل بن يسار الشاعر الأموى المعروف ، وشهوات لقب له ، وتفسير لقبه ، ومارونياه من شعره فى : سمط اللآلى ٢ / ٨٠٧ ، والأغاني ٣ / ١١٤ ، والأعلام للزركلى ٨ / ٢٨٧ .

(٥) انظر هذه الروايات فى : تاريخ الشعوب الإسلامية ١ / ١٨٣

(٦) تاريخ الطبرى ٧ / ٤

(٧) الإمتاع والمؤانسة ٣ / ١٧٨ ، وانظر الكامل لابن الأثير ٤ / ٥٠

بولاية العهد ، حين قدم معاوية إلى المدينة ، ورفضها معه جماعة من كبار أبناء الصحابة ، منهم عبد الرحمن بن أبي بكر ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ^(١) .. وغيرهم . ولما مات معاوية أتى الحسين أيضاً أن يبائع يزيد بالخلافة (سنة ٦٠ هـ) ، وحتى يخلص من سلطان يزيد فر من المدينة ، والتجأ إلى مكة ، فدعاه أهل الكوفة ليخرج بهم على يزيد ، وبعثوا إليه بالرسائل ، متوسلين أن يجيبهم إلى الثورة ، وأن يقدم عليهم ، باذلين له الوعود والعهود بالالتفاف حوله ونصرته ، وأكثر هذه الرسائل جاءت من رجال القبائل البارزين بالكوفة ، ومن البغامة منهم على وجه التخصيص ، وكانت البغامة أكبر القبائل عدداً وأهمية في الكوفة ^(٢) .

مالت نفس الحسين إلى تلبية هذه الدعوة الملحة ، ولكنه آثر أن يبعث أولاً بابن عمه مسلم بن عقيل ، ليعد الناس لمقدمه ، ويأخذ عليهم العهد ، فنزل مسلم الكوفة سراً ، وتوافد الناس عليه ، معلنين بيعه الحسين ، فأرسل مسلم كتاباً إلى الحسين يخبره بهذه البيعة ، ويدعوه إلى القدوم .

تأهب الحسين للخروج من مكة في ذى الحجة سنة ٦٠ هـ ، فتقدم إليه المخلصون ينصحونه بالعدول ، منهم : عبد الله بن عباس ، الذي قال له : يا ابن عم بلغني أنك تريد العراق ، وإنهم أهل غدر .. فلا تعجل ، وإن أبيت إلا محاربة هذا الجبار .. فاشخص إلى اليمن فإنها في عزله ولك فيها أنصار وإخوان ، فأقم بها وبث دعائك ، واكتب إلى أهل الكوفة ، وأنصارك بالعراق ، فيخرجوا أميرهم ، فإن قوا على ذلك .. ولم يكن بها أحد يعاديك أتيهم ، ومأنا بغدرهم بآمن .. كما نصحه أبو بكر بن الحارث بن هشام الأموي بنحو من ذلك ، ولكنه الحسين احتج بأن مسلماً كتب إليه باجتماع أهل المصر (الكوفة) على بيعته ونصرته ، وأنه عازم على المسير إليهم ^(٣) .

لما علم يزيد بخروج الحسين ، عزل النعمان بن بشير الأنصاري من ولاية الكوفة ، وولى مكانه والياً أقل ورعاً وتحفظاً ، وحرصاً على الدين وهو عبيد الله بن زهاد ، الذي

(١) راجع تفصيل هذا الخبر في : النوادر للقال ١٧٧ - ١٧٩ ، وتاريخ الطبري ٦ / ١٧٠ .

(٢) الخوارج والشيعة ١٦٠ ، وتاريخ الطبري ٦ / ١٩٧ .

(٣) مروج الذهب (البية) ٢ / ٨٦ - ٨٧ ، والخوارج والشيعة ١٦٠ وما بعدها .

أسرع إلى الكوفة ، وقضى على مسلم بن عقيل ، بعد أن انفض عنه أهل الكوفة خوفاً من عبيد الله ، الذى هدد كل من يأويه أو ينصره .

خرج الحسين متوجهاً إلى الكوفة ، وهو يعتقد أنه سيستقبل فيها استقبالا حافلا ، ولم يكن يعلم شيئا عن نهاية مسلم بن عقيل الأئمة ، وقبل بلوغه الكوفة جاءته الأنباء بمقتل مسلم ، وأن أهل الكوفة خلوا بينه وبين ابن زياد ، فقال من معه : « أئانا خير فظيع ، قتل مسلم بن عقيل ، وهاءى بن عروة .. وقد خذلتنا شيعتنا ، فمن أحب منكم الأنصار فلينصرف ، ليس عليه منا ذمام .. فتفرق الناس عنه .. فأخذوا يميننا وشمالا حتى بقى فى أصحابه الذين جاءوا معه من المدينة » ، ^(١) وخاصة أهله وأبناء عمومته من آل أبى طالب .

سار الحسين حتى لقي خيل عبيد الله بن زياد عليها عمرو بن سعد بن أبى وقاص ، فعدل إلى كربلاء قريبا من الفرات ، وقام عمرو بن سعيد بينه وبين الماء ثلاثة أيام حتى أخذ العطش منه ومن معه .

وفى العاشر من المحرم (سنة ٦١ هـ) استعد الفريقان للقتال ، ومع الحسين اثنا وثلاثون فارساً ، وأربعون رجلاً ، بينهم ثمانية عشر من أبناء عمومته ، وودع أصحاب الحسين صاحبهم على موعد لقاء فى الجنة ، قبل أن يدخل كل منهم المعركة الواحدة بعد الآخر ، وكذا فعل أبناء عمومته حتى قتلوا جميعا ، واستطاع شمر بن ذى الجوش ومعهم فرقة من الجند ، أن يبعدوا الحسين عن معسكر النساء والأطفال ، ثم انقضوا عليه طعنا وضربا حتى أصابوه بثلاث وثلاثين طعنة وأربع وثلاثين ضربة ، وسلبوه سراويله وقطيفته ، ونعليه وسيفه .. ثم مالوا على نساء الحسين ومتاعه حتى كانت المرأة لتتزعج ثوبها عن ظهرها حتى تغلب عليه ^(٢) .

قتل الحسين ، ووطأت الخيل جثمانه ، واحتز رأسه ، وحمل إلى ابن زياد ، الذى أمر أن يدار به فى الكوفة ، ثم أرسله مع نساء آل البيت وأطفالهم إلى يزيد بدمشق ، فلما وضع الرأس بين يديه ، أخذ بنكته بقضيب كان بيده ، ويقول :
يُفْلَقْنَ هَاماً من رجالٍ أعرّة علينا وهم كانوا أعق وأظلماً

(١) تاريخ الطبرى ٦ / ٢٢٦ ، وابن الأثير ٤ / ٤٣ (بيروت) وفيه « من مكة » .

(٢) تاريخ الطبرى ٦ / ٢٦٠

وكان في حضرته أبو بردة الأسلمي الصحابي ، فقال له : « ارفع قضيبك ، فطال والله ما رأيت رسول الله ﷺ يضع فمه على فمه يلثمه » (١) .

ويقال : إن يزيد لما قتل الحسين ، تمثل بقول عبد الله بن الزبير متشفيا في قتل المسلمين بأحد :

ليت أشياخي بيدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل
لاستطاروا واستهلوا فرحا ثم قالوا : يا يزيد لا تسئل
والبيت الثاني من صنعة يزيد ، لا من قول ابن الزبير (٢) .

ويقال أيضا : إن يزيد حين علم بمقتل الحسين دمعت عيناه ، وقال : كنا أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين ، لعن الله بن سمية (عبيد الله بن زياد) ، أما والله لو أتي صاحبه لعفوت عنه ، فرحم الله الحسن » (٣) .

وقالوا : وكان جميع من حضر مقتل الحسين من العساكر ، ومحاربه ، وتولى قتله من أهل الكوفة خاصة ، لم يحضرهم شامي (٤) .

وكان مقتل الحسين مع جماعة كبيرة من أهل بيته ، على يد جند يزيد ، وعلى هذه الصورة التي ذكرنا ، جريمة بشعة ، ومأساة مروعة صدمت عواطف المسلمين على اختلاف طوائفهم وأمصارهم ، فلم يكن أحد يتصور أن تبلغ الجرأة بالأمويين إلى حد عدم مراعاة حرمة الرسل في آل بيته ، بل إن الحسين نفسه لم يمكن يتصور هذه الجرأة ، فقد اعترضه الحر بن يزيد التميمي في ألف فارس من جند ابن زياد ، وناشده ألا يعرض نفسه وآل بيته للقتل ، قاؤلا : « إني أذكرك الله في نفسك ، فإني أشهد لئن قاتلت لتقتلن » فقال له الحسين : « وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني ؟ » (٥) .

لقد ألهبت مأساة الحسين وآل بيته ، عواطف المسلمين وضمائرهم ، فهبوا من

(١) مقالات الإسلاميين ١ / ١٤٢ ، ومروج الذهب (البهية) ٢ / ٩٠ ، والكامل لابن الأثير ٤ / ٨٥ (بيروت ١٩٦٥ م) وفيه « أبو برزة » .

(٢) رسائل الجاحظ ٢ / ١٤

(٣) ابن الأثير (بيروت) ٤ / ٨٤ ، وانظر : تاريخ الطبري ٦ / ٢٦٤

(٤) مروج الذهب (البهية) ٢ : ٩١ ، وانظر : الخوارج والشيعة ١٨٣

(٥) ابن الأثير ٤ / ٨٤ .

كل صقع يستنكرون هذه المذبحة المروعة ، التي راح ضحيتها حفيد الرسول ﷺ وشباب آل بيته ، وعلت الأصوات تندد بالأمويين السفاحين القتلة ، وتهافت الناس ينضوون تحت لواء آل البيت ، ويتشيعون لهم ، ويهددون بطلب ثأر الحسين ، فتعاظم أمر حزب الشيعة ، وازداد خطره ، واكتسب أنصارا جددا ، ممن كانوا يتخذون موقف الحياد من الأحزاب السياسية المتطاحنة ، إلى جانب كثير من الموالي ، وخاصة بالعراق ، وعلى الأخص بالكوفة ، حيث كان الموالي يؤلفون أكثر من نصف سكانها ^(١) .

ولعل ثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي ، خير مثل يعكس مدى مابلغه التشيع لآل البيت من ازدهار وقوة ، وكثرة أنصار ، عقب مقتل الحسين ، وكان شعار هذه الثورة « يا لثارات الحسين » ^(٢) .

وكان الموالي يمثلون كثرة عظيمة بين أنصار هذه الثورة ، وكان المختار يوليهم معظم ثقته ، ويقرهم إليه كل القرب ^(٣) ، وتحمس الموالي لإظهار تشيعهم ، فقد حانت الفرصة لأن ينتعش أملهم في التخلص من الولاة من ناحية ، وللنجاة من عنت الأمويين واضطهادهم من ناحية أخرى ؛ إذ كان الأمويون يرون كبح جماح هذه الأجناس غير العربية ، وتذكيرهم دائما بنفوذ الدولة العربية وسيطرتها ، حتى يتطامنوا ، ويخضعوا لها ، ولاتحدثهم نفوسهم بالخروج عليها .

ولأدل على ذلك من قول معاوية بن أبي سفيان : « إني رأيت هذه الحمراء (يعني الموالي) قد كثرت ، وكأني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان ، فقد رأيت أن أقتل شطراً ، وأدع شطراً لإقامة السوق ، وعمارة الطريق ، ولكنه عدل عن ذلك » ^(٤) .

على أنه ينبغي لنا أن نتحفظ بالنسبة لإقبال الموالي على التشيع ، حتى لانفع في وهم إخلاص هؤلاء الموالي جميعا لعقيدة الشيعة وآرائهم ونظرياتهم وأهدافهم السياسية .

(١) الخوارج والشيعة ٢١١ ، وانظر : تيارات ثقافية بين العرب والفرس ١٤٣ ، وأصل الشيعة وأصولها

١١٨ - ١١٩

(٢) ابن الأثير (بيروت ٤ / ٢١٨ ، وانظر خير ثورة المختار ، وتعاظم أمر الشيعة في المصدر نفسه ٤ /

٢١١ وما بعدها .

(٣) انظر : الخوارج والشيعة ٢١٢

(٤) العقد الفريد ٢ / ٩٠

حقا قد يكون من بينهم من اعتنق التشيع عن اعتقاد بصوابه ، واقتناع بحق آل البيت في خلافة الرسول باعتبارهم ورثته الشرعيين ، وبحكم الحق الإلهي ، الذي كان الفرس يؤمنون به في عهد الملوك الساسانية ، وبمقتضاه كان ملوك الفرس « يزعمون أنهم وحدهم أصحاب الحق في لبس التاج ، بما يجري في عروقهم من دم إلهي ^(١) » .

غير أننا لانشك في أن كثرة منهم كانت تشيع ، إما نكاية في بنى أمية ، الذين كانوا ييغضونهم أشد بغض ، ومن ثم فهم على فهم على استعداد للانضمام إلى كل حركة تناوى الأمويين ، وإما تسترا بالتشيع لعل وبنيه « لآعن موالاة خالصة للعلوية ، ولا عن حمية للحق المسلوب ، بل لبث الفرقة والانقسام ، وتقويض الوحدة ، وزلزلة القوة ؛ ليكون هذا وسيلة لاسترجاع الحكم الفارسي ، والخلاص من الحكم العربي ^(٢) » .

كان هذا في العراق ، أما الحجاز فقد عبر عن سخطه على الأمويين قتلة الحسين ، بخروج عبد الله بن الزبير على يزيد بن معاوية (سنة ٦٣ هـ) بمكة ، وسرعان ماخلعت المدينة طاعة يزيد ، وأخرجوا عامله عليها ، وحصروا بنى أمية ومواليهم في دار مروان بن الحكم ، حتى كتبوا إلى يزيد يستغيثون به ، فوجه إليهم مسلم بن عقبة المري ^(٣) في اثني عشر ألفا من جند الشام ، لقتال أهل المدينة أتباع ابن الزبير ، فأوقع بهم في موقعة الحرّة بالمدينة ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ^(٤) ، وأباح المدينة لجنده ثلاثا يقتلون الناس ، ويأخذون المتاع والأموال ^(٥) .

ثم أخذ البيعة من الناس على أنهم خول ليزيد ، يحكم في دمائهم وأموالهم وأهلهم من شاء ، فمن امتنع من ذلك قتله ^(٦) .

(١) تيارات ثقافية بين العرب والفرس ٨٦ ، وانظره : ١٤٦

(٢) المصدر السابق ٢٢٥

(٣) يقال : إنه قدم المدينة وشهد وقعة الحرّة وهو شيخ مريض في محفة ، ثم توفي بعد قليل في أوائل سنة ٦٤

هـ : العبر للذهبي ١ / ٦٦

(٤) كانت وقعة الحرّة لليلتين بقيتا من ذى الحجة سنة ٦٣ هـ ، وفيها قتل من أبناء المهاجرين والأنصار

ثلثمائة وستة ، وعدد من الصحابة ، وقيل : بل ثلاثة آلاف من قریش والأنصار ، وانظر : العبر للذهبي ١ / ٦٧ ،

وتيارات ثقافية ١٤٣ ، وانظر في أخبار هذا اليوم أيضا : أيام الرعب في الإسلام ٤٠٩ — ٤٢١

(٥) ابن الأثير ٤ / ١١٧

(٦) مروج الذهب ٢ / ٩٥ (البهية) وابن الأثير ٤ / ١١٨

بعد موقعة الحرة اتجه مسلم بن عقبة إلى قتال ابن الزبير بمكة ، فلما بلغ قديداً مات ، واستخلف على الجيش الحصين بن ثُمير ، فصار الحصين حتى أتى مكة وحاصرها ، ولما لاذ ابن الزبير بالكعبة ، ضربها بالمجانيق والعرادات ، وحرق أستارها^(١) في خلال ذلك مات يزيد بن معاوية (بعد بضعة وسبعين يوماً من موقعة الحرة في منتصف ربيع الأول سنة ٦٤ هـ) فعاد جيشه إلى الشام ، ونصب عبد الله بن الزبير خليفة ، وأطلق على نفسه « العائد بالبيت والمستجير بالرب »^(٢) . واستوثق الأمر لابن الزبير ، وانتشرت دعوته في كثير من الأمصار الإسلامية ، حتى كادت الأمة تجتمع عليه^(٣) ، فقد أخذت له البيعة بالشام ، وخطب له على سائر منابر الإسلام ، إلا منبر طبرية من بلاد الأردن^(٤) .

ومع ذلك كانت دعوة ابن الزبير ، أو فلنقل : حزبه ، من أقصر الدعوات والأحزاب عمراً ، في عصر بنى أمية ، فقد ظهر هذا الحزب حين أعلن ابن الزبير نفسه خليفة بعد مقتل الحسين بن علي (سنة ٢٦ هـ) ، وبعد وفاة يزيد بن معاوية اجتمعت على دعونه أقطار : الحجاز ، والعراق ، واليمن ، ومصر ، وبعض بلدان الشام ، بل يقال : إنه غلب على دمشق عاصمة الأمويين^(٥) .

ولكن مروان بن الحكم سرعان ما استخلص الشام من أيدي ابن الزبير بعد موقعة « مرج راهط »^(٦) ، التي قتل فيها الضحاك بن قيس الفهري زعيم القيسية ، ووالى ابن الزبير على دمشق ، بفضل انضواء البغائية وبواديها — المعادية للقيسية والموالية للأمويين منذ أيام معاوية ، الذي تزوج منهم ميسون بنت بحدل الكلبية أم يزيد ولده — تحت لوائه ، وهُزمت القيسية ، وقتل منها مقتلة عظيمة ، لم يرمثلها قط ، وفي ذلك يقول مروان بن الحكم^(٧) :

(١) ابن الأثير ٤ / ١٢٤ و مروج الذهب ٢ / ٩٧ ، وانظر : تاريخ الشعوب الإسلامية ١ / ٥٥

(٢) مروج الذهب ٢ / ٩٩

(٣) العبر للذهبي ١ / ٧٠

(٤) ابن الأثير (بيروت) ٤ / ١٤٤ ، و مروج الذهب (البية) ٢ / ١٠٤

(٥) انظر : العبر للذهبي ١ / ٧٠ ، وتاريخ الشعوب الإسلامية ، ١ / ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧

(٦) موضع على أميال من دمشق ، وكانت هذه الواقعة في المحرم سنة ٦٥ هـ ، وقيل : في آخر سنة ٦٤ هـ ،

وانظر : ابن الأثير (بيروت) ٤ / ١٥٠

(٧) مروج الذهب (البية) ٢ / ١٠٧

لما رأيت الناس صاروا حزبا
والمال لا يؤخذ إلا غصبا
دعوت غسانا لهم وكلبا
والسكسكيين رجالا غلبا
والقين تمشى في الحديد نكبا
والأعوجيات يثين وثبا
يحملن سروات ودينا صلبا

ثم لم يلبث ابنه عبد الملك بن مروان أن قضى على دعوة ابن الزبير في العراق ،
بقتل أخيه مصعب بن الزبير ، واليه على العراق ^(١) ، بعد أن تخلى أهل العراق عن
مصعب ، وغدروا به ، كما فعلوا من قبل بعلى بن أبى طالب وابنيه الحسين والحسن .
وإلى هذا تشير سكتة بنت الحسين وزوج مصعب ، حين خرجت من
الكوفة تريد المدينة بعد مقتل مصعب ، فأطاف بها أهل الكوفة فقالوا : أحسن الله
صحابتك يا بنت رسول الله ، فقالت : والله لقد قتلتم جدى وأبى وعمى وزوجى
مصعبا ، أيتمتمونى صغيرة ، وأرملتمونى كبيرة ، فلا عافاكم الله من أهل بلد .
كما قضى الحجاج بن يوسف الثقفى قائد عبد الملك بن مروان ، على ابن
الزبير ودعوته بالحجاز ، بعد أن حاصر مكة ، وضرب الكعبة بالمنجنيقات ، حينما لاذ
بها ابن الزبير فاحترقت ، وانتهت بذلك دعوة ابن الزبير (سنة ٧٢ هـ) ^(٢) .

وقد ارتكب ابن الزبير عدة أخطاء ، كانت سببا فى القضاء على دعوته ، وتقصير
عمر حزبه ، بل واغتيال حياته ، من أهمها ، إخفاق سياسته فى مصانعة المختار بن عبيد
الثقفى ، مما جعل المختار يخلع طاعته ، ويجهد بيعته بالعراق ، ويرمى فى أحضان الطالبيين
وأىضا اضطهاده للهاشميين ، واشتداد وطأته عليهم ، مما أفقده عطف المحبين

(١) كان مقتله سنة ٧٢ هـ لثلاث عشرة خلت من جمادى الأولى .

(٢) قيل : بايع أهل الحرمين ابن الزبير سنة ٦٤ هـ ، وقتل بمكة سنة ٧٣ هـ . وانظر : العبر للذهبي
١ / ٧٠ ، ٨٢ وفى انتهاء أمر مصعب وابن الزبير ، انظر : ابن الأثير (بيروت) ٤ / ٣٢٣ - ٣٢٨ -
٣٥٧ ، ومروج الذهب (البهية) ٢ / ١١٨ - ١٢٥

لآل البيت ، فقد عمد إلى من بمكة من بنى هاشم فحصرهم في الشعب ، وجمع لهم حطباً عظيماً .. ومنهم محمد بن علي بن أبي طالب ، المعروف بمحمد بن الحنفية ، إرهاباً لهم ليدخلوا في طاعته ^(١) .

يضاف إلى هذا ما عرف به ابن الزبير من البخل ، والإعراض عن استمالة القلوب بالمال ، والشح بالدنيا على سائر الناس ، مما صرف قلوب المؤلفة قلوبهم عنه ، وعلى الأخص قلوب الشعراء وألستهم ، وإلى هذا يشير أبو حرة مولى الزبير ^(٢) :

إن الموالى أمست وهي عاتبة على الخليفة تشكو الجوع والحربا
ماذا علينا وماذا كان يرزؤنا أى الملوك على ماحولنا غلبا

وهكذا لم تمض سنوات قليلة من حكم الأمويين ، حتى اجتمع في الحجاز ، والعراق أحزاب ثلاثة ، كانت تعارض دولة بنى أمية ، وتعمل جاهدة على تقويض ملكهم ، وإزالة دولتهم ، وهي : الشيعة ، والخوارج ، والزبيريون ، فإذا أضيف إليهم حزب بنى أمية ، اتضح لنا مدى التصدع الخطير الذى أصاب وحدة الأمة الإسلامية في هذا العصر .

ولئن كان هذا الانقسام والتصدع نقمة خطيرة على وحدة الأمة الإسلامية ، فإنه من جهة أخرى ، كان نعمة وبركة على الحياة الأدبية بعامة ، والشعرية بخاصة ، في العصر الأموي ؛ حيث تنافست الأحزاب في اصطناع الشعراء ، واتخاذ الشعر سلاحاً قوياً لنشر دعوة الحزب ، وآرائه ، والإشادة بسياسته ، وإظهار تأييده ونصرته ، ومناهضة خصومه ، فتوزع الشعراء على الأحزاب ، وأخذوا ينظمون شعرهم معبرين عن نظريات سياسية جديدة ، وأفكار ومبادئ موروثة ومستحدثة ، فأثروا في الشعر العربي من هذه الناحية ، تأثيراً كبيراً ؛ إذ وجهوه ناحية الحزبية والنشاط السياسى .

وأستأثر الحزب الأموي بأكثر هذا الشعر ، كما فاز بجذب أكبر عدد من شعراء العصر ؛ لسوء بنى أمية ، وضخامة عطائهم ، وطمع الشعراء في جوائزهم .

(١) مروج الذهب (البية) ٩٧ / ٢ - ١٠٠ والخوارج والشيعة ٣١٦

(٢) مروج الذهب (البية) ٩٩ / ٢

بذلك تراخت قبضة ولاة الأمور على الشعر والشعراء ، بعد أن كان الراشدون يتعقبونهم ، ويشددون النكير عليهم ، بخاصة عمر بن الخطاب ، الذى تقدم إلى الشعراء أن لا يشبَّ أحد منهم بامرأة إلا جلده ^(١) ، كما حبس الخطيئة ، وهدده بقطع لسانه لما هجا الزبرقان بن بدر ، حتى ضج الخطيئة ، واعتذر إلى عمر ، فخلى سبيله ، وأخذ عليه العهد ، أن لا يهجو أحدا ، وجعل له ثلاثة آلاف درهم ، على أن يكف عن تناول أعراض المسلمين فى شعره ^(٢) .

كما أخذ النجاشي بمثل هذه الشدة لما هجا بنى العجلان ، بقوله ^(٣) :
 وما سئى العجلان إلا لقيلم خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل
 ولما هجا الشماخ بن ضرار الذيباني ^(٤) بنى سليم ، ونال من أعراضهم ، بقوله مخاطبا امرأة منهم ، تدعى أسماء ^(٥) :
 وإنك من قوم تحن نساؤهم إلى الجانب الأقصى حنين المنائح
 استدعاه الخليفة الراشد عثمان بن عفان من البادية ، وهدده ، لولا أن أقسم الشماخ يمينا مغلظة على منبر رسول الله أنه ما هجاهم .

بعد هذه المراقبة الشديدة للشعر والشعراء فى عصر الراشدين ، صار الخلفاء ، وزعماء الأحزاب فى العصر الأموى يتملقون الشعراء ، ويقربونهم ، ويجزلون العطاء لهم ؛ رغبة فيما يقومون به من دعاية لمذاهبهم ، ودفاع عن وجهات نظرهم ، فانفتح باب هذا اللون من الشعر ، أمام الشعراء ، على مصراعيه ، وتدفقت الدماء فى شرايين الشعر بعد أن كادت تجف ، فى عصر الراشدين ، وعاود الشعراء شياطينهم ، فنهض الشعر من عقاله ، ونفض عن مناكبه غبار الزمن ، وصدا الإهمال .

ولما كان هذا الشعر السياسى معبرا عن آراء الأحزاب ، التى يتحدث باسمها ، ومتأثرا بمذاهبها الدينية والسياسية ، فإنه ينبغى علينا أن نخص كل حزب منها بعرض

(١) الأغاني ٤ / ٩٧

(٢) ديوان المعاني لأبى هلال العسكري ١ / ٣٨ - ٣٩

(٣) المصدر السابق ١ / ١٧٦ - ١٧٧

(٤) انظر خير وشعره فى كتابنا : الشماخ بن ضرار الذيباني حياته وشعره .

(٥) ديوان الشماخ بتحقيقنا ١٠٨ ، وانظر : الشماخ بن ضرار حياته وشعره ٩٣ - ٩٤

موجز ، يلم بالسلمات العامة لأصول سياسته ومبادئه ، ودعائم مذهبه ؛ حتى يتسنى لنا فهم نصوص الشعر التي دارت مضموناتها حول هذه الأحزاب ، ولنقف على مآثره هذه النصوص من عناصر متطورة أو جديدة في حقل الفن الشعر لهذا العصر ، ثم لتبين مدى نجاح هذا اللون من الشعر ، أو قصوره في خدمة السياسة الحزبية التي دار في فلكها .

أ — حزب الشيعة :

قلنا : إن التشيع لعل في حياته كان تشيعاً عاطفياً ^(١) ، لُحْمَتُهُ وَسَدَأُ حُبِّ آل بيت رسول الله ﷺ ، وأنه ظل كذلك إلى أخريات أيام عليّ ، حيث نادى عبد الله بن سبأ — الذي كان يهودياً ثم أسلم ^(٢) — بأن علياً فيه طبيعة إلهية .

ومن الجلي أن هذا الغلو في عليّ ليس إسلامياً ، ولا يقره الإسلام ، وإنما هو دخيل على العقيدة الإسلامية ، متسرب من بعض الديانات السابقة على الإسلام ، ولعلها المسيحية ، فما ذهب إليه ابن سبأ في عليّ ، يشبه ما ذهب إليه بعض الطوائف المسيحية في الشرق ، قبيل الإسلام ، وعلى الأخص من أتباع الكنيسة الملكانية ، من أن للمسيح طبيعتين : إحداهما إلهية ، والأخرى بشرية (أو لاهوتية وناسوتية) ^(٣) .

ولما وصلت مقالة ابن سبأ إلى مسامع على أنكرها أشد الإنكار ، وغضب على ابن سبأ غضباً جعله ينفية إلى ساباط المدائن ^(٤) ، واستتاب بعض أتباعه من غواة

(١) راجع ص ٩ ، ١٢ من هذا البحث ويذهب بعض الشيعة إلى أن التشيع لعل يرجع في نشأته إلى أيام النبي ﷺ وأنه ﷺ هو واضع بذرة التشيع في حقل الإسلام ، مع بذرة الإسلام جنباً وأنه ظل يتعهدا بالعناية حتى تمت وازدهرت في حياته ثم أثمرت بعد وفاته ويستشهدون بأقوال يروونها عن النبي ﷺ وآيات قرآنية يتأولونها ، وعلى هذا فالتشيع لعل كان موجوداً في حياة النبي ﷺ وشيعة على آنذاك هم الذين لازموه ، وجعلوه إماماً كميلغ عن الرسول ، وشارح ومفسر لتعاليمه ، وأسرار حكمه وأحكامه . انظر أصل الشيعة وأصولها ١٠٩ وما بعدها ، ١١٢

(٢) انظر : الفرق بين الفرق ٢٢٥

(٣) انظر : تاريخ الفلسفة في الإسلام ١٥ — ١٦ ، وعقيدة الشيعة ٥٩

(٤) الملل والنحل ٢ / ١١ ، وانظر : الفرق بين الفرق ١٥

الكوفة ، ولكنهم لم يتوبوا فأحرقهم في حفرتين ، وفي ذلك يقول أحد الشعراء : ^(١)

لنرزم بى الحوادث حيث شاءت إذا لم ترمى في الحفرتين

وبعد مقتل عليّ نادى ابن سبأ برجعه ، وأنه لم يمت ، إلى غير ذلك من العقائد المتطرفة المتأثرة بديانته القديمة ، فكان بذلك رأس فرقة عرفت في تاريخ التشيع بالسبئية ، نسبة إليه ، كانت آراؤها من الأسس التي قامت عليها بعض الفرق الغالية ^(٢) من الشيعة كالكيسانية ^(٣) أتباع محمد بن الحنفية ^(٤) « التي تنسب بعلي وذريته علما لدنياً فوق الطبيعة البشرية ، به تنكشف بواطن الوحي الإلهي » ^(٥) .

وعمدة مقالة الكيسانية ، أن الدين طاعة رجل ، يعتقدون فيه الإحاطة بالعلوم كلها ، ومعرفة الأسرار ، من علم التأويل والباطن وغيرها ^(٦) .

وإلى جانب هاتين الفرقتين الغاليتين ، قامت فوق أخرى معتدلة في تشيعها لعلّي وآل بيته ، من أشهرها ، فرقة الزيدية ، أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي .

وأكثية فرق الزيدية ، المعاصرين للدولة الأموية ، لا ينجون تسلسل الإمامة من أب إلى ابن بطريق الوراثة المباشرة ، في أبناء علي والحسن ، والحسين ، وابن الحنفية ، وإنما يعترفون بإمامة كل علوي — دون مراعاة لانتسابه لواحد من أبناء علي الثلاثة — له من الاستعداد الروحي للرياسة الدينية ، ما يعينه على إظهار مواهبه في نضاله من أجل الغاية المقدسة ، وهي إرجاع الحق لآل البيت العلوي ، فيكون بذلك أهلاً لطاعة الجماعة إياه وانضوائها تحت لوائه .

(١) الفرق بين الفرق ٢٣٣

(٢) راجع في هذا : الملل والنحل ٢ / ١١

(٣) هم أصحاب كيسان ، مولى علي بن أبي طالب ، وقيل : بل تلميذ بن الحنفية ، أو مولى له ، وقيل : إنما سموا بالكيسانية لإضافتهم إلى المختار بن أبي عبيد القفي ، وكان اسمه كيسان ، ويكنى أبا عمرة . انظر : مقالات الإسلاميين ١ / ٨٩ — ٩٠ والملل والنحل ١ / ١٩٦ ، والفرق بين الفرق ٢٧ ، وشرح رسالة الخوارج العينية ١٨٢ ، ومزيد تفصيل في : تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي ١٥١ ، ويذهب فلهووزن في كتابه الخوارج والشيعة ٢٣٩ إلى أن السبئية يسمون أيضاً الكيسانية ، ولعله يعني أن الفرقتين اندجتا في فرقة واحدة سميت بهذا الاسم أو ذلك .

(٤) هو أبو القاسم محمد بن علي بن أبي طالب ، وكانت أمه من بنى حنيفة فنسب إليها ، وكانت شيعته تلقبه بالمهدي ، وتزعم أنه لم يمت ، وأنه مختف بجبل رضوى ، توفي عن تسعة وستين عاماً سنة ٨١ هـ

(٥) تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٥

(٦) الملل والنحل ١ / ١٩٦

وهم لا يقولون أيضا بعقيدة العلم الباطني عند الأئمة ، وإن مالوا إلى القول بامتياز الأئمة في فقه الدين ، والمعرفة بالله ، لأخذهم عن جدهم النبي ﷺ الآخذ عن الله . كما أنهم لم يضيفوا على الأئمة من صفات التقديس ما أضفاه غيرهم من الشيعة الغالية على أئمتهم ، فإمامهم يأخذ صورة واقعية للإمام ، الذي يعمل في الحياة ، في نضال مكشوف ، ويكون على رأس الجماعة الإسلامية حاكما وفقها ؛ ومن ثم لو يؤمن هذا الفريق من الشيعة بالتقية ، أو العمل السري .

هذا فضلا عن استمساكهم برأى مؤسس مذهبهم الإمام زيد بن علي في حكمه على خلافة أبي بكر وعمر وعثمان ، فلم يشاركوا غيرهم من الشيعة المتطرفة في لعنهم والبراءة منهم ، ومن سائر الصحابة الذي بايعوهم ، وتركوا عليا ، ولكنهم يأخذون عليهم عدم إدراكهم للمواهب الفذة ، التي امتاز بها علي ، وجعلته يفضل هؤلاء جميعا ، دون أن يحملوهم وزر هذا الخطأ في التقدير ، بإقامة المفضول إماما ، مع وجود الفاضل ؛ ولذا لانجدهم ينظرون إلى الخلفاء الثلاثة الأول نظرة القاهرين الغاصبين ^(١) .

من أجل هذا وغيره ، يمكن أن يعد الشيعة الزيدية ، الفرقة الشيعية المعتدلة حيال أهل السنة .

لعله قد اتضح لنا مما تقدم أن التشيع لعل وآل بيته لم يأخذ طابع المذهبية ، القائمة على أسس ، ومبادئ ، وعقائد إلا بعد وفاة علي بن أبي طالب .

ولسنا هنا في مقام عقائد الشيعة في العصر الأموي ، وإنما يعيننا منها مائرك تأثيرا في الشعر الشيعي ، أو انبعث عنه هذا الشعر ، أو كان له انعكاس فيه ، وجملة ذلك تلك العقائد والنظريات الدينية والسياسية ، التي تكاد تجمع عليها فرق الشيعة عدا أكثرية الزيدية ، وأهمها مايلي :

١ — يتفق الشيعة مع أبي حنيفة ، وأكثر المرجئة في أن الإمامة ^(٢) لا تجوز إلا في

(١) انظر في عقائد فرق الزيدية المعتدلة : مقالات الإسلاميين ١ / ١٣٧ ، والعقيدة والشرعية في الإسلام

(٢) لا يميل الشيعة إلى لقب الخليفة والخلافة ، ويفضلون أن يلقبوا من يدينون له بالطاعة من آل البيت في كل عصر بالإمام ؛ لأن هذا اللقب يدل في معناه على مقام ديني ، ومكانة دينية ملحوظة ، لا توجد في غيره من الألقاب . انظر : العقيدة والشرعية ١٧٥

قريش ؛ لقول النبي ﷺ : « الإمامة في قريش » ^(١) وقوله : « قدموا قريشا ، ولا تَقْدَموها » وأدلة أخرى عديدة ، يوردونها من النص والعقل ^(٢) ، ثم يخالفون كل الفرق والمذاهب في الإمامة — عدا ما ذكرنا — على النحو التالي :

٢ — الإمامة ليست من المصالح العامة ، التي يوكل الأمر فيها للمسلمين ليختاروا من يسوسهم وفق أحكام الله ، وإنما هي ركن من أركان الإسلام ، لا يجوز للرسول ﷺ إغفاله ، وإهماله ، ولا تفويضه إلى العامة ^(٣) ؛ لأنها منصب إلهي كالنبوة ، فكما أن الله سبحانه يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة ، فكذلك يختار للإمامة من يشاء ، ويأمر نبيه بالنص عليه ، إماماً للناس من بعده ، للقيام بالوظائف التي كان على النبي أن يقول بها ، غير أن الإمام لا يوحى إليه كالنبي ^(٤) .

فالإمامة إذن ، ركن من أركان الإسلام ، ولا تكون إلا بالنص ، من الله ورسوله ﷺ على عين الإمام ، واسمه ، وصفاته ، وفي سائر الأعصار لا تخلو الناس من حجة الله فيهم (الإمام) ظاهراً وباطناً ، على حسب استعماله التقية ، والخوف على نفسه .

والذي يبدو أن الشيعة إنما قالوا بالنص من الله ورسوله على الإمام ؛ لأنهم ما كان لهم أن يعتمدوا في القول بإمامة علي وأبنائه على حق القرابة والإرث وحدهما ؛ لأنهما لا ينهضان بهذا الحق ، والإلكان العباس عم النبي ﷺ صاحب الحق وحده — بعد النبي — لأنه عمه ، وعلي ابن عم ، وهو محبوب الإرث في حالة وجود العم ، وفاطمة بنت النبي ﷺ لاحق لها كذلك ؛ لأن الولاية لا تكون للنساء في الإسلام ، ولولدها (الحسن والحسين) من بنى البنات ، وهم لا يرثون مع العم ، لكل هذا قال الشيعة بالنص على الإمام من الله ورسوله ، على اسم الإمام وذاته ، وإن قال بعضهم : يكفي في النص ، الإشارة ، وذكر صفات لا توجد إلا فيه .

٣ — إمامة علي بن أبي طالب نص عليها الرسول ﷺ ، وأوصى له بها فعلي هو صاحب الحق في الإمامة بالنص والوصية .

(١) روى ذلك عن أبي بكر عن النبي ﷺ . انظر الفرق بين الفرق ١٣

(٢) انظرها : في مروج الذهب (البهية) ٢ / ١٩٢

(٣) الملل والنحل ١ / ١٩٥

(٤) أصل الشيعة وأصولها ١٢٨ ، وانظر : عقائد الإمامية ٧١ ، وعقيدة الشيعة ٢٦

والشيعة يستندون في دعوى النص هذه على ما يروى من أن النبي ﷺ قال لعل في عزوة تبوك : « أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لانيبي بعدى » ، وأنه أخذ البيعة له بإمرأة المؤمنين يوم « غدیر حُتم » فقال : « ألا من كنت مولاه فهذا علي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وأدر الحق معه حيث دار » بل إن النبي ﷺ نص على إمامة علي حينما دعا أقرباءه الأذنين ، وعشيرته الأقربين بمكة في أول الدعوة ، فقال : « هذا أخى ووصيى ، وخليفتى من بعدى ، فاسمعوا له وأطيعوا » وعلى يومئذ صبى لم يبلغ الحلم ... إلى غير ذلك من الأقوال المنسوبة إلى الرسول ﷺ والآيات المؤولة على النحو الذى يرتضون ^(١) .

ويعتقد الشيعة أن عليا أوصى بالإمامة إلى ولده الحسن ، ونص عليه بعد أن طعنه ابن ملجم ، وأن الحسن أوصى للحسين ، ويقال : بل أن عليا نص عليهما ، لأنهما شريكاه في آية التطهير ^(٢) .

٤ — الإمامة في ذرية علي من بعده ، تتسلسل منهم بنص الإمام السابق على لاحقه ، ووصيته له ، ولا تخرج عنهم إلى سواهم ، وإن كانت فرق الشيعة قد اختلفت في تعيين الأئمة من ذرية علي ، أهم من نسل الحسن ؟ أم الحسين ؟ أم هى بعدهما في أخيهما لأبيهما محمد بن الحنفية ؟

٥ — يجب على المسلمين أن يولوا عليهم صاحب النص والوصية في كل عصر ، وكل من يمنعه حقه ، في الإمامة مخطئ عند معتدلى الشيعة — كالزيدية — وكافر عند الغلاة منهم ، يتبرعون منه ؛ ولذا حكم غلاة الشيعة بكفر الصحابة جميعا ؛ لأنهم بايعوا أبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، وتركوا عليا ، صاحب الحق المنصوص عليه ، والموصى له من قبل النبي ﷺ ، كما كفروا بنى أمية وأنصارهم ، لاغتصابهم الإمامة من ذرية علي .

٦ — الإمام في كل عصر هو المصدر الشرعى الوحيد للتوجيه والإشارد الدينى في الجماعة الإسلامية لأنه وحده — بمقتضى الاختيار الإلهى ، وصفة العصمة التى وهبها الله إياها — قد خول له ووكل إليه تعليم جماعة المسلمين ، وتوجيههم ، في كافة شئونهم

(١) انظر : عقائد الإمامية ٧٨ ومروج الذهب (البية) ٢ / ٤٩ ، ٦١ ، وأصل الشيعة وأصولها ١١٣

(٢) أصل الشيعة وأصولها ١٣٦ ، وانظر : مروج الذهب (السعادة) ٢ / ٤٢٥ ، وعقيدة الشيعة ١٠٠

الدينية ، وهذه نتيجة ضرورية ترتبت عن العدالة الإلهية ، التي اقتضت أن لا يحرم أى جيل من هذا التوجيه والارشاد .

وإذن ، فوجود إمام لكل عصر أمر ضرورى لاغنى عنه ؛ لأن الغاية من التشريع السماوى ، والتوجيه الإلهى ، لا تتحقق دون إمام حائز لمثل هذه الهداية ، وهذه العلوم الربانية ، فالإمامة نظام واجب ، كما يجب أن يكون الإمام أعلم الخلق ؛ لأنه يقيم حدود الله ، وإلا وضع أحكام الله فى غير مواضعها ^(١) .

وعلم الإمام يتلقاه من طريق النبى أو الإمام من قبله ، وإذا استجد شئ لابد أن يعلمه من طريق الإلهام بالقوة القدسية التى أودعها الله تعالى فيه ، فإن توجه إلى شئ ، وشاء أن يعلمه علمه على وجهه الحقيقى ، لا يخطئ فيه ، ولا يشتبه ، ولا يحتاج فى كل ذلك إلى البراهين العقلية ، ولا إلى تلقينات المعلمين ، فقوة الإلهام عند الإمام قوة قدسية ، تبلغ الكمال فى أعلى درجاته ، وغلاة الشيعة يثبتون العلم للإمام إرثا ، بغير حاجة إلى تعلم ، ومنهم من زعم أن النبى ﷺ بث عليها علوما ، كان يخفيها عن جمهور صحابته ؛ لأنهم لم يكونوا أهلا لها ، وقد توارث العلويون هذه العلوم ^(٢) .

٧ — الأئمة كالأنبياء معصومون وجوبا من الكبائر والصغائر ، ومن الفواحش ماضهر منها وما بطن ، من سنّ الطفولة إلى الموت ، عمدا ، أو سهوا ، كما أنهم معصومون من السهو والخطأ والنسيان ، لأن الأئمة حفظة الشرع ، والقوامون عليه ، حالهم فى ذلك حال النبى ^(٣) ؛ ولأن الإمام لو لم يكن معصوما ، لم يأمن أن يدخل فيما يدخل فيه غيره من الذنوب ، فيحتاج إلى أن يقام عليه الحد ، كما يقيمه هو على غيره ، فيحتاج الإمام إلى إمام ... وهكذا إلى غير نهاية ، ولم يؤمن عليه كذلك أن يكون فاسقا فاجرا فى الباطن ^(٤) ، والفسق غير جائز عليه ظاهرا وباطنا ، كما لا يجوز على النبى .

٨ — التقية : وهى فى مفهومها العام تعنى : الخيطة والحذر ، وعند الشيعة :

(١) العقيدة والشرعة ١٧٦ ، ومروج الذهب ٢ / ٩٢

(٢) عقائد الإمامية ٧٣ ، والعقيدة والشرعة ١٧٥ ، ومقالات الإسلاميين ١ / ١١٧ ، وأصل الشيعة

وأصولها ١٤٦

(٣) عقائد الإمامية ٧٣ ، وعقيدة الشيعة ٣١٥

(٤) مقالات الإسلاميين ١ / ١١٦ ، ومروج الذهب (الشيعة) ٢ / ١٩٢ ، وانظر : الملل والنحل ١ /

١٩٥ ، وأمالى المرتضى ٢ / ٣٤٨

مكاتمة المخالفين لهم ، وترك مظاهرتهم ، وستر اعتقاداتهم ، وأعمالهم المختصة بهم عنهم ^(١) . وهذا يعنى أن للشيعة أن يظهر الولاء والموافقة لذوى السلطان . المخالفين لعقيدتهم ، وستر مايؤمنون به عنهم ، حفاظا على سلامة الحياة والمال والعرض ، من بطش أعدائهم والتقية من هذا الجانب ، تكتسب مشروعيتها من حق كل إنسان فى حماية نفسه وماله وعرضه إذا أحس بالخطر عليها ، أو على شىء منها ، بسبب إظهار معتقده ، أو التظاهر به ، حيثئذ يجب عليه أن يحتذى بالتقية ، ولذا كانت هذه العقيدة مبدءا من مبادئ الشيعة — عدا الزيدية — وعقيدة من عقائدهم الأساسية ، وواجبا ضروريا ، يجب على كل متشيع أن يراعيه من أجل حماية نفسه ، وحماية الجماعة التى ينتمى إليها .

والحق أن المخاطر التى كانت تهدد دائما الأئمة وشيعتهم فى العصر الأموى ، هى التى هدتهم إلى القول بهذه العقيدة ، ذات الصبغة الأخلاقية ، التى ترتدى ثياب المصانعة ، والمداجاة ، وبمقتضى عقيدة التقية ، لم يكن الشيعة « يستطيع فحسب أن يخفى مذهبه ، وأن يتكتم عقيدته ، بل يجب عليه أن يفعل ذلك ، وأن يبالغ فى الإخفاء والكتمان ، وعليه فى البلد التى يسودها خصومه أن يتكلم وأن يعمل كما لو كان واحدا منهم ؛ حتى لا يجلب الخطر ، والاضطهاد لأصحابه ^(٢) » ، وخاصة فى عصر كان يكفى فيه أن يقال : هذا شيعى ليلاق حتفه ، على يد أعداء آل البيت من الأمويين .

على أن لعقيدة التقية جانبا آخر ، تفرضه ظروف السياسة ، ويقتضيه حرص الشيعة على حق الأئمة ، وتمكينهم من هذا الحق ، بالعمل على تقويض دولة الغاصبين ، وتقوم التقية بدور هام فى هذا المجال ، حيث تمكن الشيعة من العمل فى الخفاء ضد أعدائهم ، فتكون بذلك ضربا من التعمية على أصحاب السلطان ، إلى أن تواتى الفرصة للثوب عليهم ، والشيعة بهذا الاعتبار يأخذون طابع الجماعات السرية ، ولكنهم ينفون عن أنفسهم أن يكون هذا الطابع بقصد الهدم والتخريب ، وإشاعة الفوضى ، وإنما يرون فيه نصرة للدين ، وتمكينا للحق ، وخدمة للإسلام ؛ لأن تمكين صاحب الحق من إمامة المسلمين ، فيه استصلاح لحالهم ، وجمع لكلماتهم ، ولم لشعثهم ، وإقامة لدينهم ^(٣)

(١) عقيدة الإمامية ٨٧

(٢) العقيدة والشرعية ١٨٠

(٣) عقيدة الإمامية ٨٦ — ٨٧

وعلى أساس من هذه العقيدة ، حملوا بيعة على بن أبى طالب ، لأبى بكر وعمر وعثمان .

٩ — المهديّة ، والرجعة : المهديّة والرجعة عقيدتان من العقائد الجوهرية في نظرية الإمامة لدى الغالبية العظمى لفرق الشيعة ، ولا تختلف هذه الفرق إلا في هوية الإمام الخفي ، الذي قدرت له العودة ، كما تختلف في قائمة الأئمة ، التي يؤلف الإمام المختفي واحداً منها .

والمهديّة : نسبة إلى عقيدة المهدي المنتظر ، ويطلق عليه أحيانا ، قائم الزمان ، أو إمام الوقت ^(١) ، وهو الإمام الذي يظهر ، أو يعود ، فيقوض ملك الظالمين ، ويملاّ الأرض عدلا ، كما ملك جورا ، وهو عند بعض الشيعة إمام من آل البيت حتى لم يمّت ، ولكنه اختفى من وجه الظلم ، ويظل محتفيا إلى أن تتاح له الفرصة للظهور واسترداد الحق ، وإقامة العدل ^(٢) ، وعند بعضهم أنه إمام يبعثه الله بعد فترة من موته في الدنيا ، ليملاّ الأرض عدلا ، ويخلصها من الغاصبين الظالمين وهم يقولون : أى غرابة واستحالة في العقول أن سيحيى الله سبحانه هذا الإمام بعد موته ؟ ولهم حجج وأدلة من النقل والعقل على جواز ذلك ^(٣) .

وكان زعماء الشيعة يشيرون دائما أن هذا المهدي المنقذ سيأتى ليخلص الناس مما هم فيه من ظلم وعذاب .

وتختلف فرق الشيعة في تعيين هذا المهدي ، فالسبئية ترى أنه الإمام على ، وأنه سيرجع ؛ لأنه حتى لم يمّت ^(٤) ، ولن يموت حتى يملأ الأرض عدلا .

والكيسانية تعتقد أن محمد بن على (ابن الحنفية) هو المهدي ، فهو حي مقيم بجبل رضوى ، وسيرجع إلى الدنيا فيملؤها عدلا ^(٥) .

(١) العقيدة والشرعة ١٩٦ ، ١٩٧

(٢) عقيدة الإمامية ٨٢

(٣) انظر : أصل الشيعة وأصولها ١٠٠ ، ١٣٧ — ١٤١ ، وعقيدة الإمامية ٩ ، ٨٣

(٤) راجع : مقالات الإسلاميين ١ / ٨٥

(٥) الحق أن الكيسانية اختلفوا في موت ابن الحنفية ، فمنهم من قطع بموته ، وقال برجعته ، ومنهم من ذهب إلى أنه لم يمّت ، وأنه حتى محتف بجبل رضوى ؛ دخل إلى شعب فيه ، ومعه جماعة من أصحابه ، فلم يعرف لهم خبر ، ولكنه سيظهر مهديا مصلحا . انظر : مروج الذهب (البية) ٢ / ١٠١

ومما تجدر الإشارة إليه أن فكرة الرجعة هذه ، ليست من وضع الشيعة ، أو من عقائدهم التي اقتصوا بها ، وإنما هي من الأفكار الدينية التي تسربت إلى الإسلام من الديانيتين السابقتين عليه ، نعتى اليهودية والمسيحية « فعند اليهود والنصارى أن النبي إيليا قد رفع إلى السماء ، وأنه لابد أن يعود إلى الأرض آخر الزمان ؛ لإقامة دعائم الحق والعدل ، ولاشك أن إيليا هو النموذج الأول لأئمة الشيعة المختفين الغائبين ، الذين يحيون ، لا يراهم أحد ، والذين سيعودون يوما مهديين منقذين للعالم » (١) .

وقد كثر الحديث في عقيدة المهديّة ، وطال نقاش المسلمين فيها ، ورويت عن النبي ﷺ أخبار تتحدث عن هذا المهدي المنتظر من آل البيت ، وتصور صفاته على وجه الدقة (٢) ، هذه الأخبار والروايات ، لم تجد لها مكانا في مصنفات الحديث المتشددة في ضبط الرواية ، وإنما أخرجتها الكتب الأخرى ، التي كانت أقل تشددا في صحة تخرج هذه الأحاديث (٣) .

وإيا ما كان الأمر في عقيدة المهديّة عند الشيعة ، وغيرهم ، فقد شاعت هذه العقيدة في الشعر الشعبي ، صفة لكل ممدوح من أئمة آل البيت .

ومن الطريف أن برّيق هذه العقيدة قد دفع بعض أنصار البيت السفياي من الأمويين إلى القول بمهدي من بنى أئى سفيان بن حرب بن أمية .

فقد أورد أبو الفرج الأصفهاني رواية تذهب إلى أن خالد بن يزيد بن معاوية — وكان يوصف بالعلم — هو الذي وضع خبر السفياي ، وكبره ، وأراد أن يكون للناس فيه طمع ، حين غلبه مروان بن الحكم على الملك ، وتزوج أمه ؛ إمعانا في إذلاله .

(١) العقيدة والشرعة ١٩٢

(٢) أفرد ابن ماجة في سننه بابا خاصا في خروج المهدي ، وأنه من أهل البيت ٢ / ١٣٦٦ ، وكذلك فعل أبو داود في سننه ٤ / ١٠٦ حيث خصص بابا للأخبار الواردة فيه . وكذا فعل الترمذى في جامعه ، حيث خصص بابا لما جاء فيه . انظر تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى ٦ / ٤٨٤ .

(٣) تولى ابن خلدون الرد على فكرة المهديّة ، والأخبار المروية فيها . انظر : مقدمة ابن خلدون ٣١١ — ٣٣٠ وانظر تعليق رونلدسن على عقيدة المهديّة عند الشيعة في كتابه : عقيدة الشيعة ٢٣٠ وما بعدها

ويلحق أبو الفرج على هذه الرواية بأنها وهمٌ ؛ لأن السفياني قد رواه غير واحد ، وتتابعت فيه رواية الخاصة والعامة ^(١) . أى أن أبا الفرج يميل إلى أن فكرة السفياني حقيقة تتحدث عنها الروايات ، وليس اختراعا من وضع خالد بن يزيد .

وهذه الفكرة ، على القول برواجها أيام الأمويين ، كانت خاصة بالدعوة إلى إعادة البيت السفياني إلى الحكم ، الذى انتزعه منه بنو مروان الأمويين .

على أن هذه الفكرة لم يلبث أن ظهرت بعد سقوط الدولة الأموية ، فقد ظهر من يدعى أبو محمد السفياني (ابن عبد الله بن يزيد بن معاوية) ، وهو الذى خرج على أئى العباس السفاح ، الخليفة العباس الأول ، فى جمع من أربعين ألفا ، بنواحى قنسرين وحمص فى ذى الحجة سنة ١٣٢ هـ ، فقاتلهم عمه عبد الله بن على ، وهزمهم ، وفر السفياني هائما على وجهه ، مضيعا ومشتتا ، حتى لحق بأرض الحجاز أيام أئى جعفر المنصور ، فأخذه عامل المنصور وقتله ، وبعث برأسه إليه ، وقد أئى أتباعه أن يصدقوا وفاته ، وظلوا يتربون عودته ، ليجدد أيام دولة بنى أمية ، ويعيد عز السلطان للأمويين ^(٢) .

وهكذا ظهرت الحاجة إلى مهدى سفياني ، بعد أن ثلَّ عرش بنى أمية أيضا ، إحياء للأمل فى استعادة السلطان للبيت الأموى ، من يد العباسيين ، وظلت هذه الفكرة تتراءى من حين لآخر ، فيقال : إنه فى عهد المأمون تعرض له رجل من الشام ، وقال له : ياأمير انظر لعرب الشام ، كما نظرت إلى عجم أهل خراسان ، فكان مما أجابه به المأمون ، مبينا اتجاهات الولاء عند قبائل العرب بالنسبة له : « وأما قضاة فسادتها تنتظر السفياني وخروجه فتكون من أشياعه ^(٣) » .

من هذا نرى أن عقيدة المهديّة كان لها بريق سياسى أخاذ ، ساعد على انتشارها عند الشيعة ، وعند خصومهم أيضا ، إن حقا ، وإن باطلا ، وإلى هذا يشير أستاذنا

(١) الأغاني ١٦ / ٨٥ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١٠ / ٥٢ ، وانظر : تاريخ الشعوب ١ / ٢٠٦ .

(٣) تولى ابن خلدون الرد على فكرة المهديّة ، والأخبار المروية فيها . انظر : مقدمة ابن خلدون ٣١١ — ٣٣٠ وانظر تعليق رونلدىسن على عقيدة المهديّة عند الشيعة فى كتابه : عقيدة الشيعة ٢٣٠ وما بعدها .

الدكتور أحمد الحوفى فى قوله (١) : « يظهر أن بنى مروان خشوا العقيدة فى المهدي ، لأنه من الشيعة وسيعيد الحكم إليهم ، وتخوفوا العقيدة فى السفينى ؛ لأنه من بنى سفين ، وسيرجع الحكم إليهم ، فجعل بعض شعرائهم يدعون أن القائم بالحكم من بنى مروان هو المهدي الذى ينتظره الناس ؛ ليقتضوا بالواقع على الأمل فى مهدي أو سفينى » .

ولقد كان لعقيدة المهدي صدى قوى فى شعر الشيعة ، وفى شعر الأمويين — تأثرا يبريق هذه العقيدة الشيعية — كما نرى ، إن شاء الله .

ب — الحزب الأموى :

من خلال العرض السابق لأهم عقائد الشيعة ، يلاحظ أن الشيعة حرصوا على إقامة حق آل (البيت السياسى على أسس دينية ، تجعل من هذا الحق ضرورة ، تملئها حاجة الدعوة إلى استمرار الهدى والارشاد الإلهى ، وتقتضيها العدالة الإلهية ؛ حتى ليبدو الجانب الدينى ، أو الصبغة الدينية فى عقائدهم ، غالبية على الجانب السياسى ، متقدمة عليه ، وإن كان الغرض السياسى هو مهمهم الأكبر من وراء كل هذا ؛ ولذا أحاطوه بهذه القواعد ، التى أجهدوا أنفسهم فى إقامة الأدلة على صوابها ، من نصوص القرآن ، التى تأولوها ، أو من الأخبار ، والآثار المروية عن الرسول ، التى فهموها فهما خاصا ، أو قاموا بوضعها ، وأسباغ صفة الشرعية عليها .

ولئن كان المتشيعون لآل البيت ، قد أعانتهم قرابة الأئمة من الرسول ﷺ على محاولة صبغ دعاوهم بهذه الصبغة الدينية الشرعية ، فإن بنى أمية لم تهبىء لهم ، أن يقيموا دعوى خلفائهم فى حق الخلافة على أدلة تستند إلى نص من شرع ، أو رأى من دين ، أو منطق من عقل ، فدعاوهم السياسية ، لم تقم على شىء من هذا فى الواقع ، على خلاف مارأينا عند الشيعة ، وماسنرى عند الخوارج أيضا ؛ لذا كان الأمويون « يضعون نصب أعينهم المصلحة الدنيوية للحكومة الإسلامية ، ويجعلونها فى المحل الأول » (٢) ؛ ولذا غلب على حكومتهم الطابع الملكى ، لا الدينى .

(١) أدب السياسة فى العصر الأموى ٧٢ .

(٢) العقيدة والشرعية ١٧٦ .

خلاصة هذا ، أن بنى أمية اغتصبوا الخلافة لأنفسهم « ضد شرعية آل على ، في نظر الشيعة ، وضد شرعية الإمام المختار من كل الجماعة الإسلامية ، على مذهب الخوارج ، إذ الحكم الأموى ، لا يستند إلى شرعية الوراثية في الملك ، ولا إلى ديمقراطية الانتخاب العام ، بإجماع الأمة لأصلح الناس للإمامة ، وإنما هو حكم القوة الباطشة الماكرة معا ، الخلو من كل سبب ، أو سند ، يعترف به العقل ، أو تدعو إليه التقاليد والعرف » (١) .

أى أن الخلافة الأموية قامت على : الغضب ، والحيلة ، والقهر . ومع ذلك فقد أبى أنصار بنى أمية ، والمروجون لدعاواهم في حق الخلافة إلا أن يضيفوا على خلافتهم صيبة دينية ، ردها كثير من شعرائهم ، وتخلص هذه الصيغة ، فيما يلي :

١ — أنهم خلفاء الله ورسوله في الأرض ، اختارهم الله ، واصطفاهم لولاية أمر المسلمين ، وليس بعد اختيار الله اختيار ، ولا فوق إرادته إرادة ، فهم يتخذون من واقع أمرهم ، ويقين سيطرتهم على الخلافة دليلا على حقهم فيها ، يستمد شرعيته من إرادة الله العادلة ، وقضائه الذى لا يرد ، إذ لا يقع في ملك الله إلا ما يريد ، فهو احتجاج بالقضاء والقدر ، كما نرى .

ولأن الله قبض الخلافة لهم ، واختارهم لها ، فقد وفق الأمة إلى أن تبسط يدها إليهم بالبيعة ، رغبة فهم ، وهوى إليهم ، كما وفقهم إلى القتال عليها بحقها ، فأدركوها (٢) . وليس من العسير مناقشة هذه الحجة ، وبيان زيفها ، وتهافتها ، بالأدلة الشرعية ، والعقلية أيضا ، ويكفي في هذا المقام أن نقول : إن كل جبار ظالم ، يملك القوة ، وتتاح له وسائل القهر ، يستطيع أن يدعى — بالباطل — الاحتفاء بقضاء الله وقدره .

٢ — وإذا كانت خلافتهم تستند إلى إرادة الله ، فهذا يعنى أن طاعتهم واجبة ونصرتهم مفروضة على الأمة ؛ لأن طاعتهم من طاعة الله الذى اختارهم ، واصطفاهم لولاية الأمر ، عملا بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ ، وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ (٣) ، وطاعة خصومهم من طاعة الشيطان .

(١) مقدمه المترجم لكتاب : الخوارج والشيعة ص (ب).

(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة ١ / ٥

(٣) سورة النساء ٤ / ٥٩

٣- الخارجون عليهم ، النابذون لطاعتهم عصاة ، منشقون على الجماعة ، بغاة ، تجب مجاهدتهم ، ويحل قتالهم وقتلهم ، بل قد يحكمون بكفرهم .

٤- وقد يضيفون إلى هذه الدعاوى ذات الصبغة الدينية ، دعوى حقهم في وراثة الخليفة عثمان بن عفان الأموى ، لحل قرابتهم منه .

ولئن كانت حجج الأمويين في دعوى الخلافة ضعيفة ، فإن دعواهم وراثة الخلافة عن عثمان لى أوهى حججهم جميعا ؛ ذلك أنهم تصدوا لآل البيت ، منكرين عليهم أن قرابتهم من الرسول توجب لهم حق إرث الخلافة عنه .

فقد ناظر معاوية بن أبى سفيان ، عبد الله بن عباس ، حول دعوى آل البيت هذا الحق ، فقال (١) : يابنى هاشم ، ألا تحذوثى عن ادعائكم الخلافة دون قريش ، بم تكون لكم ؟ أبالرضا بكم ؟ أم بالاجتماع عليكم دون القرابة ؟ أم بالقرابة دون الجماعة ؟ أم بهما جميعا ؟ فإن كان هذا الأمر بالرضا والجماعة دون القرابة ، فلا أرى القرابة أثبتت حقا ، ولا أسست ملكا ، وإن كان بالقرابة ، دون الجماعة والرضا ، فما منع العباس عم النبى ﷺ وارث النبى ﷺ وساقى الحجيج ، وضامن الأيتام ، أن يطلبها ؟ وقد ضمن له أبو سفيان بنى عبد مناف ، وإن كانت الخلافة بالرضا والجماعة والقرابة جميعا ، فإن القرابة خصلة من خصال الإمامة ، لا تكون الإمامة بها وحدها ، وأنتم تدعونها بها وحدها (٢) .

ولكننا نقول : أحق قريش بها من بسط الناس أيديهم إليه بالبيعة عليها ، ونقلوا أقدامهم إليه للرغبة ، وطارت إليه أهواؤهم للثقة ، وقاتل عليها بحقها فأدركها من وجهها ... انظروا ، فإن كان القوم أخذوا حقكم فاطلبوهم ، وإن كانوا أخذوا حقهم فسلموا إليهم ، فإنه لا ينفعكم أن تروا الأنفسكم مالا يراه الناس لكم .

فقال ابن عباس : ندعى هذا الأمر بحق من لولاحقه لم تقعد مقعدك هذا ، ونقول : كان ترك الناس أن يرضوا بنا ، ويجتمعوا علينا ، حقا ضيعوه ، وحظاً حرموه ... فإما الذى منعنا من طلب هذا الأمر بعد رسول الله ﷺ فعهد منه إلينا ، قبلنا فيه قوله ،

(١) عيون الأخبار ١ / ٥ - ٦

(٢) سبق أن ذكرنا أنه من أجل هذا قال الشيعة بالنص والوصية . راجع ص ٢٥ من هذه الدراسة .

ودنا بتأويله ، ولو أمرنا أن نأخذه ، على الوجه الذى نهانا عنه لأخذناه ، أو أعذرنا فيه ، ولأيعاب أحد على ترك حقه ، إنما المعيب من يطلب ماليس له ، فأما القرابة فقد نفعت المشرك ، وهى للمؤمن أنفع ، قال رسول الله ﷺ للعباس : أنت عمى ، وصنو أبى ، ومن أبغض العباس فقد أبغضنى ، وهجرتك آخر الهجرة ، كما أن نبوتى آخر النبوة ، وقال لعمه أبى طالب عند موته : يا عم ، قل لا إله إلا الله ، أشفع لك بها غدا ، وليس ذلك لأحد من الناس .

ج : حزب الخوارج .^(١)

يلتقى حزب الخوارج مع حزب الشيعة فى الأهمية ؛ من حيث أنهما أقدم الفرق الدينية والسياسية فى تاريخ الإسلام ، ومن حيث تأثيرهما البارز فى أحداث هذا التاريخ ، بخاصة فى العصر الأموى ، الذى نؤرخ لحياة الشعر فيه .

على أن هناك آصرة أخرى تربط بينهما فى تاريخ نشأة كل منهما ، إذ كان مؤسسوا حزب الخوارج ورجاله الأول من بين أنصار على بن أبى طالب ، إمام الشيعة الأول . وقد أشرنا من قبل إلى ظروف مولد هذا الحزب^(٢) ، ونضيف هنا أن الخوارج ظهوروا فى شكل حزب قائم على مبادئ سياسية ودينية واضحة ، تتعارض تماما مع قواعد حزب الشيعة ، ومبادئه ، بل ومع سائر المذاهب الإسلامية الأخرى .

وكان جماع أمر الخوارج : العودة إلى الكلمة الأصيلة للدين ، كما يعبر عنها ، دستوره الأول ، وكتابه المقدس ، وهو القرآن الكريم ، دون تأويل أو ترخص بل بتشدد فى الفهم لا يقبل المساومة والاتواء ، فهم دعاة الطاعة العمياء لكل ما جاء به القرآن ، وعبر عنه ، وما أتى به بنى الإسلام من قواعد وأحكام ، وطرائق سلوك ، أى أنهم يتمسكون

(١) قيل : سموا بذلك ؛ لخروجهم على إمامهم على الذى بايعوه ، وقيل : بل لخروجهم على الجماعة ، لتكفيرهم من سواهم من فرق المسلمين ، واعتبار دارهم دار حرب ، وذهب الشهرستانى فى الملل والنحل (١ / ١٥٥) إلى أن هذه التسمية تطلق على كل من خرج على الإمام الحق ، الذى اتفقت الجماعة عليه فى كل زمان . وانظر : مقالات الإسلاميين ١ / ٦٤ ، وهم يطلقون على أنفسهم اسم (الشراة) أى الذين باعوا أرواحهم دفاعا عن دين الله ، أخذوه من قوله تعالى فى سورة البقرة (٢ / ٢٠٧) : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله » أى يبيع ، ويسمون أيضا (الحرورية) نسبة إلى قرية حروراء القريبة من الكوفة ، والتى خرجوا إليها عقب مفارقتهم جيش على . كما سموا (المحكمة) لما كان شعارهم عند خروجهم ، (لاحكم الا لله) . انظر : مقالات الإسلاميين ١ / ١٩١ والخوارج والشيعة ٦

(٢) راجع ص ١٠ — ١١ من هذه الدراسة .

بعمود الدين ضد جميع التيارات ، والفرق والأحزاب ، التي تبدو لهم ، قد انحرفت عنه ، أو تأولت ، أو ابتدعت فيه ، ولذا كان مذهب الخوارج مغايراً لكل المذاهب الأخرى ، كما ذكرنا من قبل .

ولعل مما يميز الخوارج في العصر الأموي ، عن غيرهم من الأحزاب ، كثرة تفرقهم واختلافهم ؛ ولذا تعددت فرقهم ، فبلغوا نحو من عشرين فرقة — فيما يقال ^(١) .

وفي العصر الأموي اشتهر من الخوارج فرعان ^(٢) :

فرع بالعراق وماحولها ، كان أهم مركز لهم (البطائح) بالقرب من البصرة ، وهؤلاء استولوا على كرمان وبلاد فارس ، وهددوا البصرة ، وتولى قتالهم المهلب بن أبي صفرة — القائد الأموي المشهور — وعانى في قتالهم الشدائد والأهوال سنين طوال ، وأشهر زعمائهم : نافع بن الأزرق ، وقطري بن الفجاءة .

وفرع بالجزيرة العربية ، استولوا على الإمامة ، وحضر موت ، واليمن ، والطائف ، ومن أشهر زعمائهم : أبو طالوت ، ونجدة بن عامر الحنفى ، وأبو فديك .

أما فرقهم في هذا العصر الذى نتحدث عنه ، فأشهرها أربع : ^(٣) .

الأزارقة : أتباع نافع بن الأزرق ، وهؤلاء أكثر فرق الخوارج تشدداً ، إذ يكفرون من عداهم ، فلا يقبل منه إلا الإسلام (أى القول بمقاتلتهم) أو السيف ، كما يستحلون قتل نساء مخالفهم وأطفالهم ، ويبيحون الغدر بأعدائهم ، ويكفرون القعدة ^(٤) عن القتال مع قدرتهم عليه .

الصفورية : أتباع زياد بن الأصفر ، وهم أقل غلوا وتشددوا في عقائدهم وآرائهم من الأزارقة ، وإن اتفقوا معهم في كثير من آرائهم المتطرفة .

(١) انظر الفرق بين الفرق ١٥ ، ١٧

(٢) انظر : فجر الإسلام ١ / ٣٠٢

(٣) انظر في هذه الفرق ، وعقائد كل فرقة : الملل والنحل ١ / ١٥٤ وما بعدها ، ومقالات الإسلاميين ١ / ١٥٦ وما بعدها ، والفرق بين الفرق ٥٦ وما بعدها ، والخوارج والشيعه ٧٢ ، ٧٥ ، ١٣٧ — ١٣٨ ، وانظر في فرق الخوارج أيضاً وأهم زعمائهم : الكامل للمبرد (الأزرعية) ٣ / ١٦٣ وما بعدها .

(٤) القعدة : جمع قاعد ، وهو عند الخوارج : كل خارجي يقعد عن قتال المخالفين مع قدرته عليه .

النجدات: أتباع نجدة بن عامر الحنفى ، وهم معتدلون فى آرائهم ، يعذرون المجتهد المخطئ ، وإن استحل محرما ، أو أحل حراما ، خلافا لغيرهم من فرق الخوارج .
 الإباضية: أتباع عبد الله بن يحيى بن أباض التميمى ، وهؤلاء لا يغالون فى الحكم على مخالفهم كالأزارقة .

فالفرقتان الأوليان متطرفتان متشدتان فى عقائدهما وأفكارهما ، ومواقفهما من المخالفين ، والأخريان معتدلتان فى كل ذلك .

وهذه الفرق الأربع هى الأصل الذى تفرعت منه كل فرق الخوارج فيما بعد . وكانت لهذه الفرق جولات حامية ، ولقاءات دموية مع كل من العلويين والزييريين كما دوخوا جيوش بنى أمية ، وظلوا شوكة فى جنب الدولة الأموية ، حتى أوشكوا أن يقوضوا أركان ملك بنى أمية .

أهم نظرياتهم السياسية والدينية :

١ — تذهب جميع فرق الخوارج إلى أن الخلافة ليست حقا مقصورا على قريش ، ولا على العرب ، وإنما هى اختيار من الأمة ، وحق لكل مسلم ، يتولاها من المسلمين خيرهم ، تقوى ، ووعا ، وعلما ، وزهدا ...

ذلك أن الله عز وجل لم ينص على رجل بعينه ، فاختيار الخليفة مقوض إلى الأمة ، تختار أصلحها لهذا المنصب ، سواء أكان قرشيا أم غيره ، من أهل الملة ، وأهل العدالة والإيمان ، دون مراعاة لنسب أو غيره ، وواجب على أهل كل عصر أن يختاروا من بينهم من يلى أمرهم ، ينفذ فيهم وبينهم أحكام الله ، ويذهب النجدات منهم خاصة إلى عدم وجوب الخلافة ، أو الإمامة ، وأن الأمة إن عدلت ولم يكن فيها فاسق ، لم تحتاج إلى إمام ^(١) .

ونظرية الخوارج فى الخلافة تخالف — كما نرى — نظرية الشيعة القائلة بانحصار الإمامة فى بيت النبى ، على وآله ، كما تخالف مذهب أهل السنة القائل بقصرها على قريش ^(٢) .

(١) انظر مزيدا من التفصيل فى : العقيدة والشرعة ١٧١ ، ومقالات الإسلاميين ١ / ١٨٩

(٢) راجع مقالات الإسلاميين ١ / ٢٤ ، والفرق بين الفرق ١٣

٢- وجوب الخروج على السلطان الجائر وعزله ، فإن امتنع جاز قتاله وقتله ، ومن هنا تميز الخوارج في العصر الأموي بنزعة حرية ، جعلتهم في صراع دائم ، وجهاد يكاد يكون مستمرا مع بنى أمية طوال عصر حكمهم .

٣- الخليفة الشرعى هو الذى يختاره المسلمون عن طريق الشورى ، والاختيار الحر ، أيا كانت أسرته ، أو قبيلته ، أو جنسه .

٤- ليس للخليفة الذى يختاره المسلمون ، أن يتنازل عن الخلافة لأحد ، وله أن يعتزل بعد اختياره إن قام له عذر يقتضى ذلك ، دون أن يعهد لأحد ، أو يتنازل له عنها .

٥- الخوارج جميعا يثبتون خلافة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، ويؤمنون بشرعيتها ، كما يصححون خلافة عثمان رضى الله عنه في السنوات الست الأولى من خلافته ، ويكفرونه بعدها ^(١) ؛ للأحداث التى أحدثها ، وخالف بها سيرة أبى بكر وعمر ، ويقولون بإمامة على قبل قبوله التحكيم ، ويحكمون بكفره ، وكفر أتباعه بعد التحكيم ؛ لقبولهم تحكيم الناس ، وإلقاء السلاح ، وحكم الله يقضى بمجالدته الفئة الباغية (معاوية وأتباعه) حتى تفتىء إلى أمر الله .

أما معاوية وأنصاره فهم كفار عندهم ؛ لأنهم بغاة ، يجب قتالهم ، ويحل قتلهم ، أى أنهم ذهبوا إلى تكفير من عداهم من المسلمين ، لقبولهم التحكيم ، سواء على وأنصاره ومعاوية وأتباعه ، فهم جميعا مشركون « السيرة فيهم ، السيرة في أهل حرب رسول الله ﷺ الذين حاربوه من المشركين » ^(٢) .

وكل ماتقدم من آراء ومبادئ تغلب عليها الصبغة السياسية ، بيد أن الخوارج لم يلبثوا — منذ أيام عبد الملك بن مروان (تولى عبد الملك الخلافة في رمضان سنة ٦٥ هـ) — أن مزجوا تعاليمهم السياسية هذه بأفكار وآراء دينية ، واكتسب مذهبهم منذ ذلك الحين الطابع السياسى الدينى ، ومن مظاهر هذا الامتزاج قولهم:

(١) انظر : رسائل الجاحظ ٧ / ٢

(٢) مقالات الإسلاميين ١ / ١٦٩

٦- العمل جزء من الإيمان ، فالذى ينطق بالشهادتين ، ثم لا يؤدى فرائض الإسلام كافر ، وقد تركت هذه العقيدة أثرها القوى على سلوك الخوارج ، فكانت « العلامة المميزة لهم كل التمييز ، هى الترجمة عن إيمانهم بالأفعال ، وامتشاق السيف فى سبيل إقرارها ، كلما اجتمع اثنان من رأى واحد ^(١) » .

٧- تجمع فرق الخوارج على كفر مرتكب الكبيرة ، وإن لم يصر عليها ، إلا النجذات منهم ^(٢) .

٨- التشدد فى الاستمسك بظاهر النص القرآنى ، والعمل بأحكامه ؛ ولذا تجمع فرق الخوارج على عدم جواز الاجتهاد بالرأى ، إلا النجذات منهم فإنهم يميزونه ^(٣) .

هذه هى أبرز الأفكار والآراء ، التى تكاد تجمع عليها فرق الخوارج فى العصر الأموى ، ثم خالفت كل فرقة منهم الأخرى فى بعض الآراء والتعاليم الأخرى مما لاداعى لذكره هنا ؛ إذ لاجابة إليه .

وقد تأثر سلوك الخوارج بمبادئهم ، وحرصهم عليها ، وتفانيهم فى الذود عنها ، وكانت أبرز صفاتهم : الإخلاص للعقيدة ، والتعصب لها ، والشجاعة الفائقة فى الدفاع عنها ، والتقوى ، التى يخفها الخوف الشديد من عذاب الآخرة والتطلع والحنين الدائم إلى نعيم الجنة ؛ ولذا كانوا أهل عبادة وورع .

د- حزب الزبيريين :

من حديثنا السابق عن نشأة هذا الحزب ، والأحداث التى مرت به ، والأخطاء التى تردى فيها زعيمه عبد الله بن الزبير ، والتى أدت فى النهاية إلى القضاء عليه ، وعلى حزبه ، الذى ارتبطت حياته بحياة زعيمه ، وانتهت بانتهائها ، ندرك مدى قصر الفترة التى عاشها هذا الحزب ، وازدحام هذه الفترة — على قصرها — بالعديد من الاشتباكات الشرسة ، بين أنصار ابن الزبير ومناهضيه .

(١) الخوارج والشيعة ٣٨

(٢) مقالات الإسلاميين ١ / ١٥٧ ، ١٥٩

(٣) المصدر السابق ١ / ١٩٠

وبالطبع لم تتح مدت السنوات التسع التي تمثل عمر هذا الحزب، فرصة كافية لرعيه، أو مؤيديه، ليكونوا نظرية سياسية واضحة المعالم، يستطيع أتباعه أن يسيروا على هديها، ويطوروها، ويديروا حولها الآراء، ويطبقوها على أساسها الأسس التي تمكن الحزب من الاستمرار، والنضال في سبيل البقاء، ومعاودة النشاط للوثوب على السلطة، حتى بعد أن يسقط زعيم الحزب — كما فعل الشيعة مثلاً .

من أجل هذا لم يجد الشعراء الذين التفوا حول دعوة ابن الزبير — على قتلهم — أفكاراً محددة واضحة يتمثلونها، وتتغلغل في عواطفهم وضمائرهم، فيدينون بها، ويدافعون عنها، فحامت أشعارهم حول بعض الآراء العامة، التي لاتنهض للاستدلال السياسي أو الديني القوي، على حق آل الزبير في الخلافة؛ إذ وصفوه بالعدل، والتقوى، والورع، وأنه أكفأ القرشيين المعاصرين له، بعد موت معاوية، وقتل الحسين بن علي، ثم لصلته بالرسول ﷺ فأبوه ابن عمه النبي ﷺ صفية بنت عبد المطلب، وابن أخى خديجة زوج الرسول ﷺ، وعبد الله ابن أسماء بنت أبي بكر، أخت عائشة أم المؤمنين .. إلى غير ذلك مما يشاركه فيه كثير من القرشيين، فضلاً عما يمتاز به أهل البيت من أئمة الشيعة .

ولذا كان تأثير هذا الحزب في الحياة الأدبية في العصر الأموي، كتأثيره في أحداث التاريخ الإسلامي لهذه الفترة، محدود الأثر، سريع التوهج والانطفاء، ما إن بدأ حتى انتهى، فلم يحتل هذا الحزب في التاريخ، الأدبي والسياسي إلا حيزاً ضيقاً يمكن إغفاله دون خطر كبير .

ولقد كان لهذه الأحزاب الإسلامية، ولما اشتجر بينها من حروب وصراع تأثير قوي في نهضة الشعر، وتشجيع الشعراء في هذا العصر، حتى بلغ شعراء الحزب الأموي وحده، من الكثرة حداً، يصعب معه الإلمام بشعرهم، أو محاولة إحصاء عددهم . وليس من قبيل المبالغة أن نقول : إن الشعر السياسي الذي دار في فلك هذه الأحزاب، كان أكثر التفاج الشعري في عصر بني أمية .

— ٢ —

وهناك جانب آخر من الحياة السياسية والاجتماعية، أعان بعض فنون الشعر، على الذيوع والقوة والازدهار، بعد فترة من الخمول والانكماش .

نعنى بهذا الجانب السياسى الاجتماعى ، صحوه العصبية القبلية ، انطلاقها من كل قيد ، بعد أن كان مضيئاً عليها فى العصر السابق ، عصر صدر الإسلام ، حيث عهد النبوة والراشدين .

وقد تدخلت عوامل سياسية واجتماعية فى إحياء هذه العصبية التى عملت بدورها على إذكاء فنون الشعر ، التى تدور حول العصبية القبلية ، وتعبّر عنها ، وتنفخ فى نارها ، كالهاء ، والفخر ، والحماسة .

فقد شاءت ظروف السياسة الأموية ، أن تتعصب للقبائل القحطانية (اليمنية الأصل) ضد أكثر القبائل العدنانية (القيسية أو المضرية) ؛ ذلك أن أكثر عرب الشام ، الذين قامت الدولة الأموية على أكتافهم ، يمنيون ، نزحت قبائلهم إلى الشام ، مهاجرة من جنوب الجزيرة العربية باليمن قبل الإسلام ، لأسباب اقتصادية ، أو بيئية مختلفة ، ليس من شأننا الحديث عنها هنا .

فكان يسكن الشام منهم عند الفتح الإسلامى قبائل ، أشهرها : غسان ، وجذام وقضاعة ، وكلب^(١) . وكانوا فى القسم الجنوى من الشام أكثر منهم فى القسم الشمالى ، بحكم قرب جنوب الشام من بلادهم التى نزحوا منها .

ولقد عمل معاوية بن أبى سفيان منذ وضع قدمه بالشام واليا عليها من قبل عمر ابن الخطاب ، على أن يستميل عرب الشام هؤلاء ، وكان من سياسته فى ذلك أن عقد مصاهرة مع قبيلة من كبريات القبائل اليمنية بالشام وأقواها وهى قبيلة كلب ، حيث تزوج ميسون بنت بحدل الكلبية ، ومنها أنجب ولى عهده ، وخليفته من بعده يزيد .

ومن سياسته فى احتواء عرب الشام ، وضمان ولائهم ، أن يحرص على تقريبهم منه ، وإيثارهم بخيرات الإقليم ، ورعاية مصالحهم فيه ، حتى بلغ من تعصبه لهم ، أن ظل حيناً من الدهر ، لايفرض عطاء من بيت المال لغيرهم .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن أكثر عرب العراق ، الذين ناصروا الشيعة والزبيريين والخوارج ، كانوا من القيسية ، أدركنا سر تعصب بنى أمية لعرب اليمنية ، هذا التعصب الذى أثار غضب القيسية وحقدهم على بنى أمية ، فلم يدعوا فرصته إلا اغتتموها ؛ لمناهضة الأمويين ، وإضعاف شوكتهم .

وقد ذكرنا من قبل ماكان من انضمام القيسية لابن الزبير ، والنهوض بدعوته فى

العراق والشام بقيادة زعيمهم الضحّاك بن قيس^(١) ، في حربه مع مروان بن الحكم ومن معه من اليمنية ، ومعهم تميم المضرية ، وتغلبُ العدنانية .

وقد أعقبت موقعة مرج راهط مواقع كثيرة ، وغارات متبادلة ، وثارات عديدة ، بين القيسية من جانب ، واليمنية ومعهم تميم وتغلب من جانب آخر . وهكذا عملت سياسة بنى أمية مرة أخرى على تصدع الوحدة العربية الإسلامية ، التي ظلت المظهر العام للحياة في صدر الإسلام .

كانت تميم المضرية ، وتغلب العدنانية ، وكلب وغيرها من القبائل اليمنية تمثل حزب الدولة الرسمي ، كما كانت قيس تقف ، بحكم عدائها للأُمويين في الصفوف المعارضة لهم ، وورث العصر الأموي ، بسبب هذه الخصومة القبلية ، أياماً كثيرة ، وأشعاراً كثيرة أيضاً ، نظمها شعراء كل قبيلة في الانتصار لقبيلتهم ، خلال تلك الحروب^(٢) ، التي أججتها العصبية القبلية ، بتشجيع من سياسة بنى أمية .

وكان للعراق في هذا العصر النصيب الأوفر من تلك الخصومات القبلية ، ونتائجها الشعرى ، كما كان له النصيب الأوفر من الخصومات السياسية ، وما قيل فيها من شعر ؛ إذ كان أكبر الأقاليم الإسلامية ميداناً للفتن السياسية ، والحروب القبلية ، في عهد الدولة الأموية .

ويعد من أبرز العوامل ، التي ساعدت على ارتفاع صوت العصبية القبلية بالعراق ، وغزارة الأشعار التي خلفتها ، طبيعة الاجتماع العمراني ، الذي كانت عليه مدينتا العراق الكبيران : البصرة والكوفة ، فقد خططت كل منهما تخطيطاً قبلياً^(٣) منذ إنشائهما أيام عمر بن الخطاب .

فيقال : إن وفود جند المسلمين قدمت على عمر من جلولاء ، وحلوان ، وتكريت ، والموصل ، وغيرها ، من مدن العراق ، يذكرون له الفتح والغنائم ، فلاحظ أن جو هذه المدن قد أضر بصحة جند المسلمين ، وكان حذيفة بن اليمان قد كتب إلى عمر في ذلك ، فأرسل عمر إلى سعد بن أبي وقاص : إن العرب لا يوافقها إلا بما وافق إبلها ، من البلدان ، وأمره أن يختار لهم منزلاً برياً بحرياً ، لا يجعل بينه وبينهم بحراً ولا جسراً ، فاختار سعد موضع الكوفة على

(١) راجع ص ١٩ من هذه الدراسة .

(٢) التطور والتجديد في الشعر الأموي ٣٧ .

(٣) انظر في بعض القبائل التي نزلت الكوفة بعد تخطيطها : رسائل الجاحظ ٢ / ١١٧ وتاريخ الطبري

١ / ١٩١ - ١٩٢ وفجر الإسلام ١ / ٢١٢ - ٢١٣ .

مقربة من الحيرة ، وهى مثلها تقع على الفرات ، غير بعيد من الصحراء فاختارت كل قبيلة مكانا نزلته وجعلت به خيامها ، ثم اتخذوا بيوتهم من البوص ، فلما وقع فيها الحريق ، اتخذوها من اللبن ، وكان ذلك سنة ١٥ هـ (١) .

ولمثل هذا الغرض مُصرت البصرة (سنة ١٦ أو ١٧ أو ١٨ هـ (٢)) ، وفقد وجه عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان إلى اختيار مكان لجنده قائلا له : « انطلق أنت ومن معك ، حتى إذا كنتم فى أقصى أرض العرب ، وأدنى العجم فأقيموا » (٣) ، فنزل البصرة ، على مقربة من الأبلّة فى دلتا النهرين ، واتخذ عتبة ومن معه دار الجند المسلمين ، يسكنون فيها إذا انصرفوا من غزواتهم .

ولم تلبث القبائل أن نزحت إلى هاتين المدينتين من شتى أنحاء الجزيرة العربية ، فهاجرت قبائل من اليمن وماجاورها إلى الكوفة ، ونزحت قبائل من الأنصار بالمدينة ، ومن قبائل شمال الجزيرة إلى البصرة ، حتى امتلأتا بالقبائل اليمنية والنزارية ، التماسا لسعة العيش فى هاتين المدينتين العامرتين ، دون أن يتعدوا كثيرا عن البادية ، فهما على الحدود بين بواديهم ، وحضر العراق ، ومن ثم « فهم يستطيعون أن يشموا منهما هواء الصحراء ، ويتجنبوا بهما وخم المدن » (٤) .

والأمر الذى لاشك فيه ، ولاخلاف حوله هو أن الجيوش الإسلامية ، التى خطط لها هذان المصران ، لتنزل فيهما خلال الفترات التى تفصل بين وقائع الفتوح إنما نزلتهما قبائل ، فهى لم تفقد إحساسها القبلى ، إلا ريثما تعود إلى مصرها ، فلا تكاد تستقر ، وينقشع عنها غبار الحرب ، حتى يأخذ استقرارها صورة قبلية ، يرتفع فيها الإحساس بالقبيلة ، والتعصب لها ، مما يبيح لنا القول بأن الحياة فى البصرة والكوفة ارتبطت بالنزعة القبلية منذ نشأتها (٤) .

(١) انظر : مروج الذهب (السعادة) ٢ / ٣٢٩ ، وتاريخ الطبرى ٤ / ١٥٣ ، وانظره أيضا ١ / ١٨٨ ومابعدها .

(٢) راجع تاريخ الطبرى ٤ / ١٤٨ ، ١٤٩ ، وعيون الأخبار ١ / ٢١٧ ، ومروج الذهب (السعادة) ٢ / ٣٢٨ .

(٣) تاريخ الطبرى ٤ / ١٤٩ .

(٤) فجر الإسلام ١ / ١٠٠ ، وانظر : تاريخ آداب اللغة (زيدان) ١ / ٢٠٠ .

(٥) للاستزادة راجع : حياة الشعر فى الكوفة ١٧٩ — ١٨١ .

وكانت القبائل التي أقامت بكل من هذين البلدين تنافس ، ويفآخر بعضها بعضا ، ذلك أن روح القبيلة الأصلية بينهم حفزهم إلى هذا التنافس .

غير أن هذا التنافس لم يكن له أثر يحثى مغيبته في عهد عمر ، إذ كانوا يدعون من حين لآخر إلى ميادين القتال ، فيسكن التنافس ، ويشغل أهلهم بالتطلع إلى أخبارهم ، ثم إن عمر كان حازما ، فلم تدع شدته وحزمه فرصة لفتنة تثور .

ثم أخذ الزمام ينفلت شيئا فشيئا منذ ظهور الفتنة الكبرى أيام عثمان ، وطوال عهد علي يذكر صاحب شرح نهج البلاغة ^(١) ، أن أهل الكوفة في آخر عهد علي كانوا قبائل ، فكان الرجل يخرج من منازل قبيلته ، فيمر بمنازل قبيلة أخرى ، فينادي باسم قبيلته ، يالللنَّع ، أو يالكندة ، فيتألب عليه فتیان القبيلة التي مر بها ، فينادون بالتقيم ، أو يالريبعة ، ويقبلون إلى ذلك الصائح فيضربونه ، فيمضى إلى قبيلته ، فيستصرخها ، فتسل السيوف ، وتثور الفتنة ، وهذا نص قوى الدلالة على تحكم الروح القبلي ، والعصبية القبلية في نفوس أهل الكوفة في عصرها الأموي .

تجاورت القبائل إذن في مدينتي العراق ، البصرة والكوفة ، لكل قبيلة ، منازلها المتجاورة في خطة مستقلة ، بحيث ضمت كل منها قبائل قحطانية ، وقبائل عدنانية ^(٢) .

وساعد هذا التخطيط على احتدام العصبية بين القبائل في العصر الأموي ، فما إن أحييت سياسة بنى أمية العصبية بين اليمنية والقيسية ، على نحو مامر ، حتى أصبحت كل من البصرة والكوفة مسرحا لهذه العصبية ، يدلى كل شاعر فيها بدلوه ، ثناء على قبيلته ، وافتخارا بها ، وطعنا على خصومها ، وثلباً لشرفها وأمجادها ، برميهم بكل ما يستطيع من سهام الهجاء ، وأصبح لكل قبيلة شاعرها ، أو شعرائها ، الذين يتنغنون بماثرها في الجاهلية ، وماكان لها من أيام وحروب ، وأمجاد ، كما يصيرون جام غضبهم على القبائل المعادية ، ويحاولون أن يطعنوها في صميم شرفها ، وحسبها ، شأنهم في ذلك شأن

(١) ٤٧٦ / ٣

(٢) تعدلت خطط الكوفة والبصرة عدة تعديلات في أيام عمر وعلي وأيام الحجاج (سنة ٥٠ هـ) فمثلا كان التخطيط القبلي للكوفة أيام بنى أمية على أساس تقسيم رباعي : فالربع الأول لأهل العالية من بدو نجد ، والثاني لهم المضربة وهمدان اليمنية ، والثالث لبكر وريبعة العدنانية ، وكندة اليمنية ، والرابع لمذحج اليمنية وأسد المضربة فامتزجت القبائل اليمنية والنزارية في عمران الكوفة . انظر : حياة الشعر في الكوفة ٢٨ ومابعدها

آبائهم وأجدادهم من شعراء الجاهلية ، بل ازداد شعراء القبائل الأمويون في هذا الهجاء حدة على نظرائهم الجاهليين — كما سنرى .

وإذن ، فقد اشتعلت نار العصبية القبلية في العراق ، وسرعان ما أخذت شكل فخر وهجاء وحماسة ، في ظل ظروف لم تنح للعصبية في العصر الجاهلي نفسه ؛ فقد كان شعراء القبائل في الجاهلية يتفاخرون ، ويتهاجون ، ويحمسون ، ومنازلهم بعيدة ، أما في هذا العصر فهم مصطفون ، بعضهم أمام بعض ، وكل قبيل تسحتت شعراءها ؛ ليرموا خصومها بسهام الهجاء اللاذع .

بهذا أخذ الهجاء في العصر الأموي شكلاً أعنف من شكله في العصر الجاهلي ؛ حيث كانت كل قبيلة تحاول أن تستخرج من شاعرها ، أو شعرائها ، أحد ما في جعبتهم من سهام تصيب بها القبائل التي عاداتها قديما ، ولا تزال تعاديا حديثاً .

ولم تقف العصبية القبلية عند حد العداء بين فرعى العرب الكبيرين : القيسية والبنمية ، بل انتقلت عدواها إلى القبائل والبطون ذات الأصل الواحد ، فطاحت هذه القبائل والبطون ، تطاحنا قويا عنيفا ، في حرب لسانية ، أشرعت فيها أسنة الشعر ، وترامى فيها الشعراء من كل جانب بالنبال والسهام .

— ٣ —

وكأنما أغرى إقبال الناس في العراق — بخاصة في مدينتيه : البصرة والكوفة — على هذا اللون من الشعر ، الذى يذكى نار الخصومة بين القبائل ، نقول : أغرى بعض الشعراء على الدخول في نوع من الهجاء والفخر ، يشغل فيه الشاعر نفسه ، وبمنافسة من الشعراء ، أكثر مما يشغل بقبيلته ، ومن نافسها من القبائل والبطون .

وأشهر من نفذ من هذا الباب جرير والفرزدق والأخطل ، نفذوا إلى أهاج كانت تلقى على مسرح المزد بالبصرة ، ويتحلق الناس للاستماع إلينا ، كما كانوا يتحلقون في الكناسة بالكوفة ؛ للإستماع إلى شعراء القبائل ، وهم يصفرون ، أو يصفقون لهذا ، أو ذاك ، وكانت حصيلة هذه الخصومة الأدبية ، (أو الفردية) ماعرف في تاريخ الشعر العربى بنقائض جرير والفرزدق من جهة ، ونقائض جرير والأخطل من جهة أخرى ^(١) .

(١) سبأى مزيد تفصيل عن عوامل ازدهار فن النقائض الشعرية في العصر الأموى عند دراسته .

فإذا مآثرنا العراق ، واتجهنا جنوباً إلى الحجاز بخاصة ، والبادية العربية بعامة ، وجدنا هذه البيئات ، يسودها نوع آخر من الحياة ، موزعاً بين الحضر والبادية ، تخف فيه حدة الصراع ، وتخفت أصوات الخصومات كثيراً ، عما كان يسود وجه الحياة في العراق . أما حضر الحجاز (نعني به : مكة والمدينة والطائف بخاصة) فقد شاع فيه لون من الحياة الهادئة — إلى حد ما — قوامها : الثراء ، والترف ، والفراغ ، ينعم بها ، أبناء الصحابة من المهاجرين والأنصار ، وغيرهم ، من سكان بيئة الحضر في الحجاز ، لم تلبث أن انزلت بهم ، أو فلنقل : بكثرة من بينهم ، إلى حياة عابثة حيناً ، لاهية في أكثر الأحيان .

أما الثراء والترف : فقد توفر لهم بفضل الأموال ، التي تدفقت على الحجاز من الأقاليم ، والأمصار الداخلة في الإسلام ، منذ أيام الفتوح الإسلامية في عهد الخليفتين الراشدين ، عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان .

فقد بلغ من وفرة هذه الأموال ، المتدفقة في بيت المسلمين ، أن قال عمر بن الخطاب — في خلافة — : « لقد هممت أن أجعل العطاء أربعة آلاف ألفاً يجعلها الرجل في أهله ، وألفاً يزودها معه ، وألفاً يتجهز بها ، وألفاً يترفق بها » ^(١) .

ونظرة واحدة فيما أورده الطبري وغيره ، من نظام القروض في عهد عمر ، تدلنا على مدى ما كان عليه جند المسلمين ، وأهل الحضر من حال ميسرة كافلة .

ومن صور اكتظاظ بين مال المسلمين بالأموال أيام الخليفة عثمان ، والتوسعة على المسلمين ، بتفريقها فيهم ، ما أورده الذهبي في خبر الفتوح الإسلامية في عهده ، قال ^(٢) : « ولما كثرت الفتوح في هذا العام (٣٠ هـ) وأتى الخراج من كل ناحية ، اتخذ عثمان له الخزان ، ثم قسمها ، وكان يأمر للرجل بمائة ألف » .

وروى أن سعد بن أبي وقاص عزل الخمس من فيء القادسية وغنائمها ، وبقي مال عظيم ، حتى بلغ نصيب الفارس ستة آلاف ، والراجل ألفين ، وبقي مال كثير ، فأمر عمر برده على حملة القرآن ^(٣) .

(١) تاريخ الطبري ٤ / ١٦٢ وانظر : كتابنا : الأدب في عصر النبوة والراشدين ٣٢ .

(٢) المعبر ١ / ٣١ .

(٣) معاهد التصحيح ١ / ٢٢٣ .

ويذهل الإنسان حين يقرأ ما صار إليه الصحابة (وبخاصة المهاجرون والأنصار) من ثراء عريض ، وعلى الأخص كبارهم .

ولكن كان مافاء الله به على المسلمين من الفتوح ، وما أنعم عليهم به من خراج الأمصار ، قد فاض على المسلمين بعامه ، والمجاهدين منهم بخاصة ، فمما لا شك فيه ، وأن إقليم الحجاز قد فاز بأوفى نصيب من هذه النعم ، باعتباره مهد الدعوة الأول ، ومركز السلطة الإسلامية ، وفيه أكبر تجمع من صحابة رسول الله ، وأولى الفضل والسابقة والجهاد ، وعليه تتدفق هذه الأموال ، ومنه تخرج للتوسعة على أهله ، وعلى المسلمين غيرهم .

إذن ، فقد سار الثراء في حجور الحجازيين ، من أهل الحضر بخاصة ، فتبعة تبدل في حياتهم وحياة أبنائهم .

ومن دلائل ذلك ماروى ، أن عمرو بن العاص لما توفى (٤٣ هـ) خلف من الذهب ثلثمائة وخمسة وعشرين ألف دينار ، ومن الفضة ألفي درهم ، وضييعته المعروفة بالهبط ، قيمتها عشرة آلاف درهم ^(١) ، وهناك العديد من الأمثلة ، ذات الدلالة الواضحة على ما بلغه الصحابة من ثراء واسع ^(٢) .

ومن دلائله أيضا اتخاذهم القصور المبنية بالآخر والجص والساج ، المخلاة بالشرفات ، يحضرون لها البنائين ، من الفرس ، لتقدمهم في فن العمارة .

ففى عهد عثمان بن عفان ، بنيت الدور والقصور ، وشيدت بالكس ، وجعلت أبوابها من الساج ، واقتنى كثير من الصحابة الأموال والجنان والعيون ، كالزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، والمقدار بن الأسود ... وغيرهم ^(٣) .

(١) مروج الذهب (البيهة) ٢ / ٦٧

(٢) راجع أمثلة لذلك في : طبقات ابن سعد ٣ / ١ ص ٧٧ ، ١٥٨ ، ومروج الذهب (السعادة) ٢ /

٣٤١ — ٣٤٢

(٣) فجر الإسلام ١ / ١٦٨

وفاق أبناء الصحابة آباءهم ، في التحضر ، والثراء ^(١) والترف ، فقد عاشوا في عصر جديد ، عصر الفتوح والثراء .

وأعانت سياسة بنى أمية — إلى حد كبير — تجاه أبناء الصحابة بالحجاز على ازدياد ثرائهم وترفيههم ، حتى طعم وشرب بعضهم في أوانى الذهب والفضة ، ولبسوا الخز ، والدبيج ، والحلل المشاة ، وغالوا في ذلك .

ففى حضر الحجاز حشد الأمويون عظماء قريش ، وأبناء الأنصار ، ومنعهم من التجول في أنحاء الدولة ، أو الاتصال برجالاتها ، من ذوى الأقدار والخطر ، في البلاد المفتوحة ، وأغدقوا عليهم الأموال والنعم إغداقا ، ونثروا لهم المال نثرا ؛ ليلهوهم بذلك عن التفكير في سياستهم ، أو محاولة الخروج عليهم ، والمطالبة بحقوقهم في حكم الدولة ، فتوفر لهم بذلك الثراء والترف ، كما توفر لهم الفراغ .

وأما اللهو والعبث : فقد تم لهم نتيجة لما أحسوه — بخاصة الشباب منهم — من يأس وتشاؤم ، وهم يرون بنى أمية يستأثرون بالأمر ، وينعمون بالسلطان دونهم ، ويحطمون كل مقاومة ، أو حركة معارضة ، تنهض لمجالدتهم ، حتى الكعبة لم تسلم من عدوانهم — كما رأينا — بينما هم عاجزون ، معزولون عن سياسة الدولة ، والتصرف في أمورها ، أو العمل في أداراتها .

فماذا يفعل هذا الشباب الفارغ الثائر اليائس ، إلا أن يلتفت إلى اللهو يغرق فيه يأسه ، ويقتل وقت فراغه ، ويلتمس فيه السلوى عن ماضيه الضائع ، وحاضره القلق ، ومستقبله الملبد بالغيوم .

سار كثرة من شباب حضر الحجاز في طريق اللهو ، والمرح ، والاستماع إلى الغناء ، وترتيل أناشيد الحب ، بما فيه من عبث ودعابة ، ومغامرة ، وظفر ، ولقاء وهجران ، وسعادة وشقاء .

(١) بلغ من ثراء مصعب بن الزبير — مثلا — أنه أصدق كلاً من : سكينه بنت الحسين بن علي ، وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله الحميمية ، مائة ألف دينار (العر للذهبي ١ / ١٢٣ ، وعيون الأخبار ١ / ٢٥٨) وقيل : خمسمائة ألف درهم ، وجهاز كلاً منهما بمثلها ، وأن عبد الله بن عباس كان يرتدى رداء بألف (عيون الأخبار ١ / ٢٩٨) وأن عبد الله بن عمر أصدق صفية بنت أبي عبيد بن مسعود الثقفي أخت المختار عشرة آلاف درهم . (عيون الأخبار ٢ / ٧١) .

وهناك عامل آخر ساعد على تهيئة مجالات اللهو والعبث أمام هذا الشباب الفارغ اليائس . ومدها بوسائل الترفيه ، وحاجات مجالس اللهو ، من غناء وموسيقى ، وهو إغراق مدن الحجاز بالقيان ^(١) والجواري .

ومن المعلوم أن الاسترقاق من الأُمم التي غلبها الإسلام ، قد كثر كثرة هائلة ، بكثرة الفتوح الإسلامية ، وكان هؤلاء الرقيق يوزعون على الفاتحين ، حتى صارت الدور تعج بالرقيق والجواري الفارسيات والروميات وغيرهن ، فيروى : أن الزبير بن العوام كان له ألف عبد ، وألف أمة ^(٢) .

وليس من شك في أن من بين هذا الرقيق ، وهؤلاء الإماء ، من كان يجيد فن الغناء ، أو فن الموسيقى ، أوهما معا ، وهؤلاء وأولئك ، كانوا وكن عماد مجالس الغناء ، التي كثرت في مدن حضر الحجاز ، وأقبل عليها كثير من أهله ، وكان ذلك مما يسعد الأمويين ، إذ يحقق لهم مايرمون إليه ، من انشغال شباب هذا الحضر ، بهذه المجالس ، عن التفكير في أمور الدولة ، أو تدبير المؤامرات والحركات الثورية للانقضاض عليها ، يروى المسعودي ^(٣) : أنه في أيام يزيد بن معاوية ظهر الغناء بمكة والمدينة ، واستعملت الملاحى ، وأظهر الناس شرب الشراب .

وفضلا عن تأثير انتشار مجالس الغناء والموسيقى في حضر الحجاز في إشاعة اللهو والعبث ، فقد كان لها أيضا فعلها الواضح في ترقيق الذوق المترف ، وانعكاسه رقة في الشعور ، ورقة في الجسّ ، وتفتحاً على مجالى جديدة من الحسن والجمال ، لم يكن لأهل حضر الحجاز عهد بها من قبل على هذا النحو المتاح ، وأثمر هذا كله لونا من الإقبال والرضا ، والاستمتاع بالموسيقى والغناء ، اللذين ارتقيا في هذه البيئة ، على أيدي كثير من الموالى ، رجالا ونساء ، بحيث صارت مكة والمدينة مركزين هامين لهذين الفنين ، يتولاهما فيهما موسيقيون ومغنون مشهورون ، وموسيقىات ومغنيات لمعت أسماؤهن في سماء

(١) القيان : جمع قينة : وهى الأمة المغنية ، وقيل : القينة : هى الأمة مغنية أو غير مغنية ، والمغنية تسمى قينة : إذا كان الغناء صناعة لها ، وذلك من عمل الإماء ، لا الحرائر (اللسان — قين)

(٢) فجر الإسلام ١ / ١٠٥

(٣) مروج الذهب (البية) ٢ / ٩٤ ، وانظر في كثرة الجواري بمكة خاصة رسائل الجاحظ ٢ / ١٥٨

هذين الفنين في عصر بنى أمية ، وفي بيئة حضر الحجاز خاصة ، من أمثال : ابن سريج ، وطويس ، وسائب خاثر ، ومعبد ، وابن عائشة ، ونافع بن طنبورة ، وسلامة القش ، وعزة الميلاء ، وحبابة ، وبليلة ، وجميلة ، وغيرهم وغيرهن^(١) .

وطبيعى أن يكون لون الشعر الملائم لهذه البيئة ، بظروفها التى ذكرنا ، هو فن الغزل ؛ إذ هو لون يتلاءم مع رقة الحس والشعور ، كما يتجاوب مع فنى الغناء والموسيقى الجديدين .

فليس غريبا إذن ، أن يكون أكثر شعراء حضر الحجاز — فى هذا العصر — شعراء حب وغزل ، من أمثال : أبى الخطاب عمر بن أبى ربيعة ، وتلميذه العرجى (عبد الله بن عمر بن عثمان بن عفان) وعبيد الله بن قيس الرقيات ، وخالد بن الحارث المخزومي ، وأبى ذهبل الجُمحى ، وكلهم من شعراء مكة ، والأحوص بن محمد ، وعبد الله بن حسان بن ثابت ، من شعراء المدينة .

وهكذا كان حضر الحجاز فى العصر الأموى مسرحاً لشعر غنائى ، يقوم على حكاية قصة الحب من جهة ، وعلى الصلة الحميمة القوية بالغناء وألحانه من جهة أخرى .

أما طابع الحياة فى البادية ، فيختلف عن هذه الصورة التى رأيناها فى الحضر ، فالقوم هناك يعيشون حياة يغلب عليها الشظف والحرمان ، فى ظل ظروف بيئية صعبة ، وتقاليده بدوية صارمة ، يشق معها الاتصال بين الرجل والمرأة ، اتصال هوى وحب ، كما يقل حظها من وسائل الترفية ، التى تنتشر بالحضر ، كمجالس الغناء ، التى تتاح فيها كثير من فرص اللقاء بين الرجل والمرأة ، فيستمع إلى غنائها ، ويستمتع بمحادثتها ، ومجالستها ، دون حرج أو تضييق .

فى ظل هذه الحياة البدوية ، التى تحكمها ظروفها الخاصة ، فيما يتصل بحرية اللقاء بين الرجل والمرأة ، لم يكن بد من شيوع نوع من الغزل الباكى الحزين ، اصطلاح على تسميته « الغزل العذرى » أو « الغزل العفيف » .

(١) لمعرفة المزيد عن تأثير هؤلاء فى فنى الغناء والموسيقى بحضر الحجاز ، راجع : فجر الإسلام ١ / ٢٠٧ —

ويميل بعض الباحثين ^(١) إلى إدخال عامل ديني في بواعث هذا اللون من الغزل ، ذاهبا إلى أن الإسلام هو الذى صَفَّى نفوس الشعراء العذريين بالبادية ، وأحال الحب فيها إلى براءة وطهر ، وسمو ، ونبل ، وعفة ، مما أثر في غزلهم ، فارتفع به عن الحس والمادة في كثير من جوانبه .

بيد أننا نرى ، أن عامل الإسلام في هذا الغزل — إن وجد — ضعيف الأثر ، ونميل إلى أن أهم بواعث الغزل العذري في البادية ، ترجع إلى ظروف البيئة البدوية ، التى أشرنا إليها منذ قليل ، وأبرزها القيود العنيفة الصارمة ، على حرية اتصال المحبين بالبادية ؛ مما يحيل الحب في ظل الحرمان ، إلى شخص يتسم سلوكه ، وتعبيره عن حبه بالطابع العاطفى الوجدانى ، لا الطابع العملى ، فيقضى الحياة على أبواب معبد الحب ، حائرا ، تنقصه المرأة على سلوك إيجابى للوصول إلى محبوبته ولقائها ، مكتفيا بترتيل أناشيد الشوق والهيام ، وإراقة الدموع ، ممزوجة بالآلام ، مشبعة بالأنات والزفرات . وللمحديث هنا بقية ، تأتى عند دراسة هذا اللون من الغزل ^(٢) .

— ٥ —

إذا كان الغزل اللاهى العابث ، الذى امتازت به بيئة حضر الحجاز ، يعد ثورة متواضعة على الروح الإسلامية ، وتحورا مهذبا — إلى حد ما — مما جاءت به ، ودعت إليه ، من عفة ، وورع ، واستقامة خلق ، فإن العصر الأموى قد شهد لونا آخر من الشعر ، يمثل ثورة عارمة ، وتحورا صارخا ، لا من الروح الإسلامية فحسب ، بل من التقاليد العربية ، وقيم الأخلاق العربية أيضا ، هذا الضرب من الشعر ، هو الذى يعكس من المجون والتهتك ، والاستهتار بوصف الخمر ومجالسها ، وما يحدث بين ندمائها ، ما يجرح الفضيلة ، وينافى قيم الدين ، الذى يستظل أهل العصر برأيته .

لقد ذهب شعراء المجون والخمر في شعرهم مذهب لم يألفها الشعر العربى من قبل ، وأسرفوا فيه إسرافا شديدا ، حتى قصر بعضهم شعره على وصف الخمر ، وما يصاحب مجالسها ، من خلاعة ومجون ، وكل ما يدور حولها ، أو يتصل بها . كما سنرى إن شاء الله .

(١) انظر : التطور والتجديد في الشعر الأموى ٣٨ ، ١١٥

(٢) سنعود إلى دراسة العوامل المؤثرة في هذا الغزل بمزيد من التفصيل في مقدمة دراسة الغزل العذري في البادية إن شاء الله .

وكان من ثمرة هذا الاتجاه الشعري ، أن انزلق بعض الشعراء إلى معان قبيحة ، يندى لها جبين الفضيلة ، ويأبى الخلق المستقيم إثارتها ، والعبارة عنها ، وزاد هؤلاء الشعراء إمعانا في الإسفاف والرذيلة ، فعبروا عن هذه المعاني بعبارات وأساليب أقرب إلى الكشف منها إلى التكنية ، وإلى التصريح منها إلى التلميح ، فدفَعوا إلى الحياة الشعرية بلون جديد من الشعر ، هو الذي عرف منذ هذا العصر بـ « الأدب المكشوف » .

وموطن هذا الشعر العراق ، بل الكوفة منه على الأخص ، حيث نشطت بها طائفة من الشعراء اتجهوا بشعرهم إلى اللهو والمجون ، يتخذون من حديثهم عن الخمر مجالا لإعلان استهتارهم بالدين ، واستخفافهم بعقائده ^(١) ، فكانوا بذلك طليعة للشعراء الزنادقة ، الذين ظهروا ، واستحكم أمرهم ، فيما بعد بالبصرة وبغداد ، في العصر العباسي .

وكان على رأس هؤلاء الشاعر الكوفي الأقيشر الأسدي ^(٢) ، وهو الذي وضع الأسس الأولى لتقاليد مدرسة اللهو والمجون الفنية بالكوفة في بداية العصر الأموي ، ثم تابعه من بعده شعراء كوفيون آخرون في أواخر هذا العصر ، منهم : أبو دُلَامة ، ويحيى بن زياد ، وآدم بن عبد العزيز .. وغيرهم من شعراء الكوفة ، الذين ألف اللهو بينهم ، وورط المجنون بين أسبابهم ، كلهم فاسق ، وكلهم خليع ، وكلهم سكير ، وكلهم متهم في دينه ^(٣) .

ويكفي هنا أن نجعل بنموذج من شعر الأقيشر ، أستاذ هذه المدرسة ، لنرى إلى أى مدى بلغ شعراء مدرسة اللهو والمجون بالكوفة ، من الاستهتار بالدين ومقدساته ، والسخرية من واجباته ، يقول الأقيشر ^(٤) :

(١) حياة الشعر في الكوفة ٧٧٣

(٢) شاعر كوفي معمر ذكره أبو الفرج (الأغاني ١٠ / ٨٠ وما بعدها) ووصفه بأنه أحد المعمرين ، قيل : ولد في الجاهلية ، وعمر حتى أدرك عهد عبد الملك بن مروان ، ومات في أيامه ، وكان صاحب شراب وندامي ، وذكره ابن سلام في طبقاته (ص ٦٩٤) وقال عنه : كان كوفيا خليعا ماجنا مدمنا لشرب الخمر .

(٣) راجع الأغاني ١٦ / ١٤٣

(٤) الأغاني ١٠ / ٩٧ هـ : كرهها وردها . السامد ير : ما يترأى للإنسان من خيالات عند السكر . الخفة من النوق : الداخلة في السنة الرابعة من عمرها .

رب نذمان كريم ماجد سيد الجدئين من فرعى مُضر
قد سقيت الكأس حتى هرها لم يخالط صفوها منه كدر
قلت : قم صلّ فصلى قاعداً تنغشاه سنادير السُكر
قرن الظهر مع العصر كما تُقرن الحقه بالحق الذكر
ترك الفجر فما يقرؤها وقرأ الكوثر من بين السُور

وهاكم نموذجاً آخر لأحد تلامذة هذه المدرسة في أواخر العصر الأموي وهو أبو دلالة ، الذى كثر فى شعره التعبير عن ضيقه بالشعائر الدينية ، وله أبيات يتحدث فيها عن الصلاة ، وأنها تصده عن المسجد الذى يستلذ فيه الصلاة للكوس والأوتار ، وهولا يؤديها إلا كارها ، وهو يعجب من أولئك الذين يأمرونه بالصلاة لتحط عنه آثامه ، فهو راض بحمل هذه الآثار ، بل هو راض بأن يحمل على ظهره ذنوب العالمين جميعاً (١) :

ألم ترياً أن الخليفة لَزَنى بمسجده والقصر مالى وللقصر
فقد صدنى عن مسجد استلذه أُعلِّل فيه بالسماع وبالخمر
وكلفنى الأولى جميعاً وعصرها فويل من الأولى وعَولى من العصر
أصلبها بالكره فى غير مسجدى فمالى من الأولى ولا العصر من أجر
لقد كان فى قومي مساجد جمّة ولم ينشرح يوماً لغشيانها صدرى
ووالله مالى نية فى صلاته ولا البر والإحسان والخير من أمرى
وماضره -والله يغفر ذنبه - لو ان ذنوب العالمين على ظهرى

ولهما ولغيرهما من شعراء مدرسته بالكوفة فى العصر الأموي ، مايفوق هذا الاستهتار بالدين ، توقفاً وجرأة ، وسخرية ، وفساد دين وخلق . كما سنرى عند دراستنا لهذا اللون من الشعر ، فى الجزء الثانى من كتابنا هذا .

وهنا نتساءل ، لماذا كانت الكوفة خاصة بيئة لشعر المجنون واللهو ، من دون بيئات الشعر فى العصر الأموي ؟ أو بعبارة أخرى ، ماالعوامل التى جعلت منها مرتعاً لهذا الضرب من الشعر ؟

يأتى فى مقدمة العوامل التى أمدت الكوفة بأسباب اللهو والمجون ، ومقوماتهما ، قربها من الحيرة ، التى كانت على ثلاثة أميال منها (٢) ، ومن المعروف أن الحيرة كانت

(١) الأغاني ١٠ / ٢٤٦ (دار الكتب) .

(٢) تيارات ثقافية ١١

بيئة نصرانية ومركزاً حضارياً ، غنياً بآماكن اللهو وأسبابه ، تنتشر فيها الحانات ؛ إذ كانت الخمر مباحة عند النصارى ، بل هى تدخل عندهم فى أسرار القربان المقدس ، كما تكثر فيها الأديرة التى أقامها بعض أفراد الأسرة المالكة فى الحيرة قبل الإسلام ، أو طائفة العباد المسيحيين .

وهذه الأديرة كانت تنهى لروادها فرصة الشراب ، كما كان مولدوها ومولداتها بعد الإسلام يقدمون لهؤلاء الرواد ألواناً من المتع واللهو ^(١) .

ونظرة فيما أورده ابن فضل الله العمري عن حانات الحيرة وأديرتها قبل الإسلام وبعده ، وأخبارها ، وروادها ، وما كان يقدم فيها ، تطلعنا على الدور الهام الذى قامت به هذه البيئة من مدِّ الكوفة القرية منها تيارات متلاحقة من اللهو ، وصنوف عديدة من بضاعته الفاسدة المفسدة ^(٢) .

فضلاً عن أن الحيرة اشتهرت بالغناء ، وظهر فيها — أوائل هذا العصر — مغن نصراني شاعر برع فى الغناء ، وبلغ منه مبلغاً كبيراً ^(٣) ، وهو حنين الحيرى ^(٤) ، الذى لفت إليه أنظار بشر بن مروان ، أيام ولايته على الكوفة فى خلافة عبد الملك ، فاستقدمه واستمع إلى غنائه وفتح له أبواب قصره ^(٥) ، كما فتحه لأمثاله من المغنين ، الذين كانوا يفلدون إلى حنين بالحيرة ليتمتعوا بطبيعتها ، وجودة خمرها ، وحسن غنائه ، مثل ابن سريج الذى قدم من مكة ، ونزل عنده بالحيرة ، حيث أكرمه ، ثم قدمه إلى بشر بن مروان ، فسلمعه وأجزل جائزته ، وقد أشاع حنين هذا فى مجالس غنائه جواً من اللهو والشراب ، جعل خالد بن عبد الله القسرى والى الكوفة لهشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٠ هـ) يحرم الغناء بالعراق ؛ لأن مجالسه كانت مباءة للفسوق ، ولما سمع لحنا فى الزهد ، غناه حنين عاد فأباحه ، على أن لا يتخضر مجالسه سفيه أو عرييد ، أو امرأة عربية ^(٦) .

(١) راجع خبراً يرويه أبو الفرج يلقى ضوءاً على ما ذكرنا فى : الأغاني ٢ / ٣٥١

(٢) انظر فى حانات الحيرة : مسالك الأبيصار ١ / ٣٨٩ وما بعدها ، وفى أديرتها ١ / ٣١١

(٣) الأغاني ٢ / ١٢٠

(٤) انظر أخباره فى الأغاني ٢ / ١١٦ وما بعدها .

(٥) انظر الأغاني ٢ / ٣٤٩ (دار الكتب) .

(٦) تيارات ثقافية ٢٨

وأخيراً ، فقد كانت الحيرة مجمعا لأديان فارسية شتى في الجاهلية ، كالزرادشتية ، والمزدكية ، والمانوية ^(١) ، وظلت المانوية (نسبة إلى ماني صاحب هذه النحلة) والمزدكية إلى ما بعد الإسلام بالحيرة ، كما ظهرتا في الكوفة ، وطارد خالد بن عبد الله القسري أتباعهما ، وبعض هذه الأديان كان يدعو للإباحة كالمزدكية ، وبعضها يدعو إلى الخمول والكسل وترك الزواج والتناسل حتى يفنى العالم المادى ويعود النور إلى موطنه كالمانوية ^(٢) .

كما كانت الحيرة جسراً حضارياً بين الفرس والعرب ، عبرته ألوان من المعارف والثقافات الفارسية كما عبرته جاليات كثيرة فارسية إلى الكوفة ، فكثرت فيها هذا الجنس ، وأثر في مختلف جوانب حياتها ، ومنها حياة اللهو والمجون ، والاستهتار بالقيم الروحية والأخلاقية .

ورثت الكوفة عن الحيرة كل هذا ، بعد أن نازعتها فيه فغلبتها ، وأخملت شأنها ، بحيث صارت الكوفة في أواخر العصر الأموي مركز اللهو والمجون في المجتمع الإسلامي ، ومنها خرج هذا التيار ليغزو بيئات إسلامية أخرى في العراق والشام ، قبيل حكم العباسيين ، وفي أيامهم .

ثم يأتي العامل السياسي ، ليسهم بدوره في إنماء موجة اللهو والمجون بالكوفة ، ويمد تيار شعرهما بمقومات وجوده .

فمن المعروف أن الكوفة مرت بفترات سياسية مضطربة في العصر الأموي ، جعلتها هدفاً لبطش السلطة الأموية الحاكمة ، وعرضتها لسخطهم المتواصل ، فمنا خرج على لقتال معاوية ، ومنها ، توالى الرسائل لدعوة الحسين للثورة على بنى أمية ، وفيها تركزت معارضة شيعية قوية ، للحكم الأموي ، طالما أفلقت الأمويين ، وطيرت الأعاصير في سماء دولتهم .

(١) راجع في مبادئ هذه الأديان : تيارات ثقافية ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٦ وفجر الإسلام ١ / ١٢٥ وما بعدها ،

وانظر : تاريخ الطبري ٢ / ٨٨

(٢) تيارات ثقافية ٢٨

هذه الحياة السياسية المضطربة ، غرست القلق في نفوس الكوفيين ، وأفقدتهم الإحساس بالطمأنينة والأمان ، ومن ثم وقفوا من الحياة موقفين : « فجماعة نفضوا أيديهم منها ، واتجهوا إلى الآخرة ، وهم الزهاد ، وجماعة اندفعوا خلفها ، يعبون من كثورها ما استطاعوا ، قبل أن يدركها النضوب والجفاف ، وهم اللاهون والمجان .

وكلا الفريقين نتيجة طبيعية لهذه الحياة ، فإذا كان الفريق الأول دفعهم اليأس من الحياة إلى وضع أملهم كله في الآخرة ، فإن الفريق الآخر لم يدفعهم اليأس من الحياة إلى الوقوف منها ذلك الموقف السلبي ، وإنما دفعهم إلى اتخاذ موقف إيجابي منها ، يريدون به أن يفوضوا أنفسهم عليها ، وإذا كان الزهاد طلقوا الدنيا إلى غير رجعة ، فإن هؤلاء اللاهين والمجان تزوجوها إلى غير طلاق ، ولكنهم لم يتزوجوا الحياة الجادة العاملة ، التي صدوا عنها وصدت عنهم ، وإنما تزوجوا الحياة اللاهية العابثة الماجنة ، التي استطاعت أن تغريهم ، وتغويهم ، فأقبلوا عليها ، لينسوا بين أحضانها ذلك القلق ، الذي كان يسيطر على نفوسهم ^(١) .

وأكثر هؤلاء ، الذين انصرفوا إلى الحياة الماجنة اللاهية ، كانوا من الموالي والشيعة ، الذين تعرضوا لصنوف الاضطهاد والعسف والقسوة والقهر على يد عمال الأمويين على الكوفة .

والنفوس تتفاوت في التسلي عن الهموم ، وقد وجد بعض هؤلاء — منهم شعراء — سلواهم في الإقبال على الخمر ، يشربونها ، ويدمنون شربها ، ويفرقون همومهم في كثورها ، ودنانها ، إذ رأوها مسكنا سريعا لآلامهم ، وقلق حياتهم ، وساعدهم على هذا انتشار الأديرة النصرانية في منطقة الكوفة وفي ظاهرها ^(٢) ، وبالحيرة القريبة منها ، حيث يتاحه للنازلين بها حظ كبير من الحرية واللهو ، والشراب والسماع ، وأيضا العبث بالجوارى والقيان ، وكان الرهبان في هذه الأديرة يبذلون في العناية بكرومها ، واتخاذ المعاصر لها ، ولهذا كان شراب الخمر من المسلمين يجدون في هذه الأديرة مكانا صالحا للشراب ، كما

(١) حياة الشعر في الكوفة ٢١٤

(٢) راجع : مسائل الأبحار ١ / ٣٩٢ ، ومعجم البلدان ٧ / ٢٢٩

كانوا يقصدون إليها ليمتاروا من خمرها ، وكان من أثر الإقبال على خمرها أن اتخذت حانات لها تباعه فيها ؛ لتظل لأماكن العبادة حرمتها ، وكانت هذه الحانات تقام — غالبا — بينحدائق هذه الأديرة ^(١) ولعل هذا الإقبال على الخمر والشراب ، مما يفسر تقديم أهل الكوفة شعر الأعشى على شعر غيره من الشعراء الجاهلتيين ، لإجادته وصف الخمر في شعره ^(٢) .

ومع ذلك فإن هناك طائفة من شعراء الخمر والمجون في الكوفة ، لم يكن الباعث عندهم التسلي عن الهموم ، وإنما أقبلوا على هذا اللون من الحياة ، وعبروا عنه ، تأثرا بعناصر من الحضارة الفارسية الوافدة من الحيرة — واسطة الحضارة الفارسية بين الفرس والعرب كما قدمنا — على بيئة الكوفة أولا ، لقرنها منها .

ولما كان الفرس قد سبقوا العرب في مضمار الحضارة ، فقد كان من بعض جوانب هذه الحضارة الميل الى الترف واللهو ، والتفنن في وسائلهما ، وبذا حملت الحضارة الفارسية بعض الأفكار الهدامة ، كما حملت كثيرا من العادات المنحرفة ، التي انعكس تأثيرها على هؤلاء الشعراء ، ثوره على العرف ؛ والتقاليد ، وجميع القيم الدينية والمورثة . والحق أننا لانستطيع أن نسقط من حسابنا تأثير العناصر الفارسية ، في تدعيم تيار المجون بالكوفة ، ومده بأسباب القوة والحياة .

ففى عصر انحطاط الدولة الفارسية اهتمت الطبقات المترفة من الفرس باللذائذ والشهوات ، فاستكثروا من الغلمان في قصورهم ودورهم ، يستخدمونهم في أغراض شتى ، ويزينونهم بما تتزين به الإناث ^(٣) ؛ كما غصت بيوتهم بالقيان ، والخليعات من الجوارى ، والأرقاء الفاسدين المفسدين ، كما كان السكر رذيلة شائعة بين كل الطبقات ^(٤) ، وانتقل كل ذلك إلى حياة الكوفة على يد بعض العناصر الفارسية ، التي انتشرت في المجتمع الكوفي منذ أيام الفتوح الإسلامية ، وكثرت كثرة هائلة في العصر الأموى ، يقول فلهوزن : إن أكثر من نصف سكان الكوفة كانوا من الموالي ، وأكثر هؤلاء

(١) حياة الشعر في الكوفة ٢٢٣

(٢) العملة لابن رشيقي ١ / ٦٢

(٣) تيارات ثقافية ١٢٥

(٤) قصة الحضارة الفارسية ٢ / ٤٥٤

من الفرس^(١)، وقد عاشت هذه العناصر في المجتمع الكوفي، وهي تحمل معها تقاليدها وحياتها الاجتماعية الأجنبية، ثم أخذت تؤثر في مجاورها ومخالطها من سكان الكوفة العرب، ومن بينهم بعض الشعراء.

هذا فضلا عن أن ميل الحياة الفارسية إلى اللذات، قد أثمر نوعا من الأدب الفارسي المكشوف، ترجمه المترجمون الفرس أو العرب^(٢) — أو ترجموا بعضه على الأقل — في العصر الأموي، فكان بمثابة القدوة المرشدة لطلاب اللهو والمجون في المجتمع الإسلامي بالكوفة.

وإلى جانب ماتقدم من عوامل ظهور شعر اللهو والمجون بالكوفة، ينبغي أن لا نغفل عاملا آخر، كان له تأثيره القوي في انتشار اللهو والمجون والتهتك بمجتمع الكوفة وظهور آثارها في الشعر الكوفي، نعني انتشار موجة الغناء والموسيقى، فالصلة حميمة بين هاتين الظاهرتين، ذلك أن الغناء اقتضى كثرة القيان، واختصاصهن ببيوت سميت (دور القيان)، وبعض هذه الدور كان مرتعا لرواد العتب والمجون والخلاعة، يتعوا فدون عليها، ليستمتعوا باللذات، «متأثرين بالآراء الإباحية التي تزين التحلل من سلطان الدين، والجراحة على حرمانه»^(٣).

على أنه كان لبعض غلاة الشيعة أثر واضح في الاتجاه إلى هذا اللون الماجن من الحياة بالكوفة؛ إذ جنح بعضهم إلى الحض على الإباحة، والإغراق في اللذات، متأثرين ببعض رواهب ديانات الفرس القديمة، وخاصة المزدكية — دين الإباحة والشيوع في الاء —^(٤) فساعدوا بذلك تيار المجون على الانتشار في بيئة الكوفة، التي كانت موطن نشاطهم الهدام ابتداء من هذا العصر.

نهض هذا التيار الماجن بالكوفة نتيجة لكل العوامل التي أوجزناها، ثم لم يلبث أن أخذ طريقه إلى الشام في أخريات العصر الأموي، على يد الخليفة الأموي الشاب، الوليد ابن يزيد، الذي أفسدته بيئة الترف واللهو المحيطة به، في عهد أبيه، الذي كان صبياً

(١) الخوارج والشيعة ٢١١

(٢) من المعروف أن الترجمة من الفارسية إلى العربية بدأت في العصر الأموي، على يد من أتقنوا اللسان العربي من الفرس، أو الذين أتقنوا اللسان الفارسي من العرب. انظر: تيارات ثقافية ١٨٢

(٣) المصدر السابق ١٢٣ — ١٢٤

(٤) تاريخ الطبري ٢ / ٨٨ ويارات ثقافية ٣٠

أيضاً باللهم والترف ، فأسبغ فتونهما على ابنه ، فشرب عليهما ، وأولع بهما ، ولم يتخل
عنهما حتى بعد أن تُصَّب خليفة للمسلمين ، وإماما لهم !!

وفيه يقول الطبري ، « ظهر من الوليد بن يزيد مجنون وشرب الشراب » ويقول :
« ظهر للناس منه تهاون بالدين ، واستخفاف به ^(١) » .

أما المسعودي فإنه يلقي أضواء أكثر على شخصية الوليد فيقول ^(٢) : « كان الوليد
بن يزيد صاحب شراب وهو وطرب ، وسماع للغناء ، وهو أول من حمل المغنين من البلدان
إليه ، وجالس الملهمين ، وأظهر الشراب والملاهي والعزف ... وغلبت عليه شهوة الغناء في
أيامه ، وعلى العام والخاص ، واتخذ القيان ، وكان متهتكا ، ماجنا ، خليعا » وقال : « والوليد
يدعى خليع بنى مروان » ^(٣) .

فلا بدع إذن أن يتطلع الوليد إلى المجان وأصحاب الخمر من شعراء الكوفة ، وأن
يستقدمهم إليه ويسمع منهم ويستمعهم ، ويتخذ منهم ندماءه ، وخاصة مجالسه
الماجنة ^(٤) .

وكان الوليد شاعرا ، فجاهر في شعره باللذة ، وارتكاب المحرمات ، دون مواربة أو
تحشم .

يقول ابن جرير الطبري ^(٥) « وتمادى الوليد في الشراب ، وطلب اللذات فأفرط ،
فقال له هشام (عمه) : ويحك يا وليد ، والله ما أدري على الإسلام أنت ، أم لا ، ماتدع
شيئا من المنكر إلا أتيت ، غير متحاش ، ولا مستتر به ، فكتب إليه الوليد :

يأيها السائل عن ديننا نحن على دين أبي شاعر
نشرها صرفاً ومزوجة بالسُّخْن أحيانا وبالفاتر

(١) انظر مثلا : سبط اللائ ١ / ١٤٣ ، وتاريخ الطبري ٨ / ٢٨٨

(٢) مروج الذهب (البهية) ٢ / ١٨٥

(٣) المصدر السابق ٢ / ١٨٧

(٤) لمزيد من المعرفة راجع حياة الشعر في الكوفة ٢٠٩

(٥) تاريخ الطبري ٨ / ٢٨٩ .

فغضب هشام على ابنه مسلمة ، وكان يكنى أبا شاعر ، وقال له : يعزى لك الوليد ... » من أجل هذا عدّ بعض الباحثين الوليد بن يزيد من أئمة المجان في العصر الأموي ، بل في القرن الثاني كله ^(١) .

— ٦ —

ولعلنا بعد هذا لانغفل تأثيرا الثقافة الدينية في وجدان بعض شعراء العصر الأموي ، وفي فهم أيضا ، وخاصة في العراق .

فقد نزع كثير من صحابة رسول الله ﷺ إلى هذا الإقليم منذ الأيام الأولى للفتح الإسلامي للعراق ، واستقروا في مدينتيه ، البصرة والكوفة ، ثم توالى وفود أعداد أخرى من الصحابة والتابعين ، والتف حولهم جمهور كبير من أهل المصرين ، يسمعون منهم فقه الدين ، ويأخذون عنهم أحكامه ، ويجلسون إليهم في حلقات دروسهم في المساجد أحيانا ، وفي دورهم أحيانا أخرى ، وبالطبع كانت المادة التي تدور في هذه الحلقات دينية خالصة ، من تفسير لكتاب الله ، أو رواية للمحدث الشريف ، أو وعظ وهداية ، وإرشاد مستمد من هذين الأصلين ، فتكونت بذلك مدارس دينية بالعراق ، فقد كان لكل صحابي مدرسة من التابعين ، تأخذ عنه ، وتلتف حوله ، كما كان لكل تابعي مدرسة من تابعيه ، تأخذ عنه أيضا وتلتف حوله ^(٢) .

كانت هذه الظاهرة الطيبة عاملا من أهم العوامل في بث روح الدين الصادق العميق في العراق ، هذا الدين الذي اتخذ في أبرز طابع موجة قوية واسعة المدى من الزهد ، كان هؤلاء الصحابة ، ومن تبعهم ممن صدق إيمانهم ، رواه وباعثي نهضته .

نعم ، انتشر الزهد في العراق ، وبلغ من المدى حداً لم يبلغه في بيئة أخرى من البيئات الإسلامية ، « فكل من يدرس هذه الموجة من الزهد ، ويتعقبها في الأقاليم الإسلامية ، أثناء عصر بني أمية ، يستطيع أن يلاحظ في وضوح ، أن أهم إقليم انتشرت

(١) اتجاهات الشعر (هدارة) ٢٠٩ ، وانظر : التطور والتجديد ٣٣٣

(٢) حياة الشعراء في الكوفة ١٨٧

فيه هذه الموجة ، هو أقليم العراق ^(١) ، فقد ظهرت فيه هذه النزعة إلى رفض زخرف الحياة الدنيا ، وإيثار التقشف ، في وقت مبكر ، بعيد الفتح الإسلامي وأوائل الدولة الأموية ، كما يقول جولد تسهير ^(٢) .

ولمعت في سماء العراق جماعات من الزهاد ، ارتقت إلى طبقات عالية من التجرد والروحانية الخالصة في العصر الأموي ، من بينهم : قتادة المحدث الزاهد المشهور ، والشعبي المحدث والعابد ، وعلقمة بن قيس ، والحسن البصري ، والربيع بن خثيم ، زاهد الكوفة الأكبر ، الذي يراه جولد تسهير المثل الكامل لحياة الزهد ، سواء في آرائه ومواعظه ، وفي أسلوب حياته ^(٣) ، فقد لخص الزهد في تسعة من ألوان السلوك ، ينبغي للزاهد أن يلزمها ، ولا يغفل عنها ، فقال : « أقلل الكلام إلا من تسع : تكبير وتهليل ، وتسبيح ، وتحميد ، وسؤالك الخير ، وتعوذك من الشر ، وأمرك بالمعروف ، ونهيك عن المنكر ، وقراءتك القرآن ^(٤) » .

ومن مشاهير زهاد الكوفة ، أويس القرني ، وهو من كبار التابعين ، تحدث عنه ابن سعد في الطبقات الكبرى ، قال : جاء رجل من مراد إلى أويس القرني ... فقال له : كيف الزمان عليكم ؟ فقال أويس : « ماتسأل رجلا إذا أمسى لم ير أنه يصبح ، وإذا أصبح لم ير أنه يمسي ، يأأخامراد ، إن الموت لم يبق للمؤمن فرحا ^(٥) » .

ولا يتسع المقام للإفاضة في ذكر زهاد العراق ، ومناقبهم ، وصور زهادتهم ، فقد كفانا ، ابن سعد في طبقاته مؤونة كل هذا ، فليرجع إليها من شاء ^(٦) ، ونكتفي بما حدثنا به من أنه كان في بني ثور (حي من أحياء الكوفة) ثلاثون رجلا ، مامنهم رجل دون الربيع بن خثيم ^(٧) .

(١) التطور والتجديد ٣٦

(٢) العقيدة والشرعة ١٣٠

(٣) المصدر السابق

(٤) طبقات ابن سعد ٦ / ٢٩

(٥) المصدر السابق ٦ / ١١٦

(٦) نجيل على الجزء السادس من الطبقات

(٧) طبقات ابن سعد ٦ / ١٣٣

ليس غريبا إذن أن يعمر العرق بألوان من الزهد ، وطبقات من الزهاد
ساروا على الدرب الذي اختطه لهم الرواد الأول من الصحابة والتابعين ، اقتداء
بهم ، وطلبا لحسنى العقبى مثلهم .

ولانسى ماسبقت الإشارة إليه في حديث اللهو والمجون بالكوفة ، من أن حياة
الاضطراب ، والقلق السياسى ، التى ألفت بظلمها القاتم على حياة الناس فى الكوفة قد
دفعت فريقا من الناس إلى لانصراف عن دنيا الناس ، التى يتطاحنون على حطامها ،
وخلفوها وراء ظهورهم ، وزهدوا فى متعتها ولذائذها ، وولوا قلوبهم وآمالهم ، إلى الدار
الآخرة الباقية ، مؤمنين بأن ما عند الناس ينفد ، وما عند الله باق ، وأن الباقيات
الصالحات خير عند الله ثوابا ، وخيرا أملا ، قد آثروا التقشف والزهد .

ولعل هؤلاء هم الذين عناهم جولدتسهير ، فيما ذهب إليه من أن الميل إلى الزهد
كان مرتبطا بالثورة على السلطان القائم ، وأن كثيرا من المسلمين لجأوا إلى حياة
الاعتكاف والزهد احتجاجا على ماينكرون من النظام السياسى ، وشاطروهم القرار من
الدنيا ^(١) ، ولا أدل على صواب هذا رأى من قول أويس القرنى : « الوحدة أحب
إلى ^(٢) » ، فرمى عنى أن الاعتكاف والانقطاع إلى العبادة ، والزهد فى الدنيا أحب إليه
من الالتفات إلى الحياة القلقة فى مجتمع عصره .

نستطيع بعد هذه النظرة فى مقومات حياة الزهد بالعراق ، فى العصر الأموى أن
نقول : إن الحياة فى مجتمع تشع فيه نفحات الزهد ، وتردد فى جنباته أنغامه الروحانية ،
لا بد أن تترك أثرها فى ضمائر جمهور من الناس ، وعقولهم ، أو على الأقل فى أسماعهم .
وبالطبع كان من بين هذا الجمهور عدد من شعراء العراق ، تفاوتت استجابتهم ،
لما يشاهدون من حياة الزهد ، وما يسمعون فى مجالس الزهاد ، وحلقات دروسهم ، إذ
لا نستطيع أن نتصور أن كل شعراء العراق كانوا بمعزل عن هذه الحياة الزاهدة ، أو « أن
ماديتهم كانت (مادة عازلة) تحول دون وصول هذا التيار الروحاني إلى نفوسهم ^(٣) » .
المعقول أن يكون شعراء العراق ، الذين احتكوا بهذه العناصر الزاهدة ، أو عاشوا
على مقربة منهم ، يشهدون مجالسهم ، أو يشاهدون أحوالهم ، قد تأثروا بتيار الزهد ،

(١) العقيدة والشرعة ١٣٠

(٢) طبقات ابن سعد ٦ / ١١٤

(٣) حياة الشعر فى الكوفة ٥٠٣

والمعقول أيضا أن يكون لهذا التأثير صداه في أشعارهم ، مادام الشعر ، كما هو معروف ، مرآة لنفس مبدعه .

وسوف نلمح نماذج من هذا التأثير في شعر كل من : الفرزدق ، وجبرير ، والطَّرِمَاح بن حكيم ، ووضّاح اليمن ، وعُروة بن أذينة فقيه المدينة وزاهدها ، وذو الرُّمة ، وأعشى همدان وغيرهم .

— ٧ —

وبالمثل لانستطيع — في مقام الحديث عن الظروف والعوامل التي وجهت الشعر في العصر الأموي — أن نغفل تأثير الحركة العقلية والفكرية والثقافية في توجيه بعض النتائج الشعرى لهذا العصر ، وتغذية عقول شعرائه بألوان من الفكر والثقافة ، كان له صدى غير قليل في أشعارهم .

لقد بدأ نشاط هذه الحركة ممثلاً أولاً في الحلقات الدينية التعليمية ، التي انتشرت في مكة والمدينة ، والكوفة والبصرة ، ودمشق .. وغيرها من الأمصار الإسلامية ، التي نزها ، أو استوطنها عدد من أصحاب رسول الله ﷺ ، أو بعض تلاميذهم من كبار التابعين . وقد انصبّت عناية هذه الحركة الدينية التعليمية على تفسير كتاب الله ، ورواية حديث رسول الله ﷺ ومدارسته ، واستنباط الأحكام الفقهية ، والتشريعية منهما ، وكانت هذه الحركة أكبر الحركات العلمية ، في العصر الأموي ، وأوسعها نشاطاً . وعنّها ، وتحت تأثيرها صدرت ألوان من الشعر ، متأثرة بالنظر الديني ، والعاطفة الدينية ، كالشعر الذي عبر عن حياة الزهاد ، وأفكارهم ، وضروب أخرى ونماذج أخرى من الشعر عكست بعض المضامين الدينية ، أو رددت ألفاظاً ، وعبارات ومصطلحات دينية ، إلى غير ذلك ، مما يمكن أن نسلكه فيما أسميناه سابقاً بالشعر الديني .

ثم لم تلبث الحركة العقلية والثقافية ، أن اتخذت مساراً ، أميل إلى التفكير العقلي والفلسفي ، القائم على البحث والنظر ، والحوار والجدل والمناظرة . عرف أصحاب هذا اللون من الثقافة الفكرية العقلية بالمتكلمين ، وتمثل في المذاهب الكلامية ، التي عرفت في هذا العصر ، والتي اتخذت من العراق خاصة مركز إشعاع لثقافتها وأفكارها ، وميداناً لحلقات دروسها ، ومجالس مناقشتها ومناظراتها ، وجدالها فيما بينها .

عرف العصر الأموي من هذه المذاهب الكلامية : الشيعة ، والمرجئة ، والمعتزلة ، والجبرية والقدرية ... وغيرها . وقد اقترنت نشأة أكثر هذه الفرق في العصر الأموي ، بظروف سياسية ،

وأهواء سياسية ، كانت القاعدة الأساسية التي انطلقت منها ، وقامت أفكارها المبكرة على هدى منها .

وقد رأينا من قبل كيف نشأ التشيع لعل وآل بيته على أساس نظرية سياسية تقول بحق آل البيت في خلافة الرسول ﷺ وإمامة المسلمين ، وكثرة من عقائد الشيعة تدور حول هذه النظرية السياسية ، أو تنبثق منها .

ولو تتبعنا نشأة المرجئة ، لوجدناها ترتبط ارتباطا وثيقا بالسياسة ، فقد وجد بعض الصحابة في أيام النزاع الحزبي بن عليّ ومعاوية ، أن كلا من الفريقين يستحل دم الفريق الآخر ويرمي به بالبغي والكفر ، فتحيروا ، وغم عليهم وجه الحق ، ومن ثم آثروا اعتزال الفريقين ، وتوقفوا عن الحكم عليهما .

في هذا الجو السياسي المضطرب المتخاصم ظهرت المرجئة ، مذهبا سياسيا مسالما ، يعلن للجميع ، أن الشيعة والخوارج والأمويين مؤمنون ، وليسوا كفارا ، بعضهم مخطيء وبعضهم مصيب ، ولكننا لانستطيع أن نعين ، أيهم المخطيء ، وأيهم المصيب .

وعلى أساس من هذه الظروف السياسية ، قامت أراؤهم في الإيمان ، ومدلوله ، فما داموا لا يكفرون أحدا من المسلمين المتحاربين ، فمن الطبيعي أن يحددوا معنى الإيمان ، فمن قائل منهم ، بأنه التصديق بالقلب ، فيكفي أن يكون الإنسان مؤمنا بالقلب بأن الله واحد وأن محمدا رسوله ، وأن ما جاء هو الحق ؛ ليكون مؤمنا ، ولا يشترط مع ذلك الإقرار باللسان ، ومنهم من ذهب إلى أن الإيمان إقرار بالقلب وتصديق اللسان ، وكلهم على أن العمل (أي أداء الطاعات كالصلاة والصوم ... ونحوها) ليس جزءا من الإيمان ^(١) ، ثم تفرعت المسائل ، وتجددت القضايا ، واتخذت أفكار المرجئة صبغة دينية ، وبذا تطورت إلى مذهب ديني ، وصار أنصارها فرقة من فرق المتكلمين ^(٢) .

وقد لا يكون من لوازم هذا البحث ، أن نتبع هذه المذاهب والفرق ، في نشأتها وتطورها ، وأن نعرض لمبادئها وآرائها ، فقد أفاضت كتب الفرق والعقائد في عرضها ومناقشتها ، وما يهمننا هنا أن نذكر أن آراء هذه الفرق ، ونظرياتها ، كانت تمثل نشأة الحركة الفلسفية الحقيقية في الإسلام ، التي اتخذت من المسائل الاعتقادية موضوعا للبحث والنظر والجدل ^(٣) .

(١) الملل والنحل ١ / ٢٦٠ ، ٢٦٣

(٢) راجع فيما ذكرناه عن المرجئة : مقالات الإسلاميين ١ / ١٩٧ وما بعدها ، والفرق بين الفرق ١٩٠ وما بعدها ، وانظر : فجر الإسلام ١ / ٣٤٢ ، وضوح الإسلام ٣ / ٣١٦ - ٣١٨ ، والعقيدة والشرعة ٧٥

(٣) انظر : تاريخ الفلسفة في الإسلام ، هامش ص ٤٨ ، ٥٠ ، وفجر الإسلام ١ / ٣٥١ - ٣٥٢

وليس من شك في أن ما كان يدور بين هذه الفرق من حوار وجدل ، أثر في العقلية العربية حينئذ ؛ فإن الناس ومعهم الشعراء كانوا يستمعون إلى ما يدور في مجالس هذه الفرق ، من نقاش وجدل ومناظرة .

من ذلك مثلاً : أن رجلاً جاء إلى الحسن البصري ، وعنده الفرزدق الشاعر ، فقال : يا أبا سعيد ، إنا نكون في هذه البعوث والسرايا ، فنصيب المرأة من العدو ، وهي ذات زوج ، أفتحل لنا من قبل أن يطلقها زوجها ؟ فقال الفرزدق : قد قلت أنا مثل هذا في شعري ، فقال الحسن : وما قلت ؟ قال قلت :

وذا حليل أنكحتنا رماحنا حلا لا لمن يبنى بها لم تطلق
فقال الحسن : صدق ^(١) .

وجاء آخر ، فقال : يا أبا سعيد ، الرجل يقول : لا والله ، ولم والله ، في كلامه ، لا يريد الإيمان ، فقال الفرزدق : أو ما سمعت ما قلت في ذلك ؟ لقد قلت :
ولست بمأخوذ بلغو تقوله إذا لم تعمّد عاقدات العزائم ^(٢)
ولكن كان هذا الشعر متأثراً بثقافة ، تأخذ طابعا فقهيا دينيا ، فهناك أشعار أخرى ، تردد بعض مقولات علم الكلام ، أو الثقافة الفكرية لفرق المتكلمين .
يقول عون بن عبد الله — من مرجئة الكوفة — معبرا عن تراجمه عن الإرجاء : ^(٣) :

وأول ما أفارق غير شك أفارق ما يقول المرجئون
وقالوا : مؤمن من آل جور وليس المؤمنون بجائرينا
وقالوا : مؤمن دمه حلال وقد حرمت دماء المؤمنين
فهو يعجب ، كيف يعد المرجئة أهل الجور مؤمنين ؟ ، وكيف يحكمون على المتقاتلين من المسلمين بالإيمان ، سواء منهم القاتل والمقتول ؟ مع أن دماء المؤمنين محرمة ، وقد عرفنا منذ قليل أنهم لا يرون العمل جزءاً من الإيمان .
وهذا مرجيء آخر ، يتمسك بمقولة مذهبه بعدم الحكم على عليّ ومعاوية والحرب بينهما ، كما يعبر عن رأى فرقته في معنى الإيمان ، وهو محارب بن دثار الذهلي : ^(٤)

(١) العمدة ١ / ٣٠ ، وانظر : الأغاني ١٩ / ١٤

(٢) المصدر السابق

(٣) الأغاني ٩ / ١٣٩

(٤) الأغاني ٧ / ٢٤٨ (دار الكتب)

يعيب على أقوام سفاها وإرجائي أبا حسن صواب
فإن قدمت قوما قال قوم إذا أيقنت أن الله ربي
وأن الرسل قد بعثوا بحق فليس على في الإرجاء بأس
بأن أرجى أبا حسن عليا عن العزمين برا أو شقيا
أسأت وكنت كذابا رديا وأرسل أحمدأ حقا نبيا
وأن الله كان لهم وليا ولا لبس ولست أخاف شيأ

وأشبه هذه المعاني تعكس بعض مقولات المذاهب الكلامية في العصر الأموي ، خاصة أشعار الشعراء الذين عرف من تاريخهم أنهم كانوا كثيرون التردد على مجالس المتكلمين ، أو لازموا رأسا من رؤوسهم ، كالفرزدق ، الذي يقال أنه لزم حلقات دروس الحسن البصري ^(١) ، وجريير ، الذي لزم حلقة ابن سيرين ^(٢) .

كما خطت الحركة العقلية خطوات أخر ، مع بدايات النظر في العلوم الدخيلة ونقصد بها تلك المعارف ، التي أخذ بعض المثقفين من المسلمين — العرب وغير العرب — ينقلها إلى اللسان العربي ، من ألسنتها الأصلية ، ويدخل فيها معارف وعلوم وثقافات لأمم اليونان ، والفرس ، والهند ، والسريان ، وغيرهم .

وقد ظهرت بواكير هذه المعارف المترجمة في العصر الأموي ، وبخاصة في حياة الأمير الأموي خالد بن يزيد بن معاوية (توفي سنة ٨٥ هـ) . الذي كان يلقب بالحكيم ؛ لانصرافه لاكتساب العلا بالعلم ، فقد استقدم جماعة من علماء مدرسة الإسكندرية ، ووكل إلى بعضهم ترجمة بعض آثار اليونان ، في علوم الطب ، والكيمياء ، والفلك ، كما ترجمت آثار يونانية طبية أخرى أيام مروان بن الحكم ، وفي أيام هشام بن عبد الملك

(١) أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري ، مولى زيد بن ثابت ، وهو إمام أهل البصرة ، وحيرو زمانه ، بعده الصوفية أحدهم ، ويضعه المعتزلة على رأس فرقهم ، كما يعد من سادة القصاصين ، وأصدقهم ، ولد سنة ٢١ هـ وتوفي سنة ١١٠ هـ . انظر : طبقات ابن سعد ٧ / ١٤٠

(٢) أبو محمد بن سيرين ، مولى أنس بن مالك ، محدث ثقة ، وفقه عالم ، اشتهر بتفسير الأحلام ، وهو الحسن البصري سيد أهل البصرة علما وتقوى وورعا . توفي سنة ١١٠ هـ انظر : طبقات ابن سعد ٧ / ١٤٢ ، وانظر في ملازمة الفرزدق حلقة الحسن البصري ، وملازمة جريير حلقة ابن سيرين : العقد الفريد ٣ / ١٦٩ ، وطبقات ابن سلام ٢٨٣ — ٢٨٥ والعمدة ١ / ٣٠

ترجمت رسائل أرسطو إلى الإسكندر ^(١) ... فكان هذا إيذانا ببدء نهضة عقلية ، لم تلبث أن زكت وازدهرت في العصر العباسي ، غير أن هذه الخطوة في الحركة العقلية ، لم تترك أثرا واضحا في شعر هذا العصر ، ربما لتأخر ظهورها ، أو لقلة نتائجها ، ولأن الأمويين — بعامّة — لم يشجعوا كثيرا هذه الألوان والمعارف العلمية ، بقدر تشجيعهم للحركة الأدبية ، والقصص الرسمى ؛ إذ فتحو أبوابهم للشعراء والخطباء ، وعينوا القصاص في المساجد ، ولم يفعلوا مثل ذلك مع العلماء والفلاسفة ، فحاجتهم إلى الشعراء والقصاص كانت أشد ، فهم الذين ييشرون بهم ، ويشيدون بذكرهم ^(٢) .

وبعد :

فقد كان همنا في هذا الفصل أن نوجز الملامح العامة والبارزة ، للتغيرات السياسية ، والاجتماعية ، والحضارية ، والثقافية ، التي طرأت على حياة المجتمعات الإسلامية في العصر الأموي ، وماتج عنها من اتجاهات ، وأغراض ، وألوان شعرية عامة ، في هذا العصر .

ولعله قد اتضح لنا أن أهم هذه الاتجاهات ، أو الألوان مايلي :

- ١ — الشعر السياسي .
 - ٢ — شعر الخصومات القبيلية .
 - ٣ — شعر الخصومات الأدبية ، أو الفردية (النقائض)
 - ٤ — الغزل اللاهى العاثر
 - ٥ — الغزل العفيف ، أو العذرى
 - ٦ — الشعر الدينى (الزهد)
 - ٧ — الشعر المتأثر بالحركة الفكرية والعقلية .
- وسنعالج بالدراسة في هذا الجزء الأول الألوان الخمس الأولى منها على أن نخصص للونين الآخرين ، الجزء الثانى من كتابنا هذا ، إن شاء الله ، فهو المستعان .

(١) راجع تفصيل هذه الحركة العقلية في : تاريخ آداب اللغة العربية (زيدان) ١ / ٢١٧ — ٢١٨ وفجر

الإسلام ١ / ١٥٧ — ١٥٨ ، ١٩٢ — ١٩٤

(٢) انظر : فجر الإسلام ١ / ١٩٣

الفصل الثاني

شعرُ الخصومة السياسيّة

تقديم

مفهوم السياسة من وجهة النظر الإسلامية يعنى : تدير شؤون الأمة حسب التعاليم الإسلامية ، التى تتناول الجوانب الدينية والدنيوية معا ؛ ذلك أن الإسلام — كما فهمه المسلمون الأولون — دين وسياسة ، عقيدة ونظام ، فالدين والسياسة متلازمان فى الشريعة الإسلامية .

من هنا كانت الخلافة أول مسألة احتدم حولها الخلاف بين المسلمين ، وتشعبت فيها آراؤهم ، وتكونت حولها أهم الفرق الإسلامية فى العصر الأموى ، ومن هنا أيضا كان مفهوم الخلافة — كما يقول ابن خلدون ^(١) : حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ؛ إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهى فى الحقيقة ، خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين ، وسياسة الدنيا به .

والإرتباط بين النزعات السياسية ، ومنصب الخلافة أو الإمامة ، أقدم من العصر الأموى ؛ إذ يرجع إلى الفترة التى تلت وفاة الرسول ﷺ .

فقد ووجه المسلمون بمشكلة اختيار خليفة للرسول ﷺ يتولى قيادة الأمة ، ويقوم على مصالحها الدينية والدنيوية ، وزاد من صعوبة الاختيار أن النبى ﷺ توفى ، ولم يعرف المسلمون — معرفة يقينية ، لايتطرق إليها الشك — رأيه فى ولاية أمر جماعة المسلمين من بعده ^(٢) .

لذا قفزت هذه المشكلة ؛ لتحتل المقام الأول من اهتمام المسلمين ، بحيث صارت المهمة الشاغلة لأذهانهم هى الفصل فى مسألة الخلافة .

وظهرت اتجاهات مختلفة ، أرادت أن توجه المسلمين فى اختيار الخليفة ، فالأنصار يرون أن تكون الخلافة فيهم ؛ فهم الذين آووا ونصروا ؛ والمهاجرون القرشيون يدفعونهم عنها ، ويفندون حجتهم ، على نحو ما هو معروف فى خبر السقية المشهور .

(١) مقدمة ابن خلدون ١٩١ .

(٢) انظر : العقيدة والشريعة ١٦٩ .

ولئن كان أهل السقيفة قد وفقوا — بعد جدال قصير — إلى اختيار أنى بكر القرشى المهاجرى الصحابى الصديق ، فأذعنت الأمة لهذا الاختيار ، فإن نفرًا من كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار أبدوا نعتهم على إهمال القرابة من الرسول ، باعتبارها من أهم الأسس — فى نظرهم — التى كان يجب مراعاتها فيمن يخلف الرسول ﷺ . وكان على بن أنى طالب ، فى نظرهؤلاء ، جامعا للأسس التى ارتضتها الجماعة ، من حيث الأصل القرشى ، والسبق إلى الإسلام ، وصدق الصحبة والجهاد ، وفوق هذا كله قرابته القريبة من صاحب الدعوة .

غير أن هؤلاء نفر لم يجدوا فرصة مواتية أمام إجماع الجمهور الأعظم من المسلمين على أنى بكر ، ثم عمر من بعده ، ثم عثمان فى سنواته الأولى ؛ ليرفعوا أصواتهم عالية لتحقيق ما رتأوا .

وقد أتاحت هذه الفرصة بعد أن اختلف الناس على عثمان ، اختلافًا أدى إلى مصرعه ، فتجددت مشكلة الخلافة مرة أخرى ، فالخليفة السابق لم يعين خلفًا له ، كما فعل أبو بكر ، ولم يحصر الخلافة فى عدد محدود ، يختار المسلمون من بينهم من يرتضونه ، كما أثر عمر أن يفعل ، فاحتدم الصراع منذ ذلك التاريخ حول منصب الخلافة .

حول هذه الخلافة ، ولمن تكون ؟ وما يتعلق بها من حقوق وواجبات ، والأسس التى يقوم عليها اختيار الخليفة ، حول هذا كله قامت دعوات ، وآراء ، سياسية ودينية ، تميزت بصراع عنيف فيما بينها ، فى العصر الأموى ، واعتمد هذا الصراع على السيف أحيانًا ، وعلى اللسان أحيانًا ، وعليهما معا ، يظاهر كل منهما الآخر ، أحيانًا أخرى . وفن القول الشعرى ، الذى صاحب هذه الدعوات والآراء ، تأييداً ودعماً ومساندة ، أو تنفيذاً ودفعاً وإبطالاً وتزييفاً ، هو مانعنا هنا بالشعر السياسى .

والشعر السياسى — بهذا المفهوم — قد سلك ، فى العصر الأموى ، طرقاً شتى فى تناوله لأمر السياسة ، التى دار حولها صراع الأحزاب .

فمنه ما أثر أسلوب البرهنة والاحتجاج ، على صدق دعاوى الحزب الذى يظاها ، ونقض دعاوى الأحزاب الأخرى المناوئة له وتنفيدها فى أسلوب شعرى ، لايلتزم

دائما القواعد والأشكال المقررة لأساليب الجدل والبرهنة والاحتجاج — على نحو مايفعل فن النثر — وعلى القارئ ، أو السامع ، أن يرتب المقدمات والنتائج ، بردها إلى مواضعها من الكلام ، ثم عليه بعد ذلك أن يستخلص بنفسه الحقائق ، أو النتائج ، التي لم يصرح بها الشاعر .

وقد يقف الشعر مؤيدا لمذهب سياسي ، مستخدما في ذلك أساليب أخرى ، ليس من بينها أسلوب البرهنة والاحتجاج ، كأن يعمل على نشر مبادئ الحزب والتنويه بها ، ويشيد بزعمائه ورجالاته وانتصاراته ، ويرثي من قضى من قادته وشهادته ، ويتهم على غيره من الأحزاب المعارضة ، ويهجو سادتها ورجالها ، ويصممهم بها ينفر المسلمين منهم ، ويصرف الناس عن مذهبهم ، كل ذلك على أساس من العقيدة السياسية المذهبية التي يدين بها صاحب هذا الضرب من الشعر .

وقد يكون من الشعر السياسي مايمدح قادة مذهب منوهاً بهم ، مشيدا بخصالهم وسياستهم ، أو يرثي قتلاهم الذين سقطوا شهداء الصراع الدموي مع خصومهم ، أو يعجب بمآثرهم ، مع أن قائله لايعتق مبادئ هذا الحزب وآراءه ، وإنما يكون ذلك منه طمعا في دنيا يصيبها ، أو تخلصا من إيداء واقع عليه ، أو دفعا لضرر متوقع يخشى نزوله به .

فالكميت ^(١) شاعر الشيعة المتعصب مدح عبد الملك بن مروان ، وهشام بن عبد الملك مضطرا ، بعد أن جدَّ الأول في طلبه ، وحبسه الثاني .

ومن قوله في مدح بني أمية ، من قصيدة أنشدها بين يدي هشام بن عبد الملك ^(٢) .

أَبْنَى أُمَيَّةَ إِنَّكُمْ أَهْلُ الْوَسَائِلِ وَالْأَوَامِرِ
ثَقَتِي لِكُلِّ مُلْكٍ دُونَ الْعَشَائِرِ
أَنْتُمْ مَعَادُنُ لِلْخِلَافَةِ كَابِرًا مِنْ بَعْدِ كَابِرٍ .. إلخ

(١) أبو عمارة — أو أبو المستهَل — الكميت بن زيد الأسدي القرشي ، شاعر مقدم عالم بلغات العرب ، خبير بأيامها ، فصيح خطيب ، عاش بالكوفة ، وتعصب لضر ، واشتهر بالتشيع لبني هاشم ، وكانت بينه وبين الطرماح شاعر الخوارج خلطة ومودة ، على اختلاف مذهبهما ، وكانت ولادته أيام مقتل الحسين بن علي سنة ٦٠ هـ ، ووفاته في أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ١٢٦ هـ . انظر : الموشح ١٧٢ ، ١٩١ والأغاني ١٥ / ١٠٨ والشعر والشعراء ٢٣٧ وطبقات ابن سلام ٦٣١ ومعاهد التنصيص ٢ / ٢٦ ومابعدها ، ورسائل الجاحظ ٢ / ١٣٦ والعبر للذهبي ١ / ١٦٣ ومجالس العلماء ٢١٦ .

(٢) الأغاني ١٥ / ١١٣ ، ومعاهد التنصيص ٢ / ٢٩

وعُبِّدَ الله بن قيس الرقيات ^(١) ، الذى كان يتشيع لابن الزبير ، مدح عبد الملك ابن مروان بعد أن ظل هائما على وجهه ، محتفيا من بنى أمية عاما بعد وفاة مُصْعَب بن الزُّبَيْر ، ملتسما منه العفو ، حتى عفا عنه ، واستمع إلى مدائحہ ، ومنها قوله فيه وفي قومه :

ما يَقْمُوا من أُمِيَّة إِلَّا أَنَّهُمْ يَحْلُمُونَ إن غضبوا
وَأَنَّهُمْ سَادَةُ المُلُوكِ فَلَا تَصْلُحُ إِلَّا عَلَيْهِمُ العَرَبُ
إِن الِاعْرَ الذى أبوه أبو الِ حاصى عليه الوقار والحُجْبُ
يعتدل التاج فوق مَفْرِقِهِ على جبين كأنه الذهب
خليفةُ الله في رعيَّتِهِ جَفَتْ بِذَلِكَ الأَقْلَامُ والْكَتَبُ ^(٢)

وروح التكلف في ماء هذا الشعر واضحة ، ونرى ، أن الشاعر أساء فيه إلى بنى أمية ، أكثر مما أحسن ، ألا نراه قد جعلهم ملوكا ، بل سادة الملوك ؟ والمملك بدعة ، لا تتفق مع نظام الحكم في الإسلام ، كما أن الشاعر أوحى من طرف خفى بأنهم جبابرة ، لا يصلح العرب إلا شدة سطوتهم ، ثم إنه لما لم يجد مايؤيد به دعواهم في الخلافة ، من حق يؤيده الشرع ، أو منطق يُقَرُّ به العقل ، رَدَّها إلى القضاء والقدر ، كما يفهم من البيت الأخير .

ولقد أدرك الخليفة عبد الملك بن مروان — الممدوح بهذا الشعر — مافى هذا النظم من تكلف ، وما يفتقر إليه من صدق الانفعال ، وربما فهم منه ما فهمنا ، فلام الشاعر قائلا ^(٣) : أتقول لمصعب بن الزبير :

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شهاب من الله تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ
وتقول لى :

يعتدلُ التاج فوق مفرقة على جبين كأنه الذهب !؟

(١) أبو هاشم ، أو أبو هشام ، عبيد الله بن قيس بن شريح ، قرشى الأب والأم ، والرقيات لقب له ، قيل : لأنه كان يشب بثلاث نسوة ، اسم كل واحدة منهن رقية ، وقيل غير ذلك ، كان يتشيع لابن الزبير ، وله غزل جيد ، توفي سنة ٨٥ هـ ، انظر : الأغاني ٤ / ١٥٧ ، والشعر والشعراء ٣٤٤ ، وطبقات ابن سلام ٥٢٩ ، وخزانة الأدب ٣ / ٢٦٨ ، وسمط اللآلى ١ / ٢٩٤ ، والموشع ١٨٧

(٢) الأغاني ٤ / ١٥٧ ، ١٥٩ ، وطبقات ابن سلام ٥٣٣

(٣) الكامل للمبرد (الأثرية) ١ / ٢٠٧ ، وسمط اللآلى ١ / ٢٩٥ ، والموشع ١٨٦

وينحو هذا مدح أيمن بن خُرَيْم الشاعر الشيعي^(١) ، بشر بن مروان ، فقال :^(٢)
 كَانَ التاج تاجَ بنى هِرَقْلَ جَلَّوْهُ لأَعْظَمِ الأعياد عيداً
 يصافح خد بشرٍ حين يُمسي إذا الظلماء باشرت الخدودا

فالشاعر صريح في رؤياه لخلافة بنى أمية وحكمهم ، وأنه ملك ، وهم ملوك ، بل
 ملوك هرقلية ، لاخلفاء دولة إسلامية !!

ولعل مما يلقي الضوء على مافي هذا الشعر من صنعة وتكلف — فوق ماذكرنا —
 مايروى من أن محمد بن علي الطالبي ، قال لأيمن بن خريم : « تزعم أنك من شيعتنا ،
 وتمدح آل مروان ؟! فقال : إنما أسخر منهم ، فأجعلهم حيات وعقارب ، وأخذ
 أموالهم^(٣) ».

والحق ، أن الأمويين ، لما جعلوا من الخلافة الإسلامية ملكا متوارثا ، كما اعترف
 بذلك مؤسس دولتهم ، معاوية بن أبي سفيان ، قائلا في فخر : « أنا أول الملوك » ، لم يكن
 لهم أن يلوموا الشعراء إن مدحهم بما يمدح به الملوك ، من قوة السلطان ، وشدة البأس
 على الأعداء ، وعظيم الهيبة ، وأبهة الملك ، واعتدال التاج فوق رؤوسهم ... وما إلى ذلك ،
 مما هو أليق بمدح الملوك منه بمدح الخلفاء ، الذين يستند حقهم في الخلافة إلى أسس
 شرعية دينية .

وكان معروفا من سياسة بنى أمية مع الشعراء ، أنهم يحرصون على تأليف قلوبهم ،
 بالجوائز السنية ، والعطايا السخية ، فلا غرابة أن هفت قلوب كثير من شعراء الفرق
 الأخرى إلى أموالهم ، وإن جفتهم قلوبهم .

وأوضح مثل هؤلاء الشعراء ، أيمن بن خريم ، المتشيع لآل البيت بعامة ، وكثير

(١) أيمن بن خريم بن فاتك الأسدي ، شاعر فارس متشيع ، اعتزل الجمل وصفين ، ومابعدهما من الأحداث
 ولأبيه صحة ، انظر : الأغاني ٢١ / ٥ ، وممط اللآلئ ١ / ٢٦٢ ، وحماسة الطرقات ١ / ٨٢

(٢) العمدة ١ / ٢٠٨

(٣) الموشح ١٤٤ ، وانظر فيما أشار إليه من تشبيههم بالحيات والعقارب شعرا له في المصدر نفسه ١٤٤ —

عزة^(١)، شاعر الشيعة الكيسانية، والطَّرِمَاح بن حكيم^(٢)، الخارجي المذهب.
أما أيمن بن خريم، فقد مدح عبد الملك بن مروان، وأخويه: عبد العزيز، وبشر،
وغيرهم من بني أمية طمعا في عطائهم لاغير، ولأدل على ذلك من قوله في مدح بشر بن
مروان^(٣):

ولو أعطاك بشرٌ ألفَ ألفٍ رأى حقاً عليه أن يزيدا
أميرَ المؤمنين أقسمَ يبشرُ عُمودَ الدين إن له عمودا
ودعُ بشراً يُقَوِّمُهم ويُحدثُ لأهلَ الشرك إسلاماً جديداً

ولعمري لقد حدد الشاعر بضاعته بنفسه صراحة، ولأبأس من أن يساوم على
المزيد !! .

وأما كثير عزة، فله قصيدة طويلة جيدة في مدح عبد الملك بن مروان، نظر فيها
إلى ماعرف عن عبد الملك من بصره بالشعر، وتقديره للشعراء، وإجزال العطاء لهم،
وهي طويلة التي مطلعها^(٤):

(١) أبو صخر الخزاعي المدني، عبد الرحمن بن أبي جمعة الأسود بن عامر بن عويمر، لقب كثيرا؛ لأنه كان
شديد القصر — على سبيل السخرية — وتشيع على مذهب الكيسانية، وكان عمر بن عبد العزيز يقول: إني
لأعرف صالح بنى هاشم من فاسدهم، بحب كثير، من أحبه منهم فهو فاسد، ومن أبغضه فهو صالح، وكان عبد
الملك بن مروان يعجب بشعره، ويقول: أراه يسبق السحر، ويغلب الشعر، وتعشق عزة بنت جميل بن حفص من
بنى حاجب ابن غفار، وكنيتها أم عمرو الضمرية، نسبة إلى قبيلة ضمرة، وكثيرا ما يطلق عليها الحاجبية نسبة إلى
جدها الأعلى، ولكنه كان متهما في صدق عشقه، وروى ابن سلام، وأبو عبيدة أخبارا في تأييد كذب صباهته،
وكانت وفاته بالمدينة سنة ١٠٥ هـ. انظر: الأغاني ٨ / ٢٥ وما بعدها، وأيضاً ٨ / ١٨٩ ومعاهد التنصيص ١ /
١٨٢ وما بعدها، والعبر للذهبي ١ / ١٣٢ وفيه أنه مات سنة ١٠٧ هـ. وابن خلكان ١ / ٥٤٧، وتزيين
الأسواق ٣٩، وحزاة الأدب ٢ / ٣٨١، وفيها: كثير بن عبد الرحمن .

(٢) أبو نضر الطرماح بن حكيم الطائي من فحول الشعراء في العصر الأموي، نشأ بالشام ثم عاش بالكوفة
صديقا للكُميت بن زيد، وكان هو والكُميت يعملان الصبغة بالكوفة. توفي سنة ١٠٠ هـ، انظر: الأغاني ١٠ /
١٤٨ ومعاهد التنصيص ٢ / ٢٦ والشعر والشعراء ٢٢٨ والمؤتلف والمختلف ١٤٨ والاشتقاق لابن دريد ٣٩٢
وشرح الحماسة للمرزوق ٢٢٧

(٣) الأغاني ١ / ١٢٧، ٢١ / ٨ ورسائل الجاحظ ٢ / ٢٧٧

(٤) انظرها في طبقات ابن سلام ٤٥٨، ٤٦٠. الدلاص: الدرر البراقة للمساء. المسدي: الناسج،
الذي عمل سداها ولحمها. سردها: نسجها. أذلها: جعل لها ذيو لا.

على ابن أبي العاصي دلاص^١ حصينة أجاد المُسَدِّي سرّدها وأذالها
وخص يزيد بن عبد الملك بعدة قصائد جياذ مشهورة ، أتابه يزيد على إحداها
بمائة ألف درهم .

وكثير نفسه يصرح بأنه مامدح بنى أمية إلا طمعا في جوائزهم ، فقد قال لأبي
جعفر محمد بن علي العلوي ، لما لأمه في هذا المديح^(١) : « لم أقل .. بإمام الهدى ، إنما
قلت : يا شجاع ، والشجاع حية ، وبأسد ، والأسد كلب ، وبأغيث ، وأغيث موات ،
فتبسم أبو جعفر » .

أى أنه كان يمدحهم بمعان تقليدية جوفاء ، لاتعنى تفضيلا لهم على آل البيت .
والطرماع بن حكيم ، مدح بعض ولادة بنى أمية ، طامعا فيما بأيديهم من مال ، فقد دخل
على خالد بن عبد الله القسري ، في ولايته بالكوفة ، وقال^(٢) .

وشيّنى أن لأزال مناهضاً بغير غنى أسموا به وأبوع
وأن رجال المال أضحوّوا ومألهم لهم عند أبواب الملوك شفيح
أُمخترمي ربّ المنون ولم أنل من المال ما أعصى به وأطيع
فأمر له بعشرين ألفا ، وقال له : « اعص بها الآن وأطع إذا شئت » .

فالطرماع كسابقيه ، طامع في العطية ، بل ربما كان أكثر صراحة منهما ، إذ
اقتصر على الطلب ، ولم يقدم له بضاعة من مديح .

وغير هؤلاء كثير ، ممن نوهوا ببني أمية ، وهم يعتنقون مذاهب أخرى ، تتفاوت
أشعارهم جودة وضعفا ، ولكنها تقبل منهم ، ويشجعون عليها من بنى أمية بالعطايا
والتكريم ، أو بغفران خطاياهم ، أو برفع الأذى والضر عنهم ، اصطناعا منهم للشعراء ،
حتى يكثر قاصدوهم ، والمشيديون بذكرهم ، مادام في ذلك بعد لصيتهم ، وقوة لنفوذهم
ومكانتهم^(٣) ، ولعلمهم بما لقول الشاعر من تأثير في نفوس عشيرته ، لأنه لسان حالها .

(١) أمالي المرتضى ١ / ٢٨٧

(٢) ديوان المعاني ٢ / ٢٣٨ ، وانظر أمثلة أخرى في الأغاني ١٠ / ١٥٢

(٣) انظر : تاريخ الشعر السياسي (الشائب) ١٠

من ثم اصطنع بنو أمية الشعراء ، واستعانوا بهم على اختلاف قبائلهم وبطونهم ومنازعهم ، « فازداد الشعراء بذلك نفوذا وتقربا من الخلفاء أو الأمراء ، وكان الخليفة يعد مدح الشاعر له دليلا على رضى قبيلته عن أغراضه ... والقبيلة تعد لإكرام الخليفة لشاعرها إكراماً لها ^(١) » .

وقد تجتمع كل هذه الألوان من الشعر السياسى فى شعر حزب أو أكثر ، وقد يخفى بعضها ، على نحو ماسنرى فى دراستنا التالية ، لشعر كل فرقة أو حزب على حدة .

— ١ —

شعر الشيعة:

يرتبط نشاط الشيعة السياسى بنشاطهم الشعرى ، فكل منهما صدى لعقيدة أساسية ، تنادى بأن خلافة الرسول ﷺ وإمامة المسلمين حق لآل البيت وحدهم ، وهذا الحق عدا عليه بنو أمية واغتصبوه ، بالغدر والظلم والقهر والتآمر . كما يرتبطان فى الباعث ، لأن كلا منهما منبعث عن شعور السخط المتأجج فى صدور الشيعة على هؤلاء الغاصبين .

وكانت سياسة بنى أمية إزاء زعماء آل البيت وشيعتهم عاملا هاما فى تنمية هذا السخط وتلهبه ، فقد أخذوا كل حركة شيعية قامت لنصرة الأئمة ، واستعادة حقهم بالشدة والعنف ، وتتبعوا آل البيت أنفسهم بالقتل ، والتشريد ، والتعذيب ، والاضطهاد ، فقتلوا الحسين بن على بكربلاء ، فيما يشبه أن يكون مذبحا ، سفكت فيها دماء كل من مع الحسين من آل بيته وأبناء عمومته ، ولم ينج منها إلا النساء والأطفال ، واشتد وقعها فى نفوس المسلمين بعامة ، وألهبت مشاعرهم ومشاعر الشيعة وشعرائهم ، إلى جانب كثير من شعراء المسلمين الآخرين ، فهبوا ينددون فى كل مكان بهذه الجريمة البشعة فى حق أبناء النبى ﷺ ، ويصورون نكر هذه المذبح ، ويحملون ضمير المسلمين وزر خذلان آل البيت .

كما قتلوا زيد بن على بن الحسين (سنة ١٢٢ هـ) ، الذى خرج على هشام بن عبد الملك ^(٢) بالكوفة ، وبعثوا برأسه إلى هشام بدمشق ، ثم أرسلت إلى المدينة ، أما جثاته

(١) تاريخ آداب اللغة العربية (زبدان) ١ / ٢٢٠

(٢) انظر فى خروج زيد بن على وقته : تاريخ الشعوب ١ / ١٩٠ ومروج الذهب (البجعة) ٢ / ١٨١ -

١٨٢ والخوارج والشيعة ٢٥٩ ، ومقالات الإسلاميين ١ / ١٣٠ ، ١٤٤ ، والعمر للذهبي ١ / ١٥٤

فصلبوه عريانا مدة ثم حرقوه في الرياح ، ويقال : إنه ظل مصلوبا حتى توفي هشام سنة ١٢٥ هـ .

ولما خرج ابنه يحيى على الوليد بن يزيد بنواحي خراسان ، أخذ وقتل (سنة ١٢٤ هـ) وأحرق جثمانه ، وألقى برمادة في الفرات ، وقيل : ظل مصلوبا إلى أن خرج أبو مسلم الخراساني صاحب الدعوة العباسية ، فأنزله وصلى عليه ، ودفنه بالجوزجان من بلاد خراسان ^(١) ، وكان قتل زيد وابنه يحيى على هذا النحو من أسباب زيادة البغض للأُمويين ^(٢) .

امتزج سخط الشيعة على بنى أمية بالحزن على أئمتهم المغيصيين ، المضطهدين ، المشردين ، الذين لا يملكون قوة مادية كالتي يملكها خصومهم ، ولا يجترءون على الحق ، كما اجترءوا .

وانعكس ذلك كله في أشعار شعرائهم ، محبة لآل البيت ، وحزنا على مآصياهم ، وتمجيذا وإشادة بأئمتهم ومذهبهم ، واحتجاجا وبرهنة على صواب حقهم في الخلافة ، وهجاء وتنديدا بأعدائهم ، وحول هذه الموضوعات دار أكثر شعر الشيعة السياسي .

أ - إظهار المحبة لآل البيت :

من الواضح أن القلوب التي هفت إلى آل البيت ، والتفت حولهم ، ونبضت بحبهم وإجلالهم ، كانت تنبعث في هذا كله ، أساسا عن محبة الرسول ﷺ وإجلاله ، والوفاء بحقوقه على الأمة ، وأولى هذه الحقوق بالرعاية مودة آل بيته عملا بقوله تعالى : ^(٥)

(١) انظر خروج يحيى بن زيد ومقتله في : مروج الذهب (البهية) ٢ / ١٨٥ ، والخوارج والشيعة ٢٦٠

(٢) انظر : ضحى الإسلام ٣ / ٢٧٣

(٣) المصدر السابق . قالوا: مات الحجاج وقد بلغ من قتله صبرا (من الشيعة وغيرهم) مائة وعشرين ألفا ، وكان في حبه عند موته خمسون ألف رجل ، وثلاثون ألف امرأة ، منهن ستة عشر ألفا مجردة ، وكان يجس النساء والرجال في موضع واحد ، ولم يكن للحبس ستر يستر الناس من الشمس والمطر . مروج الذهب (البهية) ٢ / ١٥٧

(٤) فجر الإسلام ١ / ٣٢٢

(٥) سورة الشورى ٤٢ / ٢٣

« قل لأسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » .

وليست محبة آل البيت قاصرة على من تشيعوا لهم ، ووقفوا عواطفهم عليهم دون غيرهم ، فهذه المحبة شركة شائعة بين قلوب المسلمين ، من تشيع منهم لحق آل البيت ، ومن لم يتشيع .

غاية الأمر أن الشعراء من غير الشيعة لم يفيضوا في التعبير عن هذه المحبة إفاضة شعراء الشيعة ، ولم يفتنوا افتنانهم ، ولم يطرقوا من المعاني في هذا المجال ، كثرة وجدة ، مثل ماطرق شعراء الشيعة .

فكثير عزة يردّ على من يعاتبه في حب آل البيت ، ويعد ذلك من مساوئه ، ذاكرة أن من يحب النبي ﷺ وعلياً وأبناءه ، والحسن والحسين ، ومحمد بن الحنفية ، لا ينبغي أن يعاتب ؛ لأنّ حبهم ليس ذنباً ، وإنما هو قرى ، يتقرب بها إلى الله ، راجياً أن تكفر سيئاته ، وتمحو ذنوبه : (١)

إن امرءاً كانت مساوئه حبّ النبي لغير ذى عتب
وبنى أوى حسن ووالدهم من طاب في الأرحام والصلب
أترون ذنباً أن نحبه بل حبهم كفارة الذنب

ويتجه شاعر شيعي آخر إلى أسلوب آخر يؤكد به مكين حب آل البيت في قلبه ، واستغناؤه به عما سواه ، يقول حرب بن المنذر بن الجارود (٢) :

فحسبني من الدنيا كفاف يُقيمني وأثوابُ كُثبان أزورُ بها قُبُرى
وحُبِّي ذوى قُرَى النبي محمد فما سألنا إلا المودة من أجر

فهذا الشاعر يقف حياته كلها على حب آل بيت النبي ، ويجعل حبهم همه ووسكده ، وزاده للآخرة ؛ ومن ثمّ فهو لا يطمع أن يصيب من حاجات الدنيا إلا الزاد القليل ، الذي يقيم أوده ؛ ليواصل هذا الحب ، والكفن الذي يستره في رقدة القبر . وواضح أن الشاعر ينظر في البيت الثاني إلى قوله تعالى : « قل لأسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » .

(١) ديوانه ٤٩٤

(٢) لم أعثر على ترجمة له ، والشعر في البيان والتبيين ٣ / ٣٦٥

وأبو الأسود الدؤلى^(١)، شاعر محب لآل البيت، يرى حبهم من فيض حبه لله، وهذا الحب متمكن من قلبه، لن يحيد عنه، يحيا عليه، ويبعث يوم القيامة عليه.

وأبو الأسود ممن تعرضوا للأذى في سبيل هذا الحب، إذ كان ينزل في بنى قُشَيْر، وهم يخالفونه في المذهب، فكانوا يؤذونه كثيرا؛ لتشيعه لعل وآل بيته، وكثيرا ما كانوا يقذفونه بالحجارة ليلا، فإذا أصبح شكا ذلك، فشكا مرة، فقالوا: مانحن نرميك، ولكن الله يرميك، فقال: كذبتم، لو كان الله يرميني مأخوفاً^(٢).

ويبدو أنهم لاموه في تشيعه لآل البيت، فهو يرد عليهم بأنه مصيب في حبهم، سواء أكان هذا الحب رُشداً أو غياً في نظرهم^(٣):

أحبُّ محمداً حباً شديداً وعباساً وحمزة والوصيَّ
وجعفر إن جعفر خير سبط شهيداً في الجنان مُهاجرين
يقول الأزدلون بنو قُشير طوال الدهر ماتنسى علياً
بنو عم النبي وأقربوه أحبُّ الناس كلهم إلياً
فإن يك حُبهم رُشداً أصبه وفيهم أسوة إن كان غياً
أحبهم لحب الله حتى أجيء إذا بُعثت على هوى
هوى أعطيته منذ استدرات رَحَى الإسلام لم يعدل سويّاً

فحبه كما نرى، نبع من حب الله ورسوله، وينبغى أن لا نخدع بظاهر قوله:

فإن يك حبهم رُشداً (البيت)، فنفهم أنه لم يكن على يقين من رُشده أو غيه في حبه آل البيت، يقول أبو عبيد البكرى: «لم يشك أبو الأسود في أنه رشد،

(١) ظالم بن عمرو بن جندل بن سفيان، من بنى الدؤل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، شاعر إسلامي فارس، أدرك علياً بن أبي طالب وصحبه، وروى عنه، وتشيع له، وهو أول من وضع كتاباً في النحو، لما كثر اللحن، ويعد أبو الأسود من التابعين، والمحدثين، والتحويين، والقضاة، والمعلمين، كما أنه أحد البخلاء، والمفاليح والعرج.

مات بالطاعون سنة ٦٩ هـ. انظر: الأغاني ١١ / ١٠١ وسمط اللآل ١ / ٦٦، ٢ / ٦٤٢ والشعر والشعراء ٢٨٠ والمؤلف ١٥١ والإمتاع والمؤانسة ٣ / ٣٣، وابن خلكان ١ / ٣٠١، وفي نوادر بحله انظر: عيون الأخبار ٢ / ٣١. قالوا: وبنو الدؤل من كنانة، وبنو الدؤل — غير مهموز — من حنيقة، وبنو الدؤل من عبد القيس، انظر: سمط اللآل ١ / ٦٦.

(٢) أمالي المرتضى ١ / ٢٩٣

(٣) ديوانه ٧٣ وانظر: سمط اللآل ٢ / ٦٤٣ وأمالي المرتضى ١ / ٢٩٣ والكامل للمبرد (الأزهرية) ٣ / ١١٩ - ١٢٠. السبط: ولد الولد. لم يعدل سويّاً: مستوى، لم ينحرف. هوى: مأهوى، وهو حب آل البيت.

وهو على تأويل قول الله عز وجل ^(١) : « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ^(٢) » .

هذا الشعر وغيره ، وقف عند حد التعبير عن محبة آل البيت ، وإظهار محبتهم المتغلغلة فى قلوب شعرائه ، وهى عاطفة سامية حقاً ، غير أن آل البيت — فى ظل ظروف الاضطهاد ، التى كانوا واقعين تحت نيرها ، وحققهم السليب ، وعجزهم عن استرداده — كانوا يحتاجون من شعراء مذهبهم إلى أكثر من مجرد إظهار الحب لهم ، كانوا فى حاجة — مع هذا — إلى شعر يقف إلى جانب حقهم ، يؤيده ، ويصر الناس به ، ويقنعهم بصوابه ، أو يدعو إلى إبراز شخصيتهم المتميزة فى تدينها وتقواها ، وحسن بصيرتها بالدين ، وسياسة المسلمين ، فيجذب القلوب إليهم ، ويعطفها نحوهم ، أو يدعو لعقيدتهم ، ويقنع بها العقول ، ويحببها إلى القلوب ، ونحو ذلك مما من شأنه أن ينهض بالدعاية لهم ، ولحقهم ، ومذهبهم ، ويجمع الأنصار حولهم .

ولقد نهضت ألوان أخرى من الشعر الشيعى لأداء هذا الواجب ، وتحقيق هذه الأغراض ، فكانت أكثر إيجابية فى خدمة أئمة آل البيت ، وقضاياهم ، ومذاهبهم ، كما سنرى فى المباحث التالية :

ب — الاحتجاج لحق الأئمة فى الخلافة :

قلنا إن الشعر الشيعى ينبعث — أساساً — عن عواطف المحبة لآل البيت ، التى هى نبع محبتهم لله ورسوله ، وهذه المحبة كانت تأخذ — أحياناً — فى شعر الشيعة طابعاً أكثر فاعلية ، فى خدمة المذهب الشيعى ، فلا يكتفى الشاعر بمجرد إظهار هذه العاطفة على نحو مارأينا فى النماذج السابقة ، بل إن الشاعر الشيعى قد يدفعه حبه لآل البيت ، وتحمسه لحقهم الضائع ، إلى أن يجعل من شعره منبراً للاحتجاج لقضيتهم ، وتقرير دعواهم فى حق الإمامة ، تقريراً مدعوماً بالأدلة والبراهين ، مصحوباً بالجدل ، ومناقشة الخصوم .

(١) سورة سبأ ٣٤ / ٢٤

(٢) سبط اللآل ٢ / ٦٤٣

ويعد الكميت بن زيد — المتشيع للهاشمية بعامة ، المتمذهب بمذهب الزيدية منهم بخاصة ^(١) — أول من مهد هذا الاتجاه في الشعر الشيعي ، وفتح لشعرائه باب الاحتجاج لمذهبهم ، ودلهم على طرق هذا الاحتجاج .

ومنهج الكميت في ذلك لا يقوم على الإقناع العاطفي فحسب ، وإنما يعتمد — أولاً وقبل كل شيء — على الإقناع العقلي ، الذي يتخذ لتحقيقه أساليب ثابتة لا يحد عنها ، أي أن شعر الكميت المتشيع يتغياً إقناع العقول ، قبل التأثير في القلوب .

فالكميت يستعين في شعره هذا بالنظر العقلي ، كما يستعين بالاستدلال النقل ، مستغلاً بعض آيات القرآن العظيم ، التي يراها تقرر حق الأئمة .

والواقع أن ثقافة الكميت العقلية ، هي التي هدته إلى هذا الاتجاه ، وهيأت له هذه السبيل ، فقد كان على صلة وثيقة بالفكر المعتزلي ، عن طريق علاقته الوطيدة بإمامه زيد بن علي ، الذي كان حجة في مقولة المعتزلة ^(٢) — من ناحية — وصلته بواصل بن عطاء — رأس المعتزلة — من ناحية أخرى .

وكانت محصلة هذا الاتصال تأثر الكميت بمنهج الاعتزال ، الذي ينهض على جناحي : الاستدلال العقلي ، والاحتجاج بآي القرآن العظيم ، في تقرير مسائل الاعتزال .

ويرى بعض الباحثين المحدثين ^(٣) أنه « من الممكن أن نلاحظ أيضاً أن اتصال الكميت بالفقه الحنفي ، كان عاملاً آخر من عوامل هذا الاتجاه العقلي ، وهل كان من الممكن أن يتصل الكميت بأبي حنيفة ومدرسته ، دون أن يتأثر بطريقتهم في القياس ، وبمذهبهم العقلي في مناقشة المسائل والوصول إلى الفروع من الأصول ؟ » ^(٤) .

حقاً لم يكن الكميت رجلاً من عامة الناس ، وإنما كان فقيهاً ومعلماً ، فلم يكن من المعقول ، أن يتنكر لثقافته الفقهية حين ينظم شعره المتشيع ، ولم يكن له يد من أن

(١) لامتياز هذا الاتجاه في تشيع الكميت ، انظر : حياة الشعر في الكوفة ٧١١

(٢) انظر : التطور والتجديد ٢٤١ ، ٢٤٢

(٣) هو الدكتور يوسف خليف في كتابه : حياة الشعر في الكوفة .

(٤) حياة الشعر في الكوفة ٧١٢

يصوغ شعره صياغة العالم الفقيه ، الذى يعرف كيف يناقش المسائل ، ويثبتها بالأدلة والبراهين .

بهذا « لم يعد الشعر عند الكميت يعبر عن الشعور فحسب ، بل أصبح يعبر أيضا عن الفكر ، وأصبح يُشفع بكل ماوصل إليه العقل العربى فى هذا العصر من قدرة على الجدل والإقناع ^(١) » ، فكان شعره نموذجاً واضحاً فى هذا المنهج ، أمام غيره من شعراء الشيعة ، يهديهم ، ويفتح عيونهم ، على ماينبغى أن يكون عليه الشعر ، الذى يجعل من حق الأئمة ، وقضايا مذهبهم موضوعاً له .

وللكميت شعر كثير فى هذا الباب ، يؤلف مجموعة من القصائد والمقطعات ، اشتهرت باسم « هاشميات الكميت » هى من جيد شعره ومختاره ، كما يقول العباسى ^(٢) .

هذه المجموعة تضم أربع قصائد طوال ، تتراوح ما بين مائة وأربعين بيتاً ، ومائة وثلاثين بيتاً ، وقصيدتين قصيرتين ، إحداهما مجموع أبياتها ثلاثة وثلاثون ، والأخرى عشرون ، ومقطعتين أبيات كل منهما سبعة ، ثم ثلاث مقطعات قصيرة ، عدة كل منها بيتان .

هذا من حيث كمّها ، وعدد قصائدها ومقطعاتها ، أما من حيث مضامينها ، فإنها — فى مجموعها — دفاع عن حق الهاشميين فى الإمامة ، ضد الأمويين غاصبى هذا الحق .

ويحقق الكميت هذا المضمون العام من خلال ثلاثة موضوعات هى :

- ١ — مدح بنى هاشم ٢ — هجاء بنى أمية ٣ — الموازنة بين عدل الأئمة وجور الخلفاء الأمويين ، وبين شخصيات الأئمة ذات السمات المتدين التقى الورع ، وشخصيات الأمويين ذات الطابع الملكى المترف ، الظالم ، المحرف لكتاب الله وسنة رسوله ، المبتدع فى الدين مالىس منه .

(١) التطور والتجديد ٢٤١

(٢) صاحب كتاب معاهد التصحيح . انظره : ٢ / ٢٦

ويلاحظ أن الكميت لا يعالج هذه الموضوعات ، باعتبار كل منها فنا مستقلا بذاته يقصد إليه قصدا ، وإنما يتناولها باعتبارها أساليب ، وطرقاً متنوعة لخدمة المضمون العام الذي أشرنا إليه منذ قليل ، فهو لا يقصد من مدح آل البيت الهاشميين إنشاء قصائد في المدح ، ولا يريد من هجاء الأمويين نظم قصائد في الهجاء ، وإنما همه من وراء كل هذا إثبات حق الأئمة الهاشميين في الإمامة ، والبرهنة على أن بنى أمية اعتصبوا هذا الحق منهم .

يتضح من هذا العرض الموجز لمضامين هاشميات الكميت ، أنها لم تكن تعبيراً عن مذهب الزيدية — الذى يدين به الكميت — وحده ، وإنما كانت تعبيراً عن العقيدة الشيعية ، في صورتها العامة ، ممثلة في شعارها الأساسي ، وعقيدتها الأصلية في حق آل البيت ، وبهذا الاعتبار يكون الكميت شاعر الشيعة الأكبر ، في تلك الفترة المبكرة من تاريخ التشيع ، وهاشمياته — بهذا الاعتبار — أيضاً تعد « ثورة نظرية يشنها هو نيابة عن بنى هاشم عامة ، ضد الأمويين ، الذين غصبوهم حقهم في الخلافة » ^(١) .

ومن دلائل هذه العمومية في تشيع الهاشميات للهاشميين ، أنها تضم مصطلحات شيعية ، بعضها مما يتفق فيه الشيعة ، وبعضها لا تقول به فرقة الزيدية التى ينتمى إليها الكميت .

فمما تتفق فيه فرق الشيعة ، الحديث عن علي بن أبى طالب بأنه « الوصى » أو « الوصى الولى » وعن الحسن بأنه « وصى الوصى » ، وعن أئمة الشيعة بعامة بأنهم « المهتدون » ، والحديث عن ولاية على يوم غدیر خُمّ .. إلى غير ذلك مما تقول به فرق الشيعة بعامة .

ومما لا تقول به الزيدية ، اختفاء محمد بن الحنفية — إمام الكيسانية — في شعب رضوى ، نرى إشارة إلى هذا المعنى في إحدى هاشميات الكميت ^(٢) ، وهذا إنما يقول به الكيسانية من الشيعة خاصة ، وعقيدة « التقية » ترد في الهاشميات ^(٣) ، مع أنها ليست من عقائد الزيدية .

(١) حياة الشعر في الكوفة ٧٢٥

(٢) ص ٢١

(٣) انظر ص ٣٨ ، ١٤٢

وليس معنى هذا أن الكميّ لم يتحدث بعقائد الشيعة الزيدية في هاشمياته ، فنحن واجدون فيها طائفة من عقائد مذهبه الزيدى ، باعتبارها جزءا من العقيدة الشيعية في صورتها المعتدلة .

هكذا نحا الكميّ في هاشمياته ، يناظر فيها عن الشيعة ، ويقرر نظريتهم ، مجادلا ، محاورا ، دافعا حجج الخصوم ، مثبتا مكانها حججا قوية ، من شأنها أن لا يجد الخصم مناصا من التسليم بها ؛ لأنها قائمة على قضايا ومقدمات صحيحة ، تارة تستمد من القرآن العظيم ، وأخرى تعتمد على التفكير العقلي المنطقي .

ولنبدا بهذا النموذج من الهاشميات :

يقول الكميّ ^(١) :

نَفَى عَنْ عَيْنِكَ الْأَرْقُ الْهُجُوعَا	وَهُمْ يَمْتَرِي مِنْهَا الدَّمُوعَا
لِفُقْدَانِ الْخِضَارِمِ مِنْ قَرِيْشٍ	وَخَيْرُ الشَّافِعِينَ مَعَ شَفِيعَا
لَدَى الرَّحْمَنِ يَصْدَعُ بِالْمَثَانِي	وَكَانَ لَهُ أَبُو حَسَنِ قَرِيعَا
حَطُوطَا فِي مَسَرَّتِهِ وَمَوْلَى	إِلَى مَرْضَاةٍ خَالَقَهُ سَرِيعَا
وَأَصْنَفَاهُ النَّبِيُّ عَلَى اخْتِبَارٍ	بِمَا أُغْيَا الرُّفُوضُ لَهُ الْمَذِيعَا
وَيَوْمَ الدُّوْحِ دُوحٌ غَدِيرُحُمٍ	أَبَانَ لَهُ الْوَلَايَةُ أَوْ أَطِيعَا
وَلَكِنِ الرِّجَالُ تَبَايَعُوهَا	فَلَمْ أَرْ مِثْلَهَا خَطَرًا مَبِيعَا
فَلَمْ أَبْلُغْ بِهَا لُغْنًا وَلَكِنِ	أَسَاءَ بِذَلِكَ لَوْلَهُمْ صَنِيعَا
فَصَارَ بِذَلِكَ أَقْرَبُهُمْ لِعَدْلِي	إِلَى جَوْرِ وَأَحْفَظُمْ مُضِيعَا
أَضَاعُوا أَمْرَ قَائِدِهِمْ فَضَلُّوا	وَأَقْرَبُهُمْ لَدَى الْحَدَثَانِ رِيعَا
تَنَاسَوْا حَقَّهُ وَبَغَوْا عَلَيْهِ	بَلَا تَرَةً وَكَانَ لَهُمْ قَرِيعَا

(١) هاشميات الكميّ ٨١ — ٨٢ . يمتري : يحلب ، استعاره من مَرَى ضرع الناقة ليدر لبنها . الخضارم : جمع خضرم (بكسر الخاء والراء) : السادة الكثيرون العطاء ، يقال : بثر خضرم : كثير الماء . يصدع : من الصدع ، ومن الشق ، والمراد : يشق عصا الكفر بالقرآن ، أو يفرق به بين الحق والباطل . المثاني : القرآن ، أو مآثر من آياته مرة بعد مرة (انظر : القاموس المحيط ، مادة : ثنى) القريع في البيت الثالث : المقروع ، أى المختار ، وفى البيت الأخير : السيد . الحطوط : السريع . غديرخم : موضع بين مكة والمدينة .
الرّيع : الطريق والنهج .

هنا يحتج الكميت لحق على في الخلافة ، وهو يبدأ هذه الآيات بالتعبير عما أصابه من سهد وهم ؛ لوفاة الرسول ﷺ ومن مضى على إثره من أئمة آل البيت . ثم يأخذ في الاحتجاج لحق على ، ويؤيد هذا الحق ، بأن عليا ابن عم النبي ﷺ ، والمقرب إليه ، الحريص على مرضاته ، ومرضاه الله ، ومع هذا فإن النبي ﷺ اختاره ليخلفه في الأمة ، بعد أن اختبره ، ولمس فضائله ، التي يصعب إنكارها على من يكرم ذكرها أو يذيعه .

وقد ثبت هذا الاختيار بنص الرسول ﷺ على ولاية علي يوم غديرخم ، وينتقد الكميت موقف الصحابة ، الذين منعوا عليا حقه في الولاية ، وأهملوا مأمرا به الرسول ﷺ من الولاية له ، فكانوا بذلك بين ظالم للحق ، باغ عليه ، ومضيع لأمر الرسول القائد .

ويستمد الكميت من مذهبه ، مذهب الزيدية المعتدل ، قاعدة يؤمن بها كل زيدى ، تقول بجواز إمامة المفضل مع وجود الفاضل ، ويستند عليها ، فيرفض أن يلعن أبابكر وعمر وعثمان ، والصحابة الذين بايعوهم ، ورضوا بإمامتهم ، ويرى أنهم أخطأوا فحسب ؛ لأنهم قدموا المفضل على الفاضل .

ويردد الكميت هذه الأفكار — تقريبا — في هاشمية أخرى — يقول فيها ^(١) :

أهوى علياً أمير المؤمنين ولا أرضى بشتم أنى بكرٍ ولا عمراً
ولأقول وإن لم يعطيا فذكاً بنت الرسول ولا ميراثه كفرأ
الله يعلم ماذا يأتيان به يوم القيامة من عذر إذا اعتذرا
إن الرسول رسول الله قال لنا إن الولي على غير ما هجرا
في موقف أوقف الله النبي به لم يعطه قبله من خلقه بشراً
هو الإمام إمام الحق نعرفه لا كاللذين استدلنا بما اتتمرا

(١) ص ١٥٦ . فذك قرية بالحجاز ، أفاء الله بها على رسوله ﷺ وطالبت بها ابنته فاطمة بعد وفاته فأبى أبو بكر ، وروى خبراً عن رسول الله ﷺ أن الأنبياء لا يورثون (انظر : اللسان : فذك) وانظر : عقيدة الشيعة ٣٦ ، وفي العقد الفريد ٣ / ١٧١ أن فذكاً كانت مما أفاء الله على رسوله فسألها فاطمة رسول الله فقال لها : مالك أن تسأليني ، ولأنى أن أعطيك . ثم توارثها بنو أمية حتى ردها عمر بن عبد العزيز إلى بيت مال المسلمين .

فهو يدور حول القاعدة التي يستمدّها من مذهبه ، وهي التي أشرنا إليها من قبل ، فيصحح خلافة أبي بكر وعمر ، مع قيام عليّ ، وهو أفضل عند الزيدية ، ويشير مسألة ميراث فذكّ ورفض أبي بكر وعمر أن يعطياه لفاطمة ، أو الاعتراف بحقها فيه ، ويصف عليا بأنه الإمام ، ويبني هذا الوصف على أساس ما صرح به الرسول ﷺ يوم غدिरخم ، بأنه مولاة ، وعلى الرغم من أن أبا بكر وعمر حرما فاطمة بنت الرسول ﷺ حقها في نظره فإنه لا يقبل بشتمهما ، ولا يقول بكفرهما ، بل يفوض الأمر فيهما لله ، فهو وحده الذي يعلم بماذا يعتذران بين يديه ، يوم الحساب ، عن موقفهما هذا .

والكميت في هاتين الهاشمتين يقتصر على بعض البراهين المستمدة من عقائد المذهب الزيدى ، وعقيدة الشيعة بعامة في ولاية عليّ بن أبي طالب ، إلى جانب بعض البراهين القائمة على صلة القرابة القريبة ، التي تربط بين النبي وعليّ ، كما يعتمد على ما هو معروف من مناقب عليّ وفضله ، وكلها براهين وحجج تعكس بدقة منهجه في الاستدلال الذي أشرنا إليه في صدر الحديث عن هاشمياته .

على أن هذا المنهج نراه بوضوح في هاشمية أخرى مشهورة ، يناقش فيها مسألة ميراث النبي ، ومن أحقّ به ، ويسوق من حجج النقل والعقل ما يؤيد به حق آل البيت في إرث النبي — ومنه الخلافة — نغنى الهاشمية التي مطلعها :

طَرِبْتُ وماشوقاً إلى البيض أطربُ ولا لعباً مِنِّي وذو الشيب يلعبُ
والتي يقول فيها :

ومالٍ إلا آل أحمد شيعة ومالٍ إلا مذهب الحق مذهب

وأبياتها التي تعكس منهجه في الجدل والبرهنة ، هي التي يقول فيها ^(١) :

(١) الهاشميات ٤٠ — ٤١ . آل حاتم : السور القرآنية المبسوطة (حم) وهي سبع سور ، غافر ، وفُصِّلَتْ ، والشورى ، والزخرف ، والدخان ، والجنات ، والأحقاف ، والآية المشار إليها في البيت ، هي قوله تعالى ، في سورة الشورى : « قل لأسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » لكم نصب : الت نصب هنا : الراية المنصوبة الواضحة ، أى إن وضوح دلالتها على حق آل البيت متعب لدى الشك ، ويجوز أن يكون الت نصب هنا : الغاية ، أى لكم غاية في تأويلها يابني أمية على غير وجهها ، ولكن هذا التأويل سوف يعتكم ويتعبكم الوصول إليه ، الفذ : الفرد ، والمقصود هنا أول خلفاء بنى أمية معاوية . الرديفين : يقصد من جاء بعده من الخلفاء الأمويين . نعتب : من أعتب : إذا أزال سبب العتاب . نعتب (بالبناء للمجهول) : من العتاب ، وهو اللوم . بكليل وأرحب ، وكل القبايل المذكورة بعدهما من عرب القحطانية ، سوى بكر وتغلب ، فهما عدنانيتان ، والمقصود : العرب جميعاً . راثموا : يعنى أحيوها ، وقبلوها من غير إكراه . غيظرت : أى دون أن يظأروا عليها ، أى دون أن يكرهوا على اعتناقها ، ورعايتها . أشبلوا : عطفوا ، يقال : أشبلت المرأة على أولادها بعد وفاة زوجها : إذا عطفت عليهم ، فلم تتزوج من أجلهم . تعذبوا : تآزروا على نصرتها .

بِخَاتِمِكُمْ غَضَبًا تَجُوزُ أُمُورَهُمْ وَجَدْنَا لَكُمْ فِي آلِ حَامِمٍ آيَةً وَفِي غَيْرِهَا آيَا وَآيَاتٍ تَتَابَعَتْ بِحَقِّكُمْ أَمْسَتْ قَرِيشٌ تَقُودُنَا وَقَالُوا: وَرَثَتَاهَا أَبَانَا وَأَمْنَا يَرَوْنَ لَهُمْ فَضْلًا عَلَى النَّاسِ وَاجِبًا وَلَكِنْ مَوَارِثُ ابْنِ أَمَنَةَ الَّذِي وَتَسْتَخْلِفُ الْأَمْوَاتُ غَيْرَكَ كُلَّهُمْ يَقُولُونَ: لَمْ يُورَثْ وَلَوْلَا تَرَاثُهُ وَعَكَ وَلَحْمُ وَالسَّكُونُ وَجَمِيرٌ وَمَا كَانَتْ الْأَنْصَارُ فِيهَا أَذْلَةً هُمْ شَهِدُوا بِذَرٍّ وَخَيْرٍ بَعْدَهَا وَهُمْ رَأَتْهُمْ غَيْرَ ظَهْرٍ وَأَشْبَلُوا فَإِنْ هِيَ لَمْ تَصْلُحْ لِقَوْمٍ سِوَاهُمْ

فَلَمْ أَرْغَضِبْأُ مِثْلَهُ يُتَغَضَّبُ تَأَوَّلَهَا مِنَّا تَقَى وَمُغْرِبُ لَكُمْ نَصَبَ فِيهَا الَّذِي الشُّكُّ مُنْصَبٌ وَبِالْقَدِّ مِنْهَا وَالرَّدِيفَيْنِ تُرْكَبُ وَمَا وَرَثَتُهُمْ ذَاكَ أُمٌّ وَلَا أَبٌ سَفَاهَا وَحَقُّ الْهَاشِمِيِّينَ أَوْجِبُ بِهِ دَانَ شَرَقِي لَكُمْ وَمُغْرِبُ وَتُغَيَّبُ لَوْ كُنَّا عَلَى الْحَقِّ تُغَيَّبُ لَقَدْ شَرَكْتُ فِيهِ بِكَيْلٍ وَأَرْحَبُ وَكُنْدَةُ وَالْحَيَّانُ : بَكَرُ وَتَغْلِبُ وَلَاغِيَّاءُ عَنْهَا إِذْ النَّاسُ غَيَّبُ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ وَالِدِمَاءُ تَنْصَبُ عَلَيْهَا بِأَطْرَافِ الْقَنَا وَتَحْدَبُوا فَإِنْ ذَوَى الْقُرْبَى أَحَقُّ وَأَقْرَبُ

في هذه الآيات يتجلى التفكير العقلي في تأليف الأقيسه ، واختيار المقدمات واستخلاص النتائج .

والكميت يبدؤها بتقرير القضية ، التي سيقم عليها الأدلة ، ويدير حولها النقاش :

بِخَاتِمِكُمْ غَضَبًا تَجُوزُ أُمُورَهُمْ فَلَمْ أَرْغَضِبْأُ مِثْلَهُ يُتَغَضَّبُ فيقرر أن خاتم النبي — وهو خاتم الخلافة — اغتصبه الأمويون من الهاشميين أصحابه الحقيقيين ، وبه تنفذ أمورهم ظلماً ، وهو اغتصاب لا نظير له في دنيا الظلم والاعتداء على حقوق الآخرين .
بعد هذا يأخذ في سوق الأدلة على أن الخلافة وما يترتب عليها من أنفاذ الأمور حق لأهل البيت ، ويعجل بالدليل النقلي ، فستدل بآية من القرآن العظيم في سورة حاميم (الشورى) وغيرها (١) .

(١) أما آية الشورى ، فقوله تعالى « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا » وأما غيرها ، فمن مثل قوله تعالى في سورة الإسراء (١٧ / ٢٦) : « وَأَتَا ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ » وقوله في سورة الأحزاب (٣٣ — ٢٣) : « إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا » وقوله في سورة الشعراء : « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » ، يفسرها الشيعة بأن المقصود بنو أمية الذي ظلموا أهل البيت باغتصاب حقهم في الخلافة .

وهي آيات تأمر بتمكين أهل البيت من حقهم ، أو تفضلهم بالإشادة بهم ، أو تقرر نظام التوريث في الإسلام ، الذى يجعل الهاشميين أصحاب الحق في وراثة ولاية المسلمين عن الرسول ، ويرهاها الكميت واضحة الدلالة — حسب تأويل الشيعة لها — على هذا الحق ، بحيث تعبى بنى أمية وتعذبهم ؛ إذ لا يستطيعون تأويلها على غير هذا الوجه ، ولاصرفها عنه .

والنتيجة ، أن الخلافة حق لبنى هاشم بحكم القرآن العظيم نفسه ، وقد اغتصب بنو أمية منهم هذا الحق ، واستبدوا بولاية المسلمين ، بدأ بذلك معاوية ، ثم سار على دربه كل من جاء بعده من خلفاء بنى أمية .

ثم يناقش الكميت مسألة الوراثة ، التى اتخذها بنو أمية مبدءاً ، ساروا عليه في تنصيب خلفائهم .

فيذكر أنهم يحتجون بأنهم ورثوها عن آبائهم (عن الخليفة الأموى عثمان بن عفان) وهو احتجاج مردود ؛ لأن الولاية ، لاتورث عن عثمان ، وإنما تورث عن الرسول ﷺ صاحب الدعوة ، والإمام الأول للمسلمين ، فهو الذى تورث عنه الخلافة ، وآله الأقربون ، وهم بنو هاشم ، أولى بميراثه من غيرهم .

ويكشف زيف حجة بنى أمية ، ومافيه من ضلال وتناقض ، بمنطق آخر ، فهم يدعون ميراث الخلافة ، وفي الوقت نفسه يقولون : إن النبى لايرث ^(١) .

ويفند دعواهم هذه بأن النبى لو لم يورث ، لكانت الخلافة حقاً لجميع المسلمين وليست قاصرة على قريش ^(٢) ، ولطلبتها القبائل العربية المختلفة من عدنانية وقحطانية ، بل كان للأنصار فيها الحظ الأوفر ، فهم الذين آووا ونصروا .

(١) روى أبو بكر عن الرسول ﷺ « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ... » انظر : الفرق بين الفرق ١٣

(٢) يرى الشيعة أن الإمامة في قريش ثم في أهل البيت منهم خاصة . راجع ص ٢٧ من هذا البحث .

النتيجة : أن الخلافة ميراث ، بدليل اختصاص قريش بها ^(١) ، ومادامت كذلك فلنتبع قانون الإسلام في التوريث ، الذى يجعلها حقا لأهل بيت الرسول المورث ؛ لأنهم أقرب الناس إليه ، ولنستردها من أيدي بنى أمية الغاصبين ، الذين يعطون أنفسهم حق الاستخلاف ، ولا يعطون للرسول ﷺ هذا الحق ، وهو أولى به .

وبلخص الكميت هذه النتيجة التى انتهى إليها فى البيت الأخير :
فإن هى لم تصلح لقوم سواهم فإن ذوى القرى أحق وأقرب
والآيات بعد هذا تعكس أيضا تفكيرا فقهيا ، ويرجع ذلك إلى طبيعة المسألة ، موضوع النقاش ؛ فهى تتضمن بحثا فقهيا فى مسألة الميراث ، التى يختلف فيها المذهب الشيعى مع المذهب السنّى ^(٢) .

ونقاش الكميت لهذه المسألة يقوم — بالطبع — على أساس الفقه الشيعى ، الذى يقدم القرابة على العصبية فى الميراث ، ولذا فابن العم الشقيق مقدم على العم لأب عند الشيعة ، وعند الشيعة أن الأنبياء يورثون .

وعلى أساس من هذه القواعد الفقهية الشيعية ، راح الكميت يناقش مسألة إرث النبى ﷺ ، ويختار مقدمات براهينه على النحو التالى :

الأنبياء يورثون ، ومحمد نبي ، وإذن محمد ﷺ يورث ، والقرابة مقدمة على العصبية فى الإرث ، وفاطمة أقرب للنبي ﷺ فهى مقدمة على من سواها ، وعلى ابن العم الشقيق ، مقدم على العم لأب ، فعلى وفاطمة هما أحق آل البيت بميراث النبى .

(١) يروى فى ذلك ، أن بشر بن سعد الأنصارى قام يوم السقيفة ، فقال مؤيدا حق المهاجرين ، حسما للنزاع : « ألا إن محمد ﷺ من قريش ، وقومه أحق به وأولى ، وأيم الله لا يراى الله أناز عنهم هذا الأمر أبدا ، فأتقوا الله ، ولا تغالظوهم ، ولا تآزر عوهم » (تاريخ الطبرى ٣ / ٢٠٩) وبهذا أيضا احت. أبو بكر لحق المهاجرين يوم السقيفة (المصدر نفسه ٢٠٨ — ٢٠٩) .

ونقول الأشعرى : « واحتج عليهم (يعنى أبا بكر) بقول النبى ﷺ : الإمامة فى قريش ، فأذعنوا لذلك منقادين » (مقالات الإسلاميين ١ / ٢٤) . وروى أن على بن أبى طالب سأل عما حدث فى سقيفة بنى ساعدة ، قائلا : ماذا قالت قريش ؟ فقالوا : احتجت بأنها شجرة الرسول ﷺ فقال : احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة . (شرح نهج البلاغة ٢ / ١٧٠) يعنى بالثمره أهل البيت .

(٢) راجع : ضحى الإسلام ٣ / ٢٦٠

والخلافة إرث عن النبي ﷺ لقريش (وهذا مااحتج به الأمويون وسائر القرشيين ، ومنهم المهاجرون يوم السقيفة) وعلى وفاطمة أحق قريش بميراث النبي ، ويرتب على هذا أن أبناءهما أحق قريش بالخلافة .

فإذا قال الأمويون : إن النبي لايرث ، كانت الخلافة حقاً لكل عرنى مهما كانت قبيلته ، وحيثذ ليس من حق الأميين قصرها عليهم .

هكذا نرى الكميت يؤلف من هذه القضايا الفقهية ، أقيسة عقلية ، راح يعتمد عليها في استخلاص النتيجة الوحيدة ، التي تؤدي إليها ، وهى أن آل بيت النبي (على وأبنائه) هم أصحاب الحق في خلافة النبي ، وهذه نتيجة صريحة ، يلزم منها عقلاً أن الأمويين مغتصبون لهذا الحق ، وهذا ما قصد إليه الكميت من هذا الشعر .

وهكذا كان الكميت يمضى في جدله واحتجاجه ، مستعيناً بالقرآن العظيم مرة ، وبالنظر الفقهي والعقلي مرة أخرى ، في أسلوب من الشعر لانعرفه لشاعر قبله ؛ لأنه لايعبر ، فقط ، عن الشعور والعواطف ، وإنما يعبر عن الفكر أيضاً ، فكان بذلك أول من فتح باب الجدل والتقرير والاحتجاج في الشعر العرنى .

ح : إبراز الجوانب الدينية والإنسانية في شخصية الأئمة (المدح السياسي) :

كثيراً ما يأخذ الشعر الشيعى مساراً آخر ، في التعبير عن حب آل البيت ، والولاء لهم ، والدعوة إلى الالتفاف حولهم ، بجذب القلوب إليهم ، فيقدم لهم صوراً مثالية ، تجعل منهم مثلاً علياً دينية وإنسانية ، في صفاتهم الذاتية والأخلاقية ، وسلوكهم الدينى والإنسانى .

وعنصر الدعاية في مثل هذا الشعر واضح ، لا يغيب عن البصر المتأمل ، فليس من شك في أن تقديم الأئمة في صور دينية وإنسانية على هذا النحو من المثالية ، يجلبهم إلى القلوب ، ويقربهم من النفوس ، فقد كان المسلمون في هذا العصر قريبى عهد بعصر الروحانية الدينية ، والمثالية الأخلاقية ، عصر النبوة والراشدين ، ومازال في القوم غير قليل من الصحابة ، وبينهم كثرة من كبار التابعين ، الذين أخذوا عنهم هذه الروحانية والمثالية ، وتمسكوا بها ، وأعلوا شأنها في دروسهم ومجالسهم .

ثم إن منصب الخلافة ، يقتضى أن يكون خليفة المسلمين قدوة للرعية ديناً وخلقاً وسلوكاً ؛ لأنه القائم على رعاية أمورهم الدينية والدنيوية — كما مر ^(١) — وإبراز أئمة آل البيت في سميت ديني وإنساني ، يجعلهم معقد أمل المسلمين الحريصين على صلاح حال الدين ، واستقامة أمور المسلمين ، وهذا لا يتحقق إلا إذا تولى أمر الإسلام أمثال هذه التماذج في دينها وتقواها وعدلها ؛ فترعى الحق ، وتعلو القدوة .

من هذا المنطلق أخذ شعراء الشيعة يضيفون على أئمتهم من الصفات ما يجعل منهم الأمل ، الذى يتطلع إليه المسلمون للخلاص من حكم ملكى ، لا يحرص كثيراً على الأسس الدينية والسياسية والإنسانية ، التى وضعها الإسلام لنظام الحكم فى الدولة الإسلامية .

ويختلف الشعر الشيعى فيما يقدم من هذه الصور ، من حيث شمول الصورة المقدمة لأئمة آل البيت بعامة ، أو اختصاصها بإمام منهم بعينه ، والمؤدى واحد على الحالين ، وهو تحقيق الغرض الذى ذكرنا .

فمن الشعراء الشيعيين من يجمع بين الأئمة جميعاً ، ويقدم لهم صورة عامة ، لا يخصص منهم أحداً بعينه ، وكأنما يوحى بأن خطوط هذه الصورة وملاحمها ، وظلالها ، محققة دائماً فى كل إمام من أئمة آل البيت ، لافرق بينهم فيها .

من هؤلاء الشعراء أئمن بن خرّيم ، الذى يقول فى الهاشميين ^(٢) :

نَهَارَكُم مُّكَابِدَةً وَصَوْمٌ	وَلَيْلُكُمْ صَلَاةٌ وَقِتْرَاءٌ
وَلَيْثُم بِالْقُرْآنِ وَبِالتَّزَكَّى	فَأَسْرَعُ فَيْكُمُ ذَاكَ الْبَلَاءُ
بِكَى نَجْدٍ غَدَاةٍ غَدٍ عَلَيْكُمْ	وَمَكَّةُ وَالْمَدِينَةُ وَالْجَوَاءُ
وَحُقُّ لِكُلِّ أَرْضٍ فَارِقُوهَا	عَلَيْكُمْ — لِأَبَالِكُمْ — الْبُكَاءُ
أَجْعَلَكُمْ وَأَقْوَاماً سَوَاءً	وَبَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمُ الْهَوَاءُ
وَهُمْ أَرْضٌ لِّأَرْجُلِكُمْ وَأَنْتُمْ	لِلْأَرْؤُسِهِمْ وَأَعْيُنِهِمْ سَمَاءُ

(١) راجع مفهوم الخلافة فى الإسلام ص ٦٢ من هذه الدراسة .

(٢) الأغاني ٢١ / ٦ . الجواء : موضع بالصَّعْثَانِ من رمل عالج .

هكذا يرى الشاعر الهاشميين ، ويرثيهم للناس ، حريصين على الطاعات ، ينفقون نهارهم وليلهم في عبادة متصلة ، وتقرب دائم إلى الله ، يكابدون الصوم نهاراً ، ويقطعون الليل سهارى ، بين صلاة وإتهال ، وترتيل لكلام ذى الجلال ، حتى غدوا ولاهم لهم إلا هذا النسك ، شغلوا به فشغلهم عن السعى لإدراك حقهم ، والتصدى لغاصبيه ، ومقاومة مايتلونهم به من صنوف الظلم والقهر والاستبداد .

إنها الخسارة فادحة أن يتساقط الأئمة الهاشميون واحداً إثر واحد ، فتحرم الدنيا من هذه المصاييح المضئية ، والمثل الورعة الثقية ، وتضج أركان الأرض الطاهرة بالبكاء عليهم ، لحرمانها من فضلهم وعدلهم وهدايتهم .

ولايفوت الشاعر أن يوحى لكل ذى عقل واع ، وبصيرة مستنيرة ، أن يوازن بين من هذه صفاتهم ، وبين خصوم لهم ، هم أدنى منهم منزلة ومقاماً — وهو بالقطع يقصد بنى أمية ، الذين تحدث عما ينزلونه بالأئمة من بلاء — وحينئذ سيدرك مادركه الشاعر من أن فرق ماينهم وبين هؤلاء ، هو فرق ماين السماء والأرض .

ويقدم الكميت بن زيد صورة أخرى لآل البيت الهاشميين بعامه ، ينزع فيها منزعا آخر ، فيقول (١) :

بَلْ هَوَاىَ الذِّى أُجِنُّ وَأُبْدَى	لبنى هاشم فروع الأنام
لَلْقُرَيْبِينَ مِنْ نَدَى وَالبُعِيدِ	من من الجور في غرى الأحكام
وَالْمُصِيبِينَ بَابَ مَاأَخْطَأَ النَّاسُ	سُ وَمُرْسَى قَوَاعِدَ الْإِسْلَامِ
وَالْغِيُوْثَ الَّذِينَ إِنْ أُمَحَّلَ النَّاسُ	سُ فَمَاوَى حَوَاضِنِ الْإِيْتَامِ
رَاجِحِى الْوِزْنَ كَامِلِى الْعِدْلِ فِي السَّيْرِ	ة طَبِئِينَ بِالْأُمُورِ الْعِظَامِ
غَالِبِئِينَ هَاشِمِيْنَ فِي الْعِلْمِ —	م رَبَّوْا مِنْ عَطِيَّةِ الْعِلَامِ
وَهُمْ الْآخِذُونَ مِنْ ثِقَةِ الْأُمَمِ	رِ بِتَقْوَاهُمْ غُرَى لَاانْفِصَامِ ..

(١) الهاشميات ٢٢ . أعمل الناس : أصابهم الجذب . الحواضن : الأمهات . طين : خاذقين . ربوا : زادوا ، يريد : خصوا بالعلم منحة من الله ؛ لأنهم أقرب الناس إلى النبي صاحب الوحي ، وفي هذا إشارة إلى عقيدة الشيعة في علم الأئمة . راجع ص ٢٦ من هذه الرسالة .

ألم نقل : إن الشعر الشيعي حرص على أن يضيف على الأئمة الكمالين :
الديني ، والإنساني ؟! فإذا كان أمين بن خريم قد قصد إلى إسباغ الكمال الأول عليهم ،
فإن الكمية هنا ، يجمع لهم أطراف الكمال الثاني ، دون أن يحرم صورته من بعض
اللمحات الدينية أيضا .

وهل تكون المثالية الإنسانية إلا جماعا لخصال : الكرم ، والعدل في الفصل بين
الناس ، والعلم ، والمرورة ، والبر بالضعيف ، ورجاحة العقل ، ونفاذ البصيرة والاستقامة في
القول والفعل ، والحدق والمهارة في سياسة الأمور العظام ، وعلو الكعب في الأصل
والشرف ؟

فإذا حفت هذه الخصال بالتقوى الصادقة ، والغيرة على الدين ، والحرص على
إرساء قواعده ، والثقة بالله ، وبحسن العقبى عنده ، حق للشاعر أن يجعل هوى قلبه
فيهم ، سراً وعلانية ، وحق لكل من يراهم على هذه الصورة أن ينزع هواه إليهم ، ويربط
أسبابه بأسبابهم ، وما إلى غير هذا قصد الشاعر بما قال .

وقد ينظر الشاعر الشيعي إلى إمام بعينه ، ويثبت له مايؤيد الصورة العامة عن أئمة
آل البيت ، ممثلة فيه ، أو يركز أضواء شعره على إمامه ، فيبرز من الصفات والدلائل
ما يعكس اعتقاده فيه .

ويغلب أن يستعين الشاعر في مثل هذه الصورة بعناصر دينية عقدية ، يستمدّها
من عقائد المذهب الذي يدين به .

فالسيد الحميري — وهو شيعي على مذهب الكيسانية — يرى إمامه محمد بن
علي (ابن الحنفية) مهدي هذه الأمة ، بهذا بشر النبي ﷺ ، حتى قبل أن يولد إمامه ،
فقد أنهى النبي إلى أمين سره ، وخازن علمه علي بن أبي طالب (هكذا يعتقد الشيعة) بأن
سيكون من ولده ، من يحمل اسمه وكنيته (أبو القاسم محمد) ، وأن من صفات هذا الولد
رجاحة العقل ، والتبحر في العلم ، وسلامة الطبع ، واستقامة الخلق ، فيكون المهدي من
بعده ، يغيب عن الأنظار ، محتفيا من الأخطار ، يتخذ من جبل رضوى دار لغيبته
المؤقتة ، حتى يظن الناس أنه مات ، ودفن بمكة .

يصوغ السيد الحميري هذه الصورة شعرا ، فيقول ^(١) :

أَلَمْ يَنْلُغْكَ وَالْأَنْبَاءُ تَنْبِيْ مَقَالَ مُحَمَّدٍ فِيمَا يُؤْدِي
إِلَى ذِي عِلْمِهِ الْهَادِي عَلَى وَخَوْلَةُ خَادِمٍ فِي الْبَيْتِ تَرْدِي
أَلَمْ تَرَّ أَنَّ خَوْلَةَ سَوَفَ تَأْتِي بِوَارِي الزُّنْدِ صَافِي الْخَيْمِ نَجْدِ
يَفْوزُ بِكِنْيَتِي وَاسْمِي لِأَنِّي نَجَلْتُهُمَا هُوَ الْمَهْدَى بَعْدِي
يَغِيْبُ عَنْهُمْ حَتَّى يَقُولُوا تَضَعْنَاهُ بِطَيْبَةِ بَطْنِ لَحْدِ
سَنِينَ وَأَشْهَرًا وَيُرَى بِرِضْوَى بِشَعْبٍ بَيْنَ أُنْمَارٍ وَأُسْدِ

والطابع المذهبي هو الغالب في شعر السيد الحميري هذا ، فهو ينظم بعض عقائد الشيعة الكيسانية في إمامهم محمد بن الحنفية .

ويتحدث كثير عزة — شاعر الكيسانية أيضا — عن إمامه ابن الحنفية ، ويرى أن إمامته ثابتة بالنص والوصية ، ولكنه لا يسترسل في هذه المعاني المذهبية ، كما فعل السيد الحميري ، فسرعان ما يلجأ إلى صيغ صورة أمامه ، بصيغة أخرى ، تعتمد على بعض الفضائل الدينية والإنسانية العامة ، فيقول ^(٢) :

وَصَّى النَّبِيَّ الْمُصْطَفَى وَابْنَ عَمِّهِ وَفَكَأَنَّ أَغْلَالَ وَقَاضِي مَعَارِمِ
أَبْنَى فَهُوَ لَا يَشْتَرِي هُدًى بِضَلَالَةٍ وَلَا يَتَّقِي فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَا مِ

فابن الحنفية انتهت إليه الإمامة عن طريق النص والوصية من النبي على أبيه علي ، ثم من علي على ابنه محمد ، ولذا فقد اجتمعت له من خصائل الأئمة صفات المروءة ، وإغاثة المكروب ، والعطف على الضعفاء ، والورع والتقوى ، والشجاعة في الحق ، لا يخشى فيه لومة لائم .

(١) الأغاني ٧ / ٤ . خولة : أم محمد بن علي ، من بني حنيفة . تردى : تضرب الأرض برجلها مسرعة في العدو ، والمراد أنها كانت ماتزال في بيت أهلها تروح وتغدو مسرعة في العمل . الخيم : السجبة والطبيعة . طيبة : اسم من أسماء مكة المكرمة (انظر : كتابنا : أمراء الشعر في العصر الجاهلي ص ٥٤ هامش ٤) أنمار وأسد : نمور وأسد ، يقصد أنه يعيش بين هذه الوحوش بشعب رضوى .

(٢) ديوانه ٢٢٥ والكامل للمبرد (الأزهري) ٣ / ١١٩ . وابن عمه : يعني : ووصى ابن عمه علي بن أبي طالب . يشري : المعنى هنا : يبيع ، على حد قوله تعالى : « ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله » أي يبيع . (سورة البقرة ٢ / ٢٠٧) .

وله من قصيدة أخرى ، يخلع فيها صفة المهديّة على ابن الحنفية ، ويشير إلى أنه مذكور بها في كتب الأولين منذ قديم الزمان ، يتحدث بها العلماء بهذه الكتب ، ثم يعبر عن حنو إمامه وعطفه على أتباعه ، ورعايته لهم ، وسؤاله عنهم وعن أحوالهم تكريماً وفضلاً ، وإن الشاعر بحب إمامه له ، وعطفه عليه لسعيد ، قرير العين (١) :

هُوَ الْمَهْدِيُّ نَحْبِرُنَاهُ كَعَبُّ أَخُو الْأَخْبَارِ فِي الْحَقْبِ الْخَوَالِي
أَقْرَّ اللَّهُ عَيْنِي إِذْ دَعَانِي أَمِينُ اللَّهِ يَلْطُفُ فِي السُّؤَالِ
وَأَنْشَى فِي هَوَايَ عَلَى خَيْرٍ وَسَاءَلُ عَنْ بَنِي وَكَيْفَ حَالِي

فإمام كثير هو المهدي ، الذي يرجع ليملا الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً ، وهو أمين الله على ولاية أمر عباده .

على هذا النحو مضى الشعر الشيعي يمجّد الأئمة ، ويشيد بخصالهم ، ويخلع عليهم من الفضائل الذاتية ، والأخلاقية والدينية ، ما يعقد القلوب على محبتهم ، والنفوس على هواهم .

ح : إظهار الحزن والتفجع على الشهداء من الأئمة (الرثاء السياسي) :

سبق أن تحدثنا عما تعرض له آل البيت من قهر واضطهاد على يد خصومهم بعامة ، ومافرض عليهم من صراع مع هؤلاء الخصوم ، دفعا للظلم عنهم ، أو سعيا وراء استرداد حقوقهم ، أو غيرة على الدين ، وثورة على العابثين بقواعده وقيمه ، والمحرفين لكتابه ، وسنة نبية .

وكان الأمويون — كما قدمنا — أشد هؤلاء الخصوم عنفا في البطش بزعماء آل البيت وأنصارهم ، وإمعانا في قسوة التنكيل بمن تحدّثه نفسه منهم بالخروج على سلطانهم ، أو محاولة زعزعة أركان دولتهم .

(١) ديوانه ٢٣٢ ومروج الذهب للمسعودي (البهية) ٢ / ١٠١ . كعب أخو الأخبار : يقصد كعب الأخبار ، وهو أبو إسحاق كعب بن ماتب الحميري ، والأخبار لقب وصف به ، كان من علماء اليهود باليمن في الجاهلية ، ثم قدم المدينة في خلافة عمر بن الخطاب — وقيل : في خلافة أبي بكر — وأعلن إسلامه ، ثم نزع إلى الشام ، وتوفى بمحصر سنة ٣٢ هـ وقيل ٣٤ هـ ، وعنه رويت إسرائيليات كثيرة في كتب الأخبار والتفسير ، وصنوه في العلم بكتب الأولين وأخبار الأمم ، وقصصهم ، أبو عبد الله وهب بن منبه الصنعائي المتوفى سنة ١١٤ هـ . انظر في ترجمة كعب الأخبار وأخباره : الإصابة ٥ / ٥٤٧ ، وحلية الأولياء ٥ / ٣٦٤ وطبقات ابن سعد ٧ / ١٥٦ والعبر للذهبي ١ / ٣٥ والكامل لابن الأثير ٣ / ٥٩ (الأممية) .

وقد أدى هذا الصراع العنيف بين الشيعة وخصومهم إلى سقوط بعض أئمة آل البيت وزعمائهم صرعى الغدر حيناً ، وسيوف الأعداء الباطشة أحياناً .

وقد نهض الشعر الشيعي برسائله نحو الوفاء للأئمة الشهداء ، الذى سقطوا ضحايا الظلم والبغى والعدوان ، فعبّر فى العديد من نماذجه عن عواطف الشيعة الحزينة والمتلوعة ، فى رثاء حار ، ينضح بالتفجع ، والنقمة على المعتدين الآثمين .

وصور رثاء الأئمة فى شعر الشيعة متنوعة المعانى ، متعددة الاتجاهات والمرامي ، مما يضيف على هذا الفن من شعرهم طابع الحيوية ، ويكسبه الحرارة وقوة التأثير .

ويمكن رد الرثاء فى شعر الشيعة السياسى إلى ثلاثة ألوان عامة :

١— رثاء صابر محتسب ، تمتاز فيه عواطف الحزن على الأئمة الراحلين ، والنقمة والسخط على الطغاة الذين عدوا عليهم ، واجترأوا على الفتك بهم .

٢— رثاء نائر غاضب ، يعكس معانى المرارة والحزن ، والتفريع واللوم ، لتقصير المسلمين فى حماية الأئمة والدفاع عنهم .

٣— رثاء يمزج بين معانى الحزن والسخط ، والتهديد جميعاً .

وبالطبع ينبغى أن لا نتصور أن هذا التقسيم يبلغ من الحدة والدقة ، بحيث تميز هذه الألوان تمايزاً تاماً ، وتبرأ كل البراءة من التداخل بين معانيها ، فما إلى هذا قصدنا ، ولا تعطينا النماذج التى سنسوقها حق ادعائه .

غاية الأمر أننا لاحظنا غلبة كل صبغة منها على طائفة من أشعار الشيعة فى هذا المجال .

ويمكن أن نعد من الاتجاه الأول قول أبى زبيد الطائى^(١) يرثى على بن أبى طالب^(٢) :

(١) المذنب بن حرملة الطائى ، شاعر معمر ، عاش — فيما يقال — مائة وخمسين سنة ، وأدرك سلام ، ولكنه مات نصرانياً ، واشتهر بتعلقه بالحر ، ونام عليها الوليد بن عقبة والى الكوفة من قبل عثمان بن عفان ، وكان أبو زيد يعيش بين أحواله من بنى تغلب . انظر : الأغاني ١١ / ٢٣ والشعر والشعراء ١٠١ — ١٠٣

(٢) الكامل للمبرد (الأزهرية) ٣ / ١١٨ . خارجه : اختاره . أضغان الرجال : أسرار قلوبهم . الخبر : العالم . اتصلها : استخرجها ، يعنى روحه . حمت : حان أجله ، وقدرت وفاته .

إِنَّ الْكَرَامَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ خَلْقٍ رَفُطَ امْرِئٍ خَارَهُ لِلدِّينِ مُخْتَارِ
طَبُّ بَصِيرٍ بِأَضْعَافِ الرِّجَالِ وَلَمْ يُعَدَّلْ بِخَبَرِ رَسُولِ اللَّهِ أَحْبَارُ
وَقَطْرَةٌ قَطُرَتْ إِذْ حَانَ مَوْعِدُهَا وَكُلُّ شَيْءٍ لَهُ وَقْتُ وَمَقْدَارُ
حَتَّى تَنْصَلَّهَا فِي مَسْجِدٍ طُهِرَ عَلَى إِمَامٍ هُدًى إِذْ مَعَشَرَ جَارُوا
حُمْتُ لِيَدْخُلَ جَنَاتِ أَبُو حَسَنِ وَأُوجِبَتْ بَعْدَهُ لِلْقَاتِلِ النَّارُ

فهذا رثاء صابر محتسب ، فيه التسليم بقضاء الله في مقتل علي ، وفيه يبكي الشاعر الخصال التي حرص شعراء الشيعة على إثباتها لأئمتهم ، من كرم الخلق ، والحدق والمهارة والبصر بسياسة الرجال ، وتدير الأمور ، وغزارة العلم ، والهداية والعدل ، وشرف الأرومة ، وأنه الإمام الذي اصطفاه الرسول ﷺ ليقود الأمة ، ويرعى الدين من بعده ، وفيه مع هذا النعمة والسخط على أعداء الإمام ، حيث يرميهم الشاعر بالظلم ؛ لتعديهم بمقتله ، ويتوعد القاتل ومحرضيه بانتقام الله وعذابه الأليم في نار جهنم .

والكميت أيضا يرى الإمام علياً — رحمه الله — فيتفجع ويتوجع ، ولكنه يعنى في هذا الرثاء بإبراز مدى خسارة الإسلام ، والمسلمين بفقده .

إن الذين تأمروا به ، قتلوا بقتله أمل الأمة في إقامة العدل ، والتحكين له بين الرعية ، وهل يستقيم أمر المسلمين بغير حاكم عادل ، يعرف كيف يقضى بينهم ، ويسوس أمورهم ، ويرعاهم ، بنفاذ بصيرته ، وحسن عفوه ، ورجاحة عقله ؟

ولا ينسى الكميت أن يرثى يرثائه الشجاعة ، والظهور ، ونيع الخير ، وأن يندد بأعدائه ، الذين أعانوا على قتله ، بتدير مؤامرة اغتياله ، فيرميهم بالجرأة على الدين ؛ لأن في قتل الإمام على هدم لعرش الأمة الإسلامية ، ويصممهم بالظلم لفتكهم بالراعي العادل ، الذي تهلك بهلاكه الرعية .
يقول الكميت (١) :

(١) المصدر السابق . التجوى : نسبة إلى تجوب ، قبيلة من حمير ، إليها ينسب ابن ملجم ، قاتل الإمام علي . المعلم : الذي يضع على رأسه علامة في الحرب ، إعراباً عن شجاعته وإقدامه . العجاج : الغبار المتكاثف المنثور ، وهو هنا كناية عن المعارك . الكهام : الذي لاخير فيه ، وأصل الكهام : السحاب الأحمر الذي لا ينظر فيه . مسجحا : حسن العفو . المسيم : الراعي الذي يسوم الماشية . السوام : الإبل السائمة : أى التي أطلقت لترعى ، استعار الشاعر المسيم والسوام للحاكم والرعية .

وَالْوَصَى الَّذِي أَمَالَ التَّجْوُ بِيْ بِهِ عَرْشَ أُمَةٍ لَا نُهْدَامُ
 قَتَلُوا يَوْمَ ذَاكَ إِذْ قَتَلُوهُ حَكَمًا لَا كَغَابِرِ الْحُكَّامِ
 الْإِمَامَ الزَّكَّى وَالْفَارِسَ الْمُعَدَّ لَمْ تَحْتَ الْعَجَاجِ غَيْرَ الْكَهَامِ
 رَاعِيًا كَانَ مُسْنَجِحًا فَفَقَدْنَا هُوَ وَفَقَدَ الْمُسَيِّمُ هُلُكُ السَّوَامِ

أما أبو الأسود الدؤلى فيلاحظ ماكان فى مقتل الإمام على من تأمر سياسى ، لايرى الأمويين منه ، وهو على يقين من أنهم فرحون شامتون ، فقد خلا لهم الميدان بمقتل الرجل الذى لاكفاء له بينهم ، جهادا ، وشجاعة ، وحسبا ، وتقوى ، وتدينا ؛ ولذا فهو يوجه رسالة شعرية إلى معاوية والأمويين ، داعيا الله أن يحرمهم مما يؤملون من وراء تدبيرهم المجرم ، جزاء استهتارهم بالدين وحرماته ، وعدم مبالاتهم بإراقة الدماء فى شهر الصيام ، ودم من ؟ دم خير الناس طرأ أجمعين : (١)

أَلَا أَبْلَغُ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَرْبٍ فَلَا قَرَّتْ عَيْنُ الشَّامِتِينَ
 أَفَى شَهْرِ الصَّيَّامِ فَجَعْتُمُونَا بِخَيْرِ النَّاسِ طَرًّا أَجْمَعِينَ؟!
 قَتَلْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَذَلَّلَهَا ، وَمَنْ رَكِبَ السَّفِينَا
 وَمَنْ لَبَسَ النَّعَالَ وَمَنْ حَذَاها وَمَنْ قَرَأَ الْمُثَانِي وَالْمُبْنِيَا
 لَقَدْ عَلِمْتُ قَرِيشٌ حَيْثُ كَانَتْ بِأَنْكَ خَيْرِهِمْ حَسَبًا وَدِينَا

هذه النماذج — وأمثالها من الرثاء الشيعى — يجمعها طابع الاحتساب والصبر ، وتعدد مناقب المرقى ، لإثارة عواطف الحسرة لفقده ، والحزن واللوعة لحرمان الإسلام والمسلمين من هذه المناقب ، كما أنها لا تخلو من الإشارة إلى المعتدين ، والتنديد بهم ، أما أبو زيد فيرميهم بالجور ، ويتوعدهم بعقاب الله الشديد ، وأما الكميت وأبو الأسود ، فيدفعانهم بالجرأة على الدين ، والاستهتار بحرماته .

وكثيرا مايتجاوز الشعر الشيعى فى الرثاء ، هذا الطابع الذى يميل إلى التعبير عن الحزن الصابر ، الهادىء — إلى حدما — والسخط المستنكر ، والمكتفى — غالبا — بمجرد إظهار الاستنكار ، يتجاوز هذا المستوى ، إلى رثاء معبر عن الغضب الهادر ، والثورة النفسية العارمة ، حتى ليكاد يقتصر فى معانيه على مايؤدى هذين الانفعالين ،

وقلما يعرج على الحديث عن مناقب المروءة .

وأكثر رثاء الشيعة للحسين بن علي يسلك هذا النهج ، المعبر عن الغضب الشائع العنيف ، فلقد كان مقتل الحسين — على الصورة التي رأيناها آنفاً — جريمة بشعة ، زلزلت مشاعر المسلمين ، وجرحت عواطف الحب والوفاء لرسول الله ﷺ في أبنائه لدى الأمة ، مما جعل موجة الغضب والحنق على بني أمية تعم وتطم ، نقمة على هؤلاء السفاحين ، قتلة ابن النبی .

فحين ردّ يزيد بن معاوية النساء والأطفال من آل البيت ، اللاتي كن في صحبة الحسين ، ردهن بعد مقتله من الشام إلى المدينة ، خرجت عقیلة ^(١) بنت عقيل بن أبي طالب في نساء من بني هاشم حواسر ، وهي تقول : ^(٢)

مَاذَا تَقُولُونَ إِنْ قَالَ النَّبِيُّ لَكُمْ مَاذَا فَعَلْتُمْ وَأَنْتُمْ آخِرُ الْأُمَمِ
بِعَثْرَتِي وَيَأْهَلِي بَعْدَ مُفْتَقِدِي مِنْهُمْ أَسَارَى وَصَرَخِي ضَرْجُوا بَدَمِ
مَا كَانَ هَذَا جَزَائِي إِذْ نَصَحْتُ لَكُمْ أَنْ تَخْلَفُونِي بِسَوْءِ فِي بَنِي رَحْمِي
قَالُوا : فَمَا سَمِعَهَا أَحَدٌ إِلَّا بَكَى .

فهذا تفجع أليم ، يهز القلوب ، ويفجر الدموع ، تسوقه الشاعرة من خلال أسلوب يفيض باللوم العنيف ، والتفريع الشديد ، والغضب البالغ ، والثورة النفسية العارمة ، وهي تتجه بهذا كله ، لا إلى بني أمية وأعوانهم القتل فحسب ، بل إلى أمة الإسلام بأسرها ؛ لقعود المسلمين عن نصره الحسين وحمايته ، وسلبيتهم إزاء هذه الجريمة النكراء .

وكان الشاعرة بهذا تستثير عواطف المسلمين ، وتوقظ ضمائرهم ، ليثوروا على هؤلاء السفاحين ، الذين أساءوا إلى النبي ﷺ في أبنائه ، وجازوا إحسانه إلى الأمة أسوأ الجزاء .

(١) كذا اسمها في الموشح ١٦٠ ، واقتصر مصادرها شعرها الآتي على (ابنة عقيل) .

(٢) الموشح ١٦٠ وتاريخ الطبري ٢ / ٢٦٨ وعبود الأخبار ١ / ٢١٢ والمختصر لأبي الفدا ١ / ١٩١ والكامل لابن الأثير ٤ / ٨٩ (بيروت) — عترة الرجل : أبناؤه وعشيرته الأذنون .

وهذا شاعر تدفعه نفسه الشائرة ، إلى أن يستمطر اللعنات على قتلة الحسين من أهل السماء والأرض جميعا ، من ملائكة وأنبياء ، وكل قبيل من الناس ، ويسجل عليهم اللعنة والحرمان من رضوان الله ، في كل الكتب المقدمة السابقة ، في زبور داود ، وتوراة موسى وإنجيل عيسى ، كما تدفعه مرارة الإحساس بجريمة مقتل الحسين ، إلى أن يتهم ويسخر ، فيشرهم بغضب الله ، المفضي إلى العذاب الشديد ، والتنكيل المروّع ^(١) :

أَيُّهَا الْقَاتِلُونَ جَهْلًا حُسَيْنًا أَبْشُرُوا بِالْعَذَابِ وَالتَّنْكِيلِ
كُلُّ أَهْلِ السَّمَاءِ يَدْعُو عَلَيْكُمْ مِنْ نَبِيٍّ وَمَلِكٍ وَقِيلَ
قَدْ لَعَنْتُمْ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَمُوسَى وَحَامِلِ الْإِنْجِيلِ
وَأَغْلَبَ الظَّنُّ أَنَّ هَذِهِ الْمَعَانِي إِذَا كَانَ يَرَادُ بِهَا — فِيمَا يَرَادُ — اسْتِثَارَةُ النُّفُوسِ ،
وَتَهْيِيجُ الْعَوَاطِفِ ، ضِدَّ أَعْدَاءِ آلِ الْبَيْتِ ، الَّذِينَ سَوَّلَتْ لَهُمْ نَفُوسُهُمْ ارْتِكَابَ هَذَا الْجَرَمِ
الْبَشْعِ فِي حَقِّ أَبْنَاءِ النَّبِيِّ .

ويظهر القصد إلى هذه الاستثارة ، في قول شاعر آخر ، يصور مقتل الحسين وفجعة آل البيت به : ^(٢)

أَبْلُكُ حُسَيْنًا لِيَوْمٍ مَصْرَعِهِ بِالطُّفِّ بَيْنَ الْكَتَائِبِ الْخُرْسِ
أَضَحَّتْ بَنَاتُ النَّبِيِّ إِذْ قُتِلُوا فِي مَأْتَمٍ وَالسَّبَّاعُ فِي عُرْسِ
فاختيار هذا الشاعر للكلمات : الكتائب الخرس — بنات النبي ، مأتم ، عرس ، يدل على القصد الذي ذكرنا .
وفي قول سليمان بن قتة ^(٣) ، يرثي الحسين أيضا : ^(٤) :

(١) تاريخ الطبري ٦ / ٢٦٩ ، والكامل لابن الأثير ٤ / ٩٠ (بيروت) وفيهما « سمع بعض أهل المدينة ليلة قتل الحسين مناديا ينادي هـ .

(٢) عيون الأخبار ١ / ٢١٢ . الطف : ماء قرب كربلاء . الخرس هنا : جمع خرساء ، والكثيبة الخرساء : الصامتة من كثرة الدروع ، وقيل : هي التي لا يسمع لها صوت من وقارهم في (الحرب انظر : اللسان : خرس)
(٣) شاعر قرشي من بني تيم بن مرة بن كعب بن لؤي ، كان منقطعاً لبني هاشم . انظر : الكامل للمبرد ١ / ١٣١ (الاستقامة) .

(٤) الكامل للمبرد ١ / ١٣١ ، ومروج الذهب ٢ / ٩٢ (البية) ، ونسب الآيات إلى أبي دهل الجمحي في معجم البلدان ٦ / ٥٢ ، وانظر : الكامل لابن الأثير ٤ / ٣٧ (الأممية) ، وفي مقالات الإسلاميين ١ / ١٤٢ تنسب إلى أبي ربح الخزاعي .

مررتُ على أيّاتِ آلِ محمدٍ فلم أرَها أمثالَها يومَ حُلَّتِ
 فلا يبعدُ اللهَ الديسارَ وأهلُها وإنْ أصبحتُ من أهلِها قد تَخَلَّتِ
 ألمَ ترَ أنَ الأرضَ أضحتْ مريضَةً بقتلِ حسينٍ والبلادُ اقشعرتِ
 وإنْ قَتِلَ الطُّفُّ من آلِ هاشمٍ أذلَّ رِقَابَ المسلمينَ فذَلَّتِ
 وكانوا رجاءً ثم أضحووا رزِيَةً لقد عظمتُ تلكَ الرزايا وجلَّتِ

فانظر إلى هذه العبارات المهيجة : « الأرض مريضة » ، « البلاد اقشعرت » ، « أذل رقاب المسلمين » « كانوا رجاء ثم أضحووا رزية » !؟

إن الشاعر بها وبغيرها مما تركنا ، يحاول إثارة مشاعر المسلمين ، حزنا على ما أصاب أهل البيت بمقتل الحسين .

فقد عم الحزن ديارهم ، وليس المسلمون ثوب المذلة والعار ؛ لتخاذلهم عن نصرة الحسين ، وسكوتهم على جريمة قتله ، وهكذا تفقد الأمة هدايتها وأئمتها ، واحدا بعد واحد ، فتعم المصائب بفقدهم ، ويضيع الأمل الذي كان معقودا عليهم ، للخلاص من سيطرة الأمويين واستبدادهم .

أما الرثاء الشيعي ، الذي يمزج بين الحزن والسخط والثورة ، والتهديد ، فمثله قول الشاعر الهاشمي الفضل بن العباس ^(١) ، يرثي زيد بن علي بن الحسين — إمام الزيدية ^(٢) :

ألا ياعينُ لا تَرْقَى وَجُودِي بدمعك ليس ذا حين الجمود
 غداة ابنُ النبيّ أبو حُسَيْنٍ صَليبٌ بالكُنَاسَةِ فوق عُودِ
 يظلُّ على عَمُودِهِمْ وَيُمنَى بنفسى أعْظَمُ فوقَ العُمُودِ
 تعدّى الكافرُ الجبارُ فيه فأخرجَه من القبرِ اللّحيدِ

(١) هو : أبو المطلب ، أو : أبو عتبة الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب ، وأبو لهب ، هو : عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم ، شيخ بني هاشم وفصيحهم وشاعرهم في وقته ، وأمه هاشمية أيضا ، فهي : آمنة بنت العباس ابن عبد المطلب توفى سنة ١٧٣ هـ تقريبا ، وفي سلسلة نسبه خلاف . انظر : سبط اللائ ٢ / ٧٠٠ والموشع ٢٣ ومقاتل الطالبيين ١٤٩ والأغاني ١٥ / ٢ والتذكرة السعدية ٣٤٨ ورسائل الجاحظ ١ / ٢٠٨ وخزانة الأدب ١ / ٤٦٥

(٢) مقاتل الطالبيين ١٤٩ . الكافر الجبار : يعنى هشام بن عبد الملك الأموي . الدم الجسيد : الطوى الذى لم يجف بعد . لارتق : لا يقطع دمعك . اللحيد : الملقود : أى المحفور . حلق الحديد : الدروع . الكناسة : موضع بالكوفة ، تقام فيه السوق .

فَظَلُّوا يَنْبِشُونَ أَبَا حُسَيْنٍ وَمَا قَدَرُوا عَلَى الرُّوحِ الصَّعِيدِ
إِلَى أَنْ يَقُولَ مَتَوَعِّدًا بَنِي أُمِيَّةَ ، وَمَنْ يُوَالِيهِمْ مِنْ قِبَائِلِ الْعَرَبِ :

وَكَيْفَ تُضَيِّنُ بِالْعَبْرَاتِ عَيْنِي وَتَطْمَعُ بَعْدَ زَيْدٍ فِي الْهُجُودِ
وَكَيْفَ لَهَا الرُّقَادُ وَلَمْ تَرَأَى جِيَادُ الْخَيْلِ تَعْدُو بِالْأَسُودِ
تَجْمَعُ لِلْقِبَائِلِ مِنْ مَعَدٍّ وَمَنْ قَحْطَانَ فِي خَلْقِ الْحَدِيدِ
كُنَائِبُ كُلَّمَا أُرْدَتْ قَتِيلًا تَنَادَتْ : أَنْ إِلَى الْأَعْدَاءِ عِوْدِي
نَجَازِيكُمْ بِمَا أَوْلَيْتُمُونَا قِصَاصًا أَوْ تَزِيدَ عَلَى الْمَزِيدِ
وَنَتْرَكُكُمْ بِأَرْضِ الشَّامِ صَرَعَى وَشَتَّى مِنْ قَتِيلٍ أَوْ طَرِيدِ

فهذا رثاء باك حار ملتاع حزين لفقد هذا الإمام الهاشمي ، وهو غاضب ناثر
أيضا ، ينحل القتلة صفات الكفر ، والفجور في الاعتداء ، والاستهتار بدماء أبناء
النبي ، والتثليل المهين بأجسادهم الطاهرة ، وكل هذا مما ينفر المسلمين ، ويستثير
حفاظهم على بني أمية ، وهذا هو الوجه السياسي لهذا الرثاء وأمثاله .

كما أن روح التهديد والوعيد في هذا الشعر أوضح من أن تحتاج إلى أن ندل
عليها ، وأكثر من أن نحاول تعديدها .

حقا إن الفضل ليجعل من هذه المراثية قصة حزينة دامية ، تروى مأساة هذا
الإمام ، الذي قتله بنو أمية ، ونكلوا بجثمانه أبشع تنكيل ، وهو يرويها بدموعه ، وزفرات
قلبه ، التي تتصاعد نارا محرقة ، تتوعد الأمويين وأنصارهم .

ويحضر يحيى بن زيد بنى هاشم صراحة على النهوض بثأر أبيه ، ويستثير كوامن
النخوة والعزة والإباء فيهم ، ليطلبوا بني أمية بهذا الثأر ^(١) :

خَلِيلِي عَنِّي بِالْمَدِينَةِ بَلْغَاً بَنِي هَاشِمٍ أَهْلَ النَّهْيِ وَالتَّجَارِبِ
فَحْتِي مَتَى مَرْوَانَ يَقْتُلُ مِنْكُمْ خِيَارَكُمْ وَالْدَّهْرَ جَمُّ الْعَجَائِبِ

(١) مقالات الإسلاميين ١ / ١٣١ . مروان : معنى بنى مروان . التحارب : الاشتباك في الحرب ، وفي البيت

الأخير إقواء .

وحتى متى ترضون بالخسف منهم وكنتم أباة الخسف عند التجارب
لكل قتيل معشر يطلبونه وليس لزيد بالعراقي طالب

والحق أن هذا الضرب من الشعر الشيعي تتجلى فيه العاطفة الحزينة الصادقة ،
والسخط الشديد والمرارة ؛ ولذا كثيرا ماأثارت أشعار الشيعة في رثاء أئمتهم نفوس
المسلمين ومشاعرهم ضد بني أمية .

د: التصدى لخصوم الشيعة (الهجاء السياسي) :

كما وقف شعراء الشيعة إلى جانب أئمة المذهب معبرين عن عواطف الحب والولاء
والوفاء لهم ، أو مؤيدين حقهم ، مظهرين حجتهم ، هبوا كذلك للوقوف في وجه
خصومهم ، وأعداء مذهبهم ، وغاصبي ولايتهم ، ينقضون دعاواهم ، ويكشفون عن باطل
زعمهم ، ويظهرون للمسلمين حقائق نواياهم ، وفساد سياستهم ، ويخلعون عليهم في أثناء
ذلك من الصفات مايصرف القلوب عنهم ، وينفرها منهم .

نعم استخدم شعراء الشيعة كلمتهم المنغومة سلاحا قويا ضد أعداء الشيعة
والتشيع من أمويين وزبيريين وخوارج ، أما الأمويون ، فلأنهم عدوا على حق آل البيت ،
واضطهدوهم ، دون مبالاة بحرمة انتسابهم للرسول ﷺ ، وأما الزبيريون فلمنا هضمتهم
الشيعة ، وادعاء زعمهم حق الأئمة من آل البيت لنفسه ، وأما الخوارج فلعدم اعترافهم
بتقديم الأئمة وفضلهم ، ثم لأنهم بغاة خارجون ، تنكروا لبيعة إمام الشيعة الأول علي بن
أبي طالب ، وخرجوا عليه وقتلوه .

وقصد شعراء الشيعة إلى تحقيق الغايات التي أشرنا إليها ، بشعرهم في هجاء
الخصوم ، وهو الذي يعطى هذا الشعر طابعه السياسي ؛ إذ كانت الغاية المرجوة من كل
ذلك ، صرف القلوب والأهواء عن أعداء الشيعة ، وتوجيهها إلى الأئمة ، وكسب الأنصار
لهم ولحقهم ولذهبهم .

وقد يكشف شعراء الشيعة عن هذه الغاية السياسية في شعرهم ، بجمعهم بين صورتين متقابلتين ، إحداهما بإبراز المثالية التي رأينا هؤلاء الشعراء يحرصون على إضافتها على أئمتهم ، بوجهها الديني والإنساني ، والأخرى تجرد أعدائهم من كل مزية في الدين أو الخلق أو السياسة ، وعلى القارئ والسامع أن يستخلص محصلة هذه المقارنة ، وهي لن تكون في عين الإنصاف إلا كسبا لأولئك ، وخسرانا هؤلاء .

حقيقة أخرى نرى أن نعجل بها هنا ، قبل أن نأخذ في دراسة نماذج من الهجاء السياسي في شعر الشيعة ، مؤداها أن بنى أمية قد خُصصوا بأوفى نصيب من هذا الشعر ، على الرغم من تمتعهم بالسلطة الباطشة ، التي تقذف الرعب في قلوب الشعراء إذا اجترعوا على مناهضتهم ، ومن سياستهم في إغراء الشعراء بالعطايا والهبات وصنوف المغريات ، وإن لم يكونوا على رأيهم ، أو من المواكبين لهم .

ويمكن تعليل هذا بأمرين : أولهما : صدق الاعتقاد ، وإخلاص النية ، عند شعراء الشيعة ، وتجردهم من كل مطمع دنيوى ، واعتقادهم الراسخ أنهم بما يقولون في نصرة أئمتهم ومذهبهم ، إنما ينتصرون للحق ، ويتقربون إلى الرب ، والآخر : أن الأمويين كانوا أكثر عداً للشيعة وظلماً لهم ، وتنكيلاً بحركاتهم الثورية ، ومناهضة لمذهبهم وأئمتهم ؛ ولذا حفل الشعر الشيعى بهجائهم ، والطعن عليهم ، والنيل منهم .

فالأُمويون ملوك لا يمتنعون بتوافر الشرائط التي يجب أن تجتمع لمن يخلف الرسول ﷺ في ولاية الأمة ، ومع ذلك فهم ملوك سوء ، وملوك السوء إن طالَت أيام حكمهم ، كانت نكبة وبلاء على رعاياهم ، فيتمنون الخلاص منهم ، ومن عناء حكمهم ، وشذود سياستهم .

والأُمويون ، تبعاً لهذا — لا يحكمون الرعية المسلمة وفق ما أمر به الله ورسوله ، فقد عدلوا عن هدى كتاب الله وسنة نبيه ، وجاروا على حقوق المسلمين ، وانحرفوا عن جادة الدين ؛ ولذا فهم أهل أهواء وبدع وضلال ، يحلون ما حرم الله ، ويحرمون ما أحل الله ، يحلون قتل المسلم ، ويحرمون أكل الثمرة المتهدلة .

بهذه المعاني هجا الكميث بن زيد بنى أمية ، في قوله ^(١) :

فذلك ملوكُ السوء قد طالَ ملكُهم
 رَضُوا بِفَعَالِ السَّوءِ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ
 لَمْ كُلَّ عَامٍ بَذْعَةً يُحْدِثُونَهَا
 كَمَا ابْتَدَعَ الرَّهْبَانُ مَا لَمْ يَجِءْ بِهِ
 تَحِلُّ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ لَذِيهِمْ
 فَيَارِبُّ هَلْ إِلَّا بِكَ النَّصْرُ يُرْتَجَى
 فَحَتَّامَ حَتَّامِ الْعِنَاءِ الْمَطْوَلِ
 فَقَدْ أُيْتِمُوا طَوْرًا عِدَاءً وَأَتَكَلَّوْا
 أَزَلُّوا بِهَا أَتْبَاعَهُمْ ثُمَّ أَوْحَلُوا
 كِتَابَ وَلَا وَحْيَ مِنْ اللَّهِ مُنْزَلُ
 وَيَحْرُمُ طَلْعُ النَّخْلَةِ الْمُتَدَلِّ
 عَلَيْهِمْ وَهَلْ إِلَّا عَلَيْكَ الْمَعُولُ

وحملة الكميت هذه على الأمويين ، بسلب كثير من الصفات الدينية ، التي يجب أن يتحلى بها كل مسلم ، فضلا عن حكام المسلمين ، إنما هي في حقيقتها دعوة للثورة عليهم ؛ لأنهم خارجون على الدين ، محرفون لتعاليمه ؛ ولذا كان هذا الهجاء سياسيا بالمقام الأول .

ويتضح هذا الاتجاه السياسي في الهجاء الشيعي ، من هذه المقارنة التي يمزج فيها الكميت بين مدحه لأهل البيت ، وسخطه على بنى أمية ، ويقارن بين سياسة هؤلاء وأولئك في الرعية ، وسلوكها في النظر إلى مصالح المسلمين ، مقارنة يروم من ورائها غرضا سياسيا ، هو تهيج جمهور الناس للثورة على الأمويين ، وتقويض دولتهم ، دولة الظلمة ، المثقلين بالآثام ، يقول الكميت ^(١) :

بَلْ هَوَايَ الَّذِي أُجَنِّ وَأُبْدِي
 لِلْقَرِيبِينَ مِنْ نَذَى وَالْبَعِيدِ
 رَاجِحِي الْوِزْنَ كَامِلِي الْعَدْلَ فِي السِّ
 سَاسَةِ لَا كَمَنْ يَرَى رِعْيَةَ النَّآ
 لَا كَعَبْدِ الْمَلِكِ أَوْ كَوَلِيدِ
 رَأْيِهِ فِيهِمْ كَرَأَى ذَوَى الثَّلَّةِ
 لَبَنِي هَاشِمٍ فُرُوعَ الْأَنَامِ
 مِنْ مِنَ الْجَوْرِ فِي غُرَى الْأَحْكَامِ
 حِيرَةٍ طَبِينٍ بِالْأُمُورِ الْعِظَامِ
 سِي سَوَاءٍ وَرِعْيَةِ الْأَنْعَامِ
 أَوْ سَلِيمَانَ بَعْدُ أَوْ كَهْشَامِ
 فِي النَّائِجَاتِ جُنْحِ الظُّلَامِ

(١) المصدر السابق ٢٣ — ٢٧ . طين : حاذقين ماهرين . الثلة هنا : جماعة الغنم . النائجات : جمع نائجة ، وهي الصائحة من الضأن . جنح الظلام : وقت الظلام . ذو النخة : السمين . نعقا : أى ينطق نعقا ، والمعنى : يصيح بها . الددعة : دعاء الغنم . البهام : أولاد الضأن والمعز : الزوامل : جمع زاملة ، وهي الناقة التي يعمل عليها المتاع .

جَزَّ ذِي الصُّوفِ وانتقاءً لذى الـ مُحَنَّةً نَعَقًا ودَعْدَعًا بِالْبَهَامِ
وهم الأوفون بالناس في الرأ فَيَ والأخلمون في الأحلام
أخذوا القصد واستقاموا عليه حين مالت زَوَامِلُ الآثامِ

هذه مقارنة صريحة ، يقرر فيها الكميت عدل أئمة الشيعة ، بنفى الجور والظلم عنهم ، بينما يصم بنى أمية بأنهم جائرون ظالمون ، يسوسون الرعية سياسة غاشمة ، تقوم على استخلاص كل ما يملكون ويدخرون ، وكأن الرعية غنم لهم ، يجزون صوفها ، ويشربون ألبانها ، ويأكلون لحومها ، وفي الوقت نفسه لا يرحمون ، حتى صغارها من قهرهم ، وزجرهم ، فهم الظلمة الغاشمون ، أما بنو هاشم فهم يتنغون الرحمة والعدل بين الناس ، وقد استقاموا على جادة الدين ، بينما حاد عنه بنو أمية ، وهم مثقلون بالخطايا والآثام . ولا تختلف نظرة الشيعة إلى الخوارج كثيرا عن رأيهم في بنى أمية ، غير أن الخوارج لم يثبوا على الخلافة ، ولم يغتصبوا حق أئمة الشيعة في الولاية لأنفسهم ، كما فعل الأمويون ، ولم يبطشوا بالشيعة وأئمتهم بطش الأمويين ، ولكنهم بموقفهم المناهض لآل البيت ، الخارج على طاعتهم ، ورأيهم المصمم على أن عليا وذريته وأتباعهم كفار يحل قتالهم وقتلهم ، استحقوا أن ييادهم الشيعة عدااء بعداء ، وأن يرى الشيعة فيهم ، مايرونة هم في الشيعة .

وترجم شعراء الشيعة هذه النظرة إلى الخوارج في العديد من صور الهجاء ، التي تجردهم من شرف الانتماء إلى ملة الإسلام ، وتقدمهم إلى الناس بوصفهم طائفة مارقة ، أعمأها ضلالها عن رؤية الحق ، واتباع سبيله ، طاغية باغية ، لا ترعى لدين الله حرمة ، وليس بينها وبينه عهد ولا ذمة .. إلى غير ذلك مما أغدقه شعر الشيعة على الخوارج إغداقا ، وأضافوهم به إلى أعدائهم الأمويين ، فكلهم سواء في المروق من دين الله ، والعبث بحدوده . فهذا عدى بن حاتم الطائي ^(١) — صاحب الإمام على وأحد من أخلصوا في التشيع له — يتقدم ليقف بين يدي إمامه ، يوم أن خرج من الكوفة لقتال الخوارج بالنهروان واصفا هذه الطائفة ^(٢) بالطغيان ، والعمى عن الحق ، والمروق من الدين ، والعداء لله ورسوله وآل بيت نبيه ، قائلا :

(١) قتله معاوية بن أبي سفيان سنة ٥٣ هـ وهو أول من قتل صبرا في الإسلام .

(٢) الفرق بين الفرق ٥٨ . كاع القوم : جبنوا ، ورجل كائع : جبان (اللسان — كيع) .

نسیر إذا ما کاع قومٌ وبلدوا براياتِ صدیق کالنسور الخوافی
إلى شر قوم من شرة تحزبوا وعادوا إله الناس رب المشارق
طغاة عمارة مارقین عن الهدی وكلٌ ینفی قوله غیر صادق
وفینا علی ذو المعالی یقودنا إلیهم جهاراً بالسیوف البوارق

ولما کان عبد الله بن الزبیر قد ادعی حق الخلافة لنفسه ، وجحد حق الهاشمیین المعاصرین له فیها ، فقد صار بذلك — فی نظر الشيعة — غاصبا کالأمویین ، جدیرا بلعنات الشيعة وغضبهم ، وزاد من حدة هذا الغضب سیاسته العنيفة مع بنی هاشم ^(١) .

ومن ثم انطلقت ألسنة الشعراء الشیعیین فی ابن الزبیر وأنصاره ، تصفه بادعاء مایس له ، وتتهکم به ، وتسخر من ادعائه ، مما یخلعه علی نفسه من ألقاب .

فحين قام ابن الزبیر بمكة ، لقب نفسه (العائد ببيت الله) ، وادعی الحفاظ علی حرمة هذا البيت ، ثم إنه حاصر محمد بن الحنفية ، إمام الشيعة الکيسانية ، داخل الحرم ، فی الموسم (٦٦ هـ) ، ويقال إنه حبسه ومعه خمسة عشر رجلا من بنی هاشم ، وأراد حملهم علی البيعة له ، وهددهم بالتحريق إن لم يفعلوا ^(٢) ، فقال كثيرٌ متوعدا ساخرًا ^(٣) .

(١) راجع ص ٣٠ — ٣١ من هذه الدراسة .

(٢) هكذا یخلط بعض الرواة بین حادثتی الحبس والتهديد بالنار ، فيجعلونهما حادثا واحدا ، ضحيتهما معا ابن الحنفية ، والذي یظهر أن الحادثین منفصلین ، وأن الذي کان فی حبس ابن الزبیر هو الحسن بن محمد بن الحنفية ، حبسه ابن الزبیر فی سجن عارم — كما فی مروج الذهب ، وفيه « سجن غارم — بالغین » وهو حبس موحش مظلم ، وأراد قتله ، فعمل الحيلة حتی فر من السجن ، وتعسف الطريق علی الجبال حتی أتى منى ، وبها أبوه محمد بن الحنفية ، وأن شعر كثيرٌ الآخر إنما قاله فی هذه الحادثة (مروج الذهب ٢ / ١٠٠ — البیة —) أما حادث التهديد بالنار فقد وقع لابن الحنفية لما دخل الحرم فی موسم الحج سنة ٦٦ هـ ، محاصره ابن الزبیر ، ولم یخلصه من الحصار إلا جند المختار الثقفي لما استجد به ابن الحنفية (انظر : الشيعة والخوارج ٢١٦) .

(٣) ديوانه ٢٢٤ ومروج الذهب ٢ / ١٠٠ . غيب وثابت وحمرة : أبناء عبد الله بن الزبیر . الحداة : جمع حداة ، وهي الطائر المعروف .

لك الوئيل من عيني خُبيب^(١) وثابت^(٢) وحمزة^(٣) أشباه الحداء السَّوائِم
 تخبر من لاقيت أنك عائذ بل العائد المظلوم في سجن عارم
 ومن ير هذا الشيخ بالخيف من مني من الناس يعلم أنه غير ظالم
 سمى نبي الله وابن وصيه وفكك أغلال وقاضى مغارم
 فمن الجلى أن كثيراً يتهم بابن الزبير ، الذى يدعى أنه معتز بالحرم ، بينما
 ينتهك حرمة ، بتهديد قصاده ، وتفرز يعهم ، وهو الذى جعله الله مثابة للناس وأماناً ،
 وحرم أن يفزع طيره ، فضلاً عن التهديد بإرهاب الأرواح فيه ؟
 كما يتهم الشاعر بأبناء عبد الله بن الزبير ، خُبيب ، وثابت ، وحمزة ، الذين
 تشبه عيونهم عيون الحدا .

وينحو من هذا يتهم السيد الحميرى بابن الزبير ، حينما مرت عليه بالأهواز
 أسماء بنت يعقوب ، من ولد عبد الله بن الزبير ، وقد زفت إلى إسماعيل بن عبد الله بن
 عباس ، فيرميه بأنه استحل حرمة الكعبة ، حتى استحق أن يلقب عند أهل الشام
 — (المجل) لتعريضه الكعبة للحروب ، لما أقام فيها ^(٤) :

مررتُ تُزف على بغلة وفوق رحالتها قبة
 زبيرية من بنات الذى أحل الحرام من الكعبة

غير أن دولة ابن الزبير لم تعمّر طويلاً — كما مر — فقل نصيبها من هجاء
 الشيعة ، وإن لم تحرم منه ، ومن لدعاته .

هـ : شعر الدعاية لعقائد الشيعة (الشعر المذهبي) :

كان للمذاهب الشيعية وعقائدها نصيب من الشعر الشيعي ؛ إذ لم ينس
 شعراء الشيعة ، أن يروجوا لمذهبهم ، وينطقوا أشعارهم بعقائده ، متحمسين لها ،
 معربين عن اعتقادهم الراسخ فيها .

(١) قال المسعودي : به كان أبوه يكنى (مروج الذهب — البية — ٢ / ٩٥)

(٢) كان هو وخبيب من أم واحدة هي قماضر بنت منظور بن زيان ، ولما ماتت تزوج ابن الزبير أختها ،
 أم هاشم ، فولدت له : هاشما وحمزة وعباداً (الأغاني ٨ / ١٨٣) .

(٣) ولده أبوه العراق سنة ٦٧ أو ٦٨ هـ ثم عزله وأعاد أخاه مصعباً لإمارته ، وللغزو شعر في مدح
 حمزة . انظر : الأغاني ١٩ / ١٠ ، ١١ والعبر للذهبي ١ / ٧٦ ، ٧٧ وتزيين الأسواق ١٥٥ ، والاشتقاق ٩٤
 والكامل لابن الأثير ٤ / ٢٧٨ (بيروت) .

(٤) رسائل الجاحظ ٢ / ٣٦١ والأغاني ٦ / ٣٠ ، ٧ / ١١

وهم بهذا يثرون الشعر العربي ، بلون جديد ، لم يظهر فيه ، قبل هذا العصر الأموي ، يمكن أن نطلق عليه (الشعر الديني المذهبي) .

وقد يقال : إن الشعر الجاهلي لم يخل من الأفكار الدينية ، التي تكشف عن بعض المعتقدات ، التي كان الجاهليون يدينون بها ، سواء أكانت وثنية ، أم مسيحية ، أم يهودية ^(١) غير أن هذه الأفكار إنما كانت ترد في أشعار الجاهليين عرضاً ، لم يقصد إليها قصداً ، فما كانت الحياة الدينية الجاهلية عنصراً قوياً التأثير في الحياة الاجتماعية أو الاقتصادية للبيئة العربية في العصر الجاهلي ، بحيث يمكننا القول بأن ظهور الناقه والفرس في هذا الشعر العربي ، كان أقوى بكثير من ظهور الروح الدينية ^(٢) .

ثم أن هذه الأفكار الدينية في الشعر الجاهلي ليست وليدة مذهب دينية ، أو عقائد واضحة محددة ، بحيث تعد في باب الدعاية المذهبية الدينية .

يضاف إلى هذا كله أن هذه الأفكار كانت خالية تماماً من كل غرض سياسي ، بمعنى أنها لم تكن إطلاقاً بالدعوة إلى مذهب ديني بعينه ، ومحاوله كسب الأنصار ، وتجميع القلوب حول عقيدة سياسية بذاتها .

ويقال مثل هذا فيما كان من شعر يحمل عناصر دينية في صدر الإسلام ؛ إذ لم يكن الخلاف السياسي المذهبي قد ثار حول عقائد الدين ؛ ولذا لا يمكن القول بأن الدعاية السياسية كانت غرضاً من أغراض الشعر في صدر الإسلام ، وإنما كان هذا كله من غرض الشعر المذهبي السياسي في العصر الأموي ، لاقبله .

ومن جهة أخرى ، فإن هذا الشعر المذهبي يعكس قيمة فكرية ، لم تنح للشعر العربي من قبل ، فهو وليد نهضة فكرية ، قامت حول التفكير في عقائد الدين الإسلامي ، وتأثرت بغير قليل من الآراء الدخيلة على العقيدة الإسلامية ، وقد تسربت هذه الآراء إليها على يد بعض من دخل في الإسلام من أهل الديانات الأخرى ، ونقول : (بعض) ، حتى

(١) انظر في تأثر الشعر الجاهلي بأفكار من هذه الديانات : كتابنا : أمراء الشعر في العصر الجاهلي ص ٨٠

— ٨٢ ، ٨٤ — ٨٥ ، ٨٩ ، ٩٠ —

(٢) للاستزادة راجع : دراسات في الشعر الجاهلي (د. أبو الأنوار) ٧٩ — ٨٠

لأنقع في خطأ التعميم ، الذى ذهب إليه الأستاذ أحمد أمين ، في قوله : « أنظن أن الفارسى ، أو السورى النصرانى ، أو الرومانى ، أو القبطى ، إذا دخل في الإسلام انمحت منه كل العقائد التى ورثها من آبائه وأجداده قرونا ، وفهم الإسلام كما يريد الإسلام من تعاليمه ؟ كلا ، لا يمكن أن يكون ذلك ، وعلم النفس ياباه كل الإباء ، فللفارسى صورة للإله ، غير صورة النصرانى الرومانى ، وهما غير صورة النصرانى المصرى ، وللألفاظ المستعملة في الديانات (جهنم ، والجنة ، وإبليس ، والملائكة ، والآخرة ، والنبي ، ونحو ذلك) معان عند كل من هؤلاء ، تخالف المعانى التى يتصورها الآخر ، فلا تظن أن هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام ، من الأمم الأخرى فهموه بخلافه ، كما فهمه العربى ، حتى المخلصون منهم في اعتناقهم الإسلام ، إنما فهمه كل قوم مشوبا بكثير من تقاليدهم الدينية القديمة ... » (١) .

وهذا رأى — كما نرى — لا يخلو من تعميم غير دقيق ، وتجن غير قليل ، على من دخل في الإسلام من أبناء الأمم ذات الديانات القديمة ، فالتاريخ الإسلامى يشهد لكثرة منهم بحسن إسلامهم ، واطراح عقائد آبائهم القديمة ، خارج عقولهم ووجدانهم ، حقا هناك قلة من مسلمى هذه الأمم ، هى التى يصدق عليها رأى الأستاذ أحمد أمين ، على أن هذا الذى يقول به ، ليس قاصرا على بعض أبناء الأمم غير العربية ، فمن العرب أيضا من ظل متأثرا ببعض عادات الديانة الوثنية وعقائدها .

وإذن ، فليس من قبيل الادعاء أو المبالغة ، أن نعد الشعر المعبر عن عقائد دينية مذهبية ، نعمة حظيت بها قيثاره الشعر العربى ، تحت تأثير ظروف السياسة في العصر الأموى .

ولنتقدم الآن لدراسة نماذج من هذا الشعر ، ليتضح ماذكرناه عنه .

مر بنا قول الكميث في الأئمة الهاشميين :

بل هوأى الذى أجن وأبدى لبنى هاشم فروع الأنسام
للقريبين من ندى والبعديد — من من الجور فى عرى الأحكام
والمصيين باب مأخطأ النأ — من ومرسى قواعد الإسلام

وَالْعَبُوثَ الَّذِينَ إِنْ أُمَحِّلَ النَّاسُ فَمَا أَى حَوَاضِنِ الْإِيْتَامِ
 رَاجِحَى الْوِزْنِ كَامِلَى الْعَدْلِ فِي السُّبُورِ طَيْنَ بِالْأُمُورِ الْعِظَامِ
 غَالِبِينَ هَاشِمِيِّينَ فِي الْعِلْمِ — مَ رَنُوءًا مِنْ عَطِيَّةِ الْعِلَامِ

فهو يصفهم بكل ماتشرطه الشيعة الزيدية في الإمام من عدل ، وعلم ، وزهد ،
 وتقوى ، وورع ، وشجاعة ، وبر ، ورحمة ... وغيرها ، وهذه الصفات تتردد كثيرا في
 شعر الكميث يكررها ولا يمل تكرارها ، حتى يثبت عقائد المذهب في نفوس أتباعه من
 جهة ، ونفوس غير الأتباع من جهة أخرى .

كما مر بنا قوله في مقام الاحتجاج لحق علي بن أبي طالب في الولاية :

وَيَوْمَ الدُّوْحِ دُوحٌ غَدِيرٌ حُجْمٌ أَبَانَ لَهُ الْوِلَايَةَ لَوْ أَطِيعَا
 وَلَكِنِ الرِّجَالُ تَبَايَعُوهَا فَلَمْ أَرْ مِثْلَهَا خَطَرًا مِيعَا
 فَلَمْ أَبْلُغْ بِهَا لَعْنًا وَلَكِنْ أَسَاءَ بِذَاكَ أَوْلَهُمْ صَنِيعَا
 فَصَارَ بِذَاكَ أَقْرَبَهُمْ لِعَدْلٍ إِلَى جَوْرِ وَأَحْفَظَهُمْ مَضِيعَا

فهو يصدر فيما يقول هنا ، عن عقيدة مذهبية تقول بها الشيعة الزيدية ، ترى
 جواز إمامة المفضول مع وجود الفاضل ؛ ولذا فهو يرفض أن يعلن أبا بكر وعمر وعثمان ،
 ومن تابعهم ، رعاية لهذه العقيدة ، فهم مخطئون مسيئون فقط .

كما أنه يشير إلى عقيدة أخرى تشارك فيها الزيدية غيرها من الفرق ، وهي القول
 بالوصية من الرسول ﷺ لعلي بالولاية ، يوم غدیر خم .

ويردد الكميث هذه الأفكار ، في قوله السابق :

أَهْوَى عَلِيًّا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا أَرْضَى بِشَتْمِ أُنَى بَكْرٍ وَلَا عَمْرَا
 وَلَا أَقُولُ وَإِنْ لَمْ يَعْطِيَا فَدَكَاً بِنْتَ الرَّسُولِ وَلَا مِيرَاثَهُ كَفَرَا
 اللَّهُ يَعْلَمُ مَاذَا يَأْتِيَانِ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَذْرِ إِذَا اعْتَذَرَا

فهو يدور حول العقيدة التي يستمدّها من مذهبه ، والتي أشرنا إليها منذ قليل ،
 وفي هاشميات الكميث ، شعر كثير يكاد ينظم عقائد الشيعة العامة ، وعقائد الشيعة
 الزيدية أيضا .

أما شعراء الكيسانية فيرددون في أشعارهم عقائد مذهبهم ، التي لا تخلوا من عناصر دينية دخيلة على العقيدة الإسلامية .

وأكثر عقائدهم دورانا في أشعارهم ، عقيدة رجعة إمامهم محمد بن الحنفية ، وأنه المهدي الذي سيظهر ليملأ الأرض عدلا ، بعد أن ملئت جورا .

من ذلك قول كثير ^(١) :

ألا إن الأئمة من قرش	ولاة الحق أربعة سواء
على والثلاثة من بنيه	هم الأستبأط ليس بهم خفاء
فسيبسط سبط إيمان وبر	وسبط غيبتة كربلاء
وسبط لا تراه العين حتي	يقود الخيل يتبعها اللواء
تغيب لا يرى عنهم زمانا	يرضوى عنده غسل وماء

وتتردد هذه العقيدة في شعر السيد الحميري ^(٢) — وهو من مخضرمي الدولتين —

من ذلك قوله : ^(٣)

ألا قل للوصي فدتك نفسى	أطلت بذلك الجبل المقاما
أضر بمعشر والوك منا	وسموك الخليفة والإماما
وعادوا فيك أهل الأرض طرا	مغيبك عنهم سبعين عاما
وماذاق ابن خولة ^(٤) طعم موت	ولاوارث له أرض عظاما

(١) الأغاني ٨ / ٣١ وعيون الأخبار ٢ / ١٤٤ ومقالات الإسلاميين ١ / ٩١ ومروج الذهب ٢ / ١٠١

(البهية) .

(٢) أبو هاشم إسماعيل بن محمد بن يزيد بن مفرغ الحميري ، والسيد لقب له ، وجدته يزيد بن مفرغ الشاعر ، والسيد شاعر مجيد ، حسن الألفاظ ، ولولا مذهبه العقدي ، لتقدم بشعره عند العلماء بالشعر قديما ، يقول الأصمعي : « ماأسلكه لطريق الفحول ، لولا مذهبه » ويقول أبو الفرج الأصفهاني عنه : « شاعر متقدم مطبوع ، يقال : إن أكثر الناس شعرا في الجاهلية والإسلام ثلاثة : بشار ، وأبو العتاهية ، والسيد ، فإنه لايعلم أن أحدا قدر على تحصيل شعر أحد منهم أجمع ، وإنما مات ذكره ، وهجر الناس شعره ، لما كان يفرط فيه من سب أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه في شعره » (الأغاني ٧ / ٢ ومابعدها) .

(٣) عيون الأخبار ٢ / ١٤٤ ومروج الذهب ٢ / ١٠١ (البهية) والفرق بين الفرق ٣٠ وفيه : « مقامك عندهم ستين عاما » .

(٤) أم محمد بن الحنفية ، اختلف في نسبها ، فقيل إنها : خولة بنت إياس الحنفى ، وقيل : ابنة جعفر بن قيس بن مسلمة الحنفى (انظر : مروج الذهب ٢ / ٩٢ — البهية) .

لقد أمسى بمروق شعب رضوى تراجعهم الملائكة الكلاما
وإن له لرزقاً من إدام وأشرية يُعمل بها الطعاما

إنها مناجاة من هذا الشاعر لإمامه ، لم يقصد بها إلا بث اعتقاده فيه ، وإيمانه بهذا الاعتقاد .

فأيات السيد الحميرى هذه خالصة للتعبير عن هذه العقائد المذهبية ، فإمامه ثبت له الولاية بالوصية ، وهو حتى لم يمت ، متغيب عن الأنظار منذ سبعين عاما ، أو ستين عاما ، مختف بشعب جبل رضوى الخصيب ، والملائكة تهبط إليه وتبادل الكلام — ولست أدري إن كان يعنى بهذا أن الوحي ينزل عليه هناك ؟! — ورزقة يجرى عليه من طعام وشراب .

وكل هذه العناصر المذهبية ، لانت إلى الإسلام بصلة ، ولكن الشاعر يعتقد صوابها ، وهو يريد أيضا أن يثبتها في عقول الآخرين ليؤمنوا بها ، كما آمن ، ومن هنا يكتسب هذا الضرب من الشعر لونه الدعائى المذهبى .

ولهذا الشاعر نفسه شعر يتشوق فيه لرجعة إمامه ابن الحنفية ، ويتعجل ظهوره ، ويؤكد أنه حتى يرزق : (١)

يا شغب رضوى مالم ين بك لا يرى وبنا إليه من الصبابة أولق
حتى متى وإلى متى ومتى المدى يابن الوصى وأنت حتى ترزق
أرأيت كيف يلح الشاعر على هذه العقائد في صور مختلفة من التعابير ، ليثبتها في أذهان أتباع المذهب ، وغيرهم .

ويتولى كثير التعبير عن هذه العقيدة الغالية ، فيقول (٢) :

برئت إلى الإله من ابن أروى (٣) ومن دين الخوارج أجمعينا
ومن عمر برئت ومن عتيق غداة دعى أمير المؤمنيننا

(١) مروج الذهب ٢ / ١٠٢ (البية) وانظر : طبقات ابن المعتز ٣٣

(٢) الفرق بين الفرق ٢٩

(٣) ابن أروى هو : عثمان بن عفان ، نسبة الشاعر إلى أمه وينسب إليها كثيرا في الشعر انظر مثلا : مروج الذهب ١ / ٣٥٦ عتيق : كنية لأبى بكر .

كما يجوز في مذهبهم سب أزواج الرسول ﷺ والطعن عليهم ، والسيد الحميرى يعبر عن هذه العقيدة في قوله — معرّضاً بالأمويين وبالسيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها: (١)

أين التطرف بالولاء وبالهوى إلى الكواذب من بروق الخلب
إلى أمية أم إلى الشيعة التى جاءت على الجمل الخدب الشوق
تهوى من البلد الحرام فنهت بعد الهدوء كلاب أهل الخواب (٢)

ولعلنا لاحظنا الأسلوب الساخر الذى يتحدث به الشاعر عن أم المؤمنين فى البيتين الأخيرين ، والتعبير غير اللائق ، الذى جمع فيه بينها وبين بنى أمية « الكواذب من بروق الخلب » فى البيت الأول .

وللسيد الحميرى أيضاً آيات يسب فيها بعض الصحابة ، وأبناءهم ممن قعدوا عن بيعة على ، ويرميهم بالصلف ، والحسد لعلّى ، والجحود لحق الله ، والجهل ، والصدود عن صراط الله ، وأنهم أوغاد !؟ (٣)

* * *

بعد هذه المعاشية للشعر الشيعة السياسى فى مختلف أغراضه ومناحيه ، قد نستطيع القول ، بأن هذا الشعر قد نهض برسائله نحو الأئمة ومذاهبهم ، والدفاع عنهم والدعاية لهم ، وأنه بلغ من ذلك كله ماأرادوا منه ، وأرضاهم به .

(١) طبقات ابن المعتز ٣٣ . لخدب الشوق: البعير الشديد الطويل . الخواب: ماء على طريق البصرة . الخلب: السحاب الذى لايمطر .

(٢) كانت عائشة رضى الله عنها ومن معها قد انتهوا ليلا ، فى طريقهم إلى البصرة على ماء لبنى كلاب يعرف بالخواب عليه الناس من بنى كلاب ، فعوت كلابهم على الركب ، فقالت : ملاسم هذا الموضع ؟ فقال لها سائق جملها : الخواب ، فتذكرت أن الرسول ﷺ قال لنسائه : « كائى بإحداكن ، وقد نبحنا كلاب الخواب » ثم قال لعائشة : « إياك أن تكونيها » فقالت : ردونى ، فأقسموا لها بالله ما هذا الخواب ، وأن السائق غلط ، وشهد على ذلك خمسون ، فكانت هذه أول شهادة زور فى الإسلام . انظر : مروج الذهب ٢ / ٣٣٦ (السعادة) .

(٣) انظرها فى : مروج الذهب ٢ / ٦٢ (البية) .

و — نظرات فنية في شعر الشيعة السياسى :

من خلال ماقدمنا من نصوص شعر الشيعة السياسى ، ودراستها وتحليلها ، يمكن أن نقف على أهم الجوانب الفنية ، التى تميز بها هذا الشعر ، أو كانت — على الأقل — من الملامح البارزة فيه ، حتى نستبين قيمته الفنية ، بعد أن عرفنا مدى أهميته التاريخية ، ونضعه فى موضعه من حركة تطور الشعر العربى ، فى موكبه التاريخى الطويل .

ويمكن تلخيص ملامحه الفنية فى النقاط التالية :

١ — ظهور أسلوب الجدل والبرهنة ، واعتماده على الحجج القوية ، والأدلة البارة ، وفاق أحكام هذا الأسلوب الجديد فى الشعر العربى هو الكميت بن زيد — كما مر — ^(١) .

ونستطيع أن نلاحظ فى يسر أن قيمة هذا الشعر الفنية ، أقل من قيمته التاريخية والفكرية ؛ لعنايته بالاستدلال ، والوقائع ، والنظريات ، أكثر من التفاته إلى جودة التعبير ورقته ، أو جمال الأسلوب والأداء ، أو التألق فى انتقاء الألفاظ ، وصوغ العبارات ، واختيار الصور .

ومن اليسر كذلك أن نرد هذه الظاهرة الفنية إلى علتها ، إذا عرفنا أن الكميت ابن زيد — مبتدع هذا الأسلوب الشعرى — كان يجمع بين القدرة على الشعر ، والقدرة على الخطابة كما يقول الجاحظ ^(٢) ، ولاشك أن التقاء الخطابة والشعر فى لسان الكميت ، طبع شعره — بخاصة فى هذا الأسلوب الجدل — بطابع خطائى ملحوظ ؛ إذ يغلب عليه الأسلوب التقريرى ، الذى هو سمة من سمات الأسلوب النثرى ، كما جعل غايته الإقناع العقلى ، لا التأثير العاطفى غالبا ، وقد لفتت هذه السمة الفنية فى شعر الكميت الجدل أنظار بعض قدامى العلماء بالشعر ونقدته ومبدعيه ، فيروى أن حماد الراوية قال للكميت : « إنما شعرك خطب ^(٣) » ، وأن الفرزدق الشاعر الأموى الفحل قال له ، فى معرض الحكم على شعره : « أنت خطيب » ^(٤) .

(١) راجع ص ٩٢ ، ٩٣ ، ١٠١ من هذه الدراسة .

(٢) البيان والتبيين ١ / ١٣٤ ، ٤ / ٨٤

(٣) الموشح ١٩٦

(٤) أمالى المرتضى ١ / ٤٤

وقد نضيف إلى هذا أن طبيعة الموضوع الذى كان الكميت يعالجه فى شعر الاحتجاج والجدل ، لايتيح للشاعر كثيرا مجال التفنن ، ويمنحه السعة فى اصطلياد الصور التخيلية ، والعبارات الأدبية ، لاشتغاله بالبحث عن الأدلة ، وتركيب الأقيسة ، ووضع المقدمات ، واستخلاص النتائج .

ومع ذلك يبقى للكميت فضل اعتساف هذا الأسلوب ، وإخضاعه للقوالب الشعرية ، حتى عد إضافة جديدة لأساليب الشعر وأغراضه .

٢- حرارة العاطفة ، وصدق الباعث : ذلك أن شعراء الشيعة ، كانوا يصدرن فيما يقولون عن اقتناع صادق ، وعقيدة راسخة ، وحب ممكن لأئمتهم ، وإخلاص تام لمذهبهم وعقائدهم .

وأشعارهم التى أوردناها خير شاهد على توفر هذه الظاهرة الفنية فى شعرهم ، فإن أردنا أن نظاهر الرواية التاريخية الشعر فى هذا المقام ، اكتفينا بما روى من قول الكميت بن زيد ، لأبى جعفر ، محمد بن على بن الحسين ، حين قدم له ألف دينار وكسوة ، جائزة على أشعاره فى آل البيت : « والله ما أحببتكم للدنيا ، ولو أردت الدنيا لأتيت من هى فى يديه (يعنى بنى أمية أصحاب السلطان والمال) ، ولكنى أحببتكم للآخرة ، فأما الثياب التى أصابت أجسامكم فأنا أقبلها ؛ لبركاتها ، وأما المال فلا أقبله ، فرده ، وقبل الثياب » ^(١) ، وقوله أيضا لعبد الله بن الحسن بن على ، وقد أجازاه على شعر فى آل البيت بضبعة قيمتها أربعة آلاف دينار ، وسلمه كتابها : « بأبى أنت وأمى ، إنى كنت أقول الشعر فى غيركم أريد بذلك الدنيا والمال ، ولا والله ماقلت فيكم إلا لله ، وماكنت لأخذ على شئ جعلته لله مالا ولا ثمنا » ^(٢) .

يضاف إلى ذلك أن الاضطهاد الذى تحمله أهل البيت ، وتحمله معهم أنصارهم ، قد عمل على زيادة العنصر الوجدانى فى أشعارهم ، وبخاصة تلك التى تدور حول حب أهل البيت ، والولاء لهم ، والإشادة بمناقبهم ، أو التى تعبر عن سخطهم على

(١) الأغاني ١٥ / ١١٨ ومعاهد التنصيص ٢ / ٢٧

(٢) مروج الذهب ٢ / ١٩٥ (البهجة) وانظر رواية أخرى لموقف آخر فى المصدر نفسه ٢ / ١٩٦

الأعداء ، الغاصبين ، أو تفيض باللوعة والبكاء على قتلاهم ، ويظهر هذا جليا فيما أوردنا من نماذج شعرهم ، في هذه الأغراض .

٣ — امتزاج العناصر السياسية بالعناصر الدينية في شعرهم ؛ إذ كان محور مذهبهم نظريتهم في الخلافة ، وهم يعتقدون أن منصب الخلافة ليس أمراً دنيوياً ، ولكنه جزء لا ينفصل من العقيدة الدينية نفسها ، فهي ركن من أركان الدين عندهم ، كما ذكرنا من قبل ؛ ولذا كثر في شعرهم التعبير عن أن الخلافة حق شرعى لأئمتهم ، كما حرصوا في إشاداتهم بهؤلاء الأئمة على أن يسبغوا عليهم كثيرا من الصفات الدينية ، التي يرونها ضرورة للإمامة .

٤ — تنوع الأسلوب بتنوع الموضوعات : فهو مرة أسلوب هادىء رزين ، حين يسلك سبيل التقرير والاحتجاج العقلى أو الدينى (أبيات الكميث) ومرة أسلوب ناثر قوى مهتاج ، حين يغضب على الخصوم ، وينقم منهم ظلمهم واغتصابهم ، وثالثة أسلوب حزين باك مكلوم إذا صور نكباتهم ، وتفجع على قتلاهم ، وتحسر على حق أئمتهم الضائع ، أما القوة والفخامة والتدفق ، فهي سمات لشعرهم في الإشادة بأهل البيت وتمجيدهم .

٥ — يعد شعر الشيعة بعامه أدبا جديدا ، في كثير من موضوعاته ومعانيه ، فموضوعه سياسى مذهبى ، ومعانيه مستمدة من دعاوى الشيعة في مذهبهم ، وبعض أساليبه تعتمد على القرآن ، ولعل هذا التجديد ، في الموضوعات والمعاني ، هو الذى لفت نظر عبد الملك بن مروان — وكان بصيرا بالشعر — فقال لشعراء الأمويين المداحين ^(١) : يامعشر الشعراء تشبهوننا بالأسد ، والأسد أبخر ، وبالبحر ، والبحر أجاج ، وبالجبل والجبل أوعر ، ألا قلتم فينا ، كما قال أيمن بن خريم في بنى هاشم :
نهاركم مكايدةً وصومٌ وليلكم صلاةٌ واقترأ ..
(الآيات ، وقد مرت) .

وهذه لمحة ذكية من عبد الملك ، فضلا عن جدة المدح بهذه المعاني ، فإنها أليق بمدح الخلفاء ، الذى كان يتوق إليه بنو أمية .

(١) ديوان المعاني ٢٦/١ ، وانظر : الأغاني ٦/٢١ .

شعر الأمويين :

يلاحظ المتتبع لشعر الشيعة في العصر الأموي ، أن الشعراء الذين انقطعوا لهم — أو كاودا — وأخلصوا الولاء لأئمتهم ومذاهبهم ، كانوا قليلين .

فإذا استثنينا كثير عزة ، والسيد الحميري ، شاعري الكيسانية ، والكميت بن زيد ، المتشيع على مذهب الزيدية ، وأيمن بن خُرَيْم ، المحب لآل البيت بعامة ، لا نكاد نجد من الشعراء الفحول ، أو المعروفين ، من كان يخص آل البيت بولائه ، ويكثر القول في تأييد حقهم ، أو التعبير عن محبتهم ، والإشادة بهم ، كما فعل هؤلاء .

ويمكن تفسير ذلك بأن حظ آل البيت من الغروة والسلطان ، كان محدودا في هذا العصر ، مما قعد بهم عن اصطناع الشعراء ، الذين تستهويهم العطايا ، ويحرك لسانهم الأمل والرغبة في دنيا يصيبونها ، ولا أدل على ذلك من قول أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين للكميت بن زيد ^(١) : « ياكمت لو كان عندنا لأعطيناك ، ولكن لك ما قال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت : لازلت مؤيدا بروح القدس ، ماذبيت عنا أهل البيت » .

وها هوذا عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب يجمع مالا وحلياً من بعض رجال آل البيت ونسائهم للكميت ، ثم يقدمه له ، قائلا ^(٢) : « ياأبا المستهل : أتيناك بجهد المقل ، ونحن في دولة عدونا ... » .

حقا كان هناك من الشعراء من أسهم بقصيدتين ، أو قصيدة ، أو مُقْطَعَة ، أو أبيات قليلة في مدح آل البيت ، أو رثاء شهدائهم ، أو هجاء أعدائهم ، في مناسبات قليلة هزت عواطفه بالإعجاب بهم ، أو الحزن على ما أصابهم ، ثم لم يلبث أن شغل عنهم بدنياء ، وطبيعي أن يكثر أمثال هؤلاء الشعراء لكثرة ما تعرض له أهل البيت من عسف الأمويين وتنكيلهم .

ومع ذلك فقد كان الشعراء المقبلون على بنى أمية ، القائلون فيهم وفي دولتهم

(١) مروج الذهب ٢ / ١٩٥ (البهية)

(٢) المصدر السابق ٢ / ١٩

مايرضهم أكثر عدداً ، وأبرز شخصية من شعراء أهل البيت ؛ لأن المال كثير في خزائن الأمويين ، وهم يتصرفون فيه كما يَحُلُّوْهُم ، غير متأنمين ، أو متحرجين ، أو مراعين لقواعد الإسلام في الإنفاق من بيت مال المسلمين ^(١) ، كما أن السلطة والسلطان في أيديهم ، وقد سخوا بهذا وذاك على كل ناعق بفضلهم ، أو مؤيد لدولتهم .

والروايات التاريخية والأدبية تحدّثنا عن كثير من صور سخاء بنى أمية وعماهم ، في عطايا الشعراء وهباتهم ، نجيزى منها ببعضها :

روى أن أعرابيا من ضبة وفد على عبد الملك بن مروان ، وأنشده ^(٢) :
والله مانذرى إذا مافاتنا طلب إليك من الذى نتطلب
فلقد ضربنا في البلاد فلم نجد أحدا سواك إلى المكارم ينسب
فاصبر لعادتنا التى عودتنا أو لا فأرشدنا إلى من نذهب

فقال عبد الملك : إلىّ إلىّ ، وأمر له بألف دينار ، ووفد عليه في العام التالى ، فأعطاه ألف دينار ، وفي العام الثالث ، أعطاه ثلاثة آلاف دينار ^(٣) ، ومدحه آخر فأمر له بجائزة وقطعة بالعراق ^(٤) .

ودخل الطرماح بن حكيم ، وهو من شعراء الخوارج ، على خالد بن عبد الله القسرى — عامل الأمويين على الكوفة — فأنشده أبياتا يعرض فيها بسوء حاله ^(٥) ، فأمر له بعشرين ألفا .

وكان الحجاج بن يوسف الثقفى يعطى الشعراء ، الذين كانوا يقصدونه بالعراق ، وفضل أحدهم مرة ، على الآخرين ، بألف درهم ؛ لأنه أعجب ببيت قاله ^(٦) .

(١) ينسب إلى معاوية بن أبى سفيان أنه قال : « الأرض لله ، وأنا خليفة الله فما آخذ من مال الله فهو لى ، وماتركت منه كان جائزاً لى ، وكان صعصعة ابن صوحان العبدى حاضرا فى مجلس معاوية الذى قال فيه هذا الكلام ، فقال :

تُمنيك نفسك ملايكو ن جهلاً معاوى لانأتم

انظر : مروج الذهب ٢ / ٧٩ (الجهة) .

(٢) أمالى القالى ٢ / ٢٨٧

(٣) المصدر السابق .

(٤) هو أعشى ربيعة كما سيأتى . انظر : المصدر نفسه ٢ / ٢٧٠ ، وانظر : ديوان المعالى ١ / ٤٩

(٥) مرت ص ٨٦ من هذه الدراسة

(٦) أمالى القالى ٢ / ٢٦٦

لقد أغرى المال والجاه ، كثيرا من شعراء العصر ، فأقبلوا عليهم مخلصين أو متملقين طامعين ، لينتفعوا بمالهم وجاههم .

بخلاف شعراء أهل البيت ؛ إذ كانوا بميلهم إليهم إنما يرضون عواطفهم الدينية لا غير ، فضلا عن أنهم يتعرضون بذلك إلى سخط أصحاب السلطان ، ونقمتهم ، وما من شك في أن الناس إلى نعيم الدنيا وزينتها أميل ، وعلى إثثار السلامة أحرص .
وينبغي أن لا نفهم من هذا ، أن حزب الأمويين قد خلت صفوفه ، وأقفر ميدانه من الشعراء المتحمسين له ، المخلصين في تحمسهم وولائهم لمبادئه .

فالتاريخ الأدبي يمدنا بأسماء عدد من الشعراء ، الذي كانوا منقطعين ، أو كالمنقطعين لبنى أمية ، من أمثال : الأخطل التغلبي ^(١) ، وعبد الله بن الزبير الأسدي ^(٢) ، وأبي صخر الهذلي ^(٣) ، وأبي العباس الأعمى ^(٤) ونُصيب بن

(١) أبو مالك غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة ، يتصل نسبه بتغلب ، والأخطل لقب له ، أطلقه عليه كعب بن جعيل ، حين سمعه يهجو وهو غلام ، ومعناه : السفه ، وهو نصراني من أهل الجزيرة بالعراق ، في الطبقة الأولى من الشعراء الإسلاميين مع جرير والفرزدق ، وكان أسن من جرير ، وشعره يشبه شعر النابغة الذبياني — فيما ذكر أبو عبيدة — لصحة شعره . وهو شاعر الأمويين لما مدحهم بقصيدته المشهورة (خف القطلين فراخوا منك أبو بكر) قال له عبد الملك بن مروان : أتريد أن أكتب إلى الآفاق أنك أشعر العرب ؟! وصماه : شاعر أمير المؤمنين ، وقال : لكل قوم شاعر ، وإن شاعر بنى أمية الأخطل ، وله في الأمويين مدائح مروية ، وقال عنه جرير : هو أنعتنا للخمر والحمر الوحشية ، وفي رواية أن جريرا قال عنه : يجيد نعت الملوك ، وصيب صفة الحمر ، ويبدو من شعر قاله الأخطل ، عندما حضرته الوفاة ، أنه مات قبل جرير والفرزدق ، أيام عبد الملك بن مروان ، ولكننا لم نقف على سنة وفاته . انظر : الأغاني ٧ / ٦١ وما بعدها ، ١٠ / ٢ ، وطبقات ابن سلام ٢٥٠ ، ٣٨٦ ، ٤٢١ ، والاشتقاق ١٠٦ ، ٣٣٨ ، والشعر والشعراء ١٨٩ ، والمؤتلف ٢١

(٢) أبو كثير عبد الله بن الزبير ، يتصل نسبه ببني أسد بن خزيمه ، فهو قرشي النسب ، شاعر كوفي المنشأ والمنزل ، من شعبة بنى أمية ، وذوى الهوى فيهم ، والعصية لهم ، والنصرة على عدوهم ، أسره مصعب بن الزبير ، لما غلب على الكوفة ، ثم من عليه ووصله ، فمدحه ، وأكثر ، وانقطع إليه ، فلم يزل معه حتى قتل مصعب ، وأصيب ابن الزبير بالعمى في آخر عمره ، ومات في خلافة عبد الملك بن مروان . انظر : الأغاني ١٣ / ٣١ ، ومعاهد النصيص ٢ / ١٠٨

(٣) أبو صخر عبد الله بن أسلم السهمي ، أحد بني سهم بن مرة بن معاوية بن هذيل ، من شعراء الدولة الأموية ، كان شديد الولاء لبني مروان ، مدح عبد الملك ، وعبد العزيز ابني مروان بمدائح كثيرة ، وله موقف مع ابن الزبير صارحه فيه بعدائه ، فأخذه وحسه بسجن عارم ، ثم استوبهته هذيل ، ومن له خؤولة من قريش في هذيل ، فأطلقه بعد سنة . انظر : الأغاني ٢١ / ٩٤ ، وخزانة الأدب ١ / ٥٥٥ (السلفية) ، وسقط اللآلئ ١ / ٣٩٩ ، والعيني على الخزانة ١ / ١٦٢ ، وشرح ديوان الحماسة ١ / ٣٢٧

(٤) هو السائب بن فروح مولى بني الدَّيْل ، عرى بالولاء ، أصله من أذربيجان ، فهو من الشعراء الموال ، ومن شعراء بنى أمية الملعودين ، كان يقيم في مكة ، وله أشعار كثيرة في الإشادة ببني أمية ، وهجاء بني الزبير ، حتى نفاه ابن الزبير إلى الطائف . انظر : الأغاني ١٥ / ٥٧

رَبَّاح^(١) ، مَوْلَى عبد العزيز بن مروان ، وعدى بن الرقاع^(٢) ، وأعشى ربيعة^(٣) وغيرهم .

ومن هؤلاء من اعتر بهم بنو أمية أشد الاعتزاز ، لإخلاصهم الشديد في الموالاة لهم ، ونذكر في هذا المقام قول عبد الملك بن مروان للأخطل ، لما مدح بنى أمية بقصيدته المعروفة (خف القطين فراحوا منك أو بكروا) والتي يقول فيها عن بنى أمية :
حُشِدَ عَلَى الْحَقِّ عُيَافُ الْخَنَاءِ أَنْفَ إِذَا أَلَمْتُ بِهِمْ مَكْرُوهَةٌ صَبَرُوا
شَمْسُ الْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَخْلَامًا إِذَا قَدَرُوا
« لكل قوم شاعر ، وإن شاعر بنى أمية الأخطل » ، وسماه : شاعر أمير المؤمنين .

وقوله لأعشى ربيعة ، لما دخل عليه وعنده ابنه الوليد وسليمان ، فقال له : يَا أَبَا
المَغيرة ، مابقي من شعرك ؟ فقال : وَاللَّهِ لَقَدْ ذَهَبَ أَكْثَرُهُ ، وَأَنَا الَّذِي أَقُولُ :
وَفَضَّلْتُنِي فِي الشَّعْرِ وَالْعِلْمِ أَنْتَنِي أَقُولُ عَلَى عِلْمٍ وَأَعْلَمُ مَا عَنِى
فَأُصْبِحْتُ إِذْ فَضَّلْتُ مِرْوَانَ وَابْنَهُ عَلَى النَّاسِ قَدْ فَضَّلْتَ خَيْرَ أَبِي وَابْنِ
« من يلومنى على حب هذا ، وأمر له بجائزة وقطية بالعراق »^(٤) .

(١) أبو محجن ، أو أبو الحجناء نصيب بن رباح الشهير بالشاعر الزنجي كان أولاً مولى لرجل من كنانة يدعى راشد بن عبد العزى ثم لما اشتهر بالغزل ، خشي مولاة أن يشيب بنساء قومه فباعه ، واشتراه عبد العزيز بن مروان وأعتقه ، وهو شاعر أموى فحل مقدم في المدح والنسيب ، وكان يتعفف في غزله ، وهو القائل :
وَفِي كَرَمٍ عَنِ الْفَحْشَاءِ نَاءٍ كُبُعدُ الْأَرْضِ عَنِ جَوْ السَّمَاءِ

وله مهاجاة مع الفرزق مروية ، توفي سنة ١١١ هـ ، أو ١١٣ هـ ، انظر : الأغاني ١ / ١٢٥ وأمالى الزجاجي ٣١ والموشح ١٨٩ ومسطح اللآلئ ١ / ٢٩١ .

(٢) أبو داود عدى بن زيد بن مالك بن عدى بن الرقاع العاملي ، من بنى الحارث (وهو عاملة) وعاملة حِمْيَرٍ قضاة ، شاعر محسن ، عده ابن سلام في الطبقة السابعة من فحول الإسلاميين ، وهو من شعراء بنى أمية المقدمين عندهم ، واختص بمدح الوليد بن عبد الملك ، وكان يتزل بدمشق . انظر : الأغاني ٨ / ١٧٢ وطبقات ابن سلام ٥٥٨ والتذكرة السعدية ٣٥٩ والشعر والشعراء ٢٣٧ والتؤلف ١١٦ ومعجم الشعراء ٢٥٣

(٣) ابو المغيرة عبد الله بن خارجة بن حبيب ، أحد بنى أوى ربيعة من شيبان ، ثم من بكر بن وائل ، شاعر أموى من ساكنى الكوفة ، شديد التعصب لبنى أمية ، مرواى المذهب توفي سنة ٨٥ هـ انظر : الأغاني ١٦ / ١٥٥ ، والحماسة لأبى تمام ٢ / ٣٨٩ (نشرة عبد الله عسيلان) .

(٤) أمال القائل ٢ / ٢٧٠ .

وهؤلاء الشعراء لم يوقفوا شعرهم على السياسة ، فقد قالوه في فنون شعرية أخرى ، فحين نقول بانقطاعهم إلى بنى أمية ، إنما نعنى إن ما كان من شعرهم متعلقا بالسياسة ، إنما جاء كله أو أكثره ، في نصرة بنى أمية .

وقد يكون من المفيد أن ننبه إلى أن هؤلاء الشعراء لم تبرأ دوافعهم تماماً من الرغبة في المال ، والتطلع إلى الاستفادة من سخاء الأمويين في البذل لأنصارهم . فقد أغرى ثراء الأمويين ، وحبهم للترف ، غالبية شعراء دولتهم بالإقبال على الدنيا ، والتمتع بنعيمها ، وأقرب السبل إلى ذلك ، وآكدها نجاحا ، الارتقاء في أحضان الأمويين ، والتشيع لهم .

فأبوا العباس الأعمى ، الذى يقول عنه أبو الفرج الأصفهاني ^(١) : « وكان من شعراء بنى أمية المعدودين المقدمين في مدحهم ، والتشيع لهم ، وانصباب الهوى إليهم » ، يقول حين كسا عبد الله بن الزبير بنى أسد بن عبد العزى — قومه — وأحلافهم ، ولم يَكْسُ أبَا العباس ، وكان بمكة : ^(٢) .

كَسَتْ أَسَدٌ إِخْوَانَهَا وَلَوَّانِى بِلِدَّةِ إِخْوَانِى إِذْ نَ لُكْسِيَتْ
فَلَمْ تَرَعِنِى مِثْلَ حَى تَحْمَلُوا إِلَى الشَّامِ مَظْلُومِينَ مِنْذُ بُرِئْتُ
فهو يعرض بطلب العطاء من بنى أمية ، إخوانه بالشام ، وما إن يسمع عبد الملك بن مروان بذلك حتى يوحى إلى الناس أن يخلعوا عليه ، ففعلوا ، واجتمع له من ذلك قدر ضخم ، ثم أمر له بمالٍ عظيم .

وعبد الله بن الزبير الأسدى ، وهو كسابقه من ذوى الهوى في بنى أمية ، والتعصب لهم ، والنصرة على عدوهم ، كما يقول أبو الفرج ^(٣) ، يجذبه هو الآخر عطاء مصعب ابن الزبير ، حينما غلب على الكوفة لأخيه عبد الله ^(٤) فيمدحه ، وينقطع

(١) الأغاني ١٥ / ٥٧

(٢) المصدر السابق . برئت : بُرِئْتُ : أى خلقت .

(٣) الأغاني ١٣ / ٣١

(٤) يرى جورجى زيدان أن ابن الزبير من شعراء الأمويين الذين اضطروا لمدح آل الزبير ؛ لأنهم كانوا يقيمون بين أظهرهم ، ولأن أكثرهم كانوا يمدحون بعض أمراء بنى أمية وليس خلفاءهم ، ولو كانوا من شعراء الخلفاء ، ربما كانوا أثبت في مدحهم (تاريخ آداب اللغة العربية ١ / ٢٥٤) ، وفي أخبار ابن الزبير ما يدل على أن عطاء مصعب كان من أهم أسباب اجتذابه ، وانقطاعه لمدح الأمير الزبيرى .

إليه ، ولم يزل كذلك حتى قتل مصعب ، مع أنه كان كثير التهجم على عبد الله بن الزبير في مديحه لبنى أمية .

أما نصيب بن رباح ، فقد أفل نجمه بعد وفاة عبد العزيز بن مروان ، الذى كان نصيب يكيل له الشاء ، فيجزل عبد العزيز له العطاء ، فلما قيل له : هَرِمَ شعرك ، قال : « لا والله ماهرم ، ولكن العطاء هرم ^(١) » ، وهو القائل لهشام بن عبد الملك ، حين أعجب بمدحه ، وقال له : « يأسود بلغت غاية المدح فسلنى : فقال يدك بالعطية أجود ، وأبسط من لسانى بمسألتك ^(٢) » فأجزل له العطية .

على أية حال ، فقد كان شعراء بنى أمية أكثر شعراء الأحزاب عددا ؛ لأنهم كانوا شعراء الدولة القائمة يلتفون حولها ، رغبة فى التكسب كثيرا ، وتأثرا بالعصبية القرشية ، أحيانا ، وكرها لسائر الأحزاب فى بعض الأحيان .

وأياما كان الدافع ، أو الدوافع ، وراء الشعر المنتصر للحزب الأموى ، فقد استطاع هذا الشعر أن يرضى حاجة الأمويين تمجيد خلفائهم ، وتأييد خلافتهم ، ومناهضة أعدائهم ، والوقوف إلى جانب عمالهم وقوادهم ، فى كفاحهم ضد أعداء دولتهم ، وقد يعرج على قتلاهم ، فيرتى بعض من سقط فى ميادين نضالهم .

والصور التى يقدمها هذا الشعر يمكن تلخيصها فيما يلى :

صور يغلب عليها الطابع الأخلاقى ، وصور يغلب عليها الطابع الدينى ، وثالثة تجمع مزيجا من المعانى الأخلاقية ، والدينية ، والسياسية ، وقد تلوح فى ثنايا هذا كله بعض الدعاوى التى تحاول الاحتجاج لخلافة الأمويين .

أ : صور من الإشادة ببنى أمية والاحتجاج لخلافتهم (المدح السياسى) :

يلاحظ أننا نمزج بين هذين الموضوعين قصدا ؛ يدفعا إلى هذا مانع من أن شعراء الأمويين ، لم يجدوا من الحق الشرعى ، أو الأسس الدينية ، أو المنطق العقلى ، ما يستندون إليه فى دعوى استحقاق بنى أمية الخلافة .

وهذا أمر طبيعى ، مادامت الدولة الأموية قد قامت على التآمر والدهاء ، والخديعة ، والقوة ، والغصب ، وتأليف القلوب بالمال تارة ، وبالجاه تارة أخرى .

(١) الأغاني ١ / ١٤١

(٢) الأغاني ١ / ١٣١

ويعبر عن هذا صمصعة بن صوحان العبدى فى حديث له مع معاوية بن أبى سفيان ، وقد سأل معاوية مَنْ بمجلسه ؛ أى الخلفاء رأيتونى ؟ فقال صمصعة : « أئى يكون الخليفة مَنْ ملك الناس قهراً ، ودانهم كبراً ، واستولى بأسباب الباطل كذبا ومكرا » (١) .

وقد أشرنا فى صدر هذا المبحث (٢) إلى مفهوم السياسة فى الإسلام ، غير أن بنى أمية لم يترموا هذا المفهوم فى سياستهم للرعية ، فقد كان لهم مفهومهم الخاص بالنسبة للسياسة ، يعبر عنه عبد الملك بن مروان ، حين سأل ابنه الوليد قائلا : يا أبى ، ما السياسة ؟ قال : « هية الخاصة ، مع صدق مودتها ، واقتيا دقلوب العامة بالإنصاف لها ، واحتمال هفوات الصنائع ، فإن شكرها أقرب الأيادى إليها » (٣) .

لكل هذا لم يجد الشعراء الأمويون بداً من أن يلجأوا إلى بعض الدعاوى الدينية ، يضيفونها على خلفائهم ، ويشونها خلال مدائحهم فيهم وفى أنصارهم ، تدور فى معظمها حول اختيار الله لهم ، ونصرته إياهم ، وأنهم الحراس على دين الله ، القائمون على مصالح المسلمين بالعدل ، فضلا عن أنهم أفضل قريش وسادتها ، ومزجوا بين هذه المعانى وغيرها من الصفات الدينية ، والسياسية ، والأخلاقية ، فى مقام تمجيدهم ، والإعلاء من شأنهم .

أما الاحتجاج على النحو الذى رأيناه فى الشعر الشيعى — وبخاصة فى شعر الكميث — ذلك الاحتجاج القائم على الجدل ، والاستدلال بعناصر دينية ، أو أقيسة عقلية ، فلا نجد له نظيرا فى أشعار شعراء الحزب الأموى .

فهذا كعب بن جعيل التغلبى يحاول أن ينح خلافة معاوية بن أبى سفيان صبغة شرعية باعتباره أفضل القرشيين ، فيقول : (٤)

كأنَّ أبَا موسى عَشِيَّةٌ أَذْرَجَ يَطُوفُ بِلِقْمَانَ الْحَكِيمِ يُوَارِبُهُ
وَلَمَّا تَدَارَوْا فِي تَرَاثِ مُحَمَّدٍ سَمِتَ بَابِنَ هِنْدٍ فِي قَرِيْشِ مُضَارِبِهِ

(١) مروج الذهب ٢ / ٧٨ (البية) .

(٢) راجع ص ٨٠ من هذه الدراسة .

(٣) عيون الأخبار ١ / ١٠ وأمالى القالى ٢ / ٨٢ .

(٤) طبقات ابن سلام ٤٨٧ . تداروا : الأصل تدارعوا : تخاصموا وتنازعوا . أذرح : بلدة بمجنب جرباء بالشام .

يواربه : يداهيه ويخاتله . تراث محمد : يعنى الخلافة . المضارب : جمع مضرب (بكسر الراء) الأصل والمنصب . أبو موسى الأشعرى : أحد الحكمين بعد صفين . لقمان : المقصود هنا : عمرو بن العاص الحكم الآخر .

والحق أن الشاعر يغلو غلواً شديداً في تفضيل معاوية على الإمام عليّ في النسب ، وأنه بذلك كان أحق بالخلافة ، فنحن لانتكر شرف بني أمية في الجاهلية ، ولكننا لانعلى هذا الشرف على بني هاشم ، آل بيت النبي ﷺ ، فادعاء الشاعر تقديم هذا الأموي ، على عليّ الهاشمي ، ادعاء باطل ، وغلو لا يثبت حقا ، فضلا عن أنه لا ينعى أحداً ، من المسلمين .

وأضعف من حجة كعب بن جعيل ، محاولة نابغة بني شيان ^(١) ، تأصيل الخلافة في بني أمية ، ونفى أي حق لغيرهم فيها ، في قوله : ^(٢)

معشّر معيدن الخلافة منهم بدوها منهم وفيهم تحوّر
لا يروى من ملكهم آدمي إن من رام ملكهم مغرور
رامه الناكثون فاستأصلوهم وولاة الشيطان حتى أيسروا

فهذه معان عامة ، ودعاوى يعوزها الدليل على صوابها وصدقها ، وإلا ، فلماذا كان بدوها واستمرارها فيهم ؟ وما دليل الشاعر على انفرادهم بها ، وأن من طلبها من غيرهم غواة من حزب الشيطان ؟ إن جعبة الشاعر تخلو من أي برهان مقنع على صدق ما ادعى .

وطابع الادعاء ظاهرة بارزة في أكثر ما خلع الشعراء الأمويون ، على بني أمية من معان ، وبخاصة ما كان منها في محاولة إظهارهم في مظهر ديني ، على نحو ما فعل شعراء الشيعة في تصوير أئمتهم ، ومادام الغرض هو الدعاية للخلفاء ، فلا بأس أن ينزع شعراؤهم هذا المنزع ، وأن يخلعوا عليهم من الأردية الدينية ، ما قد ينخدع به البعيدون عن مشاهدة أحوالهم من المسلمين .

من هذا المنطلق ، يتدفق جرير ^(٣) في مدح عبد الملك بن مروان ، بصورة يجمع

(١) عبد الله بن مخارق بن سليم ، أحد بني ذهل بن شيان ، شاعر بدوي من شعراء الدولة الأموية ، كان يفد على خلفاء بني أمية بالشام فيمدحهم ، ويجزلون عطاءه ، وكان فيما يليق من شعره وخبره على دين النصرانية . انظر : الأغاني ٦ / ١٤٦ والمؤتلف ١٩٢ .

(٢) ديوانه ١٢٣

(٣) أبو حرزة جرير بن عطية بن الخطمي ، واسم الخطمي ، حذيفة بن بدر من بني كليب بن يربوع ، ثم من بني تميم ، وأمه كلبية أيضا ، كان لسان مضر وشاعرها ، يقدمه العلماء بالشعر كثيرا على صاحبه الفرزدق الحميري ، ولم يلحق به إلا الخطمي التغليبي عند أكثرهم . قالوا : بيوت الشعر أربعة : فخر وهجاء ، ومدح ونسيب ، وفي كلها غلب جرير ، وقال عنه الأصمعي . كان ينهشه (أي يهجو) ثلاثة وأربعون شاعرا فينبذهم وراء ظهره ، ويشبه أبو عمرو بن العلاء شعره بشعر الأعشى الكبير ، وله مدائح جواد في بني أمية . توفي بأرض الحجاز سنة ١١٠ أو ١١١ هـ بعد الفرزدق بستة أشهر ، وقيل بسنة ، وأخباره كثيرة ، انظر : الأغاني ٧ / ٣٥ ومعاهد التنصيص ١ / ٢٢٨ وابن خلكان ١ / ١٢٧ والشعر والشعراء ١٧٩ والمؤتلف ٧١ وغيرها كثير .

فيها بين صفات دينية ، ودعاوى تعسفية ، يزعم بها تفضيل بنى أمية على غيرهم في حق الخلافة فيقول : (١)

لولا الخليفةُ والقرآنُ يقرؤه ما قام للناس أحكامٌ ولا جُمعُ
أنت الأمينُ أمينُ الله لاسرِفُ فيما وَلِيتٌ ولا هِبابَةٌ وَرَعُ
أنت المبارك يهدى الله شيعته إذا تفرقت الأهواءُ والشَّيْعُ
يا آلَ مروانَ إنَّ اللهَ فضلكم فضلاً عظيماً على مَنْ دينُه البدْعُ

فالمعاني الدينية هي الضيغة الواضحة في هذا المديح ، الذى يصور الخليفة بأنه ركن الدين ، والقيم على أحكام الشريعة ، وإمام المسلمين الذى بدونه لا تتعقد صلوات الجمع ، وهو أمين الله على ولاية الأمر ، والمبارك الذى يهدى الله به عباده ، والذين يوفقههم إلى طاعته والالتفاف حول ولايته ، وقد هدى الله قومه (بنى أمية) إلى الصواب فى الدين ، والاستقامة على جادته ، وفضلهم بذلك على غيرهم (أعداء الأمويين) من أصحاب الدعاوى الضالة المضلة فاخترهم للخلافة .

ودعوى اختيار الله لبنى أمية هذه تتردد كثيراً فى أشعار شعرائهم ، باعتبارها حجة على ثبوت حقهم فى الخلافة ، وقد ناقشناها عند كلامنا على مبادئ الحزب الأموى .

وقريب من هذه الصورة الدينية للخليفة الأموى ، قول نابغة بنى شيبان ، فى يزيد بن عبد الملك (٢) :

وحياه المليك تقوى وبراً وهو من سوس ناسكٍ وصالٍ
يقطع الليل آهة وانتحاباً وابتهالاً لله أئى ابتهاًل
تارة راكعاً وطوراً سجوداً ذا دموج تنهل أئى انهلال
وله نُجبةٌ إذا قام يتلو سوراً بعد سورة الأنفال
عادلٌ مقسطٌ وميزان حقٍ لم يحف فى قضائه للموالى
موافياً بالعهود من خشية الله ومن يعفه يكن غير قالى

(١) ديوانه ٣٥٥ . سرف : متجاوز للحد . ورع : جبان .

(٢) ديوانه ٦٨ . السوس : الأسل ، النجبة : الواحدة من النحيب ، وهو البكاء . مقسط : من أقسط : عدل . يحف : يحور . يعفه : يطلب عطاءه . قال : كاره ، والمعنى لا يعطه عطاء قليلاً فيغضب ، أو لا يحرمه فيكرهه .

وتذكرنا هذه الصورة للخليفة الأموي ، بصورة الإمام الهاشمي ، التي وصف بها أيمن بن خريم الشيعي الأئمة بعامة ، وكأنما أراد شعراء بني أمية أن يواجهوا بهذه المعاني الدينية ، التي تصور الخليفة الأموي ، حاكماً تقياً ، هادياً مهدياً ، ورعاً ، عادلاً ، مرضياً ، أن يقابلوا بها ، ماخلعه شعراء الشيعة على أئمتهم من سمات ديني ، فتكون دعاية أموية تقاوم دعاية شيعية .

وحول فكرة الاختيار التي أشرنا إليها منذ قليل ، يقول عدى بن الرقاع العاملي ^(١) مادحاً الوليد بن عبد الملك :

أو لا ترى أن البرية كلها ألفت خزائمها إليه فقادها
ولقد أراد الله إذ ولاكها من أمة إصلاحها ورشادها
أغمرت أرض المسلمين فأقبلت وكففت عنها من يوم فسادها
وأصبحت في أرض العدو مصيبة عمت أقاليم غورها ونجادها

فقد جعل الله صلاح أمة ورشادها على يدي هذا الخليفة الأموي ، الذي اختاره الله للخلافة ، فقام على مصالحها خير قيام ، ودفع عن أمة الإسلام المفسدين ، وحمى دين الله ، ونصره على المتربصين به من أعدائه على الثغور .

وليفوتنا أن نلاحظ هنا أن الشاعر خلط هذه المعاني والدعاوى الدينية ، بمعان سياسية ، تجعل من هذا الخليفة حاكماً راشداً مصلحاً .

ويضيف الفرزدق ^(٢) إلى مسألة الاختيار ، كأساس شرعي — في زعم بني أمية —

(١) الأغاني ٨ / ١٧٧

(٢) أبو فراس همام بن غالب بن صعصعة ، من بني مجاشع بن دارم التميمي والفرزدق لقب غلب عليه ، ويكنى أيضاً أبا الأخطل لولد كان له اسمُه الأخطل وهو شاعر أيضاً ، ووهم قوم فظنوه الأخطل التغلبي النصراني ، وجعلوه أبا للفرزدق ، مع أن الفرزدق مسلم ، وأم الفرزدق ليلي بنت حابس أخت الأقرع بن حابس ، والفرزدق رواية ، فقد روى عن علي بن أبي طالب ، وأبي هريرة ، والحسين ، وابن عمر ، وأبي سعيد الخدري ، رضي الله عنهم ، ووفد مادحاً على الوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان ، واختلف العلماء بالشعر في الحكم بينه وبين جرير ، والأكثرون على تقديم جرير ، وهم جميعاً لا يسمون بين جرير والفرزدق وبين الأخطل ، ويرونه لم يلحق شأوهما ، ولا له مثل ما لهما . ومات الفرزدق على الأرجح سنة ١١٠ هـ ، وقيل : ١١٢ هـ ، وقيل ١١٤ هـ بالبصرة . وأخباره كثيرة كصاحبه جرير . انظر : الأغاني ١٩ / ٢ ، ١٨٠ / ٨ ، ومعاهد التنصيص ١ / ١٧ ، وابن خلكان ٢ / ٢٥٩ ، وأمالى المرتضى ٢ / ٢٨٤ ، والشعر والشعراء ١٨٣ ، ومعجم الشعراء ٤٨٦ ، والمؤتلف ١٦٦

للخلافة الأموية ، حجة أخرى — سبق أن أشرنا إليها في عرض مبادئ الحزب الأموي — وهى الوراثة ، زاعما أن الخلافة تراث عثمان الأموى ، وهم أولياؤه ، فيقول مادحاً عبد الملك بن مروان ^(١) :

فالأرضُ لله ولأهلها خليفته وصاحبُ الله فيها غير مغلوب
تراث عثمان كانوا الأولياء له سريالُ مُلكٍ عليهم غير مَسْلُوب

والغريب أن يصف الفرزدق عبد الملك فى البيت الأول بأنه خليفة الله ، ثم ينقلب فى البيت الثانى فيجعلهُ ملكا ، وبين الخلافة والملك بُعد ؟! ولكنه ضعف الإيمان بما يقول هو الذى جعله يخلط فيه .

وتكثر المعانى الدينية فيما مدح به الشعراء الأمويون الخليفة العادل العابد عمر بن عبد العزيز الأموى ، حتى لتكاد تنفرد الصبغة الدينية بالمدائح التى قيلت فيه ، ويرجع هذا إلى مأخذ به هذا الخليفة الأموى نفسه من تحرى العدل ، والزهد ، ورعاية أمور المسلمين الدينية ، ومصالحهم الدنيوية مهتديا بسنن الخلفاء الراشدين ، وبخاصة عمر بن الخطاب ، الذى كان نسبه من جهة أمه يتصل به ، فأمه بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، وكان عمر بن عبد العزيز يعتز بهذا الانتساب أشد الاعتزاز ويفخر به ^(٢) .

ولهذا كان الإمام الشافعى — رحمه الله — يعده خامس الخفاء الراشدين ويقول : « الخلفاء خمسة : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وعمر بن عبد العزيز ، رضى الله عنهم » ^(٣) ، ولذا لم يكن ينظر إلى الخلافة نظرة غيره من الخلفاء الأمويين ، الذين جعلوا منها ملكا عضوضا .

فلننظر فيما مدحه به جرير ^(٤) :

(١) ديوانه ٢٥ — ٢٧

(٢) تاريخ الطبرى ٧ / ١٣٧ واختصر لأبى الفدا ١ / ٢٠٠ وانظر تاريخ الشعوب الإسلامية ١ / ١٨٠ ومروج الذهب ٢ / ١٦٧ (الهيئة) .

وانظر صورا من تحريم العدل بين الرعية وسيرته فيهم ، ومنهجه فى الحكم : فى عيون الأخبار ٢ / ١١٥ وأمالى المرتضى ٢ / ٣١٢

(٣) آداب الشافعى ومناقبه (سوريا) ١٨٩

(٤) ديوانه ٥١٠ — ٥١١ والكامل للمبرد ٢ / ٢٠٩ (الأثرية) . أبو حفص : كنى عمر بن الخطاب خلعها الشاعر على عمر بن عبد العزيز لما جعله راشداً مثله .

أشبهت من عُمر الفاروق سيرته قاد البرية واثمت به الأمم
تدعو قريش وأنصار الرسول له أن يُمتنعوا بأى حفص وماظلموا

ولم يكذب جرير فيما قال عن اجتماع قريش والأنصار على الدعاء لهذا الخليفة ،
والرضا به ، وبسياسته ، فقد أَرْضَى معهم كل محبى العدل والإنصاف ، واستقامة السيرة
من المسلمين ، وكثيراً ممن هواهم مع آل البيت ؛ إذ كان أول من أبطل سب علي بن أبى
طالب على المنابر من الخلفاء الأمويين ^(١) ، فلم يُسَبَّ على بعد ذلك .

بهذا وغيره مدحه عبد الرحمن الخزاعي ، فقال ^(٢) :

وَلَيْتَ فَلَمْ تَسْتُمْ عَلِيًّا وَلَمْ تُخَفْ بَرِيًّا وَلَمْ تَتَّبِعْ سَجِيَّةَ مُجْرِمٍ
وَقَلْتَ فَصَدَّقْتَ الَّذِي قُلْتَ بِالَّذِي فَعَلْتَ فَأُضْحِي رَاضِيًا كُلَّ مُسْلِمٍ

وناحية أخرى نحب أن نؤكد بها المغزى السياسى لهذا الشعر الذى قيل فى بنى
أمية ، والقصد إلى الدعاية فيه ، فى مقابل الدعاية الشيعية فى شعر الشيعة للأئمة ، ونعنى
بهذه الناحية ، ما تردد فى بعض أشعار الشعراء الأمويين من أن الخليفة الأموى هو مهدى
هذه الأمة ، وهى الفكرة نفسها التى ردها شعراء الشيعة فى الإشادة بأئمتهم .

نجد هذا فى قول جرير يمدح سليمان بن عبد الملك ^(٣) :

سُلَيْمَانُ الْمُبَارَكُ قَدْ عَلِمْتُمْ هُوَ الْمَهْدِيُّ قَدْ وَضَحَ السَّبِيلُ
أَجَرَتْ مِنَ الْمَظَالِمِ كُلِّ نَفْسٍ وَأَدَيْتَ الَّذِي عَهْدَ الرَّسُولِ

يصفه بالعدل ، وأنه قائم فى الأمة بما عهد به النبى ، من الأخذ بكتاب الله وسنة
نبيه ، وهو من أجل هذا مهدى هذه الأمة ، الذى ينشر العدل ، ويمحو الظلم .

وكثيراً ما أطلق شعراء بنى أمية اسم « المهدى » أو صفاته على بعض خلفاء بنى
أمية ^(٤) ، تأثراً بعقيدة المهديّة عند الشيعة ، ومقابلة لدعواهم بمثلها ، وحتى يوقعوا اليأس
فى قلوب أتباع المذاهب الشيعية ، بأن الخليفة الأموى القائم هو المهدى ، كما أشرنا إلى

(١) مروج الذهب ٢ / ١٦٧ (الهيئة) .

(٢) المختصر لأئى الفدا ١ / ٢٠١

(٣) ديوانه ٤٣٢ . وفى أخبار سليمان بن عبد الملك أنه كان فصيحاً فهُماً ، محباً للعدل والغزو . انظر :

العبر للذهبي ١ / ١١٨ .

(٤) انظر مثلاً : ديوان جرير ٣٤ ، ٥٥٥ ، وديوان الفرزدق ٣٢٧

ذلك في كلامنا على هذه العقيدة عند الشيعة ^(١) .

وإذا كان الشيعة — أو بعض فرقهم — قد بالغوا في إضفاء صفات القداسة على أئمتهم ، فإن من الشعراء الموالين لبنى أمية من جاراتهم في مبالغاتهم ، فأصبح على بعض الخلفاء الأمويين من الصفات ما يرفعهم إلى مقامات ليسوا من أهلها ، تزيدا وتهويلا ، وإمعانا في الدعاية لهم ، تبعا للرغبة العارمة في إرضائهم ، وهز أروحياتهم للعطاء .

من ذلك قول الفرزدق يمدح يزيد بن عبد الملك ^(٢) :

ولو كان بعد المصطفى من عباده نبى لهم منهم لأمر العزائم
لكن الذى يختاره الله بعده لحمل الأمانات الثقال العظام
ورثتم خليل الله كل خزائنه وكل كتاب بالنبوة قائم
بحكم الذى فوق السماوات عرشه بما فى ثرى سيج من الأرض عالم

وايم الله إنها لمبالغات سمجة ، ممجوجة ، يرفضها الضمير المسلم ، وتأبأها كل شرائط المبالغة المستملحة في الشعر ، ولكنه المال والرغبة فيه ، أعمت بصيرة هذا الشاعر ، فأنتسته رعاية دينه ، وغيت ضميره ، ولا يشفع له أن صدر دعواه في صلاحية يزيد للنبوة بلفظة «لو» ، فمن يكون يزيد بن عبد الملك ؟ وماذا كان فيه من خلق ودين ، ليصلح للنبوة ؟ بخاصة والفرزدق يرى أن العقبة الوحيدة في طريقه ليكون نبيا ، أنه لانبى بعد المصطفى !!

والشعر كله مبالغات ، فقد بالغ الفرزدق في دعوى بنى أمية أن الله اصطفاهم للخلافة ، وبالع فاجعل يزيد أهلا للنبوة ، وبالع فخلع عليه صفة خص الله تعالى بها نبيه إبراهيم ، فزعم أن يزيد خليل الله ، وبالع في توريث بنى أمية علم الله ، وما استودعه كتب أنبيائه .

وأغلب الظن أن الفرزدق متأثر في مبالغاته تلك بغلاة الشيعة ، الذين زعموا أن أئمتهم ورثة العلم الإلهي ، المعروف عندهم بعلم الباطن وقد يعزز هذا ما يرى من أن

(١) راجع ص ٤٣ من هذه الدراسة .

(٢) ديوانه ٨٢٩

الفرزدق كان يتشيع لآل البيت ، وإن لم يكن من غلاة الشيعة ، وله أبيات في مدح سليمان بن عبد الملك ، يصفه فيها بمثل ما كان يمدح به الشيعة أئمتهم من صفات التقديس (١) .

هذه الصور والمعاني الدينية ، لم تكن دائما تمثل الصبغة الغالبة على هذا الضرب من الشعر السياسي الأموي ، فبجانبا قامت صور ومعان أخلاقية ، هي في مجموعها من المثل العليا التي كان العربي يتمدح بها ، ويهتز طربا إذا مدح بها أيضا . وقد تخلص نماذج أشعار الأمويين لهذه المثل ، وقد تمازجها بعض المعاني الدينية ، أو السياسية ، أو اللوان معا . ولنضرب لذلك مثلا قول الأخطل التغلبي النصراني ، شاعر الأمويين الأكبر ، يشيد ببنى أمية عامة (٢) :

حتى تَنَاهَى إلى القوم الذين لهم	عِزُّ الملوك وأعلى سَوْرَةِ الحسب
بِيضٌ مَصَالِيْتُ لم يُعَدَلْ بهم أَحَدٌ	بِكل مُعْظَمَةٍ من سَادَةِ العرب
الْأَكْثَرِينَ حَصَى والأَطْيَبِينَ ثَرَى	وَالْأَخْمَدِينَ قَرَى في شِدَّةِ اللَّزْبِ
مَإِنْ كَأَخْلَامِهِمْ جَلَمَ إِذَا قَدَرُوا	وَلَا كَبَسْتَطَتِهِمْ بَسْطَ لَدَى الْغَضَبِ
وَهُمْ ذُرَى عبد شمسٍ في أُرُومَتِهَا	وَهُمْ صَمِيمُهُمْ لَيْسُوا من الشَّدْبِ
وَكأن ذَلكَ مَقْسُومًا لَأَوَّلِهِمْ	وَرِثَةً وَرِثُوهَا عَنْ أَبِ قَابِ

فمدار الإشادة في هذه الأبيات ، شرف النسب ، والشجاعة ، والحزم ، والعفو عند المقدرة وكثرة الأنباع ، وعزة السلطان ، والكرم ، وكأنما أحس الأخطل أن هذه الصفات غير كافية لتبرير انفرادهم بالسلطان ، فأضاف أن الملك كان قدراً مقسوما لأول خلفائهم ، ثم توارثه من جاء بعده ، ولعمري ، إنها حجة واهية ، لاتؤيد دعوى ، ولاتقنع باستحقاق .

ولايقال : إنما مدح الأخطل بهذا المعاني ، واحتج بهذه الحجة الواهية ، لأنه كان نصرانيا ، فمن أين له المعاني الدينية ، والبراهين الشرعية ، فقد رأينا من قبل شعراء مسلمين عجزوا أيضا عما عجز عنه الأخطل في باب الاحتجاج ، لانعدام البراهين

(١) انظر ديوانه ٣٢٧

(٢) ديوانه ١٨٨ — ١٨٩ . السورة : أعلى الشيء وحدته ومنتهاه : مصاليت : جمع مصلات : وهو الرجل الماضي في الحوائج . اللزب : القحط . الشذب : الفروع الضعيفة من الشجرة تقطع لتفرقها وعدم فائدتها .

المقنعة أصلاً على دعوى بنى أمية .

ثم إن الأخطل ليس وحده ، من حيث الميل إلى المثل الأخلاقية في مديح بنى أمية فأبو العباس الأعمى يشيد برجاحة عقولهم ، وسعة صدورهم ، وشدة غضبتهم ، وسدادهم في الملمات ... في قوله : (١)

أبني أمية لأرى لكمُ شَبَّهاً إذا ما التفتَ الشيعُ
سعةً وأحلاماً إذا نزعت أهل الحلوم فضرها النزعُ
وحفيظة في كل نائبة شهباء لاينى لها الربيع
الله أعطاكمُ وإن رغمتُ من ذاك أنف معاشر رفعا

وهو كأصحابه السابقين لايجد حجة قوية يدلى بها ، فيكتفى بأن الله أعطى ؟!

أما جرير فيمزج بين معان أخلاقية ، ومعان دينية في مدح هشام بن عبد الملك (٢) :

وأنت إذا نظرت إلى هشام عرفَ نِجار مُتَّجِبَ كريم
ولى الحق حين يومَ حَجاً صفوفاً بين زمزم والحطيم
يرى للمسلمين عليه حقاً كفعل الوالد الرؤوف الرحيم
إذا بعضُ السنين تعرفتنا كفى الأيتامَ فَقَدْ أبى اليتيم
أميرُ المؤمنين على صراط إذا اعوجَّ المواردُ مستقيم
أميرُ المؤمنين جمعت ديناً وجِلماً فاضلاً لذوى الحلوم

هنا يمزج جرير بين المعانى الدينية والأخلاقية ، فالخليفة هشام شريف النسب ، كريم ، وهو أكثر ما يكون كرماً حينما يشتد القحط ، حيث يتولى رعاية الضعفاء ، والفقراء ، ومن لاعائل لهم ، كما أنه حلیم عاقل ، فاق حلمه وعقله ذوى العقول .

أما العناصر الدينية في هذه الصورة ، فنراها في قوله : (ولى الحق) ، وقوله : (يرى

(١) الأغاني ١٥ / ٥٨

(٢) ديوانه ٥٠٧ — ٥٠٨ ، والكامل للمبرد ٢ / ١١٢ (الأزهرية) . النجار (بالكسر) : الأصل والمعدن . المتجيب : المختار . الحطيم : ما بين الركن والباب . تعرفنا : اجتاحنا ماعندنا ، والمزاد زمن الجذب .

للمسلمين عليه حقاً) وقوله : (على صراط مستقيم) وقوله : (جمعت ديناً) .

وقد يكون من تنمة الصورة للمديح السياسي في شعر الحزب الأموي ، أن ننظر في بعض ماخص به شعراء بنى أمية كبار رجال الدولة الأموية من أمراء الأقاليم ، وقادة الجند ، من إشادة نوهت بجهودهم في تثبيت دعائم ملك بنى أمية ، وحمايته من أعدائه المتربصين به ، وحسن سياستهم في تدبير أقاليمهم ، ورعاية أهلها .

والذى يبدو أن شخصية الحجاج بن يوسف الثقفى الأمير القائد الأموى المشهور ، وما كان لها من سمات قوية ، وهيبة عظيمة في قلوب الناس ، ورهبة شديدة أيضا ، وماأاده من خدمات للدولة الأموية ، يبدو أن ذلك كله جذب أنظار كثير من شعراء بنى أمية ، فالتفتوا إليه ، وخصوه بغير قليل من مدائحهم ، ولم يحظ أمير أو قائد أموى من هؤلاء الشعراء بمثل ما حظى به الحجاج .

وعلى بعض ما قيل فيه من مدائح ، نقتصر ، باعتباره مثلاً لما قيل في غيره من العمال والقواد ؛ يعكس المعانى التى دارت حولها أشعار شعراء الحزب الأموى في هذا الباب .

من ذلك قول لى الأخيلى^(١) فى الحجاج (٢) :

أَحْجَاجُ لَا يَفْلُ سِلَاحُكُ إِنَّمَا أَلْ حَمَايَا بِكَفَ اللَّهُ حَيْثُ تَرَاهَا
أَحْجَاجُ لَا تُعْطَى الْعَصَا مَنَاهُمْ وَلَا اللَّهُ يُعْطَى لِلْعَصَا مَنَاهَا
إِذَا هَبَطَ الْحَجَّاجُ أَرْضاً مَرِيضَةً تَتَّبِعُ أَقْصَى دَائِهَا فَشَفَاهَا

فهى تمدح شجاعته فى الضرب بقوة على يد العصاة ، أعداء الدولة وترى أن الله مؤيده وناصره ؛ ولذا فهو يقضى على الفتن ، ويتتبع العصاة أينما كانوا ، فيشفى الأرض منهم ، ويخلص الدولة من فسادهم .

(١) صاحبة توبة بن الحمير الشاعر ، الذى اشتهر بحبها ، واشتهرت به ، وهى شاعرة مجيدة ، جمع شعرها ونشر فى العراق ، وأجود شعرها ماقلته فى رثاء صاحبها توبة ، وعمرت طويلاً حتى ماتت ١٠١ هـ ، بقونس أو بجلوان ، وهى فى طريقها إلى قتيبة بن مسلم وإلى خراسان . انظر : الأغاني ١٠ / ٦٣ ، وأمالى القائل ١ / ٩٠ ، ومقدمة ديوانها .

(٢) ديوانها ١٢٢

وتبلغ بها المبالغة في تصوير شخصية الحجاج إلى أن ترفعه إلى مقام عال ، ومنزلة عظيمة ، تلى في السلطان والهيبة منزلة الخليفة ، وليس فوقه إلا الله والخليفة :
 حجاج أنت الذى مافوقه أحدٌ إلا الخليفة والمستغفر الصمد
 وجميل منها هذا الوصف لله في هذا المقام ، وكأنها تستغفر الله من هذا المعنى !!
 وماها لاتبالغ في مدح الحجاج ، والمبالغة أسلوب يكاد يطرد على السنة شعراء الأمويين ، في مدح خلفائهم وعماهم على السواء ؟!

وليبالغ أيضا العذيل بن الفرخ ^(١) ، في مدحه الحجاج ، كما نرى في قوله ^(٢) :
 بنى قبة الإسلام حتى كأنما هدى الناس من بعد الضلال رسول
 خليل أمير المؤمنين وسيفه لكل إمام صاحب و خليل
 به نصر الله الخليفة منهم وثبت ملكاً كاد عنه يزول
 فأنت كسيف الله في الأرض خالد تصول بعون الله حين تصول
 أرأيت كيف يشبه الحجاج بالرسول في الهداية بعد الضلال ؟! ويصفه بأنه خليل أمير المؤمنين وسيفه ، وهو سيف يصول بعون الله ، فيبنى قبة الاسلام سامقة تطاول عنان السماء ، ويثبت أركان الدولة ، وينصر الخليفة .

وهذا المزج بين المعاني الدينية وغير الدينية هو أيضا سمة رأيها في مديح الخلفاء ، ونراها في قول أحد بنى سعد بن زيد مناة للحجاج ^(٣) :
 قلت لعنسى وهى عجلى تعتدى لانوم حتى تحسرى وتلهدى
 أو تردى حوض أوى محمد ليس الأمير بالشحيح الملحد

(١) العذيل بن الفرخ العجلي ، أحد بنى الحارث بن ربيعة بن عجل ، ويلقب العباب — وهو اسم كلبه — شاعر فارسي ، هجا الحجاج فطلبه ، فهرب منه إلى قيصر الروم ، فبعث الحجاج يهدد قيصر ، فبعث به إلى الحجاج ، وجرى بينهما حديث انتهى بالعفو عنه . انظر : الأغاني ٢٠ / ١١ ، وخزانة الأدب ٢ / ٣٦٨ (بولاق) ، والتذكرة السعدية ١٣٨ ، والاشتقاق ٣٤٥ ، والشعر الشعراء ١١٥

(٢) الأغاني ٢٠ / ١٤ ، والشعر والشعراء ١٥٥

(٣) سمط اللآلئ ٢ / ٦٤٩ . تحسرى : تضعفى وينال منك الهزال . تلهدى : يقال لَهْدَ البعير : إذا عض الحمل غاريه وسنامه حتى يؤله .

ويمثل هذه المعاني مدح جرير ^(١) ، والفرزدق ^(٢) الحجاج ، ومدح حارثة بن زيد زياد بن أبيه ^(٣) .

ب: التصدي لأعداء بني أمية ومناهضة خصومهم (الهجاء السياسي):

عانت دولة الأمويين منذ قيامها إلى آخر أيام حياتها ، من معارضة قوية نشطة ، حرمتها كثيرا من التمتع بالهدوء والاستقرار ، وجعلتها على أهبة ، تكاد تكون دائمة ، لمواجهة هذه المعارضة بالسيف واللسان يظهر كل منهما الآخر .

لقد اجتمع على منازعتها ، ومناهضة سياستها طوال فترة حكمها حزبان قويان : الشيعة ، والخوارج ، وأقلقها وهدد كيانهما فترة من حياتها حزب ثالث ، هو حزب ابن الزبير ، أو فلنقل ثورة ابن الزبير ، التي لم يتح لها من العمر مايساعدها على استكمال مقومات الحزب .

وكان الشيعة أشد المعارضين لبني أمية خطراً من الناحية السياسية والفكرية ، وأكثرهم تهديداً للأسس التي قامت عليها دولتهم ، ففضلا عن أنهم كانوا أكثر أحزاب المعارضة تنظيماً ، وأوفرها حظاً من الجماهير المناصرة ، كانت أقواها حجة ، وأظهرها حقاً ، وأخطرها فكراً ، بينما اقتصر خطورة الحزبين الآخرين على الناحية الحربية ، لكثرة ماأشعلاه من وقائع وحروب ، شغلوا بها جند الأمويين ، وهددوا في بعض هذه المعارك كيان دولتهم ووجودها ، حتى كادت تسقط في يد الزبيريين حيناً ، كما ظلت معارك الخوارج شوكة في جنبها في كل الأحيان .

فلم يكن بد من أن يجرد بنو أمية سلاح الشعر ، باعتباره أقوى وسائل الدعاية في الحياة العربية آنذاك ، ليحاولوا إسكات دعاية خصومهم ، كما جردوا سيوف الحرب ، لتسكت حركات معارضتهم ، وثوراتهم .

ونفض شعراء بني أمية يريشون سهام الشعر ، ويحددون أسنة القوافي ، ليجردوا

(١) ديوانه ٩٠

(٢) ديوانه ٦٩٥

(٣) تاريخ الطبري ٦ / ١٢٦

أعداء الدولة وخصومها السياسيين من كل فضيلة ، ويدمغوهم بكل نقيصة في الخلق والسيرة والدين .

وسنلاحظ من خلال دراستنا لثماذجهم في هذا الاتجاه ، أن أكثر الدعاوى ترديدا في هذا النوع من شعرهم ، هي التي تدور حول الرمي بالفسق والضلال والكفر ، والزيف واتباع الهوى ، واعتناق البدع ، ومحاربة الله ورسوله ، والانحراف عن كتاب الله وسنة نبيه ، وهي المعاني نفسها التي أثارها الشعر الشيعي المناهض لأعداء الأئمة ومذاهبهم ، والتي سنراها بارزة أيضا في شعر الخوارج والزبيريين في هذا المقام .

وترجع غلبة الصبغة الدينية على شعراء الهجاء السياسي في العصر الأموي بعامة ، إلى أن كل حزب من الأحزاب السياسية في هذا العصر ، كان يحرص على أن يحوط فكره ، وسلوكه ، وأوجه نشاطه بسياج من الدين ، وأن يقدم نفسه للجماهير المسلمة على أنه حزب الله ، المؤيد بنصره ، الحارس على دينه ، المؤيد لتعاليم هذا الدين وقيمه ، وأن الدعاوى التي تناهضه ، والأحزاب التي تعارضه ، كلها ضالة مضلة فاسدة مفسدة ، تحالفت مع الشيطان ، فتنكبت طريق الله ، ووسيلة هذه الأحزاب جميعا الدعاية بلسان الشعر ، وغايتهم جميعا ، اجتذاب الأنظار ، وجمع القلوب المسلمة حول دعوتهم ، وصرفها عن دعاوى الخصوم ، وتغييرها منهم .

ولا يعني ما ذكرنا من غلبة الطابع الديني على شعر الهجاء السياسي في هذا العصر ، قلة العناصر غير الدينية فيه ، إذ كان من هم الدعاية السياسية للأحزاب تجريد الخصوم أيضا من القيم الأخلاقية والإنسانية ، تجتمع هذه العناصر وتمتزج ، أو تفترق وتنفرد في هذا النموذج أو ذاك .

فعبد الله بن همام السلولى يصور أعداء الأمويين بعامة ، على أنهم أهل شغب وعصيان ، وفتن ، وأن السياسة التي تصلح لردعهم هي سياسة الشدة والبطش والعنف ، ولا ينسى مع ذلك أن يوصي بنى أمية بالحرص على ملكهم ، ويحثهم على التمسك بالخلافة فيهم ^(١) :

(١) طبقات ابن سلام ٥٢٤ ، وانظر : مروج الذهب ٢ / ٨٥ (البهية) . عنابة : جمع غثبة ، وهو الأسد الكاخ الوجه عند اللقاء . معاوى : يعنى معاوية بن يزيد . لا ترموا بها الغرض البعيدا : يعنى لا تخرجوها من بيتكم إلى بيت بعيد النسب عنكم . أهلها : يعنى الرعية . ضجرت عليكم : شغبت ونفرت ، يعنى الرعية ، استعاره من ضجر الناقة عند الحلب ، وهو شغبها ورغائها . اعصبوها ... الخ : هذا مثل للشدة وقهر أهل العناد والخلاف ، من عصب الناقة : وهو شد فخذها وأدنى منخريها بحبل حتى تحلب .

خِلافة رِكم كُونُوا عَلَيْهَا كَمَا كُنْتُمْ عَنَابِسَةً أُسُودَا
تَلَقَّفَهَا يَزِيدٌ عَنْ أَبِيهِ وَخَذَهَا يَامَعَاوَى عَنْ يَزِيدَا
أُدِيرُوهَا بَنِي حَرْبٍ عَلَيْكُمْ وَلَا تَرْتُمُوا بِهَا الْغُرَضَ الْبَعِيدَا
فَإِنْ دُنْيَاكُمْ بِكُمْ أَطْمَأْنَنْتْ فَأُولُوا أَهْلَهَا خَلَقَا سَدِيدَا
وَإِنْ ضَجَرْتْ عَلَيْكُمْ فَاعْصِبُوهَا عَصَاباً تُسَدِّرُ بِهِ شَدِيدَا

ويلاحظ أن الشاعر — وهو يرسم لبنى أمية السياسة التي ينبغي أن يسيروا عليها
لإزاء الرعية — يقيم نصائحه وإرشاداته على أساس أن دولتهم قامت بحق الاختيار الإلهي ،
وقانون الإرث ، وهما الأساسان اللذان طالما تحدث بهما أنصار الأموية من الشعراء ، كما
رأينا في شعر المديح السياسي عند شعراء بنى أمية .

ويصم نابغة بنى شيان خصوم الأمويين بعامة أيضا ، بالحق والغدر ، والعمى عن
الحق ، والإعراض عن سماع صوت العقل والضمير ، ويبالغ فيصفهم بأنهم مشركون
نجس ، ويدعى أن الله قد توعدهم بما توعد به المشركين النجس ، الذي حاربوا الله
ورسوله : (١)

قَسْرًا عَدُوكَ إِنْ الضَّغْنَ قَاتَلَهُمْ وَإِنَّمَا إِنْ أَرَادُوا غَدْرًا تَعَسَوْا
لَا يَبْصُرُونَ وَفِي آذَانِهِمْ صَمَمٌ إِذَا تَعَشَّتْهُمْ مِنْ فِتْنَةٍ رَكَسُوا
هُمْ الَّذِينَ سَمِعْتُ اللَّهَ أَوْعَدَهُمْ الْمَشْرُكُونَ وَمَنْ لَمْ يَهْوَكُمْ نَجَسٌ
ولما قتل زيد بن علي بن الحسين — إمام الشيعة الزيدية — ونقلت رأسه إلى المدينة
وصلبت هناك ، وقف أمامها شاعر من صنائع أمير الأمويين على المدينة ، وقال (٢) :

أَلَا يَنَاقِضُ الْمِيثَاقَ قِيَّ أَبْشِيرُ بِالَّذِي سَاكَ
نَقَضَتْ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ قِيَّ قَدْ كَانَ قَدْ مَكَ
لَقَدْ أَخْلَفَ إِبْلِيسُ أَلَّ لِيْ قَدْ كَانَ مَثَاكَ

فهذا الإمام الشيعي خائن ، ناقض للعهد والميثاق ، الذي أخذه بنو أمية على
الناس بالطاعة ، فخرج بذلك عن الجماعة ، ومن ثم لقي جزاء البغاة الخارجين ، فكانت

(١) ديوانه ٢٩ . ركسوا : عادوا إلى الفتنه .

(٢) تاريخ الطبري ٨ / ٢٧٨ (بيروت) . قد : من القود وهو القصاص . قدماك : ما قدمت يدك .

عاقبته عاقبة كل من يسلم زمام قلبه وعقله لقيادة إبليس اللعين ، فيغويه ويضله ، ويوسوس له بالأمانى ، ثم يتخلى عنه ، ويتركه ليلقى حتفه ، شأن كل من دان بطاعة إبليس .
وطابع المبالغة هو الغلاب على ماأورده هذا الراجز من معانٍ في هذا الهجاء ، فليس مثل زيد بن الحسين من يهيجى بأنه صاحب إبليس ، غوى باغ ، ولذا استنكر من استمع إلى الراجز هذه المعانى ، وقال له : « ويلك ، أتقول هذا لمثل زيد ، فقال : الأمير غضبان ، فأردت أن أرضيه !! » (١) ، ثم لم يسكت عنه أنصار زيد ، فنهض أحد شعرائهم ، يرد على هذا الرجز ، قائلا (٢) :

ألا يا شاعر السوء لقد أصبحت أفاكا
أتشتم ابن رسول الله وتُرضى من تولأكا
ألا صبحك الله بخزي ثم مسأكا
ويوم الحشر لاشك بأن النار مثواكا

ألم نكن على حق فيما ذهبنا إليه من تعليل شيوع المبالغة غير المقبولة في أشعار المعينين عن الأموية ، بالرغبة في إرضاء بنى أمية ، طمعا فيما وراء رضاهم من مال أوجاه ؟ ألم يصرح هذا الراجز بأنه قال ما قال في الإمام زيد ، لاعن إيمان واعتقاد بما قال ، وإنما لإرضاء الأمير الأموى ؟ وهذا هو الفرق الجوهرى بين أمثال هذه المعانى في شعر الأمويين السياسى ، وشعر الشيعة السياسى ، وكذا شعر الخوارج — كما سنرى في دراسة شعرهم — هى هنا إدعاء زائف لاحقيقة له ولاصدى في نفس قائله ، وهى هناك تعبير عما يؤمن به الشاعر ويعتقده حقا وصدقا .

ويتهكم بعض شعراء بنى أمية من اعتقاد الشيعة في مهديهم ، قائلا حين قتل زيد ابن الحسين وصلب (٣) :

صلبنا لكم زيدا على جذع نخلة ولم أر مهدياً على الجذع يُصلب
وقد غلط الشاعر ، فما قال أحد بمهدية زيد بن على بن الحسين ، وإنما ذهب

(١) المصدر السابق

(٢) المصدر نفسه

(٣) مروج الذهب ٢ / ١٨٢ (البيهة) .

إلى القول بالمهدية فرق الشيعة الأخرى غير الزيدية ، فإن كان هذا من قبيل التشنيع على الشيعة ، حتى المعتدلين منهم ، فلا بأس به في مقام الدعاية السياسية ١١

ومن قبل زيد بن علي ، تهجم بعض شعراء بني أمية على الحسين بن علي فوصفه أحدهم — وهو كعب بن جابر الأزدي ^(١) — بأنه باغ ، خارج عن الملة ، يحل قتاله وقتله ، تشاركه في كل هذا شيعته ؛ ولذا كان هذا الشاعر في جملة من اجترعوا على الحسين يوم كربلاء ، وشاركوا في سلبه ، وحكى ذلك في أبيات ختمها بقوله :
فجردته في عصبة ليس ديئهم بديني وإني بآبن حرب لقانع
فقد أباح له — في زعمه — تجريد سيفه على الحسين وشيعته ، أنهم يدينون ديناً غير دين الإسلام الذي عليه بنو أمية وأتباعهم .

وفي أخبار المعارك التي كانت تدور بين الخوارج وبني أمية شعر كثير من الفريقين ، يحكى هذه الوقائع ويشيد بالأبطال ، ويرثى القتلى ، كما يعبر عن تنديد كل منهما بالآخر ، وسخريته من رأيه واعتقاده ، وكثيراً ما يتبادل شعراء الفريقين تهمة الكفر ، والجور ، والمروق من الدين ، وتحريف أصوله .

فعقب انتصار المهلب بن أبي صفرة على الخوارج في إحدى معاركه معهم بنواحي كerman ، نهض كعب الأشقرى ^(٢) ، يسجل هذا الانتصار ، ويعبر عن رأى الأمويين في الخوارج قائلا ^(٣) :

لولا المهلبُ للجيش الذي وردوا أنهار كِرمَان — بعد الله — ماصدروا
إنا اعتصمنا بحبل الله إذ جحدوا بالمُحكّمات ، ولم نكفر كما كفروا
جاروا عن القصد والإسلام واتبعوا ديناً يخالف ما جاءت به التذُّر

فهو يرى في الخوارج ، ما يراه الخوارج فيمن عداهم من المسلمين ، منحرفين عن

(١) لم أعثر على ترجمة له .

(٢) أبو مالك كعب بن معدان الأشقرى ، والأشقرة قبيلة من الأزد ، فارس شاعر خطيب ، محدود في جملة أصحاب المهلب ، ومذكور في حروبه مع الأزارقة ، وهو من شعراء خراسان ، استفرغ شعره في مدح المهلب . انظر : سبط اللآلئ ١ / ٥٨٩ ، ومعجم الشعراء ٣٤٦ ، والأغانى ١٣ / ٥٤ .

(٣) تاريخ الطبرى ٨ / ٢٧١

سنن الدين ، يعتقدون عقائد وأفكاراً لم يأت بها كتاب منزل ، ويحجّون آيات الله المحكمة في كتابه ، التي تدعو إلى طاعة الله ورسوله وأولى الأمر من المسلمين ، ولذا فهم كافرون كفراً صريحاً ، لاشبهة فيه .

ويتقرب الراعي الحميري^(١) إلى عبد الملك بن مروان ، بقسم عظيم صادق ، يتبرأ فيه من الخوارج والزيريين جميعاً ، مؤكداً بذلك ولاءه للأُمويين ، يعادى من يعادونه ويعتقد في أعدائهم ما يعتقدونه^(٢) :

إِنِّي حَلَفْتُ عَلَى يَمِينِ بَرَّةٍ لَا أَكْذِبُ الْيَوْمَ الْخَلِيفَةَ قِيلاً
مَا إِن أَتَيْتَ أَبَا حُجَيْبٍ وَافِداً يَوْماً أُرِيدُ لِبِعْتِي تَبْدِيلاً
وَلَا أَتَيْتَ نُجَيْدَةَ بْنَ عُومِرٍ أَبْغَى الْهَدْيِ فَيَزِيدُنِي تَضْيِلاً

فالشاعر يسخر من دعوى الخوارج بأنهم على الحق والهدى ، زاعماً أنهم أهل ضلالة ، فهم ضالون مضلون ، إذا قصدهم ضال طالباً للاهتداء بما عندهم زادوه ضللاً بمقولاتهم .

وعلى الرغم من قصر الفترة التي عاشتها ثورة ابن الزبير ، فقد أثارت حولها وحول صاحبها عبد الله طائفة من شعر الهجاء ، أكثره موجه لابن الزبير ، يسخر من دعواه ، ومما أطلقه على نفسه من ألقاب ، ويحمّله وزر تعريض الكعبة لانتهاك حرمتها ، وعدم مراعاته لهذه الحرمه ، فيما يرتكبه بالحرم من استهتار بدماء الناس وحرّياتهم ... إلخ ماسنرى في النماذج التالية :

(١) أبو جندل عبيد بن حصين بن معاوية ، من بني ثمر بن عامر بن صعصعة من هوازن ، شاعر فحل أكثر من وصف الإبل فلقب بالراعي ، وكان مقدماً حتى هجا جبراً فهجاه وأخجل ذكره ، وعده ابن سلام من الطبقة الأولى في الإسلام . انظر : الأغاني ٢٠ / ١٦٨ ، وطبقات ابن سلام ٤٣٤ ، والشعر والشعراء ١٥٦ ، والمؤتلف ١٢٢ .

(٢) الكامل للمبدع ٣ / ١٠٥ (الأزهرية) ، وطبقات ابن سلام ٤٣٩ . يمين برة : صادقة . أبو حبيب : كنية عبد الله بن الزبير . نجيدة : هو نجدة بن عويمر ، أو عامر ، الحنفي الحروري ، كان رأساً من رؤوس الخوارج ، ذا مقالة منفردة من مقالاتهم ، وإليه تنسب فرقة النجدية منهم ، وصغره الشاعر إظهاراً لتحقيقه والاستهانة بأمره ، قتل على يد أصحابه سنة ٦٩ هـ . انظر : العبر للذهبي ١ / ٧٧ ، والخوارج والشيعة ٨٣ ، وتاريخ الطبري ٧ / ١٩٤ ، والكامل لابن الأثير ٤ / ٢٠١ (بيروت).

لما قتل عبد الله بن الزبير وصلب جثمانه بمكة ، قال عبد الله بن الزبير الأسدي ،
يتشفى في مقتله ، ويصفه ويصف أتباعه بالإلحاد : (١)

كأني بعبد الله يركبُ درعَهُ وفيه سِنَانٌ زاعبِيٌّ مُحَرَّبُ
وقد فَرَّ عَنْهُ المَلْحَدُونَ وحَلَقَتْ بهِ وبمن آسَاهُ عَنَقَاءُ مُغَرَّبُ
تولوا فخلّوه فشاَل بِشِلْوه طویلٌ من الأَجْذَاعِ عارٍ مُشَدَّبُ

ولما بلغ ابن الزبير الأسدي أن ابن الزبير قتل بعض شيعة بني أمية ، كانوا
يتجسسون لعبد الملك بن مروان بمكة ، هجاه ، وسخر من ادعائه بأنه العائد ببيت الله
الحامي لحماه ، وهو يسفك الدماء في الحرم ، ولايرعى له حرمة ، فقال (٢) :

أَيُّهَا الْعَائِذُ فِي مَكَّةَ كَمْ مِنْ دَمٍ أَجْرَيْتَهُ فِي غَيْرِ دَمٍ
أَيَّدَ عَائِذَةً مُعَصِّمَةً وَيَدَّ تَقْتُلُ مِنْ جَاءِ الْحَرَمِ؟

وهو يبطل حجة الزبيرية القائمة على الاعتزاز بالحرم ، وحمايته ، فيقول (٣) :

أَيَا رَاكِباً إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلَّغْنِ كَبِيرَ بَنِي الْعَوَامِ إِنْ قِيلَ مَنْ تَعْنِي
تَحَدَّثَ مِنْ لَاقِيَتِ أَنْكَ عَائِذُ وَصَرَّعْتَ قَتْلَى بَيْنَ زَمْزَمَ وَالرَّكْنَ

وهذه النعمة الساخرة من لقب ابن الزبير بارزة ، كثيرة التردد في الشعر الأموي
الذي هجى به ، وغنى عن البيان أن هذا الشعر إنما قصد به إثارة غضب المسلمين على
هذا الذي ينتهك حرمة الحرم ، ويتجاهل حكم الله فيه ، بأن من دخله كان آمناً ، وقد
أجاد شعراء بني أمية الضرب على هذا الوتر الحساس في ضمائر المسلمين ، لينفروا قلوبهم
من ابن الزبير ، ويصدوهم عن اتباعه ، والانتصار له ، وفي هذا ما لا يخفى من الدعاية
السياسية ، التي تسلك هذا الشعر في عقد السياسة الحزبية .

فأبو صخر الهذلي يشيد بعبد الملك لقتاله ابن الزبير ، وإنقاذ الحرم الشريف من
عبثه وإفساده ، فيقول (٤) :

(١) ديوانه ٥٢ ومعاهد التنصيص ٢ / ١١٠ . يركب درعه : يقال للقتيل : ركب درعه ، إذا خر لوجهه على
دمه . محرب : محدد . الزاعبي : الرمح الذي إذا هز تدافع كله ، شال بشلوه : رفع أشلاءه .

(٢) ديوانه ١٣٢ والأغاني ١٤ / ٢٥١ (دار الكتب) .

(٣) ديوانه ١٣٣ — ١٣٤ والأغاني ١٣ / ٣٨ ومروج الذهب ٢ / ٩٩ (البيهية) .

(٤) الأغاني ٢١ / ٩٥ . الجأواء : الكتيفة العظيمة من الجيش .

وإن أمير المؤمنين الذى رعى بجأواء جمهور تسيل إكامها
من أرض قرى الزيتون مكة بعدما غلبنا عليها واستحل حرامها
وإذ عاث فيها الناكثون وأفسدوا فخيف أقاصيها وطار حمائمها

فالفسق والإفساد فى الأرض ، وانتهاك حرمة البيت الحرام ، وإزعاج الأمنين ، من أهل الحرم وحمامه ، هى العناصر التى اعتمدها أبو صخر فى هذا الهجاء ، والغالب عليها الصبغة الدينية ، كما نرى .

وصفة الإلحاد ، من عناصر الهجاء ، التى تدور كثيرا ، فيما وجه من هجاء لابن الزبير وأصحابه ، وقد مر بنا قول ابن الزبير الأسدى الذى يشمت فيه بمقتل ابن الزبير ، ويرميه وأنصاره بالإلحاد .

ونضيف هنا قول جرير ، من قصيدته المشهورة فى مدح عبد الملك ، التى يقول فيها مادحا بنى أمية :

ألستم خير من ركب المطايا وأنذى العالمين بطنون راح
متهما ابن الزبير وأنصاره بالإلحاد (١) :

دعوت الملاحدين أبا خبيب جماحا هل شفيت من الجماح؟

كما يروى أن يزيد بن معاوية ، استعرض جيش الشام الذى وجهه إلى المدينة ، لما دانت لابن الزبير ، ثم قال منددا بابن الزبير ، متهمكا ببخله فى العطاء ، واصما إياه بالخداع بالدين والإلحاد (٢) :

أبلغ أبا بكر إذا الليل سرى وهبط القوم على وادى القرى
أجمع سكران من القوم ترى أم جمع يقظان نفى عنه الكرى
يا عجباً من ملجيد يا عجباً مخادع بالدين يعفو بالعرى

(١) ديوانه ٩٩ وطيقات ابن سلام ٣٥٨

(٢) الكامل لابن الأثير ٤ / ١١٢ (بيروت) وانظر : مروج الذهب ٢ / ٩٥ (البيبة) . أبو بكر : كنية أخرى لابن الزبير إلى جانب أبى خبيب . أجمع سكران : كان ابن الزبير يسمى يزيد « السكران الحمير » (انظر : مروج الذهب ٢ / ٩٥) يعفو بالعرى : يجود بالعطاء التافه ، وضرب العرى مثالا لذلك .

ويمثل هذا يعرض أحد بنى سعد بن زيد مناة ببخل ابن الزبير — الذى اشتهر به — ويصفه بالإلحاد فى ثنايا مديحه للحجاج بن يوسف ^(١) :

قلت لعنسى وهى عَجَلَى تعتدى لانوم حتى تُحسرى وتلهذى
أو تردى حوض أئى محمد ليس الأمير بالشحيح الملحد

وتلوح هذه المعانى الدينية أيضا من خلال ماوجهه شعراء بنى أمية إلى الزبيريين من تهديد لهم ، أو تحريض عليهم .

نرى هذا فى قول أعشى ربيعة ، يحرض عبد الملك على قتال ابن الزبير ويسخر من دعواه فى الخلافة ^(٢) :

آل الزبير من الخلافة كالنسى عَجَل النتاج بِحَمَلِهَا فَأَحَالَهَا
أو كالضُعاف من الحَمُولَة حُمِلَتْ مالا تَطْيِيقُ فَضِيْعَتْ أَحْمَالُهَا
قَوْمُوا إِلَيْهِمْ لَاتَنَامُوا عَنْهُمْ كَمْ لِلْعَوَاةِ أَطْلُكُمُ إِمْهَالُهَا
أَمْسُوا عَلَى الْخَيْرَاتِ قَفْلا مُغْلَقًا فَانْهَضْ بِئِمْنِكَ فَافْتَحْ أَقْفَالُهَا

يعنى أن آل الزبير فى تعرضهم للخلافة دون صلاحية لها ، كناية أريد لها أن تحمل وتلد ، قبل أن تنضج ، وتطيق الحمل ، فكان ذلك سببا فى إفساد أمرها ، أو كالناقة الضعيفة التى حملت فوق قدرة تحملها ، فألقت حملها وأفسدته ، وإنما جرأهم على هذا طول صبركم وإمهالكهم يابنى أمية لهؤلاء الغاوين المفسدين الضالين ، البعيدين عن كل خير .

وقد يخلص الهجاء السياسى للأموى للمعانى الأخلاقية والاجتماعية ، ويعتمد عليها فى تشويه صورة المهجو أخلاقيا واجتماعيا ، بسلب كل صفة حميدة ، وكل سلوك اجتماعى طيب عنه ، ويقدم لنا أبو العباس الأعمى أبرز نموذج فى هذا الاتجاه .

قالوا: لما علم ابن الزبير أن أبا العباس الأعمى ، يكتب بنى مروان بعوراته ، ويمدح عبد الملك ، ويتقبل صلاته ، أغلظ له ، وهم به ، ثم نفاه من مكة إلى الطائف ، فقال أبو

(١) فى الرواية أن الشاعر كان يعرض بابن الزبير فى هذا الشعر . انظر : سمط اللآلى ٢ / ٦٤٩

(٢) الأغاني ١٦ / ١٥٦ . أحالت الناقة : مضى عليها عام دون حمل . الحمولَة : الناقة التى يُحمل عليها .

العباس ، يهجوهم ويهجو قومه بنى أسد القرشيين ^(١) :

بنو أسد لا تذكروا الفخر إنكم متى تذكروه تُكذِّبوا وتُحَمِّقُوا
 متى تُسألوا فضلاً تضنوا وتبخلوا ونيرانكم بالشر فيها تُحَرِّقُ
 إذا استبقت يوماً قریش خرجتم بنى أسد سُكُناً وذو الحمد يسبقُ
 تحيثون خلف القوم سوداً وجوهكم إذا ما قریش للأضاميم أصفقوا
 وما ذاك إلا أن للووم طابعا يلوح عليكم وسُمُّه ليس يخلق

فالهجاء هنا بالبخل ، والدناءة ، وهوان الشأن بين القوم ، والضعف والصغار ،
 واللؤم المتأصل في الطبع ، وكلها مما كان العرب — قبل هذا العصر — تهجو به ، وتسقط
 المروءة ، فيما بينها ، وكانوا يعدونه من الهجاء المقذع ^(٢) .

ولم يسلم مصعب بن الزبير — على جوده واصطناعه الشعراء بجزيل العطاء — من
 شرر نار هذا الهجاء ، التي أهدت بأخيه عبد الله ، وما كان مصعب ليكون بمنأى عن
 هذه الحرب الكلامية ، مادام قد ارتضى أن يكون ساعداً لأخيه ، ومعيناً له على أمره ،
 وعاملاً على العراق من قبله .

وهذا شاعر من أهل الشام يراه منافقاً لا يربع إلا لصوت القوة ، ولا يشفيه من نفاقه
 إلا حد السلاح في حرب شديدة ضروس ^(٣) :

إذا مامناق أهل العرا ق عُوتب يوماً فلم يُعْتَبِ
 دلفنا إليه لدى موقفٍ قليل التفقد للغيِّبِ

ويفخر شاعر أموى شامى آخر ، من البمانية ، بيوم مَسْكِن ^(٤) ، الذي قتل فيه
 مصعب (سنة ٧١هـ) ، وابن له يسمى عيسى ^(٥) ، ويتشفى في المضربة أنصار ابن

(١) الأعاني ١٥ / ٦٠ . سكتا : جمع ساكت ، وهو من الخيل الذي يأتي آخرأ . ليس يخلق : ليس يبل .

(٢) انظر : العمدة ١ / ١٣٣

(٣) تاريخ الطبرى ٧ / ١٨١ ومروج الذهب ٢ / ١٢١ (البية) . يعتب : يزيل سبب العتاب ، والمعنى يرجع

عن نفاقه .

(٤) موضع على نهر دُجَيل ، عند دير الجاثليق ، وهو دير قديم البناء ، غرق دُجَلة ، على الحدِّ بين آخر سواد
 العراق وأول أرض تكريت . انظر : مسالك الأبصار ١ / ٣٠٨ ، وفي يوم مسكن راجع : العبر للذهبي ١ / ٨٠ وتاريخ
 الطبرى ٧ / ١٨٥ وأيام العرب في الإسلام ٤٦١ .

(٥) قتل مع مصعب في هذا اليوم ولداه : عيسى وعروة . انظر : العبر للذهبي ١ / ٨١ والكامل لابن الأثير

٤ / ٣٢٧ (بيروت) .

الزبير ، فيقول ^(١):

نحن قتلنا مصعباً وعيسى
وابن الزبير البطل الرئيسا
عمداً أذقنا مُضَرَ التَّبْيِيسَا

هكذا كانت حملة شعراء بنى أمية عنيفة على خصومهم ، المناهضين لدولتهم ، وأبرز ما اتسمت به هذه الحملة ، روح السخرية من ابن الزبير ، وسلب الصفات الدينية .

ج : تخليد ذكر من قضوا من زعماء الحزب وأبطاله (الرثاء السياسي) :
قل حظ الحزب الأموى من شعر الرثاء ، مع أنه كان أكثر الأحزاب شعراً و شعراء
كما ذكرنا من قبل .

وليس هذا راجعاً لقلة أبطال الحزب الذين جادوا بأرواحهم في المعارك الحربية الكثيرة بين الأمويين وأحزاب المعارضة المعاصرة لهم ، ولأعن خلو صفوف هذا الحزب من الشخصيات القوية ، التى أدت خدمات جليلة في الحفاظ على دولته من كيد أعدائه ، وخلفت وراءها — بعد موتها — صفحات من الكفاح المخلص ، تسجل مآثرهم في نصره زعمائه ، وتأييد سلطانهم ، ولا عن فقر في نصيبه من الرجال ، ذوى الرأى والتدبير والحنكة ، الذين تولوا زعامته .

ولمّا يرجع تأخر الرثاء — كما وكيفاً — بين فنون الشعر السياسى للحزب الأموى إلى الشعراء المعبرين عن هذا الحزب ؛ إذ كانت كثرتهم من الشعراء الذين اجتذبهم عطاء بنى أمية ، وحركت ألسنتهم الرغبة فيما يصيبونه من مالههم وجاههم ، والرثاء فن يقال بدافع الوفاء للمرئى ، وبين الرجاء والوفاء بون بعيد ، كما قال العلماء بالشعر قديماً ^(٢) .
وما وجدنا من أشعار قليلة في الرثاء السياسى الأموى ، يأخذ اتجاهين :

أحدهما: رثاء الخلفاء : وفيه يعنى الشاعر بالنظر إلى المغزى السياسى ، الذى يمكن أن يوجه إليه هذا الفن ؛ ولذا نرى الشعراء يحرصون في رثائهم على إبراز صورة مثلى للسياسة الأموية مجسمة في الخليفة المرئى ، وغالباً ما تعتمد هذه الصورة على المبالغة والادعاء .

(١) الكامل للمبرد ٢ / ١٠٨ (الاستقامة) .

(٢) انظر : الشعر والشعراء ١٧

والآخر : رثاء القواد والفرسان : وهو رثاء يكي فيهم البطولة والتضحية في سبيل نصره الحق ، وإقامة الدين ، وقوة دولة الإسلام ، والإبقاء على وحدة الجماعة الإسلامية ، ومن هنا يكثر أن يضاف عليهم الشعراء صفة الشهداء ، ويشروهم بأجر الشهادة عند الله ؛ لأنهم قاتلوا وقتلوا في سبيل إعلاء دين الله .

وقد يلتفتون إلى بعض مناقبهم — كالشجاعة ، وصدق القتال ، والصبر عليه ... ونحو ذلك — فيعبدونها ، كما يصورون مدى خسارة الدين والدولة بفقدهم ، وعظم الرزء .

فمن رثاء الخلفاء الأمويين قول عبد الله بن همام السلولي ، يرثى معاوية بن أبي سفيان (١) :

تَعَزَّوْا يَا بَنِي حَرْبٍ بِصَبْرِ فَمَنْ هَذَا الَّذِي يَرْجُو الْخُلُودَ؟!
لَقَدْ وَارَى قَلْبِيكُمْ بِيَانًا وَحُلْمًا لَكِفَاءَ لَهُ وَجُودًا
وَجَدْنَاهُ بَغِيضًا فِي الْأَعَادَى حَبِيبًا فِي رَعِيَّتِهِ حَمِيدًا
أَمِينًا مُؤْمِنًا لَمْ يَقْضِ أَمْرًا فَيُوجَدُ غَيْبُهُ إِلَّا رَشِيدًا
فَقَدْ أَضْحَى الْعَدُوُّ رَجِيًّا بِالِ وَقَدْ أَمْسَى التَّقَى بِهِ عَمِيدًا
فِعَاضَ اللَّهُ أَهْلَ الدِّينِ مِنْكُمْ وَرَدَّ لَنَا خِلَافَتَكُمْ جَدِيدًا

وأهم ما يبرزه هذا الرثاء ، إحاطة السياسة الأموية ، بمثلة في المرثى ، بهالة من الرشد ، وحسن الرعاية للرعية ، وصدق النكاية في الأعداء ، حتى نالت رضا أهل التقوى والدين .

وهذا ما يجعل من مثل هذا الرثاء رثاء سياسيا ، لا مجرد تعبير عن عاطفة خاصة بين الشاعر والمرثى ؛ إذ لا يفوتنا أيضا أن نلاحظ هذه المعاني الدينية التي خلعتها الشاعر على هذه الشخصية السياسية ، فصفاة الأمانة على حقوق الدين ، والإيمان ، والتقوى ، والرشد ، والاستقامة على طريق الهدى ، هي التي جعلت من فقد هذا الخليفة الأموي خسارة فادحة ، فرح بها الأعداء ، وأحزنت الأتقياء .

(١) طبقات ابن سلام ٥٢٢ . القلب : البحر القديمة ، والمراد هنا القبر ، لأنه يحفر كما يحفر القبر . لا كفاء له : لا نظير له . غيبه : الغيب والمغبة هنا : العاقبة . عميد : شديد الحزن . عاض : من المعوض ، يقال : عاضه وأعاضه : أعطاه بدل ما ذهب منه .

ولعل في البيت الأخير ما يعبر بوضوح عن الغرض السياسي لهذا الرثاء ؛ حيث يدعو الشاعر لأهل الحق والدين ، أن يخلف الله عليهم ، من بنى أمية ، من يكون مثيلاً للمعاوية ، فيحفظ خلافتهم على خير أمرها .

وقد أكثر شعراء الأمويين من رثاء الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز ، لما عرف عنه من العدل ، والزهد ، ورعاية حق الدين ، وأكثر ما بأيدينا من الرثاء الذي قيل في خلفاء بنى أمية ، قيل في هذا الخليفة ، وربما كان ذلك لأنه يجسم بحق ما كان يدعيه الشعراء لغيره من الخلفاء الأمويين ، من المثالية السياسية للخليفة المسلم ، دون أن يكون له واقع حقيقي في سياستهم ، أما رثاء عمر بن عبد العزيز ، في ظل سياسته الرشيدة ، فإنه يفتح للشعراء أبواباً من القول ، ويتيح لهم ثروة من المعاني ، كفيلة بتحقيق الغرض السياسي ، الذين يسعون إليه من وراء هذا الفن ، لما توفره لشعرهم في رثائه من عنصر الصدق ، وما تضمنه له من قوة التأثير .

ومن جيد ما رثى به عمر بن عبد العزيز قول محارب بن دثار (١) :

كم من شريعة حق قد أقمت لهم	كانت أميتت وأخرى منك تنتظر
يا لهف نفسي ونفس الواجدين معي	على النجوم التي تغتالها الحُضر
ثلاثة ما رأت عين لهم شياً	يضم أعظمهم في المسجد المدر
فأنت تتبعهم لم تأل مجتهداً	سقياً لها سنناً بالحق تقتفر
لو كنت أمليكَ والأقدار غالبية	تأتي صباحاً وتبياناً وتبكر
صرفت عن عمر الخيرات مصرعه	بدير (٢) سيمعان لكن يغلب القدر

فقد أحكم الشاعر ربط سياسة عمر بن عبد العزيز بسياسة الخلفاء الراشدين الثلاثة الأول أبي بكر وعمر وعثمان ، وتجاهل رابعهم علي بن أبي طالب ؛ لعدم اعتراف الأمويين وأنصارهم بخلافته .

(١) مسالك الأبصار ١ / ٣٥٢ . المدر : قطع الطين اليابس الذي لامل فيه . تقتفر : تتبع ، من قفر الأثر واقتفره ، إذا تتبعه .

(٢) دير سيمان ، من أعمال حمص مما يلي بلاد قنسرين (مروج الذهب ٢ / ١٦٧) (البية) ، وقيل بغوطة دمشق على سفح جبل قيسون (الأغانى ٨ / ١٤٦ وما بعدها) ويرفض ابن فضل الله العمري هذه الأقوال ، ويقول : إنما هو في قرية يقال لها البقرة من قبلي مرة النعمان (مسالك الأبصار ١ / ٣٥١ — ٣٥٢) وكانت وفاة عمر بن عبد العزيز خمس بقين من رجب سنة ١٠١ هـ ، وانظر : الاشتقاق ٣٥٦ والعبر للذهبي ١ / ١٢٠ — ١٢٢

فسياسته أحييت الحق ، وأماتت الباطل ، وأخذت الناس بما كانت عليه السياسة الإسلامية أيام العهد الديني الزاهر ، عهد الراشدين ، الذي كان الخليفة يترسم خطاه ، ويجتهد في السير على دربه ، ويعمل جاهداً على إحياء ما أهمل من تقاليده العادلة الصالحة . من أجل هذا يلهف الشاعر نفسه ، ونفس أهل الحق والدين ، على فقد هذا الخليفة الذي تعادل الخسارة فيه ، الخسارة فيمن سبقوه من الثلاثة الراشدين ، الذين أشار إليهم ، ويتمنى — والمنى خدع — لو أعطى القدرة على دفع المنية عنه ، وأنى له هذا ؟! فالمنية قدر ، والله غالب على أمره .

هنا فقط — أعنى في رثاء عمر بن عبد العزيز — تختفى ظاهرة المبالغة والادعاء ، وهما سمتان غالبتان على أكثر الرثاء في شعر الحزب الأموي ، بل على أكثر شعرهم السياسي باتجاهاته المختلفة .

ونحسب أن هذا الرثاء كان قوى التأثير في نفوس سامعيه من معاصري الشاعر ، كما هو قوى التأثير في نفوسنا الآن ، فنقول : رحم الله عمر بن عبد العزيز ، وأجزل ثوابه ، على ما اجتهد في رعاية دين الله ، وصلاح حال عباده .

وهذا شاعر آخر يبكى في عمر بن عبد العزيز ، عدله ، وزهده في متاع الدنيا ولهوها وزينتها ، وحرصه على سلامة الدين ونقاؤه ^(١) :

قد غَيَّبَ الدَّافِنُونَ اللَّحْدَ إِذْ دَفَنُوا بَدِيرَ سِمْعَانَ قِسْطَاسَ الْمَوَازِينِ
مَنْ لَمْ يَكُنْ هُمُّهُ عَيْنًا يُفَجِّرُهَا وَلَا النِّخِيلَ وَلَا رَكْضَ الْبِرَازِينِ
أَقُولُ لِمَا أَتَانِي ثُمَّ مَهْلِكُهُ لَا يَتَعَدَّنْ قِوَامُ الْحَقِّ وَالْدِينِ

فهذه صورة مثلى أيضا ، لما ينبغي أن تكون عليه سياسة ولى الأمر في الإسلام ، يراها الشاعر محققة في هذا الخليفة العادل ، الزاهد ، القائم في سياسة حكمه على الحق والدين .

(١) ينسب هذا الشعر للفرزدق مع بعض الاختلاف في الرواية في مروج الذهب ٢ / ١٧٤ (البهجة) ويروى دون عزو ، في الكامل للمبرد ٢ / ٢١٣ (الاستقامة) وتاريخ الطبري ٨ / ١٤١ ، قسطاس الموازنين : كناية عن وصفه بالعدل . لم يكن هم ... الخ : أراد أنه لم يكن مشغولا بالدنيا ، حرصا على متاعها ، وإنما كان همه الدين والآخرة . ركض البراذين : جمع برذون : الدابة ، كناية عن اللهو واللعب .

ومع أن شخصية عمر بن عبد العزيز وسياسته ، كانت ثرية رحية في جوانب الحق والخير ، والعدل ، بحيث لاثخوج القائل فيها إلى تزيد أو مبالغة ، فقد أبى بعض الشعراء إلا أن يطبع شعره في رثاء هذا الخليفة بطابع شعر الأموية بعمامة ، من المبالغة والتحويل والادعاء .

ومن عجب أن نجد هذه الظاهرة في شعر الجريز ، يرثي الخليفة عمر بن عبد العزيز ، مع أنه واجد — مع أصالة فنه ، وتوهج موهبته — من واقع شخصية المرثى وسياسته ، ما كان يرضى فنه ، ويبرز عبقرية الشعرية ، دون حاجة إلى التردى في هوة المبالغة المرفوضة ، والادعاء الذى يجافى الحق والعقل والدين ؟! يقول جريز (١) :

تَنعَى النعاة أمير المؤمنين لنا ياخيرَ من حجّ بيت الله واغتمراً
حملتُ أمراً جسيماً فاصطبرت له وقمت فيه بحق الله ياغمرأ
فالشمس طالعةٌ ليست بكاسفةٍ تبكى عليك نجوم الليل والقمرأ

فهنا مبالغة غير مقبولة ، تبدو في إطلاق المعنى في الشطر الثانى من البيت الأول ، وفي ادعاء أن الشمس — مع أنها طالعة — لم يحجب ضياؤها الكواكب والقمر ؛ لأنها حزينة لفقد الخليفة ، ومن ثم فقد ذهب ضياؤها .

ويؤكد ماذكرنا من أن شخصية عمر بن عبد العزيز وسياسته ، كانا عامرتين بالخير ، مما ينفى الحاجة إلى المبالغة في الحديث عنها إشادة أو رثاء ، أن من أعداء بنى أمية — بخاصة من الشيعة — من بكى عمر بن عبد العزيز بعد وفاته ، وأثنى عليه وعلى سياسته ؛ لأنه كان بحق خير بنى أمية .

ففى رثائه يقول الشريف الرضى — الشاعر العباسى : (٢)

ياابن عبد العزيز لو بكث العيْدُ نُ فتى من أمية لبيكُ
أنت نزهتنا عن السبِّ والشتمِ فلو يمكن الجَزَا لجَزَيْتُكَ
قَبْرَ سمعانَ لأعدتُكَ العَوادى خيرُ ميثٍ من آل مروان ميثُك

(١) ديوانه ٣٤ والكامل للميرد ٢ / ٢١٠ (الاستقامة) والعقد الفريد ٣ / ١٧٣ (الجمالية) .

(٢) مسالك الأبصار ١ / ٣٥٢

ومن رثاء عمال بنى أمية وقوادهم وأبطاهم : قول الفرزدق يرثى الحجاج ^(١) :
 ليبيك على الإسلام مَنْ كان باكيا على الدين أو شارب على الثغر واقف
 إلى أن يقول :

وما ذرفت عيناى بعد محمد على مثله إلا نفوس الخلائف

فالفرزدق يخشى على الإسلام بعد فقد الحجاج ، ويبدى من الجزع عليه ، مالم يديه على فقيد من غير الخلفاء .

والتكلف فى هذا الشعر واضح ، والشاعر يركب فيه مركبا صعبا ، إذ جرت المبالغة إلى أن يختار هذا المعنى ليرثى به الحجاج ، وهو من هو فى الجرأة على الدين ، وانتهاك حرمة الكعبة ، بضربها بالجانيق ، وإحراق ستائرهما ، فى حصاره لابن الزبير ، فضلا عن استهتاره بسفك دماء المسلمين ، والشاعر نفسه يشهد بأنه لم يكن صادقا فى هذا الرثاء ، وإنما قاله إرضاء للخليفة الوليد بن عبد الملك ، ولما عوتب فى ذلك من ابن عباس أظهر ندمه ^(٢) .

ولما مات القائد والفارس الأموى أبو غسان مالك بن مسعم ^(٣) الشيباني البكرى ، وكان من أبطال الأمويين فى حروبهم ضد مصعب ابن الزبير بالعراق ، رثاه جرير ، معتمدا هو الآخر أسلوب المبالغة والتحويل فى هذا الرثاء ، بقوله ^(٤) :

بَحْرَى قَوْمِي هَبْجَى الْأَحْزَانَا واستعجلنْ بدمعك الأرنأنا
 ولقد تواضع مَنْ بحضرة مالِك ما بين مصر إلى قصور عُمانَا
 قالت ربيعةُ إذ تُوفى مالِك لا رُزءَ أكبر من أُنَى غسانَا
 ولقد تركتْ بنى الزُّبير بمأزق لاطاعة تبعوا ولا سُلطانَا

فجرير يستدر الدموع على هذا الفارس الفقيد ، ويصور الفجيعة فيه شديدة

(١) ديوانه ٥ والعقد الفريد ٣ / ٢٥٨ . محمد : يقصد أبا محمد ، وهى كنية الحجاج .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) ممن شهد صفين مع معاوية ، وقاتل مصعب بن الزبير يوم الجفرة بالبصرة وأبلى بلاءً حسناً ، وفقد إحدى عينيه فى هذه المعركة ، ولما غلب مصعب على البصرة هدم داره ونهب متاعه . توفى سنة ٧٣ هـ . الكامل لابن الأثير ٤ / ٢٧٨ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٦٣ وتاريخ الطبرى ٧ / ١٨٢

(٤) ديوانه ٥٨٢ . بحرئى : اسم امرأة . الأرنأنا : الصراخ والعويل . تواضع : المراد هنا : أطرق فى حزن خاشع .

حتى لقد استشعرها المسلمون في أنحاء الدولة ، من مصر إلى عُمان ، فأطرقوا في حزن أليم خاشع .

أما قومه بنو ربيعة ، فمصيبتهم فيه أعظم وأجل ، فقد فقدوا بموته بطلهم الشجاع ، الذى لاعوض له .

وأخيرا يقدم جرير صورة من صور بطولة المرثى ، وتفانيه في خدمة الأموية ، ومجالدته أعدائها بالعراق ، فينوه ببلاء مالك «يوم الجُفرة»^(١) وهو يوم وثبت فيه المروانية على الزبيرة .

د : نظرات فنية في شعر الأموية السياسي :

نوجز هنا أبرز الملامح الفنية الهامة ، التى يمكن استخلاصها من الدراسة التحليلية السابقة ، لشعر الأموية السياسى ، بمختلف ألوانه ، مع ملاحظة أننا لم نستكثر من نماذج هذا الشعر ، لما وجدنا من اضطراب ظواهره الفنية ، فقليله يغنى عن كثيره .

١ — امتزاج المعانى الدينية ، بالعناصر السياسية ، بخاصة في الأشعار التى اتجهت إلى خلفائهم ، وكبار رجال دولتهم ، تشيد بهم ، وتصور سياستهم .

ففيها تكثر المعانى الدينية ، التى حرص الشعراء فى كل حزب على إضافتها إلى زعمائهم ، كما ترد كثير من المعانى السياسية العامة ، التى من شأنها أن تجعل من سياستهم نموذجا مثاليا للسياسة الإسلامية فى رعاية مصالح الرعية ، دينا ودنيا ، كحسن السياسة ، والسهر على مصالح الرعية ، والبراعة فى تدبير شئون الملك ، وإخماد الثورات والفتن ، والوقوف بالمرصاد لأعداء الإسلام على الثغور ، وتصوير عظمة ملكهم ، وقوة سلطانهم ، وكثرة أنصارهم ، واتساع دولتهم^(٢) .

رأينا هذا فى مدح الأخطل لبنى أمية بعامة ، ومدح عدى بن الرقاع للوليد بن عبد الملك ، وإشادة أنى العباس الأعمى بمكارم بنى أمية ... وغيرها ، وقد مر بنا تحليل هذه الظاهرة فى صدر دراسة شعرهم .

(١) كان هذا اليوم سنة ٧٠ هـ . راجع فى خبره ، وبلاء مالك فيه : الكامل لابن الأثير ٤ / ٦ / ٣٠ (بيروت)

وتاريخ الطبرى ٧ / ١٨٢

(٢) اتسعت رقعة الدولة الإسلامية أيام حكم الأمويين ، وامتدت من المحيط الأطلسى إلى ماوراء حدود الهند والتركستان ، ومن المحيط الهندى إلى بلاد القوقاز . وإلى أسوار القسطنطينية ، وبخاصة فى خلافة الوليد بن عبد الملك ، حيث غزت جيوشه قلب أوروبا الغربية . انظر : دولة الأمويين (د. على حبيبة) ص ١١ وما بعدها .

٢ — حاول بعض شعرائهم أن يصور الخليفة الأموي في صورة أقرب إلى القداسة ، تشبه إلى حد كبير ما يسمو إليه الشيعة بأئمتهم ، فقد استعاروا بعض صفات الأئمة في الشعر الشيعي ، ونسبوها إلى بعض الخلفاء ، كالمهدية ، والحق الإلهي القائم على اختيار الله ، ووراثه علم الأنبياء ... وغير ذلك ، مما تأثروا فيه بالشيعة ، وأسبغوه على خلفائهم ومرت بعض نماذجه ، كمدح جرير لسليمان بن عبد الملك ، ومدح الفرزدق له ، ولأخيه يزيد ، وقد فسرنا هذه الظاهرة في ثنايا دراستنا لأشعارهم في هذه الناحية .

٣ — شيوع المعاني الدينية في شعرهم المناهض للخصوم (الهجاء السياسي) ؛ إذ كانوا يدركون أن كل حزب من الأحزاب المعارضة ، يدعى لنفسه حقا شرعيا ، قائما على أسس دينية ، فالشيعة يدعون الحق بالإرث والوصية لعل بن أبي طالب — رأس الأئمة — والنص عليه ، والخوارج يستندون إلى أن الإسلام يسوى بين المسلمين في الحقوق والواجبات ، وأن الخلافة حق للمسلمين ، يتولاها منهم أصلحهم لها ، فهي ليست قاصرة على قريش ، أو أهل البيت منهم ، والزبيريون يرون أنهم أحق من بنى أمية القرشيين مثلهم ، الذين تحولوا بالخلافة إلى النظام الملكي ، بإقرارهم نظام ولاية العهد في الأعقاب ، ثم إنهم استأثروا بأموال المسلمين ، وحققهم في الفئء ، وفوق هذا ، فإن يزيد ابن معاوية الذي خرج عليه ابن الزبير فاسق ، لانتجوز ولايته ، وابن الزبير بتقواه وورعه ، وحرصه على مال المسلمين ومصلحتهم أحق منه .

من هنا اهتم شعراء الأمويين بسلب هذه الأسس والمعاني الدينية في مناهضتهم لزعماء هذه الأحزاب ، فكثرت وصفهم بالكفر والضلال ، واستباحة المحرمات ، والانقياد للشيطان ، واتباع الهوى ، والابتداع في الدين ... وغير ذلك مما ظهر في نماذج شعرهم في الهجاء .

ومع ذلك فهذا الاتجاه ليس سمة فنية يختص بها شعر الأمويين هذا ، فهو يكاد يكون اتجاها عاما في الشعر السياسي ، الذي يتصدى للخصوم ، لدى الأحزاب جميعا .

٤ — ضعف عنصر الصدق الانفعالي في شعر الأمويين بعامه ؛ وذلك لكثرة الشعراء المتكسبين ، المدفوعين بالرغبة ، في الاعتراف من عطاء بنى أمية ، في صفوفهم . وآية هذا الضعف شيوع المبالغة والتحويل والادعاء ، وافتعال المواقف في كثير من نماذجه ،

فقطع الشعراء في أن يزيد ما ينالونه على أشعارهم من منح الأمويين وهباتهم ، هو الذى دفعهم إلى استيحاء عقولهم ، ومهارتهم اللغوية ، أكثر من استيحاء عواطفهم ، فأجهلوا أنفسهم في اختيار اللفظ ، وصنعة العبارة ، والجري وراء الخيال ، والمبالغة في المعاني .

وفيما عرضناه من نماذج شعرهم ما يؤكد صدق هذه الملاحظة ، وقد تخرج المبالغة على لسان بعض شعرائهم إلى حد الغلو البعيد كل البعد عن تصور العقل ، ورعاية جانب الدين ، كما رأينا في مدح الفرزدق ليزيد بن عبد الملك .

— ٣ —

شعر الخوارج :

نذكر هنا بما سبق أن أشرنا إليه في صدر حديثنا عن آراء الخوارج وعقائدهم ^(١) ، ونضيف إليه ما يساعدنا على تفهم نفسية الخوارج وشخصيتهم ، التى عنها صدر أدبهم .

يعد حزب الخوارج من أعرق الفرق الإسلامية ، التى كانت تستمد أصول مقولتها من أفكار دينية ؛ لأنها إنما خرجت من أجل الدين ، دفاعاً عن أوامره الصريحة التى انحرف عنها المسلمون — فى نظرهم — بقبولهم فكرة التحكيم ، بعد موقعة صفين ، ثم سرعان ما اضطبغت أفكارهم بنزعات وآراء ونظريات سياسية ، آمنوسا بها ، واتخذوها جزءاً من عقيدتهم .

من أجل هذا اجتمع الخوارج ، بفرقهم المختلفة ، على تكفير على ^(٢) ومعاوية

(١) راجع ص ٤٦ — ٥٠ من هذه الدراسة .

(٢) كان مما ناقش فيه الخوارج على بن أبى طالب — زاعمين خروجه على الدين فيه — أنه أباح لهم ما فى عسكر أهل الجمل ، بعد هزيمتهم من الأموال ، ومنعهم من سبي النساء والذرارى ، قائلين : كيف استحلت ما لهم دون النساء والذرية ؟ كما تقدموا منه نحو عبارة (أمير المؤمنين) قبل اسمه ، فى الكتاب الذى أرسله إلى معاوية بقبول التحكيم ، وأخذ عليه أنه شكك فى حقه ، حين قال للحكمين : إن كنت أهدأ للخلافة فأثبتانى . قائلين : إن كنت فى شك من خلافتك ، ففريق بالشك فيك أولى . كذلك قالوا له : لم حكمت الحكمين فى حق كان لك ؟ . وقد ناقشهم على فى كل هذا ، ورد عليهم ، فى كلام طويل ، راجع فيه : الفرق بين الفرق ٥٨ — ٥٩ ، وانظر : مروج الذهب ٢ / ٤٠ (البهية) .

وأتباعهما ، وأكثرهم يؤمنون بوجوب الخروج على الإمام الجائر ، وأن الخلافة حق مشترك بين المسلمين ، يتولاها الصالح للنهوض به ، من أى جنس أو طبقة ، فليس بلام أن يكون الخليفة عربيا ، ولا قرشيا ، كما يرى الزبيريون ، ولاها شميا ، كما يرى الشيعة ، ولا أمويا ، كما يحرض بنو أمية .

أى أنهم كانوا دعاة المساواة الإسلامية ؛ ولذا امتازوا فى شعرهم السياسى الدينى بشيء تفردوا به ، وامتازوا عن غيرهم فيه ، هو التفافهم حول المبادئ ، لاحول شخص ، أو جنس ، أو قبيلة ، أو عائلة ^(١).

وعلى هذا الأساس ، فالخوارج حزب ثورى ، جامع ، صريح العداء للدولة الأموية القائمة على وراثة الملك ، لاعلى ديمقراطية الانتخاب العام بإجماع الأمة ، لأصلح المسلمين للإمامة حسب نظرية الخوارج السياسية التى تدور حول الخلافة ، والتى تستند إلى أسس دينية ، محورها توجيه شئون المسلمين العامة ، وفقا لأوامر الله ونواهيها ، كما تبدو فى ظاهر النص القرآنى .

ومن هنا كان الخوارج من أشد الناس تمسكا بالقرآن ، وأكثرهم عكوفاً على تلاوته وحفظه وتفهم ظاهر نصوصه ، فكان القرآن بهذا ، قوى التأثير فى حياتهم ، استشهادا بآياته فى تأييد وجهة نظرهم ، كما تمثلوه ، وصدروا عنه فى حياتهم المختلفة .

ولما كان الخوارج هم الحزب الوحيد البرىء من مطامع الخلافة ، والمطالبة بها ، فقد تصوروا أنفسهم حماة الدين ، المجاهدين فى سبيله ، وتحمسوا لهذه العقيدة — ولكل عقائدهم — تحمسا شديدا ، وآمنوا بها إيمانا قويا ، يبعثه ويغذيه ، الشعور بأنهم ينتصرون لمبادئ ، منزهة عن الأغراض والأهواء ، فاندفعوا يحاربون عليها جهارا ، لا يخفون شيئا ، ولا يتقون من شيء ، ولا يظنون غير ما يحاربون من أجله .

لهذا كان من مميزات شخصيتهم أيضا ، الصدق والصراحة ، وهما من مميزات سلوكهم ^(٢) وأدبهم ، فجاء هذا الأدب قويا ، شديد التأثير فى النفوس ، سريع النفاذ إلى القلوب ، يزيد من قوته وتأثيره ما يعكسه من شدة التلازم بين المذهب الأدنى (الصدق

(١) لمزيد تفصيل . انظر : أدب الخوارج ٤٤

(٢) انظر مزيد تفصيل لانتساب سلوك الخوارج بالصدق والصراحة : أدب الخوارج ٤٦

والصراحة في القول) وواقع السلوك في الحياة العملية ، فاجتمع فيه الصدقان : « الصدق الفنى والصدق الاجتماعى » (١) .

وملمح آخر من ملامح شخصية الخوارج ، التى انعكست فى أدبهم بعامة ، وشعرهم بخاصة ، نتلمسه من خلال حروبهم الكثيرة مع خصوم فرقتهم — بخاصة الأمويين — حيث نراهم يمتازون بالاندفاع والشجاعة والبطولة والحماس ، فاتخذت شخصيتهم طابعا فداييا ، فكل منهم يقبل على الموت حريصا على الاستشهاد ، إقبال غيرهم على الحياة ، وحرصهم عليها ، فغدا الموت أمنية يحرص عليها الخارجى فى حروبه ، ويسعى وراءها ، « إذ لم يعد الموت (فى نظرهم) إلا دخول الجنة ، أو لقاء الإخوان والأحباب والأبرار الأتقياء ، الذين تقدموا على الطريق » (٢) .

وقد بلغ من شدة تهمسهم ، وإيمانهم بمذهبهم ونظريتهم ، وإقدامهم على الموت فى جرأة نادرة ، دفاعا عنهما ، وحبا فى الشهادة ، أن دُوِّخت فئات قليلة منهم ، جموعا غفيرة للأمويين ، ولاتهم بالعراق ، ويكفيها فى هذا المقام أن نذكر أن الحجاج بن يوسف وجه ثمانية من القواد لقتال شبيب بن يزيد الشيبانى الخارجى وأصحابه ، خلال سنتى ٧٦ ، ٧٧ هـ ، فهزمهم شبيب جميعا ، وقتل خمسة منهم ، مما اضطرَّ معه الحجاج إلى الخروج إليهم بنفسه ، وأكثر ما كان شبيب فى مائتى رجل من الخوارج ، ومع ذلك كانوا يهزمون الألوفا (٣) .

وإذ كان التلازم قويا بين شخصيتهم السلوكية وأدبهم ، فقد جاء شعرهم ، الذى يتحدث عن معاركهم ، ويصور بطولاتهم تصديرا حماسيا جاححا ، مندفعا اندفاعهم فى حروبهم ، قويا قوة اقتحامهم الأهوال والمخاطر .

وتتضح شخصية الخوارج ، المتحمسة لمذهبها ، الواثقة من صواب بصيرتها فى الدين ، المؤمنة بضلال من عداهم ، المندفعة فى شجاعة إلى مناوأة أعدائها ، يتضح هذا كله من رسالة قطري بن الفجاءة (٤) ، ردًّا على رسالة بعث بها الحجاج إليه ،

(١) شعر الخوارج ٣ .

(٢) المصدر السابق

(٣) راجع تفصيل ماأشرنا إليه فى : العبر للذهبي ١ / ٨٦ — ٨٨ ، وعيون الأخبار ١ / ١٢١ ، وتاريخ

الطبرى ٧ / ٢٢٢ ومابعدها .

(٤) أبو محمد قطري بن الفجاءة (واسم الفجاءة جَعْفُونَة ، وقيل مازن) أحد بنى مازن بن مالك بن عمرو بن تميم ، ولقبه فى الحرب أبو نعام ، وهو منسوب إلى قطر قرب البحرين ، قيل : اسمه جعونة ، وقيل هذا اسم أبيه الفجاءة ، من فحول شعراء الخوارج ، ورأس من رؤوس الأراقة ، تولى أمرهم فترة طويلة تقدر بعشرين سنة ، خرج أيام =

يقول فيها ^(١) :

«بسم الله الرحمن الرحيم : من الحجاج بن يوسف إلى قطرى بن الفجاءة .
سلام عليك .

المُوحَّدُ الله ، والمُصَلَّى عليه محمد عليه السلام . أما بعد :
فإنك كنت أعرابيا بدويا ، تستطعم الكِسْرَةَ ، وتخف إلى التمرة ، ثم خرجت تحاول
ماليس لك بحق ، واعترضت على كتاب الله ، ومقرت من سنة رسول الله ، ﷺ ،
فارجع عما أنت عليه ، بما زُيِّن لك ، واذعنني ، فقد آن لك » .
فرد عليه قطرى بقوله :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من قطرى بن الفجاءة ، إلى الحجاج بن يوسف .
سلام على من اتبع الهدى .

ذكرت في كتابك أني كنت استطعم الكِسْرَةَ ، وأبذر إلى التمرة ، وبالله لقد قلت
زورا ، بل الله بصّرني من دينه ما أعماك عنه ، إذ أنت سائح في الضلالة ، غرق في غمرات
الكفر .

ذكرت أن الضرورة (الفقر) طالت بي ، فهلا برز لي من حزبك مَنْ نال الشَّيْعَ ،
وأتكأ فائدع ، أما والله لئن أبرز الله صفحتك ، وأظهر لي صُلْعَتَكَ ، لتكرن شعبك ،
ولتعلمن أن مقارعة الأبطال ، ليست كتسطير الأمثال » .

والعلة التي عمت الخوارج بالنجدة والشجاعة والبطولة ، استواء حالاتهم في
الديانة ، واعتقادهم أن القتال دين — كما يذكر الجاحظ ^(٢) .

وهذا ما يعلل مانراه في شعر الخوارج من ترديد المعاني حول استعذاب الموت في
سبيل العقيدة ، والاستخفاف بالمخاطر ، دفاعا عن حقوق الله والإسلام ، كما يعلل كثرة
ذكرهم لأبطالهم وشهادتهم ، ومواقفهم .

= مصعب بن الزبير بالعراق وبقي ثلاث عشرة سنة يقاتل ، ويسلم عليه بإمرة المؤمنين ، وكان أيضا من مقدمي فرسان
الخوارج ، حتى يقال : ما استحي شجاع أن يفر من قطرى بن الفجاءة . قتل بالري في أواخر أيام الحجاج سنة ٧٨ هـ
أو ٧٩ هـ . انظر : الطبري ٧ / ٢٧٤ والعبر للذهبي ١ / ٩٠ وعيون الأخبار ١ / ١٧٥ والاشتقاق ١٣٨ ، ٢٥٠
والتذكرة السعدية ٧٠ وذيل أمالي القالي ١٥ والخزانة ٣ / ٣٦١ وابن خلكان ١ / ٥٤٤ وزهر الآداب ٤ / ١٦٢
(١) الكامل للمبرد ١ / ٢٧٠ تخف إلى التمرة : تسرع ، يعني أنه كان فقيرا معدما . أبذر : أسرع . فائدع :
من الدعة ، النعمة والترف .

(٢) رسائل الجاحظ ١ / ٥١

تلك أهم القسمات البارزة لشخصية الخوارج الدينية ، والنفسية ، والسلوكية ، وهى التى طبعت شخصيتهم الأدبية بطابعها ، فخلفت شعرا يعكس نفوسهم المؤمنة ، الثابتة على مبادئها ، كما يصور حياتهم ، ويعبر عما يجول فى رعوسهم ، وتهفو إليه قلوبهم ، من حب الشهادة فى سبيل الحق ، الذى خرجوا من أجله ، واستهانوا فى سبيله بما صادفهم من عقبات وصعاب ، حاكيا مع هذا بطولاتهم ، واستبسالهم فى حماسة دينية منقطعة النظير ، حفزتهم إلى الإقبال على حياض الموت ، دون خوف أو وجل ، بل فى رضا وطمأنينة ، واستبشار برضوان الله ومغفرته ، كل منهم ينشد الموت شهيدا ، فى ساحة الجهاد الدينى ، الذى وهب نفسه له ، إيماننا منهم بأنهم وحدهم أهل الحق والهدى ، ومن عداهم جميعا على الكفر والضلال .

روى ابن قتيبة أن الفرزدق الشاعر مرّ يوما على أحد زعماء الخوارج بالبصرة ، ويدعى عاصم بن الحدثان ، فقال عاصم لابنه : أنشده ، فأنشده شعرا يمجّد بطولة الخوارج ، ثم قال عاصم للفرزدق : يافرزدق : هذا شاعر المؤمنين (يعنى الخوارج) وأنت شاعر الكافرين (يعنى من عداهم) ^(١) .

لعلنا أدركنا من هذا الحديث عن شخصية الخوارج ، وطابع أدبهم ، المحاور الموضوعية التى دارت حولها أشعارهم ، مفرزة صورا عديدة لجوانب حياتهم الإنسانية والدينية والمذهبية ، وبطولاتهم فى معاركهم الحربية ، وآرائهم فى مخالفاتهم ، وإعظامهم لأمر الشهادة فى سبيل الدفاع عن معتقداتهم ، وإكبارهم لشهادتهم ، والتنويه بما أعد الله لهم من جنات عدن ، لهم فيها مستقر ومقام .

يرسم شعر الخوارج صورا قوية الملامح ، لميولهم الدينية ، فينوه بتقواهم ، وزهدهم فى الدنيا ومتاعها ، وحرصهم على أداء فرائض الدين ، وحنينهم الدائم لما وعد الله به عباده المتقين ، وخوفهم الشديد مما أوعدهم به الجاحدين والعاصين ، وخشوعهم المؤمن لله ،

وإقبالهم في شغف ونهم على تلاوة القرآن ، تجري به ألسنتهم ، وتتدبر معانيه عقولهم ، وتستوعب هديه قلوبهم ، كانوا يتعبدون به ، ويفكرون فيه آناء الليل ، وأطراف النهار . نعم ، صور شعرهم هذا الجانب الديني في شخصيتهم ، على مثال ماوصفهم به واحد منهم في نثره ، وهو أبو حمزة الشاري ، الذي يقول عنهم : شباب والله مكتهلون في شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة ، وأطلاح سهر ، فنظر الله إليهم في جوف الليل ، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مرَّ أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقا إليها ، وإذا مرَّ بآية من ذكر النار شقق شهقة خوفا منها ، كأن زفير جهنم بين أذنيه ، موصول كلالهم بكلالهم ، كلال الليل ، بكلال النهار ، قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم من كثرة السجود ، يستقلون ذلك في جنب الله ^(١) .

كما يرسم شعرهم صورا لميولهم الثورية ، وشجاعتهم ، وبطولتهم ، واقتحامهم الأهوال ، واستهانتهم بالمخاطر ، وترحيبهم بالاستشهاد في سبيل عقيدتهم .
أ : صور من شخصية الخوارج المذهبية :

ييث شعر الخوارج في ثنايا تعبيره عن المعاني والصور التي ذكرناها ، غير قليل من عقائدهم ، ونظرياتهم المذهبية ، يرسلها شعراؤهم إرسالا ، ويقررونها كما آمنوا بها ، لايقصدون بذلك إثارة جدل حولها ، ولايهتمون بإقامة الحجج والبراهين على صوابها ، من نص منقول ، أو منطق معقول — كما فعل الشيعة مثلا .

وهذا المنهج التقريرى يمكن أن يفسر ، بما ذكره بعض الباحثين ^(٢) ، من أن شعور الخوارج الديني لم يكن شعور المفكرين المتفلسفين ، وإنما كان شعور أعراب سذج ، لم يدرسوا ، ولم يحثوا ، أو يعللوا أو يحللوا ، فقد آمنوا بما آمنوا به إيمانا قويا متعصبا ؛ لأن في طبعهم التعصب ، مندفعاً ، لأن في طبيعتهم الاندفاع ، ولهذا لانجد في شعرهم الديني المذهبي جدلا ، أو دفاعا بالحجج والبراهين ، وإنما نجد نغما دينيا مؤمنا ، قويا في إيمانه ، ساذجا ، بسيطا ، يستمد جماله من هذه القوة والبساطة والسذاجة .

(١) البيان والتبيين ٣ / ١٢١

(٢) الذكورة سهر القلماوى في أدب الخوارج ٤١

وهذا الوصف للناحية المذهبية في شعر الخوارج معقول إلى حد كبير ، إذا لاحظنا أن شعر الخوارج المذهبي إنما صدر عنهم ، ليصور إيمانهم بعقائدهم ، واستمسакهم بها ، وثباتهم عليها ، لالقيوها بالحجج والبراهين .

فلنأخذ مثلاً ، قول الصحارى بن شبيب ^(١) الصفرى الخارجى : (٢)
 إننى شارٍ بنفسى لِرَبِّى تاركٌ قِلاًّ لديهم وقالوا
 بائعٌ أهلى ومالى وأرجو فى جنانِ الخُلْدِ أهلاً ومالاً

فهو يشير إلى مبدأ الخوارج ، الذى لا يحدون عنه ، وهو الثورة ، والخروج على السلطان الجائر ، مضحين فى سبيل ذلك بالنفس والأهل والمال ، راجين أن ينالوا جزاءهم عند الله فى الآخرة .

والشاعر يقرر هذه العقيدة ، دون أدنى محاولة لإثبات صوابها بالبرهان ، بل إنه لا يقبل جدلاً (قيلاً وقالاً) من أحد حول هذا الاعتقاد .

ووقف جماعة من أسرى الخوارج بين يدى الحجاج ، فلما أمر بقتل رجل منهم ، قال الرجل له : « اسمع منى بيتين ، أختم بهما عملى ، ثم أنشأ يقول (٣) :
 أبرأ إلى الله من عمرو وشيعته ومن على ومن أصحاب صفين
 ومن معاوية الطاغى وشيعته لا بارك الله فى القوم الملاعين

هذا الخارجى يقرر اعتقاده فى كفر على ومعاوية وعمرو بن العاص وشيعتهم جميعاً ، ويجعل النطق بهذا الاعتقاد قريناً يتقرب بها إلى الله ، وهو فى طريقه إلى رحابه ، بعد أن يفرغ من إنشاده ، وتقريره هذه العقيدة ، وهو على أعتاب الموت ، دليل على يقين اعتقاده ، وهذا هو كل مايعنيه ، أما أن تكون هذه المقولة صواباً أو غير صواب

(١) فارس من فرسان الخوارج ، وابن قائد الخوارج الصفرية المشهور ، شبيب بن يزيد الشيباني الذى خرج أيام عبد الملك بن مروان ، وقاد حملات كثيرة ضد الحجاج ودوخ جيوشه حتى قتل غرقاً بنهر دجيل سنة ٧٧ هـ واستخلف على الجيش زوجته غزالة الخارجية أم الصحارى هذا ، أما الصحارى فقد خرج على خالد بن عبد الله القسرى وإلى العراق لهشام بن عبد الملك سنة ١١٩ هـ فهزمه خالد وقتله . انظر . تاريخ الطبرى ٨ / ٢٤٦ ، وانظر فى أخبار شبيب أبيه : عيون الأخبار ١ / ١٢٢ ، والفرق بين الفرق ٨٩ — ٩٢ ، وتاريخ الطبرى ٧ / ٢٢٢

(٢) الشعر فى تاريخ الطبرى ٨ / ٢٤٧ وشعر الخوارج ٧٣

(٣) الفرق بين الفرق ٩٢ وما لأنى المصلك الطائى فى شعر الخوارج ٦٨

في نظر غيره ، فهذا مالايعنيه .

أما الرهين بن سهم المرادى الحارجي ^(١) فيذكر ماذكره الصحارى بن شبيب من عقيدة الخروج والتضحية في سبيله ، ويضيف أنه يتمنى الموت حتى يدرك لإخوانه الذين سبقوه إلى الفردوس ، وهو على يقين من أن هذا هو مصيرهم ؛ ولذا فهو يتعجل اللحاق بهم ^(٢) :

إني لبائع مايقننى لباقيـة إن لم يعننى رجاء العيش تربيصا
وأسأل الله بيع النفس محتسباً حتى الأقي في الفردوس حرقوصا
و ابن المنيع ومرزاساً وإخوته إذ فارقوا زهرة الدنيا مخاميصا
تخال صفهم في كل معترك للموت سوراً من البنيان مرصوصا

يعنى أنه اشترى الآخرة بالدنيا ، ولذا فهو يتمنى الشهادة ، طمعا في الفردوس ، الذى أعده الله للشهداء من أبناء طائفته .

ويقول عمران بن حطان ^(٣) يشيد بعبد الرحمن بن ملجم قاتل على بن أبى طالب ، مبشرا إياه بحسن المثوبة على هذا العمل عند الله ^(٤) :

(١) رجل من مراد ، كان لايرى القعود عن الحرب ، وكان في الدهاء والعلم والشعر والفقه بمقولة الخوارج بمنزلة عمران بن حطان الآتى ذكره . انظر : الكامل للمبرد ٣ / ١٥٦
(٢) شعر الخوارج ٣٢ والكامل للمبرد ٣ / ١٥٦ وحرقوص المشار إليه في البيت الثانى هو : حرقوص بن زهير البجلي المعروف بذي الثدي ، أحد فرسان الخوارج الذين قتلهم على بن أبى طالب يوم النهروان سنة ٣٧ هـ . انظر : الفرق بين الفرق ٥٧ ، ومروج الذهب ٢ / ٤١٧ ، (السعادة) والكامل للمبرد ٣ / ١٣٠ (الأزهرية) . تربيصا : انتظارا وتأخيرا .

(٣) أبو سماك (أو أبودلان) عمران بن حطان بن طبيان السدوسي من بنى ذهل بن ثعلبة ، من بكر بن وائل ، رأس القعدة من الخوارج الصفرية ، بعد أبى بلال مرداس بن أدية الآتى ذكره ، وخطيبهم ، ومفتيهم ، وشاعرهم ، أدرك جماعة من الصحابة وروى عنهم ، ثم لحق بالشراسة فطلبه الحجاج فهرب إلى الشام ، ثم طلبه عبد الملك ففر إلى عمان ، ولما طال عمره قعد عن الحرب واكتفى بالتحريض ، والدعوة بشعره ، وله مسائل كثيرة من أبواب العلم في القرآن والسنن والآثار وغيرها . توفي سنة ٨٤ وقيل ٨٩ هـ ، انظر : خزنة الأدب ٢ / ٤٣٦ والتذكرة السعدية ٣٨٤ وأمالى المرتضى

١ / ٦٣٥ والأغاني ١٦ / ١٤٦ وفي إثارة العقود انظر : شعر الخوارج ١٠ — ١١

(٤) الأغاني ١٦ / ١٤٧ وشعر الخوارج ٢٦ ومروج الذهب ٢ / ٤٣ (البيبة) والكامل للمبرد ٢ / ٩٥ (الأزهرية) .

ياضربةً من تقى ماأرادَها إلا ليلغ من ذى العرشِ رضوانا
إني لأذكره حيناً فأحسبُه أوفى البرية عند الله ميزانا
لله دُرُّ المُرادى الذى سفكت كفاه مهجة شرُّ الخلقِ إنسانا
أَمسى عشية غشاها بضربته مما جناه من الآثامِ عُريانا

فهذا الخارجى يذكر أن ابن ملجم قتل عليا ابتغاء مرضاة الله ، وأن جزاءه لعظيم عنده الله ، بل هو أفضل الخلق عنده ، وأن هذا العمل قد غفر له ماتقدم من ذنوبه . ولكن هل تكفى هذه الدعاوى حجة تبرر جريمته ؟! ولم يهتم بتعليل المنزلة التى ادعاها للقاتل ، هل لأن عليا شر الخلق ، كما يقول فى البيت الثالث ؟ ولماذا كان على شر الخلق ؟

لشأن للشاعر بهذه التساؤلات ، إنه قرر مايؤمن به ، وبانطباقه على قواعد الدين فى اعتقاده ، دون أن يكلف نفسه مثونة الاحتجاج والبرهنة .

وقد كثر الرد على شعر عمران هذا ، من شعراء شيعيين وغيرهم ، محبة لآل البيت ، ونقضا لعقيدة هذا الخارجى :

من ذلك قول القاضى أبو الطيب ، طاهر بن عبد الله الشافعى (١) :

إنى لابراً مما أنت قائله عن ابن ملجم الملعون بُهتاناً
ياضربةً من شقى ماأرادَ بها إلا لهدم للإسلام أركاناً
إنى لأذكره يوماً فالعنه ديناً وألعن عمران بن حِطّاناً
عليه ثم عليه الدهر متصلاً لعائنُ الله إسراراً وإعلاناً
فأنتما من كلاب النار جاء به نصُّ الشريعة برهاناً وتبياناً
عليكما لعنة الجبار ماطلعت شمسٌ وماأوقدوا فى الكون نيراناً

كما نقض شعر عمران شاعر آخر يدعى محمد بن أحمد الطيب ، فقال (٢) :

ياضربةً من غدور صار ضاربها أشقى البرية عند الله إنساناً
إذا تفكرت فيه ظلت ألعنه وألعن الكلبِ عمران بن حِطّاناً

(١) مروج الذهب ٢ / ٤٣ (البيضة). وانظر : الكامل للمبرد ٢ / ٩٥ (الأزهرية) .

(٢) الكامل للمبرد ٢ / ٩٥

والشاعران ينقضان اعتقاد عمران في أبياته السابقة ، ويلعنان القاتل والشاعر معاً .

وقد ذكرنا في عقائد الخوارج ، أنهم يؤمنون بالخروج لقتال المخالفين ، وأن أكثرهم يوجبونه ، ويكفرون القعدة عنه ، مع قدرتهم عليه ^(١) .

لذلك كتب قطري بن الفجاءة — وهو من الأزارقة الذين يكفرون القعدة — إلى رجل خارجي أزرق ، يقال له : أبو خالد القنّاني ، كان يتخلف عن القتال ، كتب إليه رسالة شعرية ، ضمنها حكم طائفته على قعوده ، قال فيها : ^(٢)

أبا خالد إنفِرْ فليستْ بخالدٍ وماجعل الرحمن عُذْراً لقاعد
أترعِم أن الخارجى على الهدى وأنت مقيم بين لصٍّ وجاحد ؟!

إنه يعبر عن وجوب الخروج للقتال ، الثابت بنص القرآن (فقاتلوا التي تبغى) ، وينذر هذا القاعد ، بأنه خرج عن ملة أهل الهدى (الخوارج) ، فهو واحد من اثنين : إما لص ، يقيم بعد خروج الرجال للقتال ، لينسل إلى البيوت ويسرقها ، وإما كافر بعقيدة الخوارج .

وقد ردّ أبو خالد على رسالة قطري هذه برسالة يعتذر فيها عن قعوده ، ويرره بقوله ^(٣) :

لقد زاد الحياة إلى حُبّا بناتي إنيهنّ من الضّعاف
مخافة أن يرّين الفقر بعدى وأن يرّين رثقاً بعد صاف
وأن يرّين إن كُسيّ الجوارى فتنبو العين عن كرم عجاف
وأن يضطرهنّ الدهر بعدى إلى جلف من الأعمام جاف
فلولا ذاك قد سوّمتُ مهري وفي الرحمن للضعاء كاف

وأمر هذا الخارجى عجيب ، فما كان الخوارج يؤثرون شيئاً على الخروج ، وطلب إحدى الحسينيين !! غير أن للقعدة عن الواجب ، في كل زمان ، من الخوارج وغير

(١) راجع ص ٤٩ من هذه الدراسة .

(٢) شعر الخوارج ٤١ والأغاني ١٦ / ١٤٩ والكمال للمبرد ٣ / ٩٢

(٣) شعر الخوارج ١٣ منسوبة إلى عيسى بن عاتك الخطي ، والكمال للمبرد ٣ / ٩٢ وهي فيه لأبي خالد

المذكور . الرّق : الكدر . سوّمت مهري : أرسلته في الأعداء .

الخوارج ، منطقهم يتعززون به عن التقصير ، ومنطق أئى خالد القنائى ، غلبة عاطفة الأبوة ، والشفقة على بناته الضعاف ، والخوف من أن تذهن الحاجة من بعده ، فيلجأ إلى أعمام غلاظ الأكباد ، أو يضعن بين أقدام الحياة ، فماله وللقتال إذن ، وماهى ذى ابنته ، تصرخ فيه كلما هم بالخروج :

أبانا مَنْ لَنَا إِنْ غِبْتَ عَنَا وَصَارَ الْحَيُّ بِعَدِكَ فِى اخْتِلَافٍ؟!

والمتشددون من الخوارج يعتقدون أيضاً أن مجرد مجالسة المخالفين ، الذين يراهم الخوارج ظالمين ، تعد ذنباً لايمحوه إلا التوبة النصوح ، ومعنى التوبة ومقتضاها عندهم ، أن يحرص على أن ينال الشهادة فى ميدان حروبهم الدينية ، فيها وحدها ، تكفر هذه السيئة ، ويوضع عنه إصرها .

ويث قطرى بن الفجاءة هذه العقيدة فى رسالته إلى سُميرة بن الجعد الخارجى ، الذى جالس الحجاج بن يوسف الثقفى ، وكان قطرى إذ ذاك يحارب المهلب بن أبى صفرة بأمر الحجاج ، فيقول (١) :

لَشَتَّانَ مَا بَيْنَ ابْنِ جَعْدٍ وَبَيْنَنَا	إِذَا نَحْنُ رُحْنَا فِى الْحَدِيدِ الْمُظَاهِرِ
نَجَاهِدُ فِرْسَانَ الْمَهْلَبِ كُلَّنَا	صَبُورٌ عَلَى وَقَعِ السِّيفِ الْبَوَاتِرِ
وَرَاحَ يُجَرُّ الْحَزُّ عِنْدَ أَمِيرِهِ	أَمِيرٌ بِتَقْوَى رُبِّهِ غَيْرَ أَمْرِ
أَبَا الْجَعْدِ أَيْنَ الْعِلْمُ وَالْحِلْمُ وَالنَّبَى	وَمِيرَاثُ آبَاءِ كِرَامِ الْعُنَاصِرِ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَوْتَ لَأَشْكُ نَازِلُ	وَلَا بَدَّ مِنْ بَعَثِ الْأُلَى فِى الْمَقَابِرِ
فَإِنَّ الذِّى قَدْ نَلَّكَ يَفْنَى وَإِنَّمَا	حَيَاتُكَ فِى الدُّنْيَا كَوَقْعَةِ طَائِرٍ
فَرَا جَعُ أَبَا جَعْدٍ وَلَاتُكَ مَغْضِيًّا	عَلَى ظِلْمَةٍ أَعَشَتْ جَمِيعَ النَّوَاطِرِ
وَتُبَّ تَوْبَةٍ تُهْدَى إِلَيْكَ شَهَادَةٌ	فَإِنَّكَ ذُو ذَنْبٍ وَلَسْتَ بِكَافِرٍ
وَسِرَّ نَحُونَاتِلَقُ الْجِهَادِ غَنِيمَةٌ	تُقَدِّكَ ابْتِيَاعًا رَابِحًا غَيْرَ خَاسِرِ
هَى الْغَايَةُ الْقُصْوَى الرَّغِيبُ ثَوَابُهَا	إِذَا نَالَ فِى الدُّنْيَا الْغَنَى كُلُّ تَاجِرٍ

فبعد أن لام قطرى سُميرة ، وعنفه ، مبينا له أن فعلته خاطئة لاتليق من عالم عاقل

(١) شعر الخوارج ٤٧ ومروج الذهب ٢ / ١٣٨ (البجة) . وسُميرة رجل من بنى شيبان من أصحاب قطرى ، كان عالما بأيام العرب وأخبارها ، ولذا اتخذ الحجاج سمرا له .

مثله ، بخاصة والحرب قائمة بين أبناء طائفته والحجاج الذى يسامره ، راح ينظم عقيدة الطائفة ، فى فعلة هذا الخارجى ، وقدم له الفتوى صريحة واضحة « إنك ذو ذنب ولست بكافر » ، فهو إذن عاص ، وعلى العاصى أن يتوب ، والتوبة تقتضيه ، أن يترك هذا الذنب ، ويتجه إلى أبناء الطائفة ليشاركهم فى قتال المخالفين ، وليكن حريصا على الشهادة ، فهى فى عقيدة الخوارج المطهرة للذنوب ، والغاية القصوى من خروجهم ، المرغوب فى ثوابها منهم .

وقد أحدثت هذه الفتوى أثرها المطلوب ، فسرعان ما بكى سميرة عقب قراءتها ، وركب فرسه ، وأخذ سلاحه ولحق بقطرى ، وترك رسالة إلى الحجاج يقول فيها ^(١) :
 فَمَنْ مَبْلُغُ الْحِجَاكِجِ أَنْ سَمِيرَةً قَلَّا كُلَّ دِينٍ غَيْرِ دِينِ الْخَوَارِجِ
 رَأَى النَّاسَ — إِلَّا مَنْ رَأَى مِثْلَ رَأْيِهِ — مَلَاعِينَ تَرَاكِينِ قَصْدِ الْخَوَارِجِ
 فَأَقْبَلْتُ نَحْوَ اللَّهِ بِاللَّهِ وَاتَّقَا وَمَا كَرِهْتَنِ غَيْرَ إِلَهِهِ بِفَارِجِ
 إِلَى عُصْبَةِ أُمِّهِ النَّهَارِ فَإِنَّهُمْ هُمُ الْأَسَدُ أَسَدُ الْغِيلِ عِنْدَ التَّهَائِجِ
 وَأَمَّا إِذَا مَا اللَّيْلُ جَنَّ فَإِنَّهُمْ قِيَامُ بَأَنَاحِ النِّسَاءِ النَّوَاشِجِ
 يَنَادُونَ لِلتَّحْكِيمِ تَالَهُهُ إِنَّهُمْ رَأَوْا حَكْمَ عَمْرٍو كَالرِّيَّاحِ الْهَوَاشِجِ
 وَحَكْمَ ابْنِ قَيْسٍ مِثْلَ ذَلِكَ فَأَعَصَمُوا بِجَلِّ شَدِيدِ الْمَتَنِ لَيْسَ بِنَاهِجِ
 إنه يعتز بعقيدته أشد الاعتزاز ، ويرفض كل عقيدة غيرها ، وماعقيدته ؟ إنه يرسلها فى إيمان شديد بها ، أن كل من ليس على رأى الخوارج ملعون ، كلهم ضال تائه عن الحق ، تتقاذفه رياح الضلال الهائجة ، أما الخوارج فقد اعتصموا بجبل الله المتين ، بالقرآن العظيم ، يأتمرون بأمره ، وينتهون بنهيه .

إن تعبير الخوارج عن عقائدهم فى ثنايا أشعارهم يأخذ هذا الطابع دائما ، طابع البساطة والتلقائية ، الذى يبدو فى إرسالها واضحة صريحة ، تنبىء عن شدة اعتقادهم فيها ، مهما بدت فى نظرنا ونظر غيرنا قابلة للمناقشة ، مفتقرة إلى الحججة ، بل شديدة الحاجة إلى البرهنة والاستدلال على صوابها ، فحسبهم ، ما يقول شاعرهم ^(٢) فروة بن نوفل :

(١) مروج الذهب ٢ / ١٣٩ (البهية) ، وانظر : شعر الخوارج ٥٠ . ابن قيس : هو أبو موسى الأشعري .

(٢) شعر الخوارج ٥

لقد علمت وخير العلم أنفعه أن السعيد الذى ينجو من النار
ولكن كان هذا الشاعر لم يهتم بأن يوضح كيفية ضمان هذه النجاة ، فإن أحال له
فى العقيدة ، يمدنا بالإيضاح ، هو الطرمّاح بن حكيم ، حيث يقول (١) :
والنار لم ينج من روعاتها أحد إلا المنيب بقلب المخلص الشارى
فليس إلا الشراة التوابون المخلصون ، يكون سعيدا بالنجاة من النار .

ب : صور من شخصية الخوارج الدينية والبطولية (تمجيد الطائفة) :

يلح شعراء الخوارج على رصد سلوك أبناء طائفتهم الدينى ، ووصف ما يبدو من
أثر إدمانهم الطاعات ، والإكثار من التقرب إلى الله بالعبادات ، فى شفافية أرواحهم ،
وهزال أجسامهم ، وتصوير حركاتهم النفسية ، خائفين من عقاب الله ، راغبين فى
رضوانه .

وإذ كان الصدق من معالم شخصيتهم البارزة — كما ذكرنا من قبل — فإن
ما يقدمه شعرهم من صور فى تمجيد أبناء طائفتهم ، والتنويه بمخاضهم الدينية ، تخلو من
المبالغة والتحويل ، وتلتزم بما يشاهد من أحوالهم ، وما يراه الكافة من سلوك دينى واضح فى
حياتهم ، لا يكاد يختلف فيه خارجى عن أخيه فى العقيدة ، ولذا اتسم هذا الشعر أيضا ،
بما يمكن أن نطلق عليه (وحدة الخصائص) أى مجموعة الصفات الدينية السامية ، التى
تصلح أن تقال فى كل خارجى صادق العقيدة ، ولذا تشابهت صور أشعارهم فى هذا
الجانب .

فالشعر المقول فى وصف حال الشارى الدينية ، لا يميز إلا باختلاف الأسماء ،
فالصور العامة واحدة ، وكل ما يقال فى أحدهم ، يقال فى الآخرين ، لأن الخصائص
الدينية لهذه الصور تتمثل فى كل فرد على حدة ، كما تتمثل فى مجموع أبناء الطائفة ، فهم
دائما ، كما يقول عمر بن الحصين العنبرى الخارجى (٢) :

(١) شعر الخوارج ٩٨

(٢) شرح نهج البلاغة ١ / ٤٦١ . وشعر الخوارج ٨٥

متأهبون لكل صالحة ناهون من لاقوا عن التكر
صنت إذا احتضروا مجالسهم من غير ماعى بهم يترى
متأهون كأن جمر غصاً للموت بين ضلوعهم يترى
لاليلهم ليل فيلبسهم فيه غواشى النوم بالسكر
إلا كرى خلّسا وأونسه حذر العقاب فهم على دغر
وقوله (١) :

متأهين كأن في أجوافهم ناراً تسعها أكف حواطب
تلقاهم فتراهم من راع أو ساجد متضرع أو ناحب
يتلو قوارغ تترى عبراته فيجودها مرى المرى الحالب
ويقول فى الواحد منهم (٢) :

كم من أخ لك قد فجعت به قوام ليلته إلى الفجر
متأوهاً يتلو قوارغ من آى الكتاب مفرح الصدر
ومبرأ من كل سيئة عف الهوى ذامرة شرر

فالملاحظ أن مقومات الصورتين تتطابق تقريباً ، فى الجماعة ، والفرد ، فهم يتأهون خوفاً إذا قرعوا آيات العذاب فى القرآن ، كأن فى قلوبهم ناراً ، والواحد منهم متأوه أيضاً إذا قرأ آيات العذاب القوارغ ، وهم قوامون الليل ، ساهرون على الطاعة والعبادة ، لايزور النوم عيونهم الإفتراء قليلة تختلس اختلاسا ، وكل فرد منهم ، قوام ليلته إلى الفجر ، وهم فى الجملة متأهبون لكل صالحة ، وواحدهم مبرأ من كل سيئة .

ونجد هذا التطابق يطالعنا فى كل صور أشعارهم — غالباً — ماتناول منها جماعتهم كطائفة ، وماخص منها فردا منهم بعينه .

ويقول الطرماح بن حكيم جامعاً للخوارج من الصفات الدينية ، مايعكس شخصيتهم المؤمنة ، الصابرة على العبادة ، المتمسكة بعقيدها (٣) :

(١) شعر الخوارج ٨٩ والأغاني ٢٠ / ١٢٠ .

(٢) شعر الخوارج ٨٥ والأغاني ٢٠ / ١١١ .

(٣) ديوانه (دمشق) ٥٧٨ . الطلا : جمع طلاة ، وهى العنق .

لله دُرُّ الشُّرَّةِ إِنَّهُمْ إِذَا الْكَرَى مَالٌ بِالطُّلَا أَرْقَوْا
يَرْجِعُونَ الْحَيْنِ آوْنَةً وَإِنْ عَلَّابِهِمْ سَاعَةً شَهَقُوا
خَوْفًا تَبَيَّتِ الْقُلُوبُ وَاجْفَاءً تَكَادَ عَنْهَا الصُّدُورُ تَنْفَلِقُ
قَوْمٌ شَحَّاحٌ عَلَى اعْتِقَادِهِمْ بِالْفُوزِ مِمَّا يَخَافُ قَدْ وَثَقُوا

هذه صورة تعد مثلاً لوحدة الخصائص الدينية لدى الخوارج جميعاً ، كما تعد نموذجاً يبرز مع التماذج السابقة ماسبقت الإشارة إليه ، من التشابه بين عناصر الصور الشعرية ، التي رسمها شعر الخوارج لطائفتهم ، جماعات وأفراد .

إنها صورة تعبر عن تقوى الخوارج وورعهم ، وقوة إيمانهم بمذهبهم ، إذ يصورهم الطرماح ساهرين على تلاوة القرآن ، كلما مرَّ بهم ذكر الجنة حنوا إليها ، فإذا تلو آيات العذاب ووصف النار أنوَّأ أنينا موجعا ، تكاد تنخلع منه قلوبهم ، وتنشق عنها صدورهم ؛ خوفاً من عذاب الله ، وهم شديداً التمسك بعقيدتهم ، يسترخصون أرواحهم في سبيلها ، واثقين من الفوز برضوان الله وجناته .

أما تأثير هذا النسك الديني روحياً وجسمانياً ، فيوجزه أحد شعرائهم في قوله (١) :

فَنِيَّةٌ تَعْرِفُ التَّخَشُّعَ فِيهِمْ كُلُّهُمْ حَكَمَ الْقُرْآنَ غُلَامَا
قَدْ بَرَى لَحْمَهُ التَّهَجُّدُ حَتَّى عَادَ جِلْدًا مُصَفَّرًا وَعِظَامَا
كَمَا يَعْبُرُ عَنْهُ خَارِجِي آخَرُ ، فَيَقُولُ (٢) :

أَجَاهِدْ أَعْدَائِي إِذَا تَتَابَعُوا وَأُدْعَى بِإِسْمِي لِلْهَدَى فَأَجِيبْ
مَعِيَ كُلُّ أَوَّاهٍ بَرَى الصُّومُ جِسْمَهُ فَفِي الْجِسْمِ مِنْهُ نَهْكَةٌ وَشَحُوبٌ

فالخشوع سمة عامة فيهم ، من أثر خشية الله ، وإدمان طاعته ، كما أن أجسادهم مرهقة من مواصلة الليل بالنهار في هذه الطاعة ، حتى غدت جلداً على عظم ، إذا رأيتهم خلعت ماء الحياة قد فارق هذه الأجساد ، ألم يصفهم أبو حمزة الشاري بأنهم أنضاء عبادة وأطلاح سهر ؟

(١) شعر الخوارج ١١١ . القرآن : القرآن . برى لحمه : المراد أخلت العبادة بدنه .

(٢) شعر الخوارج ٣٩ ومعجم الشعراء ٢٢٨ .

هذه الصور المؤمنة ، إنما هي انعكاس لما كان الخوارج يستشعرونه دائما من الثقة بأنهم وحدهم على الحق ، وأنهم وحدهم الفائزون بحسن العقبي عند الله ، ويترجم هذه الثقة ، شاعر الخوارج الأزرق عيسى بن (١) عاتك الحطّلي ، لما خرج أبو بلال مرداس (٢) بن أدية في أربعين من الخوارج (سنة ٦٠ هـ) بناحية الأهواز ، فوجه إليه عبيد الله بن زياد جيشا من ألفي رجل ، فثبت الأربعون ، وفر الألفان ، ويسجل عيسى بن عاتك هذه الحادثة ، ويفسر انتصار هذا العدد القليل من الخوارج على جند من ألفي رجل ، بإيمان الخوارج ، وشدة ثقتهم بعقيدتهم ، فيقول (٣) :

فلما أصبحوا صلّوا وقاموا إلى الجرد العتاق مُسَوِّمينا
فلما استجمعوا حملوا عليهم فظل ذوو الجعائل يُقتلوننا
بقية يومهم حتى أتاهاهم بأن القوم ولّوا هاريننا
ألفا مؤمن - فيما زعمتم - ويقتلهم بأسك أربعوننا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنوننا
هُم الفئة القليلة غير شك على الفئة الكثيرة ينصروننا
أطعتم أمر جبار عنيد ومامن طاعة للظالمينا

فالأبيات صورة من صور الشجاعة الفائقة ، وصدق القتال ، غير أن ما بهننا هنا ، أنها تؤكد ثقة الخوارج بنصر الله ، وتعلل هذه الثقة بأنهم هم وحدهم المؤمنون ؛ ولذا أيدهم الله بنصره ، ونصر الله موعود بنص القرآن للمؤمنين ، في قوله تعالى : « يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن

(١) أحد بنى ودعية من بنى تيم اللات بن ثعلبة ، كان من أصحاب نافع بن الأزرق ، قتل في معارك الأزرق بعد سنة ٦١ هـ . انظر : أنساب الأشراف ٤ / ٢ ، ٩٥ وتعذيب الكامل ١ / ١٥٠

(٢) حنظلي تميمي ، تولى زعامة الصفيرية ، وهو أخو عروة بن أدية التميمي أول من نادى بشعار (لاحكم إلّا لله) عقب قبول عليّ التحكيم بعد صفين ، وخرج أبو بلال في أيام يزيد بن معاوية بناحية البصرة على عبيد الله بن زياد ، وهزم قائده زعرة بن مسلم العامري ، فأرسل إليه عبيد الله قائده عباد بن أخضر التميمي الذي هزم أبا بلال وقتله سنة ٦١ هـ ، فاتخذت الصفيرية عمران بن حطان زعيما لها من بعده . انظر : الكامل لابن الأثير ٤ / ٩٤ ، بيروت ، والفرق بين الفرق ٧١ والخوارج والشيعية ٤ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٧

(٣) شعر الخوارج ١٤ وعيون الأخبار ١ / ١٦٣ وديوان المعاني ٢ / ٢٣٠ . الجعائل : جمع جعالة ، وهي شيء يدفعه الذي عليه الغزو لرجل آخر كي يغزو عنه ، يريد أنهم مأجورون للقتال ، فهم مدفوعون بحب الدنيا ، وكان الخوارج يرون في هذا أبلغ ذم لأعدائهم . أسك : موضع بهمدان قرب أرجان .

منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا^(١) ، وبالقياص على نص الآية الكريمة فإن الأربعين يغلبون الألفين ، لأنهم مؤمنون .

كما أن الشاعر في البيت قبل الأخير ينظر إلى نص قول الله تعالى : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين^(٢) » .

ولا يفوتنا أن نلتفت إلى المعنى الآخر ، الذى يمكن أن نربط بينه وبين النصر العظيم الذى أحرزته هذه الفئة القليلة من طائفة الخوارج ، والذى أشار إليه الشاعر إشارة عابرة، فى قوله : « فظل ذوو الجعائل يقتلوننا » ، ففيه تلميح إلى الفرق بين الخوارج وبين الآخرين، فجند الأمويين — فى سبيل الرزق — قد يحارب اليوم معهم ، وغداً مع غيرهم ، يدل على هذا قول بعض هذا الجند ، وقد دعوا لقتال الخوارج بناحية كسكرا ، ومالنا لانقاتل الخوارج ؟ أليست أعطياتنا دارة ؟ ، وقد علق عمران بن حطان على هذه الحال بقوله^(٣) :

فلو بُعِثَتْ بعضُ اليهودِ عليهمُ يؤمُّهمُ أو بعضُ مَنْ قد تنصَّرا
لقالوا رضينا إن أقمْتَ عطاءنا وأجريتَ ذاكَ الفرضِ من برِّ كَسَكرا

أما الخوارج فباعثهم إلى القتال إيمان قوى بما يروونه حق الإسلام عليهم ، ورغبة عارمة فى الفوز بإحدى الحسنيين ، النصر أو الشهادة ، لاعتقادهم أنهم حراس دين الله ، الخارجون من أجل نصرته .

وصور البطولة فى شعر الخوارج كثيرة متنوعة ، حادة الملامح ، بارزة القسمات ، فاتصاف الخوارج بالشجاعة والإقدام والفدائية ، أتاح لشعرائهم أن يفتنوا فى التعبير عنها فى كثير من أشعارهم ، تمدهم معارك الخوارج الكثيرة مع خصومهم ، بخاصة الأمويين ، بالمعين الثَّرى من الخطوط والألوان والظلال ، التى تتألف فى أشكال ومعارض كثيرة ، لبطولة الخوارج فى حروبهم الدينية المقدسة .

(١) سورة الأنفال ٨ / ٦٥

(٢) سورة البقرة ٢ / ٢٤٩

(٣) معجم البلدان (رسم : كسكرا) وشعر الخوارج ٢٠

لهذا كان من أبرز خصائص شعرهم ، المعبر عن بطولتهم وأبطالهم ، كثرة الاقتنان في المعاني والصور ، التي تضيء على الخارجي شجاعة نادرة المثال .

من هذه الصور قول أحد الخوارج ، في معرض الإشادة بضروب البسالة ، وآيات البطولة ، التي تميز أصحابه ، في حومات القتال ^(١):

وهم الأسود لدى العرين بسالةً ومن الخشوع كأنهم أخبارُ
يمضون قد كسروا الجفون إلى الوغى متبسمين وفيهم استبشار
فكأنما أعداؤهم أحبابهم فرحاً إذا خطر القنا الخطارُ
يردون حومات الحُمام وإنها والله عند نفوسهم لصغارُ

وهل هناك من هو أكثر شجاعة وإقداماً ممن يمضي إلى لقاء عدوه في إصرار وفرحة ، كأنه ذاهب إلى لقاء حبيب ، مستهيناً بحومات الوغى !!

وهل أدل على بطولة الخوارج من كثرة النساء المحاربات المتحمسات للقتال واقتحام المخاطر بين صفوفهن ، مما دفع عبيد الله بن زياد إلى عرض جثث القتلى منهن عاريات ؛ ليبرد من حماسة غيرهن من نساء الخوارج المقاتلات المتحمسات ، فذهبت جهوده في هذا المجال عبثاً ، من هؤلاء امرأة اشتهرت بالقتال في صفوف قطرى بن الفجاءة ، وبرزت الشديدة في طلب الشهادة ، وهي أم حكيم ، التي ضاقت بحمل رأسها فوق كتفها ، تكلفها العناية بشعرها ، فهي تتطلع إلى من يريحها من هذه الرأس في مواطن القتال ، في تحدٍ واضح ، واستفزاز صريح للأبطال ، وهي تعرض علينا هذه الصورة الطريفة من صور البطولة ، فتقول ^(٢) :

أصحبُ رأساً قد سُمْتُ حمله

وقد سُمْتُ دهنه وغسله

ألا فتى يحمل عني ثقله ؟

أو من هذا الذي يستعذب الموت في سبيل الذكر الطيب ، ويرى في الموت راحة من الدنيا وطريقاً إلى حسن العقبى ^(٣) :

(١) عيون الأخبار ١ / ١٢٤ وشرح نهج البلاغة ١ / ٣١٦ وشعر الخوارج ١١٦ . أخبار : جمع حبر ، والمراد هنا : العالم بالدين . كسروا الجفون : كناية عن التصميم والجدة في القتال .

(٢) شعر الخوارج ٤١ وحماسة الظرفاء ١ / ٢٣ وانظر : الخوارج والشيعة ٦٤

(٣) المصدر السابق ١ / ٣٨

ومن يَحْشَ أَظْفَارَ المنايا فإننا لَبَسْنَا لَهْنَ السابغات من الصبر
وإن كره الموت عذب مذاقه إذا مَافَرَجْنَاهُ بطيب من الذكر
ومارزق الإنسان مثل منية أراحت من الدنيا ولم يَحْزَ في القبر

وبهنا أن نلاحظ الباعث الديني من وراء هذه البطولة ، وحرص الشعراء على الإشارة إليه في ثنايا صورها ، فالاستهانة بحومات الوغى وعدم الخزية في القبر من ورائها باعث وغاية ، أما الباعث فاعتقاد الخوارج أنهم يقاتلون في سبيل الحق الذي خرجوا من أجله ، وأما الغاية ، فالفوز بنصرة الدين والعقيدة ، أو الفوز بالشهادة ، الرغبة ثوابها . ولقطرى بن الفجاعة صور تحكى واقعا ، يقدمها من خلال وصفه لشجاعة الخوارج ، واندفاعهم في الحرب ، وصدقهم في اللقاء ، وتنكيلهم بالأعداء ، في معركة دولاب^(١) (سنة ٦٥ هـ) بين الخوارج الأزارقة وأهل البصرة^(٢) :

فيا كَبِداً من غير جوع ولا ظمأً وواكَبِداً مِنْ وَجْدٍ أُمِّ حَكِيمٍ^(٣)
ولو شَهِدْتَنِي يَوْمَ دَوْلَابٍ أَبْصَرْتُ طَعَانَ فَتًى فِي الْحَرْبِ غَيْرَ لَيْمٍ
غَدَاةً طَفَتْ غَلَمَاءَ بَكْرٍ بِنِ وَاثِلٍ وَأَبَ عَمِيدُ الْأَزْدِ غَيْرَ ذَمِيمٍ
وكان لعبد القيس أول جدّها وَعَجَبْنَا صُدُورَ الْخَيْلِ نَحْوَ تَمِيمٍ

وقد تبدو هذه الصورة أشبه بالفخر في شعر الحماسة القبلي منها بصور البطولة في شعر الخوارج ، ففيها يفخر بالشجاعة وشدة النكاية في الأعداء ، وهما معنيان يكثر دورانهما في شعر الحماسة بعامة ، ونحن نعلم خصوصية صور البطولة في شعر الخوارج ، من حيث ارتباطها بالحماسة الدينية ، ولم تشذ صورة قطرى عن هذه الخصوصية ، إذ يقول بعد هذه الأبيات :

(١) موضع من أرض الأهواز ، وفي موقعة دولاب قتل نافع بن الأزرق وجماعة من أصحابه ، وأبلى الخوارج بلاء حسناً ، فأوقعوا بأهل البصرة ، ومن معهم من جند الأمويين وقوادهم . راجع تفصيل أخبارها في تاريخ الطبرى ٧ / ٨٥ والكمال لابن الأثير ٤ / ١٩٤ (بيروت) .

(٢) الكامل للمعبر ١ / ٢٧٠ (الأزهرية) . وشعر الخوارج ٤٤ وشرح نهج البلاغة ١ / ٤٥٥ والطبرى ٧ / ٨٦ . غلماء : يهد على الماء ، يعنى طفت على الماء جثث بكر بن واثل . الجد : الحظ والنصيب . عميد الأزد : سيدهم وزعيمهم وهو المهلب بن أفى صفرة .

(٣) هى التى أوردنا لها رجلاً منذ قليل ، وتناظرها في الحماسة والبطولة امرأة خارجية أخرى تسمى البجاء ، كانت تخطب خطباً نارية ضد عبيد الله بن زياد ، فأخذنا وقتلها في سوق البصرة (انظر : الخوارج والشيعة ٦٦) وكان مقتلها سبباً في خروج أبى بلال مرداس بن أدية في الأربعين خارجياً ، كما مر . وسيأتى الحديث عن أخرى فارسة مقاتلة قائدة تسمى غزالة الخارجية .

فلو شهدنا يوم ذاك وخيلنا تُبِيح من الكُفَّار كُلِّ حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم بجنات عدن عنده ونعيم

بمثل هذه الغايات الدينية السامية امتازت بطولة الخوارج في قتالهم ضد مخالفينهم ، فكانت معاركهم نوعاً من الجهاد المقدس — في نظرهم — يخلصونه لوجه الله والدين ، وينزهونه عن مطامع الدنيا ، فما نظر يوماً خارجي إلى غنيمة أو سلب ، أو كسب من وراء هذه الحروب ، اللهم إلا كسب الآخرة ، المدخر لهم عند الله .

وإذا كان الأمر كذلك فمن الطبيعي أن يلوم يزيد بن حبناء ^(١) زوجه ، التي أرسلت إليه — وهو يقاتل بجهة سابور — تطلب هدايا وأطافا ، ويذكرها بأنها زوجة خارجي ، والخارجي لا يخرج إلى القتال طلباً للمغانم ^(٢) :

دَعِ اللُّومَ إِن العِيشَ لَيْسَ بِدَائِمٍ وَلَا تَعْجَلِي بِاللَّوْمِ يَا أُمَّ عَاصِمٍ
فَإِنْ عَجَلْتُ مِنْكَ الْمَلَامَةُ فَاسْمَعِي مَقَالَةً مَعْنِي بِحَقِّكَ عَالِمٍ
وَلَا تَعْذُلِينَا فِي الْهَدْيَةِ إِنَّمَا تَكُونُ الْهَدَايَا مِنْ فَضُولِ الْمَغَانِمِ
فَلَيْسَ بِمُهَيِّدٍ مِنْ يَكُونُ نَهَارُهُ جَلَادٌ وَيَمْسِي لَيْلُهُ غَيْرُ نَائِمٍ
يُرِيدُ ثَوَابَ اللَّهِ يَوْمًا بِطَعْنَةٍ غَمُوسٍ كَشِدْقِ الْعَنْبَرِيِّ بْنِ سَالِمٍ
أَبَيْتُ وَسِرِّي إِلَى دِلَاصٍ حَصِينَةٍ وَمَغْفَرَهَا وَالسَّيْفِ فَوْقَ الْحِيَازِمِ

فيزيد ينكر على زوجه أن تتطلع إلى هدية منه ، أو مغنم دنيوى ، من وراء حرب الخوارج التي يخوضها ، ويلومها على هذه النظرة ، التي لاتليق بخارجية زوج خارجي ، ويفهمها أنه لم يرغب عنه مالها عليه من حقوق الرعاية والإنفاق ، ولكنه رجل وهب نفسه لله ، وجعل همه الدفاع عن عقيدته ؛ ومن ثَمَّ فهو لا يأبه بمغانم الحروب ، ولا يحرص عليها ، وكيف ينظر إلى هذا العَرَضِ مَنْ كَانَ مثله يقضى نهاره مجاهداً في سبيل الحق ، وليله في تبذل وعبادة ، دائم الضراعة إلى الله أن يرزقه الشهادة ؟!

والآيات كما نرى ، تعكس صورة للخارجي المحارب الشجاع ، المؤمن بعقيدته ،

(١) حبناء أمه ، وكان له أخوان هواهما مع بنى أمية هما صخر والمغيرة ، وي زيد شاعر فارس من الأزارقة . انظر مصادر شعره الآتى .

(٢) الكامل للمبرد ٢٤٨/ ١ وشعر الخوارج ٣٦ والمؤتلف ١٦ . طعنة غموس : واسعة محيطلة . العنبري : خارجي من الأزارقة يقال له : الأشندق . الدلاص : شدة . الدرع : اللينة البراقة . الحيازيم : جمع حيزوم وهو الصدر .

المجاهد في سبيلها ، فهو على استعداد دائم للقتال دونها ، لا يضع سلاحه ساعة من ليل أو نهار ، لا يتغنى من وراء ذلك مغنما ، ولا عرضا من أعراض الدنيا .

وإلى هذا المعنى ، نعى اقتحام المعارك ، دفاعا عن العقيدة ، لأطلبا لمغنم دنيوى يشير قطرى بن الفجاءة أيضا ، في قوله ^(١) :

وَرُبَّ مَصَالِيَةٍ نَشَاطٍ إِلَى الْوَعَى سَرَّاجٌ إِلَى الدَّاعَى كَرَامَ الْمَقَادِمِ
أَخْضَتْهُمْ بَحْرُ الْحَمَامِ وَخُضَّتْهُ رَجَاءُ الثَّوَابِ لِارْجَاءِ الْغَنَائِمِ

وهكذا تعكس هذه الأشعار شخصية الخوارج الدينية ، الثابتة على إيمانها ، الواثقة بحسن المثوبة عند ربها ، المتعصبة لعقيدتها ، المندفعة في سبيل نصره هذه العقيدة ، اندفاعا حماسيا ، يصل إلى حد الفداية .

ومن هنا تخطف الموت أرواح الخوارج من كل جانب ، وهم لا يزالون ، وإنما يرون في ذلك فضيلة انفردوا بها ، ووفاء بعهد قطعه على أنفسهم حين باعوها ، ثمنا لرضوان الله ، وطمعا في جناته ؛ ولذا يقول شاعرهم عبدة بن هلال اليشكري ^(٢) في رجل منهم سقط صريعا ، في إحدى معاركهم ^(٣) :

وَمُسَوِّمٌ لِلْمَوْتِ يَرْكَبُ دَرْعَهُ بَيْنَ الْقَوَاضِي وَالْقَنَا الْخَطَارِ
يَهْوِي وَتَرْفَعُهُ الرَّمَا حُ كَأَنَّهُ شِلْوٌ تَنْشَبُ فِي مَخَالِبِ ضَارِي
فَتَوَى صَرِيعاً وَالرَّمَا حُ تَنَوَّشُهُ إِنَّ الشَّرَاةَ قَصِيرَةَ الْأَعْمَارِ

وفي قوله : « إن الشرارة قصيرة الأعمار » أبلغ تلخيص لما وصفنا من شجاعتهم ، وفدائيتهم .

(١) التذكرة السعدية ٢١٧ .

(٢) أبو مالك عبدة بن هلال اليشكري ، من بكر بن وائل ، شاعر فارس ، كان مع قطرى بن الفجاءة في حروب الخوارج الأزرقية ، وولى أمرهم بعد قطرى ، قتل بناحية قومس سنة ٧٨ هـ ، انظر : الطبرى ٧ / ٢٧٥ . والاشتقاق ٣٤٣ . والمؤتلف ١٥٤ وكنى الشعراء ٢٩١ . والخوارج والشيعة ٦٧ — ٦٩ .

(٣) شعر الخوارج ٥٢ والكامل للمبرد ٢ / ٢٤٩ (الاستقامة) . يركب درعه : مجاز عن سقوطه مضرجا بدمه فوق درعه . القنا الخطار : الرماح الطويلة . الشلو هنا : العضو من أعضاء الجسم إذا بتر . تنوشه : تأخذه من كل جانب .

ب : نظرة الخوارج إلى مخالفهم (هجاء الخصوم) :

كانت الصبغة الدينية هي الطابع الغالب على المعاني التي هجأها كل من الشيعة والأمويين خصوصاً حزبهم ، تبين لنا هذا من خلال دراستنا لنصوص شعرهم الموجه إلى أعدائهم .

وسنرى هذا الطابع الديني واضحاً غالباً في شعر الهجاء عند كل من الخوارج والزبيريين أيضاً ، لأسباب سبق أن أشرنا إليها مراراً^(١) ، غير أن هذه المعاني الدينية كانت تستند في شعر الشيعة والخوارج إلى عقيدة راسخة ، أي أنهم كانوا يدينون عن يقين واعتقاد برأيهم في خصومهم ، بينما هي عند الأمويين والزبيريين ، وليدة الرأي والهوى والادعاء .

كان الخوارج يعتقدون أنهم وحدهم حماة الدين ، يقاتلون من أجل الحفاظ عليه سليماً نقياً من الانحراف ، ومن البدع والأهواء ، ومن ثمَّ ذهبوا إلى اعتقاد وجوب قتال من يخالفونهم ، فقتلهم فرضٌ عليهم ؛ لمخالفتهم أوامر الدين ونواهيه .

ومن الطبيعي أن يقف شعرهم إلى جانب عقيدتهم في أعداء طائفتهم ، وأن يرددها فيما يرمونهم به من سهام هجائهم ، فهم الكفرة الملحدون ، المنحرفون عن جادة الحق ، الباغون المفسدون في الأرض ، المفسئون للضلال ... إلى غير ذلك ، مما يجردهم من كل سمة للإسلام ، توصلنا إلى الغاية المأمولة من الهجاء السياسي ، التي تعنى تشويه صورة الأعداء ، وتنفير القلوب منهم ، وصرفها عنهم ، وإيغارها عليهم .

وكما اهتم الهجاء عند الشيعة والأمويين بالجانب الأخلاقي والاجتماعي ، راعى الهجاءون الخوارج هذا الجانب أيضاً ، فاهتموا بسلب الفضائل الأخلاقية والاجتماعية — التي كان كل عرني يعتز بها — عن خصومهم ، فهم يجبنون عن الحرب ، ويفرون عند اللقاء ، غادرون متجبرون ، ظلمة أي أنهم يجردونهم من كل فضيلة في دين أو خلق .

(١) راجع مثلاً : ص ١٤٧ ، ١٦٣ ، من هذه الدراسة .

يقول فروة بن نوفل الخارجي ^(١) :

نُقاتل من يُقاتلنا ونرضى بحكم الله لا حُكم الرُّجال
وفارقنا أبا حسن علياً فما من رجعة أخرى الليالي
فحكم في كتاب الله عمراً وذاك الأشعري أخا الضلال

فهو يتهم بعلي بن أبي طالب ، الذى أعرض عن حكم كتاب الله ، ورضى حكم الناس ، ويذكر أنه فارقه من غير رجعة لضلال أصحابه .

أما ابن أبي مياس المرادى ، فيرمى علياً صراحة بالطغيان والتجبر ، ويفخر أن قومه قتلوه ، وثلوا عرش ملكه لذلك ، والمعروف أن قاتل علي من بني مراد ^(٢) :
ونحن ضربنا يالك الخير حيدرا أبا حسن مأمومة فتفطرا
ونحن خللنا ملكه من نظامه بضربة سيف إذ علا وتجبرا

على أننا لم نجد شعرا ذا بال للخوارج في هجاء الشيعة وأئمتهم ، وربما كان ذلك لقلة اضطدامهم بالشيعة حربيا ، ولانشغالهم بالخروج على السلطان القائم ، مما جعل الغالبية العظمى من وقائعهم تدور مع الأمويين ، ثم إن الشيعة أنفسهم كانوا منصرفين — غالبا — إلى من اغتصبوا حق أئمتهم في ولاية الأمر ، ولأن الأمويين كانوا يصبون نير اضطهادهم ، وجام غضبهم على الشيعة والخوارج معا .

فلا غرابة أن يرتبط شعر الخوارج في هجاء أعدائهم ، بقدر ما خاضوه من حروب معهم ، قلة وكثرة .

نخلص من هذا إلى أن أكثر ما بين أيدينا من شعر الخوارج في مناهضة خصومهم موجه إلى الأمويين أعدائهم الألداء .

على أية حال ، فإن جماع رأى الخوارج فيمن عداهم ، هو رفض عدهم من أهل

(١) شعر الخوارج ٦ وفروة بن نوفل من بنى أشجع ، ومن قدامى الخوارج ، وهو ممن اعتزل موقعة النهروان ، وحارب أهل الكوفة أيام معاوية ثم انقطعت أخباره ، انظر الخوارج والشيعة ٤٣ ومصادره .

(٢) شعر الخوارج ٧ . وشرح نهج البلاغة ٢ / ٤٤ . ولم أعثر على خير لهذا الشاعر . حيدر : لقب لعلي بن أبي طالب .

الملة ، ويعبر عن هذه القاعدة شعر لإحدى نسائهم ، كانت قد أقامت فترة طويلة في عسكر الضحاك ، ثم تركته ^(١) :

مُرُوا بنا نرجع إلى ديننا فكل دين غيره باطل
يستوى في نظرها ، ونظر طائفتها دين الأمويين والشيعة والزييريين ، فالكل باطل ،
ودينها هو الحق .

ويؤكد هذه النظرة قول أحد فرسانهم ^(٢) :

أضربُ قوماً حبطت أعمالهم الله مولانا ولا مولى لهم
فإن الله مولى الخوارج وحدهم ، لأنهم أهل طاعته ودينه ، المؤمنون به ، وهو لا يتولى
بنصره إلا المؤمنين .

أما بنو أمية فقد حدد الخوارج نصال الشعر ، وقد فوهم بها ، كما أرهفوا سيوفهم
في قتالهم : شعارهم قول أبو الوازع الراسبي ^(٣) :

فجاهد أناساً حاربوا الله واصطبر عسى الله أن يخزي غوي بني حرب
فما دام بنو حرب (الأمويون) يحاربون دين الله ، فالخوارج حرب عليهم ، حتى
يخزيهم الله ، ويكشف ضلالهم للناس ، فينصرفوا عنهم ، ويناهضوهم .

وإذ كان بنو أمية في اعتقاد الخوارج ضالين ، كفارا ، فديارهم ديار حرب ،
وقتلهم واجب ، ودمائهم مباحة مهدرة .

يصدر هذه الفتوى قائد الخوارج الأزارقة وشاعرهم وفقههم قطري بن الفجاءة ،
من خلال وصفه لموقعة دولا ب على نهر دجيل .

فقد اشتبك نافع بن الأزرق ^(٤) وأتباعه بأهل البصرة ، تظاهروهم جيوش الأمويين

(١) شعر الخوارج ١١٢ وبلاغات النساء ١٩١

(٢) شعر الخوارج ١١٦ .

(٣) شرح نهج البلاغة ١ / ٤٥٤ وشعر الخوارج ٣٣ ولانعرف عن أبي الوازع الراسبي ، إلا أنه كان شاعرا
من مجتهدى الخوارج ، كثير التلوم لعموده ، كثير التحضيض لأصحابه على الخروج .

(٤) أبو راشد نافع بن الأزرق ، من بني حنيفة ، نسب أصحابه إليه ، فسموا بالأزارقة ، وكان مقدما في فقه
الخوارج ، فارسا شجاعا ، قتل في موقعة دولا ب هذه (سنة ٦٥ هـ) وأخباره كثرة ، انظرها في : الملل والنحل ١ / ١٦٢
والكامل للميرد ٢ / ١١٩ والطبري ٧ / ٨٥ ومروج الذهب ٢ / ١١٥ (البيبة).

في هذه الموقعة ، وكان الخوارج في ألف رجل ، والبصريون في عشرة آلاف ، ومع ذلك أحرز نافع وأصحابه نصرا باهرا ، وهربت جموع البصريين ساجدين في نهر دجيل ، وغرق منهم أثناء ذلك كثيرون ، فقال قطري ^(١) ، مخاطبا أم حكيم السالفة الذكر ، من أبيات :
 فلم أر يوماً كان أكثر مقعصاً يُمَجُّ دماً من فائِظٍ وكليم
 وضاربة خدّاً كريماً على فتى أغرَّ نجيب الأمهات كريم
 أُصيبَ بدولابٍ ولم تك موطننا له أرضُ دولابٍ وديـر حميم
 فلو شهدتنا يومَ ذاك وخيلنا تُبيحُ من الكفار كل حريم
 رأث فتيةً باعوا الإله نفوسهم بجنات عَدْنٍ عنده ونعيم

وقد مرَّ بنا شعر لأحد الخوارج ، قاله بين يدي الحجاج ، وقد أمر بقتله ، يتقرب به إلى الله قبل أن يقتل ، ويقرر فيه أن من عدا الخوارج مطرودون من رحمة الله ، ملاعين ، « لا بارك الله في القوم الملاعين » ^(٢) .

ويضيف عيسى بن عاتك الخطي إلى مامر ، أن المخالفين جائرون ، غادرون ، باغون ، ملحدون ، في قوله ^(٣) :

أخافُ عقابَ الله إنْ متُّ راضياً بحكم عُبيدِ الله ذى الجورِ والغدرِ
 وأحذرُ أن ألقى إلهي ولم أرُع ذوى البغي والإلحاد في جَحْفَلٍ مَجْرٍ

وذهب الصحارى بن شبيب إلى خالد بن عبد الله القسري ^(٤) ، يسأله حقه في بيت المال فأبى خالد ، قائلاً : وما يصنع ابن شبيب بالفريضة ، فخرج الصحارى غاضباً وركب حتى جاوز واسطاً ، ثم عبر النهر ونزل على نفر من بنى تيم اللات بن ثعلبة من الخوارج ، فأخبرهم خبره مع خالد ، فقالوا : كنت لأن تخرج إلى ابن النصرانية

(١) الأغاني ٦ / ٥ والكامل للمبرد ١٨٣ / ١ وشعر الخوارج ٤٤ . القعص : الطعن بالرماح . الفاظ : من فاضت روحه . الكلم : الجريح .

(٢) راجع ص ١٧٠ من هذه الدراسة .

(٣) أنساب الأشراف ٤ / ٢ : ٩٥ وشعر الخوارج ١٢ . عبيد الله : هو عبيد الله بن زياد والى الأمويين على البصرة أيام يزيد بن معاوية . المجر : الكثير .

(٤) توفي في المحرم ١٢٦ هـ . وكان جواداً ممدحاً خطيباً مفوهاً ، ولّى العراق هشام بن عبد الملك سنة ١٢٦ هـ . انظر : المعبر للذهبي ١ / ١٦٢ والطبري ٨ / ١٨٧

فتضربه بسيفك أخرى ، فقال : إني والله ما أردت الفريضة ، وما أردت إلا التوصل إليه لئلا ينكرني (أى ليأنس إليه إن دخل عليه بعد ذلك) ثم أقتل ابن النصرانية غيلة ، ثم صاغ رأيه هذا شعراً فقال (١):

لم أرد منه الفريضة إلا طمعاً في قتله أن أنالا
فأريح الأرض منه وممن عاث فيها وعن الحق مالا

وواضح أنه يعبر عن رأى الخوارج ، القائل بوجوب قتل المخالف ، وعلى كل خارجي أن يسعى لأدائه ، بكل السبل الممكنة ، ومنها الاعتتيال ، فالدم المهدر ، لحرمة له ، ولاكرامة ، وهذا ما كان يسعى إليه هذا الخارجى ؛ ليخلص الدنيا من فساد المخالف ، وميله عن الحق (عقيدة الخوارج) ، وتجيده ، وإفشائه الضلال .

ولأن الخوارج يعتقدون كفر المخالفين ، وإلحادهم ، فقد كثرت تهافهم على قتالهم ، وكل منهم يأمل أن يصاب على أيديهم بما يرزقه الشهادة ؛ ليفوز بما أعدده الله للشهداء من كريم المنزلة .

وهذا ما يفسر قول أم عمران بن الحارث الراسبي ترى ولدها ، الذى قتل يوم دولاب (٢) :

الله أيّد عمراناً وطهره وكان عمران يدعو الله في السحر
يدعوه سراً وإعلاناً ليرزقه شهادةً بيدي ملحادة غدّر

وإذا عرفنا أن الملحادة ، هو المغالى في كفره وإلحاده ، أدركنا رأى الخوارج في مخالفهم ، وحكمهم عليهم .

إلى جانب هذه المعاني الدينية ، التى أكثر منها شعراء الخوارج في هجاء خصومهم ، حرص بعض شعرائهم على الهجاء بمعان أخلاقية ، تدمغ الخصوم بالخزى والعار ، في مجتمع عربى ، كان أفراده يحرصون على التمدح بخصال الشرف ، وقيم المجد ، والمروءة .

ولنضرب مثلاً لهذا الضرب من هجاء الخوارج بقول عمران بن حطان ، لما تحصّن

(١) الطبرى ٨ / ٢٤٦ وشعر الخوارج ٧٢

(٢) الأغاني ٦ / ٤ وشعر الخوارج ٤٠

الحجاج بن يوسف بالكوفة ، وأُغلق عليه قصره ، حين هاجمتها غزاة الخارجية ^(١) — وكان الحجاج يطلب عمران ويشدد في طلبه ^(٢) :

أَسَدٌ عَلِيٌّ وَفِي الْحُرُوبِ نَعَامَةٌ رُبْدَاءُ تَجْفُلُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ
هَلَّا بَرَزْتَ إِلَى غَزَاةٍ فِي الْوَعَى بَلْ كَانَ قَلْبُكَ فِي جَنَاحَيْ طَائِرِ
صَدَعَتْ غَزَاةٌ قَلْبَهُ بِفَوَارِسِ تَرَكْتُ مَنَابِرَهُ كَأَمْسِ الدَّابِرِ
أَلْقَى السَّلَاحَ وَخَذَّ وَشَاحِي مُعْصِرِ وَاعْمِدْ لِمَنْزِلَةِ الْجَبَانِ الْكَافِرِ

فالجبن ، وضعف الهمة ، وسقوط المروءة ، والعجز عن مقاومة الأبطال ، واضطهاد العزّل المسنين الضعفاء ، هي المثالب التي اقتصر عليها عمران بن حطان ، في هجاء هذه الشخصية الأموية الهامة ، الحجاج بن يوسف الثقفي .

من هذا العرض لشعر الخوارج المؤيد لطائفهم ، بالتصدي لأعدائهم ، نستطيع أن نلاحظ أن طابع الحماسة الذي يميز شخصية الخوارج هو الظاهرة البارزة في هذا الشعر ، وأن حماسة شعر الخوارج لم تنزلق بهم إلى اصطناع أسلوب المبالغة والتحويل في الأداء ؛ لاستناد حماسهم إلى عقيدة راسخة ، هي المثير الأساسي لكل المعاني التي طرّقوها ، كما أنها جعلتهم يربطون بين هذه المعاني ، وبين أملههم الأكبر ، في الفوز بثواب الله ، محتسبين كل مايقولون عند الله ، قاصدين به نصرته دينه وإعرازه .

ج : تمجيد شهداء الخوارج (الرثاء) :

كان الخوارج يؤمنون بالخروج ، والجهاد في سبيل عقيدتهم ، وكانت الحرب هي وسيلتهم في الخروج والجهاد ؛ ولذا كثرت وقائعهم مع من يخالفهم في عقيدتهم ، وبخاصة الأمويين ، كما ذكرنا من قبل .

حقاً إنهم كانوا يناصبون العداء كل مَنْ يخالفهم في العقيدة ، فالناس في اعتقادهم

(١) فارسة خارجية ، كانت زوجة لشبيب الخارجي السالف الذكر ، وكان يضرب بشجاعته المثل ، قتلت في معركة بقيادة زوجها بينه وبين الحجاج سنة ٧٧ هـ . انظر : المعبر للذهبي ٨٧/١ والطبرى ٢٢٢/٧ ومابعدها ، وفيها يقول أحد شعراء الخوارج :

غزاة ذات النذر منا حميدة لها في سهام المسلمين نصيب

(شعر الخوارج ٦٤)

(٢) الأغاني ١٥٠/١٦ والكمال للمبرد ٣٨/٢ والعقيد الفريد ٢٥١/٣ . وانظر : مروج الذهب ١٥٣/٢ . فقد ورد البيتان الأولان في ضمن خبر طريف بين الحجاج وأم البنين زوج الوليد عبد الملك . ريداء : سوداء في حمرة . المعصر : الفتاة الشابة .

إما مؤمن مجاهد ، أو قاعد ، وهم الخوارج بفرقهم المختلفة ، وإما كافر ، وهم من عداهم ، وهؤلاء يطلقون عليهم المخالفين ، لافرق بين شيعة أو أموية ، أو زيرية .

غير أن صراعهم الحرقى إنما كثر مع الأمويين ، الذين طاردوهم ، ورموهم بالجيوش طوال أيام حكمهم .

وكان طبيعياً ، وهم المحاربون الفدائيون ، أن يكثر القتلى في صفوفهم ، بخاصة أنهم كانوا حريصين على مايمكن أن نسميه تقصير المسافة بينهم وبين لقاء الله بالموت ، وهذا ما يظهر في كثير من أشعارهم ، التي تعبر عن استقالة الحياة ، ومحاولة التخلص منها ، استعجالاً للقاء الله من ناحية ، وللحاق بإخوانهم وأصحابهم ، الذين سبقوهم إلى شرف الفوز بالشهادة من ناحية أخرى .

ومن المعلوم أن الخوارج كانوا هدفًا دائماً للاضطهاد والتشريد على يد بني أمية ، مبغضين إلى جمهور غفير من معاصريهم ، فكان وضعهم سيئاً في أغلب أحوالهم ، وفي حدة الثورة على الوضع السيئ يكمن الأمل في التخلص من هذه الحياة عند الخوارج ، أى أن الموت عندهم هو (الغاية المنشودة) ؛ ولذلك كان الشاعر الخارجي في صراع كبير مع الزمن ، وسبيله إلى الانتصار عليه هو الموت ، فإذا قارنا بين صراع الخوارج مع الزمن ، وصراع أتقياء أهل السنة له ، نجد أن الآخرين يؤمنون بأن الصبر هو طريق النصر ، وإذا قارناه بصراع المتصوفة ، نجد أن هؤلاء يؤمنون بأن تقصير المسافة إنما يتم قبل الموت ، بالاتحاد والفناء ، أما الخوارج فيرون أن تقصير المسافة انتصار متوج بالموت ^(١) .

بسبب تهافت الخوارج على الموت ، تفشى فيهم القتل ، وقصرت أعمارهم ، كما قال شاعرهم : « إن الشراة قصيرة الأعمار » ، وسببه أيضاً تفشت في أشعارهم تلك النغمة ، التي تتحدث عن تبرمهم بالحياة ، وعن شعورهم بأيامها وكأنها عناء مطول ملؤه السأم والملالة ، على حدقول أبى بلال مرداس بن أدية : ^(٢)

إلهى هب لي زلفاً ووسيلةً إليك فإنى قد سئمت من الهر

وما الزلفى والوسيلة التى يتمناها أبو بلال إلا ما عبر عنه كعب بن عميرة ^(٣) الخارجى في

(١) رجعنا في هذه الفكرة إلى مقدمة شعر الخوارج ص ٧ .

(٢) شعر الخوارج ١١ .

(٣) أحد قدماء الخوارج ، أراد أن يشهد النهروان فحبسه أخوه . انظر معجم الشعراء ٣٤٥ .

قوله (١) :

ويارب هب لي ضربةً مُمهِّدٌ حسامٌ إذا لاقى الضريبة يَهْبُرُ

والحويرث الراسبي يمل الحياة كما ملها أبو بلال ، ويدخل في صراع مع نفسه ، يحاورها ،
ويزجرها عن التعلق بالحياة ، التي لاخير فيها ، ويحزم أمره على طلب الموت ، باقتحام مظانه (٢) :

أقولُ لنفسي في الخلاء ألوّمها هُبَلْتُ دعيني قد مللتُ من العمر
ومن عيشةٍ لاخير فيها دنيئةٌ مُدَمِّمَةٌ عند الكرام ذوى الصبر
سأركب حَوْبَاءَ الأمور لعلنى ألقى الذى لاقى المحرق فى القصر

إنها موجة من السخط على الحياة ، والتبرم من البقاء فيها ، وموقف معكوس عند
المؤمنين بالحياة ، الراغبين فيها .

وهذا الهيام بالموت ترك في أشعار الخوارج أيضاً ، لونا حزينا ، ونغما حزينا ، ولكنه
ليس حزن اليائسين المتخاذلين الضعفاء ، بل حزن الأقوياء « لأن هذا الموت نفسه كان
عند أصحاب ذلك الشعر نوعا من الأمل ؛ إذ لم يعد الموت — في نظرهم — إلا دخول
الجنة ، أو لقاء الإخوان والأحباب (٣) » .

بهذه النظرة إلى الموت ، اندفع الخوارج في حروبهم ، يتهافون على الموت تهافت
الفراش على النار ، وفازوا من ذلك ماأملوا ، حيث حصدت الحروب أرواحهم حصداً .
ووقف الشعر يسجل مهرجان الشهادة ، الذى أقامة الخوارج ، باندفاعهم
وفدائيتهم ، في مرث قوية ، حافلة بمعانى القدوة والمثل ، تخلد الأبطال ، وتمجد فعاهم ،
وتبشرهم بمنازل الشهداء عند ربهم .

ومن الجدير بالذكر أن رثاء الخوارج شهداءهم ، يختلف عن رثاء القتلى في شعر
الأحزاب الأخرى ؛ إذ يقل فيه الأئين والشكوى والعويل ، ويعمر بطلب المثوبة ، وتحقير أمر
الدنيا ، وإعظام أمر المجاهدين ، المستشهدين ، وتمنى اللحاق بالشهداء .
فلننظر في قول أم عمران بن الحارث الراسبي ، ترثيه (٤) :

(١) شعر الخوارج ٥ ومعجم الشعراء ٣٤٥ . الضريبة : اللحم .

(٢) شعر الخوارج ٦٠ .

(٣) شعر الخوارج (المقدمة ص ٣) .

(٤) الأعنقى ٦ / ٤ وشعر الخوارج ٤٠ . الهصر : الأسد القتال .

اللهُ أَيْدِ عِمْرَانَا وَطَهَّرَهُ وَكَانَ عِمْرَانُ يَدْعُو اللَّهَ فِي السَّحَرِ
يَدْعُوهُ سِرًّا وَإِعْلَانًا لِرِزْقَةٍ شَهَادَةً بِيَدَيْهِ مِلْحَادَةً غُدْرَ
وَلِيَّ صَحَابَتِهِ عَنْ حُرٍّ مِلْحَمَةٍ وَشَدَّ عِمْرَانُ كَالضَّرْغَامَةِ الْهَصِيرِ

ويقول أبو بلال مرداس بن أدية في شهداء موقعة النهروان ^(١) من الخوارج ^(٢) :

أُبْعِدْ ابْنَ وَهَبٍ ذِي النِّزَاهَةِ وَالثَّقَفِي وَمَنْ خَاضَ فِي تِلْكَ الْحُرُوبِ الْمَهَالِكَا
أَحَبُّ بَقَاءً أَوْ أَرْجَى سَلَامَةً وَقَدْ قَتَلُوا زَيْدَ بْنَ حَصِينٍ وَمَالِكَا
فِيَارِبُ سَلَمٌ نَيْتِي وَبَصِيرَتِي وَهَبٌ لِي الثَّقَفِي حَتَّى أَلَاقَى أَوْلَكَكَ

نعم ، الشاعر حزين على فقد هؤلاء الأعلام من شهداء الخوارج يوم النهروان ، ولكن حزنه أخذ طابعا يبعد عن الجزع والتوجع والخور ، بحيث يدفعه إلى تمنى اللحاق بهم ، وانتزاع حب البقاء والسلامة من نفسه ، فهو حزن الأقوياء الشجعان ، الذين يلحظون مافي هؤلاء من القدوة ، والتأسي بتقواهم ، وشجاعتهم ، وبطولتهم ، فيتمنون لقاءهم ، على ماكانوا عليه من صدق البصيرة ، وكال التقوى .

وعلى أثر المعركة التي دارت بين الخوارج بقيادة بسطام اليشكري الملقب بشوذب ^(٣) والأمويين (سنة ١٠١ هـ) بالعراق ، رأى أبو ثعلبة أيوب بن خُوَلَّى قتل الخوارج ، وخص منهم هذبة اليشكري ابن عم بسطام ، وأبا شيبيل مقاتل بن شيبان ، فقال ^(٤) :

فِيَاهِدْ لِلْهَيْجَا وَيَاهِدْ لِلْنَدَى وَيَاهِدْ لِلْخَصْمِ الْأَلْدُ يُحَارِبُهُ
وَيَاهِدْ كَمْ مِنْ مُلْحَمٍ قَدْ أَجَبْتَهُ وَقَدْ أَسْلَمْتَهُ لِلرَّمَاكِ جَوَالِبُهُ
وَكَانَ أَبُو شَيْبَانَ خَيْرَ مُقَاتِلٍ يُرْجَى وَيَخْشَى بِأَسَهِ مِنْ يُحَارِبُهُ
فَفَازَ وَلَاقَى اللَّهَ بِالْخَيْرِ كُلِّهِ وَخَدَّمَهُ بِالسَّيْفِ فِي اللَّهِ ضَارِبُهُ

(١) تعد أولى معارك الخوارج مع خصومهم ، وكانت بينهم وبين علي وأنصاره في صفر ٣٧ هـ قتل فيها أكثر من كان مع عبد الله بن وهب الراسبي . انظر : مروج الذهب ٢ / ٣٧ (البية) .

(٢) شرح نهج البلاغة ١ / ٤٤٨ وشعر الخوارج ١٠

(٣) خرج أيام عمر بن عبد العزيز سنة ١٠٠ هـ في ثمانين فارساً أكثرهم من ربيعة ، وقتل سنة ١٠١ هـ في لقاء آخر مع جند مسلمة بن عبد الملك . انظر : الطبري ٨ / ١٤٢

(٤) الطبري ٨ / ١٤٣ وشعر الخوارج ٧١ . الملحم : الذي أسر وظفر به أعداؤه . جذمه : قطعه . الجوال : الخيل المجلوبة للقتال .

فهو يعلى فيمن رثاهما الغناء في الحرب ، ومقارعة الأعداء واقتحام الأهوال ، ونجدة الأسير ، ويغبطهما على الفوز بالشهادة ، ولقاء الله ، وبين أيديهما كل ما قدماه في سبيل الله .

ولما سقط أبو بلال مرداس بن أدية (سنة ٦١ هـ) قتيلًا ، رثاه عمران بن حطان ، فقال (١) :

لقد زادَ الحياةَ إلَيَّ بُغْضاً وحباً للخروج أبو بلال
أحاذرُ أن أموت على فراشي وأرجو الموت تحت ذرى العوالى
ولو أنى علمت بأن حتفى كحتف أى بلال لم أبال
فمن يك همُّه الدنيا فإني لها والله رب البيت قال

إن هذا الرثاء يعد نموذجاً لحزن الأقوياء ، غير المتخاذلين ؛ إذ يرى عمران في هذا الخارجى ، الذى قتل دفاعاً عن عقيدته ، قدوة ومثلاً ، فيتطلع إلى الفوز بما فاز به من شهادة ، تحبب إليه الخروج ، جهاداً في سبيل الله والعقيدة ، وتبغض إليه الحياة ، وتدفعه إلى أن يُلقى بنفسه في غمار المعارك ؛ ليدرك صاحبه ، ويحظى بالشهادة مثله ، وهذا ما جعله يجار بالضراعة إلى الله ، أن يلحقه بصاحبه (٢) :

يا عين بكى لمرداس ومصرعه ياربُّ مرداس الحَقْنى بمرداس
والتبشير بالجنة معنى بارز ، إلى جانب معنى القدوة ، وتمنى اللحاق ، في رثاء الخوارج شهداءهم ، من ذلك قول شاعرهم ، يرى من يدعى جَوَّازاً الضبى الخارجى (٣) :

لإبارك الله فى قوم أجاز لهم حكامهم أن أصابوا الحرَّ جَوَّازا
إن يقتلوه فما فازوا بمقتله وقد أصاب الذى رَجَّى وقد فازا
وقد مر بنا قول أيوب بن خولى في رثاء مقاتل الشيبانى :

فهاز ولاقى الله بالخير كله

(١) الكامل للمبرد ١ / ١٠٨ وخزانة الأدب ٢ / ٤٣٩ وشعر الخوارج ١٦

(٢) أمالي المرتضى ١ / ٣٣٦ ، والكامل للمبرد ١ / ١٠٨ وانظر : الفرق بين الفرق ٧٢ .

(٣) شعر الخوارج ١١١

لقد غدا شهداء الخوارج الذين سقطوا في موقعة النهروان كابن وهب وأصحابه ، أو من قتل منهم في غيرها من حروبهم الكثيرة ، غدوا رمزا لمعانى التضحية والشهادة في سبيل الحق ، ومنبعا لكثير من شعر الرثاء ، الذى تبرز فيه عواطف الحزن والثورة والرغبة في الشهادة ، ليلحقوا بمن سبقوهم إلى دار النعيم .

وفي هذا يقترب شعر الخوارج في الرثاء من شعر الشيعة فيه ، فالشيعة أيضا اتخذوا من مقتل أئمتهم ، وبخاصة الحسن بن على ، شهيد كربلاء ، رمزا للتضحية في سبيل الحق ، وباعثا على شعر كثير ، فيه الثورة ، وفيه الحزن ، وفيه الندم ... وإن ظل رثاء الخوارج يحتفظ بوجهه الإيجابي البريء — غالبا — من التسليم والتخاذل ، وانهيار النفس أمام مصيبة الموت ، العامر بمعانى القدوة ، والاستمرار في الحرب والرفض والمقاومة ، وبذا كان رثاء الشجعان الأقوياء ، لا الضعفاء المتخاذلين المنهارين .

نعم ، قد يربط الشاعر الخارجي رثاءه بالدموع ، وقد تغزر هذه الدموع ، ولكن سرعان ما يفيق الشاعر ، فيكفكف دمعته ، ويعود إلى الطابع العام في رثاء شهدائهم ، الذى يمجّد البطولة ، ويرى في البطل الشهيد قدوة ومثلا .

فقد بكى عمران بن حطان أبا بلال مرداس بن أديّة ، واستدرف دمع عينه على مصرعه ، في شطر بيت ، ثم عاد إلى التماسك في الشطر الثانى ، داعيا الله أن يرزقه الشهادة التى رزقها أبا بلال :

يا عين بكى لمرداس ومصرعه يارب مرداس الحقنى بمرداس

وقد يسترسل الشاعر الخارجي في حزنه ودموعه أكثر ، ولكنه دائما ينحرف عن هذا المظهر من مظاهر الضعف ، إلى طابع رثاء الخوارج الذى ذكرنا .

ونذكر في هذا المقام مارتى به حسان بن جعدة الخارجي^(١) ، بسطاما يشكرى

(١) لانعرف له إلا شعره الآتى وماحوله من خبر المعركة التى قتل فيها أصحابه الذين يرثيهم به . انظر : الطبرى

وصحبه الذين قتلهم مسلمة بن عبد الملك ^(١) (سنة ١٠١ هـ) ^(٢) .

يا عين أذرى دموعاً منك تَسْجَماً وابكى صحابة بَسْطَاطٍ وبسطاماً
فلن ترى أبداً ماعشتِ مثلهم أنقى وأكمل فى الأحلام أحلاماً
بسيئهم قد تأسوا عند شدتهم ولم يريدوا عن الأعداء إحجاماً
حتى مضوا للذى كانوا له خرجوا فأورثونا مناراتٍ وأعلاماً
إني لأعلم أن قد أنزلوا غُرفاً من الجنان ونالوا ثمَّ خُداماً

وقول الضحاك بن قيس الخارجي ^(٣) :

يا عين أذرى دموعاً منك تَهْتَانَا وابكى لنا صحبةً بانوا وإخوانا
خلوا لنا ظاهر الدنيا وباطنها وأصبحوا فى جنان الخلد جيراناً

وقول الأصم الضبى ^(٤) يرى إخوانه الذين قتلوا عند الجوسق : ^(٥) :

قوماً إذا ذُكِّروا بالله أو ذُكِّروا خرواً من الخوف للأذقان والركب
ساروا إلى الله حتى أنزلوا غُرفاً من الأرائك فى بيتٍ من الذهب

ففى هذا الرثاء حزن ولوعة ، ودموع غزيرة حقاً ، ولكن فيه إلى جانب الحزن والعبرات طابع الحوارج فى رثائهم ، الذى يمكن أن نسميه رثاءً مذهيباً ، فيه تمجيد للبطولة والأبطال ، وعظمة القدوة ، والحرص على طلب الشهادة ، والبشارة بحسن العقبى ، والثقة التامة بالجنة ونعيمها — (إني لأعلم) و (أصبحوا فى جنان) و(أنزلوا غُرفاً) — جزاء ومستقراً ومقاماً .

(١) راجع ص ١٩٣ هامش رقم ٣ من هذا البحث . ومسلمة بن عبد الملك الأمير الأموى ، كان يلقب بالجرادة الصفراء ، موصوفاً بالشجاعة والإقدام والرأى والدعاء ، ولـى أرمينية وأذربيجان غير مرة ، كما تولى إمرة العراقين ، وتوفى سنة ١٢١ هـ . انظر : العبر للذهبي ١ / ١٥٤

(٢) الطبرى ٨ / ١٤٤ . وشعر الحوارج ٦٩ .

(٣) الطبرى ٨ / ٢٤٤

(٤) قيس بن عبد الله ، الملقب بالحسي ، حارب مع عبيدة بن هلال ، وكان فى المستأمنة بعد مقتل عبيدة ، وعاش إلى أن كف بصره ، انظر مصدر شعره الآتى .

(٥) معجم البلدان (رسم — جوسق) وشعر الحوارج ٥٦ . وجوسق : موضع بظاهر الكوفة .

ى : نظرات فنية فى شعر الخوارج السيامى :

اقرن شعر الخوارج بعقيدتهم ، كما جاء انعكاساً لشخصيتهم الراضة لكل الآراء والنظم السيامية القائمة حينذاك ، والمتمردة فى حماس وانفعال صادقين ، على كلتا القوتين العظميين ، اللتين كانتا تخوضان صراعاً عنيفاً حول الحكم فى الشام والعراق .

لقد اجتمع الخوارج على عقيدة واحدة ، هى أن أمور الحكم وسياسته لم تكن تسير وفق ماتقتضيه الشريعة الإسلامية ، ويدل عليه نص القرآن ، من قيام الحكم الإسلامى على التقوى ، والعدالة ، والمساواة ، وربما اختلفت فرق الخوارج وطوائفهم فيما ترى كل منها من وسائل الإصلاح ، وأساليب الرفض ، ما بين معتقد فى وجوب الخروج والقتال ، ومواجهة الحكم القائم بالقوة ، أو جواز القعود مع الاستنكار والدعوة ضد هذا الحكم بأساليب أخرى غير القتال ، لكن تجمعهم جميعاً نزعة دينية متحمسة أشد التحمس ، متطلعة فى إصرار إلى صورة من الحكم الإسلامى ، البرىء من شوائب المطامع الدنيوية ، التى تفقد الحاكم إلى طريق ، غير طريق الحق والعدل والدين والخير .

ومن هنا جاء شعر الخوارج على اختلاف موضوعاته ، انعكاساً لحياتهم بجانيها ، المذهبى والحرى ، فيه تمتزج روح التأمل والزهد بروح البطولة والتضحية والفداء والتهاوت على الاستشهاد فى ساحات الجهاد الدينى ، وتظله سحابة من التبرم بالحياة ، والحزن لمصارع الأبطال والزعماء ، المغلف بقوة الإيمان ، وشبوية الاندفاع والحماس .

هذا هو الإطار العام ، الذى تحرك بداخله شعر الخوارج ، محققاً ذاته ، مبرزاً شخصية ، فى النواحي الفنية التالية :

١ — وضوح الطابع الدينى المذهبى : حيث تكثر المعانى الدينية العامة ، أو المنبعثة عن عقيدة الخوارج ومذهبهم فى الكثرة الغالبة من أشعارهم ، وفى كل غرض اتجه إليه هذا الشعر وعامله — غالباً — والتماذج السالفة تبرز هذا الجانب الفنى فى شعرهم ، سواء فى تمجيد طائفتهم ، والتعبير عن إيمانهم الشديد بعقائدهم ، أو فى الإشادة بأبطالهم ، أو رثاء قتلاهم .

ويجدر بنا أن نفرق هنا بين المعانى الدينية ، المستوحاة من عقائد المذهب ، والمعانى

الدينية العامة غير المذهبية ، أى التى نجدها عندهم وعند غيرهم ، فالأولى بالطبع متفردة متميزة ، تفرد عقيدة الخوارج وتميزها عن عقائد الأحزاب والفرق الإسلامية الأخرى ، أما الأخرى ، فلا يكاد شعر الخوارج ينفرد فيها أو يتميز ، عن نظائرها فى شعر الأحزاب الأخرى ، وبخاصة فى مقام الإشادة بالطائفة وتمجيدها .

فالملاحظ أن أكثر الصور الدينية التى لهجت بها ألسنة شعرائهم فى هذا المقام ، تشبه فى كثير من عناصرها ، ما قدمه الشعر الشيعى من صور دينية للأئمة الشيعيين ، ونستطيع أن نذهب إلى أبعد من هذا ، فنرى هذه الصور تتنازعها الفرق الإسلامية جميعا ، سياسية كانت أو دينية ، باعتبارها المثل الذى تتحقق فيه صورة المؤمن الحق ، وإن لم تترجم دائما فى صورة شعرية عند الفرق الإسلامية كلها .

فالحسن البصرى يقدم لنا صورة المؤمن السنى نثرا ، فيقول : ^(١) « إن المؤمنين والله قوم ذُلل ، ذلت والله الأسماع والأبصار والجوارح ، حتى يحسبهم الجاهل مرضى ، وإنهم لأصحاء القلوب ، ولكن دخلهم من الخوف ، مالم يدخل غيرهم ، ومنعهم من الدنيا عملهم بالآخرة ، فقالوا : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، والله ما حزنهم حزن الدنيا ، ولا تعاضم فى أنفسهم ما طلبوا به الجنة ، أبكاهم الخوف من النار ، وأن من لا يعتز بعز الله يقطع نفسه على الدنيا حسرات ، هذا نهارهم ، فكيف ليلهم ، خير ليل ، صفوا أقدامهم ، وأجروا دموعهم على خدودهم ، يطلبون إلى الله — جل ثناؤه — فكاك رقابهم » .

ألا تذكرنا هذه المعانى ، التى تدور حول الخشوع لله ، وتأثر الأبدان بكثرة العبادة ونحوها ، والبكاء خوفا من النار ، والزهّد فى الدنيا ، والرغبة الشديدة فى ثواب الآخرة ... إلى آخر ما ذكر الحسن البصرى ، ألا تذكرنا ، بقول عمر بن الحصين العنبرى الخارجى فى أبناء طائفته ^(٢) (السابق) :

متأهبون لكل صالحة ناهون من لاقوا عن النكر

(١) جامع البيان (تفسير الطبرى) ١٩ / ٢٠ .

(٢) راجع ص ١٧٦ — ١٧٧ من هذه الدراسة ، فى هذه الأبيات التى يلبسها من شعر الخوارج .

متأوهون كأن جمر غضا للموت بين ضلوعهم يسرى
 لاليلهم ليل فيلبسهم فيه غواشي النوم بالسكر
 إلا كرى خلسا وآونة حذر العقاب فهم على دعر
 وقوله (السابق في أبيات) :

تلقاهم فتراهم من راكم أو ساجد متضرع أو ناحب
 وقول الطرماح (السابق في أبيات) :

لله در الشراة إنهم إذا الكرى مال بالطلا أرقوا (الخ الأبيات)
 كما تذكرنا بوصف أبن حمزة الشارى للخوارج نثراً ، وقد مر^(١) .

ولانكاد نجد فرقاً بين هذه وتلك (صورة المؤمن السنى ، والمؤمن الخارجى) وبين صورة
 المؤمن الشيعى ، ويكفى أن نذكر بقول أبن خريم الشاعر المتشيع فى أئمة آل البيت ، وقد
 سبق^(٢) :

نهاركم مكابدة وصوم وليتم بالقران وبالتزكى
 وليلكم صلاة واقتراء فأسرع فيكم ذاك البلاء...

ولا تختلف كثيراً صورة المؤمن المعتزلى عن هذه الصورة ، يقول شاعر معتزلى فى وصف
 أصحاب واصل بن عطاء — رأس المعتزلة^(٣) :

تراهم كأن الطير فوق رعوسهم على عمّة معروفة فى المعاشر
 وسيماهم معروفة فى وجوههم وظاهر قول فى مثال الضمائر
 وفى قصّ هداى وإحفاء شارب وكور عل شيب يضىء النواظر

آية هذا كله : أن المعانى الدينية العامة فى شعر الخوارج ، لاتكاد تمتاز عن نظائرها فى
 شعر غيرهم ، أما ما كان من معانيهم الدينية الملونة بصبغة مذهبية عقدية ، فهى التى تعكس
 طابعهم المذهبى ، وشخصيتهم الدينية المذهبية .

ولسنا نقصد بالطابع المذهبى إيراد العقائد ، أو المعانى المستمدة من العقائد

(١) راجع ص ١٦٩ من هذه الدراسة .

(٢) راجع ص ١٠٢ من هذه الدراسة

(٣) الأغاني ٢٠ / ١١١

الخارجية ، مدعمة بالحجة والبرهان المقنع بصوابها ، أو التعليل لإيمان الخوارج بها ، فشرعهم يكاد يخلو من هذا .

وإنما نقصد تلك الصبغة الدينية المنبعثة من عقائدهم ، والتي تلون معانيهم ، أو فلنقل : ذلك الشعور الدينى الذى يتمثل فى شعرهم أكثر مما تتمثل عقائدهم نفسها .

٢ — صدق الباعث ، وحرارة العاطفة : فقد لاحظنا خلال دراستنا لنماذج شعر الخوارج السابقة ، فى مختلف ألوانه ، ومضامينه ، أنهم يصدرون فى كل مايقولون عن إيمان راسخ ، وحماسة مندفعه متوهجة ؛ ولذا لم يعتمد شعرهم فى أساليب أدائه على أسلوب المبالغة الصارخة ، والادعاء وافتعال المعانى أو المواقف ، ونحو ذلك مما يدل على ضعف الباعث ، والافتقار إلى الانفعال الصادق ، وما حاجتهم إلى ذلك ، وهم قوم لا يؤمنون بالتقية فى شئ من أفعالهم وأقوالهم ^(١) ؛ ومن ثم اتسموا فيها معا بالصراحة والصدق ، تبعاً لإيمانهم الشديد بمبادئهم ، لا يتحولون عنها ، ولا يدأرون فيها ، وإنما يضحون فى سبيلها بأرواحهم ، وينافحون عنها بسلاحهم .

من أجل هذا قصر شعراء الخوارج شعرهم — غالباً — على التعبير عن آرائهم ، وما يتصل بحياتهم من حروب وثورات ، وقلماء عاجوا به أغراضاً أخرى ، وبمقتضى هذا بعدوا بشعرهم عن الإطار التقليدى ، الذى كان يسير عليه الشعراء قبل عصرهم ومن معاصريهم فى قصائدهم ؛ إذ ليس فى حياتهم مجال لذلك الغزل التقليدى الذى يقع فى مفتح القصائد ، وليس فى حياتهم ، ما يدعو إلى الوقوف على الأطلال ، وبكاء الديار ، أو وصف الرحلة إلى الممدوح ، أو الحديث المفصل عن مآثر الآباء والأجداد ، والفخر بالأحساب والأنساب ، والتغنى بملاحم المجد والشرف التليد ، ماداموا يرفضون التفاضل

(١) قالت جبهة الخوارج بعدم جواز التقية ؛ إذ لا قيمة للنفس والعرض والمال إذا انتظم الدين ، فسلامة الدين مقدمة على سلامتها جميعاً ، حتى ليذهب بعضهم إلى أنه لا يصح قطع الصلاة إذا جاء سارق ليسرق متاعه ، وهو يصل . ومذهب أهل السنة أن من خاف على نفسه أو ماله بسبب عقيدته ، وجب أن يهاجر من البلد الذى يخاف التعرض للأذى فيه ، فإن لم يستطع أظهر التقية بقدر الضرورة ، عملاً بقوله تعالى : « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » (سورة النحل: ١٦ / ١٦) ووجب عليه مع ذلك أن يسعى فى الخروج بدينه . (انظر : فجر الإسلام / ١ / ٣٢١ والخوارج والشيعة ٣٠ — ٣١) ومعلوم أن التقية عقيدة من عقائد الشيعة ، كما أسلفنا .

بالنسب ؛ لأن القرآن رفضه ^(١) .

حقا نجد في شعر الخوارج حديثا عن المرأة ، ولكنه ليس من قبيل حديث غيرهم عن المرأة في غزهم ، إنه حديث يختلف عن الغزل العاطفي الذي يث فيه الشاعر أشواقه ، ومعاناته في الحب ، وحرمانه وافتتانه ، وإنما حديث عن المرأة رفيقة السلاح والكفاح ، التي تخوض المعارك — أحيانا — وتبلى فيها بلاء ، لا يقل عن بلاء الرجال ، حديث كالذي رأيناه في مناجاة قطري بن الفجاءة زوجته الفارسة ، التي كانت تحارب معه جنبا إلى جنب ، وهي ترتجز برجزها السابق :

أحمل رأسا قد سئمت حمله
وقد مللت دهنه وغسله
ألا فتى يحمل عني ثقله

فهو يقرن بين حبها وحب الشهادة في سبيل الإيمان والمبدأ ، لا لإدلالا بفروسيته المفردة ، على طريقة الشعراء الفرسان في هذا المقام ، ولكن تصويرا لوجه آخر من الحب ، ينصرف فيه عن أهواء الدنيا ، ومتع النفس ، وإن كانت جميلة محبة ، كما رأينا في قوله :

فيا كبدا من غير جوع ولاظما وواكبدا من وجد أم حكيم
ولو شهدتني يوم دُولاب أبصرت طعان فتى في الحرب غير لئيم
إلى أن يقول :

فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا تبيح من الكفار كل حرّيم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم بجنات عدن عنده ونعيم

ومن أجل هذا أيضا لم يتجهوا بشعرهم إلى غيرهم ، على خلاف مارأينا عند بعض شعراء الشيعة والأمويين والزيديين ، من تذبذب طمعا في كسب ، أو دفعا لضر ، فقد رفضوا مسلك أكثر شعراء عصرهم ، وبخاصة الفحول منهم ، في الارتزاق بالشعر ،

(١) في قوله تعالى : يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إنا أكرمكم عند الله أتقاكم (سورة الحجرات ٤٩ / ١٣) .

والسير في ركاب الخلفاء والولاة والقواد ، بل أدانوا هذا المسلك بمنطقهم الديني ، الذي انطلقت منه آراؤهم وألوان سلوكهم ، ويلخص موقفهم من قضية التكسب بالشعر ، قول عمران بن حطان ، يخاطب الفرزدق (١) :

أيها المادحُ العبادُ ليعطى إن الله ما بأيدي العباد
فاسأل الله ما طلبت إليهم وأرجُ فضل المُقسَّم العوَاد
لا تنقلُ في الجواد ما ليس فيه وتسمى البخيل باسم الجواد

ولأنكاد نستثني من هذا الاتجاه في شعر الخوارج إلا الطرمّاح بن حكيم ، الذي رأيناه يتجه ببعض شعره ، مادحا بعض عمال بنى أمية طامعاً في العطاء (٢) ؛ ولا يمكننا أن نقارن بين الطرمّاح وغيره من شعراء الخوارج في هذا السلوك ، فقد شارك الطرمّاح — على خلاف شعراء طائفته — في المنازعات القبلية ، وأسرف في العصبية للقبيلة ، كما أكثر من هجاء القبائل ، ومن الفخر بنفسه فكان كشعراء القبائل بالكوفة في عصره ، ومن حين لآخر كانت تستيقظ في صدره بعض المشاعر الزهدية ، وتتحرك في قلبه نبضات مذهبية ، غير أن حرصه على المال وطلبه ، باعد بينه وبين تمثيل الروح الخارجية ، المندفعة في تيار الزهد الدقيق .

يضاف إلى كل ما ذكرنا من دلائل صدق الباعث ، وحرارة العاطفة في شعر الخوارج ، أن أكثر شعرائهم كانوا من أبطال القتال ، وزعماء المذهب المتحمسين ، ومثل هؤلاء أبعد ما يكونون عن الادعاء ، أو التكلف في فعل أو قول ، مما يكسب شعرهم قوة في التأثير ، وسرعة في النفاذ إلى القلوب لصدوره عن عقيدة ، وعن إيمان بالغ بهذه العقيدة ، فقد آمن كل خارجي من هؤلاء بأنه يدافع عن حقوق الله والإسلام ، وأنه إن لم يخرج للدفاع عن عقيدته ، حقت عليه اللعنة ، بل حقت عليه النار ، يقول الطرمّاح في صحوة من صحوات التلوم (٣) :

(١) الأغاني ١٦ / ١٥١ وانظر خزانة الأدب ٢ / ٤٤٠ وشعر الخوارج ٢٠

(٢) راجع ص ٨٦ من هذه الدراسة .

(٣) ديوانه ٢٥٣ والشعر والشعراء ٢٢٩ وشعر الخوارج ٩٨

لقد شقيتُ شقاءً لا انقطاع له إن لم أفرزْ فوزاً تُنجي من النار
والنار لم ينجُ من روعاتها أحدٌ إلا المُنيبُ بقلب الخُلص الشَّارِ
أو الذي سبقَتْ من قبل مولده له السعادةُ من خَلْقها البارِ

فأمله في النجاة من عذاب النار مرتبط بفوزه بهذه الهداية التي لدى الشراة (الخوارج) ، وكأنه يعتقد أن النار أعدت لمن لا يخرج ، ويترك فئات المسلمين الضالة في رأيه .

٤ — استشعار روح الحزن : فالقارىء في شعر الخوارج يحس بنغمة حزينة ، تلف هذا الشعر ، وتنبعث منه .

وبواعث هذه النغمة كثيرة في أشعارهم ، فهم قوم أهل حرب ، والزهد عندهم قرين الحرب ، وهو زهد كثيراً مادفعهم إلى اقتحام أهوال الحروب طلباً للموت ، يسعى الواحد منهم إليه سعياً ، وتضييق نفسه إذا طالت به أيام الحياة ، ولم يرزق الشهادة في وقعة من الوقائع .

ولعلنا مازلنا نذكر قول كعب بن عُمريرة :

لقد فاز إخوانى فنالوا التي بها نَجَوْا من عذاب دائم لا يُفترَّ
أنى الله إلا أن أعيش خلافتهم وفي الله لى عزٌّ وحرزٌ ومنصَرُّ
ويارب هبْ لى ضربةً بمهتدٍ حسامٍ إذا لاقى الضريبة يَهْبُرُ
وقول مرداس بن أدية:

إلهى هبْ لى زلفَةً ووسيلةً إليكُ فإنى قد سئمت من الدهر
وغير ذلك كثير — مما مرّ بنا بعضه .

وكثيراً ما اتخذ شعراؤهم من طول العمر ، يرغم المخاطر ، عظة يحضون بها القعدة عن القتال خشية القتل ، كذا فعل الحويرث الراسبي ، الذى يقول :

أقول لنفسى فى الخلاء ألومها هبلى دعينى قدملتُ من العمر ..
وحطّان الأعسر الخارجى ، فى قوله ^(١) :

(١) شعراؤالخوارج ٥٦ ، وانظر أمثلة أخرى ص ١٥٥ — ١٥٧ وشعر الخوارج ٤٣ ، ٤٥ ،

بليتْ وأبلائي الجهادُ وسافنتي إلى الموت إخواناً لنا وأقاربُ
شريتْ فلم أقتل ونازلتْ لم أصبْ كذاك صروف الدهر فينا عجائب

ولطالما انتهى شعراء الخوارج من حض أنفسهم على القتال وطلب الشهادة ،
والاستهانة بأمر الحياة ، إلى ما يشبه الزهد الخالص بعيداً عن معاني الحرب والقتال ،
زهد المتأمل حال الدنيا ، ومصائر البشر ، ويسلمهم هذا التأمل إلى نوع من رفض
الحياة ، وعرضها الزائل ، وإلى الإحساس بتفاهة حياة الإنسان ، التي لاتعدو أن تكون
ظلاً عابراً ، فلا مناص إذن من الإعداد للحياة الباقية ، نجاه من شرور هذه الدنيا
الفانية .

يقول عمران بن حطان ^(١) :

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها على أنهم فيها عراة وجُوع ..
ويقول ^(٢) :

حتى متى تُسقى النفوسُ بكأسها ريب المنون وأنت لاهٍ ترتع ...
فتزودن ليوم فقرك دائباً واجمع لنفسك لا لغيرك تجمع

هكذا تشيع هذه الروح القلقة الحزينة في جوانب أشعار الخوارج ، حتى
شعرهم الذي يتحدث عن طائفتهم ويمجدها ، حيث تبدوا الصورة متجهمه ، فيها
الأجساد التي أخلتها العبادة ، والبشر المصفر ، والنفوس التي انهكتها العبادة ، وقد
سقنا طائفة من هذه الأشعار فلا نطيل بإعادتها هنا .

٤ — فصاحة العبارة ، وقوة الأسلوب : فأكثر الخوارج وعلى الأخص الشعراء
منهم ، كانت تغلب عليهم البداوة ، والبدو — كما نعلم — هم أرباب اللغة ، يمتازون
بالفصاحة ، وذلاقة اللسان ، ومنهم كثرة المجيدين لفن الكلام .

وقد احتفظ الخوارج بطبعهم البدوي المهدب ، لم تفسده تقاليد الحضارة ،
فبقى صافياً نقياً ، فإذا أضيف إلى ذلك ، صدق الشعور ، والاعتراف من بلاغة

(١) خزائن الأدب ٢ / ٤٤٠ والعبر للذهبي ٣ / ٢٨٤ وشعر الخوارج ١٧

(٢) خزائن الأدب ٢ / ٤٤٠ والعبر للذهبي ٣ / ٢٨٤ وشعر الخوارج ١٧

القرآن ، الذى أدمنوا قراءته وحفظه وتدبره ، واتخذوه منهاجا لهم ، فى القول والعمل ، أدركنا مدى ماكان يتمتع به أسلوبهم ، من قوة تأثير ، شهد به فصحاء أعدائهم ، يقول عبيد الله بن زياد ^(١) : « لكلام هؤلاء (يعنى الخوارج) أسرع إلى قلوب الناس من النار إلى البراق » ويقول عبد الملك بن مروان — وكان بصيرا بفن القول ^(٢) — عن خارجي بسط له مذهبه ، بلسان طلق ، وألفاظ بينة ، ومعان قريبة : « لقد كاد يوقع فى خاطرى أن الجنة خلقت لهم ... » ^(٣) .

٥ — قلة شعر الخوارج : هو كذلك بالنسبة لشعر الشيعة أو الأمويين ، وما يفسر هذا انشغالهم بحروبهم وثوراتهم ؛ إذ هى همهم ، وغرض حياتهم ، وماالشعر إلا وسيلة تعينهم فى غرضهم هذا ، فالخوارج لم يكونوا شعراء فى المقام الأول ، بل مناضلي سياسة وحرب ، تحيى نفس أحدهم بالشعر قبيل معركة ، أو أثنائها ، أو عقبها ، فينطلق لسانه بالأبيات ، يصور فيها بلاءه ، وبطولة أصحابه ، أو يعبر عن إحساسه إزاء من لقي حتفه منهم ، وقد يقف متأملا فى هذا المقام أو غيره ، يرصد أحوال الحياة بنظرة الزاهدة ، التى تقترب فى كثير من الأحيان إلى مايشبه التصوف ، وإن لم تفقد وجهها الإيجابي فى المقاومة والحرب والرفض .

وحتى هؤلاء الذين اتخذوا الشعر وسيلة للتعبير عن حياتهم تلك ، أتت حروب الخوارج الكثيرة على أرواح العديد منهم ، فضاع ماضع من أشعارهم . وأكثر شعر الخوارج جاء على صورة مقطعات لا قصائد ؛ لأن الشعر — كما قلنا — لم يكن عندهم حرفة تجود ، وتصنع لذاتها ، بل كان أداة لخدمة أغراض حياتهم ،

(١) الكامل للمبرد ٣ / ١٤٧ (الأزهرية) . البراق : الخطب الجاف .

(٢) روى الشعبي أنه كان مع عبد الملك على طعام ، فلما فرغوا منه ، اندفع الشعبي فى الحديث ، قال : فما ابتدأت بشيء من الحديث إلا استلبه منى عبد الملك فحدث الناس به ، وربما زاد فيه على ماعدى ، ولأنشدته شعرا ، إلا فعل مثل ذلك ، فغمضى ذلك وانكسر بالى له ، فلما كان آخر الوقت ، التفت إلى وقال : يا شعبي قد والله تبيت الكراهية فى وجهك لما فعلت ، أتدري أى شيء حملنى على ذلك ؟ قلت لا ياأمير المؤمنين ، قال : لتلا تقول : لئن فازوا بالملك أولا ، لقد فزنا نحن بالعلم ، فأردت أن أعرفك أنا فزنا بالملك ، وشاركناك فيما أنت فيه . (مجالس العلماء ٢٠٩) وانظر صورا من فصاحته وبصره بفن الكلمة الأدبية فى : أمالى القالى ٢ / ١٠٣ وذيل الأمالى ٣١ وديوان المعاني ١ / ٧٦ ، ٧٧ ، ١٥٢ ورسائل الجاحظ ١ / ٣٦٢ ، ومروج الذهب ٢ / ١٥٩

(٣) الكامل للمبرد ٣ / ١٣٧ (الأزهرية) .

ومذهبهم ، وثمرة لها ، ينشأ عند الحاجة إليه ، فكان لذلك مقطعات في أغلب نماذجها ، أو قصائد قصيرة في بعض التجارب .

٦ — وحدة الخصائص الفنية : وهذا ثمرة ماأشرنا إليه في مقدمة هذا الباب ، من وحدة الصفات التي يمكن أن تقال في كل خارجي صادق العقيدة ، التي أدت إلى تشابه الخوارج في صورتهم العامة الكبرى ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى اقتصار شعرهم في قالبه على شكل المقطعات أو القصائد القصيرة ، ومن ثم تحققت فيه الوحدة الفنية .
فالتجربة التي يعبر عنها الشاعر الخارجي في مقطعته واحدة ، والصور متشابهة حماسية ، ومن هنا تشابه شعرهم بعامة ، في موضوعاته ، وأساليبه ومعانيه .

ولعل هذا يفسر لنا كثرة الاضطراب في نسبة أشعار بعضهم إلى بعض ، فما دامت شخصياتهم الشعرية ، لاتتمايز كثيرا ، فما على الرواة من بأس إن نسبوا شعر أحدهم إلى الآخر .

٧ — شدة التأثير بالقرآن الكريم : أما في الأسلوب ، فظهر في أساليبهم الرقيقة ، السلسلة الجزلة معا ، التي تعتمد كثيرا على القرآن في صياغتها ، وتراكيبها ، وأما في المعاني ، فقد مر بنا قول عيسى بن عاتك الخطي في وصف معركة الخوارج بأسك ، واستمداده لبعض معاني القرآن في هذا الوصف ، في قوله :

ألفا مؤمن فيما زعمتم ويقتلهم بأسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة غير شك على الفئة الكثيرة ينصرونا
وقد بينا هناك مصادر هذه المعاني من آي القرآن العظيم ^(١) .

ومن ذلك قول الحسن بن عمرو الإباضي ^(٢) :
إذا ماخَلَوْتُ الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل عَلى رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما يخفى عليه يغيب

(١) راجع ص ١٧٩ من هذه الدراسة .

(٢) شعر الخوارج ٩١

وواضح أن الشاعر ينظر في البيت الثاني إلى قوله تعالى : « ولا تحسبن الله غافلا عما يفعل الظالمون » ومنه أيضا قول عمران بن حطان ، تعبيرا عن المساواة الإسلامية ، التي كانوا يدينون بها ^(١) :
 فنحن بنو الإسلام والله واحد وأولى عباد الله بالله من شكر
 فالمعنى في الشطر الثاني من البيت مستمد من قول الله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

* * * *

— ٤ —

شعر الزبيريين :

ذكرنا في مقدمة هذا البحث أن سلطان الزبيريين لم يدم طويلا ، إذ لم يعمر أكثر من تسع سنوات تقريبا (٦٣ — ٧٢ هـ) ، وحاولنا هناك أن نستكشف فلسفة سياسية أو دينية خاصة ، يمكن أن تكون أساسا لحزب سياسي بالمعنى الصحيح ، وانتهينا إلى أن دعوى الزبيريين ، لم تتح لها فرصة كافية ، لتكوين نظرية سياسية واضحة المعالم ، فقد ارتبطت نهاية هذه الدعوى بنهاية ابن الزبير نفسه ، وكان هذا قد قضى مدة دعوته في تأسيس ملكه ، وصراع حرنى مع الأحزاب الأخرى ، ومقاومة مؤامرات الشيعة عليه ، وبخاصة في العراق ، حيث تصدى لدعوته هناك المختار بن أبى عبيد الثقفى ^(٢) ، وشغب الخوارج عليه بعد أن كانوا قد ناصروه بمكة ضد جيش الشام ^(٣) ، هذا فضلا عن الجيوش العديدة التي وجهها الأمويون للقضاء عليه وعلى دعوته بالمدينة (موقعة الحرة) ومكة ، وغيرها .

لم يتسع الوقت إذن لابن الزبير ليلبلور وجهة نظره في الخلافة ، ويظهر بشكل عملي نواياه في مسألة تسلسل الخلافة من بعده ، مما ربط دعوته بشخصه ، فماتت بموته ، ولم يفكر أحد من أتباعه في استمرارها ، فهو لم يترك دعاة ينهضون بإقرار نظريته ^(٤) ، وتطويرها وإرسائها على أمس يدعمها الدين ، أو المنطق ، كما فعلت الأحزاب الأخرى .

(١) الأغاني ١٦ / ١٤٩ وشعر الخوارج ٢٥ .

(٢) انظر : مروج الذهب ٢ / ١١٤ (البجبة) .

(٣) انظر الطبرى ٧ / ٥٥ وما بعدها .

(٤) تاريخ الشعر السياسى ١٧٦ .

ونتج عن ذلك ، سياسيا : أن أصبحت دعوته أشبه بثورة طارئة ، وأديا : أن ضعف تمثل الشعراء لدعوته ، فجاء تعبيرهم عنها في صورة آراء عامة ، تختلط فيها الألوان الدينية ، والادعاءات السياسية ، بالعصبية القرشية .

والحق أن دعوى ابن الزبير إنما هي انعكاس للعصبية القرشية والإقليمية ، فلو تجاوزنا الأشخاص ، نعنى شخص ابن الزبير وآل بيته ، وتدبرنا أمر الدولة التى أقامتها ثورة ابن الزبير ، والتى لم تطل حياتها ، لأدركنا أنها لم تكن تمثل مجرد طموح شخصى ، وتطلع إلى الحكم عند الزبيريين ، بل كانت في حقيقتها تطلعا من القرشيين ، وأهل الحجاز عامة ، لكى يستعيدوا ماسلهم الأمويون ، الذين تنكروا لقرشيتهم وإقليمهم ، فانتقلوا إلى الشام ، وحرموا الحجاز ، إقليم الدعوة الأول ، من السلطة المركزية ، بائخاذهم دمشق عاصمة لدولتهم ، ثم إنهم استعانوا بالقبائل اليمنية ، متجاهلين أكثر عرب المضربة ، الذين تنتمى قريش إليهم .

ولعل هذا هو السر في أننا لانجد من الشعراء من أخلص لحركة ابن الزبير ، وبرىء من الطمع والهوى ، إلا الشاعر القرشى عبيد الله بن قيس الرقيات ، الذى نشأ وعاش في الحجاز ، فأحب موطنه ، وظهر اعتزازه بالقرشية في شعره ، فكثر حديثه عن قريش ، وما أصابها من محن وفرقة ، بتكرار بنى أمية لها ، كما ذكرنا ، ومن دلائل ذلك في شعره قوله (١) :

حبذا العيشُ حين قومي جميعٌ لم تُفَرِّقْ أمورها الأهواءُ
قبل أن تطمع القبائل في مد لك قريش وتشمُّ الأعداءُ
إن تودَّع من البلاد قريشٌ لا يَكُنْ بعدهم لحى بقاء
لو تُقْفَى وتترك الناس كانوا غنم الذئب غاب عنها الرعاءُ

وهذا الإخلاص الذى أبداه ابن قيس الرقيات للقرشية ممثلة في دعوى ابن الزبير ، عرضه لنقمة بنى أمية وغضبهم ، لا مجرد إشادته بأبناء الزبير ، ومساندته لدعوتهم ، وإلا لما ظل بنو أمية يترصبون به ، حتى بعد أن أسقطوا دولة ابن الزبير ، فقد أرسلوا شرطتهم في إثره ، مما اضطره إلى اللجوء إلى عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، ليتشفع له عند عبد الملك بن مروان ، حتى عفا عنه في قصة طريفة يرويها صاحب الأغاني (٢) .

(١) ديوانه ٩٤ وطيقات ابن سلام ٥٢٩ . تقفى : تذهب .

(٢) الأغاني ٤ / ١٥٨

ثم تحول إليهم بمدحهم بنفس الحرارة والإخلاص ، اللذين كان يمدح بهما الزبيريين من قبل ، دون أن يشعر بالخرج في هذا التحول ، مما يؤكد ماسبق أن أشرنا إليه من أن ولاء ابن قيس الرقيات للزبيريين ، لم يكن مرتبطاً بأشخاصهم ، وإنما كان لما يمثلونه من طموح إلى استعادة ما فقدت قريش من سلطان ، ومن هنا لم يشعر بالتحرج في التحول إلى بنى أمية ، فالأميون على أية حال ، قرشيون ، ومادام الأمر قد انتهى باجتماع كلمة قريش عليهم ، فليعتز بهم ممثلين للقرشية .

نعود إلى دعوى ابن الزبير فنضيف أنها كانت تمثل الخلافة كما تراها (الارستقراطية) العربية المضرة الحجازية أقوى تمثيل ، خلافة لا يليق بها إلا فارس محارب عرى قرشى ، لا يعتز باليمية ، كما اعتز بنو أمية ، وإنما يعتز بقومه المضرين ، ولا ينزع عن مركز القبيلة القرشية ، وموطنها الأصلي ، ومركز فخارها الدينى وهو الحجاز .

وقد صور هذا المثل للخليفة القرشى ابن قيس الرقيات في مدحه الزبيريين ، بخاصة مصعب بن الزبير — الذى كان الشاعر قد لزمه ، واختصه بمدحه ، وأخلص الولاء له — حيث يصوره فارساً عربياً (ارستقراطياً) قرشياً ، يعطى فى سخاء ، ويحارب فى قوة المعتر بحقه (١) .

ويذكر الرواة انقطاع شاعرين آخرين لآل الزبير ، أحدهما : أبو وجزة السعدى (٢) ، والآخر : إسماعيل بن يسار النسائى (٣) .

وأغلب الظن أن انقطاعهما لآل الزبير لم يكن عن اقتناع بدعواهم ، وحقهم الذى يزعمونه ، كما أنه لم يكن بريئاً من الطمع أو الهوى .

فقد جذب أباً وجزةً إلى آل الزبير ولاؤه لعبد الله بن عروة بن الزبير ، الذى كان

(١) انظر هذه الصورة فى ديوانه ٩٤ .

(٢) اسمه يزيد بن عبيد من بنى سعد بن بكر بن هوزان ، شاعر مجيد ، توفى بالمدينة سنة ١٣٠ هـ . انظر فى أخباره وأشعاره : الأغاني ١١ / ٧٥ والشعر والشعراء ٢٦٨

(٣) إسماعيل بن يسار مولى بنى تيمم القرشيين ، شاعر أعجمى الأصل ، مليح الشعر ، اشتهر بشعبيته ، وعدائه الشديد لبنى أمية ، وانقطاعه لآل الزبير ، وكان مقيماً بمكة ، توفى سنة ١٣٠ هـ . انظر : الأغاني ٤ / ١١٨ وما بعدها ، والتذكرة السعدية ٥٤٥ ، وانظر مراجع أخرى فى هامشها .

يفضل عليه ، ويقوم بأمره ^(١) ، يضاف إلى ذلك ما يروى من أنه قال لأبي زيد الأسلمي ،
الذى امتدح إبراهيم بن هشام المخزومي ، وإلى الأمويين على المدينة ، « هل لك في أن
أشاركك فيما أصيب من آل الزبير ، وتشاركني فيما تصيب من إبراهيم ؟... » ^(٢) مما
يدل على أنه قصد الزبيرين للتكسب ، وأراد أن يعقد شركة مع زميله البدوي لاقتسام
غنائم شعرهما !!

وأما اسماعيل بن يسار ، فقد كان من موالي قريش ، والموالي بعامية ، كانوا شديدي النعمة
على بني أمية في هذا العصر — كما ذكرنا في مقدمة هذه الدراسة — ؛ لذا كانوا يلتفون
حول كل ناعق يبغي مناهضة الأمويين ، فهم في العراق مع الشيعة ، وفي الحجاز مع
الزبيريين .

ومما يصور نعمة إسماعيل بن يسار وأهله على بني أمية ، ادعاؤه — وقد أراد أن
يوجب حقاً له على الأمويين ، بعد وفاة ابن الزبير — أنه وأباه من قبله مروانيان ، فلما سئل
بعده « أى مروانية لك ، أو لأبيك ؟ قال : بغضنا إياهم » ^(٣) ، ثم أقسم بالطلاق أن أمه
كانت تلعن مروان وآله كل يوم مكان التسييح ، وأن أباه نطق بلعن مروان عند موته بدل
الشهادتين !!

وهناك شعراء آخرون ، وفدوا على آل الزبير ، ولكن لم يكن أحد منهم معبراً عن
رأى هذا الحزب ، تعبير المخلص المتحمس ؛ إذ كانوا مرتزقة ، أو ناقمين على بني أمية ،
راغبين في النكاية بهم ، لأغراض شخصية أو قبلية ، أو عنصرية .

خلاصة ماتقدم أن افتقار دعوة ابن الزبير إلى الأفكار الواضحة ، والمبادئ
المحددة ، كان من أهم العوامل ، التي أدت إلى قلة حظها من الشعر والشعراء .

وأكثر ما كان لها من أثر بارز في حركة الشعر ، في هذا العصر ، إنما يرجع إلى
ما أزرته من نار العصبية القبلية بين القيسية واليمينية في الشعر ، على أثر موقعة « مرج
راهط » بين عرب القيسية ، المواليين لابن الزبير ، وعرب اليمينية المؤيدين للأمويين ، يقول

(١) الأغاني ١١ / ٨١

(٢) الأغاني ١١ / ٧٧

(٣) الأغاني ٤ / ١١٩

الدكتور شوقي ضيف^(١) : « وأكثر ماتكون حوله (يعنى الحزب الزيرى) من شعر ، نجده فى حروب القيسية واليمينية فى الشام ... وهو ليس شعر حزب بالمعنى المفهوم ، وإنما هو هجاء وحامسة ، على نحو ماكان الشعر فى العصر الجاهلى » ، أى أنه شعر قبلى ، لاشعر حزبى سياسى .

وما يعلل به كذلك ، لقلة حظ حركة ابن الزبير من الشعر والشعراء ، أن زعيمها عبد الله ابن الزبير ، لم يحرص على اصطناع الشعراء ، وتأليف قلوبهم بالعطاء ، كما كان يفعل بنو أمية ؛ وحبته فى هذا حرصه على مال المسلمين ، وتأثمه من إنفاقه فى غير مصالحهم ، أو لأنه أراد أن يبدو فى صورة الزاهد المتعفف عن أن يكون له مال يعطى منه الشعراء ، يقول المسعودى^(٢) : « وأظهر ابن الزبير الزهد فى الدنيا والعبادة ، مع الحرص على الخلافة ، وقال إنما بطنى شبر فما عسى أن يسع ذلك من الدنيا ، وأنا العائد بالبيت ، والمستجير بالرب » .

ولم يكن الشعراء يفهمون هذا المنطق ، فرموه بالبخل الشديد ، ولولا مااشتهر به أخوه مصعب من سخاء وتسامح فى المال ، ورغبة فى استمالة ذوى الرأى والمكانة والخطر ، ومنهم الشعراء استمالتهم — اقتداء ببنى أمية — لولئى عن ابن الزبير أكثر من ناصره من الشعراء . قال زفر بن الحارث الكلانى فى مجلس لعبد الملك بن مروان^(٣) : « لو كان لعبد الله [بن الزبير] سخاء مصعب ، وكان لمصعب عبادة عبد الله ، لكانا ماشاء المتمنى » . وقال عبد الملك بن مروان :^(٤) « ماأعلم مكان أحد أقوى على هذا الأمر منى ، وإن ابن الزبير لطويل الصلاة ، كثير الصيام ، ولكنه لبخله لا يصلح أن يكون سائساً » . لقد أدرك عبد الملك وغيره من خلفاء بنى أمية — عدا عمر بن العزيز — قيمة ملاينة الناس ، وتأليف قلوبهم بالمعروف والبذل ، فهفت إليهم قلوب ذوى المطامع ، والتف حولهم من يؤثرون العاجلة — وماأكثروهم — ورأوا حظ دنياهم مع بنى أمية ،

(١) التطور والتجديد ٩٣

(٢) مروج الذهب ٢ / ٩٩ (البهية) .

(٣) الإمتاع والمؤانسة ٣ / ١٧٠

(٤) الطبرى ٨ / ٥٨

فانصرفوا إليهم ، وربطوا أهواءهم بهم ، ومن ثم وجدوا نصرة أغراضهم في الانتصار للأمويين ، وبقاء نعمتهم مابقيت دولة الأمويين ، وهذه هي السياسة ، كما فهمها بنو أمية ، وعبر عنها عبد الملك ، حين سأله ابنه الوليد ما السياسة ؟ فقال : ^(١) « هبة الخاصة ، مع صدق مودتها ، واقتياد قلوب العامة بالإنصاف لها ، واحتمال هفوات الصنائع ، فإن شكرها أقرب الأيادي إليها » .

بهذا كان الأميون أقدر على سياسة الناس ، ومن أجل هذا قال عبد الملك : ما أعلم مكان أحد أقوى على هذا الأمر مني .

ولم يكن عبد الله بن الزبير يفهم السياسة على هذا النحو ، وإنما رآها كما كان يفهمها ويطبقها الخلفاء الراشدون من قبله ، وعمر بن عبد العزيز من بعده ، سياسة إسلامية ، يراعى فيها العدل والحق ، بحيث يكون الحاكم قدوة للرعية في الحرص على مآشره الإسلام في سياسة الدين والدنيا .

أما مصعب أخوه ، فقد وعى الدرس من بنى أمية ، وفهم السياسة كما فهموها ، فتسامح كما تسامحوا ، وبذل كما بذلوا .

أما التسامح فنفهمه من مواقفه ممن كان يريد اصطناعهم ، فقد قدم عليه الأحنف ابن قيس ، وكلمه في قوم حبسهم ، قائلا ^(٢) : « أصلح الله الأمير ، إن كانوا حبسوا في باطل فالحق يخرجهم ، وإن كانوا حبسوا في حق ، فالعفو يسعهم ، فخلاهم » .

وأما البذل مع التسامح فنذكره من هذه الرواية ، قيل ^(٣) : أخذ مصعب رجلا من أصحاب المختار بن أنى عبيد الثقفي ، فأمر بضرب عنقه ، فقال : أيها الأمير ما أقبح بك أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة ^(٤) ، ووجهك هذا الذي يستضاء به ،

(١) عيون الأخبار ١ / ١٠ وأمالى القال ٢ / ٨٢ وانظر ص ١٣٥ من هذه الدراسة .

(٢) عيون الأخبار ١ / ١٠٢

(٣) العملة ١ / ٤٢ . وعيون الأخبار ١ / ١٠٣

(٤) كان مصعب موصوفا بالجمال ، قال جميل الشاعر صاحب بئنة ، مارأيت مصعبا يتخال بالبلاط — وهو موضع بالمدينة بسط بالحجارة ، بين مسجد الرسول ﷺ وسوق المدينة — إلا غرت على بئنة ، وبينهما ثلاثة أيام . (عيون الأخبار ٤ / ٢١) .

فأتعلق بأطرافك ، وأقول : أى رب سل مصعبا فيم قتلنى !! فقال مصعب : أطلقوه ، قال الرجل : اجعل ماوهبت لى من حياى فى خُفض ، قال : أعطوه مائة ألف ، قال : بأى أنت وأمى ، أشهد الله أن لابن قيس الرقيات منها خمسين ألفا قال : ولم ؟ قال لقوله فيك : إنما مصعبٌ شهابٌ من الله تجلّت عن وجهه الظّلماء ...

فضحك مصعب ، وقال : أرى فيك موضعا للصنعة ، وأمره بلزومه ، وأحسن إليه ، فلم يزل معه حتى قتل .

فأين هذا مما فعله أخوه عبد الله ، وقد دخل عليه أبو صخر الهذلى فى قومه ، طالبين عطاءهم ، وكان عبد الله يعرف أن هواه فى بنى أمية ، فمنعه عطاءه وقال : « عليك بنى أمية ، فأطلب عندهم عطاءك »^(١) ، فلم يحاول أن يصطنعه ويصطنع قومه بالعطاء ، مما جعل أبا صخر يرميه فى مواجهته ، بشدة البخل ويفضل عليه بنى أمية ، حتى ارتعدت فرائص عبد الله من الغضب ، ثم أمر به إلى سجن عارم ، فحبس به عاما .

وكان عبد الله بن الزبير الأسدى الشاعر مقيما بمكة ، وقد عرفناه أموى الهوى ، إلى أن اجتذبه عطاء مصعب بن الزبير فانقطع له ، وكان من الممكن أن يصطنع ابن الزبير لسان هذا الشاعر الأموى ، أو على الأقل ، يفقد بنى أمية واحدا من شعرائهم المتحمسين ، لو أنه استجاب له عندما قصده طالبا العطاء ، ولكنه حرمه ، فقال له ابن الزبير : « لعن الله ناقة حملتنى إليك ، فقال له : إن وراكها »^(٢) .

ويبدو أن ابن الزبير نفسه كان يدرك هذا الفرق بين سياسته مع الناس والشعراء وسياسة أخيه مصعب معهم ، فقد جاءه وفد من العراق ، فسألهم عن مصعب ، فأثنوا عليه ، فقال : « أيها الناس : أنى سألت الوفد عن مصعب ، فأحسنوا الثناء عليه ... وإن مصعبا أطبى القلوب ، حتى ماتعدل به ، والأهواء حتى ماتحول عنه ، واستمال الألسن بشائها ، والقلوب بنصحها ... فهو المحبوب فى خاصته ، المحمود فى عامته ، بما أطلق الله به لسانه من الخير ، وبسط يده من البذل »^(٣) .

(١) الأغاني ٢١ / ٩٤ وانظر شعرا فى بخل ابن الزبير فى مروج الذهب ٢ / ٩٩

(٢) القاموس المحيط (مادة - زبر) ٢ / ٣٧

(٣) أمالى القالى ١ / ٢٨٦

هكذا كانت سياسة ابن الزبير ، بعيدة عن استهواء القلوب ، بخاصة قلوب الشعراء ، فلم يجدوا طلبتهم عنده ، فازوروا به ، كما ازورّتهم ، وبذا قل حظ دعوته من لسان الشعر ، وكان حظ شخصه منه أقل ، والشعر — كما هو معلوم — كان لسان الدعاية الحزبية القوى في هذا العصر .

والناظر في هذا الشعر القليل ، الذى وقف إلى جوار حركة ابن الزبير ، يلاحظ أنه استفرغ مضمونه — غالبا — فى التعبير عن الإشادة بآل الزبير ، وأكثر ما كان من ذلك فى مصعب بخاصة ، وأقله فى عبد الله ، ولم يخل من القليل ، الذى يحاول فيه الشعراء مساندة حق آل الزبير فى الخلافة ، أو يواجه خصومهم برأيهم فهم ، أو يرثى قتلى الزبيريين فى معاركهم .

أ : التثويه بآل الزبير ، ومحاولة تأييد خلافة زعيمهم :

على الرغم مما عرف به ابن الزبير من الورع ، والتقوى ، والزهد ، واستقامة الدين وسلامته ، فإننا لانجد هذه المعانى مرددة فيما خص به من شعر ، بمجده ، ويعلى من شأنه ، والذى يبدو أن الشعراء كانوا يريدونه على صورة أخرى ، تتفق ونظرتهم إلى حركته ، وما يتطلعون إليه من ورائها ، ومن ثم لم ينظروا إلى خصاله الشخصية ، بقدر ما نظروا إلى النموذج الذى كان عليه أن يمثله ، وهو نموذج الخليفة القرشى ، الذى أشرنا إليه منذ قليل . وتكامل هذه الصورة ، أو هذا النموذج فى شعر الشعراء ، الذين أشادوا به ، يقدم كل منهم جانبا منها ، ويبرز بعض خطوطها ، ومن جملة ما قالوا تتضح كل معالمها وألوانها وظلالها ، فإذا بها صورة رجل عريق الحسب ، يحتل نسيبه من قریش ذروتها ، كريم الفعال ، رفيع المكانة بين قومه ، شجاع من قوم شجعان ، كريم سخي من قوم كرماء أسخياء ، لا يفاخره مفاخر ، ولا يقوم لشرفه شرف .

نلمح بعض هذه الملامح فى قول عبيد الله بن قيس الرقيات ، مشيدا بعبد الله بن الزبير ^(١) :

وابن أسماء خيرٌ من مسح الرُّكْ نَ فَعَالاً وخيرُهُم بُنَيَاناً
وَإِذَا قِيلَ مَنْ هَاجَانِ قَرِيشٍ كُنتَ أَنْتَ الْفَتَى وَكُنْتَ الْهَاجَانَا
ويؤكد هذه الملامح ويضيف إليها بلال بن جرير ، فيقول ^(٢) :

(١) ديوان ١٥٧ بيروت . الهجان من كل شيء : خياره وخالصة .

(٢) الكامل للمبرد ١٠٨/٢ (الأزهرية) العيوق : نجم مرتفع . السموق : العلو . النفورة : المنافرة والمفاخرة .

مَدَّ الزُّبَيْرُ عَلَيْكَ إِذْ بَيْنَى الْعُلَا كَفَّيْهِ حَتَّى نَالَتْهُ الْعُيُوقَا
وَلَوْ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ فَاخِرَ مَنْ تَرَى فَاتِ الْبَرَّةِ عَزَهُ وَسُمُوقَهَا
قَوْمٌ إِذَا مَا كَانَ يَوْمَ نَفُورَةٍ جَمَعَ الزُّبَيْرُ عَلَيْكَ وَالصَّدِيقَا

وليس في هذا الشعر ما يصلح لتصوير ابن الزبير في صورة خليفة رسول الله (ﷺ) القائم على أمر المسلمين بالعدل، الراعي لشئون الإسلام بما يرضاه الله، على النحو الذي رأيناه عند الشيعة في تصوير أئمتهم، وحتى عند شعراء بنى أمية في الإشادة بالخلفاء. كما أن هذه المعاني ليس من شأنها أن تصلح دعاية تساند دعوى آل الزبير في حق الخلافة، وإنما هي معان عامة، تشبه، إلى حد بعيد، ما كان يمدح به الشعراء شيوخ القبائل ورؤساء العشائر في الجاهلية والإسلام، من علو الشرف والمجد، وارتفاع المقام عند المفاخرة وأصالة النسب وعراقته، ولولا ما في هذا الشعر من ذكر أسماء: عبد الله، والزبير، والصديق (أبو بكر والد أسماء أم عبد الله) لما عرفنا أنه في ابن الزبير.

والعجيب، أن يتجاهل عبد الله ابن قيس الرقيات، صفات ابن الزبير الدينية، التي هي أنسب في هذا المقام، مقام مدح خليفة رسول الله (ﷺ) وأمير المؤمنين، وأكثر واقعية وصدقا لما كان عليه ابن الزبير بالفعل، نقول: من العجيب أن يتجاهل الشاعر هذا، في جانب عبد الله ويسبغه على مصعب أخيه، فيقول في الإشادة به (١):

إِنَّمَا مَصْعَبٌ شَهَابٌ مِنَ الدِّهْنِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ
مَلِكُهُ مَلِكٌ رَحِمَهُ لَيْسَ فِيهِ جَبْرُوتٌ وَلَا لَهُ كِبَرِيَاءُ
يَتَّقَى اللَّهُ فِي الْأُمُورِ وَقْدَ أَفْـلَحَ مِنْ كَانَ هُمُ الْإِتْقَاءُ

فالتواضع للرحمة، والبعد عن الظلم والجبروت، وإسباغ الرحمة، طابعا لسياسة مصعب، واستشعار الخوف من الله في سياسة أمور المسلمين، كلها معان دينية، أليق بمدح الخليفة وأجدى في إظهاره بهذا السمت الديني من مصعب أخيه.

أما أبو لبلى النابغة الجعدي (٢) فقد قصد عبد الله بن الزبير في سنة شديدة

(١) ديوانه ٩٤ وسمط اللآلئ ١ / ٢٩٤ وطبقات ابن سلام ٥٣ والكامل للمبرد ١ / ٣٩٩ (الاستقامة).

(٢) قيس بن عبد الله بن عدس بن ربيعة بن جعدة، صاحب النوى وروى عنه ومده وأشده، قيل: عاش ثلاثة

أجيال، والجيل ثمانون سنة، وقال في ذلك:

صَحِبْتُ أَنَسًا فَأَنْتَيْتِهِمْ وَأَنْتَيْتُ بَعْدَ أَنَاسٍ أَنَسًا
ثَلَاثَةَ أَهْلِينَ أَنْتَيْتِهِمْ وَكَانَ الْإِلَهُ هُوَ الْمُنْأَسَا

ويقال: إنه تحف في الجاهلية، وهجر الأوثان، وكان يصوم ويستغفر، وتوفى بأصبهان: انظر: سمط اللآلئ ١ /

٢٤٧ والأغانى ٤ / ١٢٧ والشعر والشعراء ٩٦

القحط ، ومدحه بقوله : (١)

حكيت لنا الصديق لما وليتنا وعثمان والفاروق فارتاح مُعْدم
وسويت بين الناس في العذل فاستووا فعاد صباحاً حالك الليل مظلم
أتاك أبو ليلى يجوب به الدجى دجى الليل جوب الفلاة عثم
لتجبر منه جانباً زعزعت به صروف الليالي والزمان المصمم

فهذا شاعر لاشأن له بالقرشية ، والتعصب لها ، كما كان ابن قيس الرقيات ؛ ولذا اتجه مباشرة إلى شخصية ابن الزبير ، يرصد سماتها ، ويعلى خصائصها ، فنوه بتقواه ، وعدله في الحكم ، والتسوية بين الرعية ، والبر بالمسلمين ، وترسمه خطى الخلفاء الراشدين ، حتى أعاد إلى الأذهان ذكرى حكمهم الصالح الرشيد .

ولو أكثر شعراء آل الزبير من هذا الاتجاه ، في الإشادة بزعيمهم عبد الله ، لكان لشعرهم السياسي في هذا الباب شأن آخر .

وأما أبو وجزة السعدي الشاعر البدوي ، فإنه لم ير في ابن الزبير وآله ، إلا ما يراه في شيخ القبيلة وقومه في البادية ، فهم أبناء حرة ، شجعان ، يشفون أعداءهم من داء الحقد عليهم بالسيوف ، أجواد غاية الجود ، في السنة الشديدة الجذب ، لانعدام المطر فيها (٢) :

آل الزبير بنو حرة مروا بالسيوف صدوراً خفافا
سبل الجرد عنهم وأيامها إذا امتعطوا المرهفات الخفافا
مطاعم تحمد أبياتهم إذا قنع الشاهقات الطحافا
ويقول (٣) :

راحت قلو صرى رواحاً وهي حامدة آل الزبير ولم تعدل بهم أحداً

(١) مجالس ثعلب ٣٢ والكامل للمبرد ٢ / ٩٧ ، ٣ / ٢٤٣ (الأزهرية) والأغاني ٤ / ١٣٧ . الجمل العثم : الشديد . المصمم هنا : المؤدى .

(٢) الأغاني ١١ / ٨١ . امتعطوا سلوا السيوف الحادة . الطحاف : قطع السحاب العالية ، التي لامطر فيها .

(٣) الأغاني ١١ / ٧٧ . الوسق : ستون صاعاً . السدد : الحمل المعتاد . الملوية الجدد : السوط الحديث الصنع .

راحت بستين وسقاً في حقيبتها ما حملت جملها الأدنى ولا السددا
 ذاك القرى لاقى قوم رأيتهم يقرون ضيفهم الملوثة الجودا
 وهو يعرض في البيت الأخير بنى أمية ، إذ ضربه عاملهم في الحجاز بالسوط ،
 لأمر كان منه .

ومدار الأبيات هو المدح بالكرم ، والشجاعة ، وشرف النسب ، وفي شعر ابن
 قيس الرقيات أمثال لهذه المعاني ، في مدح عبد الله ، وأخيه مصعب ، فلا نستكثر
 بإيرادها (١) .

غير أنه من الضروري أن نورد هنا أبياتاً لابن قيس الرقيات ، لانحسبه أرادها تمجيد
 ابن الزبير ، بقدر ما قصد إلى إرضاء نزعتة القرشية ، في محاولة لتدعيم هذه الدولة
 القرشية ، التي يرى فيها عز قريش ، واسترداد حق إقليم الحجاز ، موطن القبيلة ، ومهد
 الإسلام .

يقول عبيد الله بن قيس الرقيات ، يعني عبد الله بن الزبير (٢) :

ذكرت قومها قريشاً فقالت رابَ دَهْرِي وأنى دَهْرِي يدومُ
 لا يرثك الذي ترثين فإن الله طَبُّ بما ترين عليمُ
 إن يكنْ للإله في هذه م الأمة دعوى يُعَدُّ عليك النعيمُ
 وتُحْلَى محل آبائك الأخيار بالحجر حيث يُنفَى الخطيمُ
 بلدتأمن الحمامة فيه حيث عاذ الخليفة المظلمُ

(١) راجع ديوانه ٩١ — ٩٤ ، ١٣١ — ١٣٢ والكامل للمبرد ١ / ٣٩٩ (الاستقامة) وطبقات ابن سلام

٦٥١ (المدني) .

(٢) طبقات ابن سلام ٦٥٠ (المدني) . وليس في ديوانه إلا البيت الأخير منها ص ١٩٤ . الرب : صروف
 الدهر وحوادثه ، ورايه الدهر : أصابه بما يزعجه . طب : حاذق ماهر ، قال في هامش الطبقات « وأساء ابن الرقيات
 فإن الله أعلى وأجل من أن يوصف بغير ما وصف به نفسه سبحانه ، وأراد (خير) ، فأساء غاية الإساءة » ورجع أن
 يكون صواب قوله « بما ترين » « بما يريب » أي يفجع من حوادث الدهر . دعوى : أراد الدعاء ، وأراد ابن قيس
 الرقيات : دعوة الحق في قوله تعالى : « له دعوة الحق » (سورة الرعد ١٣ / ١٤) وهي شهادة الإسلام التي يدعى
 إليها أهل الملل الكافرة جميعاً . الحجر : هو حجر الكعبة ، وهو ماتركت قريش في بنائها من أساس إبراهيم وإسماعيل
 عليهما السلام . الخطيم : هو ما بين الركن الأسود إلى الباب إلى مقام إبراهيم ، حيث يتحطم الناس (أي يزدهون)
 للدعاء . عاذ الخليفة : كان ابن الزبير يلقب نفسه بالعائد بالبيت ، كما قدمنا .

لقد جعل قريشا في قلق وخوف مما فعل بها ، من فرقة على يد بنى أمية ، وجعل أمانها وخلصها مما فعله بها بنو أمية مرتبط بهذه الحركة وبزعيمها ابن الزبير ، الذي أراد الله — وهو الخبير العليم بما ينوب — أن يكون عز قريش ، ونعيمها على يديه ، وأن يكون خليفة لآبائه وأجداده ، الذين احتفظوا لقريش في موطنها وبلدها بعز المكانة وراسخ السلطان ، وماموطن قريش إلا هذا البلد الحرام ، المؤيد بأمان الله ، الذي اتخذ ابن الزبير مركزا لخلافته ، وعاصمة للملكه .

ودلالة هذه المعاني على القصد إلى تأييد حركة ابن الزبير القرشية غير خافية ، غير أنها لا تخرج عن كونها مجرد دعاوى تصدق على ابن الزبير ، وعلى غيره من ذوى المكانة في قريش ، المعاصرين لابن الزبير ، وفي مقدمتهم زعماء آل البيت .

وتمثل هذه الدعاوى مضى ابن قيس الرقيات في محاولاته تأييد خلافة ابن الزبير ، في أبيات أخرى له ، يذكر فيها انتساب ابن الزبير إلى أشرف القرشيين الذين سكنوا الحرم وخدموه ، وأنه أعدل القرشيين المعاصرين له حكما وقضاء ، وأرفعهم شأنًا ومكانة ، وأعلمهم بما أصاب قريشاً من فرقة ، وأبرؤهم من هذه النكبات التي أصابها ونحو ذلك ، مما نره في قوله ^(١) :

أَنْتَ ابْنُ مُعْتَلِجِ الْبَطْأِ	ح كُدَيْهَا فَكَدَائِهَا
فَمَحْلُ أَعْلَاهَا إِلَى	عَفَاتِهَا فَحَرَائِهَا
مَنْ سَرَّهَا فِيهَا وَمَعَ	يَدِ بَرِّهَا وَوَفَائِهَا
أَوْفَى قَرِيشَ بِالْعَلَا	فِي حُكْمِهَا وَقَضَائِهَا
وَلَأَنْتَ أَعْلَمُهَا بِهَا	وَأَصْحُهَا مِنْ دَائِهَا
وَأَتَمُّهَا نَسْباً إِذَا	نُسِبَتْ إِلَى آبَائِهَا

فهذه الدعاوى خطائية ، لا يسلك الشاعر فيها مسلك البرهنة والاحتجاج ، كما فعل الكميت مثلاً في تأييد حق الهاشميين ؛ ولذا يبدو ابن قيس الرقيات في شعره هذا أشبه بالخطيب ، غير أن إخلاصه لفكرته ، وانفعاله بما يقول ، وحسن عرضه له ، قد

(١) ديوانه ١١٧ . معتلج البطاح : يعنى بطن مكة الذى يعتلج فيه الرمل والحصى ، أى يتراكم ، ويدخل بعضه في بعض . كُدَى : جبل بأسفل مكة ، كَدَاء : جبل بأعلاها .

أسبغ على هذا الشعر ، وعلى القضية التي يؤيدها لونا من الجاذبية ، جديرا باهتمام السامعين ، وتعاطفهم ، وهذا ماجعل ابن قيس الرقيات شاعر الزبيرين ، وكسبا لحركتهم .

على ضوء مادرسنا من شعر الزبيرين في الإشادة بابن الزبير وآله خاصة ، وماتركنا — مما لا يختلف كثيرا عما ذكرنا — نحسب أن هذا الشعر قد قَصُر عن بلوغ الغاية ، التي ترتجى من الشعر السياسي ، في هذا المجال ، للأسباب التي أشرنا إليها في مقدمة الحديث عن شعر الزبيرين .

ب : التصدى لخصوم دعوى ابن الزبير :

كان الزبيريون ينقمون على بنى أمية سياستهم الجائرة ، واستئثارهم بأموال بيت مال المسلمين ، وإنفاقها على ملذاتهم وترفهم وصنائعهم ، وحرمان ذوى الحقوق من حقهم ، لالشيء ، إلا لأنهم لا يؤيدون سياستهم الغاشمة الظالمة المستبدة .

والزبيريون يأخذون على بنى أمية أيضا تجريدهم الحجاز من عز الخلافة ، واعتزازهم بالجمنية ، وعدائهم لقومهم المضرين .

أما الخوارج فالزبيريون يمتنون فيهم نزعتهم الجمهورية ، وإنكارهم على قريش حقها الثابت لها ، في قصر الخلافة على أبنائها .

كما يأخذون على الشيعة ، ما يذهبون إليه من قصر الخلافة ، على بنى هاشم من دون غيرهم من القرشيين ، وينقمون منهم ارتداءهم في أحضان الموالي ، ومنهم من يكيد للإسلام ، ويدعو للكسروية .

من أجل هذا نجد شعراء آل الزبير ، يحملون على هؤلاء جميعا في أشعارهم ، باعتبارهم منحرفين عن الحق ، مدعين بهتانا من الأمر وزورا .

ولما كانت دعوى الزبيرين قد قامت على التعصب للمضرية بعامه ، والقرشية بخاصة ؛ لتناهض تعصب بنى أمية لليمينية ، فابن قيس الرقيات يحمل على هذه السياسة الأموية ، مؤكدا أن قريشا ستظل عزيزة الجانب ، عالية المجد ، مرفوعة الهامة، فمنها النبی ﷺ القرشي، ومنها خلفاؤه الأنقياء الراشدون ، فليمت أعداؤها كمدا ، ولتذهب

أنفسهم حشرات بأدواء الحقد عليها ، واشتهاء فنائها ، فأحقادهم لن تنال منها ؛ لأن البقاء والفناء بيد الله لا بأيديهم .

نرى هذا في قوله ، مخاطبا عبد الملك بن مروان ^(١) :

أيها المشتتهى فناء قريش بيد الله عمرها والفناء
قد عَمَرْنَا فَمَتَّ بِدَائِكَ غِيظًا لَا تُمِيتُنَّ غَيْرَكَ الْأَدْوَاءُ
إِنْ مِنْهُ النَّبِيُّ الْأُمَيُّ وَالصَّدِيدُ حَقٌّ مِنَّا التَّقَى وَالْخُلَفَاءُ

وقد أخذ شعر ابن قيس الرقيات طابع الثورة على الأمويين ، والتحريض على قتالهم ، والدعوة إلى القضاء على دولتهم بالشام ، معرباً عن عداء الشاعر الصريح لهؤلاء الذين يكيدون لقريش ، ضمن هذا قوله ^(٢) :

كَيْفَ تُؤْمِي عَلَى الْفَرَّاشِ وَلَمَّا تَشْمَلِ الشَّامَ غَارَةً شَعْوَاءُ
تُذْهِلُ الشَّيْخَ عَنْ بَنِيهِ وَتَبْدِي عَنْ بَرَاهَا الْعَقِيلَةَ الْعِذْرَاءُ
أَنَا عَنْكُمْ بَنِي أُمِيَّةٍ مُزَوَّرٌ وَأَنْتُمْ فِي نَفْسِي الْأَعْدَاءُ

إنها دعوة إلى ثورة عنيفة ، تقذف الرعب والهلع في قلوب أهل الشام الأمويين ، حتى يلتمس الأب الهرب متخلياً عن أبنائه ، وتنسى الفتيات العذراوات حياءهن ، فيكشفن عن سيقانهن أثناء الهرب ، مشغولات بالنجاة بأنفسن من هول ماتنزل هذه الثورة بأهل الشام .

ومثل هذه الثورة يهذد زُفَرُ بْنُ الْحَارِثِ الْكَلَابِيُّ ^(٣) بنى أمية ، فيقول ^(٤) :

(١) ديوانه ٩٤ وطبقات ابن سلام ٥٣٠ . عمرنا : يقال : عمر الرجل : إذا عاش زماناً طويلاً .

(٢) ديوانه ٩٥ والشعر والشعراء ٢١٣ . البرى : هى هنا الخلاخيل .

(٣) أبو الهذيل زفر بن الحارث ، من بنى يزيد بن عمرو بن الصق ، ثم من بنى كلاب ، تابعى كان يقيم بالجزيرة أيامه مروان بن الحكم ، ساد قومه في أيام ، شهد صفين مع معاوية ، وقاد القيسية مع الضحاك يوم مرج راهط ضد مروان وأهل الشام وهرب إلى قرقيسيا وبها مات سنة ٧٥ هـ . انظر الاشتقاق ٢٩٧ والمؤتلف ١٢٩ وخزانة الأدب ١ / ٣٩٣ ، والطبرى في حوادث سنة ٦٥ هـ حول موقعة مرج راهط .

(٤) شرح الحماسة للمرزوقي ٢ / ٦٤٩ - ٦٥١ . ابن بحدل : هو حسان بن مالك بن بحدل الكلبي . وهو أخو ميسون بنت بحدل الكلبية التي تزوجها معاوية بن أبي سفيان ، وكان حسان زعيماً لبني كلب ، وحارب مع مروان بن الحكم في موقعة مرج راهط . ترجل : ترتفع . ومعنى أفى الله ... الخ : أفى ذات الله ومرضى حكمه ، أى هل مما يرضى الله الحرص على حياة هذا البلوى حسان الكلبي بموالاته ، بينما يطلب ابن الزبير التقى الورع للقتل

أَفَى اللَّهِ أَمَا بَحْدَلُ وابنُ بَحْدَلٍ فيحياً وأما ابنُ الزبير فيقتل؟!
كذبتم وبیت الله لا تقتلونہ ولما یکن یومٌ أغرُّ مُحَجَّلٌ
ولما یکن للمشرقة فوقکم شعاعٌ كقرن الشمس حين تَرَجَّلُ

إنه يوجه نقداً لاذعاً لسياسة بنى أمية ، التي لا تراعى جانب الله والدين فيمن توالى ، وفيمن تعادى ، فهي توالى كل من يتعصب للأُموية ، وإن لم يعرف بفضيلة في الدين ، أو مزية في نصرة الإسلام والمسلمين ، وتعادى الأتقياء الصالحين ، الذين يعرفون لله حقه ، ويعبدونه حق عبادته ، ويرعون مصالح عباده بما يرضيه ، ثم هو يهددهم بأنهم لن يتمكنوا من عبد الله بن الزبير ، وإنما سيواجهون حرباً شعواء ، تتحدث بهوها عليهم الأيام ، وتعلو فيها السيوف القاطعة هاماتهم ، فتخطف أرواحهم خطفاً .

ولما تجرأ بنو أمية على حرمة المدينة ، وأوطأوا جيوشهم الشامية أرضها الطاهرة ، وأعملوا السيف في رقاب أهلها الموالين لابن الزبير ، في موقعة الحرة ^(١) ، قال عبد الله بن حنظلة المعروف بابن الغسيل ^(٢) ، يهجو بنى أمية ، وهو يقاتل ، مرتجياً ^(٣) :

بُعْدًا لِمَنْ رَامَ الفسادَ وطغى
وجانبَ الحقِّ وآياتَ الهدى
لا يُبْعَدُ الرحمنُ إلا مَنْ عَصَى

ويذكرنا هذا الهجاء ، بالهجاء عند كل من الشيعة والأمويين والخوارج ، لقيامه على سلب بعض الصفات الدينية ، فالأمويون في نظر ابن الغسيل طغاة ، مفسدون في الأرض ، خارجون على الدين ، مجانبون للحق ، عصاة ، عليهم لعنة الله ، لانحرافهم عن هدى القرآن .

ولابن قيس الرقيات ضرب طريف من التهجم على بنى أمية ، اتخذ له قالب الغزل

(١) راجع في خبر هذه الموقعة وعدد من قتل فيها من الصحابة وأبنائهم ومواليهم ، ص ٢٨ من هذه الدراسة .

(٢) عبد الله بن حنظلة (وحنظلة هو الغسيل) الأنصاري ، كان على رأس جند الأنصار ، دفاعاً عن المدينة يوم الحرة ، وفيها قتل أولاده جميعاً . انظر : الطبري ٧ / ٩ والكمال لابن الأثير ٤ / ١١٥ — ١١٧ (بيروت) .

(٣) الطبري ٧ / ١٠ والكمال لابن الأثير ٤ / ١١٧ (بيروت) .

الذى أراد به النكاية فى بنى أمية ، وإغاظتهم ، وتجريحهم ، يطلق عليه الدكتور طه حسين « الغزل الهجائى » ^(١) ، ويمكن أن نطلق عليه أيضا « الغزل الكيدى » أو « الغزل السياسى » ، وهو غزل لا يصدر عن الشاعر تعبيرا عن عاطفة الحب ، بل قصداً إلى التشهير بأعراض الخصوم ، وإغاظتهم ، وتحقيرهم بين الناس .

من ذلك قوله يشبُّ بأم البنين ، زوج الوليد بن عبد الملك ، وابنة عمه عبد العزيز بن مروان ^(٢) :

أصحوث عن أم البنيـ ن وذكـرها وعنائها
وهجرتها هجر امرئـ لم يقل صفو صفائها
زادت على البيض الحسا ن بحسنا ونقائها
لولا هوى أم البنيـ ن وحاجتى للقائها
قد قربت لى بغلة محبوسة لنجائها

وله أبيات أخرى يدعى فيها أنها زارته فى المنام ، فقبلها ، وضاجعها ، وأعجبته وأعجبها ، ولاشك أن ابن قيس الرقيات قد بلغ من هذا الغزل ما أراد ، فقد ثارت ثائرة الأمويين ، وغلت صدورهم بالغضب والحقد عليه ، فتوعده ، وأهدروا دمه ، والذى يهمنى هنا أن شاعر الزبيريين ، قد أظهر الاستخفاف ببنى أمية ، ونال من هيبتهم ، وتحامل ولايتهم ، وسلطانهم ، ونحسبه ما قصد إلا إلى هذا .

بهذا الضرب من الغزل السياسى ، كان ابن قيس الرقيات أحد الشعراء المجددين فى فن الشعر السياسى فى العصر الأموى ^(٣) ، يقول الدكتور طه حسين : ^(٤) « هذا الغزل

(١) حديث الأربعة ٢٤٧

(٢) ديوانه ١٧٥ ، وانظر فى بعض أخبار أم البنين وشخصيتها : عيون الأخبار ٩٢ / ٢ . وانظر هامشه ومروج الذهب ١٥٣ / ٢ (البهية) .

(٣) ديوانه ١٢٣

(٤) سبق ابن قيس الرقيات إلى هذا النوع من الغزل — فى الإسلام — بعبد الرحمن بن حسان بن ثابت (انظر : الكامل للمبرد ٢٠٩ / ١ الأزهريه) وقال ابن سلام فى طبقاته ٢٨٢ (المدنى) عن كعب بن الأشرف اليهودى أنه كان يشبب بنساء رسول الله ﷺ ونساء المسلمين وأن الرسول ﷺ أمر بقتله لذلك ، فهنا غزل كيدى سابق لغزل عبد الرحمن بن حسان ، وابن قيس الرقيات . فدعوى طه حسين الآتية ليست على إطلاقها .

(٥) حديث الأربعة ١ / ٢٤٧

الهجائي ، الذى يكاد ابن قيس الرقيات يكون مبتدعه ، خليق بالعناية ، فهو لون من الألوان الفنية الجديدة التى استحدثتها الشعراء المسلمون « (ونضيف نحن) تحت تأثير السياسة فى العصر الأموى ، إلى جانب اللون الذى استحدثته الكميت بن زيد ، وهو شعر الجدل والاحتجاج والبرهنة .

وفى مجال التصدى للشيعية وأنصارهم ، لم يتجرأ الشعراء الزبيريون على مقام أئمة آل البيت أو رجالاته ، كما فعل شعراء الأمويون ، وإنما اتجهوا بخصومتهم وهجائهم إلى بعض كبار أنصارهم ، يسخرون منهم ، ويمونهم بالزيف ، والتخليط ، والانحراف عن الحق ، والجرأة على الدين ... ونحو ذلك ، مما نجد له نظيراً فى شعر الهجاء السياسى لدى الأحزاب الأخرى .

ففى قتال الزبيريين المختار بن أبى عبيد الثقفى ، الذى أظهر التشيع ، وانحاز زمانا للشيعية الكيسانية بالكوفة (سنة ٦٦ هـ) ، أسر المختار سراقه بن مرداس البارقي (١) فاحتال عليه حتى أطلقه ، فلحق بمصعب بن الزبير ، وكان المختار يزعم أنه يوحى إليه ، ويخدع أتباعه ، ببعض الحيل ؛ ليوهمهم أنه مؤيد بها من قبل الله ، فقال سراقه يتهم به ، ويتهدده ، ويعرض بكذبه ، وكفرو (٢) ، وكان المختار يكنى أبا اسحاق :

ألا أبلغ أبا اسحاق أننى رأيت البلق دُهماً مُصنّعات
أرى عينى ما لم تُبصره كلاناً عالم بالترهات
كفرت بوخيكم وجعلت نذراً على قتالكم حتى الممات
إذا قالوا أقول لهم كذبت وإن خرجوا لبست لهم أداقي

إنه يسخر من حمق أبى اسحاق المختار بن أبى عبيد ، وغفلته ؛ حيث صدق ما احتال به لينجو منه ، وكان سراقه زعم له أنه رأى الملائكة تنصره وتقاتل فى جيشه، وعبر عن ذلك بأنه يرى الأبيض أبيض، والأسود أسود، ولكنه ادعى أمام المختار خلاف ذلك،

(١) شاعر ظريف ، حلو الحديث ، مقرب للملوك ، قاتل المختار فأُسره المختار ، ثم احتال حتى أطلقه ، ولحق بمصعب ، وقدم العراق مع بشر بن مروان ، وله مهاجاة مع جرير وخبر طريف معه أيضاً . انظر : طبقات ابن سلام ٤٣٩ — ٤٤٤ (المدنى) والطبرى أحداث سنة ٦٦ هـ ص ١٢١ وما بعدها .

(٢) ديوانه ٧٨ والفرق بين الفرق ٣٥ وابن سلام ٤٤٠ (المدنى) والطبرى ٧ / ١٢٣ . البلق : البيض . مصنّعات : شديدة السواد . الترهات : الحيل والأكاذيب .

واحتال بما لم تره عيناه ، مجارة لهذا الأحق ، كما يتهم بما يدعيه المختار من الوحي ، ويتهدده إن عاد إلى قتال مصعب صاحبه ، بأنه سوف يكون على استعداد لقتاله .

ولم يبعد رأى الزبيريين في الخوارج عن نظرهم إلى الأمويين والشيعة ، فهم عندهم كفار ، مارقون ، مبعدون عن حظيرة الإسلام .

يعبر عن هذا ابن قيس الرقيات في قوله : (١)
 أَلَا طَرَقْتُ مِنْ أَهْلِ بَيْتَةِ طَارِقَةٍ عَلَى أَنَّهَا مَعْشُوقَةُ الدَّلِّ عَاشِقُهُ
 تَبَيَّتْ وَأَرْضُ السُّوسِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا وَسُؤْلُفُ رُسْتَاقٍ حَمَتُهُ الْأَزَارِقُ
 إِذَا نَحْنُ شَتْنَا صَادَفْتَنَا عَصَابَةٌ حَرُورِيَّةٌ أَضَحَّتْ مِنَ الدِّينِ مَارِقُهُ

وتحت المروق من الدين يمكن أن ترد كل المعاني الدينية التي حرص شعراء الأحزاب على إلصاقها بمخصوم حزبهم ؛ ليجردوهم من كل مزية في الدين ، وليخرجوهم من الملة ، فتتفر منهم قلوب المسلمين ، وتنفض عنهم جموعهم .

ج : رثاء قتلى الزبيريين :

على الرغم من قصر المدة التي عاشتها حركة ابن الزبير ، فإنها كانت مشحونة بالحروب والوقائع ، التي دارت بين أنصارها ، وأنصار الشيعة بالعراق ، وبينها وبين جيوش الدولة الأموية في العراق والشام والحجاز خاصة .

في هذه الحروب قتل كثير من رجال دولة ابن الزبير ، وبخاصة في معارك مصعب مع الأمويين بالعراق ، التي انتهت بقتله ، وفي معركة الحرّة الشهيرة بالمدينة — كما قدمنا .

ومع ذلك لم نجد لشعراء الزبيريين في رثاء هؤلاء القتلى إلا شعرا قليلا ، أكثره في رثاء مصعب ، وقتلى الحرّة ، وأجوده وأجدره بالرواية ، ماجاء على لسان شاعرهم الفحل ، عبيد الله بن قيس الرقيات .

(١) الكامل للمبرد ٣ / ١٠٧ ، ١٨٧ (الأزهرية) والكامل لابن الأثير ٤ / ١٩٧ (بيروت) . ثبته : قيل : هو لقب لعبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، وقيل كانت أمه ترقصه وتقول بية ، (انظر الطبري ٧ / ٢٤ ، ٢٦) فهو لقب قرشي ، وقيل : قوم بمكة تعرف دارهم بدار بية (انظر القاموس ١ / ٣٨) السوس : بلدة بالأهواز . سولاف : ناحية بخوزستان . الرستاق : القرى .

وربما كانت قلة الرثاء في شعرهم راجعة إلى ماسبق ذكره ، من أن أكثر شعراء دولة ابن الزبير كانوا من الشعراء ذوى الأهواء والمطامع المادية ، وهؤلاء إنما تتحقق مطامعهم ومكاسبهم بالمدح لا بالرثاء .

ومن أجود ما قال ابن قيس الرقيات في رثاء مصعب بن الزبير ، الذى قتل سنة ٧١ أو ٧٢ هـ بالكوفة ، شعره الذى يندد فيه بقبائل مضر التى غدرت بمصعب ؛ وخلت بينه وبين جيوش عبد الملك بن مروان بموقعة مسكن — على نهر دجيل عند دير الجاثليق — قريبا من الكوفة ، وفيه يقول : ^(١)

إن الرزية يوم مسد	نكن والمصيبة والفجيعة
بابن الحواري الذى	لم يعده أهل الوقعة
غدرت به مضر العرا	ق وأمكنت منه ربيعة
فأصببت وترك ياربيـ	ع وكنت سامعة مطيعة
ياحف لو كانت له	بالطف يوم الطف شيعه
أو لم يخونوا عهده	أهل العراق بنو اللكيعة
لوجدتموه حين يغـ	ضرب لا يعرج بالمضيعة

فهو يسجل قعود مضر عن نصرته على ربيعة ، التى قتلتها لتنصر بنى أمية ، وتذكر ثاراتها القديمة عند مضر العراق ، كما يصف أهل العراق الذين خذلوه بالغدر والخيانة واللؤم .

ويدير هذه المعانى فى صور أخرى فى أبيات له ، يقول فيها ^(٢) :

لقد أورث المصيرين خزيا وذلة قتيل بدير الجاثليق مقيم
فما نصحت لله بكر بن وائل ولاصبرت عند اللقاء تميم
ولو كان بكريا تعطف حوله كئائب يغلى حميها ويدوم
ولكنه ضاع الذمام ولم يكن بها مضير يوم ذاك كريم

(١) ديوانه ١٨٤ ، أهل الوقعة : يشير إلى غدر أهل العراق ، اللكيعة : اللثيمة . لا يعرج بالمضيعة : لا يقيم على الذل . وانظر فى خير معركة مسكن التى قتل فيها مصعب : الطبرى ٧ / ١٨٤ والكامل لابن الأثير ٤ / ٣٢٣ ومابعدها (بيروت) والعبر للذهبي ١ / ٨٠ وأيام العرف فى الإسلام ٤٦١ — ٤٦٥ .

(٢) الطبرى ٧ / ١٨٧ . وانظر التعريف بدير الجاثليق فى ص ١٥٥ هامش ٤ من هذه الدراسة .

جزى الله كوفيًا هناك ملامه ونصريتهم إن المليم مُليم
فإن نَقَرَ لايَقُوا أولئك بعدنا لدى حُرمة في المسلمين حريم

وروح العصبية القبلية تطل من هذا الرثاء ، وكأنه رثاء قبل ، فابن قيس الرقيات يلوم العصبية المضرية ، لأنها لم تقف في وجه ربيعة ، وتنصر مصعب وتدافع عنه ، وتحميه من بطش الأمويين ، ويوينح بكرا، ويؤنب تيماً ، ويرمى مضر باللؤم ، ويصب غضبه على أهل المصرين الكوفة والبصرة بعامة .

وهذا ليس بغريب من ابن قيس الرقيات ، فالقبلية باعته الأساسي في شعره الذي يناصر آل الزبير ، ويؤيد دولتهم ، لأنه في الحقيقة انتصار لقريش ، وتأيد لحقها في استرداد عزاها ، وعز موطنها الحجاز ، والعصبية هي مادة حديثه في رثائه أيضا .
أماموقة الحرة ، فقد كانت شديدة الوقع على نفس ابن قيس الرقيات ؛ إذ كان له بين قتلها إخوة ، وأهل وأحباب ، فكان رثاؤه حارا حزينا ، ممزوجا بالغیظ والحنق والوعيد ، نرى هذا في قوله : (١)

كيف الرقاد وكلما هجعت عيني ألم خيال إخوتي
تبكي لهم أسماء معلولة وتقول ليلى وأرزيتي
والله أبرح في مقدمة أهدي الجيوش على شكتي
حتى أفجعهم بإخوتهم وأسوق نسوتهم بنسوتيه

ولا يمثل الموتورين من ظلم بنى أمية وعدوانهم ، مثلما تمثلهم أبيات ابن قيس الرقيات هذه ، بما فيها من وعيد ملتهب بنار الحزن والأسى ، وماتضمنته من ألفاظ سهلة وقافية لينة ممتدة (٢) ، وعاطفة قوية مغيظة ، تتفجر حسرة و ألما .

ي : نظرات فنية في شعر الزبيريين السياسي :

١ — ضعف الاحتجاج والبرهنة على صواب دعوتهم ؛ إذ لم نجد من تصدى

(١) ديوانه ١٩٥ . الشكة : السلاح ، وفي موقعة الحرة قتل سعد وأسامة ابنا أخيه يزيد فرثاهما في أبيات من هذه القصيدة . انظرها . في ديوانه ، وسطم اللآل ١ / ٣٢١

(٢) أنشد ابن قيس الرقيات هذه الأبيات في مجلس عبد الملك ، فقال له : أحسنت يا ابن قيس ، لولا أنك خنثت قوافيه — يقصد أن الهاء في آخره جعلته رخوا ، كما يقول أبو عمرو بن العلاء — فقال : يأمر المؤمنين ماعدوت قول الله تعالى : « ما أغنى عنى ماله ، هلك عنى سلطانيه » فقال له عبد الملك : أنت في هذا أشعر منك في شعرك . (مجالس العلماء للزجاجي ١٨٨) .

للتعبير عن آرائهم إلا ابن قيس الرقيات ، وهو مع ذلك لم يلجأ في تأييد دعواهم إلى البراهين والحجج المقنعة ، المدعمة بالأدلة الشرعية أو العقلية ، وهو في هذا يشبه إلى حد كبير منهج شعراء الأمويين في الاحتجاج لهم ، إذ لم تخرج دعاوى هؤلاء وأولئك ، عن كونها دعاوى خطابية ، يعوزها التعليل والبرهان .

٢ — قلة النتاج الشعري ، الذى خلفه شعراؤهم ، إذا استثنينا مادار من شعر حول معركة مرج راهط ، وماتولد عنها من غارات ومعارك بين القيسية واليمينية ؛ لأن الغالبية العظمى من مادة هذا الشعر ، تنبعث عن العصبية القبلية ، وتصورها أكثر مما تصور ماقامت أساسا من أجله ، وهو حماية خلافة ابن الزبير ، والدفاع عنها ، والتحكيم لها ، أى أنها لاتصلح موضوعا للدراسة في مقام الحديث عن الشعر السياسى في العصر الأموى .

٣ — قلة المعانى الدينية في أشعارهم ، فهي لاتتجاوز بعض الصفات الدينية ، التى تشيد بتقوى ابن الزبير ، وأخيه مصعب ، وصلاحيهما ، وعدلهما ، وحراستهما لدين الله ، وحمايتهما للحرمين ، وبعض المعانى التى تسلب بعض الصفات الدينية عن خصومهم وبخاصة الأمويين ، وأكثر ماتلدور معانيمهم ، حول الكرم والشجاعة والاعتزاز بالحجاز ، والتعصب لقريش ومضر ، وشرف الانتساب إليهم في مقام الإشادة ، ونقضها في مقام التنديد ، وكل هذا يتضح من نماذجهم التى قدمناها في هذه الأغراض .

٤ — في شعرهم قوة ، وجزالة تشبه فصاحة البادية ، إذ كان أكثر شعرائهم بدوا ، ويمتاز ابن قيس الرقيات في شعره المناصر لهم ، بسهولة اللفظ والعبارة ، وحسن العرض ، ورشاقة الوزن ، وحرارة العاطفة ، ونماذجه السابقة في المدح والتأييد والثناء خير شاهد عن ماذكرنا .

٥ — انفراد شعرهم في التصدى لخصومهم بهذا الغزل السياسى ، أو الكيدى ، أو الهجائى ، الذى كاد ابن قيس الرقيات يكون مبتدعه ، كما يقول الدكتور طه حسين .

تعقيب على الشعر السياسى بعامة

في هذا العصر

لعلنا بعد هذه المعاشاة لشعر الأحزاب السياسية في العصر الأموى ، التى طالت

— نوعاً ما — نستطيع أن نحدد أهم معالم التطور أو التجديد ، التي حظى بها الشعر العربي في هذا العصر ، تحت تأثير السياسة الحزبية فيه .
ويمكن إيجاز هذه المعالم في النقاط الآتية :

(١) لعل أول مايلفت النظر هذا الفيض الزاخر من الشعر ، الذي جعل من السياسة — بمعناها في هذا العصر — محوره ومداره ، فالصراع بين الأحزاب ، ومآثر بينها من خلاف سياسى ومذهبي ، وماقتضته سياسة الأحزاب من اصطناع الشعراء لترويج دعاواهم ، كل ذلك وغيره ، مما أشرنا اليه في المقدمة ، كان من أهم العوامل التي أثرت الشعر وفجرت ينابيعه ، وحركت شياطينه ، فألهمت الشعراء بألوان وضروب من القول ، تعددت موضوعاتها ، وغزرت معانيها ، وتنوعت أساليبها .

(٢) كثرة الشعراء الذين شاركوا بشعرهم في ميدان السياسة ، حتى لا يكاد يخلو شعر شاعر في هذا العصر من هذه المشاركة ولو بأبيات ، بينما كان الشعراء الذين أسهموا بشعرهم في الحياة الإسلامية العامة قبل هذا العصر محدودى العدد والنتاج ، إلى حد كبير ، بالقياس إلى شعراء العصر الأموى .

وكان التنافس بين زعماء الأحزاب ، في الإغداق على الشعراء ذا أثر كبير في إبراز مواهب كثير من الشعراء ، ارتقوا بفنهم إلى مرتبة الفحول في هذا العصر ، بحيث لم يخل حزب من بعض هؤلاء الفحول .

ففى الحزب الشيعى نعرف الكميت بن زيد ، وكثير عزة ، والسيد الحميرى ، وفى الحزب الأموى يتربع الأخطل وجريز والفرزدق على قمة الفحولة ، لافى شعر العصر الأموى وحده ، بل فى الشعر العربى فى العصور الإسلامية القديمة بعامة ، وفى الخوارج تلمع أسماء قَطْرَى بن الفُجاءة ، والطَّرِمَاح بن حَكِيم ، وعِمْران بن حِطَّان ، وفى الحزب الزبيرى يعترف الشعر العربى بالعبقريّة والنبوغ لابن قيس الرقيات .

٣— اختلاف ألوان الشعر السياسى تبعاً لتعدد ألوان الأحزاب السياسة والدينية ، فكان الشعر عند شعراء بنى أمية حديثاً عن سعة سلطانهم ، وقوة ملكهم ، وتسلطهم ، وقوة جيوشهم ، ورجاحة عقولهم . أو تهديداً لأعدائهم ، وتهكماً بهم ، فمثل شعر (الاستقرائية) الملكية .

وعند شعراء الشيعة ، إستشارة لحماسة الجماهير الإسلامية ، واجتذابا لعواطفهم ، ونقمة على أعدائهم ، فهو شعر المضطهدين ، المنكوبين في حياتهم وحقوقهم ، وعند شعراء آل الزبير ، تمجيدا لأصلهم القرشي ، وإذاعة لمسلكتهم الديني ، ولدعواهم العريضة ، فهو شعر التعصب القبلي والإقليمي .

وعند شعراء الخوارج ، تصويراً لحياتهم ، وانعكاسا لشخصيتهم المتفردة بالحماس الديني ، والبطولة الفدائية ، وتعبيراً عما يجول في روعهم ، ويضطرم في صدورهم من حب الشهادة ، في سبيل الحق الذي خرجوا من أجله ، واستهانة بما يكابدونه في سبيله من آلام وعقبات ، فهو شعر الحماسة الدينية والحرية .

٤ — التأثير بالأفكار والمعاني الدينية والمذهبية ، على صورة أوسع نطاقا ، مما نراه في الشعر السابق على هذا العصر .

وهذا أمر طبيعي ، إذا تذكرنا ماسبق أن أشرنا إليه من المبادئ والآراء والنظريات والعقائد ، التي أخذت تتبلور ، لتكوّن الأسس الهامة ، التي تنبعث عنها الأحزاب السياسية في العصر الأموي ، في نشاطها السياسي والديني والحرثي ، وعلى الأخص حزبي الشيعة والخوارج ، حيث تكثر البواعث الدينية في المجالات المتعددة لنشاطهما ، « والحق أن المسائل السياسية في جماعة بنت كيائها على أساس ديني ، لا بد أن تصطبغ بصبغة دينية ، وأن تتخذ المصالح الدينية مظهرها لها — على الأقل — مما يضيف على المنازعات السياسية طابعاً خاصاً » (١) .

نعم ، لقد رأت الأحزاب في هذا العصر أنه من الضروري ؛ لتكون مقبولة لدى جمهور المسلمين ، أن تأخذ صبغة دينية تحاول بها النفاذ إلى مشاعر الناس ، والتأثير عليها .

واستجاب الشعر لهوى الأحزاب ، فراح يستمد من الدين كثيرا من أفكاره ومعانيه ، وأقبل بعض الشعراء على القرآن الكريم ، يستلهمونه الحجة والدليل ، ويستوحونه المعنى والأسلوب .

وهذه الصبغة الدينية قد رأيناها في شعر الأحزاب جميعا — وإن تضاءلت في شعر الزيريين — تخف ألوانها حينما كما رأينا في الشعر الأموى ، وتزهو أحيانا ، كما في شعر الشيعة والخوارج ، وهى عند الشيعة — والخوارج على قلة — تأخذ طابعا مذهبيا ، يجعل كثيرا من شعرهم مذهبيا خالصا ؛ بحيث يعد إضافة جديدة ، لم يعرفها الشعر العربى من قبل ، وقد دللنا على جدته فيما سلف ^(١) ؛ إذ تتردد فيه المصطلحات المذهبية ، وتتضح فيه أساليب الجدل والبرهنة ، المتأثرة بمناهج المفكرين والمتكلمين والفقهاء في هذا العصر ، وبخاصة في أواخره ، وعلى يد الكميت ابن زيد ، صاحب الهاشميات ، التى يقول عنها الدكتور شوقى ضيف : إنها « تعد لونا أدبيا جديدا في تاريخ الشعر العربى ، فمن قبل الكميت لم يتخذ شاعر شعره لإثبات مقالة مذهبية ، أما الكميت فإنه عمد عمدا إلى صياغة مقالة الزيدية في الشعر ، مستعينا بكل ماثقفه العقل العربى في العراق لهذا العصر ، من صور حجاج وجدال واستدلال » ^(٢) وقد تكون قيمة هذا الشعر الفكرية أكثر من قيمته الفنية ؛ لأنه يعنى بالناحية الموضوعية ، أكثر من عنايته برقة التعبير وجمال الأساليب ورونق الألفاظ ، ومع هذا ، فهو يعد اتجاهها جديدا حقا في الشعر العربى ^(٣) ، غرسته وأثمته وغذته الخصومات السياسية في العصر الأموى .

(٥) وهناك تأثير آخر واضح وهام للسياسة في شعر هذه الفترة ، وهو أثر أيضا لما ذكرنا من حرص الأحزاب على صبغ دعاواها بالصبغة الدينية ، فليس من شك في أن المعانى الإسلامية المحضة الغزيرة التى غزت الشعر العربى في عصر بنى أمية ، كانت أول تطور موضوعى لِفَنِّى المدح والهجاء ، فقد بدأ كل منهما يهتم بالفضائل المعنوية الدينية — إيجابا أو سلبا — أكثر من اهتمامه بالفضائل الحسية ، كهواء الطلعة وبسطة الجسم ، وما إلى ذلك في المدح ، وقبح الوجه وزرابة الهيئة وغيرهما في الهجاء .

(١) راجع ص ١١٩ — ١٢١ من هذه الدراسة .

(٢) التطور والتجديد : (شوقى) ص ٣١٧

(٣) انظر : اتجاهات الشعر العربى : (هدارة) ص ٣٥٣

ومع أننا لانففى أن كلا من هذين الفنين كان يتضمن بعض الأوصاف الحسية ، فإن هذه الأوصاف لم تكن مقصودة لذاتها ، بل كانت تقتزن — غالبا — بمعان دينية ترمى إليها ، فبهاء الطلعة ، وإشراق الوجه ، يُعربان عن التقوى والورع ، ونقاء السرية (١) ، وقوة أسر العينين دليل الذكاء والفطنة ، والبسطة في الجسم مظهر من مظاهر الهيبة ، وعكس ذلك في مقام الهجاء .

من هذا يتضح أن الشعر في عصر بنى أمية تطور تحت تأثير السياسة ، ولابد لنا من الرجوع إلى نماذج الشعر التى سقناها آنفا لدى الأحزاب المختلفة ، لنربط بين هذه النماذج ونواحي التطور المذكورة هنا ، وبخاصة الثلاث الأخيرة منها .

(١) من ذلك قول ابن قيس الرقيات في الإشادة بمصعب بن الزبير :

إنما مصعب شهاب من اللآه ————— تجلت عن وجهه الظلماء

الفصل الثالث

شعر الخصومة القبلية

نقصد بالشعر القبلى هنا ، ذلك اللون من الشعر ، الذى ارتبط بصحوة العصبية القبلية فى العصر الأموى ، وعبر عنها ، وسار فى ركابها ، تلهمه مادته ، وتمنحه القوة والذويوع والازدهار ، وينفخ هو فى نارها ، فيلهبها ، ويزيدها اشتعالا .

وإذا كانت بعض دواعى السياسة والاجتماع ^(١) ، قد شجعت على إحياء العصبية القبلية ، وأمدتها بمقومات نهوضها وتطورها وحدثها ، فإن الشعر الناتج عن هذه الخصومات القبلية ، يختلف أساسا عن الشعر الذى كان وليد الخصومات السياسية بين الأحزاب ، من حيث الباعث ، ومن حيث الغاية ، فى كل منهما .

فالشاعر فى الخصومات القبلية ، يحركه ، أولا وقبل كل شيء ، الولاء للقبيلة التى ينافع عنها ، ويتعصب لها ، وهى فى الأعم الأغلب قبيلته ، وغايته تمجيد هذه القبيلة ، والإشادة بمآثرها ، وانتصاراتها ، وإذاعة مفاخر ماضيها وحاضرها ، والتنديد بأعدائها ، وإبراز مثالبهم .

ومعنى هذا أن شخصية الشاعر ، وآراءه ، ومعتقداته الشخصية ، تتوارى فى هذا الشعر ، لتخلى مكانها لشخصية القبيلة ، فهو لا يفتخر ببطولته ، وبلائه ، وصبره على القتال ، وإنما يفتخر ببلاء قبيلته وشجاعتها ، وصبرها فى مواطن النزال ، كما يزهو بأبنائها الكرام ، الذين جاءوا من آباء كرام ، وبمكانتها بين القبائل الأخرى ، وينوه بمحاسنها وفضائلها التى تعزز بها ، فالقبيلة إذن هى محور شعره وباعته ، وخدمتها قصده وغايته .

وليس كذلك الشعر السياسى ، الذى يحل الحزب فيه محل القبيلة فى ولاء الشاعر له ، ودفاعه عنه ، وإشادته به ، كما أنه يفسح المجال للشاعر ليعبر عن آرائه ومعتقداته ، ومشاعره نحو الحزب الذى ينتمى إليه .

هذا فضلا عما بين شعر الخصومات السياسية ، والشعر القبلى من فروق فنية ، تتناول الشكل والمضمون معا .

(١) راجع ما ذكرناه عن إحياء العصبية القبلية فى العصر الأموى ، فى مقدمة هذه الدراسة ص ٥٢ — ٥٦ .

وأيام العرب فى الإسلام ٣٥١ — ٣٧٨ .

ويكفى هنا أن نشير إلى واحد من هذه الفروق الفنية بين هذين اللونين ، تتعلق بفن الهجاء في كل منهما ، ففي الشعر القبلي نقف على غير قليل من المعاني والعبارات ، التي تחדش الحياء ، وتنافي الفضيلة ، وقيم الأخلاق والدين ، فيها إفحاش وغلو في هتك الحرمات ونهش الأعراض ، والتصریح بالخازی ، مما يضطر الباحث إلى إمساك لسانه عن روايته ، وترديد نصوصه ، أما الهجاء السياسي فلم ينزل إلى هذه الحمأة ، ونصوصه التي درسناها شاهد صدق على براءته ونقاته من البذاءة والفحش .

وستتضح الفروق الفنية بين الشعر القبلي والشعر السياسي ، من خلال دراستنا لنصوص من شعر الخصومات القبلية ، مقارنة بما سبقت دراسته من نصوص الشعر السياسي .

— ٢ —

كانت العصبية القبلية من أهم عناصر الحياة العربية في العصر الجاهلي ؛ إذ كانت ضرورة من ضرورات حياة الجاهليين ، لتكوين وحدات اجتماعية قائمة على أساس قبلي ، تتكفل بالعدالة الداخلية ، والأمن الخارجي لأفرادها وأسرها ، ولتحقيق السيادة في المواطن ، للإبقاء على الحياة ، والحفاظ على الشرف ، وبسط الحماية على القريب والجار ، « مادامت الحياة البدوية مضطربة ، لا تنتظمها وحدة شعبية شاملة ، ولا ترأسها حكومة عامة تفرض النظام ، وتقرر الأمن ، وتنفذ القانون ، وتنتصف للمظلوم » ^(١).

وكان هذا يفرض على البدوي الاحتفاء بقبيلته ، فهي ملجؤه وملاذه ، من عزها وسطوتها يستمد عزته وسطوته ، في تلك البيئة الصحراوية التي تهدده ، في كل وقت ، بالمخاطر والحزن ، مما يجعله في أمس الحاجة إلى ملاذ يلوذ به وقت الشدة ، ونجدة تسعفه ، حين يحزبه الضر ، ويتراءى له شبح الخطر .

من أجل هذا كان تعصب البدوي لقبيلته شديداً ، واعتزازه بالانتساب إليها لاحدله ، فهو يحميها لتحميمه ، ويدافع عنها ؛ لتنصره .

وكان لهذه العصبية القبلية أثر كبير في الشعر الجاهلي ، فكثيرا ما دفعت الشعراء

(١) تاريخ النقائص (الشاب) ١٦٩

إلى العزف على قيثارتها بأعذب ألحان التمجيد والتعظيم ، والإشادة بأمجاد قبيلتهم ، وأيامها وآثرها ، وأشد وأقسى القوافى فى ذم أعدائها ، ووصمهم بالعار والخزى ^(١).

ثم جاء الإسلام ، فأعلنها حرباً شعواء على العصبية القبلية ، ودعا إلى التآخى العام بين الناس جميعاً ، لافرق بين الأجناس والقبائل ، فالمؤمنون فى ظل الإسلام إخوة .

وأخذ الرسول (ﷺ) مدة حياته ينكر حمية الجاهلية ، ويقاومها فى العرب بحزم ، وتبعه خلفاؤه الراشدون على ذلك ، فتوارت العصبية القبلية ، وخمدت نارها حيناً ، ولو طال العهد بالرسول (ﷺ) ، وأنى بكر وعمر بخاصة ، لاستطاعوا أن يكسروا حدة هذه العصبية ، إن لم يقضوا عليها قضاء تاماً .

ولكن العصبية كانت أصيلة فى دم العرب ، متمكنة فى نفوسهم ، لايسهل استئصالها ، فبقيت حية عند كثرة العرب ، تشوه حياتهم الإسلامية ، وتصدع وحدتهم السياسية والاجتماعية ، على الرغم من حزم الرسول (ﷺ) وصرامة أنى بكر وعمر ، وجدهم فى مناهضتها ، والقضاء عليها .

وهل أدل على قوة سلطان العصبية القبلية على مشاعر العرب ، وبقائها حية كامنة فى نفوسهم ، مما يروى فى أخبار غزوة بنى المصطلق ، من أن رجلاً من المهاجرين كسع ^(٢) رجلاً من الأنصار ، فاشتبكاً فى قتال ، تداعت على إثره عشائرهما بدعوة العصبية القبلية ، فأنكر الرسول (ﷺ) هذه الدعوة الجاهلية ، وأراد عبد الله بن أنى بن سلول المنافق أن يشعلها ناراً ، فقال ما حكاها عنه القرآن : « لكن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ^(٣) » ؟!

لم تلبث العصبية القبلية أن وجدت لها متنفساً بعد مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان ، ثم أسفرت عن وجهها القبيح فى الصراع الذى قام بين على ومعاوية ، حيث انضمت اليمنية بالشام إلى معاوية ، لما كان له ولعثمان بن عفان ، من قبله ، من صهر فيهم ، إذ تزوج عثمان من نائلة بنت الفرافصة من قبيلة كلب اليمنية الحميرية ، واقتدى به

(١) لمزيد تفصيل راجع كتاب المؤلف : الشماع بن ضرار الديباني ٢٨

(٢) يقال : كسع الرجل الرجل إذا ضربه على دبره بيده أو بصدر قدمه .

(٣) سورة المنافقون ٦٣ / ٨ وانظر فى خير هذه الحادثة : تفسير الطبرى ٢٨ / ٧٣

معاوية فتزوج من ميسون بنت بحدل الكلبية أيضا ، وبذا ظفر معاوية بنصرة أصهاره وأحوال ابنه يزيد ، وفتح بذلك باب العصبية اليمنية ، وولج منه ، احتسابا لعصبية العدنانية ، التي رآها تسير في ركب السياسة الحجازية والعراقية ، بينما انحاز أكثر عرب القيسية إلى جانب علي .

وفي موقعة صفين أخذت القبائل العربية يحارب بعضها بعضا ، وتقطع شواجر أرماحها شواجر أرحامها ، مما قوى فيها الإحساس القبلي ، وأذكى في نفوس أهلها ما كان الإسلام قد أمحده من حياة جاهلية ، فيها غلبت الروح القبلية على كل شيء ، حتى أصبحت العصبية كل حياة القوم الاجتماعية .

كانت ميادين صفين هي التي رددت النغمات الأولى — تقريبا — المنبعثة من قيثاره العصبية القبلية القديمة ، ومن الجلي أن هذا إنما يرجع إلى أن صفين كانت حربا أهلية بين القبائل العربية ، أكثر منها حربا سياسية ، أعادت إلى الأذهان أيام الجاهلية القديمة ، نضيف إلى ذلك أن عليا ومعاوية كانا يحشدان كتائبهما حشدا قبليا ^(١) ، مما جعل جيوشهما يواجه بعضها بعضا في ميدان المنافسة ، فيدفعها هذا إلى التفاخر بالأنساب والأحساب والأيام ، على نحو ما فعل راجز بنى تميم ، مفتخرا بقبيلته يومذاك :

قد ضاربت في حربها تميمُ
إن تميماً خطبها عظيمُ
لها حديثٌ ولها قديمُ
إن الكريم نسله كريمُ

ومافعل راجز بنو أسد ، مرتجزا أمام كتائب قومه في صفين :

قد حافظت في حربها بنو أسد
ما مثلها تحت العجاج من أحد
أقرب من يُمنى وأتأى من نكد
كأننا ركننا ثبير أو أحد
لسنا بأوباش ولابيض البلد

(١) انظر : وقعة صفين ، لابن مزاحم ٢٢٦ — ٢٢٨ ، ٣٠٨ — ٣١١

لكننا المُنْحَة من وُلْد مَعَدَّ (١)

وكما عبر الرجز عن هذه الروح القبلية يوم صفين ، كذلك نهض القصيد ليسهم في هذه المعزوفة القبلية ، فالشعراء يتغنون بقبائلهم ، ويفتخرون بانتصاراتهم ، ويمدحون رؤساءهم وقادتهم ، في أنغام تشيع فيها العصبية القبلية ، ويسيطر عليها الإحساس بالقبيلة ، فهذا شاعر كنانى من المقاتلة مع على ، يعدد أسماء القبائل المتآزرة في مواجهة القبائل الشامية ، ويشيد بفعالهم ونكايتهم في أعدائهم (٢) :

حامث كِنانة في حرها	وحامث تميم وحامث أسد
وحامث هوازن يوم اللقا	إلى حضرموت وأهل الجند
فلما تنادوا بآبائهم	دعونا مَعَدَّ ونعم المَعَدَّ
فظلنا نُفْلَق هاماتهم	ولم نكُ فيها بيض البلد
ونعم الفوارس يوم اللقا	فقل في عديد وقل في عدد
وقل في طعان كُفرغ الدلا	وضرب عظيم كنار الوقد
طحنا الفوارس وسط العجاج	وسقنا الزعانف سوق التقد

وواضح أن الشاعر يتحدث عن العصبية المعديّة المضرية ، في مواجهة العصبية اليمنية . كما يبدو في البيت الثانى والثالث .

فهو يفخر بمضر ويعدد قبائلها ، ويشنى عليها ، ولكنه لا ينسى أن يبدأ بقبيلته كنانة ، ولا ينسى كذلك أن هذا الشاعر المضرى إنما جمع بين القبائل المضرية ، لتنافس القبائل الربيعية ، التى كانت تقاتل في صفوف على أيضا ، قتالاً أثنى عليه على ، مما أثار حسد المضرية ، فطلبت أن تفرد لها أيام تقابل فيها وحدها ، حتى يرى على صدق قتالها ، وبالفعل استجاب على لهذا المطلب ، غير أن تفشى العصبية بين قبائل مضر ، لم يمكنها من الاجتماع جميعا في يوم واحد للقتال ، فحدد لكل قبيلة منها يوماً تقاتل فيه (٣) .

(١) انظر في هذه الأخبار المصدر السابق ، وأيام العرب في الإسلام ٣٥١ — ٣٧٨ . بيض البلد : مثل يضرب في الذلة ، يقال : أذل من بيضة البلد ، وهى بيضة النعامة التى تتركها (القاموس المحيط ٢ / ٣٢٥) . المُنْح : خالص كل شيء .

(٢) وقعة صفين ٣١٢

(٣) راجع تفصيل هذه الأخبار في : وقعة صفين ٣٠٨ — ٣١٢

هى إذن عصبيات ثلاث ، المضرية ، والرعية ، والبنية ، اتخذ منها هذا الشاعر مادة لشعره القبلى .

وورث العصر الأموى هذه العداوة القبلية ، وعمل خلفاؤه على استغلالها فى دعم ملكهم وسياستهم ، فما دام الملك وتمكن السلطان هو جل غايتهم ، فلتكن الوسائل إلى هذه الغاية ماتكون ، ولو بالجور على الدين ، وبث الفرقة بين المسلمين ؛ لشغل بعضهم ببعض ، وبهذا توارى الحرج الدينى ، والعدالة المثالية ، والقضاء على الحمية الجاهلية ، وكلها من الركائز التى سارت عليها السياسة فى العصر السابق ، « وعادت الحياة الإسلامية فى ظل الأمويين خاضعة لعوامل فيها عناصر جاهلية ، وأخرى إسلامية ، ولكنها تنسم جميعا بسمه واحدة عامة ، هى ملاءمتها للسياسة القائمة ، وخضوعها لنزعاتها ... فالعصبية القبلية تقوى ، وتستأنف نشاطها القديم ، وتبلغ فى آثارها ، درجة جاهلية ، أو تزيد » (١) .

كانت هذه السياسة من بنى أمية إيذانا برفع سوط الإسلام عن العصبية ، وكسر القيود التى فرضت عليها أيام النبوة والراشدين .

ولم يكن الشعراء بدعا بين قومهم ، وإنما كانوا صورة منهم ، بل لعلهم كانوا صورة أكثر بروزا ، فعاشوا ، كما كانت قبائلهم تعيش ، حياة قبلية ، وخضعوا ، كما خضع قومهم ، للعصبية القبلية ، وتركوها توجه حياتهم وفنهم الوجهة التى ترتاح لها قبائلهم ، واستطاعوا أن يستغلوا هذه الحياة القبلية ، ومانتطوى عليه من عصبية فى شعرهم ؛ ليكونوا — كما كان آباؤهم وأجدادهم من الشعراء فى العصر الجاهلى — الألسنة الناطقة لقبائلهم ، المعبرة عن حياتها الاجتماعية ، وعن علاقاتها بعضها ببعض .

وهكذا استرد الشعراء حريتهم الكاملة ، فى الضرب على أوتار التعصب القبلى الحساسة ، وعادوهم داء آبائهم ، داء العصبية القبلية اللعين .

فى ظل هذه البهجة التى أتاحتها سياسة الأمويين ، أخذت القبائل تتذكر ماكان بينها من خصومات ، أو ثارات فى الجاهلية ، وتحبى ذكر ماكان من أيام وانتصارات ، فتجددت الضغائن والعداوات ، وأدى هذا إلى إعادة إشعال نار الحروب

القبلية واستئناف الغارات للانتقام حيناً ، وللسلب والنهب حيناً ، تسيطر عليهم روح البداوة الجاهلية ، والعصية القبلية ، لا يردعهم سلطان ، ولا يأبھون لدين ، بل قد يتجاهلون آصرة النسب .

ويصور القطامي ^(١) التغلبى هذه الردة الجاهلية ، في حياة القبائل العربية في العصر الأموي ، في قوله : ^(٢) .

فمن تكن الحضارة أعجبته فأي أناس بادية ترانا ؟
ومن رَبط الجحاش فإن فينا قناً سلباً وأفراساً حساناً
وكن إذا أغرن على جناب وأعوزهن نهب حيث كانا
أغرن من الضباب على حلول وضبة إنه من حان حانا
وأحياناً على بكر أحيننا إذا مالم نجد إلا أخانا

فهذا الشاعر يتحدث بلسان قومه ، فيذكر أنهم كانوا يغيرون على الأحياء ، والقبائل النازلة حولهم ، حتى شتتوهم وأفقروهم ، بالنهب مرة بعد مرة ، وأنهم لاعتيادهم الغارة ، لا يصبرون عنها ، فإذا لم يجدوا من يغيرون عليه من الأبعد ، أغاروا على الأقارب ، وهذه صورة تعيد إلى الأذهان صورة الحياة القبلية في العصر الجاهلي .

وقد أشرنا في مقدمة هذه الدراسة ، إلى أهم الظروف الاجتماعية التي أسهمت في تشجيع العصية القبلية ، وكشف النقاب عن وجهها البشع القبيح ، الذي شوه الحياة الإسلامية ، وكان من عوامل تصدع وحدتها في هذا العصر .

ويطول بنا الحديث ، لو ذهبنا ننتبع الأسباب المباشرة ، وغير المباشرة ، التي أدت إلى خلق — أو بعث — الخصومة بين القبائل ، بعضها مع بعض ، وأبين الفروع المختلفة

(١) أبو سعيد عمير بن شَيْثَم بن عمرو بن عباد من بني جشم بن بكر ، ثم من تغلب ، شاعر أموي فحل غزل والقطامي (بضم القاف وفتحها) لقب غلب عليه ، وكان نصرانياً ، ثم أسلم ، وهو أول من لقب صريع الفواق ، وله مديح في بعض عمال بني أمية ، وبخاصة في زفر بن الحارث الكلبي . انظر : الأغاني ٢٠ / ١١٨ والشعر والشعراء ٢٢٧ ومعاهد التنصيص ١ / ٦٤ والتذكرة السعدية ١٤٢ ومراجع ترجمته في هامشها وطبقات ابن سلام ٥٣٥ (المدني)

(٢) شرح ديوان الحماسة للمزوقي ١ / ٣٤٧ والكامل للمبرد ١ / ٤٦ . في البيت الأول يفضل أهل البادية على أهل الحاضرة . الجحاش : جمع جحش ، وهو مهر الفرس ، قنأسياً : يعني طوالاً . جناب : يريد ما يجاورهم من القبائل . الضباب : مجموعة من القبائل . حلول : الخلات النازلة حولهم . من حان حان : يعني من قدر له الهلاك بغرونا فقد هلك .

للقبيلة الواحدة ^(١) ، ونكتفى بالإشارة إلى أهم العصبية القبلية الرئيسة في هذا العصر ، وهى : القيسية ، والتميمية ، والتغلبية ، والبكرية ، واليمينية .

— ٣ —

كانت قيس القاسم المشترك في الخصومة بين هذه القبائل جميعا ، فقد خاصمت تيمما (وهى مضرية مثلها) .

أولا : لاختلاف موقفهما السياسى من الدولة الأموية : حيث ناصرت قيس أعداء الأموية ، ووقفت غالبا في الصفوف المناهضة للأمويين ، وخاصة أيام ابن الزبير ، الذى انحازت قيس إلى جانبه ، ودعت إلى خلافته ، وحاربت من أجل نصرته دولته ، الأمويين واليمينية في مرج راهط ، بزعامة الضحاك القيسى ، وزفر بن الحارث الكلانى — كما مر — . بينا انحازت تميم إلى الأمويين أعداء قيس ، وأسهمت في الجيوش الأموية التى اشتبكت مع القيسية في العراق ، وكان لها بلاؤها معهم .

وثانيا : لأحداث وثرات قبلية وقعت بينهما ، أهمها : ماحدث من أن قتية بن مسلم الباهلى القيسى قتل جماعة من بنى تميم يعرفون ببني الأهتم ، فقتله بهم وكيع بن حسان بن قيس بن أبى سؤد اليربوعى التميمى ، كما قُتل عبد الله بن خازم السُلُمى القيسى أيضا ، على يد وكيع بن عُميرة القرَيعى التميمى ، وبذلك استعرت العدواة بينهما .

وكان من نتائج هذه الخصومة ، أيام بين أحياء من القبيلين ، تبعها انتصار شعراء كل قبيل لقبيله ، كالخصومة بين بنى مجاشع التميميين ، وبنى جعفر بن كلاب القيسيين ، وفيها وقف الفرزدق فحل مجاشع يهجو الجعفرين ، بعد أن عرف مثالبهم من عمرو بن لجأ التميمى ، وكان شاعرا عارفا بأيام العرب ومفاخرها ومثالبها ، وقال قصيدته التى مطلعها :
عرفت بأعلى رائص الفأو بَعْدَما مضت سنة أيامها وشهورها
ونفض شاعر الجعفرين ذو الأهدام متوكل بن عياض الجعفرى الكلانى يهجو المجاشعين التميميين ^(٢) ، فقامت للشعر جولة في هذا الميدان القبلى .

♦ ♦ ♦

(١) للموقوف على أهم هذه الأسباب راجع : الأغاني ١١ / ٥٥ ومابعدها ، ١٧ / ١١ ومابعدها ، ٢٠ /

١٢ ومابعدها ، والعقد الفريد ٣ / ٣٠٣ ومابعدها (الجمالية) ، والعمدة ٢ / ١٥٩ ومابعدها ، وأيام العرب في الإسلام في مواضع متفرقة .

(٢) انظر نقائض جرير والفرزدق (أبو عبيدة) ٥١٢

وكانت لقيس خصومة مع تغلب أيضا (وهما عدنانيتان) :

أولا: لأسباب اقتصادية ، فقد نزلت قيس قنسرين بالجزيرة من العراق ، عقب موقعة مرج راهظ ، واعتصم زعيمها زفر بن الحارث الكلاني — بعد مقتل الضحاك — بقرقيسياء ، وكانت الجزيرة موطن تغلب — حيث كانت منازلها بين الخابور والفرات ودجلة^(١) — ، فلما جاورتها قيس ، رأت في هذا الجوار مزاحمة لها في ديارها ومراعيا ، ومصالحها الاقتصادية ، فغضبت ، وبخاصة بعد أن أساءت قيس جوارها ؛ بإغارة عمير ابن الحباب السلمي ومعه جماعة من بني حُرَيْش ، على قوم من بني تغلب ظلما وعدوانا ، فانتمت تغلب لنفسها بقيادة شُعَيْث بن مُلَيْك التغلبي ، بالإغارة على بني الحُرَيْش القيسيين ، وقوم من تُمَيْر ، فقتل فيهم التغلبيون ، واستاقوا ذوداً لامرأة منهم يقال لها أم الهيثم ، فمانعهم القيسيون فلم يقدرُوا على منعهم ، وفي ذلك يقول الأخطل :

فإن تسألونا بالحريش فإننا مُنِينَا بِنُوكٍ مِنْهُمْ وَفُجُورُ
غداة تحامتنا الحريش كأنها كلاب بدت أنيابها لِهُرَيْرِ
وجاءوا بجمع ناصري أم هيثم فما رجعوا من ذودها بيعير

ولما استحکم الشر بين قيس وتغلب ، وعلى قيس عمير بن الحباب ، وعلى تغلب شعيث ، غزا عمير بني تغلب وجماعتهم بماكسين من الخابور فاقتلوا قتالا شديدا ، وهي أول وقعة لهم ، فقتل من بني تغلب خمسمائة ، وقتل شعيث ، وكانت رجله قطعت ، فقاتل حتى قتل ، وهو يقول :

قد علمت قيس ونحن نعلم أن الفتى يقتل وهو أجذم^(٢)

ثم تبودلت الأيام والغارات بين القبيلين^(٣) ، واستحكمت الخصومة بينهما .

ثانيا : للدواع السياسية :

فقد انتهزت تغلب فرصة العداوة السياسية بين قيس والأمويين ، فانضمت إلى أعداء قيس ، نكاية فيهم .

(١) راجع ابن الأثير ٤ / ٣١٠ (بيروت)

(٢) راجع في هذه الأخبار ابن الأثير ٤ / ٣١٠

(٣) انظر خير هذه الأيام والغارات وتناجها في الأغاني ٢٠ / ٢١ وما بعدها ، وابن الأثير ٤ / ٣٠٩

وما بعدها (بيروت) .

وكانت هذه العداوة هي التي دفعت الأخطل — شاعر تغلب — إلى مهاجمة جرير ، الذي كان مواليا لقيس في شعره — مع أنه تميمي — حتى عد شاعر قيس المناضل عنها ، فكانت المهاجمة بينهما في كثير من جوانبها تاريخا للعداوة بين قيس وتغلب من ناحية ، والعلاقة بين كل منهما وبين الأمويين من ناحية أخرى ، كما أنها تفسر لنا انتصار الأخطل للفرزدق ضد جرير في مهاجمتهما ، ودخوله بين هذين الفحلين التميميين ، ولأسيما أن عبد الملك بن مروان كان يقدم الأخطل ، ويعده شاعر أمير المؤمنين ، لإشادته بفضل الأمويين ، ولموقف قومه تغلب معهم ضد القيسيين ، وإن كانت تغلب نفسها كانت ترى أن حلفها مع الأمويين يعود إلى صالحها ومنفعتيها ؛ ولذا لما سعى بشر بن مروان — وكانت أمه قيسية — إلى إصلاح ما بين قيس وبنى أمية ، ونجح في أن تتصل قيس بأخيه عبد الملك ، غضب الأخطل ، وتوعد الخليفة ، وحذره القيسية ، كل ذلك خشية أن تذلل تغلب بفقد حماة الأمويين ، أو تتعرض للإهمال أمام وحدة قيس وأميه (١) .

وهكذا تأثرت العداوة بين قيس وتغلب ، واندلعت نيران الحروب بين قيس بزعامه الجحاف بن حكيم وزفر بن الحارث الكلابي ، وبين تغلب ، وكثرت الأيام الشنيعة بينهما ، وغلت كل منهما في التنكيل بالأخرى .

وأما الخصومة بين قيس وكنب واليمنية بعامه ، فترجع في أصولها إلى أيام أن نزلت قبائل من قيس الشام أثناء الفتوح الإسلامية ، فزاحمت قبيلة كلب وأخواتها من القبائل اليمنية بالشام ، واشتد الصراع بين العصبيتين ، وحرصت كل منهما على أن تكون ذات سلطان نافذ في هذا الإقليم ، حتى لقد أوشكت كلتاهما أن تظفر بالخلافة (٢) ، لولا تنازل كلب عن سلطانها للأمويين بزعامه مروان بن الحكم ، وتنازل قيس لابن الزبير بزعامه الضحاك بن قيس وزفر بن الحارث ؛ وذلك أيام الجابية ، وبخاصة موقعة مرج راهط

(١) انظر نقائض جرير والفرزدق ٤٠١ ودبوان الأخطل ١٠ ، ١٠٥

(٢) انظر نقائض جرير والأخطل ١ ، ٧ ، ١٥

التي انتهت بهزيمة قيس وقتل زعيمها الضحاك ، وقتل معه أشراف من قيس ^(١) ، وفي ذلك يقول عمرو بن مخالة الكلبي ^(٢) :

بكى زفر القيسي من هلك قومه بعبرة عين مايجف سُجُومها
يكي على قتلى أصيب براهط تحاونه هأم القفار وبومها

ومع أن هذه المعركة كانت تصور صراعا بين سياستين : الأموية ، والزييرية ، وأنها أدت إلى نتائج سياسة هامة ، ثبتت دعائم الحكم الأموي ، وكانت نصرا سياسيا حاسما للأُمويين ، فقد أصلت العداوة بين قيس واليمنية ، وبخاصة كلب بالشام ، واستعر أوارهذه العداوة ، بسبب الثارات التي خلفتها هذه الحرب في الفريقين ^(٣) ، ولذا قام خلفاء الضحاك بغارات مفاجئة على قبائل اليمن ، ليثأروا في حرب قبلية ، لقتلى مرج راهط ، ورد عليهم اليمنيون بغارات لاتقل عنها هولاً وبشاعة ، وظل هذا العداء قويا بين القيسية واليمنية ، حتى بعد هذا العصر ، وانتقل مع فروعهما في البلدان الإسلامية الأخرى .

كانت هذه العصبية ، وغيرها من العوامل التي أدت إلى بث الفرقة بين الجماعة الإسلامية ، التي وصل بينها الإسلام ، فشعراء ربيعة يطيطون الأشعار التي تنال من المضرة وتبيح نفوسهم ، وتؤجج الغضب في قلوبهم ، فيتصدى لهم شعراء مضر — وعلى رأسهم جرير الحميمي — بألحان يفتخرون فيها بقبائلهم ، وشعراء المضرة ينددون باليمنية ، فيندفع شعراء اليمنية ليردوا عليهم ، وليثبتوا لهم ولقبيلهم الفضل والشرف والمجد ^(٤) .

وقامت للشعر في هذه الخصومات دولة ، فشعراء القبائل يتهاجون ، ويتفاخرون ، ويحسمون ، وقبائلهم من خلفهم تؤيدهم بانتصاراتها ، أو تمدهم بالاعتذار عن كبواتها ، والأمل في الانتقام ، والأخذ بثاراتها ...

(١) قبل بلغ عدة من قتل مع الضحاك بن قيس الفهري في هذا اليوم ثلاثة آلاف . انظر : العبر للذهبي ١ /

(٢) الطبرى ٧ / ٤٢

(٣) تاريخ الشعوب الإسلامية ١ / ١٥٧

(٤) انظر في نماذج من أشعار هذه العصبية : وقعة صفين ١٨٠ — ١٨١ ، ٣١٠ — ٣١٣ ، ٤٥١

وفاز إقليم العراق بأوفر نصيب من شعر الخصومات القبلية وشعرائها ، فقد كان التقسيم القبلي واضحا في مدينتيه : البصرة والكوفة — كما أسلفنا — وعاشت القبائل في أقسامهما وخططهما محتفظة بكيانها ، وعصبياتها الجاهلية القديمة ، متخذة من سوق المرید — بالبصرة — والكناسة — بالكوفة — ميدانا للتهاجي والتفاخر .

وبذا جمع العراق بين أكثر نتاج السياسة الشعرى ، وأغلب نتاج العصبية الشعرى أيضا ، يقول الدكتور شوقي ضيف : ^(١) « فالشعر الذى وجد في العراق لعصر بنى أمية ، إما شعر سياسى ، وإما شعر قبلى » حتى كاد العراق يستقل بأكثر ماجاءنا من شعر العصر الأموى .

ولنتقدم لدراسة بعض نماذج من الشعر القبلى القائم على هذه العصبيات التى ذكرنا ، وعلى ضوء دراستها وتحليلها ، يمكن أن ندرك قيمة هذا الشعر ، ومكانته من الشعر العربى فى مساره التاريخى من ناحية ، ثم طابعه العام وسماته الفنية التى تحدد حظه من التطور أو الجمود من ناحية أخرى .

— ٤ —

أ : بين قيس وقيم :

قال الفرزدق (وهو تميمى) بعد مقتل قتيبة بن مسلم الباهلى القيسى ، على يد وكيع بن حسان التميمى ، فى وقعة بينهما ، يفخر بتميم ، ويهجو قيسا ، ويعيرها ، ويسخر منها ؛ لانقيائها لقتيبة ، الذى كان شوما عليها ^(٢) :

(١) التطور والتجديد ٤٥

(٢) ديوانه ٨٥٣ . الأهتام : بنو الأهم بن سنان بن خالد بن منقر التميميين ، كان قتيبة قد قتل جماعة منهم . أبناهم : قتلناهم . الحوامم : جمع حاتم وهو العطشان . ابن خازم : عبد الله بن خازم السلمى ، قتله وكيع القريشى التميمى سنة ٧٢ هـ ، لم تدع لهم أنوفا : كناية عن الذل ، وكذا : عطست بأجدع راغم ، والأجدع : الأنف المقطوع . عضنها بالأباهم : كناية عن الندم ، والأباهم : جمع إبهام . يوم الأراقم : هو يوم الحشاك — سنة ٧٠ هـ ، الذى كان تغلب على قيس ، يعزهم الشاعر به ، والأراقم : جماعة هم : جشم ، ومالك ، وعمر بن ثعلبة ، ومعوية والحارث بنو بكر بن حبيب بن غنم بن تغلب وائل . انظر : العمدة ٢ / ١٥٧

أتانى ورخلى بالمدينة وقعةً فدى لسيف من تميم وفى بها
 شفين حزازات النفوس ولم تدغ أباناً بهم قتلى ومافى دماهم
 كأنك لم تسمع تيمماً إذا دعث تبحث لقيس نبحة لم تدغ لها
 فإن تك قيس فى قتيبة أغضبت وما كان إلا باهلياً مجدعاً
 لقد شهدت قيس فما كان نصرها فإن تقعدوا تقعدوا لئام أذلة
 لآل تميم أقعدت كل قائم رداى وجلت عن وجوه الأهام
 علينا مقالاً فى وفاء للام وفاء وهن الشافيات الحوام
 تميم ولم تسمع يوم الأراقم أنوفاً ومرث طيرها بالأشام
 فلا عطست إلا بأجدع راغم طغى فسقيناه بكأس ابن خازم
 قتيبة إلا عضها بالأباهم وإن عدتم عذنا بيض صوام

فالفردق يفخر بقومه بنى تميم ؛ لانتصارهم على قيس فى الوقعة التى كانت بينهما ، التى أذهلت الناس لخطرها ، وفيها ثارت تميم لبني الأهم ، فاشتفت نفوسهم ، ومحت عنهم لوم القعود عن الثأر ، ماداموا قد ثأروا لقتلاهم بقتلى من قيس ، وإن كانت دماء قيس لاتشفى الغليل ، ولاتفى بدماء قتلى تميم .

ثم يأخذ الفردق فى تعيير قيس بهزائمها على يد تميم وغيرها ، ويذكرها بيوم من الأيام التى ذاقت فيها عار الهزيمة على يد بنى تغلب .

وإذ كان قتيبة بن مسلم الباهلى ، هو الذى جر قيسا قومه إلى هذه الحرب ، التى أذلته على يد تميم ، فقد كان بذلك شوما على قومه ، فقد أثاروا غضب تميم ، التى أذاقتهم مرارة الذل ، وخزى العار ، ولم تكن تميم بذلك معتدية ، لأنها إنما قتلت قتيبة لطغيانه وعدوانه ، فلما انتصرت له قيس ، جرت على نفسها الحسرة والندامة ، وليس لقيس بعد هذه الهزيمة الدامغة إلا أن يتجنبوا القتال ، وهم صاغرون أذلة ، لأنهم إن فكروا فيه ، فسيجدون سيف تميم البتارة تعمل فى رقابهم .

من هذا التحليل يتبين لنا أن الشاعر يفخر بعزة قومه ومنعتهم وسطوتهم ، وانتصاراتهم فى أيامهم مع قيس ، وأخذهم بثأر قتلاهم ، ويهجو أعداء قومه ، فيعيرهم بالهزيمة ، ويدمغهم باللؤم والذل والعار ، وماباءوا به من الندم .

وهذه المعانى كثيرة الدوران فى الشعر الجاهلى ، وبها ويمثلها كان الشاعر الجاهلى

يفخر بقبيلته ، ويهجو أعداءها ^(١) .

وعبارة الشاعر هنا عن معاناة شبيهة أيضا بعبارة الشعر الجاهلي ، ففيهما معا القوة والفخامة ، والخلو من التعقيد والتكلف ، ووضوح الطبع ، مع إثارة للفظ الذى يعلو في سماء الفصاحة درجات .

ونحن حين نقرأ هذه العبارات : « فدى لسيوف من تميم » و « شفين حزازات النفوس » و « أبأنا بهم قتلى » و « مافى دمائهم وفاء » و « كأنك لم تسمع تميما إذا دعت » و « لم تدع لها ألؤفا » و « عسقت بأجدع راغم » و « وإن عدتم عدنا بيض صوارم » ... ننسى أننا نقرأ في شعر شاعر إسلامي ، ونعيش معها مستشعرين نغمات جاهلية خالصة ، يعزفها شاعر جاهلي الفكر واللغة والإحساس ، لاشاعر إسلامي ، يعيش في ظل دولة يرفرف عليها علم الإسلام ، وتدين بقيم الإسلام ، التي ترفض هذه النعرة الجاهلية .

وقال الأصمُّ بن الحجاج القيسي في ضمن أبيات يرثي بها قتيبة بن مسلم ^(٢) :

ألم يأن للأحياء أن يعرفوا لنا بلى نحن أولى الناس بالمجد والفخر
نقوؤ تميما والموالى ومذحجاً وأزداً وعبد القيس والحقى من بكر
نقتل من شئنا بعزة ملكننا ونجبر من شئنا على الحسف والقسر

فهو يرى قومه القيسية المقدمين في المجد ، الفاخرين لايفخر عليهم مفاخر ، لأنهم سادة القبائل جميعا من يمنية وربعية وغيرها ، ملكوا أمرها ، وقادوها فانقادت ، يحكمون في دماء من شاعوا ، ويحملون من شاعوا على الذل والهوان .

وكلها معان تفوح منها العنجهية الجاهلية ، وتصدر عن عصبية قبلية ، لاتليق في مقام رثاء هذا المجاهد الإسلامى قتيبة بن مسلم ، ولكن ماحيلة الشاعر ، وقد غدت العصبيات في هذا العصر ، مقدمة في مجال الفخر ، رائجة في مقام الهجاء ، فقتيبة في نظر الشاعر قيسى قبل أن يكون مجاهداً ، وقائدا إسلاميا عظيما .

(١) انظر أمثال هذه المعاني في نماذج من الشعر الجاهلي في : شعر الحرب (د . علي الجندي) ٢٠٣ —

(٢) الطبرى ٨ / ١١٢ ولم نعر على ترجمة لهذا الشاعر .

ب — بين قيس وريعة : (١ — قيس وبكر) :

كان المَهْزُورُ بن سلمى الحنفى (من بكر بن وائل) جمع جيشا للإغارة على بنى عقيل ، وبنى كلاب ، وسائر بطون بنى عامر بن صعصعة (من قيس عيلان) فالتقوا عند الفَلَج (١) فهُزِمَ البكريون ، وقال القحيف المُعْقِلُ (٢) ، يعبر عن بلاء قومه في هذا اليوم ، ويفتخريهم ، ويصف نكايتهم (٣) :

أَتَانَا بِالْعَقِيقِ صَرِيحُ كَعْبٍ	فَحَنَّ النَّبْعَ وَالْأَسْلُ النَّهَالُ
ثَلَاثًا ثُمَّ وَجَّهْنَا إِلَيْهِمْ	رَحِيًّا لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا ثِفَالُ
وَحَالَفْنَا السِّيَوفَ وَصَافَنَاتِ	سَوَاءٌ هُنَّ فِينَا وَالْعِيَالُ
بَنَاتُ بَنَاتِ أَعْوَجٍ طَاعَاتِ	مَدَى الْأَبْصَارِ عَلَيَّتُهَا الْفَحَالُ
وَكُرِّدَسَتْ الْحَرِيشُ فَعَارِضُونَا	بَخِيلٍ فِي فَوَارِسِهَا اخْتِيَالُ
وَسَالَتْ مِنْ أَبَاطِحِهَا قَشِيرُ	بِمَثَلِ أَيْتَى بِيْشَةَ حِينَ سَالُوا
نَقُودَ الْخَيْلِ كُلُّ أَشَقٍّ نَهْدُ	وَكُلُّ طِمْرَةٍ فِيهَا اعْتِدَالُ
تَكَادُ الْجِنَّ بِالْغَدَوَاتِ مَنَا	إِذَا اصْطَفَتْ كِتَابِنَا تُهَالُ
فَبَتْنَ عَلَى الْعُسَيْلَةِ مُمَسَكَاتِ	لَهُنَّ غُدْيَةٌ رَهَجٌ جُفَالُ

(١) الفلج : من منازل بنى عقيل ، وانظر خبر هذا اليوم الذى كان لبنى عامر على بنى حنيفة البكريين في :

الأغاني ٨ / ١٨٠ — ١٨١ ، ٢٠ / ١٤١ — ١٤٢

(٢) القحيف بن مخير بن سليم التذى بن عوف من بنى خفاجة بن عمرو بن عقيل ، ثم من بنى عامر بن صعصعة . ذكره ابن سلام في الطبقة العاشرة من فحول الشعراء الإسلاميين . وانظر : ابن سلام ٧٧٠ ، ٧٩١ ومعجم الشعراء ٣٣١ وانظر العمدة ٢ / ٣٩ وفيه : التحيف (تحريف) بن سليمان العقيل .

(٣) ابن سلام ٢ / ٧٩٣ وما بعدها (المدنى) العقيق : واد بالجماعة لبنى عقيل . كعب : هو ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة . النبع : شجر تتخذ منه القسي . الأسل النبال : الرماح المتعطشة للدماء . ثلاثا : يعنى أنهم ساروا إلى بنى حنيفة صبح الليلة الثالثة . الثقال : جلد ييسط تحت الرحى ليقى الطحين من التراب ، يرد حرا شديدة . بنات أعوج : أى من نسل أعوج وهو فى أساطير العرب : فرس عتيق منه أنجبت خيول العرب ، يعنى أنها خيل عتاق نجييات ، متمرسة للحروب ، لأجلها إلا كل فعل نجيب . كردست : جعلت خيلها كتاب . الحريش وبنو قشير : بطون من بنى عامر . أيتى بيشة : سيل ينحدر من وادى بيشة . أشق : طويل . نهد : جسم . طمر : طويل القوائم خفيف متوشب الرهج : الغبار . جفال : مجتمع كثيف . أبيض ذو حواش : يعنى الفجر . بين حرارة : بأجواف الخيل حرارة من طول الجرى . وبنا اغتلال : فى صدورنا حقد وعداوة تلتب . جحدلت : صرعت . حنانهم : أراد رئيسهم الذى يلتفون به . أحالوا : حال عليهم الحول . رجال : جمع رعييل : وهى القطعة المتقدمة من الخيل والجراد وسائر الطير ، يعنى مسرعات متقدمات .

فلما شقَّ أبيضُ ذو حواشٍ له حالٌ وللظِّلْماءِ حال
صبحناهم نواصيهم شعثا بهنَّ حرارةٍ وينا اغتلال
فلما جُحدلتُ مائتان منهم وفرَّ حنانهم عنهم فزالوا
فصاروا بين مُمتنٍّ عليه ومنصوبٍ له جذع طُوال
تكفُّنهم حيفةً بعد حولٍ وكيف يكفنون وقد أحوالوا؟!
أمنكم يا حنيف!! نعم لعمرى لحيٍّ مخضوبةٍ و دمٌ سجالٌ
كأن الخيل طالعةٌ عليهم بفرسان الصباح قطعاً رعالٌ

إن الشاعر هنا مشغول بحرب قبلية ، باعثها ومُوججها التعصب للقبيلة ، حيث تستجيب بطونها جميعا لاستغاثة بطن منها ، تماما كما قال الشاعر الجاهلي قُريط بن أُنَيْف ، أحد شعراء بلعنبر (١) :

قومٌ إذا الشرُّ أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافاتٍ ووحدانا
لايسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

ومن هنا لم يخرج الشاعر فيما حكاه من خبر هذه الحرب ، وما افتحز به من فعال قومه ، ونكايتهم في أعدائهم ، عما كان يتحدث به نظرائه من شعراء القبائل في الجاهلية ، فالاستجابة للصريح سريعة ، وعدة الحرب مكتملة ، وأبطال القبيلة يتحرقون شوقا إلى نزال الأعداء ، مقبلين من كل منازها ، ثم فخر بالنصر ، وتنكيل بالعدو ، وسخرية لاذعة مما أصابه على أيدي أبناء قبيلة الشاعر الشجعان .

٢- قيس وتغلب :

قال عُمر بن الحباب السُّلَمي القينسي (٢) ، وقد استبسط القبائل القيسية ، حين تكاثرت عليه رجال تغلب ، فهزم في يوم يقال له «يوم الثُّرثار الأول» (٣) ، يتحدث عن خذلان

(١) شرح الحماسة للمرزوقي ١ / ٢٧ - ٢٩

(٢) عمر بن الحباب بن جعدة بن إلياس ، من بني بهثة بن سُلَيم ، قتله بنو تغلب يوم الحشاك (وهو تل قهب من الشرعية بالجزيرة) وذلك سنة ٧٠ هـ ، انظر ابن الأثير ٤ / ٣٠٩ - ٣١٧ (بيروت) ومعجم الشعراء ٢٤٥ والموشع ١٣٨

(٣) الثُّرثار : نهر ينبع من شرق سنجار ، ويصب في دجلة ، وانظر خير هذا اليوم في ابن الأثير ٤ / ٣١١ والأغاني ١١ / ٥٩

بعض القبائل القيسية ، ويفتخر بقومه بنى سليم^(١) :

أَنَادِيهِمْ وَقَدْ خَذَلْتُ كَلَابٌ وَحَوَّلِي مِنْ رِبْعَةٍ كَالْجِبَالِ
أَقَاتْلُهُمْ بِحَيِّ بَنِي سُلَيْمٍ وَأَعْصُرُ كَالْمَصَاعِبِ النَّهَالِ
فَدَى لِفَوَارِسِ الثَّرَارِ قَوْمِي وَمَا جَمَعْتُ مِنْ أَهْلِي وَمَالِي
فَأَمَّا أَمْسِي قَدْ حَانَتْ وَفَاتِي فَقَدْ فَارَقْتُ أَعْصُرَ غَيْرِ قَالِي
أُبْعَدَ فَوَارِسِ الثَّرَارِ أَرْجُو ثَرَاءَ الْمَالِ أَوْ عَدَدَ الرِّجَالِ ؟!

فالشاعر غاضب على من خذله من القبائل القيسية مثل كلاب وأسد وتميم^(٢) المضرية ، معتر بقومه بنى سليم ، وبموقفهم الشجاع في هذه الموقعة ، يفديهم بأهله وماله ، وهو إذ يتنبأ بوفاته ، يعلن أنه يموت قرير العين ، فخورا بفرسان قومه ، الذين ضحوا بأرواحهم ، دفاعا عن شرف قبيلتهم وكرامتها ؛ لأن أمثال هؤلاء لا تخلو الحياة من بعدهم .
والآيات — كما نرى — تدور حول خذلان الأعوان ، والتضحية في سبيل شرف القبيلة .

وقد عالج الشعر الجاهلي هذين المعنيين^(٣) ، ولو لم نعرف أن هذا الشعر قيل بعد الإسلام ، لما ترددنا في نسبته إلى العصر الجاهلي ، لأن الشاعر يتناول فيه معاني جاهلية ، بأسلوب جاهلي ، ويترسم خطأ الجاهليين من ذكر القبائل والأيام .

ولما قتل عمير بن الحباب يوم الحشاك (سنة ٧٠ هـ) انتقم له زفر بن الحارث الكلابي من بنى تغلب في يوم يدعى « يوم الكحيل »^(٤) حيث هزم جموع تغلب ، وقتل كثيرا منهم ، وغرق آخرون في دجلة فارين ، وبقر بطون نساء منهم ، وأسر مائتين قتلهم صبراً ، وقال في ذلك^(٥) :

(١) الأغاني ١١ / ٥٩ كلاب وسليم وأعصر قبائل قيسية . ربيعة : قبيلة كبرى إليها تنتسب تغلب . مصاعيب : جمع مصعب : وهو الجمل الذي يترك للفيحلة بغير عمل . غير قال : غير ميفض .

(٢) في خير هذا اليوم أن عميرا استنجد هذه القبائل فلم تنجده . انظر ابن الأثير ٤ / ٣١١ .

(٣) انظر : شعر الحرب ١٩٨ ، ٢٣٠ .

(٤) الكحيل : من أرض الموصل في جانب دجلة الغربية ، وفي يومه انظر ابن الأثير ٤ / ٣١٨ .

(٥) ابن الأثير ٤ / ٣١٨ .

ألا يا عين بكى بأسكاب وبكى عاصماً وابن الحباب
فإن تك تغلب قتلتم عميراً ورهطاً من غنى في الحراب
فقد أفنى بنى جشم بن بكر ونمرهم فوارس من كلاب
قتلنا منهم مائتين صبراً وماعدلوا عمير بن الحباب
وقال ابن صفار المحاربي في اليوم نفسه (١) :

ألم تر حرينا تركت حُببياً مُحَالِفها المذلة والصَّغارُ
وقد كانوا أولى عزٍّ فأضحوا وليس لهم من الذل انتصار

فالشاعر الأول يتعزى عن قتل عمير بأن قومه الكلابيين القيسيين قد انتقموا له ،
وأخذوا بثأره ، بإفناء بنى جشم ، وغيرهم ، وبمن قتل من تغلب صبراً ، مع أن هؤلاء
جميعاً ليسوا كفئاً لدم عمير .

والشاعر الآخر يشير إلى جانب آخر من نكاية القيسيين في تغلب ، فقد دمغوا
هذا القبيل منهم (بنو حبيب) بالمذلة والعار ، فلن تقوم لهم قائمة في ميادين الشرف بعد
هذا اليوم .

وواضح أن الشاعرين يتحدثان بمعان قبلية ، وأن شعرهم هذا ، ماهو إلا انتصار
للعصبية القبلية ، فدم قتيلهم لايعادله دم من قتل من أعدائهم ، مهما كثروا ، ومهما
تنوعت صور قتلهم ، وانتصار قبيلهم ، ترك أعداءهم يتجرعون مذلة الهزيمة وعارها ،
وحتى الألفاظ والتراكيب ، مأخوذة من قاموس الشعر القبلي الجاهلي ، لا تخرج عنه ، ولا
تضيف جديداً إليه .

والحق أن عصبية القيسية برعامة عمير السلمى ، كانت شديدة الوطأة على
تغلب ، فقد اشتط عمير في إغارته عليهم ، كما أوغل في الانتقام منهم ، وبخاصة في يوم
« الغرثار الثاني » أو يوم « الخابور » (٢) ، الذى قتل فيه عدد كبير من رؤساء تغلب
وأشرافهم .

(١) ابن الأثير ٤ / ٣١٩ حبيب : بطن من تغلب .

(٢) يوم لقيس على تغلب . انظر خيو في الأغاني ٢٠ / ١٢٧ وابن الأثير ٤ / ٣١٢ ، تحت عنوان « يوم الغرثار »

وبلغ من شناعة هذا اليوم أن لام بعض القيسيين عميرا ، لوماً شديدا ، فكان ممن لاهم زفر بن الحارث الكلاني (من هوازن القيسية) ، فقال في ذلك ^(١) :

ألا من مبلغ عنى عميراً رسالة عاتبٍ وعليك زارى
أترك حتى ذى كُلعٍ وكلبٍ وتجعلُ حَدْ نابك في نزار
كمعتمدٍ على إحدى يديه فخانتُهُ يوهي وانكسار

وكانه يحثه على الاتجاه إلى حرب البنية ، أعداء القيسية التقليديين ، وأن لا يجعل همهم إذلال تغلب ؛ لأنها نزارية مثل قيس ، وفي إضعافها وإذلالها ، إضعاف للعرب النزارية . وعن هذا الإدراك أيضا صدر القطامي الشاعر التغلبي ، في تحسره على ماكان من حروب قاسية مهلكة منهكة بين قيس وتغلب ؛ إذ هما أبناء أب واحد ، فكلتاهما من نزار بن معد بن عدنان . يقول القطامي ^(٢) :

ألم يحزنك أن حبال قيسٍ وتغلبٌ قد تباينتما انقطاعا
أمورٌ لو تدبرها حليمٌ إذا لنهى وهيبٌ ما استطاعا
ولكن الأديم إذا تفرى بلىً وتغيئاً غلب الصنعا
ومعصية الشفيق عليك مما يزيدك مرةً منه استماعا
وخيرُ الرأي ما استقبلت منه وليس بأن تتبعه أتباعا

فالقطامي حزين على تقطع حبال القرابة والمودة بين قومه التغلبيين ، وأبناء العمومة القيسيين ؛ ولذا فهو يدعو القوم جميعا إلى الهوادة فيما بينهما ، والتدبر لعواقبه ، كما تدبر هو فحذر وخوف من سوء العاقبة ، ثم يدركه التشاؤم ، فيسلمه إلى اليأس من صلاح ما بين القوم ؛ وكأنه يرى أن الخرق قد اتسع على الراقع ، ومع ذلك فهو يسترسل في النصيح ، لأن الناصح الشفيق إن عُصى مرة ، وقع لمن ينصحه من السوء ما يجعلهم أكثر حرصا على استماع نصحه والعمل به مرة أخرى ، ثم إن العاقل هو الذى يستقبل الأمر بالتدبر والنظر ، فيقف على عواقبه ، وشر الرأى انتظار الأمر حتى يقع ، ثم ينظر فى أدباره وأواخره .

(١) الأغاني ٢٠ / ١٢٨ وابن الأثير ٤ / ٣١٢

(٢) ابن سلام ٥٣٨ (المدنى) . نغرى : تشقق وتقطع . تعينت القرية : صار فيها دوائر رقيقة توشك أن تنتهك . الصناع : الحاذق بالعمل .

ح : بين قيس واليمينة :

— أغار عُمير بن الحباب على كلب واليمينة فنهب وقتل ، فعبا ابن بَحْدَل الكلبى
 قومه وهزم عمير ، فى بنى تُمَيْر وغيرهم من القيسية ، وتعرف هذه الواقعة بـ « يوم
 دُهمان » ، وقال فى ذلك الشاعر اليمنى مُنْذِر بن حَسَّان ^(١) :

وبادية الجَوَاعِر من تُمَيْر تُنادى وهى سافرة النَّقَابِ
 تُنادى بالجزيرة يَالْقَيْسِ وقيسُ بش فتيان الضَّرَابِ
 قتلنا منهم مائتين صَبْرًا وألفاً بالتلاع وبالرَّوَالِى
 وأفلتتْنا هجينُ بنى سَلَمِ يُفدَى المَهَر من حب الإيابِ
 فلولا الله والمهرُ المُفْدَى لَعُودِرَ وهو غَرِيَالُ الإهابِ

يهجو الشاعر قيسا بالجبن والقعود عن نجدة بنى قومهم ، ويفخر بما أصابه قومه
 من أعدائهم ، ويسجل على قائد القيسية عمير عار الفرار من المعركة ، وأنه ماكان ينجو
 لولا فراره .

وهذه الأبيات كسابقتها ، تتحدث عن معان جاهلية بأسلوب جاهلى ، ولن نخدع
 بذكر الله فى البيت الأخير ؛ فطالما تردد لفظ الجلالة فى أشعار الجاهليين ، من ذلك قول
 عبد يَغُوث بن الحارث فى يوم الكُلاب الثانى ، وهو من أيام العرب فى الجاهلية ^(٢) :

جزى الله قومى بالكلاب ملامةً صَرِيحَهُمُ والآخِرينَ المَوَالِياً

— كان حُمَيْد بن الحُرَيْث بن بَحْدَل الكلبى قد أوقع بفزارة القيسية ، وقتل منهم
 مائة ونيفا ، فقال سِنان بن جابر الجُهَنى يفخر بما فعلت كلب بفزارة ^(٣) :

يأخْت قيس سَلَى عنا عَلَانِيَةً كى تُخْبِرَى من بيان العلم تَبَيَّانَا
 أنا ذُوو حَسْبٍ ومال ومكرمة يوم الفَخَّارِ وخيرُ الناسِ فِرْسانَا
 منا ابنُ مُرَّةَ عمرو قد سمعت به غيث الأراذل لا يُرْدَيْنَ ماكانَا

(١) الأغاني ٢٠ / ١٢٣ . بادية الجواعر : يعنى منازل غير . هجين بنى سليم : يعنى عمير بن الحباب السلمي .
 غريال الإهاب كناية عن قتله وتمزيق بدنه ، ومنذر بن حسان بن مالك بن بحدل الكلبى ، وأبوه خال يزيد بن معاوية وقد
 مر ذكره .

(٢) العقد الفريد ٣ / ٣٥٧ (الجمالية)

(٣) الأغاني ١٧ / ١١٤ ، جزر السباع : اللحم الذى تأكله .

وَالْبَحْدَلِيُّ الَّذِي أَرَدَتْ فَوَارِسُهُ قَيْساً غَدَاةَ اللَّوْىَ مِنْ رَمْلِ عَدَنَانَا
كَائِنْ تَرَكْنَا غَدَاةَ الْفَاهِ مِنْ جَزْرِ لِلطَّيْرِ مِنْهُمْ وَمِنْ ثُكْلَى وَثُكْلَانَا
وَمِنْ غَوَانٍ تُبْكِي لَاحِيَمَ لَهَا بِالْفَاهِ تُبْكِي بَنَى عَمٍّ وَإِخْوَانَا
فَمَاذَا فِي الْأَيَّاتِ إِلَّا الْفَخْرُ بِالْحَسْبِ وَالشَّجَاعَةُ فِي الْحَرْبِ ، وَالنَّكَايَةُ فِي الْأَعْدَاءِ ،
وَالْاعْتِزَّازُ بِسَادَةِ الْقَبِيلَةِ ؟

ونورد هنا أبياتا لعبيد بن الأبرص في مثل هذه المعاني ؛ لنرى إلى أى حد ينسج هذا الشعر على منوال الشعر الجاهلى ، قال عبيد (٢) :

يَا أَيُّهَا السَّائِلُ عَنْ مَجْدِنَا إِنَّكَ عَنْ مَسْعَاتِنَا جَاهِلُ
إِنْ كُنْتَ لَمْ تَأْتِكْ أَيَّامُنَا فَاسْأَلْ تُنْبَأُ أَيُّهَا السَّائِلُ
قَوْمِي بَنُو دُوْدَانَ أَهْلُ النَّهْيِ يَوْمًا إِذَا أَلْفَحْتَ الْحَائِلُ
كَمْ فِيهِمْ مِنْ سَيِّدٍ أَيْدٍ ذِي نَفَحَاتٍ قَائِلُ فَاعِلُ
لَا يَحْرَمُ السَّائِلُ إِنْ جَاءَهُ وَلَا يَعْفَى سَيِّئُهُ الْعَاذِلُ
وَالطَّاعِنُ الطَّعْنَةَ يَوْمَ الْوَعَى يَذْهَلُ مِنْهَا الْبَطْلُ الْبَاسِلُ

إلى آخر أبياته ، التي يتحدث فيها، أيضا عن نكاية قومه في أعدائهم .

ولما دارت دائرة الحرب على قيس في يوم المرج ، وقتل الضحّاك بن قيس ، وقتل معه أشراف من قيس — كما مر — قال زفر بن الحارث الكلّاني ، متحسرا على هذه النتيجة ، متوعدا كلبا بالثأر لقتلى قيس ، معلنا أنه لاهوادة في الخصومة بعد هذه الموقعة ، بين قيس وكلب اليمنية ، محاولا الاعتذار عن الفرار والهزيمة في هذا اليوم (٣) :

أَتَذْهَبُ كَلْبٌ لَمْ تَنْلُهَا رِمَاحُنَا وَتَتْرَكَ قَتْلَى رَاهِطٍ هِيَ مَا هِيَ
لَعَمْرِي لَقَدْ أَبَقْتَ وَقِيعَةَ رَاهِطٍ لِحَسَانٍ صَدْعًا بَيْنًا مَتْنَائِيَا
فَلَمْ تُرْ مِئْنَى نَبْوَةٍ قَبْلَ هَذِهِ فَرَارِي وَتَرْكِي صَاحِبِي وَرَائِيَا
فَلَا صَلَحَ حَتَّى تُنْحِطَ الْخَيْلُ بِالْقَنَا وَتَثَارَ مِنْ نَسْوَانٍ كَلْبُ نَسَائِيَا
أَلَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ تُصَيِّبُ غَارِقِي تُنَوِّخُ حَيٍّ طَيِّءٍ مِنْ شَفَائِيَا

(١) ديوانه (طبعة لندن) ص ١٢٠ . يعفى : يحبس ويمنع . العاذل هنا : العدو .

(٢) ابن الأثير ٤ / ١٥٢ وأيام العرب في الإسلام ٤٢٢ — ٤٢٦ والطبرى ٧ / ٤١ . حسان : هو حسان بن مالك بن بحدل الكلبي ، زعيم الكلبيّة في هذا اليوم . صاحبي : هما شايان من سليم ، جاءت خيل مروان تغلبهما فخافا وقالوا لزفر : انج بنفسك ، أما نحن فمقتولان لاهماله ، فمضى زفر وتركهما .

فأجابه عمرو بن المخلاة الكلبي ، قائلا (١) :

بكى زُفرَ القيسي من هُلُكِ أهله بَعْبَرَةٌ عَيْنٍ مَا يَحِفُّ سَجُومُهَا
يُكَيِّئُ عَلَى قَتْلَى أَصِيبَتْ بِرَاهِطٍ تَجَاوَبُهُ هَامُ الْقِفَارِ وَبَوْمُهَا
أَبْحَنَّا جَمِيٍّ لِلْحَيِّ قَيْسَ بِرَاهِطٍ وَوَلَتْ شِلَالاً وَاسْتَبِيحَ حَرِيمُهَا
فَمَثَ كَمْدَاً أَوْ عَشْ ذَلِيلَا مُهْضَمًا بِحَسْرَةِ نَفْسٍ لَا تَنَامُ هُمُومُهَا
إِذَا خَطَرْتُ حَوْلِي قَضَاعَةً بِالْقَنَا تَخِيطُ فِعْلُ الْمَصْعَبَاتِ قَرُومُهَا
خَبِطْتُ بِهِمْ مَنْ كَادَنِي مِنْ قَبِيلَةٍ فَمَنْ ذَا إِذَا عَزَّ الْخُطُوبُ يَرُومُهَا

فكل هم زفر بن الحارث ، ومناطق حسرته ، أن قبيلته قد هزمت ، وأن أعداءها نجوا فلم تظلمهم رماحها ، وهو باعتباره فارس القبيلة حزين آسف لاضطراره إلى الفرار ، والتخلي عن أصحابه نجاة بنفسه ، وعذره أن قومه تفرقوا من حوله ، والأعداء قد أخذوا عليه كل طريق ، وتركوه يعدو بفرسه في أعالي الجبال .

هذا هو شغله الشاغل ، أما قضية خلافة ابن الزبير ، ومأصاها من تصدع نتيجة لهذه الهزيمة ، مع أنها الغرض السياسي ، الذي من أجله كانت هذه الوقعة ، فليست ذات صدى في نفس الشاعر ، ولم تشغل من فكره وهمه — بعد الهزيمة كثيرا ولا قليلا .

وهذا مما يؤكد أن هذه الحروب ، وإن قامت ترتدى زى السياسة ، فإنها قبلية فيما يحوطها من مشاعر ، وما تخلفه من مخازر أو مفاخر .

ومن هنا كان رد عمرو بن المخلاة قبليا خالصاً في السخرية والتهكم من أعداء قبيلته ، وفيه الاعتزاز ببطولة قومه ، وشدة نكايتهم في الأعداء ، وفيه التعصب للقبيلة واستشعار الحماية في ظلها ، فهي التي تدافع عنه ضد من يكيدون له ، وتحميه إذا دهمته الخطوب ، وما على غير هذا قامت العصبية القبلية في العصر الجاهلي .

ومادامت العصبية القبلية هي المحور ، ونصرتها هي الغاية ، فلن تجد في هذا الشعر وأمثاله ، إلا التردد للمعاني الجاهلية ، والتراكيب اللغوية الجاهلية ، والصور التي لا كها الجاهليون ، في أشعارهم المعبرة عن العصبية القبلية .

(١) الطبرى ٧ / ٤٢ وابن الأثير ٤ / ١٥٣ (بيروت) .

د : بين بطون من قبيلة واحدة :

— لقد هاجت العصبية القبلية ، وتناطحت القبائل ، ووجدت من حياة هذا العصر الأموي السياسية والاجتماعية ما يشجعها ، ويصفق لها ، ويعيد لها مكانتها الأولى في العصر الجاهلي ، التي كانت تناط بها عزة القبائل وأجادها ، وشرفها .

وأخذت العصبية القبلية في هذا العصر تضيق وتدنو حتى دخلت بين رجال العشيرة أو القبيلة الواحدة ، حيث تنور الإغارات والحروب بين الأحياء ، ويسقط القتلى ، وتطلب الثارات ، حتى غدت الحياة الأموية حياة جاهلية إلى حد كبير ^(١) .

ونسوق هنا بعضاً من شعر العصبية القبلية ، بين الحين من القبيلة الواحدة .

— هاجت الحرب بين بني عامر ، وهم من بني عذرة من قضاة ، رهط هدية بن خشرم ^(٢) ، وبين بني رقاش ، رهط زيادة بن زيد ^(٣) ، وهم من بني عذرة من قضاة أيضاً ، فقال زيادة مفتخراً بقومه ^(٤) :

أنا ابن رقاش وابن ثعلبة الذي	بني هادياً يعلو الهوادي أغلباً
بني العز بنينا لقومي فماصعوا	بأسيافهم عنه فأصبح مُصعباً
فما إن ترى في الناس أمّا كأمنّا	ولا كأيننا حين ننسبه أبا
ملكنا الملوك واستبحنا جماهم	وكنّا لهم في الجاهلية موكباً
ندامى وأردافاً فلم تك سوقة	توازننا فاسأل إباداً وتغلباً

(١) تاريخ النقائض (الشايب) ص ١٩٠

(٢) أبو سليمان ، أو أبو عميرة هدية بن خشرم العذري القضاعي . شاعر فصيح متقدم ، روى عن الخطيئة ، وروى عنه جميل بن معمر العذري ، كان يعيش في بادية الحجاز ، ولما قتل زيادة بن زيد العذري القضاعي قتل به قوداً أيام معاوية بن أبي سفيان ، فهو أول من أقيّد في الإسلام . انظر : الأغاني ٢١ / ١٦٩ ومعجم الشعراء ٤٨٣ وخزانة الأدب ٤ / ٨٤ ومجالس العلماء للزجاجي ٢٢٨ ومخط اللآلئ ١ / ٢٤٩ ، ٢ / ٦٣٩ وأمالى القالي ٢ / ٢٦ والاشتقاق ٥٤٧ .

(٣) زيادة بن زيد بن مالك بن عامر بن عبد الله العذري القضاعي ، اصطحب هدية مقبلين من الشام في ركب من قومهما ، فكانا يتعاقبان السوق بالإبل ومع هدية أخته فاطمة ، فارتجز زيادة بفاطمة ، فخاصما وتهاجيا ، وطلب هدية غرة من زيادة فلما سنحت قتله ، وكان ذلك أيام عثمان بن عفان ، انظر : الأغاني ٢١ / ١٦٩ والشعر والشعراء ٢٤٩ والتذكرة السعدية ٣١٥ وخزانة الأدب ٤ / ٨٦ .

(٤) شعراء النصرانية ١ / ٩٨ هاديا : يعنى مجددا يعلو الأجساد . ماصعوا : جالدا

إن روح الجاهلية تطل من هذه الآيات قوية واضحة ، فما كان الفخر الجاهلي في أكثر صوره إلا مؤسسا على الاعتزاز بالحسب ومجد الآباء ، وعلو الشرف والمكانة . وهذا الشاعر البدوي أسير هذه التقاليد الفنية لشعر الفخر الجاهلي ، سواء في الشكل أو المضمون .

— وهناك أمثلة عديدة أخرى للهجاء والفخر القبليين بين حينين من أب واحد ، كالذي قام بين جرير وهو من بني يربوع من تميم ، وبين غسان بن ذهل السليطي ، انتصارا لبني جحيش بن جارية بن سليط ، وكلا الحيين من يربوع ثم من تميم ، وكان بين الحيين نزاع وخصومة .

وهناك رجز لجرير يتناول فيه بني السليط بالهجاء ، فيرميهم بالذلة ، ويلعن نساءهم ذوات الروائح النتنة ، والبطون العكنة الضخمة ، ويشبههن تشبيها قبيحا ^(١) :

إِنْ سَلِيطاً فِي الْخَسَارِ إِنَّهُ
أَوْلَادُ قَوْمٍ خُلِقُوا أَقْنَهُ
لَا تَوَعِدُونِي يَا بَنِي الْأَصْنَهُ
إِنْ لَهْنُ نُسَيْبَةٍ لَعْنَهُ
سُوداً مَغَالِيمَ إِذَا بَطْنُهُ
يَفْعَلْنَ فِعْلَ الْأَثْنِ الْمُسْتَنْتَهُ

وهكذا ينزلق الهجاء القبلي إلى الفحش وتناول الأعراض ، وإيراد الصور المخجلة القبيحة ، فيما يشبه السباب الخالص ، وهذه سفاهة وإسفاف ، لانجدها نظيرا في الهجاء القبلي الجاهلي .

وقد نضيف إلى هذا الاتجاه ، ظاهرة التبع والاستقصاء في الهجاء ، الذي أورث فن الهجاء القبلي في هذا العصر طول النفس ، واسترسال القصيدة . رأينا هذا في قصيدة الفُحيف العُقيلي في هجاء بني حنيفة البكريين ، ونراه أيضا في هجاء جرير غسان وقومه بني السليط .

(١) ديوانه ٥٩٨ . الأثنة : جمع قن . المصنة : المنتنة الريح . نسيّة : تصغير نساء . بطنة : من البطنة ، وهي الامتلاء .

فحينما أخذ غسان يرد على جرير هجاءه ويفخر بنفسه وقومه ، ويهجو جريرا وقومه ، ويصمهم بالجن واللؤم والبخل وحماقة الأصل ، في أبياته التي يقول فيها : (١)
 لعمرى لمن كانت بَجِيلَةُ زانها جريرٌ لقد أخزى كُلياً جريرُها
 عضه جرير بطويلة (٣٦ بيتا) مطلعها (٢) :

ألا بكرتُ سلمى فجذُّ بُكورها وشقَّ العصا بعد اجتماع أميرها
 وبعد نسيب قصير ، يقول في غسان :

ألا ليت شعري عن سَلِيطٍ أَلَمْ تَجِدْ سَلِيطٌ سَوَى غَسَانَ جَاراً يَجِيرُها
 لقد ضَمُّنُوا الْأَحْسَابَ صَاحِبَ سَوَّةٍ يَنَاجِي بِهَا نَفْساً لَثِيماً ضَمِيرُها
 وبعد هجاء قبيح في غسان ، يتناول قومه ، قائلا :

ألا ساء ما ثَبَّلِي سَلِيطٌ إِذَا رَنَتْ جَوَاشُنْها وَازدَادَ عَرَضاً ظَهْرُها
 بِأَسْتَهاها ترمى سَلِيطٌ وَتَتَقَى وَيرمى نَضالاً عَنْ كَلِيْبِ جَرِيرِها
 ولما علاكم صَكُّ بَازٍ جَنَحْتُمْ بِأَسْتَها خِرْبَانٍ تَصُرُّ صَقُورِها ...
 فما في سَلِيطٍ فَارسٌ ذُو حَفِيظَةٍ وَمَعْقِلِها يَوْمَ الْهِياجِ جُعُورِها ...
 إِذا قِيلَ رَكَبٌ مِنْ سَلِيطٍ فَقُبُحَتْ رَكاباً وَرَكباناً لَثِيماً بِشِيرِها ...
 وَمابَكُمْ صَبْرٌ عَلَى مَشْرِقَةٍ تَعْضُ فَرَاخَ الْهَامِ أَوْ تَسْتَطِيرُها

والقصيدة طويلة ، وكلها على هذا النحو من الهجاء ، الذي لا يعف عن الفحش ، إلى جانب الوصف بالهوان والدناءة ، والجن والفرار ، وحقارة الشأن ، والتذكير بعار الهزيمة في أيام كانت عليهم ، علاهم فيها ، قيس عيلان ، وبكر بن وائل ، حتى كأنما يقص فيها تاريخ بني سليط ، ويسجل مخازيهم ، وأيام عارهم ، في تتبع دقيق ، ونفس طويل .

(١) يوازن بين جرير الكلبي التميمي ، وجرير بن عبد الله البجلي الصحابي المشهور

(٢) القصيدة بنهايتها في ديوانه ٢٩٣ — ٢٩٦ . الجواشن : الصدور .

والعجب أن تقال هذه الأشعار ، التي تفوح منها ريح العصبية القبلية ، في بيئة إسلامية ، وعلى مسمع من حكام المسلمين الأمويين وعمالهم !!

وقد يزول هذا العجب ، إذا ما تذكرنا أن روح الإسلام لم تكن قد تغلغلت في قلوب كثير ممن استظلوا بظله ، أو ساروا تحت لوائه ، وانتموا لملته ، وأغلب بنى أمية — دون شك — من هؤلاء الكثيرين ، فقد عرفنا أنهم كانوا يشجعون هذه النزعات العصبية ، ويقربون شعراءها ، الذين يخدمون سياستهم .

هذا إلى جانب ما نعلم من أن أكثر شعراء العصبية القبلية في العصر الأموي ، كانوا من عرب البوادي ، الذين لم يتعمق الإسلام قلوبهم ، فلم يعرفوا معنى الأخوة الإسلامية ، ولم يتخلقوا بخلق الإسلام .

وحتى فحول شعراء هذا العصر ، وعلى رأسهم جرير والفرزدق والأخطل ، قد ضربوا في شعر العصبية القبلية بسهم وافر ، مع أنهم تذوقوا نعمة الحضرة ، ولا عجب فالأخير منهم لم يزر الإسلام قلبه ، إلا بمقدار مازار قلب عمرو بن كلثوم ، أو طرفه ، وثانيهم ، كاد الإسلام يمس قلبه ، فقيد نفسه في بيته ، وآلى ألا يفك قيده حتى يجمع القرآن ، فلما جاءته نساء بنى مجاشع ، وقد فحش جرير بهن في شعره ، وقلن له قبح الله قيدك فقد هتك جرير عورات نسائك ، فلجيت شاعر قوم !! فأحفظنه ، وسرعان ما فك قيده ، ونزل إلى المعركة ، وشغل بذلك عن القرآن ، وقال ^(١) :

ألا استهزأت مني هنيئاً أن رأث	أسيراً يداني خطوه حلق الجبل
لعمري لئن قيدت نفسي لطالما	سعيث وأوضعت المطية للجهل
ثلاثين عاماً ما أرى من عماية	إذا برقت إلا شددت لها رجلي
أنتنى أحاديث البعيث ودونه	زرد فشمات الشقيق إلى الرمل
فقلت أظن ابن الخبيثة أننى	شغل عن الرامي الكنانة بالئبل
فإن يك قيدي كان نذراً نذرته	فما لي عن أحساب قومي من شغل الخ

(١) انظر ابن سلام ١ / ٣٢٧ ، وديوان الفرزدق ٢ / ١٥٢ — ١٥٣ (بيروت) البعث : شاعر من قوم الفرزدق بنى مجاشع ، وأحاديثه : يعنى أخبار هجاء جرير إياه ، وتناول أعراض قومه في هذا الهجاء . زرد : ماء لبنى مجاشع

على هذا النحو كانت الحياة القبلية ، وما يدور في فلكها من عصبية ، طوال العصر الأموى ، لم تهدأ نزعاتها ، ولم تنفصل عن الحياة الاجتماعية ، ولا عن الحياة السياسية .

ولم يقف بمعزل عن هذه الحياة ، فقد تجاوزت فيه أصدائها ، بل كان وقودا لها يلهبها ، ويضرها ، ويتصل بها اتصالا وثيقا ، ويتبادل وإياها التأثير والتأثر .
وهكذا كانت الحياة القبلية مقوما أساسيا من مقومات الحياة في العصر الأموى ، كما كانت أصداء هذه الحياة القبلية مقوما أساسيا من مقومات الشعر في هذا العصر .

— ٥ —

تعقيب على شعر الخصومة القبلية في العصر الأموى :

يتضح من هذه الدراسة التى تناولت العصبية القبلية في العصر الأموى ، وما كان لها من تأثير في توجيه قدر كبير من شعر العصر نحو التعبير عنها ، وإحياء فنى الفخر والهجاء القبليين ، ومدهما بالقوة والذيق ، نقول : يتضح من هذا كله ومن دراسة نماذج من الشعر الذى تخلف عنها ، أن الشعر القبلى في العصر الأموى كان يحتذى نظيره في الشعر الجاهلى ، يحتذى تقاليده التى أرساها شعراء القبائل ، خلال تجاربهم الطويلة .
ومعنى هذا أن الطابع العام ، الذى يبرز في الشعر القبلى في عصر بنى أمية ، هو الطابع الجاهلى ، وهو بهذا يعد امتدادا للتقاليد الأدبية الموروثة في شعر العصبية القبلية الجاهلية ، فشعراؤه يتخذون من هذا الشعر الجاهلى نموذجا يحتذونه ، يمدون أبصارهم إليه ، ويسيروا على ضوئه وهده ، في أغراضه ومعانيه ، ولغته أيضا .

أما الأغراض : فقد وضح الأمر فيها على ضوء تحليلنا السابق لنصوص من الشعر القبلى الأموى ، حيث رأينا كيف كان شعراء القبائل مشغولين بمناقبة قبائلهم ، ومثالب أعدائهم ، لا يتحدثون عن أنفسهم بقدر ما يعبرون عن قضايا قومهم في صراعهم مع منافسيهم ، وهى تلخص في الهزائم والانتصارات ، والأيام ، والأحساب والأنساب ، وكل ما كان عنوانا للشرف والمجد القبليين في العصرين الجاهلى والأموى ، إيجابا في الفخر ، وسلبا في الهجاء .

وفي باب المعاني ، لم يخرج الشعر القبلي في معانيه عن نطاق المعاني التي طرقها نظيره في العصر الجاهلي ، وقد وضع هذا من المقارنات التي قدمناها بين نماذج من الشعر القبلي في العصرين ^(١) ، فعلى ضوءها يبدو جليا أن المعاني الجاهلية ، والهجاء الجاهلي ، والحمية الجاهلية واضحة أجلى وضوح في هذا الشعر القبلي الأموي ^(٢) .

وإن كان هناك من فارق في مجال المعاني ، فيمكن حصر أهم مظاهره فيما أشرنا إليه من ميل الشعر القبلي الأموي إلى تتبع المعاني ، واستقصائها ، ولعل هذا الاستقصاء مع طول القصائد في هذا العصر ، هو الذي أدى إلى تكرار المعاني ، فقصائد الهجاء والفخر طالت ، وكثرت ، والشاعر يستنفد المعاني ، بحيث تستغرقها قصيدة أو أبيات من قصيدة ، وبعدها تفرغ جعبته من المعاني ، فينثني يكرر ماسبق عن أن عبر عنه ، من أيام ومفاخر ومثالب ، في عبارات مختلفة ، ليس تحتها من جديد ، وليس فيها إلا المهارة اللغوية ، والقدرة على اصطلياد التراكيب وتأليفها ، والأمثلة على هذا كثيرة ، وبخاصة في شعر فحول شعراء القبائل في هذا العصر .

ولنأخذ مثلاً قول الفرزدق مفتخراً بقومه :

ومأحدٌ إذا الأقوام عَدُّوا عروق الأكرمين إلى التراب
بمحتفظين إن فضلتمونا عليهم في القديم ولاغضاب
ولو رفع السحاب إليه قوماً علونا في السماء إلى السحاب

يفخر بآبائه وأجداده الكرام ، وبقديم قومه في المجد ، وعلو منزلتهم فوق الناس جميعاً .

ويكرر هذه المعاني في عبارات أخرى مخاطباً جريراً ^(٣) :

بأى أب يابن المراغة تبغى رهاني إلى غايات عمى وخاليا
هلم أبأ كابني عقالٍ تعده وواديهما يابن المراغة واديا

(١) انظر ص ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ من هذه الدراسة

(٢) انظر : فجر الإسلام ١ / ٩٩

(٣) ديوانه ٩٨

(٤) ديوانه ٣٦١

نجد فرعه عند السماء ودارم من المجد منه أترعت لي الجوايا
 بنى لي به الشيخان من آل دارم بناءً يرى عند المجرة عاليا
 وفي هجاء جرير الأخطل ، يكرر معاني انتسابهم إلى الصليب ، ويناديهم بخنازير
 تغلب ، وأنهم شراب خمر ، كما يعيرونهم بإذلال قيس إياهم في أكثر من قصيدة ^(١)
 فإذا أضفنا إلى هذا كثرة المعاني القبيحة المسفة ، كانت هذه النواحي معبرة عن
 تطور — قليل الخطر — أصابه الشعر القبلي ، واقترب فيه عن نظيره الجاهلي .
 وأما لغة هذا الشعر القبلي في العصر الأموي ، فهي تلك اللغة الرصينة ، التي
 تتأرجح بين صلابة العبارة أحيانا ، والاحتفاظ بالمستوى الواضح الرصين أحيانا أخرى ،
 موصوفة بالجزالة غالبا ، شأنها في ذلك شأن لغة الشعر القبلي في العصر الجاهلي .
 ويمكن ملاحظة هذه الجزالة ، إذا قرأنا في شعر السياسة في هذا العصر ، حيث نجد
 العبارة تتسم بالسهولة والوضوح ، وتقل فيها الجزالة التي نلاحظها في الشعر القبلي ، بل
 إننا نلاحظ اختلاف مستوى الجزالة في شعر الشاعر الواحد بين هذين الفنين ، ف شعر
 الطرماح في السياسة ، أقل جزالة من شعره القبلي ، يقف على هذا كل من قرأ في ديوانه ،
 وأنعم النظر في لغة شعره في كل منهما ، وقل مثل ذلك في شعر الأخطل وجرير والفرزدق .
 ولنقرأ مثلاً قول الفرزدق : ^(٢)

حُلِّلَ الملوك لباسنا في أهلنا والسباغاتُ إلى الوغى تسربلُ
 أحلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جنا إذا ما نجهل
 فادفع بكفك إن أردت بناءنا نَهْلَانْ ذا الهضبات هل يتحلحلُ؟!
 وقول جرير ^(٣) :

وقد عِلِمَ الأقوامُ أَنَّ سيوفنا عَجَمَنَ حَدِيدَ البِيضِ حتى تصدَّعا
 ألأرْبُ جَبَّارٍ عليه مهابةٌ سقيناها كأسَ الموتِ حتى تَضَلَّعا
 نقوذُ جياداً لم تقدها مجاشعُ تكون من الأعداء مرأى ومسمعا..

(١) انظر ديوانه ٥٣ ، ٥٩ ، ١١١ ، ٢٦٢ ، ٤١٤ ومواضع أخرى عديدة .

(٢) ديوانه ١٥٧

(٣) ديوانه ٣٣٩

وهذه اللغة الرصينة أيضا هي الطابع العام لشعر الأخطل القبلي ، نأخذ مثلا قوله في هجاء قبائل قيس (١) :

وقد سَرَّني من قيس عَيْلانَ أننى رأيتُ بنى العَجْلان سادوا بنى بَدْرِ
وقد غبر العجْلانُ حيناً إذا بكى على الزاد ألقته الوليدةُ في الكِسْرِ
فيصْبُحُ كالخفاش يدلك عينه فقَبَّح من وجهٍ لئيمٍ ومن حَجَرٍ
وقوله (٢) :

إن السيوفَ غَدُوها ورواحها تركت هوازَنَ مثلَ قرنِ الأعْضَبِ
وقوله :

إذا ما قُلْتُ قد صالحتُ بكراً أبى البغضاء لا النسب البعيدُ
وأيامٌ لنا ولهم طوالٌ يعضُّ الهامَ فيهنَّ الحديد
هما أخوان يصطليان ناراً رداء الموت بينهما جديدُ

وغير ذلك كثير ، في شعره وشعر فحول عصره القبلي .

هذا ، ولئن كانت التقليدية قد غلبت على الشعر القبلي في العصر الأموي ، فإننا لانستطيع أن نتجاهل ما كان لهذا الشعر من فضل الحفاظ على كثير من فصاحة اللغة ، وتراكيبها القوية الجزلة ، التي تحاكي عصر العربية في عنفوان فصاحتها ، كما تتمثل في الشعر الجاهلي ، فضلا عما كان له من أثر فعال في إثراء الشعر ، وكثرة الشعراء في العصر الأموي .

❦ ❦ ❦

(١) ابن سلام ١ / ٥١٣ (المذ)

(٢) المصدر السابق ٤٧٧

الفصل الرابع

شعر الخصومة الفردية

أو
التقائض الأدبية

نعنى بالخصومة الفردية ، نوعاً من المنافسة الفنية ، تمخضت عنه الخصومات السياسية والقبلية فيما تمخضت عنه ، أغرى بعض الشعراء به ، ودفعهم إليه ، إقبال الجماهير المتحمسة للخصومة المتعددة الألوان في العصر الأموي ، عصر الصراعات السياسية ، والقبلية ، على ضروب الشعر ، الذى يتخذ من هذه الخصومة ، أو تلك موضوعاً له ، حيث كانت الحلقات تعقد فى كل من البصرة والكوفة بالعراق ، وفى مجالس الخلفاء بدمشق ، وتروى فيها هذه الأشعار ، فتتنازع الأهواء الجمهور المستمع ، كما تنازعت من قبلهم قائلها من الشعراء ، والناس ما بين متحمس لهذا أو ذاك ، ساخط على ما يسمع من شعر أو راض ، والشعراء من خلال هذه كله ، تذيع أشعارهم ، وتتناقلها الرواة ، وتستقر فى الذواكر ، وتلمع أسماء عديدة من الشعراء فى سماء الشهرة ، فيسمع بهم القاصى والدانى ، ومع الذبوع والشهرة ، تنشط القرائح وتبدع وتؤتى ثمارها كل حين ، متنوعة الألوان والطعوم .

يبد أن الشعراء الذين قدر لهم ولشعرهم فى الخصومات السياسية والقبلية وغيرها ، التفوق والنبوغ ، سرعان ما وجدوا أنفسهم يدورون فى دائرة ، فسيحة ولكنها مغلقة ، من صور الهجاء والفخر والحامسة القبلية ، ومن صور المدح والتأييد والمعارضة السياسية .

وكأنما خشوا أن تستهلكهم هذه الصورة ، وتستفرغ عبقريتهم ، وتسلمهم إلى تكرار القوالب والمعانى والصور ، فتتعطل مواهبهم ، ويتحول فهم من جانب الإبداع ، إلى جانب المهارة فى الصناعة والصياغة ، فيفقد بريقه ولمعانه وجاذبيته ، ويفقد معها جماهيره المعجبة ، وطلاب فنه المتحمسين .

كان هذا وغيره مما أغرى طائفة من شعراء هذا العصر — وبخاصة الفحول منهم — إلى التعرّيج بشعرهم على ميدان آخر للتنافس ، فى فنى الهجاء والفخر ، لا يشغل الشاعر فيه شعره بالحزب ، ولا بالقبلية ، بقدر ما يشحذ فنه ، ويستلهم شياطين شعره ، ومواهب عبقريته للتفوق على منافسه ، أو منافسيه ، فى مجال الإبداع الشعرى ، والامتيياز الفنى .

وهنا برز نوع من الخصومة بين طائفة من شعراء العصر ، لاهى بالخصومة السياسية ، ذات المقومات الحزبية التى عرفناها ، ولاهى بالخصومة القبلية الخالصة ، القائمة على مقتضيات العصبية القبلية ، وبواعثها وأهدافها المعروفة ، وإنما هى خصومة يتوارى فيها طابع العداوة الحادة ، والصراخ المحموم المتشنج ، والهوى المتعصب المندفع ، وغيرها من العواطف العنيفة التى تلاحظ فى الشعر السياسى والقبلى ، بكل ما يعبر عنه من عنف السياسة والتعصب فى هذا العصر .

هى إذن منافسة أكثر منها خصومة ، ومنافسة فى جودة الفن ، لافى هوى السياسة ، أو علو المجد ، وشرف الانتماء القبلى ، وهى منافسة تقوم بين أفراد من الشعراء بحكم طبيعتها وهدفها ؛ ولذا أسميناها خصومة فردية .

ومن أشهر ثمار هذه المنافسة الفردية الفنية الأدبية ، ما عرف فى تاريخ الشعر العربى بنقائض جرير والفرزدق ، ونقائض جرير والأخطل ، وهذه النقائض هى عماد دراستنا لما أسميناه هنا بشعر الخصومات الفردية أو الأدبية .

— ٢ —

ماالنقائض ؟

النقائض : جمع نقيضة ، وهى فى معجمات اللغة ، مأخوذة من النَّقْض فى البناء ، وهو الهدم ، وفى الحبل ، بمعنى حلُّه ، وفى العهد ، بمعنى عدم إبرامه ، وقيل : النقض : ضد الإبرام ، ويكون فى البناء والحبل والعهد ، قالوا : والمناقضة فى القول : أن يتكلم بما يتناقض معناه ، أى يتخالف ، ونقضه فى الشيء مناقضة ونقاضا : خالفه ^(١) .

والنقيضة فى باب الشعر ، بمعناها الذى استقرت عليه ، وانتهت إليه ، تعنى أن يقول شاعر قصيدة يهجو فيها شاعراً آخر ، طاعنا فيه وفى قومه ، ويفخر فيها بنفسه ويقومه ، فيجيبه الشاعر الآخر بقصيدة ، ناقضا ما جاء به الأول — أو كثيرا مما جاء به —

(١) انظر : القاموس المحيط (نقض) ٢ / ٣٤٧

من معان وصور ، مضيفاً إليها من جانبه مزيداً من الفخر والهجاء ، كل ذلك بقصد « أن يفسد على الأول معانيه ، فيردها عليه ، إن كانت هجاء ، ويزيد عليها مما يعرفه أو يخترعه ، وإن كانت فحراً كذبه فيها ، أو فسرها لصالحه هو ، أو وضع إزاءها مفاخر لنفسه وقومه » (١) .

وقد يتجاوز الشاعر الآخر الرد على أقوال الأول معنى معنى ، إلى الهجاء العام ، والفخر العام ، فيقوم النقض حينئذ على أساس المقابلة بين هجاء وهجاء ، وفخر وفخر . وفي كل حال لا تكتسب قصيدة الشاعر الآخر اسم النقيضة إلا إذا التزم في رده ، بالموضوع الذى عاجله الشاعر الأول ، وبالوزن الذى اختاره ، وبالقافية التى بنى عليها قصيدته ، وحينئذ تسمى قصيدته نقيضة بمعنى ، ناقضة ، وتسمى قصيدة الأول نقيضة ، بمعنى منقوضة ، أى أن الأولى — فى ترتيب القول — فعيلة بمعنى مفعولة ، والأخرى فعيلة ، بمعنى فاعلة .

وهنا نلاحظ اختلاف الموقف الإبداعي بين الشاعرين ، من حيث حرية اختيار الموضوع والوزن والقافية والمعاني ، والاحتشاد الانفعالي ، إذ يتوفر هذا كله للشاعر الأول ، بينما يجد الشاعر الآخر نفسه مضطراً إلى تقييد مواهبه بحدود الموضوع الذى فرض عليه ، وقدراته الفنية واللغوية ، بحدود الوزن والقافية ، اللذين عليه الالتزام بهما ، ولهذا كثيراً ما نجد الأول أطول نفساً ، وأجود معنى وأقوى أسلوباً ، بحكم ماحظى به من حرية الاختيار ، وما أكره عليه الآخر من قيود ، جعلته أمام أمر واقع ، عليه أن يخوضه مكرهاً أو محرّجاً ، ومن ثم يقصر عن صاحبه .

ولا ينبغي أن يفهم مما ذكرناه تفسيراً للمعنى النقيضة فى الشعر ، أن المناقضة تقتصر دائماً على شاعرين ، بمعنى أن طرفيها لابد أن يكونا شاعرين فقط ، فقد يشترك فى الموقف الواحد للمناقضة أكثر من شاعرين ، فيرد على قصيدة الأول أكثر من شاعر ، أو يرد على الراد راداً آخر ، نرى هذا — مثلاً — فى نقائض جرير مع غيره من الشعراء (٢) ، ونقائض حسان بن ثابت مع شعراء المشركين فى العهد النبوى (٣) .

(١) تاريخ النقائض (الشاب) ص ٣

(٢) قيل : بلغ عدد من ناقض جريراً من الشعراء وناقضهم ستة عشر شاعراً . انظر : تاريخ النقائض ٢٠٩

— ٢١٠ وانظر : الفهرست لابن النديم ٢٢٥

(٣) انظر : تاريخ النقائض ١٦ — ١٧

نخلص من تحديد معنى النقيضة الشعرية ، وما يتصل بهذا المعنى ، إلى أن الأصول الفنية التى يقوم عليها فن النقائض الشعرى أربعة :

١ — نقض المعانى ، وهو مناط النقائض ، ومحورها الذى عليه تدور ، والأصل العام الذى يقوم عليه نقض المعانى هو ، أن يعنى الشاعر الآخر بإفساد ما يقرره الشاعر الأول ، فيكذب ما يدعى ، أو يضع إزاءه ما يقابله ، أو يقلل من شأنه وأهميته ، وهذا الأصل جامع لطرق المناقضة ، التى اعتمدها شعراء النقائض ، وهى : المخالفة فى التفسير ، كأن يتناول الشاعران حادثاً أو موقفاً واحداً ، كل يفسره بما يؤيد موقفه فى الفخر أو الهجاء .

فجرير يفخر بقيس عيلان ، ويرأها جديرة بالثناء ، فعليها المعول فى النصرة ، والدفاع عن الحوزة ، والحفاظ على الأجداد ، كما يفخر بقومه بنى يربوع ، ويرأهم حماة تميم ، فى قوله (١) :

وإِنِّى مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ تَعُدُّهُمْ تَمِيمٌ حُمَاةَ الْمَازِقِ الْمُتَلَحِّمِ
وقوله :

وقيسٌ هم الفضلُ الذى نستعِدهُ لفضل المساعى وإِبتِناء المكارم
إذا حَدَّثْتُ قَيْسٌ عَلَى وَحْنِدِفٍ بنوا لى عادياً رفيع الدعائم
وقيس هم الكهف الذى نستعِدهُ لدفع الأعادى أو لحمل العظام

فيتصدى له الفرزدق مفسراً موقفه من قيس بأنه موقف الدعى المرتزق ، الذى يتنكر لقومه ، فى سبيل نهزة يصيبها ، أو كسبٍ تافه يلقى إليه به ، فيفقد بذلك انتباه لقومه ، ولا يلحق انتباء بالآخرين (٢) :

فما أنت من قيس فتنبح دُونها ولا من تميم فى الرعوس الأعاضم
وإنك إذ تهجو تميماً وترثى تَبَايِنَ قَيْسٍ أو سُحُوقَ الْعَمَائِمِ

(١) ديوانه ٥٥٥ ، ٥٦٢

(٢) ديوانه ٣١٣ / ٢ — ٣١٤ (بيروت) . التباين : سراويل قصيرة يلبسها النوبة ، واحدها : تباين . السُحُوق : البالية ، مفردة : سحق ، وكذا الدرسان

كُمْهِرِي مَاءٍ بِالْفَلَاةِ وَغَرَّهُ سَرَابٌ أَثَارَتَهُ رِيَاخُ السَّمَائِمِ
أَنَا ابْنُ تَمِيمٍ وَالحَمَامِي وَرَاءَهَا إِذَا أَسْلَمَ الْجَانِي ذِمَارَ الْحَارِمِ
أُذِرْسَانَ قَيْسٍ لِأَبَالِكَ تَشْتَرِي بِأَعْرَاضِ قَوْمِ هَمِ بِنَاةِ الْمَكَارِمِ

ومن طرق مناقضة المعاني إظهار الادعاء والكذب فيها ، كالذى فعله العباس بن يزيد الكندي ^(١) ، حينما هجا جرير الراعي التميمي ، في قصيدته التي مطلعها ^(٢) :
أَقْلَى اللِّوَمِ عَاذِلَ وَالْعِتَابَا وَقَوْلِي إِنْ أَصَبْتُ لَقَدْ أَصَابَا
والتي يقول فيها :

إِذَا غَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ غَضَابَا

فقد رد عليه العباس ، مكذبا هذا المعنى ، قائلا ^(٣) :

لَقَدْ رَغِمْتُ أَنْوْفُ بَنِي تَمِيمٍ فَسُوءَ التَّمْرِ أَنْ كَانُوا غَضَابَا
لَقَدْ غَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ فَمَا تُكَاثَّرُ بِغَضَبَتِهَا ذُبَابَا

ومن هذه الطرق أيضا مقابلة المعنى بنظيره ، كأن يفخر الشاعر الأول بموقف مشرف له أو لقومه ، فيأتي الآخر بموقف له أو لقومه يقابله في المجد والشرف ، وكثيرا ما يلجأ شعراء النقائض إلى هذا الأسلوب في المناقضة ، في مواطن الفخر أو الهجاء بالأيام ، فيورد الأول يوما لقومه علوا فيه أعداءهم ، فيرد الآخر بيوم لقومه مماثل في المجد والشرف ، أو العكس في مقام الهجاء ^(٤) .

وقد يعتمد الشاعر الناقض إلى قلب معاني صاحبه ، ويردها عليه ، بأن يقلب فخر خصمه هجاء ، وينسب الفخر لنفسه وقبيله ، فحين قتل وكيع بن حسان التميمي ، قتيبة بن مسلم الباهلي القيسي ، قال الفرزدق ، مفتخرا ^(٥) :

فِدَى لِسِيوفٍ مِنْ تَمِيمٍ وَفَى بِهَا رِدَائِي وَجَلْتُ عَنْ وَجْهِهِ الْأَهَاتِمِ
شَقَيْنَ حَزَازَاتِ النَّفُوسِ وَلَمْ تَدْعُ عَلَيْنَا مَقَالَا فِي وِفَاءٍ لِلْإِثْمِ
أَبَانَا بِهِمْ قَتْلِي وَمَا فِي دِمَائِهِمْ وَفَاءً وَهْنُ الشَّافِيَاتِ الْحَوَائِمِ

(١) شاعر كندى هاجى جريرا منتصرا لبني نخير ، فشكاه جرير إلى قومه وأعذر ، فلم ينته ، حتى بحث جرير عن مثاله فهجاه بها فأسكته . انظر : ديوان جرير ٦٠

(٢) ديوانه ٦٤ — ٨٠

(٣) الأغاني ٢٠ / ١٧٢ — ١٧٣

(٤) انظر أمثلة لهذا الأسلوب في : تاريخ النقائض ٢٤ — ٢٥

(٥) ديوانه ٢ / ٣١٠ (بيروت) وانظر ص ٢٠٠ من هذه الدراسة .

تصدى جرير لهذا الفخر ، فجرد الفرزدق من حق الافتخار بهذا المعنى ، لأن
وكيعاً ليس من بنى مجاشع ، قال : (١)

فغيرك أدى للخليفة عهدُهُ وغيرك جلى عن وجوه الأهاتم
فإنَّ وكيعاً حينَ خارثَ مُجاشعٍ كفى شَعْبَ صَدْعِ الفتنَةِ المتفاقمِ
لقد كنتَ فيها يافرزدقُ تابِعاً ورِيثُ الذَّنَابِي تابعٌ للقوادمِ

٢— وحدة الموضوع : فعلى الشاعر الناقض أن يعالج في نقيضته الموضوع
نفسه ، الذى عالجَه خصمه ، بحيث يتفقا ، فخراً ، أو هجاء ، أوهما معا ، أو سياسة ،
أو نسيباً ، أو رثاء (٢) ؛ إذ كان الموضوع هو مجال المناقشة ، ومادة النقائص .

٣— وحدة الوزن الموسيقى (البحر العروضي) ؛ إذ هو الشكل الموسيقى ، الذى
يجمع بين النقيضتين ، ويجذب إليه الشاعر الناقض ، بعد أن يختاره الشاعر الأول ، ثم هو
إطار فنى ، ومظهر من مظاهر القدرة الشعرية ، على الشاعر الناقض ، أن يقبل المنافسة
فيه أيضاً ، والناقض الفحل هو الذى يبدع من خلال هذا الإطار ، ويتفوق على صاحبه ،
على الرغم من أن الشكل الموسيقى مفروض عليه ، ليس مختاراً فيه .

٤— وحدة القافية : باعتبارها من اللوازم الموسيقية المتكررة التى ارتضاها الشاعر
الأول ، واختارها نعمة موسيقية تظهر جانباً من براعته ، وقدرته الفنية ، فدخلت بذلك
مجال المنافسة بين الشعاعين ، كتنمة للتنسيق الوزنى ، وجزء من النظام الموسيقى العام
للمناقضة .

هذه القواعد الفنية للمناقضة التزم بها جميعاً شعراء النقائص فى العصر الأموى ،
عن إدراك تام منهم لهذا الفن وقواعده ، يدل على هذا قول عقّال بن هاشم ، مناقضاً ابن
ميادة ، فيما كان بين اليمن ومضر من ملاحاة ، أيام الوليد بن يزيد ، إذ قال ابن ميادة
الرمّاح بن أبرد (٣) :

(١) ديوانه ٥٦١

(٢) راجع فى نماذج من نقائص هذه الفنون : تاريخ النقائص ١٢ — ١٥

(٣) الأغاني ٢ / ٨٦ والرمّاح بن بنى ذبيان ، قيسى مضرى انظر ترجمته ص ٢٨٢ هامش (٨) من هذه

الدراسة ، بينها صاحبه من الجنبة .

فَجَرْنَا يَنَابِيعَ الْكَلَامِ وَبَحَرَهُ
وَمَا الشَّعْرُ إِلَّا شَعْرُ قَيْسٍ وَخِنْدِفٍ
فَأَصْبَحَ فِيهِ ذُو الرُّوْيَةِ يَسْبُحُ
وَقَوْلُ سَوَاهِمِ كُلْفَةٍ وَتَمْلُحُ

فرد عليه عقاب قائلاً :

أَلَا أَبْلَغُ الرِّمَاحَ نَقْضَ مِقَالَةٍ
لَنْ كَانَ فِي قَيْسٍ وَخِنْدِفٍ أَلْسُنُ
بِهَا خَطَلُ الرِّمَاحِ أَوْ كَانَ يَمَزُحُ
طَوَالَ شَعْرٍ سَائِرٍ لَيْسَ يُقْدَحُ
لَقَدْ حَرَّقَ الْحَيُّ الْيَمَانُونَ قَبْلَهُمْ
بَحَوْرَ الْكَلَامِ تُسْتَقَى وَهِيَ تَطْفَحُ

فقلوه : « نقض مقالة » دليل وعى بهذا الفن وأصوله .

— ٣ —

متى نشأ هذا الفن وتطور ؟

النقائض بالمعنى الذى ذكرناه ، لا ترجع فى نشأتها وتطورها إلى العصر الأموى وحده ، فقد كانت فنا شعريا معروفا — إلى حد ما — فى العصر الجاهلى .

فقد اقتضى الخلاف بين القبائل فى الجاهلية ، أن يتعصب الشعراء لقبائلهم ، وكثيرا ما نجد شاعرا ينتصر لقومه ، أو أحلافهم ، فيرد عليه شاعر من القبيلة المعادية ، وينقض معانيه ، معتمدين على الفخر أو الهجاء ، أو عليه معا .

ولم تكن هذه الأشعار فى أول أمرها تأخذ صورة النقائض بكل أصولها وعناصرها ، وشرائطها الفنية ، فذلك ماتأباه سنة النشوء والتطور ، بل نجد منها ما يأخذ صورة الرد ، الذى لا يتقيد بأصول المناقضة . كقول امرئ القيس متوعدا بنى أسد ؛ لقتلهم أباه حُجْرًا^(١) :

والله لا يذهب شيخى باطلا	حتى أير مالكا وكاهلا
القاتلين الملك الحُجْلَاجلا	خير مَعْدُ حَسْباً ونائلا
يالهف هند إذ خطئن كاهلا	نحن جلبنا القُرْحَ القوافلا
يَحْمِلُنَا وَالْأَسْلَ التَّوَاهلا	مستفزمات بالحصى جوافلا
تستفِرُّ الأَوَاخِرُ الأَوَائلا	فصرتُ فيهم غائماً وقاتلا

(١) ديوانه ١٣٤ — ١٣٥

فرد عليه عبيد بن الأبرص شاعر بنى أسد : (١)

يَاذَا الْخَوْفُنَا بَقْتُنَا — لِي آيَهُ إِذْلالاً وَحِينَا
أَزَعَمْتَ أَنْكَ قَدْ قَتَلْتُنَا — سَرَاتِنَا كَذِباً وَمِينَا
لَوْمًا عَلَى حُجَرِ بْنِ أُمِّ قَطَامٍ تَبْكِي لَا عَلَيْنَا

فهذا رد ساذج ، ليس فيه من أصول فن المناقضة إلا إبطال بعض معاني الشاعر

الأول .

ثم يتطور هذا الفن قليلا ، فتحقق فيه بعض قواعد المناقضة دون بعض : من ذلك ماكان بين عامر بن الطفيل ، وزيد الخيل ، فقد خرج رجل من طيء (قوم زيد) اسمه دؤاب إلى صهر له في هوازن ، فأصيب ، فأغار زيد على بنى عامر ، ثم رجع إلى قومه ، ولم يشتف ، فقالوا : ما صنعت ؟ فقال : ما أصبْتُ بثأر دؤاب ، ولانيوء به إلا عامر ابن مالك ملاعب الأُسنة ، فأما ابن الطفيل فلا ييوء به ، وأنشأ يقول (٢) :

لَأَرَى أَنْ بِالْقَتِيلِ قَتِيلًا — عَامِرِيًّا يَفِي بِقَتْلِ دُؤَابٍ
عَامِرٌ لَيْسَ عَامِرَ بْنَ طُفَيْلٍ — لَكِنَّ الْعُمَرَ رَأْسَ حَيٍّ كَلَابٍ
ذَاكَ إِنْ أَلْقَاهُ أَنْالَ بِهِ الْوَيْدُ — رَ وَقَرَّتْ بِهِ عَيُونَ الصُّحَابِ

فرد عليه عامر بقوله :

قُلْ لَزَيْدٍ قَدْ كُنْتُ تَوَثَّرَ بِالْجُدِّ — حِمٌّ إِذَا سُفِّهَتْ حُلُومُ الرِّجَالِ
لَيْسَ هَذَا الْقَتِيلُ مِنْ سَلَفِ الْحَيِّ — كُلاَعٌ وَيَخْصُصُ وَكُلَالِ
أَوْ بَنِي آكُلِ الْمَرَارِ وَالْأَصِيْبِ — بِنِي جَفْنَةِ الْمُلُوكِ الطَّوَالِ
إِنْ فِي قَتْلِ عَامِرِ بْنِ طُفَيْلٍ — لِبَوَاءٍ لَطِئِيءٍ الْأَجْيَالِ

فقد نقض عامر معاني زيد ، بالخط من شأن القتل ، وعظم نفسه ، بأن وضعها

بإزاء طيء كلها ، والتزم وحدة الموضوع ، ووحدة الوزن (بحر الخفيف) وأهمل وحدة القافية .

(١) ديوانه ١٣٦ (الخلي)

(٢) الأغاني ١٦ / ٥٢

ولا ينقضى العصر الجاهلى حتى تصل النقائض إلى صورتها الكاملة ، وتستوفى كل القواعد والأصول الفنية اللازمة لفن المناقضة .

ونضرب مثلاً لهذه الصورة المتطورة ، ما كان بين طريف بن تميم العنبرى ، وبنى ربيعة بن ذهل بن شيبان البكرين :

فيروى أن طريفاً قتل أحد بنى ربيعة هؤلاء ، وكان الفرسان إذا كانت أيام عكاظ في الشهر الحرام وأمن بعضهم بعضاً تقنعوا كى لا يعرفوا ، أما طريف فكان لا يتقنع ، فمر به أحد بنى ربيعة في سوق عكاظ وأخذ يتفرسه ، ففطن له طريف ، وقال ^(١) :

أَوْ كُلَّمَا وَرَدْتُ عَكَازَ قَبِيلَةٍ بَعَثُوا إِلَيَّ عَرِيفَهُمْ يَنْوَسُّمُ
فَتَوَسَّمُونِي إِنَّنِي أَنَا ذَلِكُمْ شَاكِي سِلَاحِي فِي الْحَوَادِثِ مُعْلَمُ
تَحْتَى الْأَغَرَّ وَفَوْقَ جِلْدِي نَثَرَةٌ زَغَفَ تَرْدُ السَّيْفِ وَهُوَ مُثْلَمُ
حَوْلَى أَسِيدٍ وَالْهُجِيمِ وَمَازَنٍ وَإِذَا حَلَلْتُ فَحَوْلَ بَيْتِي خَضَمُ

ثم التقى الفريقان في يوم مبايض ، وكان للبكرين على التميمين ، وفيه قتل طريف قتله حمصيصة الشيباني ، ورد قوله السابق قائلاً :

وَلَقَدْ دَعَوْتُ طَرِيفَ دَعْوَةَ جَاهِلٍ سَفَّهَا وَأَنْتَ بِمُعْلَمٍ قَدْ تَعْلَمُ
وَأَتَيْتُ حَيًّا فِي الْحُرُوبِ مَحْلَمُ وَالْجَيْشِ بِاسْمِ أَبِيهِمْ يَسْتَقْدَمُ
فَوَجَدْتُ قَوْمًا يَمْنَعُونَ ذِمَّتَهُمْ بُسْلًا إِذَا هَابَ الْفُؤَارِسُ أَقْدَمُوا
وَإِذَا دَعَوْتُ بَنِي رَبِيعَةَ شَمَرُوا بِكَتَائِبِ دُونَ السَّمَاءِ ثَلَمَلُمُ
حَشَدُوا عَلَيَّ وَعَجَّلُوا بِقَرَاهِمِ وَحَمُّوا ذِمَارَ أَبِيهِمْ أَنْ يُشْتَمُوا

فقد سخر من تحدى طريف الأبطال ، ورد على فخرو بقومه ، بفخر مقابل بني ربيعة ، وراعى في هذا الرد كل الأصول الفنية للمناقضة ، من وحدة الموضوع (الفخر) ونقض المعانى ، ووحدة الوزن (بحر الكامل) ووحدة القافية .

وعلى ضوء هذه النماذج ، وغيرها ، مما هو مبثوث في ثنايا المصادر ، التى تتحدث عن أيام العرب فى الجاهلية ، وأخبارها وأشعارها ، نستطيع أن نقف على الملامح الفنية لمرحلة نشأة النقائض الشعرية ، وتطورها فى العصر الجاهلى :

١— قامت أولا على نقض المعانى ، دون وحدة الوزن والقافية ، ثم تطورت فقامت على الاتحاد الموضوعى والمعنوى والموسيقى ، فتمت بذلك قواعدها المعروفة .

٢— أهم فنونها الفخر والهجاء ، ومادتها تدور حول مقومات الحياة الجاهلية ، كالأيام ، والأنساب ، والأحساب ، والاعتراف بالظلم والعدوان ، والفضائل الاجتماعية ، التى أقرتها هذه الحياة ، كالفخر بالكرم ، والشجاعة ، والنجدة ، وكثرة العدد ، والسيادة ، والمروءة ، والهجاء بضد ذلك ، كل ذلك فى إطار العصبية القبلية ، وفى سبيل القبيلة ؛ ولذا لم تختلف فنيا عن غيرها من الشعر القبلى ، إلا من حيث أخذها بالأصول المقررة لفن المناقضات .

٣— بعدها عن الإسفاف والفحش ، وتناول الأعراض فى الهجاء ، فهى تقف ، غالبا ، عند صفات الجبن ، والبخل ، والفرار ، وتعف عن ذكر العورات ، والكلمات النابية المكشوفة .

٤— لم يشغل الجاهليون كثيرا بهذا اللون من الشكل الشعرى ، ولم يلتزموه فى منازعاتهم الشعرية القبلية ، بل كانوا يقبلون عليه من حين إلى آخر ، وفى الفترة بعد الفترة ، فلم يكن التباعد بين القبائل والشعراء ليتيح الفرصة لانتظام هذا الفن بين شعرائهم .

ومن هنا لانعثر بهذا اللون من الشعر إلا قليلا ، وعقب الأيام والحروب « فوراء كل يوم ، وكل حرب ، نجد قطعا متبادلة (قصيرة غالبا) بين الفئتين المتقاتلتين ، ثم نزم الألسنة ، كما نزم السيوف ، وكأن شيئا لم يحدث (١) » .

وجاء الإسلام ، فوجد هذا الفن كامل الاداة ، فاعتمد عليه شعراؤه ، وبخاصة فيما حدث من نزاع بين شعراء المدينة ، وشعر مكة ، أو شعراء المعسكرين الدينين فى عهد النبى ﷺ .

وعلى الرغم من أن النقائض أيام الرسول تعد امتداد للنقائض الجاهلية (٢) ، فإن تغيرا غير يسير قد أصابها فى عهد النبوة ، على ألسنة شعراء المسلمين ، وبخاصة من حيث الغاية والأسلوب ، وبعض المعانى والألفاظ أيضا .

(١) التطور والتجديد ١٧٨ .

(٢) انظر تعليل ذلك فى كتابنا : الأدب فى عصر النبوة والراشدين ٢٧٤ .

فمن حيث الغاية : كانت النقائض الإسلامية ، من جانب شعراء المسلمين ، دفاعاً عن عقيدة عامة ، ومبادئ إنسانية ونهضة شاملة ، بعد أن كانت تعبيراً عن أغراض قبلية ، ضيقة الأفق في الشعر الجاهلي .

ومن حيث المعنى والعبارة عنه ، تسربت بعض المعاني والألفاظ الإسلامية إلى نماذج منها ، تدور حول الكفر والإسلام ، والهدى والضلال ، والبعث ، والثواب ، والجنة والنار ... وغيرها ، وأكثر مانقظ على هذه المعاني والألفاظ في نقائض عبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك ^(١) ، أما شعراء المشركين فنقائضهم لا تفترق عن النقائض الجاهلية في معانيها ولغتها ، وإن اختلفت عنها في الغاية ، من حيث أنها كانت دفاعاً عن نظام حياة عامة ، لاعتن قبيلة بعينها ، كما خلت نقائض الفريقين — تقريباً — من الفحش والإسفاف .

ومن حيث الأسلوب : لم تكن النقائض الإسلامية على مستوى واحد من الجودة في الأساليب ، فمعناها ما يتمتع بأسلوب قوى جزل ، يحكى أسلوب الشعر الجاهلي في اللفظ والعبارة والتركيب ، ومنها ما يتسم بأسلوبه بالضعف والاضطراب ؛ إذ كانت الشاعرية القرشية حديثة ^(٢) ، كما أن شعراء الفريقين كانوا يقتحمون ميداناً جديداً من القول ، بالانتصار لدعوة جديدة ، أو مناهضة ، مما يحوجهم إلى درية ومران طويلين ^(٣) .

ونكتفي هنا بنموذج من النقائض الإسلامية ، ليكون بمثابة شاهد بمدى التقارب بينها وبين النقائض الجاهلية ، موضوعاً ومعنى من جهة ، وتأثر بعضها بعناصر إسلامية من جهة أخرى .

قال عبد الله بن الزُّبَيْرِ يثني على قريش وأحلافها يوم الخندق ^(٤) :

(١) انظر : المصدر السابق ٢٨١ ، ٢٨٥

(٢) انظر في أسباب ذلك المصدر السابق ٢٣٨ ، ٢٥٠ — ٢٥١

(٣) انظر دراسة مفصلة للنقائض الإسلامية في المصدر السابق ٢٧٤ وما بعدها

(٤) السيرة النبوية (سيرة ابن هشام) ٢ / ٢٥٧ وانظر تعليقنا على قول ابن الزبير في : الأدب في عهد

حَيَّ الدِّيارَ مَحًا مَعارِفَ رَسْمِها
فَكَأَنَّمَا كَتَبَ اليَهُودُ رَسومِها
قَفَرًا كَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ تَلْهُو بِها
فَاتَرَكَ تَذَكُّرَ مَاضِيٍّ مِنْ عِيشَةٍ
وَإِذْكَرَ بِلَاءَ مَعَاشِرٍ وَاشْكُرْهُمْ
أَنْصَابَ مَكَّةَ عَامِدِينَ لِيَثْرَبَ
حَتَّى إِذَا وَرَدُوا الْمَدِينَةَ وَارْتَدُّوا
شَهْرًا وَشَهْرًا قَاهِرِينَ مُحَمَّدًا
نَادَا بِرَحْلَتِهِمْ صَبِيحَةَ قَلَمٍ
لَوْلَا الْخَنَاقُ غَادَرُوا مِنْ جَمْعِهِمْ
طُولُ الْبَلَى وَتَرَاوُحُ الْأَحْقَابِ
إِلَّا الْكَنِيفَ وَمَعْقَدَ الْأَطْنَابِ
فِي نِعْمَةٍ بِأَوَانِسٍ أَتْرَابِ
وَمَجْلَةٍ تَخْلَقُ الْمَقَامَ يَبَابِ
سَارُوا بِأَجْمَعِهِمْ مِنَ الْأَنْصَابِ
فِي ذِي غِيَاظٍ جَحْفَلٍ جِجَابِ ...
لِلْمَوْتِ كُلِّ مَجْرَبٍ قَضَابِ
وَصَحَابُهُ فِي الْحَرْبِ خَيْرُ صَحَابِ
كَدْنَا نَكُونُ بِهَا مَعَ الْخِيَابِ
قَتَلِي لَطِيْرٍ سَعْبٍ وَذُنَابِ

فابن الزبيرى يقص خروج قريش وأحلافها من مكة ، فى جيش كثيف على رأسه قائدان عظيمان : عيينة بن حصن الفزارى على الأحلاف ، وأبو سفيان بن حرب القائد الأعلى للأحزاب ، وكيف حاصرت الأحزاب المدينة أربعين يوما ، وأنزلت الرعب فى قلوب أهلها ، وأنه لولا الخندق لألحقوا الهزيمة النكراء بالمسلمين .

ونض حسان بن ثابت للرد عليه بقصيدة ، منها قوله : (١)

هَلْ رَسَمَ دَارِسَةُ الْمَقَامِ يَبَابِ
قَفَرِ عَفَارِهِمُ السَّحَابِ رَسومِهِ
وَلَقَدْ رَأَيْتُ بِهَا الْحُلُولَ يَزِينُهُمْ
فَدَعَ الدِّيارَ وَذَكَرَ كُلَّ خَرِيدَةٍ
وَاشْتُكَ الْهَمُومَ إِلَى الْإِلَهِ وَمَاتَرَى
سَارُوا بِأَجْمَعِهِمْ إِلَيْهِ وَالْبُوا
جَيْشٌ عُيَيْنَةُ وَابْنُ حَرْبٍ فِيهِمْ
مُتَكَلِّمٌ لِمُحَاوِرٍ بِجَوَابِ
وَهَبُوبُ كُلِّ مُطَلَّةٍ مِرْزَابِ
بِيضُ الْوَجْوهِ ثَوَاقِبُ الْأَحْسَابِ
بِيضَاءَ آيَسَةِ الْحَدِيثِ كَعَابِ
مِنْ مَعْشَرٍ ظَلَمُوا الرِّسُولَ غَضَابِ
أَهْلُ الْقُرَى وَبَوَادِي الْأَعْرَابِ
مُتَخَمِّطِينَ بِمَحَلَّةِ الْأَحْزَابِ

حتى إذا وردوا المدينة وارتجوا قتل النبی ومغمم الأسلاب
وغَدُوا علينا قادرين بأيديهم رُدُّوا بغيظهم على الأعقاب
فكفى الإله المؤمنين قتالهم وأثابهم في الأجر خير ثواب

وحسَّان ينظر في البيتين الأخيرين إلى بعض آي القرآن الكريم ، ومنها قوله تعالى في
سورة الأحزاب (١) : « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين
القتال » ، ومع ذلك فهو جاهل المطلع ، كما هو واضح .

ثم يأتي العصر الأموي ، فيصيب فن النقائض الشعرية حظا وافرا من التطور
والازدهار والذيع ، يصل به إلى قمة النضج ، فقد وفرت له ظروف العصر السياسية
والاجتماعية بيئة مهيأة لتقبله ، والإقبال عليه ، والإكثار منه ، والفنون ، بعامة ، إنما تجود
وتنضج وتزدهر إذا وفرت لها البيئة دواعيها ، واقتضتها ظروفها وتقبلتها أذواقها ، وقد تهيأ هذا
كله لفن النقائض الشعرية في العصر الأموي .

فلقد ظلل الصراع السياسي سماء هذا العصر ، وتضاربت أهواء الأحزاب
السياسية ، واتخذت من الشعر لسان دعاية ، فتوزع الشعراء على الأحزاب ، وتنافسوا في
خدمتها ، والتعبير عن أغراضها ، مخلصين حيناً ، أو طامعين أحيانا ، وقد رأينا كيف كان
شعراء بنى أمية خاصة ، يتنافسون في اكتساب الخطوة عند حكامهم ، ويتهزون الفرصة
في التقرب إليهم ، طامعين في عطاياهم ، متحاسدين على هباتهم .

كما تجاوزت القبائل وشعراؤها في المدن الإسلامية ، وبخاصة في البصرة والكوفة
بالعراق ، واصطف شعراء القبائل متواجهين ، يتبارون في الزود عن عصبيااتهم القبلية ،
وأهلب تقارب الشعراء ، أو مواجهة بعضهم بعضا ، حماسهم ، وحماس الجماهير المؤيدة
لهم ، فانطلق الشعر من عقاله ، وعاود الشعراء شياطينهم ، فكثرت الشعر ، وتشعبت
ميادينه .

هذا فضلا عما كان يتمتع به الشعراء في هذا العصر ، من حرية مطلقة في التعبير
عن العصبية القبلية ، التي عملت سياسة بنى أمية ، إزاء القبائل ، على إحيائها ، وإذكاء
نارها .

كان لذلك وغيره ، مما سبقت الإشارة إليه في مقدمة هذه الدراسة ^(١) ، أكبر الفضل في إغراء كثير من شعراء هذا العصر بالانغماس في معارضة بعضهم بعضا ، في فنّي الهجاء والفخر .

وكان للنجاح الذى أحرزه كل من جرير والفرزدق والأخطل ، والشهرة التى نالوها ، بفضل فهم فى النقائض ، وتطلع جماهير العصر إلى المزيد من هذا الفن ، كان له أثره فى محاكاة غيرهم من الشعراء لأسلوبهم الشعرى القائم على المناقضة ، ففشا الصراع الأدبى ، أو المنافسة الفنية ، بين الشعراء ، على نحو لم يكن مألوفاً من قبل .

ولن نتعرض هنا لما كان من النقائض دائراً فى فلك السياسة الخالصة ، أو راتعا بين أحضان العصية القبلية ، منبعثا عنها ، خادما لأغراضهما ، قاصراً جهوده عليهما . ذلك أن الخصومة فى النقائض الأولى سياسية ، مدارها الحزب ، وفى الأخرى قبلية محورهما القبيلة ، والشاعر فيها مشغول عن نفسه بالحزب أو القبيلة ، فهما من قبيل مامر من الشعر السياسى والقبلى ، لا تفتقر عنه إلا فى التزامها بأصول فن المناقضة ، وهذا الالتزام لا يمنحها تمايزا يذكر عن خصائص الشعر السياسى ، أو القبلى .

إنما نهم هنا بذلك النوع من النقائض ، الذى يلتفت الشاعر فيه — أولاً وقبل كل اعتبار آخر — إلى نفسه ، ويهم بقفه ، وفن منافسه من الشعراء ، وقد يأتى فيه ذكر القبيلة ، بمثابة تأكيد لفخر الشاعر بنفسه ، أو للإمعان فى الخط من قدر منافسه ؛ لأن هذا هو الفن الذى اشتهر فى العصر الأموى ، وتعاوره كثير من شعرائه ، وكانت قمة اكتماله ونضجه على يد فحول هذا العصر ، وفى مقدمتهم الثلاثة الفحول : جرير والفرزدق والأخطل .

— ٤ —

ماموقف شعراء العصر من هذا الأسلوب الشعرى ؟

قلنا إن الحياة فى العصر الأموى ساعدت على تهيئة كثير من بواعث شعر الخصومات المتعددة ، وإن الكثرة الغالبة من شعراء هذا العصر كانت لهم مشاركات فى

(١) راجع ص ٥٢ — ٥٦

ميادين هذا الصراع ، فقلما نجد شاعراً عاش في العصر الأموي ، ولم يسهم بشعره — إن قليلاً أو كثيراً — في جبهة أو أكثر من جبهات الخصومة ، فشبت حرب كلامية ، بين الشعراء لانتقل حماساً واندفاعاً عن الحروب الدموية بين الأبطال والفرسان والأعوان في ميادين القتال ، تطايرت فيها سهام الشعر من كل جانب ، وشغل الناس بهذه الحرب الكلامية ، كما شغلوا بالحرب القتالية ، وشجعوا الشعراء في ميدان القريض ، كما شجعوا الأبطال والفرسان في ميادين القتال ، وبذا كثر الشعر ، وغزرت مادته ، وتنوعت .

وآثرت طائفة من الشعراء أن تصب نشاطها الشعري ، في مختلف هذه الاتجاهات في قوالب خاصة ، هي التي عرفت بالنقائض الشعرية .

غير أن شعراء هذا العصر لم يكونوا سواء في إقبالهم على هذا الأسلوب الشعري ، إذ لا يعني كثرة نماذجه ، وكثرة الشعراء الذين اصطنعوه ، أن كل شاعر عبر فيه قد أكثر منه ، أو التزمه في أكثر شعره ، أو في كثير منه ، وإنما يرجع كثرة ماخلفه شعراء العصر من هذا الأسلوب الشعري ، إلى كثرة الشعراء ، لا إلى إكثار كل هؤلاء الشعراء من النظم فيه .

ويمكن القول بأن شعراء العصر الأموي بالنسبة لإقبالهم على فن النقائض فريقان :

(١) فريق انحرف في مناقضات ارتبطت بمناسبات قليلة مرت بحياتهم ، متناثرة بين أحداث هذه الحياة ، ولكنهم لم يقفوا عندها طويلاً ، ولم يلتزموا أسلوبها كثيراً ، ومن ثم لم يشتهروا بهذا الأسلوب ، ولم يفرغوا أكثر شعرهم فيه ، وإنما جرت المناقضة على ألسنتهم من حين لآخر ، دون أن يتخذوها قالباً شعرياً غالباً لشعرهم ، ومناقضات هذا الصنف من شعراء العصر الأموي ، هي التي يمكن أن نطلق عليها المناقضات العامة ، التي لم يشتهر بها شاعر دون آخر .

وهناك أسماء عديدة لشعراء هذا النوع من النقائض ، بحيث يتعذر حصرهم ، لصعوبة تتبع نتاجهم في هذا المجال ، وتناثره بين طيات المصادر العربية القديمة ، وندرته من عرف له ديوان شعر منهم .

من هؤلاء : هذبة بن خشرم العذري القضاعي ، مع زيادة بن زيد الرقاشي العذري

القضاعي^(١)، وحارثه بن بدر اليربوعي، مع أنس بن زُئيم الليثي^(٢)، والمغيرة بن حبناء مع أخيه صخر^(٣)، وهما تميميان —، وأرطاة بن سهية المري الغطفاني^(٤) مع زُمَيْل بن أثير^(٥) الفزاري، وسَلَمَانُ الْعَجَلِي، مع الأبيد الرياحي اليربوعي^(٦)، وخالد بن علقمة الدارمي، مع سويد بن كراع الْعُكْلِي^(٧) ... وغيرهم .

ونكتفي ببعض نماذج من نقائض هذا الفريق من الشعراء :

هاج الشرّ بين ابن ميادة المري^(٨)، والحكم بن معمر^(٩) الخضري^(١٠)، وكان

(١) قتل هذبة زيادة بن زيد فحبسه الخليفة عثمان، حتى أدرك المسور بن زيادة، وأصر على القود من هذبة، فقتله المسور صبراً أيام الخليفة معاوية. انظر: سبط اللآلئ ١ / ٢٤٩، ٢ / ٦٣٩، وفي المناقضة بينهما انظر: الأغاني ١٧١ / ١٧٢

(٢) انظر الأغاني ٢١ / ١٥ — ١٦

(٣) الأغاني ١١ / ١٦٢

(٤) أبو الوليد أرطاة بن سهية، نسب لأمه، وهو شاعر إسلامي عاش في صدر الإسلام، وأدرك خلافة عبد الملك بن مروان، وقال له عبد الملك: هل تقول اليوم شعراً؟ فقال: كيف أقول وأنا لأشرب ولأطرب ولأغضب، وإنما يكون الشعر بواحدة من هذه، وكان شريفاً في قومه جواداً. انظر: الأغاني ١١ / ١٣٤ والشعر والشعراء ٢٠٥ وألقاب الشعراء ٣٠٨ والأشتقاق ٢٩٠

(٥) هو من بني مازن بن فزارة، شاعر من مخضرمي الجاهلية والإسلام، قتل سالم بن دارة في خلافة عثمان، وأخباره وأشعاره قليلة. انظر: خزائن الأدب ١ / ٢٩٣ وسبط اللآلئ ٢ / ٦٨٨، ٧٨٩، وأسماء المختالين، لابن حبيب ١٥٦ — ١٥٧، والمناقضة بينهما في الأغاني ١١ / ١٣٧

(٦) الأبيد الرياحي اليربوعي التميمي، شاعر بدوي فصيح مقل من مخضرمي الجاهلية والإسلام، قيل: عاش مائة وعشرين سنة. انظر: المعمرون ٧٥ والأغاني ١٢ / ٩ والأشتقاق ٢٢١ والمناقضة في الأغاني ١٢ / ١٠ (٧) شاعر جاهلي إسلامي، كان هجاً قومه فاستعدوا عليه الخليفة عثمان فتوعدوه إن عاد. انظر الأغاني ١١ / ١٢١ والشعر والشعراء ٢٤١

(٨) أبو حرملة الرواح بن أبرد من بني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان، وميادة أمه، شاعر محسن متأخر من مخضرمي الدولتين انظر: الأغاني ٢ / ٨٥ وسبط اللآلئ ١ / ٦٠ والشعر والشعراء ٢٩٨ ومعجم الشعراء ٣١٩ وله شعر في التذكرة السعدية ٢٦١

(٩) الحكم بن معمر الخضري، خضر محارب — بن قنبر. قال الأصمعي: ختم الشعر بابن ميادة وحكم الخضري وابن هرمة، وطفيل الكنانى ومكين العنزي، انظر ترجمته وأخباره في: الأغاني ٢ / ٨٧ وسبط اللآلئ ٢ / ١٦ ومعجم الأدباء ٤ / ١٢٨ وله شعر في التذكرة السعدية ٤٦١

(١٠) بنو الخضر من محارب، سمو بذلك لسوادهم، وكانوا يفخرون به، والسود عند العرب الخضر (رسائل الجاحظ ١ / ٢٠٧)

سبب ذلك أن الحكم وقف ينشد بمصلى المدينة (موضع في عقيق المدينة) قصيدته في وصف الغيث ، فمر به ابن ميادة ، فوقف عليه يسمع ، حتى انتهى إلى قوله :
يا صاحبي ألم تشيما عارضاً نُصبح الصُّرَادُ به فهضْبُ المنحَرِ
ركب البلاد وظل ينهض مصعداً نهضَ المقيّد في الدّھاس الموقر
فحسده ابن ميادة فقال : أدهشت وأوقرت ، لأم لك ، فمن أنت ؟ قال : أنا الحكم الخضرى قال : والله ماأنت في بيت نسب ولا أرومة شعر ، قال الحكم : قد قلت ماقلت ، فمن أنت ؟ قال ابن ميادة ، قال قبح الله والدين خيرهما ميادة ، لوكان في أيك خير ماانتسبت إلى أمك ... فتهاجيا على إثر ذلك (١) .

ومن أهاجيهما ، قول الحكم ، يسخر من ابن ميادة وقومه بنى مرة بن عوف : (٢)
فيأمرُ قد أخزأك في كل موطن من اللؤم خلّات يزْدن على عشر
فمنهن أن العبد حامى ذماركم وبس الحامى العبد عن حوزة الثغر
ومنهن أن لم تمسحوا وجه سابق جوادٍ ولم تأتوا حصاناً على طُهر
ومنهن أن الميث يدفن منكم فيفسؤا على دفّانه وهو في القبر
ومنهن أن الجار يسكن وسطكم بريثا فيلقى بالخيانة والغدر
ومنهن أن الشيخ يوجد منكم يدبُّ إلى الجارات محدودب الظهر
فناقضه ابن ميادة ، راداً على ماسبه وسب قومه به ، مقابلاً ماذكر من خصال السوء

لبنى مرة ، بخصال سوء تناظرها لبنى محارب ، قال :

لقد سبقت بالخزيات محارب وفازت بخالات على قومها عشر
فمنهن أن لم تعقروا ذات ذروة لحق إذا ما احتيج يوماً إلى العقر
ومنهن أن كانت شيوخ محارب كما قد علمتم لا ترش ولا تبرى
ومنهن أن الضأن كانت نساؤكم (٣) إذا اخضر أطراف الثمام من القطر
ومنهن أن لو كان في البحر بعضكم لخبث ضاحي جلده حومة البحر

(١) الموشح ١ / ٢٢ . نصح : يقال : نصح المطر البلد : سقه . الصراد : موضع

(٢) الأغاني ٢ / ١٠٠

(٣) ذكر الجاحظ أن بنى كليب قوم جرير كانوا يرمون بإتيان الضأن ، وأن بنى الأعرج ، وسليم ،

وأشجع ، ترمى بإتيان المعز (انظر : رسائل الجاحظ ١ / ١٨٩) .

فالهجاء هنا قائم على سلب بعض الفضائل التي يعتز بها العربي ، كالكرم ،
 والمروءة ، وحماية الذمار ، والشجاعة ، والوفاء ، والعفة ... وغيرها ، وهو من هذه الناحية
 كالهجاء الجاهلي ، غير أن كلا من الشاعرين لم يقف عند هذا الحد من الهجاء ، بل انزلق
 إلى الفحش والتعريض بالأعراض ، والاعتماد في ذلك على العبارات المسفة البذيئة ، والمعاني
 المكشوفة ، التي يُستحى من ذكرها ، وقد أعرضنا عن بعضها فلم نورد .
 وهذا النموذج يعكس لونين من تطور النقائض ، لم يعرفهما فن الهجاء النقائضي
 قبل هذا العصر .

أحدهما : هذا الإفحاش في الهجاء ، والإسفاف فيه ، والبذاءة في العبارة .
 والآخر : طابع السخرية والتهكم الذي يثير الضحك ، وهو ظاهر فيما قصد إليه
 كل من الشاعرين ، من رسم صور هزلية (كاريكاتورية) ، نعتقد أنه ماقصد بها إلا إلى
 إثارة ضحك الجماهير المستمعة ، وإعجابهم ، كهذا الميت الذي يفسو على دفانه في
 القبر ، والشيوخ العجوز الفاني الذي يدب إلى الجارات ، وهذا النتن الذي لو لامس ظاهر
 جلده ماء البحر ، لصار البحر كله نتنا ، خبيث الرائحة .
 وكان الأبيُّد الرياحي اليربوعي التميمي قد أفسد امرأة من بنى عجل على زوجها ،
 وكان بنو عجل قد أصابتهم السنة ، فنزلوا في جوار بنى يربوع ، فلامه قومه لأنه أساء
 الجوار ، ولكنه لم ينته ، فهجاه شاعر من عجل يقال له سلمان ، وعرض بقومه ،
 قائلا (١) :

لعمرك إنني وبني رياح	لكالعادي فصادف سهم رام
يسوقون ابنَ وجرةَ مزبراً	ليحميم وليس لهم بِحَام
وكم من شاعر لبني تميم	قصير الباع من بَقَرِ نيام
وإن يُذكر طعامهم بِشَرٍّ	فإنَّ طعامهم شَرَّ الطعام
وسوداء المغاين من رياح	على الكُرْدوس كالنفاس الكهام

(١) الأغاني ٩ / ١٤ . مزبر : يقال : ازيأ الرجل للشر : تبيأ . المغاين جمع مَغِين ، وهو الإبط والرفع .
 الكُرْدوس : كل عظيمين الثقباء في مفصل ، وكل عظم عظمت نخضته . الكهام هنا : الضعيفة الكليلة . الأبطال : جمع
 إطل : الخاصرة . قطرته : صرعه .

ومدار الهجاء في هذا الشعر على ضعف الحماية، ولؤم شعراء بنى رياح وخستهم ،
وفقر الرياحيين وبخلهم ، وقذارة نسائهم ، وهزالهن .

وهب الأيبرد للمناقضة ، فقابل هجاء العجلى بهجاء مثله ، وزاد فافتحز بنفسه
وقومه ، قائلا :

عَوَى سَلْمَانٌ مِنْ جَوْ فَلَاقَى أَخُو أَهْلِ الْيَمَامَةِ سَهْمَ رَامٍ
بَنُو عَجَلٍ أَذُلُّ مِنَ الْمَطَايَا وَمِنْ لَحْمِ الْجَزُورِ عَلَى الثَّمَامِ
إِذَا عَجَلِيَّةٌ وَلَدَتْ غَلَامًا إِلَى عَجَلٍ فَقَبَّحَ مِنْ غَلَامٍ
خَبِيثِ الرِّيحِ يُنْشَأُ بِالْمَخَاذِي لَثِيمٌ بَيْنَ أَبْنَاءِ لُثَامِ
أَنَا ابْنُ الْأَكْرَمِينَ بَنُو تَمِيمٍ ذَوِي الْأَطَالِ وَالْهَمَمِ الْعِظَامِ
وَكَائُنْ مِنْ رَئِيسِ قَطْرَتِهِ عَوَامُنَا وَمَنْ مَلِكِ هَمَامِ ...

هجا بنى عجل بالذل ، ولؤم الأصل ودنائه ، والتتن والقذارة ، وافتحز بكرم
قومه ، ومجدهم ، وشجاعتهم .

وهذه المعاني كثيرة الدوران في الهجاء والفخر الجاهليين ، غير أن الشاعر العجلى
جنح في هجائه إلى التعرض لنساء بنى رياح ، ووصفهم بالتتن والقذارة ، فكان هجاءه
أقرب من هجاء صاحبه إلى طابع الهجاء في النقائض الأموية .

وهناك مناقضة قصيرة جرت بين حكيم بن عيَّاش الكلبي ، والكُميت بن زيد
الأسدي ، تعكس لنا لمحة من تطور فن النقائض في العصر الأموي ، سنراها أسلوبا قويا
بارزا في نقائض الفحول ، وبخاصة نقائض جرير والفرزدق ، نعني بها النقض القائم على
المنطقية الفكرية ، والذي هو أثر من آثار الجدل والمناظرة ، اللذين شاعا في مجالس
المتكلمين في هذا العصر ، ويقدم لنا هذه اللمحة الكميّات الفقيه المعلم المتكلم ، كما
عرفناه من قبل .

قال حكيم (١) :

ماسرني أن أمي من بنى أسد وأن ربي نجاني من النار
وأنهم زوجوني من بناتهم وأن لي كل يوم ألف دينار
ورد عليه الكميث قائلا :

ياكلب مالك أم من بنى أسد معروفة فاحترق ياكلب بالنار
لكن أملك من قوم شئت بهم قد قنعوك قناع الخزي والعار

فابن عياش يرفض أن يكون من أهل الجنة ، إذا كان هذا يقتضى أن تكون أمه من بنى أسد ، قوم الكميث ، ويأى أن يتقاضى ألف دينار يوميا ، على شريطة أن يتزوج أسدية .

فينرى له الكميث ناقضا معناه منطقيا ؛ حيث يقرر أن أمه ليست من بنى أسد ، ويرتب على ذلك النتيجة المنطقية التى فضلها الشاعر الأول ، وهى أن لاينجيه الله من النار ، فليحترق إذن بنار جهنم التى يفضلها ، ثم يعود فيقابل هجاء نساء بنى أسد بهجاء أم حكيم ، التى تنتمى إلى قوم ذوى ضعة ، مما أكسب ابنها الخزي والعار ؛ لكون أمه من قوم هذه صفتهم .

(٢) هذه النقائض وأمثالها مما جرى على ألسنة كثير من شعراء عصر بنى أمية ، الحين بعد الحين ، لم تبلغ من الجودة ، وطول النفس ، ودقة التريص ، ونضج الفن وذويع الشهرة ، مابلغته نقائض أمراء هذا الفن فى العصر الأموى ، ونعنى بهم أولئك الفحول ، الذين شغلوا بالنقائض ، وشغلوا بها جمهور عصرهم ، وحكامه ، وشعراءه ، ونقاداه ، وعلماءه ، وعلى رأسهم ، جرير والفرزدق والأخطل ، ثم الراعى التميمى ، والبعيث المجاشعى .

— ٥ —

نقائض جرير والفرزدق :

من المسلم به أن المناقضة بين هؤلاء الفحول ، لم تنشأ عن باعث المنافسة الأدبية ، وإثبات التفوق الفنى فى عبقرية الشعر ، إذ من المعروف أنها تدين فى أصل نشأتها لعوامل سياسية ، أو قبلية ، أو بواعث هى مزيج من النزعات السياسية والقبلية معا .

وهذا أمر طبيعي مادام هؤلاء الفحول لم يكونوا بمنأى عن ميادين الصراع السياسى والقبلى فى عصرهم ، فقد انغمسوا فى هذه الميادين ، حتى عدوا فى مقدمة شعراء العصر السياسيين والقبليين .

على ضوء هذا نستطيع أن نلتبس جذور المناقضة التى شبت بين جرير والفرزدق .

نعرف من تسلسل نسب الشاعرين أن كلا منهما يعلو نسبه حتى يتصل بقبيلة تميم ، ولكن مسار النسب إليها يختلف بينهما ، فالفرزدق من بنى مجاشع ، وجرير من بنى كليب بن يربوع ، ولم تكن بين الحيين (مجاهع ويرووع) عصبية تقتضى المواجهة بين فحلى تميم ، إلى أن حدث نزاع بين رهطين من بنى يربوع ^(١) ، هما بنو الخطفى رهط جرير ، وبنو جحيش بن سيف بن جارية بن سليط ، فكان بنو الخطفى يهجونهم ، ولم يكن فى بنى جحيش شعر ، فلاذوا بغسان بن ذهيل بن البراء بن سليط ، فهجأ بنى الخطفى دفاعاً عن أبناء عمومتهم بنى سيف ، ووقف جرير على هذا الهجاء ، فركب إلى بنى سليط وهجاهم فى رجز قبيح أوردناه فى الشعر القبلى ^(٢) ، ثم لجَّ بينهما الهجاء ، واتخذ أسلوب المناقضة ، فقال غسان أبياته التى يقول فيها ^(٣) :

لعمري لمن كانت بَجِيلُهُ زانها جريرٌ لقد أخزى كليباً جريرها
وناقضه جرير بقصيدته التى مطلعها :

ألا بكرت سَلَمى فجَدُّ بُكورها وشقَّ العصا بعد اجتماع أمرها
فأوجعه وأخزاه ، وأخزى قومه ^(٤) .

ثم ورد البيث المجاشعى ^(٥) على بنى ذهيل (قوم غسان) ، وكانت بينهما قرابة من

(١) هو نزاع اقتصادى تحول إلى قبل انظر فيه : تاريخ النقائض ١٧٨ — ٢١٣

(٢) راجع ص ٢٥٨ من هذه الدراسة

(٣) النقائض لأبى عبيدة ص ٦

(٤) سبق دراسة هذه المهاجمة . راجع ص ٢٥٩ من هذه الدراسة

(٥) أبو يزيد خدش بن بشر بن خالد ، من بنى مجاشع بن دارم من تميم ، والبيث لقب له ، بدأ جريها بالهجاء فغلبه جرير ، قال ابن رشيقي : وكان مغلباً فى الشعر غلباً فى الخطب — (العمدة ١ / ٦٨) ومع ذلك نال من جرير أحياناً ، قيل لبنى كليب : ما أشد ما هجيت به ؟ قالوا : قول البيث :

ألست كليبياً إذا سمع خطبة أقر كإقرار الحليلى للبعل

وكل كليبى صحيفة وجهه أذل لأقدام الرجال من النعل

(العمدة ٢ / ١٤٢) وتوفى البيث سنة ١٣٤ هـ ، انظر : الأغاني ٧ / ٤١ ومطعم اللآلى ١ / ٢٩٦ والتذكرة السعدية ٥١٧

جهة امرأة تدعى التوار من بنى مجاشع ، كانت في بنى ذهيل ، فشكوا إليه قهر جرير غساناً ، فقال البيث (١) :

كليب لئام الناس قد يعلمونه وأنت إذا عُدَّتْ كليبَ لئيمها
أترجو كليباً أن يحىءَ حديثها بخير وقد أعيا كليباً قديمها ...
فناقضه جرير وأفحش ، في قوله من (٢) طويلة :

فما ناصفتنا في الحفاظ مجاشع ولا قايست بالمجد إلا نضيّمها
ثم يفخر بانتصارات يربوع وأبجد تميم ، ويقصد إلى البيث ، فيهجوه ، ويتناول أمه بحديث غاية في الفحش والإسفاف ، أهونه قوله :

له أم سوءٍ ساء ماقدّمَتْ له إذا فارطُ الأحساب عُدَّ قديمها
بنى مالك إن البغال مجاشعاً مباحٌ بحمراء العجان حريمها
ثم يسخر من بنى مجاشع لاعتمادهم على البيث في الدفاع عنهم :

لئن راهنت عُدّوا عليك مجاشعٌ لقد لقيت نقصاً وطاشت حلومها
فأبقوا عليكم واتقوا نابَ حيّةٍ أصاب ابن حمراء العجان شكيمها ...
أتشتم يربوعاً لأشتم مالكاً وغيرك مولى مالكٍ وصميمها

ومعلوم أن مالكا الأب الأكبر لمجاشع ودارم ، وهو يشير بهذا إلى أن الفرزدق أحق من البيث بالذود عن بنى مالك ، والتحدث باسمهم .

وبالفعل استغاث البيث بفحل مجاشع الفرزدق ، ووجه إليه الدعوة للدخول في المعركة بينه وبين جرير ، وكان الفرزدق بعيداً عن الميدان بالبصرة ، مقيداً نفسه ، عاكفاً على قراءة القرآن أو حفظه ، حالفاً أن يهجر الشعر (٣) ، قائلاً للفرزدق (٤) :

لعمري لئن ألهى الفرزدق قيده ودُرُجُ نوارِ ذو الدَّهان وذو الغِسْل
ليبتعنن منى عُدّة مجاشع بديهة لاوانى الجراء ولاوغل

(١) ابن سلام ٣٢٧ ، ٣٨٦ (المدنى)

(٢) ديوانه ٥٤٧ — ٥٥٠ ابن حمراء العجان : سب كان يجرى على ألسنتهم ، والعجان : ما بين القبل والدير بين الرجلين ، يعنى أنها أمة مستخدمة ممتنة في العمل ، فيعرق ذلك المكان منها ، فيتسلخ ويحمر .

(٣) انظر : ابن سلام ٣٨٦ ومعاهد التنصيص ١ / ١٧ والأغانى ١٩ / ٦

(٤) ابن سلام ٣٨٧ (المدنى) .

وسرعان ما فلك الفرزدق وثاقه ، وزحف إلى المعركة ، ملبياً دعوة البعيث بقوله ^(١) :
 دعاني ابنُ حمراء العجبان ولم يجدْ له إذ دعا مستأخراً عن دُعائيا
 فنفسست عن أنفيهِ حتى تنفساً وقلْتُ له لا تحشْ شيئاً ورائيا

ولم يكن البعيث هو المستغيث وحده ، وإنما نساء بنى مجاشع أيضاً ، فقد جئن إلى الفرزدق ، ولنه على ترك جرير يهتك عوراتهن ، ويأكل البعيث ^(٢) .

والذي يبدو أن الفرزدق لم يكن راغباً في هذه الملاحاة مع قرنه فحل يربوع ، وأنه اضطر إليها اضطراراً ، مما أحقنه على البعيث ، الذي جره إلى أمر لا يروقه ، يدل على هذا قوله ^(٣) :

فإن يدعني باسمي البعيثُ فلم يجدْ لثيماً كفي في الحرب ما كان جانيا
 ومأنتِ مِنّا غير أنكِ تدعني إلى آلِ قُرطٍ بعد ماشيتِ عانيا
 تكونُ مع الأدنى إذا كنتِ آمنا وأدعني إلى غمِّ الغنّاء التراقيا

على أية حال نهض الفرزدق إلى مناقضة جرير ، دفاعاً عن أحساب قومه :
 فقلت أظن ابن الخبيثة أنسى شغلت عن الرامي الكنانة بالنبل
 فإن يك قيدي كان نذراً نذرته فما يبني عن أحساب قومي من شغل...

ثم تناول جريراً وقومه ، وعلا عليه وعليهم ، وسقط البعيث بين الفحلين منذ أن التحما ، وانصرفا عنه ، وانعدم أو ندر التحامه بأحدهما « ولا سيما أنه قد ، شاخ فصار ذكره في النقائض ذكراً ، أو مثلاً للعدو المهزوم » ^(٤) .

هذه الوقائع ناطقة بأن النقائض بين جرير والفرزدق نشأت نشأة قبلية خالصة ، ومدفوعة بعصبية كل منهما لقومه ، يجمع بينهما الفخر بتميم ، قبيلتهما الكبرى ، وتفرقهما العصبية الخاصة ، عصبية الفرزدق لبنى مجاشع ، وعصبية جرير لبنى يربوع .

(١) ابن سلام ٣٨٨ وليس في ديوانه . نفسست عن أنفيهِ : كناية عن التفرج عنه بالصدى لجرير .

(٢) انظر ديوانه ٢ / ١٥٢ (بيروت) والنقائض ١٦٦

(٣) ديوانه ٢ / ٣٦١ (بيروت) .

(٤) تاريخ النقائض ٢٨٠

ومع ذلك نجد من الباحثين المحدثين من يذهب إلى القول بأن الخصومة السياسية بين قيس الزيرية الهوى ، المعادية لبنى أمية ، وتميم الموالية للأمويين ، وأن اختلاف هذا المنزع السياسي كان «من الأسباب الكبرى التي حركت نيران التهاجي بين الشعاعين»^(١) . ويستند هذا الرأي على أن الفرزدق كان لسان تميم المحامي عنها ، فهو في موقفه السياسية محكوم بسياسة قبيلته ومصالحها^(٢) ، وأن جريرا كان محكوما هو الآخر بسياسة قومه بنى يربوع الذين شاءت الظروف أن يقفوا موقف قيس من الأمويين^(٣) ، حين سارعت إلى الانضمام إلى جبهة ابن الزبير ، مخالفة بذلك موقف القبيلة الكبرى ، فوجد جرير نفسه مدفوعا إلى مناصرة قيس والوقوف في صفها ، حتى عد لسان قيس المحامي عنها .

وفي الحق أننا نجد صدى هذين الموقفين بارزا فيما كان بين الشعاعين من مناقضة ، فالفرزدق يهجو جريرا ويهجو القيسيين معه ، وجرير يد عليه معتزا بولائه للقيسية^(٤) .

والذى نراه أن عامل السياسة لم يكن له هذه الأهمية في بدء المناقضة بين جرير والفرزدق :

أولا : لأن بدء المهاجاة بينهما يحدد تاريخياً بسنة ٦٧ هـ ، تقريبا^(٥) ، أى بعد قيام دولة ابن الزبير بسنوات (أعلن ابن الزبير خليفة ٦٣ هـ) فلماذا لم يصطدم الشعاعان خلال دولة ابن الزبير حتى هذا التاريخ ؟ مع أن الخلاف في النزعة السياسية بين تميم وقيس كان عنيفا وواضحا حتى قبل أيام ابن الزبير ، وأن العداء القبلى بينهما قديم يضرب بجذوره إلى العصر الجاهلى^(٦) .

(١) الشعر الأموى (د . فزوح أحمد) ١٣٤

(٢) المصدر السابق ١٤١

(٣) المصدر السابق ١٤٧

(٤) انظر ديوان الفرزدق ١٦١ — ١٦٨ ، ٢٩١ ، ٣١٠ — ٣١٧ (بيروت) وديوان جرير ٢٦٧ ،

٥٥٥ ، ٥٦٢ ومواقع أخرى .

(٥) انظر تاريخ النقائض ٢٨٢

(٦) راجع في الأيام التي كانت بين قيس و تميم في الجاهلية : العقد الفريد ٣ / ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٢٨ ،

وثانيا : لو كان الأمر أمر ولاء سياسى ، لارتبط الفرزدق بالأمويين ، تبعاً لارتباط ولاء قبيلته بهم ، ولرأينا للفرزدق من الخطوة عند بنى أمية ، ما كان للأخطل التغلبى فى بلاطهم ، حتى عدوه شاعرهم ؛ إذ كان مرتبطاً بسياسة قومه الموالية لبنى أمية ، ولظهر هوى الفرزدق السياسى فى بنى أمية مقترباً بهوى قومه فيهم .

والذى نعلمه أن العلاقة بين الفرزدق والأمويين لم تكن على المستوى الوثيق الذى كان بين تميم وبنى أمية ، فقد ظل بعيداً عن بلاط الأميين سنوات عديدة حتى أيام سليمان بن عبد الملك (ولى الخلافة سنة ٩٦ هـ) ، بل كانت له مواقف عدائية مع بعض الأمويين ، منها موقفه من معاوية حين ظلم أحد بنى مجاشع فرد ميراثه إلى بيت المال ، إذ قال فيه ^(١) مفاخرها مهددا :

أتأكل ميراث الحُتاتِ ظلامَةً وميراث حربٍ جامد لك ذائبه
أبوك وعمى يامعاوى أورثا تُراثاً فيحتارُ التراثُ أقاربه
وكم من أب لى يامعاوى لم يكن أبوك الذى من عبد شمس يقاربه
ولو كان هذا الأمر فى غير ملككم لأدّيته أو غَصَّ بالماء شاربه
ولو كان إذ كنّا وللكفّ بسنطة لصمّم عَضْبٌ فيك ماضٍ مضاربه

كما طارده زياد بن أبيه وشرده ، حتى قصد سعيد بن العاص والى المدينة واستجاره ، وقال فى ذلك : ^(٢)

ألا من مبلغ عَنّي زيادا بأنى قد لجأتُ إلى سعيد
وأنى قد فررت إليه منكم إلى ذى المجد والحسب التليد
فراراً من شتيم الوجه وَرَدٍ يُفِرُّ الأسدُ خوفاً بالوعيد

بل إن له شعراً فى الديوان يصف فيه بنى أمية بالجور ، ويهددهم بقطع ما بين قومه وبينهم ^(٣) :

إن تنصفونا يال مروان نقترُب إليكم وإلاً فاذنوا ببيعادٍ

(١) ديوانه ١ / ٤٥ ، ٥٣

(٢) ديوانه ١ / ١٤٦ (بيروت)

(٣) المصدر نفسه ١ / ١٦٠

فإن لنا عنكم مراحاً ومذهباً بعيس إلى ربح الفلاة صَوَادِي
وفي الأرض عن ذى الجور منأى ومذهب وكل بلاد أوطنتك بلادى
وماذا عسى الحجاج يبلغ جهده إذا نحن خلّفنا حفير زياد

بل إنه هجا هشام بن عبد الملك ، لما حفر خالد بن عبد الله القسرى واليه على العراق النهر ، الذى سماه المبارك ، وذلك بقوله : (١) :

أهلكت مأل الله فى غير حقه على نهرك المشثوم غير المبارك
لإنفاق مال الله فى غير كنهه ومنعاً لحن المرملة الضرائك
فأرسل خالد إلى مالك بن المنذر بن الجارود ، أمير شرطة البصرة ، أن احبس
الفرزدق فإنه هجا أمير المؤمنين ، فحبسه ، فشفع له جرير عند هشام حتى أطلقه .
وهل أدل على عزوف الفرزدق عن الأمويين ، وإثاره تجنب بلاطهم ، من قوله
لسليمان بن عبد الملك (٢) :

فلو كان لى بالشام مثل الذى جبت ثقيف بأمصار العراق وأكثر
فقلل الله لم آتته الدهر مادعا حمام على ساق هديلا فقرقرا
ترك بنى حرب وكانوا أئمة ومروان لآتيه والمتخير
أباك وقد كان الوليد أراذنى ليفعل خيراً أو ليؤمن أوجرا
فما كنت عن نفسى لأرحل طائعا إلى الشام حتى كنت أنت المؤمرا

معنى هذا كله أن الفرزدق غلبت عليه القبلية وحركته ، حتى خاصم فى
سبيلها الخلفاء والولاة كلما تعرضوا لمصالح تميم ، ونفى جريرا عن تميم لدفاعه عن
القيسيين أعدائها ، وساعد الأخطل على هجاء يربوع ، رهط جرير ، لما فضل
الأخطل دارماً على بنى كليب بن يربوع ، وتميماً على قيس .

وأغلب الظن أن مافى نقائضه من مادة ذات صبغة سياسية ، إنما كان أكثره
من قبيل إغاضه جرير من ناحية ، والانتصار لعصبيته القبلية من ناحية أخرى .

(١) ديوانه ٢ / ٥٩ (بيروت) وابن سلام ٣٤٧ (المدنى)

(٢) ديوانه ١ / ١٩٧ . الأوجر : الخائف

فلنظمئن إذن إلى أن المناقضة بين شاعري تميم قامت أساساً انتصاراً ، للعصبية القبلية .

ثم لما اتصلت بينهما الأهاجي والنقائض ، نسي كل منهما ، أو تناسى ، باعثها الأصلي ، وتحولت على أيديهما إلى ما يشبه أن يكون مهنة أو حرفة ، تأخذ شكل مساجلات أدبية .

و لعل هذا هو الذى دفع جريرا إلى أن يترك ديار قومه باليمامة ، ويأتى إلى البصرة مقيما ؛ ليكون فى مواجهة الفرزدق ، وليكون لنفسه جمهورا بالمريد ، الذى أخذ يختلف إليه ليلقى قصائده فيه على مرأى ومسمع من الجماهير المحتشدة ، المتعطشة لسماع هذا الفن ، ونعتقد أنه لو ظلت النقائض بينهما قبلية الباعث ، لبقى جرير باليمامة يرسل الفرزدق بالهجاء من هناك ، كما ظل بها وهو يهاجى البعيث ، ويظهر هذا من قول الفرزدق ^(١):

أتانى أحاديث البعيث ودونه زرود فشامات الشقيق إلى الرمل

أى أتته شكوى البعيث من هجاء جرير فيه وفى قومه بنى مجاشع ، والفرزدق بالبصرة وقومه بهذه الأماكن التى أشار إليها .

وربما استشعر البعيث هذا التحول إلى المجد الأدبى بين الشاعرين ، فأكلته الحسرة على حظه منه الذى ضاع بتدخل الفرزدق ، مع أنه هو الذى استغاث به ، وقد عبر عن هذه الحسرة فى قوله للفرزدق ^(٢) :

أشاركتنى فى ثعلبٍ قد أكلته فلم يبق إلا رأسه وأكارعه ...

عاش الشاعران بالبصرة ، فكانا يقصدان المريد ، وينشدان الناس أهاجيهما ، ويستثيران أثناء ذلك حماس الجماهير ، وكل منهما يبذل غاية جهده فى إلهاب حماس الناس لفنه ، وفى التفوق على صاحبه .

لهذا نرى أن فن النقائض بين جرير والفرزدق تحول بعد نشأته القبلية إلى خصومة

(١) ديوانه ٢ / ١٥٣ (بيروت)

(٢) ابن سلام ٣٨٩

أدبية ، ترمى إلى الاستثثار بإعجاب الجماهير ، التى تتحلق حول كل منهما فى مريد البصرة ، ولم يعد كل هم جرير أو الفرزدق أن يرضى قبيلته ، بل لعله لم يعد يفكر فيها إلا باعتبارها مصدر فخار لنفسه ، وجزءا من الجماهير المحيطة به ، المعجبة بفنه .

ولسنا ننكر أن جانباً كبيراً من مادة هذه النقائض يتحدث عن القبيلة ، ومفاخرها ، وأمجادها ، وأحسابها ، ومثالب أعدائها ، ولكننا نرى أن هذه المادة القبلية ، لم تكن غاية أى منهما من الهجاء والفخر ، إنما كانت الغاية الفوز برضا الجمهور المعجب بهذا الفن ، وإثبات التفوق الفنى على الخصم ، وأنه أرسخ منه قدما فى هذا الفن ، ومن ثم حرص كل منهما « على إبراز مهارته الفنية وبراعته فى إفحام خصمه ، برد معانيه وصوره ، وقوافيه وأوزانه ... [وإظهار] مقدرته على السخرية من صاحبه وتحقيره ، بتصويره فى صورة (كاريكاتورية) تبالغ فى تجسيم العيوب الحسية والنفسية ، فيستثير بذلك منابع التفكه فى وجدان الجماهير ، ويشركهم معه فى الهزؤ بصاحبه والتهكم به أو بآبائه » (١) .

ومن دلائل هذا إلحاح الفرزدق على ذم عطية الخطافى والد جرير ، والإكثار من تقديمه فى صور ساخرة تثير الضحك ، من مثل قوله فيه : (٢)

إِنَّا لَنَضْرِبُ رَأْسَ كُلِّ قَبِيلَةٍ وَأَبُوكَ خَلْفَ أَتَانِهِ يَتَقَمَّلُ

وقوله (٣) :

هُمُ أَيُّهُوَ لِي إِذْ عَطِيَّةٌ قَائِمٌ لِيْنَهْقُ خَلْفَ الْجَامِحَاتِ الصَّلَادِمِ

فعطية هكذا دائما يجرى وراء الحمير ، أو يرعى الغنم ، ويقيم هو وزوجه لها

الخطاير : (٤)

قال ابن صانعة الذروب لقومه لأستطيع رواسى الأعلام
قالت تجاوبه المراغة أمه قد رمت ويل أيبك كل مرام
فاسكت فإنك قد غلبت فلم تجد للقاصعاء مائر الأيام

(١) الشعر الأموى (فوج) ١٣٢

(٢) ديوانه ٢ / ١٥٨ (بيروت) يتقمل : ينزع القمل من جسمه .

(٣) المصدر السابق ٢ / ٢٤٤ أيهوى : نادوى

(٤) المصدر السابق ٢ / ٣٠٥

وفي عطية أيضا يقول (١) :

وترى عطية ضارباً بفنايه ريقين بين حظائر الأغنام
متقلداً لأبيه كانت عنده أرياق صاحب ثلّة وبهّام
مأمسّ مُدّ وكلدت عطية أمه كفّا عطية من عنان الجّام

وهذه الصورة التي تصرع الخلّ من الضحك (٢) :

تركنا جريرا وهو في السوق حابسٌ عطية هل يلقى به من يبادلّه
فقالوا له رُدّ الحمار فإنه أبوك لقيم رأسه وجحافلّه

كما يكثر جرير من تصوير الفرزدق بأنه قين وابن قين ؛ لأن جده صمصمه كان يقتنى بعض القيون في الجاهلية ، ويلج جرير على هذه الصورة ، حتى لكأنما لم يعد للفرزدق من سمة غيرها ، فبهيج بذلك سخريه الجماهير به .

وهذا الطابع الشخصي في الهجاء — ومثله في الفخر كما سنرى — إلى جانب الميل إلى السخرية ، هو الذي أضفى على نقائض جرير والفرزدق — بعد فترة النشأة القبلية — نزعة الخصومة الفردية ، أو ما أسميناه بالمنافسة الأدبية .

وقد نرانا بحاجة إلى ما يؤكد تحول الخصومة بين الشاعرين من النزعة القبلية ، إلى تنافس أدنى ، يتغيّا التفوق في مضماريّ الفخر والهجاء .

حكى أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى أن جريرا والفرزدق خرجا إلى الرصافة مرتدّين على ناقة ، قاصدين هشام بن عبد الملك ، وفي الطريق نزل جرير لقضاء حاجته ، فضجرت الناقة وأخذت تلوى عنقها يمينا وشمالا ، فضربها الفرزدق ، وقال (٣) :

إلامَ تَلْفُتَينِ وأنت تحتى وخير الناس كلهم أمامى
متى تُردى الرصافة تستريحى من التهجير والدّبر الدّوامى

وقال في نفسه ، الآن يحىء جرير فأنشده البيتين ، فيقول :

(١) نفسه ٢ / ٣٠٦

(٢) ديوانه ٢ / ١٧٣

(٣) وفيات الأعيان ١ / ١٢٨ وديوانه ٢ / ٢٩٢ (بيروت) والأمالى للقال ٢ / ٢٣٩ وانظر بدائع البدائة ١ / ٢١

تَلَفْتُ إِنِّهَا تَحْتَ ابْنِ قَيْنٍ إِلَى الْكَيْسِ وَالْفَأْسِ الْكِهَامِ
مَتَى تَرِدُ الرِّصَافَةَ تُخْزِرُ فِيهَا كَخَزِيكَ فِي الْمَوَاسِمِ كُلِّ عَامٍ

فجاء جرير ورأى الفرزدق يضحك ، فقال : ما يضحكك يأبها فراس ؟ فأنشده بيتيه الأولين ، فرد جرير بالبيتين الآخرين ، فقال الفرزدق : والله قد قلت هذا ، فقال جرير : « أما علمت أن شيطاننا واحد » .

فهذا الخبر وسياقه يدلان دلالة قاطعة على انتفاء أية عداوة حقيقية بين الشعاعين .

ويروى ابن سلام ^(١) أن الفرزدق لقي عمرو بن عطية أخا جرير — وجرير حينئذ يهاجي عمرو بن لَجَأً — فقال له : ويلك ، قل لأخيك — ثكلتك أمك — إيتِ التيمي من علِّ كما أصنع بك أنا ، وكان الفرزدق قد حمى وأنف لجرير أن يتعلق به التيمي .

وهل كان الفرزدق يحمى ويأنف لجرير لو كانا عدوين ، متباغضين حقا ؟! وقد رأينا منذ قليل كيف دافع جرير عن الفرزدق عند هشام بن عبد الملك ، لما حبسه خالد بن عبد الله القسري ، وشفع له حتى أطلقه .

لقد آل الأمر بين جرير والفرزدق إلى نوع من التعاطف ، والبراءة من الضغائن والتحاسد ، والأحقاد ، فأصبحت المناقضة بينهما « ضربا من الحوار النظمي ، وميدانا للمباراة الأدبية ، مع احترام كل صاحبه ، وعرفانه قدره وبراعته في باب النقائض ، وتفردهما فيه بالمكانة الممتازة » ^(٢).

وهذا التعاطف هو الذي جعل جريرا يحزن أشد الحزن لوفاة الفرزدق ، ويكيه قائلا : أما والله إني لأعلم أني قليل البقاء بعده ، ثم يرثيه رثاء حارا صادقا ، بقوله من قصيدة ، ناسبا إليه فيها كل ما ينسب إلى السيد العربي الجليل ، واصفا خسارة قبيلتهما بفقد هذا الشاعر الفذ ^(٣) :

(١) طبقاته ٤٣٣

(٢) تاريخ النقائض ١٨٠

(٣) ديوانه ٤٠٧

لعمري لقد أشجى تيمماً وهذه على نكبات الدهر موث الفرزدق
لقد غادروا في اللحد من كان ينتمى إلى كل نجم في السماء مخلّق
لتبليّ عليه الإنس والجن إذ ثوى فتى مُضِر في كل غرب ومشرق ...
كما ييكي فيه رجلا لن تأق النساء بمثله ، حاميا للذمار ، مصلحا لما فسد من أمر
قومه ، ساعيا لهم بالخير عند الحكام ^(١) :

فلا ولدت بعد الفرزدق حامل ولا ذات حمل من نفاس تعلت
هو الوافد المأمون والرأتق الشأى إذا النعل يوماً بالعشيرة زلّت
وعن هذه الروح صدر جرير في قوله لابنه عكرمة ، وقد سأله عن أشعر الناس في
الإسلام : « الفرزدق نبعة الشعر في يده » ^(٢) .

فالفصلة بين الشاعرين لم تكن منبئة ، بل كانت صلة مودة ، فلا ينبغي أن نخدع
بما في مهاجمتهما من عنف وتجريح ، وسخرية لاذعة ، فما كان هذا عن بغض وتحاسد
 وعداوة ، وإنما هي المنافسة الأدبية ، التي التقت فيها روح الشاعرين ، وتشابه فيها
 شيطاناهما « ولم يجدا لهما ندّاً يقف مواقفهما ، فكانت مناقضاتهما مظاهر
 امتيازهما » ^(٣) .

نعم ، كانا يقومان بهذه المناقضة بقصد المنافسة الأدبية ، لا بقصد التخاصم ،
 وكان من حولهما يعرفون ذلك ، ففي حديث جرير مع أبي جندل الراعي التميمي ما يدل
 على أنه وصاحبه الفرزدق ، كانا يرميان إلى غاية فنية ، فهو يعتب على الراعي تفضيله
 الفرزدق عليه ، ويقول له : كان يكفيك ، إذا ذكرنا ، أن تقول كلاهما شاعر كريم ،
 ولا تحتمل منى ولا منه لائمة ^(٤) ، فمناط العتاب ، كما نرى ، هو حرص جرير على أن
 لا يفضل عليه الفرزدق في الشاعرية ، لافي العصبية القبلية ، ولا في الانتماء السياسي .

(١) دوانه ٨٨ وابن سلام ٤١٧ (المدني) والأغاني ٧ / ٧٢ ، ١٩ / ٤٥ ومعاهد التنصيص ١ / ١٩ ، ٢٣٦ .
 تعلت : سلمت وصحت . الشأى : الفساد .

(٢) العمدة ١ / ٦١ وفي أمالي القالي ٢ / ١٨١ أن الذي سأل جريرا بعض خلفاء بني أمية ، فقال : « بيده نبعة
 الشعر قابضا عليها » .

(٣) تاريخ النقائض ١٧٩

(٤) معاهد التنصيص ١ / ٢٢٩ وانظر : الأغاني ٧ / ٤٣ ، ٤٦

حتى ولادة العراق كانوا على إدراك لهذه الحقيقة في العلاقة بين الشاعرين ، دليل ذلك أن الحجاج بن يوسف الثقفي ، وإلى العراق ، يطلب إليهما أن يمثلتا بين يديه تمثيلية المهجاء والفخر (المناقضة) على أن يلبس كل منهما ملابس آبائه في الجاهلية ، فيأتى الفرزدق ، وقد لبس الديباج والخز ، وقعد في قبة ، وشاور جرير دهاة بنى يربوع ، فقالوا له : مالباس آباءنا إلا الحديد ، فلبس جرير درعا ، وتقلد سيفاً ، وأخذ رمحاً ، وركب فرساً ، وأقبل في أربعين فارساً من بنى يربوع ، وجاء الفرزدق في هيئته التي ذكرنا ، وبدأ الفرزدق هذه الملهاة بقوله (١) :

وإن كُلياً إذ أتتني بعبيدها كمن غرّة حتى رأى الموت باطله
رَجَوْا أن يردّوا عن جرير بدرعه نوافذ ماأرّمي وما أنا قائلة
عجبتُ لراعى الضّان في حُطْمِيّة وفي الدرع عبدٌ قد أُصيّبت مقاتله
وهل تلبس الحنّلى السّلاح وبطنها إذا انتطقت عبءٌ عليها تعادله ؟!

فأجابه جرير بنفس الروح الساخرة ، قائلا (٢) :

لبستُ أداتى والفرزدق لعبةً عليه وشاحاً كُرّج وجلاجله
أَعِدُّوا مع الحنّلى المَلابَ فإنما جريرٌ لكم بَعْلٌ وأنتم حلائله
وأَغَطُّوا كما أَعْطَتْ عَوَّانُ حليلها أَقَرَّتْ لبعيل بعد بَعْلٍ ترأسله
أَمِنْ سَفَهِ الأحلام جاءوا بقردهم إلىّ وما قردٌ لِقَرْمٍ يُصاولة ؟!

ففى هذه المناقضة هجاء وفخر هزليّ مضحك ، وفيما تركنا من قصيدتي الشاعرين فحش وإسفاف وسباب ، وتصريح بما يقبح ذكره ، ومع ذلك فالموقف أشبه بتمثيلية هزلية — كما نرى .

وعلى هذا النحو طلب منهما بشر بن مروان أن يتفاخرا في مجلسه ، بما لم يسبق

(١) ديوانه ٢ / ١٧٣ (بيروت) الدرع الحطمية : المنسوبة إلى حطمة بن محارب بن عمر بن وديعة بن بكر بن عبد القيس بن أفضى ، وقال ابن الكلبي : هى منسوبة إلى حطم ، وهو أحد بنى عمرو بن مرثد من بنى قيس بن ثعلبة ، وقال الأضمرى : لأعلم ماينتسب إليه . العمدة ٢ / ١٨٠

(٢) ديوانه ٤٨٢ والأغانى ٧ / ٦٧ ومسالك الأبحار ١ / ٢٤٨ وبدائع البداة ٢ / ٦٧

لهما أن تفاخرا به ، ففعلا ، فحكم بشر جرير ، بالغلبة ، وأحسن جائزتهما ^(١) .
ونورد نموذجاً للمناقضة بين الفحلين ؛ لتكون على بينة من عناصر هذا الفن ،
وكيف تطورت على يديهما .

للفرزديق طويلة (٩٢ بيتاً) يفخر فيها على جرير بالانتماء إلى أكرم قبيلة (تميم) ،
ويفضل قومه بنى مجاشع على بنى كليب قوم جرير ، ويهجو جريراً وقومه هجاء
قبيحا ^(٢) ...

ويمكن تقسيم هذه النقيضة إلى العناصر التالية :

(١) — الفخر بتميم وذكر مآثرها .

(٢) — فخر قبلي بقومه بنى مجاشع ودارم .

(٣) — هجاء قبلي (٤) فخر شخصي (٥) هجاء شخصي

يبدأ الفرزدق بالفخر بقبيلته الكبرى تميم ، وكأنه لا يرى صاحبه جديراً بالانتساب
إليها ، ومن ثم يتجاهل نسب جرير في تميم ، فهو وحده الأحق بشرف الانتساب إلى هذه
القبيلة الماجدة ، بحماية حماها ، وشجاعة أبنائها ، ورعايتهم لحق الجار :

لاقومَ أكرمُ من تميم إذ غدثَ عوذُ النساءِ يُسَقِّنَ كالأَجالِ
الضاربون إذا القبيلة أحجمتْ والنازلون غداةَ كلِّ نزالِ
والضَّامنون على المنية جآرهم والمُطعمون غداةَ كلِّ شَمالِ

ولانجد في رد جرير على هذه النقيضة ^(٣) (عدته ٧٣ بيتاً) مايقابل هذا الفخر ،
وهذا طبيعي ، فهو من تميم ، مهما تجاهل الفرزدق هذا النسب ، أو دفعه ، وكل فخر
بتميم فخر لجرير ، ولذا فهو يسلم له به .

ويطيل الفرزدق مادة الفخر بقومه بنى مجاشع وبنى دارم ، ويشغل به مايقرب من
نصف القصيدة (٤١ بيتاً) .

(١) بدائع البدائة ١ / ١٥

(٢) القصيدة في ديوانه ٢ / ١٦١ — ١٦٨ (بيروت)

(٣) قصيدة جرير في ديوانه ٤٦٥ — ٤٧٢

وينوع في هذا الفخر ، فتارة يدفع أن يوازن بنو كليب بنى مجاشع في المجد :
أَبْنُو كَلِيبِ مِثْلَ آلِ مَجَاشَعِ أَمْ هَلْ أَبُوكَ مُدْعِدَعًا كَعِقَالٍ !؟

وتارة يمجّد فعالمهم ، فينسب إليهم من الخصال كل ما كان يتصف به السادة
الأشراف ذوى المروءة ، من الإسراع في فك الأسرى ، وعلو الشرف وعظيم المنزلة عند
الملوك ، ويتناول مغاليا في هذا الفخر فيقول :

إِن السَّمَاءَ لَنَا عَلَيْكَ نَجْوُهَا وَالشَّمْسُ مَشْرِقَةً وَكُلَّ هِلَالٍ

ولقومه رجاحة العقول في مواقف الرضا ، وبطشهم شديد عند الغضب ،
ويتحدّى بهم قوم جرير ، داعيا إياهم إلى المنافرة في سوق عكاظ ، وسؤال الحجيج عن
مجدهم ، فكلهم يعرفه ، وكلهم يشهد لدارم بكثرة العدد ، ووفرة المكارم .

ويذكر جرير بفضل مجاشع على كليب يوم أن دافعوا عنهم ، وخلصوا نساءهم من
السبي ، وهو يوم كان بنو يربوع قد هزموا فيه على يد البكرين ، ثم انتصر لهم بنو مالك
التميميين ، أصل دارم ومجاشع ، وهو المعروف بيوم الغبيط ^(١) :

لَوْ تَعْلَمُونَ غَدَاةَ يُطْرَدُ سَبِيكُمُ بِالسَّفْحِ بَيْنَ مَلِيْمَةٍ وَطِحَالٍ
وَالْخَوْفِ زَانِ ^(٢) مَسُومٍ أَفْرَاسِهِ وَالْمَحْصَنَاتِ يُجْلَنُ كُلُّ مَجَالٍ
حَتَّى تَدَارِكَهَا فَوَارِسُ مَالِكٍ رَكْضًا بِكُلِّ طَوِيلَةٍ وَطُؤَالٍ

ثم يتحدث عن شجاعة فرسان بنى مالك ، إلى أن يقول :

بِأَوْلَاكَ تَمْنَعُ أَنْ تُنْفَقَ بَعْدَ مَا قَصَّعَتْ بَيْنَ حُزُونَةٍ وَرِمَالٍ

كما يفاخر بيوم آخر من أيام قومه المجيدة ، وهو يوم الكلاب ^(٣) ، ويصف
فروسيتهم وأفراسهم الأصيلة ، المدربة على الحروب .

ويأتى جرير فيقابل هذا الفخر القبلي بمجاشع ودارم ، بفخر بقومه بنى كليب .
فهم المسارعون للحرب إذا ماقعد بنو القيون يصطلون إلى جوار الكير ، وبنوه بفرسان ،
قومه ، ولا يرى لهم مثيلا في مجاشع ، إذ يحمون نساءهم من امتهان السبي ، وأحسابهم

(١) انظر فيه : العقد الفريد ٣ / ٣٣٨

(٢) هو الحارث بن شريك من بنى شيبان ثم من بكر .

(٣) انظر خبره في العقد الفريد ٣ / ٣٥٣

تفوق أحساب الفرزدق وهم بهذه البطولة والأحساب يحمون حماهم ، ويذودون عن ديارهم ^(١) :

نحن الولاة لكل حرب تُتقى إذ أنت محتضِر لكيرك صالى
من مثل فارس ذى الخمار وقعب والحتَفَيْن ليلية البَلالِ
الذائدون إذا النساء تُبذلت شهباء ذات قوانسٍ ورعالِ
قوم هُم غموا أباك وفيهم حسبُ يفوتُ بنى قفيرة على
تمضى أستننا وتعلم مالِك أن قد منعَتْ حزونتي ورمالى

ويقابل فخر الفرزدق بأيام قومه ، بمثله :

فاسأل بذى نجبِ فوارس عامر واسأل عُيينة يوم جزع طلالِ

وهو يوم تقيم على عامر ^(٢) ، ويتحدث عن أيام الوقيط ^(٣) والغبيط ^(٤) ، ويوم جزع طلال ^(٥) إلى أن يقول :

تلك المكارم يافرزدق فاعترف لاسوقُ بكرِك يوم جَوفِ أبالِ

فيعبره بهذا اليوم الذى كان لبكر على بنى دارم .

أبنى قُفيرة ^(٦) من يروّع وردنا أم يقود لشدة الأحمال

والمادة القبلية تكاد تعادل فى النقيضتين ، أيام مقابل أيام ، وخصال حميدة ، يقابلها مثلها ، وتعير بالهزيمة ، يقابله تعير بمثلها ...

ويتخلل هذا الفخر القبلى ، فخر كل من الشعارين بنفسه ، والفرزدق يستند فيه إلى مجد بنى مجاشع ، فهم بيت عزيز ، مفاخره كثيرة ، ولذا كانت مادة الفخر وفيرة لدى الفرزدق ، فهو يحتاج من معين ثر ، بخلاف جرير الذى كان ينتمى إلى بيت واهى

(١) فارس ذى الخمار : مالك بن نويرة ، والحتفان : ابنا أوس .

(٢) انظره فى النقائض ٣٠٢ والعمدة ٢ / ١٦٦

(٣) انظره فى : العمدة ٢ / ١٦٧

(٤) المصدر نفسه ٢ / ١٦٦

(٥) المصدر نفسه ٢ / ١٦٧

(٦) قفيرة : هى أم مصعصة بن ناجية بن عقال جد الفرزدق ، وهى بذلك جدة قوم الفرزدق .

البنيان ، ولعل هذا هو الذى جعل الفرزدق يفوق جريرا فى الفخر ، كما لاحظ قدامى النقاد (١) .

يقول الفرزدق :

إلى بنى لى دارمٌ عادِيَّةٌ فى المجد ليس أرومُها بمزال
وألى الذى وَرَدَ الكُلابُ مُسَوِّمًا والخيلُ تحت عجاجها المُنْجَال
أما جرير فيضع بإزاء هذا الفخر ، فخرًا بشاعريته القوية ، وشعره الذى يطير على

ألسنة الرواة :

رُفِعَ المطى بما وسمتُ مُجاشعًا والزَّبَرِيُّ يعوم ذو الأجلال
فى ليلتين إذا حدوثٌ قصيدةٌ بلغت عُمانَ وطىءَ الأجلال
ويقابل فخر الفرزدق بأعمامه وأخواله ضبة فى ميادين البطولة والمجد ، بفخر
بأخواله من بنى الأشد وبنى النزال ، ويتحداه جرير أن يذكر أخوالا كأخواله :
مالسيِّد حين نذبت خالك منهم كبنى الأشد ولا بنى النزال
خالى الذى اعتسر الهذيل وخيله فى ضيق معترك لها ومجال
جثنى بخالك يافرزدق واعلمن أن ليس خالك بالغا أخوالى
وهكذا نرى الشاعرين يكثران من الاعتماد على المادة القبلية فى الفخر ؛ ليعلو بها
كل على صاحبه .

ويعرج الفرزدق فى هذه النقيضة على الهجاء القبلى ، ويرى بنى كليب لثاماً ،
يكسبون أبناء بناتهم اللؤم ، ويجردونهم مما يعتز به :
إن ابن أخت بنى كليب خاله يوم التفاضل الأم الأخوال
بعل الغريبة من كليب ممسكٌ منها بلا حسب ولا بمجمال
ويعيرهم بالفقر ، وأنهم أصحاب حمير ، لآخرة لهم بالأفراس ، حتى فى مجال
السباق ، يتراهنون على سباق الحمير ، ويرسم لهم صورة ساخرة فى هذا السباق ،
فيقول :

يَتَّبِعُهُمْ سَلْفًا عَلَى حُمُرَاتِهِمْ أَعْدَاءُ بَطْنِ شُعْبَةَ الْأَوْشَالِ
وَيَظِلُّ مَنْ وَهَجَ الْمَجِيْرَةُ عَائِدًا بِالظِّلِّ حَيْثُ يَزُولُ كُلُّ مَزَالٍ
وَيَمْنَعْنَ فِي هِجَاءِ بَنِي كَلِيبٍ ، فَيَرَاهُمْ أَوْضَعُفَ مَنْ أَنْ يَمْنَعُوا نِسَاءَهُمْ ، مَنْ كُلِّ مَنْ
يَنْهَتْكَ أَعْرَاضُهُنَّ :

لَا يَمْنَعُونَ لَهُمْ حَرَامَ حَلِيلَةٍ بِمَهَابَةِ مَنْهُمْ وَلَا يَقْتَالُ
إِنْ الْحِجَارَةُ لَوْ تَكَلَّمَتْ خَبَّرَتْ عَنْكُمْ بِالْأَمِّ دَقَّةً وَسِفَالٍ
وَيَرْمِيهِمْ بِالْمَذَلَّةِ وَالْهَوَانِ ، وَالْجَبْنِ ، وَعَدَمِ الْفَنَاءِ فِي الْحُرُوبِ .

ويلوذ جرير في هجاء قوم الفرزدق بهذه الصورة التي يرددها كثيرا في نقائضه مع
الفرزدق ، وهى أنهم قيون أبناء قيون ، محاولا الخط من شأنهم ، وإثارة السخرية بهم ،
ولجرير العذر ، فبنو مجاشع بيت رفيع العماد ، قليل المثالب ، يُعْنَى من يحاول هجاءه ،
بالبحث عن ثغرة ينفذ منها إليهم .

ولعل هذا هو مادفع جريرا إلى أن يلجأ إلى السباب والشتم ، والإمعان في
الفحش ، والحديث عن الأمهات والزوجات في أهاجيه مع الفرزدق ، ولعل هذا أيضا
ما قدمه على صاحبه في مجال الهجاء — كما قدمنا .

يقول جرير :

صار القيون كساقية الأقيال
واللؤوم مُعْتَقِلٌ قِيُونَ عِقَالٍ

ومن تناوله نساء بنى مجاشع قوله :

قبح الإله بنى خضاف ونسوة
من كل آفة المَوَآخِرِ تَنْقَى
ودت سَكِينَةُ أَنْ مَسْجِدَ قَوْمِهَا
كانت سَوَارِيَهُ
.....

وهذا الإسفاف والبذاءة في الهجاء ، ليس نادرا ولا قليلا في أهاجى جرير ، وأكثره
مما يستحى من روايته .

وطابع النقائض الفردية ، يظهر أيضا في مجال الهجاء الشخصى ، حيث يجهد كل
من الشاعرين نفسه في اصطلياد الصور المخزية ، أو الساخرة المضحكة ؛ ليجعلها إطارا

لشخصية صاحبه ، ويتفوق جرير في هذا المجال من الهجاء أيضا ، بما يقدمه من صور فاحشة للفرزدق وأمه ، وأخته جعثن ، أما الفرزدق فعماد مادته هنا عطية والد جرير ، وصورته القميئة مع حميره ، وجماعات غنمه ، ومنظره الزرى ، فإذا ماتجاوز عطية ، تناول أم جرير في صور تبديها أقرب إلى البلاهة ، وتضعها في إطار مضحك ، مثير للاشمئزاز والسخرية :

وحسب حرى وهى تخطر بالقنا حلب الحمامة يا ابن أم رِعال
تبكى المراغة بالرغام على ابنها والناهقات يُنَحْنَ بالإعوال

أما أبو جرير عطية ، فقد مرت بنا صور من هجاء الفرزدق إياه ، ونضيف هنا قوله :

وترى عطية والأتان أمامه عجلاً يمرُّ على الأمثال
ويظل يتبعهن وهو مقرمَد من خلفهن كأنه بِشِكَالٍ
وترى على كنفى عطية مائلاً أزيافه عُدْتُ له بِسِخَالٍ
تبع الحمامَ مُكَلِّمًا فأصابه بنهيقه من خلفه بنِكَالٍ ...

ونحن إذا تخيلنا صورة عطية هذه ، لانستطيع أن نمسك أنفسنا عن الضحك من هذا الرجل الملازم لخلفية حميره يحجل وراءها ، وهى ترفسه فتترك كلوما بجسمه ، وعلى أكتافه حبال لقيد هذه الأتُن أو لسوقها ، يلاحقه نهيق حميره فى غدوه ورواحه ، وكأنه وحميره جوقة من الأصوات الناشذة .

ويرد جرير بتجريح عرض الفرزدق ، ووصف زوجه بالفجور ، فى معان مكشوفة قبيحة ، وعبارة بذئية يندى لها وجه الفضيلة :

وتقول جِعْثُنْ إِذْ رَأَيْتُكَ مُنْقَبَأً قَبَحَتْ مِنْ أَسَدٍ أَيْ أَشْبَالِ
وتقول جعثن وابن مرة جانح
.....

مابال أُمِّكَ إِذْ تَسْرِبُ دِرْعَهَا وَمِنَ الْحَدِيدِ مَفَاضَةٌ سِرِّيَالِي
حَمَمَتْ وَجْهَكَ فَوْقَ كَبْرِكَ قَائِمًا وَسَقَيْتَ أَمِّكَ فَضْلَةَ الْجَرِيَالِ
شَابَتْ قُفَيْرَةٌ وَهِيَ فَائِرَةُ النَّسَا فِي الشُّوْلِ بَوَّ أَصِيرَةٌ وَفَصَالِ

بكرث معجلاً قتب ألح أرب ثقال

ويعود إلى تعبيره بأنه حداد ليس له من الآثار إلا آلات الحداد :

فانفخ بكيرك يافرزدق وانتظر في كرباء هدية القفال
فضح الكتبية يوم يضطرب قائما سلخ النعامة شبة بن عقال

هذه الصورة من الهجاء عند كل من الشاعرين لاتعكس موقفا جادا ، أو خصومة حقيقية ، وإنما هي صور وظفت في هذا الفن ، لاستثارة الناس ، وإمتاعهم واستخفافهم ؛ ليغلبوا أحد الشاعرين على صاحبه ، ومن هنا قلنا : إن النقائض انحرفت على أيديهما ، بعد نشأتها القبلية ، إلى مضمار المنافسة الأدبية .

من دراسة هاتين النقيضتين يمكن الوقوف على بعض الملاحظات الفنية التي تعد من سمات تطور فن المناقضة في العصر الأموي .

أولاً : طول النقيضة : فقصيدة الفرزدق بلغت اثنين وتسعين بيتا ، ونقيضة جرير عدتها ثلاثة وسبعون بيتا ، ولكل منهما في المناقضة مايربو على ماله هنا ، وإطالة قصائد الفخر والهجاء إلى هذا القدر ، لانجد له نظيرا في نماذج النقائض في العصرين السابقين ، العصر الجاهلي ، وعصر صدر الإسلام ، إذ كان طول النفس جانب من جوانب المفاضلة بين النقيضتين عند نقدة الشعر وقضاته في هذا العصر ، وبخاصة إذا جمعت مع ذلك جودة المضمون والأداء .

ولعلنا قد لاحظنا كذلك أن نقيضة جرير أقصر من نقيضة صاحبه ، وهذا يصدق ماسبق أن أشرنا إليه ، من أن الناقض لا يتمتع بالفرص المتاحة للباديء ؛ إذ لا يختار موضوع المناقضة ولاقالها الموسيقى ، مما قد يؤدي إلى إجادة الباديء وطول نفسه فيما اختار أكثر من الناقض .

ثانيا : غلبة المادة القبلية : فالمعاني القبلية التي افتخر بها الشعراء ، أو تهاجيا تسليخ من قصيدة كل منهما أكثر من نصف أبياتها .

لايعنى هذا أن تعد النقيضتان من الشعر القبلي ، لما سبق أن ذكرنا من أن المادة القبلية في النقائض وسيلة لاغاية ، إذ الغاية هو الفوز بالسبق الفني ، وفي مثل هذه البيئة

العربية التي كانت تغمض عينها عن المقاييس التي جاء بها الإسلام في المفاضلة بين المسلمين ، وترتد بمقاييسها في المفاضلة إلى العصر الجاهلي ، حيث يشتد التصاق العربى بقبيلته ، فترتبط بها شخصيته ، ولانماص من أن يستمد مقومات شخصية ومايزنها ، أو يشينها من قبيلته ، فإذا أدركنا هذا ، استطعنا أن نفهم سرّ هذا الإلحاح على أجداد القبيلة ومفاخرها ، أو مثالبها ونقائصها ، في فنى الهجاء والفخر ، سواء صيغا في قالب المناقضة أو في غيره ، وأغلب ظننا أن جمهورا كبيرا من أبناء هذا العصر لم يكن يستطيع أن يتصور سمو شخص ، أو انحطاطه إلا في ظل تاريخ قبيلته الماضى والحاضر .

فالمادة القبلية كانت مفروضة على الشاعرين ، ولانقصد أن قبيلتهما كانت تلزمهما بهذه المعانى القبلية ، وإنما نعنى الفرض الفنى ، فلن يكون فهما مقبولا في ظل الوضع الاجتماعى الذى ذكرنا ، إلا إذا كان كل منهما متكئا على قبيلته ، وقبيلة خصمه في حاضرها وماضيها .

هذه المناقضة إذن فردية على الرغم من غلبة المادة القبلية عليها ، نفهم هذا من حرص كل من الشاعرين على ربط المعانى القبلية بشخصه إبحاء بامتياز ، وعلو شأنه ، على صاحبه .

فجرير بعد أن يسرد مفاخر قومه ، يحرص على ربطها بشخصه ، فيقول مخاطبا الفرزدق :

إني نذبت فوارسى وفَعالهم ونذبتُ شرَّ فوارسٍ وفَعال

وحتى يوم انتصار القبيلة يجعل منه يوم مجده ، ويوم خذلان قبيلة صاحبه منقصة لخصمه ، يقول جرير :

أحسبت يومك بالوقيط كيومنا يوم الغبيط بقلّة الأدحال

ويشيد بأحواله ، ثم يقول للفرزدق :

جننى بخالك يافرزدق واعلمنْ أنْ ليس خالك بالغا أخوالى

وبالمثل يعدد الفرزدق أجداد مجاشع ودارم ، وأيامهما الغراء في تاريخ المفاخر ،

ويجعل من ذلك بناء له ، ومجدا له ، ومفخرة يعلو بها على صاحبه ، ويمتاز :

أنى بنسى لى دارمَ عادِيَّةً فى المجد ليس أرومُها بمُزال

ثالثا: اعتماد السخرية أسلوبا في الهجاء ، سواء في المعاني أو الصور ، وفي نقائص كل من جرير والفرزدق أمثلة عديدة لهذا الأسلوب ، وعلى الأخص حينما يعرج جرير ، على صورة القيون ، التي ألح عليها في هجاء الفرزدق ، أو يلح الفرزدق على صورة عطية والد جرير ، وهو خلف أخته ، وفي بصحبتهما . وفي تحليل النقيضتين السابقتين من هاتين الصورتين مايؤيد هذا الاتجاه ، وفي مهاجمتهما بين يدى الحجاج مايؤيده أيضا .

رابعا: بالنقيضتين ، معان فاحشة ، تتناول أعراض النساء ، بعبارة تؤثر التصريح على التلميح ، والمباشرة على الكناية ، فجعثن وفقيرة وسكنية وغيرهن من الزوجات والأخوات والأمهات عرضهن مضغة في فم جرير ، يصورهن في أقبح الصور ، وأبعدها عن الحياء والذوق ، وأم جرير كالأمباح للفرزدق يصورها كما يشاء له ذوقه الثاني ، وخلقته الذي لايعف عن المحارم ، والفراغ الذي تركناه في ثنايا الأبيات خير شاهد على مدى إسفاف الشعارين في تناول الأعراض ، وإن فاق جرير صاحبه في هذه الرذيلة .

وهذه البداية لم تقتصر على تناول النساء ، فلكل منهما صور في صاحبه لا تنقل سفاهة وعدوانا على الفضيلة من صور النساء ^(١) .

ويحسن أن نورد نموذجا ثالثا للمناقضة بين هذين الشعارين الكبيرين ، يضيف إلى ماتقدم من ملامح تطور فن النقائص على أيديهما في النموذجين السابقين ، ملمحا آخر يكشف عن تأثير ثقافة العصر في هذا الفن ، بحيث أوشك أن يكون صورة للمناظرات والحوار المعقد ، الذي يتتبع فيه الخصم دعاوى خصمه ، ويعمل فيها نقضا وهدما ، في جهد عقلي غير قليل ؛ ولذا يرى بعض الباحثين أن جريرا والفرزدق والأخطل كانوا متأثرين في نقائضهم ، وأسلوبها ، وطرائقها ، بأسلوب وطرائق علماء عصرهم ، في مناظراتهم ومناقشاتهم ومحاوراتهم ، الدينية والعقلية والفقهية ، أي أن نقائضهم كانت صدى لهذه المناظرات ، التي مست كل شيء في الحياة العقلية والدينية ^(٢) .

للفرزدق منقوضة طويلة (١٤٩ بيتا) أنشدها وهو بالمدينة المنورة ، يذكر فيها قتل

(١) انظر — مثلا — ديوان الفرزدق ٢ / ١٦١ (بيروت) وديوان جرير ٤٤٥ ، ٥٦٠

(٢) النظور والتجديد ١٨٦

قتيبة بن مسلم على يد وكيع بن حسان التميمي ، ويمدح الخليفة سليمان بن عبد الملك ، ويهجو جريرا والقيسين ، يقول فيها : ^(١)

تَحَنُّنُ بَزُورَاءِ الْمَدِينَةِ نَاقَتِي حَنِينُ عَجُولٍ تَبْتَغِي الْبَوَّ رَائِمِ
وَيَالَيْتَ زُورَاءَ الْمَدِينَةِ أَصْبَحْتُ بِأَحْفَارِ فَلَجٍ أَوْ بِسَيْفِ الْكُوَاظِمِ
وَكَمْ نَامَ عَنِّي بِالْمَدِينَةِ لَمْ يُبَلِّ إِلَى أَطْلَاعِ النَّفْسِ دُونَ الْحِيَازِمِ
إِذَا جَشَأْتُ نَفْسِي أَقُولُ لَهَا ارْجِعِي وَرَاءَكَ وَاسْتَحْيِي بِيَاضَ اللَّهَازِمِ
فَإِنَّ النَّبِيَّ ضَرَّتْكَ لَوْ ذُقْتَ طَعْمَهَا عَلَيْكَ مِنَ الْأَعْبَاءِ يَوْمَ التَّخَاصُمِ
وَلَسْتُ بِمَأْخُوذٍ بِلُغْوِ تَقْوَلِهِ إِذَا لَمْ تَعْمُدْ عَاقِدَاتِ الْعِزَّائِمِ
وَلَا أَبْوًا إِلَّا الرِّحِيلَ وَأَعْلَقُوا عُرَى فِي بُرَى مَخْشُوشَةٍ بِالْخِزَائِمِ
وَرَاكُوا بِجَيْثَانِي وَأَمْسَكَ قَلْبُهُ حَشَاشَتُهُ بَيْنَ الْمُصَلَّى وَوَقَامِ

وهنا يمسك جرير بتلاييه ، يناقشه ، ويطل ما ادعاه لنفسه ، ويكشف عن كذبه ، في قصيدته التي مطلعها :

أَلَا حَيُّ رُبَّعِ الْمَنْزِلِ الْمُتَقَادِمِ وَمَا حُلَّ مَذْ حُلَّتْ بِهِ أُمُّ سَالِمِ

فقد لاحظ أن الفرزدق يصطنع في البيتين الرابع والخامس التقوى والوقار ، فأنكر عليه التقوى المزعومة ، والوقار المصطنع ، وكذبه وفضحه ، بقوله : ^(٢)

لَقَدْ وَلَدْتُ أُمُّ الْفَرَزْدَقِ فَاجِرًا وَجَاءَتْ بِوَزَوَائِرٍ قَصِيرِ الْقَوَائِمِ

فأفسد على الفرزدق معناه ، من ادعاء الرزانة والوقار والتقوى ، وجعله فاجرا طائشا .

وشبيه بهذا المعنى في نقض دعوى التقوى ، قول جرير من قصيدة أخرى ، يسخر

(١) القصيدة في ديوانه ٢ / ٣٧ — ٣١٧ (بيروت) أحفار فلج وسيف الكواظم : من ديار قومه . المصلى : موضع في عقيق المدينة . اللهازم : أصول اللحيين — جشأت : ارتفعت وتطلعت . واقم : يريد حرة واقم بالمدينة المنورة ، يوم التخاصم : يوم القيامة .

(٢) قصيدة جرير التي نختار منها هنا ، في ديوانه ٥٥٩ — ٥٦٥ وعدتها أربعة وثمانون بيتا . الوزواز : الطائش الكثير الحركة . ليأمن قردا : يرميه بالزنا والفجور ، والعرب تقول : « أُرَى من قرد » .

من تقواه المدعاة : (١)

إن الفرزدق إذْ تحَنَّفَ كارهاً أضْحَى لتغلب والصليب خدينا
فالفرزدق حين يدعى التقوى والتدين ، يأخذ تدينه شكلاً وسلوكاً غير
إسلاميين .

ولما زعم الفرزدق أن الشيب ينهائى عن ارتكاب المحرمات ، والتطلع إلى مالا يحل ،
وقف له جرير بالمرصاد ، ونقض عليه هذا المعنى فى قوله :

وما كان جاراً للفرزدق مسلماً لِيَأْمَنَ قِرداً ليله غيرُ نائمٍ
يوصلُ حَبْلَه إذا جنَّ ليله ليرقى إلى جاراته بالسَّلامِ
أُتيتُ حدودَ الله مُذْ أنت يافعٌ وشبَّتَ فما ينهاك شيبُ اللهازمِ

وهذه سخرية مرة ، من دعوى الفرزدق ؛ فقد شب على الفسق ، ومن شب على
شئٍ شاب عليه ، وهذه قاعدة معروفة للعرب استغلها جرير فى نقض معنى صاحبه ،
فمن قبل قال زهير بن أبى سلمى (٢) :

وإن سيفاه الشيخ لاحلَمَ بعده وإن الفتى بعد السفاهة يَحْلِمُ
ومن بعد قال صالح بن عبد القدوس (٣) :

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يُوارى فى ثرى رَمْسِه
ولما قال الفرزدق بيته السابق :

نواهض يَحْمِلُنَ الهموم التى جفَتْ بنا عن حشايا المحصنات الكرائم

يتحدث عن رحلته من المدينة على النوق ، مدعياً أنه مشغول بعظائم الأمور ، ومن
ثم فهو يعفّ حتى عما أُحِلَّ له من النساء المحصنات الكرائم ، نقض جرير عليه دعوى
العفة هذه ، مستغلاً اعترافاً سابقاً من الفرزدق بالزنا وانتهاك المحارم ، فى إحدى قصائده ،

(١) ليس البيت فى ديوانه ، ولجرير قصيدة على هذا الوزن والقافية فى هجاء الأحمطل بديوانه ٥٧٧ ، والبيت فى
الكامل للمبرد ٢ / ٨٩ (الأثرية)

(٢) من أبيات له فى الحكمة ختمت بها معلقته ، والبيت فى ضمن ثلاثة أبيات ملحقة بالمعلقة فى بعض نسخ
الديوان ، انظر : ديوان زهير ٣٢ وشعراء النصرانية ٥٢٤

(٣) سمط اللآلى ١ / ١٠٥ وانظر ترجمة صالح بن عبد القدوس فى هامشة .

إذ يتحدث عن قصر لامرأة ناعسة الطرف ، منعمة ، ذات زوج شيخ يرعاها ، ويغدق عليها ، احتال الفرزدق حتى صعد إليها مستعينا بحبال نصبها إليه في آخر الليل ، واجتمع بها ، فنقع غليل النفس إليها ، كما يقول ، ولما أوشك الصباح اشتركت هي وامرأة أخرى في مساعدته على النزول ، قال (١) :

فجاءت بأسبابٍ طَوَّالٍ وأشرفتِ قسيمةٌ ذى زورٍ مخوفٍ ثرائره
أخذتْ بأطرافِ الحبالِ وإنما على الله من عوضِ الأمورِ مياسيره

(يسأل الله التيسير لما هو فيه !!)

فقلت أقعدا إن القيامَ مَزَلَّةٌ وشدًا معاً بالحبلِ إننى مخاطره
فلما استوتُ رجلايَ فى الأرضِ نادتا أحنى يُرجى أم قتلِ نُحاذِره ؟
فقلت أرعها الأسبابَ لايشعروا بنا ووليت فى أعجازِ ليلِ أبادره
هُما دَلَّتَانِ من ثمانينِ قامَةً كما انقضَّ بازٍ أقتُمُ الرِّيشَ كاسيره

ويقول عن زوجها :

ويحسبها باتت حصاناً وقد جَرَتْ لنا بُرُتاهَا بالذى أنا شاكره

فهذا اعتراف صريح جرى عن لسان الفرزدق باتباع الغواية ، وارتكاب المحرم ، والفسق ، وقد لامته سكينه بنت الحسين بن على حين قدم المدينة مرة أخرى ، بعد أن أنشدته هذه الأبيات : قائلة : مادعاك إلى إفشاء سرك ، أفلا سترت على نفسك وعليها؟! (٢) .

وسجل جرير على الفرزدق هذا الاعتراف ، ناقضابه مادعاها في بيته السابق من

صلاح وعفة ، نرى هذا فى قوله :

تَتَّبِعُ فى الماخورِ كُلَّ مُرِيبةٍ ولست بأهلِ المحصناتِ الكرائمِ
تدلَّيتُ ثُرْنِي من ثمانينِ قامَةً وقصَّرتُ عن باعِ العُلا والمكارمِ
ويلاحظ أن جريرا ينقض معنى الفرزدق بألفاظه . كقوله : « فما ينهاك شيب

(١) ديوانه ١ / ٢١٢ (بيروت) القسيمة : أرادها ضرثها . الزور : الزهارة . الترائر : الشدائد . الأسباب :

الحبال .

(٢) الموشح ١٦٧ ومصارع العشاق ٢٣٧ وابن خلكان ٢ / ٢٦٢

للهازم « وقوله : « ولست بأهل المحصنات الكرائم » .

ولما ادعى الفرزدق في أبياته السابقة ، أن خروجه من المدينة كان بقصد الرحلة ، التي ترك لها قلبه وهواه ، أى أنه أثر الرحلة من تلقاء نفسه ، طارده جرير في هذا المعنى أيضا ، وأفسده عليه ، بأن جعل خروجه من المدينة قهراً ، وأنه طرد منها طرداً^(١) ، تطهيراً للمدينة من رجسه ، وذلك قول جرير :

هو الرّجسُ يأهل المدينة فاحذروا مُدَاخِلَ رِجْسٍ بالخبيثات عالم
لقد كان إخراجُ الفرزدق عنكم طهوراً لما بين المصلّى ووَاقِم

هذه الدقة في التتبع والترص ، وما يتطلبان من جهد وإعمال عقل ، إنما هي لمحة تطور لفن النقائض على يد هذين الشاعرين الفحلين ، استفاداهما من ثقافة العصر ، كما ذكرنا من قبل .

بقى أن نتلمس العناصر الدينية في المناقضة ، لافى نقائض جرير والفرزدق فقط ، وإنما فيها ، وفي نقائض جرير والأخطل أيضا ؛ لنرى إلى أى حد أثرت الثقافة الدينية الإسلامية في نقائض هذا العصر .

يتضح للقارئ في نقائض العصر الأموي بعامة ، ونقائض الفحول بخاصة ، أن المادة الإسلامية ظاهرة في بعض الألفاظ والمعاني التي تترد في نماذج من نقائض الفحول ، وإن كانت هذه المادة ، مع ذلك ، أقل بكثير مما في نقائض شعراء الخوارج والشيعة السياسية ؛ إذ من المعروف أن جريراً والفرزدق كانا يعيشان عيشة بدوية ، تقرب من الحياة الجاهلية ، فيها شراب ، وتعصب قبلي ، وتفاخر بالأنساب ، وإن كانا قد اختلطا بالحياة الدينية والعقلية في البصرة^(٢) .

وكان الأخطل نصرانيا فلم تكن العناصر الإسلامية مهيأة له ؛ ولذا كان

(١) يقال : إن الفرزدق كان قد راود امرأة من أهل المدينة عن نفسها فأبى ، وبلغ الخبر عمر بن عبد العزيز ، وكان والياً على المدينة من قبل الوليد بن عبد الملك (تولى عمر المدينة ٨٧ هـ) فأمر بإخراجه منها . انظر : معاهد التنصيص ١ / ١٧ ، وقيل إن الذي نفاه من المدينة مروان بن الحكم في عهد يزيد بن معاوية : انظر : المصدر السابق والأغاني ١٩ / ٢١ وفي شعر جرير أن عمر بن عبد العزيز هو الذي نفاه ، انظر : ديوانه ١٢٨

(٢) انظر : العقد الفريد ٣ / ١٦٩ (بولاق)

جرير يحاول أن يتصدى له من هذه الناحية كثيرا ، ناحية اعتقاده بالمسيحية ، ويشد على خناقه منها ، وقد اعترف جرير باستغلال هذا الجانب في نقائضه مع الأخطل .

قالوا : سأل نوح بن جرير أباه : أيما أشعر ، أنت أم الأخطل ؟ فقال : إني أعنت عليه بتولية سنه ، وكفر من دينه ^(١) .

ومن قوله في ذلك للأخطل ^(٢) :

ولقد جِزَعْتَ إلى النصارى بعدما لَقِيَ الصليب من العذاب مهينا

هل تشهدون من المشاعر مشعراً أو تسمعون من الأذان أذينا؟!

وقد يشتد عليه جرير في ذلك ، ويخرجه أشد الإحراج ، حين يتعرض لعقيدته ، يسخر منها ، ويلعن رهبانها ، ويسفه طقوسها ، ومع ذلك لا يستطيع الأخطل أن يرد بهتجم مقابل لدين جرير ، لأن مغبة الرد حيثثذ وخيمة ، لأن دين جرير دين الدولة ، ودين خلفائها الذين يقربونه في بلاطهم .

من ذلك قول جرير ^(٣) :

لعن الإله من الصليب إلهه واللايسين برانس الرهبان

والذابحين إذا تقارب فُصْحُهُم شهبَ الجلود خسيصة الأثمان

من كل ساجي الطُرف أغصَلْ نابُه في كل قائمة له ظَلَفْان

تغشى الملائكة الكرام وفائنا والتغلبى جَنَازَةُ الشيطان

يُعْطَى كتابَ حسابِه بشماله وكتابنا بأُكفنا الأيمان

أُتْصَدَقُونَ بمارسِرجِسَ وابنه وتكذبون محمدَ الفرقان ؟!

مافي ديار مُقَامِ تغلب مسجد وترى مكاسيرَ حَتَمٍ ودينان

وواضح أن جريرا ينظر في البيت الخامس إلى قوله تعالى ^(٤) : « فأما من أوتى كتابه

ييمينه ، فيقول هاءم أقرعوا كتابيه ، إني ظننت أني مُلاقٍ حسايه ، فهو في عيشة

(١) الأغاني ٧ / ١٦٣ ، وابن سلام ٤٨٧ (المدني) والموشح ١٣٠

(٢) البيت الثاني مع خلاف يسير في الرواية في ديوانه ٥٧٩ والبيتان معا في الكامل للمبرد ٢ / ٨٩ (الأزهرية)

(٣) ديوانه ٥٧٦ شهب الجلود ... الخ يعني الخنازير .

(٤) سورة الحاقة ٦٩ / ١٩ — ٢٥

راضية وأما من أوتى كتابه بشماله ، فيقول ياليتنى لم أوت كتابه ... » .

ومن هذا القبيل أيضا قوله ^(١) :

قبح الإله وجوه تغلب إنها هانت على مراسنا وسبألا
قبح الإله وجوه تغلب كلما شبح الحجيج وكبروا إهلالا
عبدوا الصليب وكذبوا بمحمد وبجبرئيل وكذبوا ميكاالا
ولانكاد تخلو نقيضة لجبر في الأخطل من بعض هذه المعاني .

ولجبر أيضا بعض المعاني الإسلامية في نقائضه مع الفرزدق ، تدل على ثقافة إسلامية ، وبصر ببعض المعاني القرآنية .

من ذلك قوله في الفرزدق ^(٢) :

وشبهت نفسك أشقى ثمود فقالوا ضللت ولم تهتد
فهو يشير إلى قول الله تعالى ^(٣) : « كذبت ثمود بطغواها ، إذا انبعث أشقاها ،
فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ، فكذبوه فعمروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم
فسواها » .

ومنه قوله ^(٤) :

ألا قبح الله الفرزدق كلما أهل مُصلً للصلاة وكبرا
فلا يقربن المروتين ولا الصفاً ولامسجد الله الحرام المُطهراً
فإنك لوتعطى الفرزدق درهماً على دين نصرانية لتنصرأ
فهذا اتهام صريح برقة الدين ، وإهمال الطاعات ، والفرائض الدينية .

والمادة الإسلامية قليلة في نقائض الفرزدق ، وهى على قلتها ذات دلالة على وعيه
بالثقافة الإسلامية ، وبآراء الفقهاء ، وقد أشرنا في مقدمة هذه الدراسة إلى بعض دلائل
هذا الوعي ^(٥) في شعر الفرزدق بعامه ، ونورد هنا نماذج منه في نقائضه مع جبرير بخاصة .

(١) ديوان جبر ٤٥٠ المراسن : الأنوف . السبال : اللحي . شبح الحجيج : رفعوا أيديهم في الدعاء .
الإهلال : رفع الصوت بالتلبية في الحج .

(٢) ديوانه ١٢٨

(٣) سورة الشمس ٩١ / ١١ — ١٤

(٤) دوانه ٢٤٨

(٥) راجع ص ٧٦ من هذه الدراسة .

من ذلك قوله السابق في نقيضته التي قالها وهو بالمدينة:

فَلَسْتُ بِمَأْخُوذٍ بَلْغُوْهُ تَقَوْلُهُ إِذَا لَمْ تَعْمُدْ عَاقِدَاتِ الْعِزَائِمِ
فهذا المعنى مستمد من قول الله تعالى ^(١) : « لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ،
وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ » .

وقوله في القصيدة نفسها ^(٢) :

كَمَا بَعَثَ اللَّهُ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا عَلَى فِتْرَةٍ وَالنَّاسُ مِثْلُ الْبَهَائِمِ
ينظر فيه إلى قوله الله تعالى ^(٣) : « يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى
فِتْرَةٍ مِنَ الرِّسْلِ » .

وله مخاطباً جرير : ^(٤)

فَإِنَّكَ مِنْ هِجَاءِ بَنِي تُمَيْمٍ كَأَهْلِ النَّارِ إِذْ وَجَدُوا الْعَذَابَ
رَجَوْا مِنْ حَرِّهَا أَنْ يَسْتَرْجُوا وَقَدْ كَانَ الصَّدِيدُ لَهُمْ شَرَابًا
وفي جزاء الظالمين ، يقول الحق تبارك وتعالى ^(٥) : « إِنَّا عَتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا ، أَحَاطَ
بِهِمْ سُرَادِقُهَا ، وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ » ، فهذا أصل معنى الفرزدق ، فالثقافة
القرآنية واضحة في هذه المعاني ، وأمثالها في نقائض كل من جرير والفرزدق ، ولانشك في
أنهما كانا يستمدان من القرآن ، فالفرزدق يصرح بما يدل على هذا الاستمداد ؛ في
لاميته الشهيرة ، التي مطلعها ^(٦) :

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا بَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ
حيث يقارن بين عِزِّ بيته ، وهوان بيت جرير وضعفه ، ويشبه في هذا المقام بيت
جرير ببيت العنكبوت ، الذي تحدث عنه القرآن ، في قوله تعالى ^(٧) : « وَإِنْ أَوْهَنَ
الْبُيُوتُ لَبِيتَ الْعَنْكَبُوتُ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » .

(١) سورة المائدة ٥ / ٨٩

(٢) ديوانه ٢ / ٣٩ والناس مثل البهائم : أى في ضلال وضعف عقل .

(٣) سورة المائدة ٥ / ١٩

(٤) ديوانه ١ / ١٠٢

(٥) سورة الكهف ١٨ / ٢٩ ومن معاني المهل : القبح وصدید الميت . انظر القاموس المحيطة (مهل) ٤ /

(٦) ديوانه ٢ / ١٥٥

(٧) سورة العنكبوت ٢٩ / ٤١

قال جرير :

ضربت عليك العنكبوت بنسجها وقصى عليك به الكتاب المنزل

يضاف إلى هذه المصطلحات الإسلامية الكثيرة ، الواردة في النقائض ، وبخاصة نقائض جرير ، الذى كان أكثر تأثراً بروح الإسلام فى سلوكه وشعره ، من الفرزدق . قال ابو عبيدة معمر بن المثنى : كان جرير ديناً عفيفاً ، وكان الفرزدق يقول : مأحوج جرير مع عفافه إلى صلابة شعرى ، وأحوجنى مع شهواتى إلى رقة شعره ، والتقيا يوماً فى موسم الحج بمنى ، فقال الفرزدق لجرير :

فإنك لاقى بالمنازل من منى فخاراً فخبرتنى بمن أنت فإختر

فقال جرير : لبيك اللهم لبيك ^(١) .

ويكفى ماأوردنا دليلاً على أن الثقافة الدينية الإسلامية ، لم تغب — تماماً — عن مادة فن المناقضة بين جرير والفرزدق من جهة ، ونقائض جرير مع الأخطل من جهة أخرى .

ولقد امتدت نقائض جرير والفرزدق فترة طويلة من الزمن بلغت نيفا وأربعين سنة ، ويحددها بعض الباحثين بثلاث وأربعين سنة ^(٢) ، لم يغلب واحد منهما على صاحبه ، ولم يتهاج شاعران فى الجاهلية ، ولا فى الإسلام بمثل ماتهاجيا به ^(٣) ، وأتاح لها هذا الدهر الطويل أن تكون أكثر عدداً ^(٤) ، وأكمل فنا وأتم صنفاً ، من نقائض جرير والأخطل ، التى شغلت فترة أقصر ، قيل : ثلاث وعشرين سنة ^(٥) تقريباً .

— ٦ —

نقائض جرير والأخطل :

إذا كانت المناقضة بين جرير والفرزدق قد بدأت بداية قبلية ، ودانت فى نشأتها

(١) معاهد التنصيص ١ / ٢٣٠ والأغاني ٧ / ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٨ وديوانه ١ / ٣٥١

(٢) هو الأستاذ الشافى فى كتابه : تاريخ النقائض ٢٨٢ وقيل ٤٥ سنة انظره ٣٥٢

(٣) ابن سلام ٣٢٩ (دار المعارف ١٩٥٢ م)

(٤) مجموع نقائض جرير والفرزدق مائة نقيضة ، لجرير منها ثنتان وستون وللفرزدق ثمانية وثلاثون انظر : تاريخ

النقائض ٢٧٠ ومجموع نقائض جرير والأخطل عشرون نقيضة . انظر المصدر نفسه ٣١٥

(٥) المصدر نفسه ٣٥٢

للتعصب القبلي ، ثم أعانتها ، وساعدت على حدوثها ظروف السياسة ، التي اقتضت أن يكون جرير لسان قيس المعادية للسياسة الأموية ، وأن يقف هو وقومه بنو يربوع في اتجاه سياسي مضاد للولاء السياسي لقبيلته الكبرى تميم الأموية الهوى ، إذا كان الأمر كذلك بالنسبة لنشأة المناقضة بين جرير والفرزدق ، فإن ظروف التحزب السياسي كانت من وراء المناقضة لتي استطارت بين جرير والأخطل ؛ إذ من المعلوم أن تغلب كانت في تناقض سياسي مستمر مع قيس ، وانعكس هذا التناقض على الشاعرين ، فجرير يتحدث باسم قيس ، وهو لسانها المدافع عنها في المريد ، وشاعرها ، الذي تلتف حوله ، وتناصره لينصرها ، ولذا ما إن أخذ الحجاج بن يوسف جريراً ، وأراد قتله — لموقفه مع قيس ضد الأمويين — حتى مشت إليه قيس ، وكلموه فيه قائلين : أصلح الله الأمير هو لسان مضر وشاعرها ، هبه لنا ، فوهبه لهم ، وأطلقه ^(١) .

كان هذا موقف جرير السياسي ، أما الأخطل فكان لسان تغلب ، وشاعرها في بلاط الأمويين ، كما كان لسان السياسة الحزبية الأموية ، وشاعر الخلافة الأموية ، كما صرح بذلك عبد الملك بن مروان ^(٢) ؛ لإشادته بفضل بيته الأموي ، ولموقف قومه تغلب المؤيد للأمويين ضد القيسية ؛ إذ كانت تغلب قد بقيت على نصرانيتها ، وكان تحاول أن تحافظ على كيائها المادى والأدبى بين عواصف السياسة الإسلامية في هذا العصر ، ووجدت أن الضمان الوحيد لذلك هو موالاته السياسة الحاكمة ، ونهض شاعرها الأخطل سفيراً لها في قصور الخلافة الأموية ، وحرص السفير التغلبي على أن تظل الهوة واسعة بين السياسة الأموية ، والأهواء القيسية ؛ ولذا نراه غاضباً أشد الغضب لما اتصلت القيسية بعبد الملك ابن مروان ، وأخرجته غضبه عن طوره ، فتجاوز حده مع عبد الملك ، وتوعده بغضب تغلب ، وحذره من القيسية « كل ذلك خشية أن تذلل تغلب بفقدانها حماية القصر ، أو أمام وحدة قيس وأمية » ^(٣) .

فصلة الأخطل بالأمويين صلة سياسية في المقام الأول ، وإذا كان جرير هو المعبر

(١) مروح الذهب ٢ / ١٤٩ (البيعة) .

(٢) راجع ص ٢٤٤ من هذه الدراسة .

(٣) انظر : ديوان الأخطل ٣٦٢ والأغاني ٧ / ١٧٥ .

عن السياسة المعادية لهم ، فقد رأى الأخطل أن من واجبه ، الذى يفرضه ولاؤه السياسى ، أن يتصدى لجرير .

وهكذا قامت النزعات السياسية بدورها فى تأريث الخصومة بين جرير والأخطل ، ولا أدل على ذلك مما حكاه ابن سلام ^(١) من أنه لما بلغ الأخطل تهاجى جرير والفرزدق ، قال لابنه مالك : انحدر إلى العراق حتى تسمع منهما ، وتأتينى بخبرهما ، فلقيهما ثم استمع ، فأتى أباه فقال : جرير يغرف من بحر ، والفرزدق ينحت من صخر ، فقال الأخطل : فجرير أشعرهما ، ثم قال :

إنى قَضَيْتُ قَضَاءَ غَيْرِ ذِي جَنْفٍ لَمَّا سَمِعْتُ وَلَمَّا جَاءَنِ الْخَبْرُ
أَنَ الْفَرَزْدَقِ قَدْ شَالَتْ نَعَامَتُهُ وَعَضَّ حِيَةً مِنْ قَوْمِهِ ذَكَرُ

ومعنى هذا أن الأخطل فضل جريرا على الفرزدق من خلال نظرة فنية خالصة ، وعلى ضوء ملاحظة فنية خالصة أبداها ابنه ، بعد أن استمع إلى الشاعرين فى العراق ، وعاد ليحدث أباه بما سمع .

ولكن السياسة الأموية ماكان ليرضيها هذا الحكم الفنى ، فكان لابد للأخطل من أن يتحول موقفه لصالح هذه السياسة ، فما قرَّبه الأمويون لينصر شاعر أعدائهم ، على الفرزدق شاعر تميم الموالية لهم .

ويتولى بشر بن مروان مهمة هذا التحول ، كما تولى من قبل استمالة الراعى الثميرى القيسى ليناصر الفرزدق ضد جرير ، فأجابه الراعى إلى ذلك ، وهجا جريرا ، مع أن جريرا طلب إلى الراعى أن ينضم إليه ، لأنه يتافع عن قومه القيسيين ^(٢) فحين قدم الأخطل الكوفة عليه ، أوعز إلى شبة بن عقال المجاشعى أن يصل الأخطل ، طالبا منه أن يفضل شاعر مجاشع الفرزدق على جرير ، وأن يسبه ، وسرعان ماتحول الأخطل عن حكمه السابق ، ليمالىء السياسة الأموية ، قائلا ^(٢) :

(١) طبقاته ٤٥١ — ٤٥٣ ، ٤٧٥ .

(٢) النفااض ٤٢٨ حصص : جبيل فى ديار بنى أسد أبان : جبل ضخيم . عفواته : صفو وأكثو الأعطان :

مبارك الإبل يعنى ينالون خير الماء وخير المبارك .

أخسأ كليبُ إليك : إن مجاشعا
 قوم إذا خطرت إليك قرومهم
 وإذا وضعتُ أباك في ميزانهم
 ولقد تقايستم إلى أحسابكم
 فإذا كليب لايساوى دارما
 وإذا وردت الماء كان لدارم
 وأبا الفوراس نهشلا أخوان
 جعلوك بين كلاكلي وجران
 رجحوا وشال أبوك في الميزان
 وجعلتمُ حكماً من الصلتان (١)
 حتى يساوى حصراً بأبان
 عفوائه وسهولة الأعطان

فالأخطل والصلتان العبدى اجتماعا على تفضيل جرير في فن الشعر ، وتأخير في النسب ، وثبت الصلتان على موقفه ، فلم يغيره ، أما الأخطل فعدل عن حكمه ، ولم يثبت على تأييد الشاعر الذى أعجبه فنه ، فما الذى دعاه إلى هذا ؟ إنها السياسة ودواعيها!.

كان من الطبيعى ، وقد حول الأخطل موقفه إلى جانب الفرزدق أن يغضب جرير ، وأن يتهم على الأخطل ، والأخطل تغلب ، فليهج معه قومه تغلب ، ولذا رد حكم الأخطل هذا بقوله (٢) :

ياذا العباءة إن بشرأ قد قضى
 فدعو الحكومة لستم من أهلها
 أن لاتجوز حكومة النشوان
 إن الحكومة فى بنى شيان

(١) هو قثم بن حبية من بنى محارب بن عمرو ثم من عبد القيس ، والصلتان لقب له ، وهو الذى حكم بين جرير والفرزدق — قبل حكومة الأخطل هذه — فقال فى قصيدة له :

أنا الصلتانى الذى قد علمتم
 متى ما يحكم فهو بالحق صانع
 أرى الخطفى بذ الفرزدق شعره
 ولكن خيرا من كليب مجاشع
 فيا شاعراً لاشاعر اليوم مثله
 جرير ولكن فى كليب تواضع
 ألا إنما تحظى كليب بشعرها
 وبالمجد تحظى نهشل والأقارع

انظر : أمالى القالى ٢ / ١٤٣ ومعاهد التنصيص ١ / ٢٨ ومخط الآلى ١ / ٥٣١ ، ٢ / ٧٦٦ والمؤتلف ١٤٥ ، ومعجم الشعراء ٢٢٩ والتذكرة السعدية ١٩٧ ومراجع ترجمته فى هامشها .

(٢) ابن سلام ٤٧٤ وديوانه ٥٧٣ . ياذا العباءة ، غيره بأنه وقع أسيراً وعليه عباءة دنسه ، فلم يعرف وظنوه عبداً من العبيد ، فهو يهجو بذلك ، ويسخر منه ، وانظر : الأغاني ١٠ / ٣ (وفيه : ياذا العباءة) وأيضاً ٧ / ٤١ ، ١٧٦ . الخزر: ضيق فى العين ، وهو مذموم عند العرب ؛ لأنه صفة العجم ، فكأنه نسبهم إليهم وأخرجهم عن العرب وهذا من الهجاء المقذع فى عرف العربى (انظر ابن خلكان ١ / ١٢٩) . الهجان : الكريم الأبيض ، والعرب تجعل البياض كرماً وسيادة .

قتلوا كلَّيْكُمْ بِلِقْحَةِ جَارِهِمْ يَأْخُزَّرَ تَغْلِبَ لِسْتُمْ بِهِجَانِ
كذب الأخطلُ إن قوميَ فيهمُ تاجُ الملوكِ ورايةُ الثُّغَمَانِ

وجلى أن جريرا يفخر هنا بتميم قبيلته الكبرى ، في مقابل هجاء تغلب قبيلة الأخطل ، مما يؤذن بانبعاث العصبية القبلية عنصرا مساعداً لهذه الخصومة السياسية . ثم استطار الهجاء بين الشعاعين ، فرد الأخطل هاجيا جريرا وبني كليب بن يربوع قومه ، وقيس عيلان أعداء تغلب سياسيا وقبليا ، وبذا تعقدت هذه الخصومة ، ونهضت نقائض جرير والأخطل سجلا لكل عناصر الخصومة بينهما ، من سياسية وقبلية .

ومن الطريف أن ابن سلام يورد رواية ^(١) يفهم منها أن الشعاعين تهاجيا بهذا الشعر وكل منهما لم ير الآخر بعد ، فيذكر أن جريرا خرج إلى الشام ، فنزل منزلا لبني تغلب ، فخرج مثلثا عليه ثياب سفر ، فلقيه رجل لا يعرفه ، فقال لجرير ، ممن الرجل ؟ قال : من بني تميم ، قال : أما سمعتَ ما قلتُ لغاوى بني تميم ؟ وأنشده هجاء فيه ، فقال جرير : أما سمعتَ ما قال لك غاوى بني تميم ؟ وأنشده ، ثم عاد الأخطل وعاد جرير في نقضه ، حتى كثر ذلك بينهما ، فقال الأخطل : من أنت ؟ لآخياك الله ، والله لكأنتك جرير ، قال : فأنا جرير ، قال : وأنا الأخطل .

وسواء تهاجى الشعاعان عن بعد ، أم تواجها في مجلس بشر بن مراوان ، الذى أغرى الأخطل بجرير ، وألح عليه أن يحكم بينه وبين الفرزدق في الحكومة السابقة — كما يذكر ابن سلام في رواية أخرى ^(٢) ، نقول : سواء أصبح هذا أو ذاك ، فإنه لا يقدح في منشأ الخصومة بينهما ، وأنها بدأت لدواع سياسية ، ثم تدخلت فيها أسباب العصبية القبلية بين قيس وتغلب ^(٣) .

الذى يهنا هنا أن هذه الخصومة السياسية القبلية لم تنفرد غرضا للنقائض بين الشعاعين طوال أعوامها التى أربت على العشرين ، بل زحزحتها وتقدمت عليها — بعد فترة النشأة — خصومة أخرى ملاحظ فيها جانب الفن الشعرى ، والقصد إلى التفوق فيه ،

(١) طبقاته ٤٨٨

(٢) طبقاته ٤٧٤

(٣) فصلنا أسباب هذه الخصومة ص ٢٥٠ — ٢٥٣ من هذه الدراسة .

فخلال الفترة ما بين سنة ٧٢ هـ ، وهى السنة التى بدأت فيها المهاجاة بين جرير والأخطل ^(١) ، وسنة ٩٥ هـ ، وهى تاريخ وفاة الأخطل ، كان يتبارى فى ميدان المناقضة الفحول الثلاثة ، جرير والفرزدق والأخطل ، يتعاون الأخيران ضد الأول منهما .

ونحسب أن أيام عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ) كانت ذروة هذه المناطحة الفنية ، وخاصة فيما يتصل بموضوعنا هنا ، وهو المناقضة بين جرير والفرزدق والأخطل ، ففى هذه الأيام اشتد هيب الصراع السياسى ، واحتدم تنافس العصبية ، والأهم من ذلك أن الأدب صار مشغلة الناس فى مجالسهم العامة والخاصة ، وفى مجالس الخليفة الأديب الناقد عبد الملك ، فحمى وطيس النقائض ، وشغل نقاد العصر بتداولها ، والنظر فيها ، ودراستها ، والحكم عن مبدعها ، بل شغل الفحول أنفسهم بآراء هؤلاء النقاد فيهم ، واهتموا بهذه الآراء ، ولانبعد إذا قلنا : إن حركة النقد حول النقائض كانت من العوامل المقدمة فى إلهاب هذا الصراع الفنى بين الفحول .

فالفرزدق يعتز بشعره ، ويعلو بشاعريته على صاحبه ، ويجعل الفخر بهذه الشاعرية عنصرا بارزا فى مناقضته مع جرير ، ويستفرغ فى ذلك إحدى عشر بيتا ^(٢) من نقيضته التى مطلعها :

إن الذى سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعزوا وأطول

يعدد فيها فحول الشعراء الجاهليين الذين ورث عنهم الشعر .

ويتحدى جريرا أن يأتى بمثل أبيات له فى نقائضه معه ، لقبها بألقاب مأخوذة من بعض معانيها ، فيقول ^(٣) :

غلبتك بالمُفَقِّئ والمُعْنَى وبِيت المُحْتَبَى والخافقات

ولجرير مثل هذا الاعتزاز بشعره ، ومثل هذا الاهتمام برأى النقاد فيه ، وقد مر بنا قوله ^(٤) :

(١) انظر : تاريخ النقائض ٣٥٢

(٢) انظرها فى ديوانه ٢ / ١٥٩ — ١٦٠

(٣) ديوانه ١ / ١١٠

(٤) راجع ٣٠٢ من هذه الدراسة

في ليلتين إذا حدوث قصيدة بلغت عمان وطوىء الأجيال
ومثل هذه الدعوى ادعاها الفرزدق لشعره أيضا (١) .

وينظر جرير إلى شعره وشعر صاحبيه ، ويهتم بالحكم الفنى على هذا الشعر ،
ويفضل نفسه ، قائلا : نبعة الشعر الفرزدق ، والأخطل يجيد صفة الملوك ، ويصيب نعت
الخمر ، وأنا نغرت الشعر نغرا (٢) . ويرد جرير على سائل سأله : هل تعلم اليوم أحدا يرمى
معك ؟ قائلا : لا ، والله ما أعرف نابجا إلا وقد استكان ، ولانا هشا إلا وقد انجحر ،
إلا جريرا (٣) .

وقال جرير لرجل من طهية : أيما أشعر ، أنا أم الفرزدق ؟ فقال له : أنت عند
العامة ، والفرزدق عند العلماء ، فصاح جرير : أنا أبو حزة !! غلبته ورب الكعبة ، والله
ما في كل مائة رجل عالم واحد .

هذه الروايات ناطقة بمدى حرص هؤلاء الفحول على رواج شعرهم عند جمهور
الناس ، وإلا ماصاح جرير هذه الصيحة الجزلة ، عندما أخبره هذا الطهوي بأن شعره
مقدم على شعر صاحبه عند العامة .

وهاهو ذا الأخطل جذلان فرحا حين فتح جرير له باب القول ، أملا في الغلبة ،
وأن يحكم له بأنه تفوق على صاحبه جرير .

يروى أن جريرا لما قال للأخطل (٤) :

إذا أخذت قيس عليك وخندف بأقطارها لم تذر من أين تسرح ؟

(١) انظر ديوانه ١ / ١١٠

(٢) الأغاني ٧ / ١٦٤ والعمدة ١ / ٦١ وابن سلام ٦٥ (المدنى)

(٣) الأغاني ٧ / ١٦٥

(٤) ابن سلام ٤٨٦ — ٤٨٧ (المدنى)

فلما أنشدته الأخطلُ قال : لامن أئِنَّ !! سَدَّ اللهُ على الدنيا !! حتى أنشد قوله:
 فمألكَ في نَجْدٍ حَصَاةً تعدُّها ومألكَ في غُورِي نِهامَةً أُبْطَحُ
 فقال الأخطلُ : لأبالي والله أن لا يكون ، فُتِحَ ، والصَّليبُ ، لِيَ القولُ ، ثم قال :
 ولكن لنا بُرُّ العراقِ ويحُوهُ وحيث يُرى القُرُفورُ في الماءِ يسبحُ
 وجريِرُ جذلانَ أيضا بتفوقه على الأخطلِ ، لأنه ناقضه ، وقد كبرت سنة ، أو على
 حد قوله : « أدركته وله ناب واحد ، ولو أدركت له ناين لأكلني » (١) .

والروايات عديدة في الدلالة على إدراك هؤلاء الفحول مكائهم الفنية ،
 وحرصهم ، فيما بينهم ، على المناقضة ، وعلى المنافسة فيها ، وسعادة كل منهم حين يذكر
 متفوقا في معنى ، أو في صورة أو في مناحي الكلام على صاحبه ، وهذا ما يؤكد فردية
 هذه الخصومة ، وأنها كانت في أوج احتدامها منافسة أدبية ، قبل أن تكون خصومة
 سياسية ، أو قبلية .

وأول ما يلاحظ على نقائض جريِر والأخطل طولها ، وهي في هذا تتفق مع نقائض
 جريِر والفرزدق .

ويمثل طول النقائض على أيدي هؤلاء الفحول تطورا جديداً لفنّي الفخر والهجاء
 في العصر الأموي ؛ إذ كان الغالب عليهما قبل هذا العصر ، وعند كثيرين من شعرائه ،
 أن يكونا مقطّعات ، أو قصائد قصيرة .

كما أن هذين الفنين لم يعودا يتسمان بالعجلة والعفوية والبساطة ، بل صارا فنين
 معقدين يقومان على البحث والدرس ، وبخاصة في تاريخ القبائل وأنسابها وأيامها .

وملاحظ آخر يقف عليه من يقرأ في نقائض جريِر والأخطل ، يتمثل في غلبة المادة
 القبلية على ماعداها من العناصر السياسية ، أو الشخصية ، وبخاصة في نقائض جريِر ،
 التي كان يجمع فيها بين بنى كليب ، وقيس ، وتميم في مقام الفخر ، ولكل هؤلاء أيام
 وأنساب ، وأجناد ، وبين بنى تغلب وبنى مجاشع في مقام الهجاء ، إذ كان كثيرا ما يتصدى
 في نقائضه مع الأخطل إلى الفرزدق أيضا ، باعتبارهما ، حليفين ضده .

والذى قلناه فى تفسير هذه المادة القبلية فى نقائض جرير والفرزدق ، وأنها لاتقدح فى فردية هذه النقائض ، وهدفها الأدبى ، يمكن أن نقوله هنا فى الغرض نفسه (١) .

ونلاحظ أيضا على نقائض جرير والأخطل ، قرب الشبه بينهما وبين نقائض جرير والفرزدق ، من حيث الطابع الأسلوبى لكل منهما .

فظاهرة التبع لمعانى الشاعر الأول ، والنظر فيها ، ومحاولة هدمها ، والدقة فى هذا التبع ، نلمحها أيضا فى نقائض جرير والأخطل ، حتى فى الأمور الشخصية الدقيقة ، وسنلاحظ هذا فيما ستقدمه من دراسة لفتنهما فى النقض على ضوء نماذج من نقائضهما ، ونسوق هنا مثلا لدقة هذا التبع ، وحرص كل منهما على الوقوف على دقائق حياة صاحبه ، ليستعين بها فى موقفه منه .

لما أغار الجحافُ بن حَكيم السُّلَمى القيسى على البشر ، وهى منازل تغلب ، وأسرف فى القتل فيهم ، استخذى الأخطل وقال (٢) :

لقد أوقع الجحافُ بالبشرِ وقعةً إلى الله منها المُشْتَكى والمعسولُ

فوثب عليه جرير ، ونقض ما قال ، وكان من قوله فى هذا :

بكى دَوْبِلٌ لا يرقئُ الله دمعَه ألا إنما يبكى من الذلِّ دَوْبِلُ

فلما سمع الأخطل هذا البيت قال : « والله ماسمتنى أُمى دَوْبِلًا إلا يوما واحدا ، فمن أين سقط إلى الخبيث !! » (٣) .

والميل إلى الإقذاع والفحش والإسفاف فى الهجاء ، ومحاولة السخرية ، اتجه يجمع بين نقائض الفحول جميعا ، الغرض منه ، إرضاء هوى الجماهير إلى السخرية والضحك ، وإسقاط قدر الخصم وقبيله عندها ، بما يلبسهما كل منهما من الخزى والعار .

ولكننا نبادر إلى القول بأن الأخطل كان أقل إفحاشا فى هجائه من زميله ، ومن جرير خاصة ، ذلك أن الأخطل ضمَّن بعض نقائضه مع جرير مديحا لبعض خلفاء بنى

(١) راجع ص ٣٠٥ — ٣٣١ من هذه الدراسة .

(٢) ابن سلام ٤٧٩ — ٤٨١ (المدنى)

(٣) المصدر السابق ٤٨١

أمية ، ولم يكن من اللائق به — وهو شاعر البلاط الأموي — أن يخلط ذلك بكثير من المعاني الفاحشة ، ثم إن الأخطل نصراني ، وهو لنصرانيته لا يجد الحرية في تناول أعراض المسلمين في هجائه ، وإلا أخرج الخلفاء أمام الرعية المسلمة ، وقد نستطيع أن نضيف إلى ذلك عاملاً يرجع إلى شخصية الأخطل ، فقد كان معروفاً بالوقار والتعقل — ولعل ذلك لكبر سنه — فلم يكن له في باب البذاءة باع طويل .

ومع ذلك فإن الأخطل لم يتعد كثيراً عن نزعة السخرية والتهكم بجرير وأبيه ، رداً على تناول جرير لأم الأخطل ونساء قومه بفاحش القول ، كلما هيئت له الفرصة لذلك ؛ حتى لا يخلو المجال لجرير في هذا الميدان — على الأقل .

ولكل منهما من الصور الساخرة بصاحبه وقومه ، ماطر شهرته في العالم العربي قديماً وحديثاً .

من ذلك قول الأخطل في هجاء بني كليب بن يربوع قوم جرير ^(١) :

قوم إذا استَبَحَّ الأضيافُ كلبهم قالوا لأُمهم بولى على النار
فتمسكُ البولُ بُخلًا لاتجود به ولا تيولُ لهم إلا بمقدار

ولعل من أقوى ما علق به على هذا البيت وأجمعه وأدقه ، قول ابن رشيق : ^(٢) قد جمع ضرورياً من الهجاء ، فسبهم إلى البخل بوقود النار ؛ لكلا يبتدى بها الضيفان ، ثم البخل بإيقادها إلى السائرين والسابلة ، ورامهم بالبخل بالخطب ، وأخبر عن قلة النار وأن بولة تطفئها ، وجعلها بولة عجوز ، وهى أقل من بولة الشابة ، ووصفهم بامتهان أمهم ، وابتذالها في هذا الحال يدل على العقوق والاستخفاف ، وعلى أنه لاختادم لهم ، وأخبر في أضعاف ذلك ببخلهم بالماء .

ولم يكتف الأخطل بهذه الصورة الموهلة في السخرية ، بل سب هذه الأم سباً قبيحاً في بيت بعد هذين البيتين .

ورد جرير بنقيض هذا المعنى ، فافتخر بقومه ، وبنيرانهم ، وسب أم الأخطل ،

(١) ديوانه ٢٢٥ والعمدة ١٤٢/٢ وانظر : ديوان المعاني ١٧٥/١ وبعد هذين البيتين بيت يتضمن صورة

غاية في الفحش .

(٢) العمدة ١٤٢/٢ .

وسخر منها سخرية مرة : (١) :

قومي تميم هم القوم الذين هم ينفون تغلب عن بُخْبُوحة الدار
والحى قيس بأعلى المجد منزلة فاستكروا من فروع زندها وارى
قومي فأصلهم أصلى وفرعهم فرعى وعقدهم عقدى وإمرارى
ما أوقد الناس من نيران مكرمة إلا اصطَلينا وكنا موقدى النار

فالنقض فى الآيات الثلاثة الأولى مبنى على اختلاف التفسير لمعنى القوم ،
فالأخطل قصد بقوله : « قوم » بنى كليب بن يربوع رهط جرير خاصة ، فجاء جرير ،
وأبان أن قومه تميم وقيس ، ومثلهما لايرمى بالبخل بالنار ، والخوف من طوارق الضيفان ،
أما فى البيت الأخير فالنقض بضد المعنى .

وكان جرير يحرص من جانبه على أن يصب على الأخطل وقومه أقذع الهجاء ،
وأشده لذعا وتهكما ، فقد تعمد — غالبا — أن يتناول نساء تغلب ، والغا فى أعراضهن ،
بنسبتهم إلى أنواع الفحش ، فإذا عدل عن ذلك فإلى دين الأخطل وقومه ، وإلى أخلاقهم
وخصائصهم ، ومن ذلك صورته المشهورة فى بنى تغلب (٢) :

لانتظن لحولة فى تغلب فالزنج أكرم منهم أحوالا
والتغلبى إذا تنحج للقرى حاك استه وتمثل الأمثالا

قالوا : لم يبق سقاء ولا أمة إلا رواه ، شهد بهذا الأخطل نفسه ، قال (٣) : قلت
بيتا ما أعلم أحدا قال أهجى منه ، وهو : قوم إذا استنج ... (البيت) فلم يروه إلا
حكماء أهل الشعر ، وقال جرير : والتغلبى إذا تنحج ... (البيت) فلم يبق سفلة
ولا أمثالها إلا روه .

وكان جرير فخورا بهذه الصورة التى وسم بها بنى تغلب ؛ إذ قال بعد أن أنشد
البيت الثانى : « لو أن الأفاعى نهشت أستاذهم ماحكوها » (٤) . وقال : « قد قلت بيتا

(١) المصدر السابق ٤٨١ .

(٢) ديوانه ٢٢٥ والعمدة ١٤٢/٢ وانظر : ديوان المعاني ١٧٥/١ وبعد هذين البيتين بيت يتضمن صورة
غاية فى الفحش .

(٣) العمدة ١٤٢ / ٢ .

(٤) ديوانه ٣١١ — ٣١٣ .

فيهم لو طعن أحد — منهم — في استه لم يحكها ^(١) .

وحق لجرير أن يهتز طرباً ، إذ الصورة قبيحة ، لاتقل قبحا عن صورة الأخطل في بيته السابق ، ولكنها مع ذلك مضحكة ، تحمل كل ما أراد جرير بصاحبه وقبيلته ، وهذه الصورة وأمثالها إنما كان يراد بها اجتذاب الجماهير ، وتهليلها للشاعر .

ومن طريف مايروى في التعليق على قول جرير هذا في تغلب ، أن شاعراً زنجياً يدعى رياح بن سنيح — وكان فصيحاً — سمع مذكروه جرير ، في مقام السخرية ، عن الزنج ، فغضب ، وأخذ يعدد أكثر من ولده الزنج من أشرف العرب في قصيدة ، يقول فيها مخاطباً جريراً ^(٢) :

وَالزَّنْجُ لو لاقيتهم في صفِّهم لاقيتَ ثمَّ جَحَاجِحاً أَبطالاً
مابال كلبِ بنى كليبِ سبَّهم أن لم يوازن حاجباً وعقلاً
إن أمراءاً جعل المراغة وابنها مثل الفرزدق حائرٌ قد فالاً

وكما قابل جرير سخريه الأخطل بمثلها ، قابل معانيه الفاحشة ، بمعانٍ أفحش منها ، وأوغل في الإسفاف والبذاءة .

وله في أم الأخطل ونساء تغلب صور ، بعضها لا يروى ، فمما قال في أمه ، وهو أهون ما قال فيها ^(٣) :

أَفْخَرُ عَبْدُ أُمِّةٍ تَغْلِيَّةٌ قَدْ اخْضَرَّ مِنْ أَكْلِ الْخَنَانِيصِ نَابُهَا
غَلِيظَةُ جِلْدِ الْمَنْخَرَيْنِ مُصِنَّةٌ عَلَى أَنْفِ خَنْزِيرٍ يُشَدُّ نَقَابُهَا
وله في نساء بنى تغلب : ^(٤)

(١) ديوان المعاني ١ / ١٧١

(٢) الكامل للمبرد ٢ / ٢٢٦ (الأرهمية) وانظر : نقائض جرير والأخطل ٨٨ وسائل الجاحظ ١ / ١٩٠ وفيه أن الشعر لسنيح بن رياح . وقوله « حاجباً وعقلاً » يريد : حاجب بن زرارة من بنى عبد الله بن دارم ، وعقال جد الفرزدق ، واسمه همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال ، من بنى بجاشع بن دارم ، الجحاجع : جمع جحجاج وهو : السيد السريع إلى المكارم ، المراغة : أنثى الحمار : وكان مناقضو جرير يطلقون هذا الوصف على أم جرير وأكثر منه الفرزدق في نقائضه معه . قال : أخطأ وضعف رأيه

(٣) ديوانه ٥٣ الخنانيص : جمع خنوص : ولد الخنزير

(٤) ديوانه ١٥٧

ألم تر أن التغليية لم تبث حصاناً ولا جذلان من يستفيدها
وقوله (١) :

والتغليية في ثنيى عباءتها ... وفي باع ابنها قصر
من كل مخضرة الأنياب قعرها لحم الخنازير يجرى فوقه السكر
ويرمى بنى تغلب بأنهم إذا سكروا نزوا على بناتهم (٢) ، ولا نستقصي هنا ، فلقد
يخيل إلينا أن جريرا استوفى هذا الباب من السفاهة في معانيه وصوره ، التي اسبغها على
نساء تغلب (٣)

وما كان للأخطل أن يبارى جريرا في مضمار السفاهة ، فهو المجلى فيه — على
حسن إسلامه — فقد هاجاه من الشعراء أكثر مما اجتمع على غيره منهم ، من قبله ، وفي
زمانه ، ومن بعده ، ونالوا منه ، وعيرووه بفقره ، وهوان حسبه ، وضعة والده ، وقلة جوده ،
مما ضرَّاه بالهجاء ، ودفعه إلى الإكثار منه ، والافتنان فيه ، فثارت نفسه ، وأخذ ينشر
مخازى خصومه ، فإن لم يجد اختلقها اختلاقا ، في صور ساخرة ، أو بديهة ، انتقاما
لنفسه ، وتنفيساً عن كوامن غيظه ، واستجابة لمركب النقص الذي أصابه ، فالفحش في
هجائه مسألة فنية اضطر إليها دون أن يكون في سلوكه فاجرا أو متفحشا أو فاسقا وغلب
عليه هذا اللون ، وبه اشتهر ، فلم ينافسه فيه منافس .

وكان جرير بلاء على من صَبَّ عليه ، كما يقول الأخطل (٤) ، ولذا كان الفرزدق
يتصور ويجزع إذا أنشد لجرير ، خوفا من هجائه (٥) .

أما الفرزدق فقد ذهب بالفخر ، لماهيء له من طبع قوى ، وحسب ضخم ،
يشقق منه المعاني ، وغنى عريض ، ومفاخر شتى ، استمد منها عتادا مكينا وأسلوبا جزلا ،
كان سمته في النقائض ، نقرأ في فخره — مثلا مخاطبا جريرا ، ماثلا فمه بالفخر (٦) :

(١) ديوان ٢٦٢ قعرها : عظم جوفها . السكر : يبرد الخمر .

(٢) ديوانه ٤٥٠

(٣) راجع مثلا ديوانه ٥٧٧ ، ٥٧٨

(٤) ابن سلام ٣٧٥ (المدق)

(٥) المصدر السابق ٣٧٧

(٦) ديوانه ٢ / ٣٠٥ — ٣٠٦ القمقام : البحر العظيم .

وحسبت بحر بنى كليب مُصدِّرا
 في حومة غمرت أباك بحورها
 فاسأل بنا وبكم إذا لاقيتُم
 جُشَمَ الأرقام أو بنى همَام
 منا الذى جمع الملوك وبينهم
 حربٌ يُشَبَّ سعيها بضرام
 وأنى ابن صَعَصَعَة بن لَيْلٍ غالبٌ
 غَلَبَ الملوك ورهطه أعمامى ...
 ولهذا قال مروان بن أبى حفصة ^(١) ، موازنا بين الفرزدق وجريز ^(٢) :

ذهب الفرزدق بالفخار وإنما
 حُلُو الكلام ومُرُّه الجريز
 ولقد هجا فأمض أخطل تغلب
 وحوى اللهى بمدحه المشهور

وأما الأخطل ، فلم يكن مثلهما لافى هجاء ، ولا فى فخر ^(٣) ، وإنما كان يجيد نعت
 الملوك ، ويصيب صفة الحمر ^(٤) ، أما الأولى فلكونه شاعر البلاط الأموى ، وأما الأخرى
 فلأن الحمر كانت شرابه ، وشراب قومه النصارى .

أضف إلى ذلك أن الأخطل كان مضيقا عليه فى هجاء جريز ، فجريز شاعر
 مضرى ومضر أصل قريش ، قبيلة النبوة ، ومنها بيت الخلافة ، الذى يحمى الأخطل
 وقومه ، فلم يستطع الأخطل أن يهجو جريزا من هذين الجانبين ، فى حين فخر عليه
 جريز بمضريته ، وبالنبوة ، والخلافة ، وهجاء بنصرانيتها ، وحرمان قومه مكارم السلطان
 والإسلام .

فإذا تركنا باب السفاهة فى نقائض جريز والأخطل جانبا ، وانتقلنا إلى الهجاء
 الجاد ، الذى يدور حول سلب المكارم ، والفضائل ، وجدنا المعانى تتشابه عند كل من
 الشعارين ، نأخذ مثلا قول الأخطل فى بنى كليب ^(٥) :

(١) شاعر عباس من الموالى ، كان مروان بن الحكم والى المدينة قدا اعتق أباه فصار مولى له ، وهو محافظ
 المذهب ، تعصب للعباسية ضد العلوية ، كما تعصب الكميت للهاشمية ضد الأموية . انظر ترجمته فى : الأغاني ٩ / ٣٤
 والشعر والشعراء ٢٩٥

(٢) ابن سلام ٣٧٨ (المدنى)

(٣) المصدر السابق ٤٥٦

(٤) المصدر نفسه ٤٨٨ والعمدة ١ / ٦١

(٥) نقائض جريز والأخطل ١٤٨

أما كليب بن يربوع فليس لهم عند التفارط إيراد ولا صدر
مُخْلَفُونَ ويقضى الناس أمرهم وهم بغيب وفي عمياء ماشعروا
مُلْطَمُونَ بأعقار الحياض فما ينفلك من دارمى فيهم أثر
على العيارات هذاجون قد بلغت نجران أو بلغت سوء أثم هَجَرُ
الآكلون خبيث الزاد وحدهم والسائلون بظهر الغيب ما الخبر ؟

إنها صورة لقوم بلغوا من المذلة ، وهوان الشان ، بحيث يتولى الناس عنهم تدبير
أمورهم ، لا يشاركون في شيء ، ولا يتدبون لشيء ، فتخطاهم بذلك مقياس الشرف ، في
العرف العربى القديم ، المعبر عنه في قول شاعرهم :

إذا أنت لم تنفع فضّر فإنما يُرجى الفتى كيما يضّر وينفع

فهم صاغرون لذل بنى دارم ، أخساء يدبون بالليل على ظهور الحمير للسرقة ، أو
لانتهاك الأعراض ، عرفوا بذلك في كل الآفاق ، طعامهم خبيث ، وكلهم بخيل ،
لا ذكر لهم ، ولا حضور في مجالس القوم ونواديهم .

وهذا الهجاء مؤلم موجع ، فما كان عربى ، أو قوم من العرب ، ليطبقوا أن يكونوا
على هذه الصورة .

وجاء جرير فقلب معانى الأخطل هجاء عليه وعلى قومه ، وقابل الهجاء بهجاء ،
حتى ليأخذ ألفاظ الأخطل كما هى ، ويغير فقط جهة الهجاء ، فإذا قال الأخطل :
« والسائلون بظهر الغيب ما الخبر » ، قال جرير فى بنى تغلب (١) :

الظاعنون على العمياء إن ظعنوا والسائلون بظهر الغيب ما الخبر

كما يأخذ بيت الأخطل الأخير بنصه ويحور فيه ليرده عليه ، فيقول :

والآكلون خبيث الزاد وحدهم والنازلون إذا وارا هم الخمر

ثم يمسك بخناق الأخطل من جهة دينه — وقلما خلت نقيضه له فى الأخطل من
هذا — فهو وقومه أهل رجس ، صلاتهم بقرع النواقيس لا بالأذان ، ولا يعرفون شيئا عن
القرآن :

رجس يكون إذا صلوا أذانهم قرع النواقيس لا يدرون ما السور

ويقابل هجاءه بالأيام بهجاء بأيام كانت على تغلب ، وبخاصة لقيس وتميم ،
ونقائضهما من هذه الجهة أيضا تشبه نقائض جرير والفرزدق .

وقل مثل هذا في باب الفخر ، وإن ضيق على الأخطل فيه ، بينما كان جرير
يتحرك في ساحة واسعة ، سعة أمجاد قيس وتميم .

ورما كان الجديد في نقائض جرير والأخطل هو عنصر الهجاء بالدين من جانب
جرير ، وهو عنصر أكثر منه جرير وألح عليه في نقائضه معه ، وفيه تردد معاني الكفر
بالإسلام ، وتكذيب النبي ، وعبادة الصليب ، وأكل الخنزير ، وقرع النواقيس ، وشرب
الخمر ، ودفع الجزية ، وقد قدمنا له أبياتا تتضمن بعض هذه المعاني ، والتي منها :

عبدوا الصليب وكذبوا بمحمد وبجبرئيل وكذبوا ميكالا

ونضيف هنا قوله (١) :

تَلَقَّى الْأَخْطَلُ فِي رَكْبٍ مَطَارُفُهُمْ	بُرَّقَ الْعَبَاءُ مَا حَجَّجُوا وَمَا اعْتَمَرُوا
الضاحكين إلى الخنزير شهوته	يا قُبْحَتِ تِلْكَ أَفْوَاهَا إِذَا اكْتَشَرُوا
والمُفْرِعين على الخنزير ميسرهم	بِئْسَ الْجَزُورُ وَبِئْسَ الْقَوْمُ إِذْ يَسْرُوا
ما كان يُرضى رسول الله دينهم	وَالطَّيِّبَانِ أَبُو بَكْرٍ وَلَا عُمَرُ
جاء الرسول بدين الحق فانتكثوا	وَهَلْ يَضِيرُ رَسُولَ اللَّهِ أَنْ كَفَرُوا ؟!

وناحية الدين هذه في هجاء الأخطل وبني تغلب ، كانت توقع الأخطل في
الخرج ، فلجرير أن يقول في دينه ماشاء ، أما هو فلا بد أن يقف مكتوف الأيدي ،
عاجزا عن دفع ما يقول جرير ، محظورا عليه أن يقابل قول خصمه في دينه ، بقول في دين
خصمه ، لأنه إن فعل جرّ على نفسه وعلى قومه النصارى مالا يحمدون له عقبى .

— ٧ —

تعقيب

أ : ملاحج التجديد في النقائض الأموية .

ب : أهميتها التاريخية واللغوية والأدبية .

— أ —

تبرز الدراسة السابقة لفن المناقضة بين شعراء العصر الأموي ، تتقدمهم العبقريات الثلاث : جرير والفرزدق والأخطل ، ألوانا من التطور والتجديد ، حظى بها هذا الفن على أيديهم :

١ — فقد طولت قصائده — وبخاصة في نقائض الفحول — بعد أن كانت مقطّعات ، أو قصائد قصيرة غالبا ، وأصبحت تلقى على مسامع الجماهير ، بصفة دائمة ، وعلى أسلوب منظم ، فيقف الشاعر في المريد ليلقى قصيدته ، أو يرسلها إليها ؛ لتتشدد فيه ، والناس من حوله ، أو من حول المنشد ، يهللون ويصفقون ، ثم يتحركون إلى الآخر .

وهكذا يشتد التنافس ، ومع التنافس ينضج الفن ويُجود ، فلأول مرة ، ، في هذا العصر ، يتخذ الهجاء والفخر وسيلتين للتسلية ، وإمتاع عامة الناس وخاصتهم ، ولم يكن الحال كذلك قبل العصر الأموي .

فالشاعر الجاهلي لم يكن يهجو أو يفخر ليضحك جمهورا ، أو ليقطع له وقت فراغة بمتعة فنية ، ولم يكن يفعل ذلك أمام خصمه مباشرة ، أو على مقربة من سامعه ، كما أن هذا الفن لم يتخذ حرفة ، أو كالحرفة ، يوما على هذا النحو الذي ظهر في هذا العصر .

٢ — كان هذا الفن بريئا — غالبا — من الفحش والسباب والبذاءة ، وانتهاك الأعراض على ألسنة الجاهليين ، وشعراء المناقضة في صدر الإسلام ، بينما خاض في ذلك كله بألسنة الأمويين بعامه ، وجرير والفرزدق بخاصة ^(١) .

(١) قالوا : كان الأخطل خبيث الهجاء ، ولكنه كان يعف عن الفحش ، وكان يقول : ماهجوت أحدا قط بما تسنحى العذراء أن تشده أباهها (الأغاني ٧ / ١٧٠) وقد بان لنا — مما مر — أن هذا القول ليس على إطلاقه .

وقد يبدو لنا جرير أو الفرزدق أحيانا ، وقد استحال شخصا من سفلة الناس ، وقف على قارة الطريق ، وأطلق لسانه بالسباب ، دون أن يستشعر حرجا ، أو يراعى ذوقا !!

وهل نجد في الهجاء الجاهلى مثل قول الفرزدق — مثلا — لجرير ، على ماينهما من تعاطف :

تصاغرت بالبن الكلب لما رأيته مع الشمس في صعبٍ عزيزٍ معاقله ^(١)
أو هذا القول المزدحم بنباح الكلاب ^(٢) :

فإنك كلب من كليبٍ لكلبةٍ غدتك كليب في خبيث المطاعم
أو نظيره الذى يصور صاحبه حمارا من سلالة الحمير ^(٣) :

ياابن الحمارة للحمار وإنما تلد الحمارة والحمار حمارا

ويتجاوز الأمر السباب إلى بدىء اللفظ ، وفاحش المعنى ، لا يستحى الشاعر فيه من التصريح بما يخذش الحياء ، ويهتك الذوق العام ، على عكس النقائص الجاهلية ، التى لم تكن الحرة العفيفة لتخجل من روايتها ، أو الاشتراك فيها ^(٤) ، والتى كانت ترى الإقذاع فى الهجاء لايغنى أكثر من تفضيل شخص على آخر ، أو قبيل على قبيل .

بذلك كانت السفاهة فى النقائص الأموية أوغل فى الإسفاف ، وأجراً على الغلو فى هتك الأعراض ^(٥) ، والتشنيع بالخمازى ، حقا ، أو تخيلاً ، أو اختراعا ، حتى لتعد النقائص من هذه الوجهة خطوة جريئة ، وأمرأ غريباً ، فى ظل الإسلام ، لم تر الجاهلية مثله .

وقد يقال : كيف تسامح الخلق العربى المعروف بالغيرة الشديدة على العرض ، فى

(١) ديوانه ٢ / ١٧٢

(٢) المصدر نفسه ٢ / ٣٢١

(٣) ديوان الفرزدق ١ / ٣٥٢

(٤) انظر : تاريخ النقائص ١١٢

(٥) لجرير صورة فى أخت الفرزدق جعثن ليس فوقها فوق فى انحطاط الهجاء ، واطراح الحياء فى ديوانه ٨٥ — ٨٦ ، وأخرى فى البيعت مع أمه ، ألفاظها فى غاية البذاءة ٢٨٢ ومثلها فى الفرزدق مع أمه ٣٠٧

مثل هذه الصور من الهجاء التي تنتهك عليه حَرَمَ محافظته ، دون أن يثور عليها ، ويعمل السيفوف في رقاب مدعيها ؟

الإجابة عند أهل العصر أنفسهم ، الذين أدركوا تمام الإدراك أن الأمر أمر منافسة أدبية ، لاتأخذ هذه المعاني مأخذ الجد ، وفهموا كما فهم المتناقضون أنفسهم أن الأعراض بريئة من هذه الدعاوى المتخيلة ، وإلا لكان أقل القليل من ذلك كافيا لإزاحة الدماء ، وفي مقدمتها دماء هؤلاء الشعراء .

وفي هذا يقول الناقد المعاصر الدكتور عبد القادر القبط ^(١) : « كان الأمر يبدو كأنه مباراة شعبية في الفكاهة والسخرية ، على الطريقة التي كنا نشهدها منذ سنين ، بين بعض من عرفوا بالقدره على ابتكار الدعابة ، وصياغتها ، معتمدين في ذلك على بعض معان أساسية ، تتصل بالجنس في كثير من الأحيان ، دون أن يحس أحد منهم بأدنى حرج أو إهانة ، أو يكون لذلك أدنى أثر في علاقة المتبارزين ، وماقد يكون بينهما من صداقة » ، واستدل على صواب رأيه هذا بما سبق أن ذكرناه من علاقة التعاطف بين جرير والفرزدق ^(٢) ، الذي ظهر في رثاء جرير إياه ، بقوله :

لعمري لقد أشجى تميما وهذها على نكبات الدهر موت الفرزدق

ولعل هذا الميل إلى السخرية والإفحاش في النقائض الأموية ، هو الذي وجه شعراء هذا الفن إلى اصطناع المبالغة أسلوبا في النقض ، وهذا الأسلوب حرك خيال الشاعر منهم لابتكار الصور ، واختراع المعاني ، والوقائع ، والحوادث ، دون أن يأبه بما يرتكبه في سبيل ذلك من كذب وهتان .

٣ — وتمتاز نقائض الفحول الأمويين — بخاصة — بالتأثر بأسلوب المناظرة والملاحاة في المعاني ، والعناية بالاحتجاج لتأييد وجهة النظر ، وقلب فخر الخصم هجاء ، ولاشك أن هذا راجع لاختلاط شعرائها ، بأوساط العلماء والمتكلمين في العراق ، وفي مجالس الخلفاء بالشام ، وفي دراستنا السابقة نماذج من نقائضهم ما يبرز هذه الظاهرة ويؤكددها .

(١) في الشعر الإسلامي والأموي ٣٥٢ .

(٢) راجع ص ٢٩٦ — ٢٩٧ من هذه الدراسة .

ومع أن النقائض الجاهلية ، والإسلامية الأولى ، لم تخل من الملاحاة والجدل ؛ إذ كان هذا أصلا من أصول المناقضة ، كما عرفنا في تفسير معنى المناقضة ، فإنه لم يبلغ فيها من الدقة والتتبع والتربص مبلغه في هذه النقائض الأموية ، للرقى العقلى والتأثر الثقافى ، ولعنف التنافس ، وعناية النقاد ، والعلماء بالشعر ، وجمهور الناس بهذا الفن ، وارتقائهم الفائز فيه ، فقد كان هؤلاء الفحول يشغلون الحياة الأموية ، بما يطربون من مفاخر وأهاج ، والعالم من حولهم يستمع إليهم ما بين معجب مصفق مشجع ، وساخط ناقم مزور ، وراض بمتعة هذا الفن ، متأمل عبقرية الشعر فيه ، والأمر كله متأثر بهذه النزعات ، والقبائل محتفية بما يصفى عليها فن هؤلاء من بعد الصيت ، أو ناقمة لما ألصقه بها من ضعة وهوان شأن ، والنقائض فى خضم هذا كله مدرسة للنقد ، وصحف للعصر ، تدفعها الحياة الأدبية ، وتياراتها النقدية ، ومقاييسها الفنية ، إلى التجويد والافتنان ، واستغلال كل معطيات الثقافة العصرية المتاحة ، للبلوغ إلى مالم تصل إليه نظائرهم فى العصرين السابقين .

— ب —

وقبل أن نختتم دراسة فن المناقضة فى العصر الأموى ، يحسن أن ننبه إلى قيمة النقائض التى خلفها شعراؤه ، من النواحي التاريخية ، واللغوية ، والأدبية .

الدلالة التاريخية :

لايسعنا أن ندعى أن كل ماتضمنته مادة النقائض الأموية ، من أحداث تاريخية ووقائع وأيام ، وإشارات لعصبيات ، ومواقف للرجال ... وغيرها ، صالح لأن يعد واقعا تاريخيا دقيقا يعتمد عليه المؤرخ المعاصر للحياة السياسية والقبلية ، والعلاقات الاجتماعية بين القبائل ، فى العصر الأموى ، وماقبله ؛ لأن هذا كله إنما خضع على يد شعراء المناقضة إلى أهوائهم ، ورؤيا كل منهم للحدث من زاوية موقفه السياسى ، أو القبلى ، أو منظوره الفنى .

ولسنا بهذا ننكر على النقائض قيمتها التاريخية ، ونزيجها تماما من مجال البحث العلمى المؤرخ لهذا العصر .

فهناك مادة تاريخية ضخمة مبثوثة في ثنايا نقائض العصر الأموي ، وبخاصة نقائض الفحول ، لا يتطرق إليها الشك ، ولا مجال لتدخل الأهواء والمنازع ووجهات النظر في تزييفها ، أو التلاعب بها ، وطمس الحقائق التي تسجلها .

فإذا نحناجنا بنا الأحداث المختلفة للتشنيع ، أو للمفاخرة ، كحادث جعثن أخت الفرزدق الذي انطلق من شائعة ، ضخمها جرير ، وأضاف إليها من عنده ، ليصورها عرضاً منتهاكاً ، يخزي به الفرزدق وقومه ، وكذلك تفسير الشعراء للأيام التي كانت لقبائلهم مع خصومها على نحو يجعلها إضافة للمجد ، أو شامة للعار ، نقول : إذا استبعدنا أمثال هذه الأحداث من دائرة الاهتمام التاريخي ، ونظرنا في النقائض ، خرجنا بثقافة تاريخية واسعة ، تؤكد مصادرها التاريخ المروي عن ثقات المؤرخين القدامى لعصر بني أمية .

وبين أيدينا كتب أيام العرب في الجاهلية والإسلام ، وفيها أخبار يوم الحشاك الذي كان لتغلب على قيس ، وقد روي خبره ومادار حوله من العصبية بين قيس وتغلب ، وما تضمنه من مقتل عمير بن الحباب السلمي ، وقد تحدث عنه الأخطل في إحدى نقائضه مع جرير ، واقتصر به فقال :

وقد نصرت أمير المؤمنين بنا لما أتاك يبطن الغوطة الخبر
يعرفونك رأس ابن الحباب وقد أضحي ولل سيف في خيشومه أثر
أمست على جانب الحشاك جيافته ورأسه دوّنه اليمحوم والصّور

وما يخبر به الأخطل هنا هو ما نقرؤه في المصادر التاريخية الموثوق بها ^(١) ، والدلالة التاريخية هنا أن تغلباً كانت تخاصم قيساً ، وأنهما التحما في هذا اليوم ، وأن النصر كان لتغلب على قيس ، التي قتل قائدها عمير بن الحباب ، وهذه الدلالة لا يمارى فيها أحد . وما سقنا هذا اليوم إلا مثلاً لأيام عديدة سجلها شعراء النقائض ، وتحدثوا عن أطرافها ونتائجها ، ثم جاءت المصادر التاريخية مصداقاً لما قالوا .

ونورد هنا شعراً للفرزدق في إحدى نقائضه مع جرير ، يعيره في مقام الهجاء بأيام كانت لتغلب على بني يربوع قوم جرير .

(١) انظر مثلاً : ابن الأثير ٤ / ٣١٥ - ٣١٧

يا ابن المراغة إن تغلب وائل
 كان الهذيل يقود كل طمرة
 وكأن رايات الهذيل إذا بدت
 وردوا أراب بحجفل من وائل
 لولا أناتهم وفضل حلومهم
 وأسأل بتغلب كيف كان قديمها
 قوم هم قتلوا ابن هند عنوة
 لولا فوارس تغلب ابنة وائل
 حبسوا ابن قيصر وابتنوا برماحهم
 إن الأرقام لن ينال قديمها
 رفعوا عناني فوق كل عنان
 دهماء مُقَرَّبَةٍ وكل حصان
 فوق الخميس كواسر العقبان
 لجب العشي ضبارك الأركان
 بأعو أباك بأوكس الأمان
 وقديم قومك أول الأزمان
 عمراً وهم قسطوا على النعمان
 نزل العدو عليك كل مكان
 يوم الكلاب كأكرم البنيان
 كلب عوى مُتَهَمُ الأسنان ...

فخبر يوم أراب حقيقة تاريخية ، سجلها — كما هنا — مؤرخو أيام العرب
 القدامى ، وهو فيما سجلوا يوم لتغلب على بنى يربوع قوم جرير^(١) ، والحديث عن
 الهذيل بن حسان التغلبي مروى أيضاً في خبر هذا اليوم على النحو الذى ذكره الفرزدق ،
 إذا استثنينا هذا التصوير البطولى المبالغ فيه ، والذى عبر عنه الفرزدق في أبيات تركناها .
 والإشارة التاريخية إلى مقتل عمرو بن هند (٤٥٥ — ٤٧٩ م) على يد عمرو بن
 كلثوم واقع تاريخى معروف .

ويوم الكلاب الأول الذى يشير إليه الفرزدق ، وهو يوم من أيام العرب في
 الجاهلية ، كان لتغلب وأحلافها ، على يربوع وأحلافهم من بكر ، وبهذا تحدث كتب
 الأيام^(٢) .

ويشير جرير إلى مجموعة القبائل التى تعرف بالأرقام — وقد تحدثنا عنهم من قبل —
 وفي النقاىض أمثال لهذه الطوائف من القبائل ، الملقبة بألقاب خاصة ، كالبراجم في قول
 الفرزدق :^(٣)

وإذا البراجم بالقروم تخاطروا حولى بأغلب عزه لاينزل

(١) انظر : العقد الفريد ٣ / ٣٦٢

(٢) انظر : العقد الفريد ٣ / ٣٥٣ والعمدة ٢ / ١٦٣

(٣) ديوانه ٢ / ١٥٦ . والبراجم منهم غالب بن صعصعة ، قوم الفرزدق . انظر : تاريخ النقاىض ٤٠٢

والربائع ، وهم ثلاثة : ربيعة الكبرى ، والوسطى ، والصغرى ، ذكرهم الفرزدق في قوله (١) :

وإذا الربائع جاءني دُفَاعُهَا موجاً كأنهم الجراد المرسلُ

والأحمال ، وهم من بنى يربوع ، ذكرهم جرير ، مفتخراً على الفرزدق ، في قوله : (٢)

أبني قُفَيْرَة مَن يروُع وِردنا أم مَن يقوم لشدة الأحمال

ثم هناك أنساب القبائل ، وأسماء بيوت العرب ، وحشد من الأعلام من عظماء العرب وساداتهم ، وقوادهم ، وكلها أنساب ، وبيوت وأسماء تاريخية ، لآخرافية ، ولا وهمية ، وفي نقائض العصر شيء كثير من هذا ، لاتكاد تخلو منه نقیضة بين جرير والفرزدق ، أو بين جرير والأحطل .

وتشير النقائض إلى أحداث سياسية هامة ، تسجلها كما حدثت ، في صدق تاريخي لاجمال للشك فيه .

فالتاريخ الإسلامي يحكى مقتل الزبير بن العوام ، عقب انصرافه من موقعة الجمل ، غدرًا على يد عمرو بن جرموز المجاشعي ، بعد أن استجار الزبير بأحد بنى مجاشع ، وخذله الأحنف بن قيس زعيم تميم فلم ينهض لحمايته (٣) .

وقد استغل جرير هذا الحادث ، وعير به كثيرا الفرزدق وقومه ، ورامهم بالغدر ، وشهر بهم ، ولم يستطع الفرزدق أن يحير جوابا ، لأن ماقاله جرير حقيقة تاريخية لا يمارى فيها .

ومن قول جرير في هذا (٤) :

(١) المصدر نفسه

(٢) ديوانه ٤٦٨ والأحمال هم : سليط وصير وثعلبة وعمرو ، وكلهم من يربوع .

(٣) انظر هذا الخبر في : مروج الذهب ٢ / ١٠ (البهية)

(٤) ديوانه ١٣١ جيشان : وادى السباع الذى قتل الزبير فيه . وانظر نماذج أخرى في ديوانه ١٩٨ ، ٢٢٧ ،

٢٢٨ ، ٢٤٤ ، ٥٦١ ، ٥٧١

فإننا أناسٌ نحب الوفاءَ جذارَ الأحاديثِ في المشهد
ولانحسبى عند عقد الجوارِ بغير السيوف ولا تُرْسِدى
شددُتم حُبَّاكم على غُدرةِ بجيشانِ والسيف لم يُغمد
فبعداً لِقوم أجاروا الزبيرَ وأما الزبير فلا يَتَعَدِ

والمادة التاريخية في مقتل قتيبة بن مسلم الباهلى في نقائض جرير والفرزدق على يد بنى تميم — كما سبق في الشعر القبلى — كثيرة ، وعلى الرغم من اختلاف الشاعرين في استغلالها وتفسيرها كل لصالح قومه ، وموقفه من صاحبه ، في مقام الفخر من جانب الفرزدق ، ومقام الهجاء من جانب جرير ، فإن حقائق هذا الحادث ، لم تغير في نقائضها . ولانطيل بذكر أشعارهما حول هذا الحادث .

وناهيك بالعصبية القبلى التى تتحدث عنها النقائض ، والتى تكشف جانباً هاماً ، من جوانب العلاقات القبلى في العصر الأموى ، وهى التى كانت موضوع دراستنا في الشعر القبلى .

فقد عرفنا أن الهجاء القبلى والفخر القبلى ، كان لهما نصيب وافر من مادة نقائض الفحول ، وقد أخذ كل منهم يتتبع تاريخ القبائل التى يعادىها ، أو ينتصر لها ، ويبحث وينقب في تاريخ العصبية القبلى ؛ ليستمد منه المفاخر أو المثالب ، وليحدد موقفه من خصمه ، أو موقف خصمه منه ، كل ذلك بغية العلو على صاحبه ، أو الحط من شأنه ، بالنيل من قومه . وقد تحدثنا عن هذه الناحية خلال دراستنا للنقائض بين جرير والفرزدق ^(١) ، فلا داعى لإعادة هذا الحديث هنا .

آية هذا كله أن النقائض غنية بالدلالات التاريخية ، التى تجعل منها أحد المصادر الهامة ، في كل ماذكرنا ، وما تركنا مادتها ذات القيمة في تاريخ الحياة العربية في العصر الأموى .

الدلالة اللغوية :

للقائض الأموية أهمية بالغة من الناحية اللغوية ، يعرفها كل متصل بعلم العربية ، مهمهم بتتبع تاريخ صيغها وتراكيبها ، ومراحل تطورها ، ومناحى فصاحتها .

ويكفى أن نتصفح أمهات المعاجم العربية الكبرى ، لنقف على مدى أهمية شعر النقائض في الحفاظ على سلامة اللغة ، وصيانتها من الهجنة ، والحفاظ على تراكيبها من الرخاوة ، فالاستشهاد بشعر الفحول في نقائضهم على فصاحة اللغة مستفيض في هذه المعاجم .

والحق أن شعراء النقائض حفظوا اللغة العربية صافية ، كما كانت في الجاهلية ، حفظوا العدد الأوفر من ألفاظها ، حتى قيل : « لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب » (١) .

وإذا كان هذا شأن شعر الفرزدق ، فلا شك أن شعر جرير والأخطل قد أسهم في الحفاظ على ثروة أخرى من لغة العرب .

وجاءت التراكيب في هذه النقائض قوية محكمة ، لتعيد إلى الأذهان تراكيب العربية المتينة ، وألفاظها الجزلة .

يضاف إلى هذا حرص الفحول على استعمال اللغة في معانيها التي استعملها فيها العرب الجاهليون ؛ ولذا كثر فيها الغريب ، واهتم بها طلابه ورواته .

حوت النقائض إذن ثروة لغوية هائلة ، تمثلت في قوافيها الغزيرة المنوعة ، وألفاظها الجزلة الفخمة في مقام الفخر والمدح ، الصاخبة الهادرة في باب الهجاء ، وفي هذا تمثل جلال العربية الفصحى ، وثرأؤها ، فكانت النقائض روافد ثرة لمعاجم اللغة ، كما كانت مقصدا للمؤرخي الأنساب والقبائل .

الدلالة الأدبية :

أشرنا إلى نواح فنية في أساليب المناقضة ، هي التي تمثلت فيها مظاهر تطور هذا الفن الأدبي ، وما حظي به من تجديد ، وكان نصيب فنى الفخر والهجاء من النقائض أوفى نصيب ، وتنافس فيها الشعراء ، فأدت المنافسة إلى التجويد في المعاني والتراكيب والألفاظ ، والصور ، والأساليب ، ولأول مرة نرى هذين الفنين يسلخان من القصائد الطويلة أكثر أبياتها ، أو ينفردان بقصائد ، لا يشاركما فيها موضوع آخر .

وكانت تقاليد الشعر الجاهلي مازالت هي التراث المرموق ، الذي يغرى بالمتابعة ،

ويناسب الحياة الاجتماعية القبلية ، التي كان يعيشها شعراء النقائض ، وما قامت عليه من اعتزاز بالعصبية القبلية ، ومادار حولها من فخر وهجاء .

والشعر الجاهلي قد عبد الطريق لهذين الفنين ، وكثرت تجارب شعرائه فيهما ، وتأصلت تقاليد تعبيرية وفنية ومعنوية في شعرهما .

من أجل هذا أقبل فحول المناقضة على الشعر الجاهلي ، الذي كان تراثنا متاحا حاضرا بين أيديهم ، أقبلوا عليه يحتذونه في بناء القصيدة ، وصورها ، وكثير من معجم لغته ، وهل أدل على احتذاء هؤلاء الشعراء لغة الشعر الجاهلي ، من أن الرواة والدارسين المعاصرين لهم ، أو الذين جاءوا بعدهم قريبا من عصرهم ، شغلوا بشرح مافي نقائضهم من غريب اللغة ، وكأنهم يفسرون لغة شعراء قدامى ، لا يعيشون معهم ، ولا يشاركونهم معجمهم اللغوي .

ولننظر في قول الفرزدق من نقيضة له : (١)

تري جارنا فينا يحجر وإن جنى	فلا هو مما ينطفُ الجارَ يُنطفُ
ويمنع مولانا وإن كان نائيا	بنا جاره مما يخاف ويأنفُ
وقد علم الجيران أن قدورنا	ضوامن للأرزاق والريح زفرفُ
نعجلُ للضيفان في المخل بالقرى	قدوراً بمبعوط ثمَدُ وتُعرفُ
تفرغ في شيزى كأن جفانها	حياضُ جبي منها ملاء ونصفُ
تري حولن المعتطفين كأنهم	على صنم في الجاهلية عكفُ
قعوداً وخلف القاعدين سطورهم	جنوح وأيديهم جُموسُ ونُطفُ
وما قام منا قائم في ندينا	فينطق إلا بالتي هي أعرف

هل هناك فرق بين هذا الفخر في موضوعه ، ومعانيه وألفاظه ، وأمثال له في الشعر الجاهلي ؟ هل فيه من هذا كله ما يشير أدنى إشارة إلى أن قائله المفتخر شاعر إسلامي يعيش في حضر البصرة في العصر الأموي ؟

الذي تنصوره أن الفرزدق وصاحبيه كانوا ينثرون بين أيديهم خزانة الشعر الجاهلي في الفخر والهجاء ، ويروحون يتأملونه ويستوعبون صوره ، ويتحفظون معانيه وأساليبه ، ثم يتقبلون ينظمون على غراره .

ولم نذهب إلى التصور ، والفَرزدق نفسه يدلنا على مصادر شعره من التراث الجاهلي ؟! فهو يحدد لنا معالم هذا التراث ، بتحديد الشعراء الجاهليين الذين ورث عنهم الشعر ، ووضعه بين يديه ، تركه موصى بها إليه ، وذلك في قوله (١) :

وهب القصائدلى النوابع إذ مضوا وأبو يزيد وذو القروح وجروا
والفحل علقمة الذى كانت له حلل الملوك كلامه لاينحل
وأخو بنى قيس وهن قتلنه ومهلل الشعراء ذاك الأول
والأعشىان كلاهما ومُرَقَشٌ وأخو قضاعة قوله يتمثل
وأخو بنى أسد عبيد إذ مضى وأبو دؤاد قوله يتمثل
وابنا أبى سلمى زهير وابنه وابن الفريرة حين جد المقول

ويضيف إلى هؤلاء ليبد بن ربيعة ، وبشر بن أبى خازم ، وأوس بن حجر ، والنجاشي ثم يقول :

دفعوا إلى كتابهن وصية فورثنهن كأنهن الجنـدل

وليس الفرزدق وحده ، الذى كان يضع خطوه في نقائضه على خطو الجاهليين ، يترسمه ، وينتجه حيث اتجه ، ويسير حيث سار ، فالأخطل يدلنا هو الآخر على معاهد القدوة والمثل في شعره من الشعراء الجاهليين ، وبخاصة نابغة بنى ذبيان ، وحتى لانلقى الكلام على عواهنه ، نورد هنا أبياتا للأخطل في غير الهجاء والفخر ، ولكنها ذات دلالة واضحة على أنه كان ينظر هو الآخر إلى الشعر الجاهلى ، ويختار من بين شعرائه من يتخذه هاديا ونيراسا في أسلوب شعره ، يقول الأخطل (٢) :

لقد نزلت بعبد الله منزلة فيها عن الفقر منجاة ومُنْتَفِدُ
كأنه مزبد ريان منتجع يعلو الجزائر في حافاته الزبد
حتى ترى كل مزور أضربه كأنما الشجر البالى به بُجِدُ
تظل فيه بنات الماء أنجية وفي جوانبه الينبوت والحضدُ
سهل الشرائع تروى الحائمات به إذا العطاش رأوا أوضاحه وردوا

(١) ديوانه ٢ / ١٥٩ — ١٦٠

(٢) ديوانه ٢١٧

ونضع بإزاء شعر الأخطل هذا شعرا للنابعة الذبياني ، يعالج الموضوع نفسه — وهو المدح — يقول فيه ^(١) :

وما الفراتُ إذا هبَّ الرياحُ له ترمى أواديه العيرين بالزَّيدِ
يمدُّه كلُّ وادٍ مُتسرِّعٍ لَجِبٍ فيه ركام من الينبوت والحَصَدِ
يظل من خوفه المَلأحُ معتصِماً بالخيزرانة بعد الأين والتَّجَدِ
يوماً بأجودَ منه سَيْبُ نافلة ولايحول عطاء اليوم دون غَدِ

فالمحاكاة — ولانقول السرق — واضحة في الموضوع والمعاني ، والصيغ والأسلوب ، حتى الوزن والقافية استعارهما الأخطل من أبيات النابعة ، وتوظيف صورة النهر في إبراز ، المدح بالكرم ، هذا فيه حذوه .

وأسلوب جرير في المدح المستعطف ، القائم على المبالغة والضرعة ، وإعلاء مقام الممدوح على أنقاض كرامة المادح ، يعكس هو الآخر ملامح أسلوب الأعشى في هذه المناحي .

نخلص من هذا إلى أن شعراء النقائض ، بالتصاقهم بتقاليد الشعر الجاهلي ، وحرصهم على ترسيمها ، حكوا لنا أساليب هذا الشعر الجاهلي ، ممثلاً في فحوله ، الذين أعجبوا بهم ، واتخذوهم أئمة وهداة ، يحتذون أشعارهم ، ويحاكون خصائصهم ، ولقد لفتت هذه المحاكاة نظر النقدة القدامى ، يقول أبو عبيدة معمر بن المثنى ^(٢) : « كان أبو عمرو الشيباني يشبه جريراً بالأعشى ، والفرزدق بزهير ، والأخطل بالنابعة » .

من أجل هذا كانت النقائض الأموية مدرسة للشعر المحافظ القوى ، رسخت تقاليده ، وأحيت قيمه ، وأقامت عمدته ، وغدا أسلوبها الشعري ، بما عرف به من رصانة ، وجزالة ، ونبرة عالية ، وعراقة في التقاليد ، نمطاً للفحول المحافظين من شعراء العربية في العصور التالية .

(١) ديوانه ٣٦

(٢) الأعشى ٧ / ٣٦ وانظر : ابن سلام ٦٦ (المثنى)

الفصل الخامس

الغزل في عصر الحجاز

نعني بحضر الحجاز مدنه الكبرى في العصر الأموي، وهي : مكة والمدينة والطائف . وقد درج الباحثون — عادة — على أن يميزوا الغزل ، الذي عرف في بيئة حضر الحجاز ، في عهد بني أمية ، بطابع حسي في التعبير عن عواطف الحب ، تفرقه بينه وبين ضرب آخر من الغزل في هذا العصر ، شاع في البادية أكثر ماشاع ، وهو الغزل العذري . وبعض هؤلاء يطلق عليه « الغزل الحسي » واصلا بينه وبين نظيره له في العصر الجاهلي ^(١) .

ويفسر الدكتور طه حسين هذه التسمية ، ويعللها بقوله ، في معرض الحديث عن غزل عمر بن أبي ربيعة : ^(٢) « وقد رأينا أن عمر لم يكن عذريا ، ولم يكن يريد أن يذهب مذهب العذريين ، وإنما كان عمليا محققا ، يلتبس الحب في الأرض ، لا في السماء » . فهذا الغزل عنده محقق ، وشعراؤه محققون ؛ لأنهم يسلكون سلوكا عمليا إيجابيا في تحقيق الوصل مع المرأة التي يعشقونها ، ويشدهم إليها جماها الجسدي ، ورغبتهم العارمة في الاستمتاع بهذا الجمال الجسدي .

وينحو هذا المنحى الدكتور شكري فيصل ، ويرى أن هذا الغزل حسي ، يعبر عن حب ذي ميل حسية ، تتعلق بمظاهر الفتنة والجمال الشكلي في المرأة ، ولانصيب لغزل عمر وأصحابه من شعراء الغزل في حضر الحجاز الأموي ، من الصفاء النفسي ، أو التسامي العاطفي ، ويقول ^(٣) : « إنه هذا الحب الحسي ، الذي تكون المرأة ، من حيث هي خلُق ، مبدأه ، وتكون كذلك غايته ، أماما وراء ذلك مما يحققه الحب من معنى التصفية النفسية ، ويقود إليه من التجرد عن المادة ، وأما الآفاق البعيدة التي تطلقها هذه الهزة الداخلية ، فشيء لم يشأ عمر أن يقف عنده ، إن اللبانة والحاجة ، ومال إلى ذلك ، مما يتصل بالشهوة ، هي أكثر الكلمات دورانا في هذا الشعر ، وأبرزها فيه » .

(١) الشعر بين الجمود والتطور (د . الكفراوي) ٥٦ — ٥٨

(٢) حديث الأربعة ١ / ٣٠٨ وانظره أيضا في ١ / ٣٢٤

(٣) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ٣٣٧

وجلى أنه يرى أن هذا الغزل الحجازى يفسر الحب ، أو فلنقل : يترجم الحب ترجمة مادية ، وأن شعراءه إنما تحركهم غرائزهم الشهوانية ، فهو حب مادية خالص ، دوافعه مادية خالصة .

وأغلب الظن أن هؤلاء الباحثين وغيرهم ، ممن وسمو غزل حضر الحجاز فى العصر الأموى بالحسية الخالصة ، إنما كانوا حريصين على التفرقة بينه وبين الغزل العذرى من ناحية ، وعلى أن يستحضروا ، وهم يحكمون على هذا الغزل ، صور الحياة ، التى تروى عن سلوك شعرائه فى حياتهم العاطفية ، من جرى وراء النساء ، وتنقل بهواهم ، أو طهواهم ، من امرأة إلى غيرها ، من ناحية أخرى ، ثم مزجوا بين سلوكهم وأشعارهم الغزلية ، فأروا هذا الغزل تفسيراً واقعياً ، أو حكاية فعلية لواقع حياتهم وسلوكهم ، واستقر عندهم هذا المزج بين السلوك والفن ، والحياة الواقعية والشعر ، واطمأنوا إلى ما ارتأوا حينما لاحظوا اتجاهها إلى وصف مفاتن المرأة الجسدية فى بعض نماذج من شعر عمر بن أبى ربيعة وأصحابه ، وتصويراً لبعض المغامرات الجريئة ، التى يدعون أنهم قاموا بها لإرضاء نزعاتهم الحسية فى الحب ، ولم يجد هؤلاء الباحثون لدى العذريين نظيراً لهذا الاتجاه ، ولا لهذا التصوير ، ومن ثم صرح عندهم أن هذين اللونين من الغزل على طرفى نقيض ، فقابلوا بينهما ، وتمخضت المقابلة عن تجريد الغزل الحضرى من كل ملمح من ملامح المعاناة العاطفية ، والإحساس بالصفاء والطهارة فى الحب ، ومن هنا ارتضوا تسميته بالغزل الحسى .

أما نحن فنميل إلى أن نطلق على الغزل الذى عرف وشاع فى بيئة حضر الحجاز ، فى العصر الأموى تسمية « الغزل الحسى المتطور اللاهى » ونرى هذه التسمية أدق من تسميته بالغزل الحسى فقط ؛ لأن هذا الأخير — كما استقر فى الأذهان — تغلب عليه النزعة المادية ، التى تمزج بين عواطف الحب ، والميول الشهوانية ، والاستمتاع بالمرأة استمتاعاً جسدياً حيوانياً ، ولم تكن المادية ، والاستمتاع الجسدى ، من الخصائص البارزة فى شعر شعراء الغزل ، الذى عرف فى حضر الحجاز فى هذا العصر ؛ إذ كان حظه من الجانِب النفسى التحليلى المعنوى أكثر من الغزل الحسى الجاهلى ^(١) ؛ لعناية الشاعر

(١) لأستاذنا الدكتور أحمد الحوفى فصل واف ممتع فى الغزل الحسى (أو المكشوف) عند الجاهليين فى كتابه : الغزل فى العصر الجاهلى ٢١٨ وما بعدها ، فليراجع من شاء .

فيه بحكاية خواطره ومشاعره ، وخواطر المرأة التى يتعشقها ومشاعرها ، أكثر من عنايته بوصف هذه المعشوقة وصفا جسديا ^(١) كما سنرى .

فعمربن أنى ربيعة ورفاقة فى هذا الغزل ، لم يكونوا مجرد طالبى متعة حسية ، يترجمون مغامراتهم إلى شعر « بل كانوا رجالا يريدون أن يحيا حياة عاطفية ، لاهى خيالية مجردة ، كما يعيشها العذريون ، ولاهى حسية مغرقة فى المادية ، كما يراها كثير من الدارسين » ^(٢) ، وإنما حياة ترتقى وتتطور ، فتتمايز عن هذا وذاك .

ولسنا بهذا نتغاضى عن نصيب هذا الغزل من المادية فى الحب ونوازعه ، وإنما نرى أن تجارب شعرائه التى تصور هذه المادية — على قلتها — لاتصور نزعة شهوانية حقيقية عندهم ، بقدر ماتعبر عن اتجاه فنى عام ، حتى عند العذريين حين يبدو لهم أن يصفوا مظاهر الحسن والجمال فيمن يحبون — كما سنرى — كما أن هذه التجارب ، على أكثر التقدير ، لاتعدو التعبير عن الإعجاب الناشئ عن استعمال الحواس المختلفة ، ثم التحدث عما التقطته هذه الحواس من صفات المرأة الجسدية ، كسواد عينيها ، ودقة خصرها ، وليونه عودها ، وغزارة شعرها ... وما إلى ذلك ، مما كانوا يعجبون به من جمال المرأة ؛ وملاحظة لهذه التجارب ، لذا أسمينا هذا الغزل حسياً أيضاً .

— ٢ —

إن القضية الكبرى التى يهتم بها عادة مؤرخ الغزل الحجازى المتطور ، تدور حول التساؤل التالى :

هل فى هذا الغزل مايعد إضافة جديدة لفن الغزل ، الذى جرى على ألسنة الجاهليين ، وصوروا فيه تجاربهم الحسية فى الحب ، أو فى علاقتهم العاطفية بالمرأة ؟؟
لعله مما يزيد من صعوبة الإجابة عن هذا التساؤل ، مايلاحظ من اختلاف مؤرخى الأدب المحدثين ، حول قضية الجمود والتطور ، أو التقليد والتجديد ، فى هذا الغزل الأموى بالحجاز .

(٢) ذهب إلى هذا رأى الدكتور محمد هدارة فى كتابه : اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى ٥٠٠

(١) فى الشعر الإسلامى والأموى ١٨٥

فقد ذهب بعضهم إلى تجريده من كل مظهر من مظاهر التطور والتجديد ، مدعياً أنه صورة من الغزل الحسى الجاهلى بكل اهتماماته ، ونواذعه ، وأهداف تجاريه ^(١) .
ومال آخرون إلى أنه غزل عربى خالص لم يوجد إلا فى عصر بنى أمية ، ولم يكن له وجود مستقل بارز قبل هذا العصر ، وأن ماكان من غزل الجاهليين ، إنما هو وسيلة إلى ماكانوا يذهبون فيه من مذاهبهم الشعرية المختلفة ، من مدح ، وهجاء ، وفخر ، وحماسة ، ووصف ... وغيرها ^(٢) .

على أن منهم من اعتدل قليلا ، فذهب إلى أن هذا الغزل يجرى على عرف الجاهليين الحسينيين فى غزلهم ، غاية الأمر أن غزل حضر الحجاز فصل مالم يفصلوا ، وضخم مالم يضحمو ^(٣) ، أى أن مظهر التطور الوحيد الذى يعكسه هذا الغزل ، هو تفصيل التجارب الغزلة وتضخيمها ، ليس إلا .

ونحن نؤثر أن نحتكم إلى شعر مشاهير الشعراء الغزلين فى حضر الحجاز ، فنتقدم إلى دراسة طائفة من نماذج تجاريه ، ونحللها ، ونستنطقها ، وبعد هذا الدرس ، لاقبله ، نستطيع أن نقف إلى جانب رأى من هذه الآراء ، أو نخالفها جميعا ، أو نتفق معها فى وجوه ، ونفارقها فى أخرى .

ويحسن ، قبل معالجة هذه النماذج ، أن نعهد لها بحديث موجز عن بيئة هذا الغزل يذكرنا بما سبق أن أوردناه ، عن الحياة فى حضر الحجاز فى العصر الأموى ^(٤) ، ويضيف إليه مايلقى الضوء على بعض جوانب هذه الدراسة .

— ٣ —

كان حضر الحجاز فى العصر الأموى يتطور ويتحضر ، تحت تأثير بعض العوامل ، التى أخذت تشكل حياته اجتماعيا وحضاريا .

(١) انظر مثلا : الشعر العربى بين الجمود والتطور ٥٦ ومابعدها .

(٢) انظر : مقالا للدكتور طه حسين بمجلة السياسة بتاريخ ١٠ ديسمبر ١٩٢٤ العدد (١٧) والتطور والتجديد

٢٤٦ — ٢٦٤ وتاريخ الشعر العربى (د . الببتي) ١٤٣ — ١٦٠ واتجاهات الشعر العربى (د. هدارق) ٥٠ — ٥٠ .

(٣) انظر : الغزل فى العصر الجاهلى (د . الحوقى) ٢٥٣

(٤) راجع ص ٥٧ — ٦٢ من هذه الدراسة .

ويأتى في مقدمة هذه العوامل ، كثرة العناصر البشرية الأجنبية ، التى تدفقت على حضر الحجاز ، خلال الفتوح الإسلامية ، ومن بعدها فى عصر بنى أمية ، بحيث امتلأت منازل أهله — وبخاصة منازل الأشراف والسادة وذوى الثراء منهم — بالجوارى الروميات والفارسيات ، وكثرة استيراد هؤلاء الإماء ، مما نتج عنه اختلاط الدماء فى البيت العربى غالبا ، بحيث لم يعد هذا البيت عربيا خالصا ، كما كان ، بل غدا بيتا مختلطا ، ورب البيت هو العربى الخالص ، وربما كان هو الآخر من أبناء المولدات .

ولانشك فى أن هؤلاء الإماء المولدات غرسن فى أولادهن ، عادات وأساليب سلوك ، ومظاهر حياة ، أكثر حضارة ، جئن بها من حضارة أجناسهن ، الفارسية ، أو الرومية ، أو السورية ، أو المصرية ، وهى حضارات متفوقة على الحضارة العربية ^(١) .

وكان من بين هؤلاء الإماء عدد غير قليل من ذوات الجمال الفاتن ، الذى يشد إليه العيون التى تتذوق الجمال ، من شباب حضر الحجاز الفارغين المترفين ، والأمة — كما هو معروف — لاتتحرى الصون والعفة والاحتشام — غالبا — وإنما هى ، كما يقول الجاحظ ^(٢) : « لاتكاد تخالص فى عشقها ، ولا تناصح فى ودِّها ؛ لأنها مكتسبة ومجبولة على نصب الحباله والشرك فإذا شاهدها المشاهد ، رامته باللحظ ، وداعبته بالتبسم ، وغازلته فى أشعار الغناء ، ولهجت باقتراحاته ، ونشطت للشرب عند شربه ، وأظهرت الشوق إلى طول مكثه ، والصبابة لسرعة عودته » .

كما أن الأمة ، بحكم تبذرها ، وقيامها على أمر سادتها ، وتختلف مكانتها الاجتماعية ، عرضة لما يفتنها عن نفسها ، ويخدعها فى شرفها ، فتتقلب مع طول التجارب ، مفتونة فاتنة ، مخدوعة خادعة ، فاسدة العفة ، مفسدة للأخلاق ، وفى هذا يقول الجاحظ ^(٣) : « وكيف تسلم القينة من الفتنة ، أو يمكنها أن تكون عفيفة ، وإنما تُكْتَسَبُ الأهواء ، وتُتَعَلَّمُ الألسن والأخلاق بالمنشأ ، وهى تنشأ .. [على ما] يصد عن ذكر الله ، من لهُو الحديث ، وصنوف اللعب والأخانيث ، وبين الخلعاء ، والجمان ، ومن لا يُسَمِعُ منه كلمة جِدِّ ، ولا يُرْجِعُ منه إلى ثقة ولادين ، ولاصيانة مُرَوَّة » .

(١) للاستزادة . انظر: فجر الإسلام ١ / ١٠٨ وما بعدها

(٢) رسائل الجاحظ ٢ / ١٧١

(٣) المصدر السابق ٢ / ١٧٦

وإلى جانب ما كان يتمتع به هؤلاء الإماماء في حضر الحجاز من فتنة الجمال ، كان من بين هؤلاء الجميلات ، من هنَّ على دراية واسعة بفنّي الغناء والموسيقى ، مما أهلهنَّ للأخذ بيد هذين الفنين في هذه البيئة ، وإشاعة لون من المرح واللهو فيها .

حقا كان في مكة والمدينة ، قيان وغناء وموسيقى منذ العصر الجاهلي ^(١) ، ولكن هذا الفن كان ما يزال يحبو في صورة عربية ساذجة ، وحتى حينما عُرِفَ الغناء الفارسي والرومي في البيئة العربية في العصر الجاهلي ، كانت هذه المعرفة سطحية محدودة الأثر ^(٢) ؛ إذ كان القيان الأجنيبات يغنين بلغتين غالبا ، ويطرب الناس بالنغم والألحان ، مما لا يتيح لهم التأثير الواضح في الغناء العربي ، ولذا ظل هذا الغناء ساذجا ، يذكر أبو الفرج الأصفهاني ^(٣) : أن الغناء العربي لم يكن معروفا في زمان عمر بن الخطاب ، إلا ما كانت العرب تستعمله من النَّصَب (وهو ضرب من الخداء) والحداء ، وذلك جار مجرى الإنشاد ، إلا أنه يقع بتطريب وترجيع ، ورفع للصوت ، كما أنه يذهب إلى أن أول من نقل الغناء الفارسي إلى غناء العرب ، سعيد بن مسْجَح ، أو ابن مُحرز ، أو سائب خاثر ، أو نُشَيْط ، أو طُوبُس ^(٤) ، وكلهم من موالى العصر الأموي .

وأبو الفرج لا يجهل وجود قيان فارسيات وروميات في البيئة العربية في العصر الجاهلي ؛ ولذا نرجح أنه إنما أراد أن هؤلاء الذين ذكرهم كان لهم فضل ربط الغناء الأجنبي بالغناء العربي ، وتعريبه على نطاق أوسع وأشمل ، مما كان عليه الحال في العصر الجاهلي .

ولم تكن العناصر البشرية الأجنبية التي تدفقت على إقليم الحجاز قاصرة على الإماماء الجميلات والمغنيات والموسيقيات ، فإلى جانب هؤلاء وقد كثير من الموالى المغنين والموسيقين على هذه البيئة ، وكان لهذا أثره القوي في إشاعة الاهتمام بهذين الفنين ، اللذين صاروا من أهم وسائل اللهو والمتعة حينئذ ، وأقبلت عليهما الجماعة الثرية المترفة من أبناء حضر الحجاز ؛ لتقطع أوقات فراغها بشيء تجد فيه لهوها ومتعتها ، بعد أن نفضت أيديها من شئون السياسة ، التي حال بينهم وبينها بنو أمية ، وأرادوا لهم أن يشغلوا عنها ، بما توفر

(١) انظر في هذا : تيارات ثقافية بين العرب والفرس ٦٤-٦٦ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ١٢٠

(٢) المصدر السابق ١٢٠

(٣) الأغاني ٨ / ١٤٤

(٤) المصدر السابق ٣ / ٨١ ، ١ / ١٤٦ وانظر : تيارات ثقافية ٧٥

لهم من وسائل اللهو ، ومازادوهم به منها ، حتى يأمنوا جانبهم ، فقد كان الأمويون « يخشون من أبناء الرؤساء في الحجاز ، أن ينصرفوا عن حياة الفراغ ، إلى حياة الجد والطموح ، فليس في جدهم وطموحهم أمان للدولة ... وإنما الأمان لها كل الأمان أن يلعبوا ويرتعدوا ، ويجتمعوا على اللغو والفضول ، وإيثار الدعة والرخاء ، فاستأنفت الحواضر الحجازية تاريخاً قديماً طويلاً في اللهو والمجون ^(١) » .

وما الذي يحول بين الراغبين منهم في التسلى باللهو ، وبين هذه الحياة ؟ فالمال ينساب في حجورهم انسياباً ، وشئون حياتهم وعيشتهم مكفية بمن يقوم على خدمتهم من العبيد والجواري .

واستتبع هذا شيوع نوع من الحرية في حياة الرجل الحضري ، والمرأة الحضرية ؛ لتعلقهما بسماع الغناء والموسيقى ، والجلوس إلى المغنين والمغنيات ، وكان هؤلاء يملكون ، فكانوا يغنون دائماً ، حسب إرادة سادتهم وسيداتهم ؛ إذ كانوا رهن إشارتهم .

بذلك تحولت مدن الحجاز « إلى ما يشبه المسرح الكبير ، فالمغنون والمغنيات ، مايزلون يضربون في الصباح والمساء على أوتارهم ، وهذا الشباب المتعطل من حولهم ، فتيات وفتيانا ، يجتمع بهم ، ويستمتع إليهم ، يستمتع في بعض المنازل حيناً ، ويستمتع في بعض المتنزهات بالضواحي ^(٢) » ، فقد علمهم هذا الرقيق الفارسي — فيما علمهم — صورة مجالس الغناء ، والاجتماع لسماعه ^(٣) .

وبذا تخلصت مدن الحجاز من الطابع البدوي ، إلى حد كبير ، وغدت تتمتع بطابع حضارى بارز ، من أوضح مظاهره ، الانعماس في مباحج الحياة ومتارفها .

فلأول مرة نجد من بين أثرياء مكة ، من يبتنى قاعة فسيحة ، ويخصها للهو والقراءة معاً ، يجد فيها الرواد الشطرنج وغيره ، من ألعاب الرُّقْع ، كما يجدون الكتب للقراءة سواء بسواء ^(٤) .

(١) جميل بنية (العقاد) ص ١١

(٢) التطور والتجديد ٢٤١

(٣) فجر الإسلام ١ / ١٤٤

(٤) تاريخ الشعوب الإسلامية (بروكلمان) ١ / ١٤٠

وينبغي أن ننبه هنا إلى أن هذا المجتمع الذي تحضر ، لم يكن ماجنا منحلا ، إلى الحد الذي يصوره بعض الرواة ، حينما قرعوا مثل قول العرجي ^(١) ، عن بعض ماكان يقابلهن في موسم الحج ^(٢) :

أماطت رداء الخزر عن خُرّ وجهها وأدنت على الخدين بُردا مهلهلا
من اللاء لم يَحْجُجْنَ يَغِين حِسْبَةً ولكن ليقتلن البريء المغفلا
ففرق بين أن يكون المجتمع حرا ، وأن يكون منحلا ماجنا .

نعم ، نالت المرأة الحجازية الحضرية قسطا غير هين من الحرية في العصر الأموي ، لم تحظ بمثله جدتها أو أمها ، وكان لمنافسة الجوارى لها في رجلها من الأثر ماجعها تتخلص من بعض حجابها القديم ، إن كان قد وجد أصلا ، فعند الجاحظ أن نساء العرب لم يكن يحتجبن عن الرجال ، ولكن يرضين مع سقوط الحجاب الفلته ، ولا لحظة الخُلْسَة ^(٣) .

كما أنها لم تجد بأسا من مجالسة الرجل ومحادثته ، والتسامح في الحديث معه ، فتطريه ، أو يطريها ، أو ترغب في غزله ؛ إذ كان يسرها أن يشبب بها شاعر — سيما إذا كان مشهورا — « وإن كانت لاترجو الزوج به ، ولكن يسرها مافي التشبيب من الإعجاب ... بجمالها ، سواء في ذلك الأميرة والحقيرة ^(٤) » .

روى أن أم محمد بنت مروان بن الحكم قدمت على عمر بن أبي ربيعة في الموسم ، وطلبت إليه أن يشهرها بشعره ، وبعثت إليه بألف دينار ، فأبى أن يأخذ على التشبيب أجرا ، واشترى بالجائزة حللا وطيبا ، وأهداه إليها ^(٥) .
فهل كان من المعقول أن يخرج عمر بن أبي ربيعة في هذا التشبيب عن العفه

(١) أبو عمر عبد الله بن عمر بن عبد الله بن عثمان بن عفان ، لقب بالعرجي ؛ لأنه كان يسكن عرج الطائف ، أو لأنه ولد به ، أو كان له مال فيه ، فكان يكثر الاختلاف إليه ، فشهر به ، وهو شاعر قرشي مليح الشعر ، وقف شعره على الغزل ، ونحاه فيه منحي عمر بن أبي ربيعة فأجاد ، حبسه محمد به هشام بن اسماعيل الخزومي ؛ لأنه شبب بأمة نكايه فيه ، وضربه حتى مات في السجن . وأخباره طويلة . انظرها في : الأغاني ١ / ١٤٧ وسمط اللاتني

١ / ٤٢٢ ومعجم البلدان (عرج) ومعاهد التنصيص ٢ / ٥٥ والشعر والشعراء ٢٢٤

(٢) ديوانه ٧٤ والتذكرة السعدية ٥٣٦

(٣) رسائل الجاحظ ٢ / ١٤٨ ، وانظره أيضا ٢ / ٤٩

(٤) تاريخ آداب اللغة (زندان) ١ / ٢٢٧

(٥) الأغاني ١ / ٦٨

والاعتدال مع هذه الشريفة ، وغيرها من شريفات قریش اللأى لم يدع منهن واحدة إلا شبب بها ؟ كما يقول الدكتور طه حسين ^(١) .

ويذكر أبو الفرج أن سكينه بنت الحسين ، ومعها نساء من شريفات المدينة أرسلن إلى عمر بن ربيعة ، وقد تشوقن إلى لقائه ، بعد أن تذاكرن حلاوة شعره ، وحسن ظرفه ، أن يوافيهن في مكان وموعد محددین ، فقضى بينهما وقتا طويلا من الليل ، ينشدھن ، ويحادثھن ، ثم عاد إلى مكة ، وقال ^(٢) :

قالت سكينه والدموع ذوارفٌ منها على الخدين والجلباب
ليت المغيرى الذى لم يجزه فيما أطال تصيُدى وطلابى
كانت تردّ لنا المنى أيامه إذ لانلام على هوى وتصابى

وهذا الذى حكاه عمر في هذا الشعر ، ضرب من التخيل الفنى ، الذى كان يرضى زهو عمر بنفسه ، كما سنبين فيما بعد ، وهو مع ذلك لم يغضب سكينه حين روى لها هذا الشعر ؛ لأنها وغيرها من الشريفات اللأى شبب بهن عمر ، وغير عمر من شعراء حضر الحجاز الغزلين ، كن يفهمن مثل هذا الشعر على أنه زاد فنى ، يجدن فيه متعة بريئة ، كما يجد فيه أهل بيتهن الحجازية الحضرية ، من أصحاب المقامات والمنزلة مثل هذه المتعة .

ونحن نعرف أن سكينه وأمثالها من شريفات النساء ، وذوات العراقة في الحسب والنسب ، والبصر بالشعر وثقافته ، كن يفسحن في مجالسهن للشعراء وأهل الغناء ، ويستمتعن بسماع الشعر والغناء ، ويشاركن في نقده والتعليق عليه ، مما يدل على ماكن يتمتعن به من ذوق حضرى ، ومزاج فنى رفيع .

الأمر إذن ليس تحللاً ولا خلاعة ، ولا استهتارا بقيم الصون والعفاف ، فهؤلاء الشريفات وغيرهن لايسمح لهن ، ولايسمحن لأنفسهن بشيء من هذا ، وإنما رغبت تلك الطائفة من النساء ، ذوات المكانة والذوق والثقافة أن يحققن لأنفسهن شيئا من

(١) حديث الأربعاء / ١ / ٣١٤

(٢) الأغاني / ١ / ١٢٠ والشعر والشعراء ٢١٦

الشهرة الاجتماعية ، في نطاق مايسمح به مجتمعهم ، ولم يكن هناك ماهو أفعل في تحقيق هذه الغاية من أن يربطن أسبابهن بأسباب شعراء البيئة الغزلين المشهورين ، الذين يلهج الناس بأشعارهم ، ويتغنى بها المغنون .

دلالة هذا كله أن المرأة الحجازية فيما كانت تتمتع به من حرية في لقاء الرجل ، لم تنزلق في مهاوى المجون والانحلال الخلقي ، كما تصور بعض الرواة ^(١) ، ومن جاراتهم ، وخدع برواياتهم من الباحثين .

ونحن نلتمس صورة المرأة التي تحدث عنها هؤلاء الرواة عند الشعراء الغزلين في حضر الحجاز ، فلا نجد مصداقا لما ذهبوا إليه ، وإنما نجد امرأة أترف ذوقها ، فتطلعت إلى المشاركة في تذوق الحياة الفنية المتاحة في عصرها ، امرأة تنفق حياتها في الدعة والنعمة ، وتقيم صلتها بالرجل على نوع من الحرية ، يحوطه سياج من العفة والطهر ، الذي يليق بنبالتها ، وعريق أصلها ، ومكين شرفها ، ولا يخلو مع ذلك من اللهو البريء ، والدعابة الطريفة ، والظرف المحبب ^(٢) .

وإنما أوقع هؤلاء الرواة في هذا الوهم ، أنهم تصوروا شعر الشعراء الغزلين بالحجاز يحكى كله واقعا ، عبر عنه الشعراء ، وفهموا أن كل ماقالوه إنما هو انعكاس حقيقي لسلوك في حياتهم ، ولم يفتنوا إلى أن الشعراء كانوا يستوحون الخيال ، ويعبرون عن تجارب متخيلة ، أكثر مما يعبرون عن تجارب واقعة .

يشهد لهذا قول نصيب بن رباح الشاعر : « جميل أصدقنا شعرا ، وكثير أبكانا على الظعن ، وابن ربيعة أكذبنا ... »

فهذا الشاعر يعرف أن تجارب عمر بن ربيعة التي عبر عنها ، لم تكن كلها مستمدة من واقع حياته وسلوكه .

ولأدل على هذا من خبر عمر مع عائشة بنت طلحة بن الزبير ، فقد أقبل عليها وهي

(١) انظر مثلا : الأغاني ١ / ٣٥ وما بعدها

(٢) ذهب إلى هذا الدكتور طه حسين في مقاله بجريدة السياسة عدد ١٠ ديسمبر ١٩٢٤ م

جالسة بفناء الكعبة ، فقال لها ^(١) : ألا أنشدك ماقلت في موسمنا هذا (موسم الحج) ،
قالت : بلى ، فأنشدتها :

ياربَّ البغلة الشَّهباء هل لك في أن تنشُرَ عمراً لا ترهقني حرجا
قالت بدائك مت أو عِشْ تعالجه فما نرى لك فيما عندنا فرجا
قد كنت حملتنا ثِقْلاً نعالجه فإن ثَقِدْنَا فقد عَنِتْنَا جَجْجا
فقالت عائشة : لا ورب هذه البنية يابأ الخطاب ماعنيتنا قط طرفة عين .

في مثل هذا المجتمع المتحضر المترف ، تشيع أحاديث الصباية والغزل ، حتى
ليخيل لمن يقرأ في غزل هذه الفترة ، أن حضر الحجاز غدا أشبه بدوحة وارفة الظلال ،
باسقة الأغصان ، وعلى كل غصن ، وتحت كل ورقة منها ، وقف عصفوران يتناجيان ، أو
بلبل يغرد ، أو كروان يشدو ، وفي جوانب من هذه الدوحة وقف عمر بن أبي ريعة ،
والعرجي ، وابن قيس الرقيات ، والحارث بن خالد المخزومي ^(٢) ، وأبو ذؤيب
الجمحي ^(٣) ، والأحوص بن محمد ، وعبد الرحمن بن حسان ، ينشدون أناشيد الهوى ،
ووقف وراءهم المغنون والمغنيات ، والمملحنون معازفهم على صدورهم ، يحيلون تلك
الأشعار إلى أغان عذبة ، وألحان شجية ، وجمهور أهل الحضر من حوهم سعيد مفتون
بنتاج هؤلاء وأولئك ، مشغول بمغامراتهم ، متتبع أخبارهم .

وليس من المبالغة في شيء أن نقول : إن جمهور أهل الحضر في الحجاز ،

(١) أمالي القالي ٢ / ٣١٨ والشعر دون الخبر في رسائل الجاحظ ٢ / ٣٦١ وانظر أمثلة أخرى في أمالي
الزجاجي ١٠٦ ، ١٢٢ ، ١٢٣

(٢) في سبط اللآلئ ٢ / ٦٤٥ والموشح ٢٠٩ الحارث بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي ، وهو
أحد شعراء قريش العدودين ، وكان ذا قدر فيهم ، قيل : كانت العرب تفضل قريشا في كل شيء إلا في الشعر ، حتى
كان فيهم عمر والحارث والعرجي وأبو ذؤيب وابن قيس الرقيات ، فأقر العرب لها بالشعر أيضا ، وقد سار الحارث على
مذهب عمر المخزومي أيضا في الغزل ولم يتجاوزته إلى مدح أو هجاء ، وتولى الحارث إمارة مكة لعبد الملك بن مروان .
وانظر : الأغاني ٣ / ٩٧ ، ٨ / ١٣٢ وخزانة الأدب ١ / ٢١٧ وشرح الحماسة للمرزوقي ٣ / ١٢٨٢ .

(٣) وهب بن زعبة بن أسيد بن أحيحة من أشرف بني جمح من قريش ، نبغ في الشعر في أواخر عهد
الراشدين ، وله مدائح في ابن الزبير ، الذي ولاه بعض أعمال اليمن ، ولكنه كان مشتغلا بالغزل عن الالتفات إلى عمله ،
وقد شبب بعاتكة بنت معاوية بن أبي سفيان في خبر مروى . انظر : الأغاني ٦ / ١٤٩ والشعر والشعراء ٢٣٥
والاشتقاق ١٢٩ ومصارع العشاق ٨٧ .

كانوا يشاركون هؤلاء الشعراء عواطفهم وأحاسيسهم ، ويتعشقون الجمال ، كما تعشقوه ،
ويطربون لأحاديثه ، كما طربوا ، ومن حرم منهم موهبة الشعر قنع بالتصفيق للشعراء ، وترديد
أناشيدهم ، حتى الزهاد والعلماء والعباد من أهل الحضر ، اقتحم هذا التيار الغزل ، على
كثير منهم مساجدهم ، وحلقات دروسهم ، وخلواتهم .

فهذا عُروة بن أذينة ^(١) ، الفقيه المدني ، والناسك المحدث ، أسره سلطان الحب ،
فانطلق لسانه بأناشيد الهوى والغرام ^(٢) ، وهو القائل ^(٣) :

إذا وجدت أوار الحب في كبدي أقبلت نحو سقاء القوم أبرد

وناسك فقيه آخر ، هو عبّيد الله بن عبد الله التابعي ، أحد الفقهاء السبعة ،
الذين انتهى إليهم العلم بالمدينة المنورة ، جرى الشعر على لسانه ليعبر عن رقة قلبه للغزل ،
وهو القائل ^(٤) :

كتمت الهوى حتى أضربك الكتم ولأملك أقوام ولومهم ظلم

وعبد الرحمن بن عمار الجشمي الملقب بالقسّ — على تقواه وورعه — أحب

(١) أبو عامر مالك بن الحارث ، فقيه ناسك محدث ثقه ، روى عن مالك وعبد الله بن عمر وغيرهما ، وكان
أيضا شاعرا غزلا من مقدمي شعراء الغزل بالمدينة ، ومع تغزله كان يوصف بالعبقة ، توفي سنة ١٣٠ هـ .
انظر : الشعر والشعراء ٢٢٥ والأغاني ٢١ / ١٠٥ والمؤلف ٥٤ وحماسة الظرفاء ١ / ٢٠٨ وفوات الوفيات ٢ / ٣٥ وله شعر
كثير انظر منه في أمالي القالي ٢ / ١١٢ ، ١٧٤ والذيل ١٢٦ وأمالي المرتضى ١ / ٤١٣ ، ٤١٤ .

(٢) الأغاني ٢١ / ١٠٧

(٣) سمط اللآلئ ١ / ١٣٦

(٤) هو عبّيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، وعتبة هو أخو عبد الله بن مسعود الصحابي المعروف ،
هذه الأبي والألم (سمط اللآلئ ٢ / ٧٨١) قال البكري : وهو أشهر الفقهاء ، وكان سعيد بن المسيب إذا لقيه قال له :
أنت الفقيه الشاعر ؟ فيقول : لا بد للمصنوع أن ينفتح ، وهو أستاذ محمد بن شهاب الزهري ، وعمر بن عبد العزيز
الأموي (سمط اللآلئ ٢ / ٦٥٥) توفي سنة ٩٨ هـ ، قيل : إن ابن شهاب الزهري سمع شعرا له فقال : مثلك يرحمك
الله مع نسكك وفضلك وفهمك يقول الشعر !! فقال : إن المصنوع إذا نفتح برىء (أمالي المرتضى ١ / ٣٩٩) وانظر :
الإمتاع والمؤانسة ١ / ٢٦ ، والفقهاء السبعة هم : أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وقاسم بن محمد بن أبي
بكر الصديق ، وعروة بن الزبير بن العوام ، وسعيد بن المسيب ، وسليمان بن يسار ، وخارجة بن زيد بن ثابت ، وعبيد
الله هذا ، قال ابن رشيقي « وهم فقهاء المدينة ، وأصحاب الرأي ، الذين هم عليهم المدار » (العمدة ١ / ١٨) . وانظر
في أخباره أيضا : التذكرة السعدية ومراجعتها في الهامش ٤٦٨ ، وله أشعار مروية انظرها في : أمالي القالي ٢ / ٢٦١
والنواذر للقال ٢٢٣ ومصارع العشاق ٢١١ والعقد الفريد ٣ / ٣٩١

سَلَامَةُ الْمَغْنِيَةِ ، وَيَكِي بَيْن يَدَيْهَا ، وَمَنْ شَعَرَهُ فِيهَا قَوْلُهُ ، يَرِدُ عَلَى مَنْ لَامَهُ فِي هَوَاهَا : ^(١) :

وَإِنِّي إِذَا مَا الْمَوْتُ حَلَّ بِنَفْسِهَا يُزَالُ بِنَفْسِي قَبْلَ ذَلِكَ فَأَقْبِرُ
أَرَى هَجَرَهَا وَالْقَتْلَ مِثْلَيْنِ فَأَقْصِرُهَا مَلَأَكُمْ فَالْقَتْلَ أَغْفِي وَأَيْسِرُ

قال ابن سيرين : وهؤلاء العلماء كانوا يعشقون بلا روية ^(٢) .

وفيما يروى أن عبد الله بن عباس ، الفقيه ، المفسر ، المحدث ، الورع ، استقبل عمر بن أبي ربيعة ^(٣) في المسجد ، وعنده جماعة من أهل العراق ، يسألونه في أمور الدين ، فيهم نافع بن الأزرق ، واستنشد به بعض شعره في الغزل ، الذي يروى مغامرات الحب ^(٤) ، فأنشده رائيته التي مطلعها :

أَمِنْ آلِ نَعْمٍ أَنْتَ غَادٍ فَمُبَكِّرُ غَدَاةِ غَدٍ أَمْ رَائِحِ فَمَهْجُرُ

حتى أتمها ثمانين بيتا ، فقال له ابن الأزرق : لله أنت يا ابن عباس ، أنضرب إليك أكباد الإبل ، نسألك عن الدين فتعرض ، ويأتيك غلام من قريش ، فينشدك سفها فتسمعه !! فقال ابن عباس : تالله ما سمعت سفها ، فقال ابن الأزرق : أما أنشدك :

رَأَيْتُ رَجُلًا أَمَّا إِذَا الشَّمْسُ عَارَضَتْ فَيَحْزَى وَأَمَّا بِالْعَشَى فَيَحْضَرُ ؟

فقال ابن عباس : ما هكذا قال ، إنما قال : « فيضحى وأما بالعشى فيحضر »

(١) الموشح ٢٢٥

(٢) تزيين الأسواق ص ٧

(٣) أبو الخطاب عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة وكان أبوه عبد الله يدعى بحيرا فسماه الرسول (ص) عبد الله واستعمله عمر بن الخطاب على الجند باليمن واستمر واليا إلى أن جاء لنصرة عثمان فمات قرب مكة ، وعمر أمير الغزل في العصر الأموي ، ولد في الليلة التي مات فيها عمر بن الخطاب سنة ٢٣ هـ ، ونفاه عمر بن عبد العزيز إلى ذَهْلَك ، من قرى اليمن على ساحل البحر ، لما شاع غزله ، وتعرضه للنساء ، ومنهن سكينة بنت الحسين ، وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان وعائشة بنت طلحة وغيرهن ، ثم غزا في البحر ، فأحرقت السفينة التي كان بها فاحترق سنة ٩٣ هـ . وأخباره مستفيضة . انظر : الأغاني ١ / ٢٨ ، ١٦ / ٢ والشعر والشعراء ٢١٦ والحماسة لأبي تمام (طبعة الرياض) ٢ / ٢٤ وآداب الشافعي ومناقبه ٢٦٣

(٤) الأغاني ١ / ٣٢ — ٣٣ وانظر : ذيل أمالي القالي ١٤٣ وتزيين الأسواق ٣٥

قال : أو تحفظ ما قال ؟ قال : والله ما سمعتها إلا ساعتى هذه ، ولو شئت أن أردّها لرددتها ، قال : فارددها ، فأنشده إياها ^(١) .

ولعلنا بعد ذلك الذى ذكرناه عن طبيعة هذا الغزل الحضرى الحجازى ، وتجارب شعرائه لانغضب لابن عباس ، كما غضب منه ابن الأرق ، فما رأى هذا الشريف الورع العالم فى شعر عمر بن أبى ربيعة إلا مارأته الشريفة النسيبة سكينه بنت الحسين ، وفاطمة بنت عبد الملك ، وعائشة بنت طلحة ، وجماعة العلماء والزهاد ، الذى تحدثنا عن بعضهم ، وكلهم — ومعهم ابن عباس — ينظرون إلى هذا الشعر على أنه زادفنى ، وخیال شعري ، وطوبرى ، فهذا الخبر لایسئ لابن عباس ، ولا یمس مكانته الدينية ، ولا نزاهة نفسه ، عند من لا یعمیهم التعصب ، ولا تنقدهم مشاعرهم الغليظة عن تذوق الفن البرى .

وهناك وفرة من الروایات ، التى تدل على تذوق أهل حضرا الحجاز لهذا النوع من الغزل ، وقصة الحب التى يعبر عنها ، والأغاني التى تتخذها مادة لها ^(٢) ، نقرأ فیها كيف كان شباب الحجاز ، وكثير من أهل المكانة والكرامة والعلم والحسب فيه ، یطرحون الوقار عند سماع أشعار الغزلین ، وغناء المغنین فیها ، أو تستروح عیونهم لمجالى الجمال ، أو یُسْفرون بین الشاعر وصاحبته ، أو تتسع صدورهم لسماع الشعر والغناء .

وكأنما كان العلماء وأهل الورع من الحجازیین یرون فى إدراك الجمال على هذا النحو ، معنى من إدراك جمال الله — عز وجل — والتفات إلى تأمل إتقان صنعه ، فى بدائع صنعته ، وأن هذا لا یتعارض مع الدين أى تعارض ، كما یرون فى الاستماع إلى شعر الغزل والجمال استرواحا للنفس « فكلام العشاق ومنادمتهم تزيد فى العقول ، وتحرك النفوس ، وتطرب الأرواح ، وتجلب الأفراس » ، كما یقول ابن أبى حجلة المغربى ^(٣) .

(١) الكامل للمبرد ٣ / ١٣٥ والأغاني ١ / ٣٢ . عارضت : قابلت ، یعنی ارتفعت فى السماء . یضحى : یظهر للشمس . یخضر : یجد ، والسفه الذى یعنیه نافع ابن الأرق هو الترف ، حیث یصف رجلا مترفا لینا ، لبس بشدید ولا یجلد ، والجلد یصف نفسه بالضحاح والبروز للشمس ، وقلة الاستقلال (سمط اللآلی ٢ / ٦٧٣) .

(٢) انظر مثلا : الأغاني ١ / ٨٥ ، ٤ / ٥٥ ، ١٥٢ ، ٦ / ٨٨ وانظر كذلك : تاریخ الشعر العربى (البیهیتى)

١٢١ — ١٢٣ ، ١٢٧ — ١٢٨

(٣) دیوان الصیابة (على هامش تزیین الأسواق) ٢٣

في ظل هذا الخصب النفسى في تذوق الحياة ، والمرح ، والفن ، وما يصاحب ذلك من خفة الروح والظرف المعروف عن أهل الحجاز ^(١) ، نما الغزل الحجازى في الحضر وازدهر نتاجا لكل العوامل التى ذكرنا .

وإذ فرغنا من هذا التمهيد ، الذى لم يكن منه بدّ ، لتصور الجو العام ، الذى كان يتحرك فيه الشعراء الغزلون ، وينشدون أشعارهم ، فقد آن لنا أن نأخذ في دراسة طائفة من ألوان هذا الشعر وصوره ؛ لنخلص إلى تحديد موقفنا من القضية الكبرى ، التى تشغل المؤرخ لهذا الفن ، والتى أشرنا إليها في صدر هذا الفصل .

— ٤ —

أولا : صورة المرأة في الغزل الحجازى :

أبرز ملامح هذه الصورة :

١ — الترف والتنعم والتحضر ، من صفات المرأة الموصوفة في غزل الحجاز الحضرى ، وشعراؤه يلحون على هذا الجانب من صورتها ، ويبرزونه في مظاهر مختلفة . منها : نعومة البشرة ، من أثر الترف والنعمة ، يقول عمر بن أبى ربيعة في صاحبته ^(٢) :

لو دبَّ دَرٌّ رُوَيْدًا فوق قَرَقَرِهَا لأثر الذر فوق الثوب في البشر

فهذه المرأة قد بلغت من رقة البشرة وحساسيتها ، من أثر النعيم والترف ، أن لو مشى صغار النمل ، مشيا وثيدا فوق ثوبها ، دون أن يلامس بشرتها لترك أثرا واضحا على ظاهر جلدها !!

(١) حكى المرباني قال : سئل أبو نوفل : هل سلم أحد من العشاق ؟ فقال : نعم ، الجلف الجافى الذى ليس له فضل ، ولا عنده فهم ، فأما من في طبعه أدنى ظرف ، أو معه دمائه أهل الحجاز ، فلا يسلم منه . (ديوان الصباية ٢٣) وانظر فيما عرف به أهل الحجاز من ظرف ودمائة وتسامح في اللهو والغناء : فجر الإسلام ١ / ٢٠٩ .
(٢) ديوانه ١١٧ الذر : صغار النمل . القرقر : ثياب المرأة . البشر : الجلد .

ويبالغ عمر في هذا المعنى ، فيترك الذر ليلامس البشرة في مشيه الوثيد ، فإذا بجلد هذه المرأة المترفة المنعمة قد ظهرت عليه آثار هذا السير ، جروحاً ملتبئة ^(١) :
 لو دبّ ذرٌ فوق ضاحي جلدِها لأبان من آثارهن حُذور
 أرأينا ، كيف بلغ من حساسية بشرة صاحبه ، أن لو اتصل الحمل الصغير بظاهر جسمها ، لترك فيه من آثار سيره كلوما وأوراما !!

ومنها : لين الحياة وترفها وتحضرها ، وبهذا يصور الأحوص ^(٢) صاحبه ^(٣) :
 ولها مَرَّعٌ بِبُرْقَةٍ خَاجٍ ومصيفٌ بالقصر قصر قُبَاء
 فهذه ليست صورة امرأة بدوية ، تعيش عيشاً خشناً ، بل صورة امرأة متحضرة مترفة ، تقضى الربيع بين الخضرة والأزاهير ، وتصطاف في قصر لها ، بضواحي مدينتها ، فما أشبهها بغانية أيامنا هذه !!

ومنها : ألوان الزينة والطيب ، وفي غزلهم شعر كثير يصف ملابس المرأة التي تحضرت ، وما كانت تفرق نفسها فيه من صنوف الحلى ، وأنواع الطيب .
 نأخذ — مثلاً — قول الأحوص ^(٤) :

يَزِينُ لَبَّتْهَا دُرٌّ ثَكَنَفَ — نُظَامُهُ فَأَجَادُوا السَّرْدَ إِذْ سَرَدُوا
 دُرٌّ وَشَذَرٌ وَيَاقُوتٌ يَفْصِلُهُ كأنه إِذْ بدا جَمْرُ الغُضَا يَقْدُ

إنها تتزين بعقد ثمين ، متقن الصنعة ، نظمته يدُ صناع ماهرة ، وجمعت فيه ألواناً من المعدن والأحجار الكريمة ، ففيه الدر ، وقطع الذهب الصغيرة ، والياقوت ، نظمت

(١) ديوانه ١٢٥ الحدور : الأورام

(٢) أبو عاصم عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم (حجى الذر) الأوسى ، شاعر إسلامى أموى من شعراء المدينة ، مقدم في النسب والفخر والمدح ، نفاه عمر بن عبد العزيز إلى دهلك ، كاهن أبى ربيعة ، ولأنساب نفسها تقريباً ، ورده يزيد بن عبد الملك ، وقدم دمشق فمات بها ١٠٥ هـ ولقب بالأحوص لضيق في مؤخر عينيه . انظر : الأغاني ٤ / ٤٠ ، ٧ / ٣٩ ومعاهد التنخيص ١ / ٢٢٩ والموشح ١٨٨ والشعر والشعراء ٢٠٤ وابن سلام ٦٥٥ (المدنى) ومخط اللآلى ١ / ٧٣ ، ٢ / ٧٨٦ وخزانة الأدب ١ / ٢٣٢ والعمدة ١ / ٤٢ والتذكرة السعدية ٩٤ ومراجعتها في الهامش .

(٣) ديوانه ٧٢ برقة خاخ : موضع بين مكة والمدينة به روضة . قباء : محلة قرب المدينة .

(٤) ديوانه ٩٣ البية : موضع القلادة من الصدر . ثكنفه : عكف عليه . الشذر : قطع صغيرة من الذهب .

الغضا : شجر خشبه من أجود الوقود .

كلها في شكل منسق جميل ، فهي إذن امرأة ثرية ، تتمتع بذوق رفيع في اختيار زينتها .
وصاحبة عمر بن أبي ربيعة هي الأخرى ثرية مترفة منعمة ، تتضمَّح بصنوف من
الطيب ، يفوح شذاها من ثنايا ثوبها وأكمامها ^(١) :

— يفوحُ القَرْنُفُلُ من جَنِيها وريحُ اليَلَنَجُوجِ والعَنبرِ
ومرة أخرى هي ^(٢) :

خَوْدُ يفوح المسك من أَرْدَانِها والعنبرِ

أما صاحبة عبيد الله بن قيس الرقيات ، فهي من ربات القصور ، مصونة مترفة
تتخذ الستائر على النوافذ لتقيها وهج الشمس ^(٣) :

تَتَّقِي بالحرير من وهج الشعْسِ وخَزُّ العراقِ والأستارِ

وهل تتحلى بكل هذه الصنوف من الخلى ، وتتعطر بكل هذه الأنواع من
الطيب ، وتلبس الحرير ، والخز الفاخر ، وتحجبها الأستار من وهج الشمس ، إلا امرأة
متحضرة ، مبالغة في تحضرها ، منعمة ، موفورة النعمة ، مترفة ، لاتقوم على خدمة
نفسها، أو ذوبها ؟؟

ومنها : الصون وعدم الابتذال في العمل والخدمة ، وهل أدل على هذا من هذه
الصورة التي نرى فيها صاحبة الشاعر ، تحف بها الجوارى ، يسلينها ، ويقطعن لها وقت
فراغها ، ويقمن على خدمتها ، ويهين لها من فنون اللهو واللعب ، ما يدخل السرور على
قلبا ، ومع ذلك فهي ملولة مدللة ، يقول عمر ^(٤) :

ولقد قالت لأثرابِها كالمها يلعبن في حجرتها

تُحْذِنُ عني الظلُّ لايتبعني ومضت تسعى إلى قُبَّتِها

إنه دلال مابده دلال ، وترف مافوقه ترف ، أن تطلب هذه الشابة من جواربها أن
يأخذن عنها ظلها بعيدا فقد ملَّت ملازمته إياها !!

(١) ديوانه ١٧٣

(٢) ديوانه ١٧١ خود : ناعمة شابة بضة . الأردن : جمع ردن (بضم الراء) : الكم أو أصله .

(٣) ديوانه ٢٣

(٤) ديوانه ٤٨٧ .

ومثل هذا يصور العرجى صاحبه (١) :

وعلى الباب ذى الشفيقة سُعْدَى لا أرى مثلها من الخُدَام
كلما صفقت وثبسن إليها كقيام الشرطى عند الإمام

فهى محوطة بالخدمات ، وهن رهن إشارتها ، كلما طلبتهن ، أسرعن إليها ملييات .

والآن ، ما الجديد فى هذه الصورة ؟

يلاحظ القارئ فى الشعر الجاهلى ، أن بعض مظاهر هذه الصورة ، هى من الصفات التى خلعها غير واحد من الشعراء الجاهليين ، على المرأة المتغزل فيها .

فعومة جسم المرأة ، وملازمة بشرتها ، وتزينها بمختلف صنوف الحلى ، وتضمخها بألوان من العطر ، كلها من المعانى ، التى طرقها الشعراء قبل العصر الأموى .

فبحوا من هذا وصف امرؤ القيس بعض من تغزل بهن ، فهو يقول مثلاً — فى صاحبه نُعم (٢) :

منعمَةٌ فضلت صورةً من الحى فى منصِب قد كمل

ويقول فى أخرى ، واصفا إياها بالتنعم (٣) :

من القاصرات الطرف لودب مُحولٌ من الذر فوق الإثب منها لأثرا

ويقول حسَّان بن ثابت فى صاحبه (٤) :

لو يدبُ الحولى من ولد الذر عليها لأندبتهَا الكَلوم
همها العطر والفراشُ ويعلوها لُجَيْنٌ ولؤلؤ منظوم

فصورة الذر الذى يؤثر فى البشرة ، ويترك بها جراحا عند امرئ القيس وحسان

(١) ديوانه ١٢٢ الشفيقة : الخادمة .

(٢) ديوانه ٢٩٧ . المنصب : النسب الشريف .

(٣) ديوانه ١٠٥ والموشح ٦٣

(٤) ديوانه ٩٩ الحولى هنا : صفار الحمل ، قال الجاحظ فى الحيوان (٤ / ٥) : هو كما قال الشاعر :

تلقت حولى الحصا فى منازل من الحى أمت بالحييين بلقما

قال : وحولى الحصا : صفارها ، فشبهه بالحولى من ذوات الأربع .

هى الصورة نفسها التى رأيناها عند عمر بن أبى ربيعة ، وألوان الزينة والعطر متقاربة هنا وهناك .

ويقول طرفه بن العبد ، عن صاحبه المترفة ، الممتلئة صحة ونضارة^(١) :
 لاتلمنى ————— لأنها من نسوة رُقْد الصيف مقاليت نَزُرُ
 وهذه المعانى من جملة ما عبر عنه عمر بن أبى ربيعة ومعاصروه ، فى تصوير ترف الحبيبة وتنعمها .

وإذا كان الجاهليون قد تحدثوا عن ترف الحبيبة ، فقد تحدثوا عنها أيضا واصفين زينتها ، وماتحلى به من كريم الجواهر .

يقول لبيد بن ربيعة العامرى^(٢) :

وعالين مضعوفاً وفرذاً سُمُوطه جمانٌ ومرجانٌ يشدُّ المفاصلا
 فالعقود التى تتحلى بها هؤلاء النسوة منوعة ، منها المضاعف ، ومنها المفرد ، وفى كل منها أحجار كريمة من الجمان والمرجان .

وللمثقب العبدى فى مثل هؤلاء الحسان^(٣) :

أرئى محاسناً وكئنْ أخرى من الأجياد والبشَر المصون
 ومن ذهب يلوح على تريب كلون العاج ليس بذى غضون
 أما صواحب المرقش الأصغر ، فقد أثقلن بصنوف من الجواهر^(٤) :
 تحمُلن ياقوتاً وشذراً وصيغَةً وجزعاً ظفاريّاً ودُرّاً توائمنا
 أى لبسن الحلى المكون من ياقوت ، وقطع من اللؤلؤ ، أو من الذهب الصغار ، وماصيع من الحلى ، والخرز الجمالى النفيس ، ودر نظم اثنين اثنين .

وهناك مظهر آخر من مظاهر الترف والنعمة ، تحدث عنه الجاهليون ، فقد صوروا الحسان يتعطرن بألوان شتى من العطور :

(١) ديوانه ٧٣ رُقد الصيف : ينمن وقت القيلولة ، يعنى أنها لاتعمل فى الخدمة . مقاليت : جمع مقلاة ، وهى التى لاتلند ، فإن ولدت لايعيش ولدها ، وهذا أكمل لجسمها ، وأحفظ لصحتها .

(٢) ديوانه ٢٢ . مضعوفاً : عقداً مزدوج السط .

(٣) الفضليات ٢ / ٨٩

(٤) المصدر السابق ٢ / ٤٥

فها هو ذا امرؤ القيس يتحدث عن صاحبتين له ، تضمختا بالمسك ، حتى تركنا أثر هذا الطيب في الفراش ، يقول (١) :

إذا قامتا تَضَوُّعَ المسك منهما نسيم الصَّبَا جاءت بِرِيًّا القَرْنُفُل
وتَضَخِّي فَنَيْتَ المسك فوق فراشها نثوم الضحى لم تنتطق عن تفضُّل
وهن مع هذا فارغات ، يُخدمن ، ولا يَخُدُّ من.

ويقول حسان بن ثابت ، جامعا لصاحبه ، ألوانا من العطر والزينة :
هَمُّهَا العطر والفراش ويعلّو هَالَجَيْنَ وَلَوْلُو منظوم
ويقول قيس بن الخطيم (٢) :

كَأَنَّ القَرْنُفُلَ والزَنْجَبِيلَ وذاكى العبير يجلبابها ...

وهكذا عبر الجاهليون عن ترف المرأة المعشوقة ، وزينتها ، وعطرها ، كما عبر شعراء الغزل الأميون ، وغاية ما بينهما من فرق ، إنما هو في التعبير عن هذه الصورة المترفة ؛ حيث مال الأسلوب عند شعراء الحجاز إلى السهولة والركة ، مع إضافات ، تضيف على هذه الصورة لونا أكثر تحضرا ، وترفا ونعمة .

٢- ومن الملاحح الهامة في صورة المرأة الحجازية في غزل الحضر ، صلة المرأة المحبوبة ، بالرجل الذى يتعشقها ، وهى صلة رأيناها تقوم على نوع من الجرأة المهدبة ، في الإقبال على الرجل ، ومجالسته ، والاستمتاع بحديثه ، في غير تكلف ، أو تصنع للحشمة ، وفي غير تبذل ، واستهتار أيضا .

وفي مجتمع أخذ طريقه إلى التحضر والتطور كحضر الحجاز في العصر الأموى ، ينشأ عادة طبقة من الرجال والنساء على مستوى من التهذب الحضري ، والثقافة الحضرية ، والمكانة الاجتماعية ، والثروة .

ومثل هذه الطبقة يكون من اهتماماتها التطلع إلى أن تحيا حياتها ، كما ينبغي أن يعيش المرء في مجتمع متحضر .

(١) ديوانه ١٣

(٢) ديوانه ٢٣

وقد هيأت الحياة في حضر الحجاز وسائل التمتع بمثل هذه الحياة ، بحيث يستطيع الرجل أن يجتد ، وأن يلهو ، وأن يزاوج بين الدين والدنيا ، وأن لا يجد حرجا في هذه المزاجية ؛ لأن هذا هو النمط الطبيعي للحياة المتحضرة .

أما المرأة فقد كانت تخطو خطواتها الأولى في مضمار السعى إلى حياة التطور والتحضر ، والمألوف حينئذ أن لا تتخلى المرأة مرة واحدة ، أو بسرعة عن رواسب تقاليد المجتمعات الشديدة المحافظة ، كالمجتمعات البدوية ، وأن تحرص مع هذا على تثبيت خطواتها في دنيا الحضارة الجديدة ، وبالنسبة للمرأة الحجازية ، فإنها أقبلت على حياتها الجديدة برصيد طيب من الصون والعفة ، ورعاية القيم الاجتماعية والدينية ، وأخذت مع ذلك بالمتاح من مظاهر التحضر في مجتمعتها ، ورأت أنها يمكن أن تحقق وجودها الاجتماعي ، ورضاها العاطفي ، عن طريق الاتصال بالحياة الثقافية والفنية في مجتمعتها ، وبعض هذه الحياة تتمثل في النشاط الشعري ، الذي كان رائجا حينئذ ، والذي استطاع أن يجتذب إليه قطاعا عريضا من أهل الحضر ، فلا بأس إذن من أن تخرج المرأة الحضرية الحجازية للقاء الشعراء ، والجلوس إليهم ، وتناشد الأشعار معهم .

وطبيعي وقد سقطت الحواجز بين الشعراء والنساء ، على هذه الصورة المهيبة ، أن يتخذ الشعراء من هؤلاء النسوة المتحضرات ، المثقفات ، ذوات المكانة العالية في المجتمع الحضري موضوعا للغزل ، وأن يسبح خيال الشعراء ، فلا يقف عند حد هذه الصلة المحددة ، فيروح الشاعر منهم يخترع المواقف ، ويتصور التجارب ، لامن فراغ تام ، وتحيل خالص ، بل على أساس مما يرى ويسمع ، ويشعر ، خلال لقائه بهؤلاء النسوة ، وهو أساس لا يتصادم مع قواعد الفضيلة ، والعفة ، والمحافظة ، ولكن على خيال الشاعر ، وفنه أن يتولى هذا الأساس ، فيرفعه وينميهِ ، ويضيف إليه اللمسات ، التي تصنع منه التجارب ، التي دار حولها الشعر الغزل في حضر الحجاز .

واستوى في هذه الصلة بين الشعراء والمرأة ، والإقبال عليها ، والرغبة فيها ، جميلات الحجاز الشريقات ، وغيرهن من جميلات وشريقات البيئات الأخرى المتحضرة في العراق والشام ، حتى جميلات البيت الأموي الحاكم ، شاركن نظائرهن من الحجازيات القرشيات ، وغير القرشيات ، في الإقبال على شعراء الحجاز ، والإيعاز إليهم أن

يذكروهن في شعرهم الغزل بأسمائهن أحياناً ، أو بالكناية عنهن أحياناً أخرى .

ولعل مما يصور مدى حرص هؤلاء النسوة على الاتصال بعالم الشعر الغزل في الحجاز ، وربط أسبابهن بأسباب شعرته ، ما يروى من أن الخلفاء الأمويين كانوا يتوعدون الشعراء إن أقدموا على التشبيب بينات البيت الأموى ، وأن شيئاً من هذا حدث مع عمر بن أبى ربيعة ، فلما قدمت فاطمة بنت عبد الملك مكة ، أخذ عمر يحوم حولها ، ويشيب بها دون أن يصرح باسمها خوفاً من وعيد بنى أمية ^(١) ، ولكن فاطمة احتالت على لقاء عمر فى قصة طريفة مروية ، ^(٢) حتى ظفرت بـلقائه ، ومحادثته ، وتناشد الأشعار معه ، والاستماع إلى أشعاره فى الغزل ، ولعلها سمحت له أن يشيب بها ، ولعلها إحدى النسوة اللاتى شبب بهن تحت أسماء مستعارة .

ويعكس شعر عمر بن أبى ربيعة هذه الصلة التى قامت بين الرجل والمرأة فى المجتمع الحجازى الحضرى فى صور عديدة ، تعبر عن لقاءات بين الشاعر وصاحبته منفردين ، أو مع جماعة ، نرى من خلالها مصداق ما ذكرنا :

من ذلك قوله ، يتحدث عن لقاءه بصاحبة له ، دعاها زينب ، على انفراد ، فى ليلة مقمرة ^(٣) :

فلستُ بناسٍ ليلة الدَّارِ مجلساً لزينب حتى يعلو الرأسَ رأسُ
خلاءً بدتُ قَمَرًاؤه وتمخضت دُجَّتُهُ وغابَ مَنْ هو حارسُ
فما نلتُ منها مَحْرَماً غيرَ أننا كلانا من الثوب المورَّد لابسُ
نجيين نقضى اللهو فى غير مائِثٍ ولو رَغِمْتُ مِلْكًا شحين المعاطسُ

فعمر ينفرد بصاحبته فى هذا الجو الشعارى ، يتبادلان حديث الهوى فى صوت خافت ، وحسبهما هذا الحديث ، وما يتخلله من لمسات برئية لاهية ، لاتغريهما صورة هذا اللقاء ، ولا غياب الحارس ، والبعد عن الرقباء ، بارتكاب الإثم .

(١) انظر : الأغانى ١ / ١٤٢

(٢) راجع المصدر نفسه ١ / ١٣٨

(٣) ديوانه ٣٩٥ والأغانى ١ / ٤٣ تمخضت دجته : انكشف ظلامه الشديد . الراس : الدفان ، والمراد حتى

وما يدل على حظ مثل هذا الشعر من التهذب ، وبراءة القصد ، ويؤكد ماسبق أن ذكرناه منذ قليل عن طابع التجارب في هذا الغزل ، ما يروى من أن ابن أبي عتيق^(١) سمع وهو بالمدينة قول عمر :

فما نلت منها محرماً غير أنسا كلانا من الثوب المورد لابس

فقال : أبنا يلعب ابن أبي ربيعة ، فأى محرم بغى ؟! ثم ركب بغلته متوجها إلى مكة ، وتعجل فلم يطف طواف القدوم ، حتى أقبل على عمر ، فقال : أما زعمت أنك لم ترتكب حراماً قط ؟ قال : بلى ، قال : فما قولك : « كلانا من الثوب المورد لابس » ؟ فقال عمر : إذن أخبرك ، خرجت بعلّة المسجد (أى بدعوى الذهاب إليه) فصرنا إلى بعض الشعاب ، فأخذتنا السماء ، فأمرت بِمَطْرِفٍ ، فسترنا الغلمان به ، لئلا يروا بها بِلّةً ، فيقولوا : هلا استترت بسقائف المسجد ؟ فقال له ابن أبي عتيق : يا عاهر !! هذا البيت يحتاج إلى حاضنة !!^(٢).

فهل كان ابن أبي عتيق ينزعج إلى هذا الحد ، الذى يهمل معه واجب تحية بيت الله ، لو كان يعرف كما يعرف غيره أن مثل هذه المعانى إنما هى ترجمة واقعية لسلوك هذا الشاعر وأصحابه من شعراء بيته الغزلين ؟

إنما أزعج هذا الناسك ما يوحى به ظاهر التعبير في البيت من معنى فاضح ، مع علمه وعلم غيره من أبناء مجتمعه ، أن هؤلاء الشعراء يقولون مالا يفعلون ، فخشى أن يكون هذا تطوراً وانحرافاً في سلوك عمر ، مع علمه بطهارته ، وإلا لاكتفى باستمطار اللعنات على الشاعر الفاسق ، دون أن يكلف نفسه عناء الرحلة من المدينة إلى مكة ، ومواجهة الشاعر ، والاستفسار منه عما عنى .

وهذا الإقبال الذى يتميز باللهو البريء ، قد يأخذ صورة حضرية جذابة ، حيث تصطبغ الحبيبة أترابها ، إلى روضة مزهرة خارج المدينة ، ويجتمعن بالشاعر

(١) هو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ، قرشى ناسك ، من ظرفاء قريش ، كان صديقاً لعمر بن أبي ربيعة ، وكثيراً ما سفر بينه وبين صواحبه . انظر : سمط اللآلئ ٢ / ٦٤٤ والموشح ٢٠٩ وشاعر الغزل للعقاد

وصحبته ، ويقطعن الوقت في هو معهم ، وتناشد الأشعار ، وتبادل عبارات الهوى .
في مثل هذا اللقاء يقول عمر بن أبي ربيعة^(١) :

وقد أرى سريباً به حسناً مثل الجآذر أثياباً وأبكارة
فيهـن هند وهند لأشبيه لها مـمن أقام من الجيران أو سارة
يـمـمـن مـورقة الأفنان دانية وفي الخلاء فما يؤنس ديارا
قالت : لو أن أبا الخطاب وافقنا فنلهوا اليوم أو نئشد أشعارا
فلم يرغهن إلا العيس طالعة يحملن بالنعف ركابا وأكوارا
قلن : انزلوا نعمت داريقركم أهلا وسهلاً بكم من زائر زارا
فقلت : من ذا المحيى وانتبهت له أم من محدثنا هذا الذي زارا؟
قالت : محب رماه الحب آونة وهيجه دواعى الحب إذ حارا

فمثل هذه اللقاءات لا تزيد على كونها هوى اجتماعيا ، تريد به هؤلاء النسوة أن يلقين هذا الشاعر المشهور ، الذى يتحدث عنه الناس في مجتمعهن ، وأن يخلقن صلة بينهن وبينه ؛ ليتحدث عنهن في أشعاره ، فهن سعيدات بهذا اللقاء ، والشاعر سعيد أيضا به ، يتحدث عنه في شعره ، مُدلاً على أقرانه من الشباب ، الذين لايتاح لهم مايتيح له .
وقد تمضى التجربة على هذا النحو ، منتبهة بهذه النهاية ، إذ ينفض المجلس ، ويعود عمر وصحبته من طريق ، وتعود هند وأترابها من طريق ، ويخرجن من هذا اللقاء بمتعة اللقاء ، وبأمل في مثله ، قد يتحقق أولا يتحقق ، ويخرج الشاعر منه بهذه التجربة الفنية ، يرضى بها هوى الفن ، ويرضى عنها أهل بيئته حين يسمعونها إنشادا ، أو يستمعون إليها غناء .

وقد يضيف الشاعر على تجربته بعداً آخر ، واقعا أو متخيلا ، نرى من خلاله أتراب صاحبته ، وقد استشعرن رغبة الحبيبين في لقاء منفرد ، لفترة موجزة ، ولكن على مقربة منهن ، رعاية لحق الهوى من ناحية ، ومراعاة لقيم المجتمع المتحضر المحافظ معا ، من ناحية أخرى ، فيدعين حاجتهن إلى التجول في السهل القريب ، وتظهر صاحبتهم تمتعها على هذا الاحتياال الذى دبرته في مكر ظريف ، إرضاء للشاعر المحب^(٢) :

(١) ديوانه ١٢٠ سرب به : أى بالربع ، والسرب الجماعة : « يقال سرب من قفا ، وسرب من نساء ، وسرب من ظباء » (الموشح ٣٢٩) . ديار : أحد . أبو الخطاب : كنية عمر .
(٢) ديوان عمر ٢٩٤ ذى النبل هنا : سقيم الفؤاد .

فسلمتُ واستأنستُ خيفة أن يرى
فقلت وأرخت جانب الستر إنما
فقلت لها : ماى لهم من ترقب
فلما اقتصرنا دونهن حديثنا
عرفن الذى تهوى فقلن لها : ائذنى
فقلت : فلا تلبثن ، قلن : تحدثى
فقمسن وقد أفهمن ذا اللب إنما
عدو مكاني أو يرى كاشح فغلى
معى فتحدثت غير ذى رقة أهلى
ولكن سرى ليس يحمله مثلى
وهن طبيبات بحاجة ذى التبل
نطف ساعة فى طيب ليل وفى سهل
أتيناك ، وانسبن انسياب مَهَا الرمل
فعلن الذى يفعلن من ذاك ، من أجلى

وهكذا كان المجتمع النسائي يطل على مجتمع الرجال فى هذه البيئة التى تحضرت ،
من خلال هذا الشاعر وأمثاله ، وكان النساء يلقينه مجتمعات أحيانا ، ليسمرن معا ، أو
محفتيات به أحيانا أخرى ، ثم يخلين بينه وبين صاحبتة بعد حين ، وهما على مرأى منهن ،
دفعاً للرية ، وتقديراً للعواقب .

ودفعاً لمظنة انفراد عمر بهذه التجارب من دون شعراء عصره وبيئته ، وأن ذلك كان
اتجاهاً فنياً خاصاً به وحده ، نلتفت إلى شاعر آخر من أصحاب عمر ، ومن عبروا عن
هذا الغزل الحضري ، كما عبر عمر ، وتحيلوا تجاربه ، أو حققوها ، كما تحيلها عمر أو
حققها ، إنه العرجى الشاب المكى القرشى الوسيم ، يجتمع فى هذا مع عمر ، كما يتفق
معه فى الفراغ والثراء ، وعراقة النسب .

نقف على صورة غزلة من صور العرجى ، فنراها تحكى لنا نفس الملامح التى
حكها عمر للمجتمع الحجازى المتحضر ، وتبرز نفس الصلة ، التى كانت بين الرجل
والمرأة فى هذا المجتمع .

هى صورة لقاء له مع صاحبتة ، دبرته مع صديقاتها ، وأرسلن إليه أن يوافهن
ليلاً ، وليحذر العيون المراقبة ، ويقبل الشاعر متلصصاً ، ويدنو منهن حذراً ، ويقضى الليل
فى سمر معهن ، مكاشفاً ، صاحبتة بهواه ، وتقبل منه هذه المكاشفة ، ثم يمضى عنها
وعنهن ، فيودعته والدموع تتحير فى أعينهن : (١)

حورٌ بعثن رسولا في ملاطفة
إلى أن اثنا هذءاً إذا غفلت
فجئت أمشي على هول أجشمه
أمشي كما حركت ربحٌ يمانية
وهنّ في مجلس خالٍ وليس له
حتى جلسْتُ إزاء الباب مكتما
أبدنين لي أعينا نجلا كما نظرت
قالت كلابةٌ : مَنْ هذا ؟ فقلت لها :
أنا أمرؤ جدّى حب فأحرضنى
لاتكلينى إلى قوم لَوَأْنَهُمُ
وأنعمى نعمة تُجزى بأحسنها
هذى يمينى رهن بالوفاء لكم
قالت : رضىت ولكن جئت في قمر
فبْتُ أسقى بأكواس أُعلُّ بها

ثَقِفاً إذا عَقَلَ النساءَ الوهمُ
أحراسنا وافتضحنا إن هم علموا
تجشم المرء هولا في الهوى كرمُ
غصنا من البان رطباً طله الدِّيمُ
عين عليهن أخشاهما ولا ندم
وطالبُ الحاج تحت الليل مكتمُ
أذم هجان أناها مصعبٌ قَطِمُ
أنا الذى أنت من أعدائه زعموا
حتى بليتٌ وحتى شفى السقم
من بغضنا أطعموا لحمى إذن طعموا
فطالما مسنى من أهلك النعم
فارضى بها ولأنف الكاشع الرغم
هلا تلبث حتى تدخل الظلمُ
من بارد طاب منها الطعم والنسم...

هذه الصورة تشبه كثيرا صورة عمر في اللقاء مع النساء ، فكلاهما يشترك فيه أكثر من امرأة ، وكلاهما يأخذ صورة السمر مع الفتى الشاعر الوسيم المعروف ، يسمعن منه ، ويتوقعن أن يعلو شأنهن إذا ذكرهن في بعض شعره ، ثم ينتهى اللقاء وليس فيه من المتع الحسية شيء ، أو شيء يسير ، يؤدى به واجب التقليد الفنى في وصف الجمال ، وفى لقاء عمر نجد نفس اللوعة المشتركة بين الشاعر وصاحباته للفراق .

وهذا التشابه فى التجارب الغزلة بين شعراء البيئة الواحدة ، له دلالة على تشابه أنماط الحياة الاجتماعية وظروفها ، التى كان يتحرك فى إطارها هؤلاء الشعراء .

وعند عمر بن أبى ربيعة كالذى عند غيره من شعراء الحضر الغزليين ، من صورة تبادل الشوق بين الحب والمحبوب .

فقد يستبد به الشوق ، فيذهب إلى صاحبتة ، وينادىها فى غير حرج ، فتلبى النداء ، وتوافيه مع جماعة (أيضا) من أترابها ، يزهيهما الجمال ، ويحرسها الخفر

والصون ، يعبر عن ذلك عمر قائلا (١) :

مَنْ رَسُولِي إِلَى الثَّوْبَا بِأُنْيَى ضَقْتُ ذَرْعاً بِهِجْرَهَا وَالْكِتَابَ
سَلْبَتْنِي مُجَاجَةً الْمَسْكِ عَقْلِي فُسَلُوها بِمَا تُحْلِلُ اغْتِصَابِي
أَرْهَقْتُ أَمْ تُؤَفِّلُ إِذْ دَعَتَهَا مَهْجَتِي مَالِقَاتِي مِنْ مِتَابِ
حِينَ قَالَتْ لَهَا : أَجِيبِي ، فَقَالَتْ : مَنْ دَعَانِي ؟ قَالَتْ أَبُو الْخَطَّابِ
فَاسْتَجَابَتْ عِنْدَ الدَّعَاءِ كَمَا لَبَّيْ رَجَالٌ يَرْجُونَ حَسْنَ الشَّوَابِ
أَبْرَزُوهَا مِثْلَ الْمَهَاةِ تَهَادَى بَيْنَ خَمْسِ كَوَاعِبِ أَتْرَابِ
وَهِيَ مَكْنُونَةٌ تَحْجُرُ مِنْهَا فِي أَدِيمِ الْخُدَّيْنِ مَاءُ الشَّبَابِ
ثُمَّ قَالُوا : نَحْبُهَا ؟ قُلْتُ : بَهْرًا عِدْدَ النِّجْمِ وَالْحَصَى وَالتَّرَابِ

وقد تشناق هي إلى لقاء الشاعر ، ومحادثته ، والاستماع إليه ، وقد تغيب عنها فترة ، فلا تجد بأساً من إرسال رسول إليه ، تستحثه على القدوم ، متوددة عاتبة ، ذلك قول عمر (٢) :

إِنَّ هِنْدًا قَدْ أَرْسَلَتْ وَأَخُو الشُّوقِ مَرْسَلُ
أَرْسَلْتُ تَسْتَحْتَنِي وَتُقَلِّدِي وَتَعْلُذُ

وهذه ظاهرة حضارية ، أو فلنقل تطور حضارى للمحة ، أخذت شكل الظاهرة في هذا الغزل ، فأغلب الظن أن أم هذه الفتاة ، أو جدتها ، ماكانت تجرؤ مثلها على

(١) الكامل للمبرد ٢ / ١٨٥ وأمالى المرتضى ١ / ٣٤٦ وانظر : ديوان المعاني ١ / ٢٣٢ في التعليق على البيت السابع حيث يعده أبو هلال من أحسن ما قيل في اللون . المجاجة : الرقيق ترميه من فيك ، شبهه بالمسك لأنه رقيق الحبيب ، وقوله : « تَهْرَأ » قال فيه الأصمعي : أى تعسا ، دعاعليهم ، إذ جهلوا من حبه لها مالا يجهل مثله ، وقال تلعب قال ابن الأعرابي : أى بهركم الله ، أنظنون أنى ليس كذا ، وقال غيره : عجبنا لكم كيف تظنون غير هذا . وقيل معناها : نعم ، حبا بهرى بهرا ، قال أبو عمرو بن العلاء : ويكون بهرا بمعنى حبا ظاهرا من قوهم : قمر باهر . انظر : الموشح ٢٠١ — ٢٠٢ وأمالى المرتضى ١ / ٣٤٥ — ٣٤٦ . والثيا هي ابنة علي بن عبد الله من بنى أمية الأصغر بن عبد شمس ، وكانت ذات جمال وكال ، ويقال : إن ابن أوى عتيق لما سمع قول عمر « من رسول إلى الثيا » قال : إياى أراد ، وفى نوه ، لاجرم !! والله لأأذوق أكلا حتى أشخص إليه ، لأصلح بينهما ، فخرج من المدينة إلى مكة ، لهذا الغرض ، فى خبر طويل ، يراجع من شاء فى : أمالى المرتضى ١ / ٣٤٧ . تحير ماء الشباب : تم .

إرسال الرسل إلى صاحبها ، خاطبة وده ، طالبة لقاءه ، ولكنها روح العصر ، وسمه البيشة المتحضرة .

وقد تأخذ المراسلة صورة أخرى ، نرى فيها الفتاة راغبة في لقاء صاحبها ، ولكنها مشفقة أن يلحق به أذى من قومها المترصين به ، ويغلب الشوق فتبعث إليه أن لا يجبن عن لقاءها ، ولكن عليه بالحذر ، داعية له بالسلامة (١) :

دَسْتُ إِلَى رَسُولَا لَا تَكُنْ فَرِقَاً واحذَرْ وَقِيَتْ — وأمر الحازم الحذر
إِنِّي سَمِعْتُ رَجَالًا مِنْ ذَوِي رَحْمِي هُمُ الْعَدُوُّ بَظَهَرِ الْغَيْبِ قَدْ نَذَرُوا
أَنْ يَقْتُلُوكَ — وَفَاكَ الْقَتْلُ قَادِرُهُ — وَاللَّهِ جَارُكَ مِمَّا أَجْمَعَ النَّفْسُ

أو تلومه لأنه لم يرسل إليها رسولا ، قبل الزيارة ، يعلمها بموعد اللقاء ، وأنه تعجل فزارها قبل أن يغيب القمر ، يحكى هذا عمر على لسانها (٢) .

هَلَّا دَسَسْتَ رَسُولًا مِنْكَ يَعْلَمُنِي وَلَمْ تَعْجَلْ إِلَى أَنْ يَسْقُطَ الْقَمَرُ
تَمَامًا كَمَا عَاتَبْتَ الْعَرَجِي صَاحِبَتَهُ ، عَلَى مِثْلِ هَذَا .

وعمر — كالعرجي وغيره — تياه بهذه المراسلة يحكيها ، ويردها في شعره ، ويعين في تيهه ، فيذكر أن ثلاثة من الكواعب الحسان أرسلن إليه ، ومعهن صاحبتة ، التي تفوقهن حسنا ، يضرين له موعد لقاء ، وأنه حين ألقى عليهن السلام ، أسفرن عن وجوه باهرة الجمال ، ثم تدللن عليه ، ولم يلبس حتى مددن إليه أسباب الهوى ، فتلقفها ، كلما تحركن نحوه بعواطفن إصبعا ، وثبت عواطفه نحوهن ذراعا ، وإذن فنيه عمر هنا ، ليس إعجابا بنفسه ، فهن وإن سبقته في إبداء شعورهن نحوه ، ورغبتن في لقاءه ، فإنه صرح بأن استجابته كانت أقوى ، وشوقه كان أكثر : (٣)

أَتَانَا رَسُولٌ مِنْ ثَلَاثِ كَوَاعِبَ وَرَائِقَةٌ تَسْتَجْمَعُ الْحَسْنَ أَجْمَعَا
فَلَمَّا تَوَاقَفْنَا وَسَلِمْتَ أَقْبَلْتَ وَجُوهَ زَهَايَا الْحَسَنِ أَنْ تَتَقَنَّعَا

(١) ديوانه ١١٣

(٢) ديوانه ١١٥

(٣) ديوانه ٢٢٨ باغ : يعنى إبلا ضالة فهو يتعب بعينه بالسير السريع ليذكرها . وانظر فيما دار حول هذه الأبيات : أمالي القالي ٢ / ٥٢ — ٥٣ وتزيين الأسواق ٣٣ وديوان المعاني ١ / ٢٣

تَبَالَهِنَّ بِالْعُرْفَانِ لَمَّا عَرَفْتَنِي
وَقَرِبنَ أَسْبَابَ الْهَوَى لَتِيمِ
فَلَمَّا تَنَازَعْنَا الْأَحَادِيثَ قُلْنَ لِي
فَبِالْأَمْسِ أَرْسَلْنَا بِذَلِكَ خَالِدًا
فَمَا جِئْنَا إِلَّا عَلَى وَفْقِ مَوْعِدِ
رَأَيْنَا خِلَاءَ مَنْ عَيُونُ وَمَجْلِسًا
وَقُلْنَا: كَرِيمٌ نَالِ وَصَلَ كِرَامِ
وَقُلْنَ : امْرُؤُ بَاغٍ أَكَلٌ وَأَوْضَعَا
يَقِيسُ ذِرَاعًا كُلَّمَا قَسَنَ إصْبَعَا
أَخْفَتِ عَلَيْنَا أَنْ نُغْفِرَ وَنُخْذَعَا ؟
إِلَيْكَ وَبَيْنَا لَهُ الشَّأْنُ أَجْمَعَا
عَلَى مَلَأَ مِنَّا خَرَجْنَا لَهُ مَعَا
دَمِثَ الرُّبَى سَهْلَ الْمَجْلَةِ مُمَرَّعَا
فَحَقَّقَ لَهُ فِي الْيَوْمِ أَنْ يَتَمَتَّعَا

ويجب أن نلاحظ ناحيتين معا ، إحداهما : هى الرغبة الواضحة ، بل السعى الحثيث من النساء إلى اللقاء ، والأخرى : هذا المعنى المتكرر فى نماذج الغزل ، والذى يشير دائما إلى الحذر من الرقباء ، فالناحية الأولى تعبر عن النزعة الحضارية ، التى تحدثنا عنها فى وصف خطوات المرأة الحجازية إلى الفوز بنصيب من الحياة الاجتماعية المتحضرة ، أما الأخرى — مع كون اللقاء يتم غالبا فى جماعة — هى التى أشرنا إليها على أنها من رواسب المجتمع البدوى المحافظ ، ومن هنا تأخذ هذه اللقاءات صورة مغامرة اجتماعية حضرية لطيفة ، لتؤكد بعد هذا المجتمع الذى تحضر عن الانحلال والمجون ، والاستهتار بالقيم الأخلاقية ، إذ يلاحظ فى شعر عمر وفى شعر زملائه الغزلين أن المرأة موضوع الغزل لا تنفرد — غالبا — بالرجل ، بل تسهم فى الإعداد للقاء مع غيرها ، أو تشارك فى مجلسه حين يتم اللقاء ، نساء أخريات من صديقات تلك التى جاء الشاعر لزيارتها ، أو دعتة هى إليها .

ونحن لانجهل أن هناك نصوصا من الشعر الجاهلى ، تدل على أن من النساء الجاهليات من كن يرسلن الرجال ، طلبا للقاء ، حين يستبد الشوق ببعضهن ^(١) ، غير أن هذا كان قليلا ، إن لم يكن فى حكم النادر ، فى ظل التقاليد البدوية الحادة الصارمة ، الغالبة على الحياة الجاهلية ، وإنما كان المحبون هم الذين يحتالون بالمراسلة ، إذا لم يجدوا من وسيلة سواها .

(١) انظر فى ذلك : أخبار النساء ٨٥

٣ — وهذا ملمح آخر هام من صورة المرأة في الغزل الحجازى ، يتصل بالعناية بمشاعر المرأة وعواطفها ، ونزعاتها النفسية ، والميل إلى تصوير عالمها الشعورى حين تحب .

فمن قبل هذا العصر كانت الحواجز الحاسمة تفصل بين المرأة والرجل الذى يهواها ، فاللقاء نادر ، والوصل ضنين ، وحتى لو سعدا باللقاء ، فإنما يكون نُهْزَةً ، قصير الأجل ، فلم يكن بد من أن يكتفيا بالنظرة العجلى ، أو بالمشاهدة بين ربوع الحى ، وبين الأهل ، ومن هنا ماكان الشاعر ليعرف عن صاحبتة — غالبا — إلا ما شد عينيه إليها من ملامح الجمال ، وخصائص الحسن ، فيظل مستحضرا هذا المظهر الشكلى للجمال أمام عينيه ، يتأمله ، ويطيل تأمله ، ثم ينقلب فينحت له بخياله صورا ونماذج تجسمه ، وتبرز مثاليته ، كما يتصورها ، ومن هنا أيضا غلبت النزعة الحسية للجمال الجسدى فى الشعر الجاهلى ، ولم يتجه شعراؤه إلى غير هذا من المرأة ، أما مشاعرها ، وخلجات نفسها ، ونبضات قلبها ، فكل ذلك عالم مغلق ، لم تتح الفرصة الكافية لكى يدلف إليه الشاعر الجاهلى ، ويتحسسها ، ويكتسب الخبرة به .

وفى العصر الأموى حيث نالت المرأة قسطا من الحرية فى لقاء الرجل ، وإسماعه ، والاستماع منه ، وحيث فرص اللقاء فى مجالس الغناء ، وفى غيرها مهياة لكل منهما ، فإن عالم المرأة المحبة ، لم يعد سرا مغلقا — إلى حد ما — أمام إدراك الرجل ، وبخاصة إذا كان شاعرا ، وعلى الأخص إذا كان هذا الشاعر عمر بن أبى ربيعة ، بكل مأمدته به يبتته العامة والخاصة من خبرة بالنساء وأحوالهن ، ونوازعهن إذا أحببن .

هذه النزعة التحليلية لمشاعر الحب عند المرأة ، يمتاز بها الغزل الحضرى الحجازى ، فيما يمتاز به ، ويزيد من قيمتها وجاذبيتها ماتصطنعه كثيرا من أسلوب يأخذ طابع القصص والحوار .

وقد مرت بنا لمحة منه فى الحوار القصير الذى دار بين العرجى وصاحبتة :
 قالت كلابة : مَنْ هذا ، فقلت لها : أنا الذى أنت من أعدائه زعموا...
 قالت : رضيت ولكن جئت فى قمر هلا تلبثت حتى تدخل الظلم
 ونستطيع أن نلتقط مثل هذه اللمحة فى غزل الأحوص ، وابن قيس الرقيات ، وغيرهما من الغزلين فى حضر الحجاز .

غير أن هذا الأسلوب يبرز حقا ، وتتلاحم فيه عناصر القص والمحاورة والحكاية وتتآزر ، لتحقيق الكل الفنى وإحكام وحدته ، فى غزل عمر بن أبى ربيعة ، أستاذ هذا الفن ، ففى شعره تكثر الجمل الحوارية ، التى يستقل كل منها بيت أحيانا ، أو التى تقصر وتتوالى فى البيت الواحد ، وفى كل حال ، تؤدى وظيفتها الفنية ، فى نقل القارئ أو السامع إلى جو الحكاية ، فيعين أطرافها ، وكأنه أمام مشهد واقعى فى الحياة .

وأسلوب القص والحوار فى شعر عمر بن أبى ربيعة ، ليس مجرد حلية كلامية ، أو فلتة أسلوبية ، أو وسيلة من وسائل تزيين العبارة ، وإنما هو أداة للتعبير مقصودة ، ومحسوبة بدقة ، وموظفة بعناية لخدمة التجربة ، وإبراز الموقف العاطفى . كما سنرى .

فى هذا الأسلوب فاق عمر سابقيه ومعاصريه من الشعراء الغزلين ، فهو الذى استطاع بحق أن ينفذ من خلال هذا الأسلوب إلى تصوير عواطف المرأة التى تحضرت فى عصره ، حين تحب ، وما يكون بينها وبين أخواتها ، أو جوارها ، من أحاديث عن حبها ، وعن معاناتها من هذا الحب ، وعن صاحبها ، وكلفه بغيرها ، وكلفها به ، ولانجد من بين شعراء الغزل من وفق توفيق عمر بن أبى ربيعة ، فى رسم نفسية المرأة من خلال أسلوب القص والحوار ، إذ كان هذا الأسلوب يلوح فى الشعر الجاهلى — وبخاصة فى شعرا مرء القيس — عرضا ، أو على ندرة ، وجاء عمر فافتن فيه وتوسع ، بحيث أصبح ظاهرة متميزة فى شعره ، بل من أهم الظواهر المميزة لهذا الشعر .

وأهمية هذا الأسلوب ندركها أيضا ، إذا تأملنا تجارب عمر الغزلية ، التى اعتمدها طريقة للأداء ، فقد خلص هذه التجارب من البث المباشر ، الذى يعتمد على طرح المشاعر بطريقة تقريرية صريحة ، أو فى صور جزئية مجسمة ، كما هو الحال عند سابقيه من شعراء الغزل ، وتحول بها إلى موقف فيه أحداث وشخصيات ، وحوار ، وذروة تنفجر عنها هذه الأحداث ، أو تكون نهاية لها .

بهذا أمدنا عمر بصور حية لإحساسات النساء والفتيات ، ومشاعرهن فى عصره ، وماقد يعتريهن من هواجس ووساوس ، وما يداعب خيالن من أفكار ، أو أوهام .

وليس من شك فى أن خيال عمر الخصب ، قد قام بدور هام فى هذا التحليل

النفسي ، تعينه خبرة بأحوال النساء ، وما يدور في مجالسهن وأحاديثهن ، وهي خبرة اكتسبها من نشأته في حجر أمه ، أصغر ولديها ، يتيما ، متعما ، مدللا ، لا يكاد يفارق أمه في مجالسها مع النساء ، يراهن ، ويقف على أحوالهن ، ويراقب انفعالاتهن ، ويسمع ما يدور — عادة — في مجتمع النساء الخاص ، حينما ينطلقن على سجيتهن ، في ذكر أحوالهن والكشف عن عواطفهن ، أو محاولة مداراتهن ، واختزن عمر هذا كله في ذاكرته ووعاه ، ثم انقلب ، فيما بعد ، يتخيل ثم يقص ما تخيل ، متدسسا في نفسية المرأة ، لامسا مشاعرها .

وهاهي ذى إحدى تجاربه ، في تصوير جانب من جوانب عالم المرأة النفسي ، وقد نبض قلبها بالحب ^(١) :

قالت على رَقَبَةٍ يوماً لجارتها	: ما تأمرين ؟ فإن القلب قد شغلا
وهل لي اليوم من أختٍ مؤاخية	منكن أشكو إليها بعض ما فعلا ؟
فراجعتها حصاناً غير فاحشة	برجع قولٍ وأمر لم يكن خطلا
اقتنى حياءك في سترٍ وفي كرم	فلسيت أول أنثى علقت رجلا
لا تظهرى حبة حتى أراجعه	إني سأكفيكه إن لم أمث عَجَلا
صدتُ بعداً وقالت للتي معها:	بالله لوميه في بعض الذي فعلا
وحديثه بما حدثت واستمعى	ماذا يقول ولا تغتنى به جدلا
حتى يرى أن ما قال الوُشاة له	فيما لديه إلينا كله ثقلا
وعرَّ فيه بهم كاهزل واحتفظى	في غير معتبة أن تغضبي الرجالا
فإن عهدى به — والله يحفظه —	وإن أتى الذنب يكره العَدَلا

فعمر يأخذنا إلى عالم امرأة مهمومة ، مشغولة القلب ، لجفوة صاحبها إياها ، وهي تشكو إلى صاحباتها ، وتلتمس منهن المشورة ؛ لأنها تحب ، ولا تطيق فراقه ، فتنصحه إحداهن بإخفاء عواطفها ، وتتطوع بأن تكون رسولها إليه ؛ لتقف على حقيقة مشاعره نحوها .

(١) ديوانه ٢٥٨ والأغاني ١ / ٥٩ حصان : عفيفة . خطل : خاطيء . اقتنى حياءك : الزميه . علقت :

أحببت .

وهنا تنبى الحجة الواهية ، تسألها أن تلومه على الهجر ، وتغيره بما حدث الوشاة عنه ، وليكن لومها رقيقا حتى لا تنغضبه ؛ لأنها لا تحب له أن يغضب ، ولا تلح عليه في العتاب ؛ لأنها خبيرة بطبعه ، فهو يكره العتاب ، حتى وإن كان مخطئا .

من خلال هذا الحوار الجذاب ، يصور عمر مشاعر هذه المرأة ، في قلقها ، وحيرتها ، وحنينها إلى صاحبها ، ولحفتها عليه ، ورغبتها في إرضائه ، وخشيتها من غضبه ... الى آخر ماصور عمر فأبدع .

والصورة كلها ، بعد هذا ، صورة موقف ، لم يسرده عمر سردا ، ولكنه أداره حوارا ، ربط به بين أطراف الصورة ، بين شخصياتها وعواطفها ، فأبرز الوحدة الفنية في الموقف ، فكل شخصية ، وكل عاطفة ، وكل جملة حوارية ، تؤدي وظيفتها في بناء هذه الوحدة الفنية .

ويقدم لنا عمر بن أبي ربيعة أيضا صورة دقيقة واقعية ، لعواطف المرأة ، وأحوالها النفسية ، في موقف آخر ، موقف الغيرة تأكل قلبها ، وهي تعلم أن صاحبها قد سلاها ، وتزوج بغيرها ، فتتظاهر بعدم المبالاة ، وتكظم غيظها ، مخفية ما بها عمن تخاف منهن السماتة بها ، كاشفة حقيقة حالها ، لمن تثق في صدق ودهن ، ولا تخفى دونهن سرا من صديقاتها .

والواقعية هنا ، ليس بالضرورة واقعية ترتبط بحياة الشاعر وسلوكه ، بمعنى أنه ليس من الضروري أن يكون عمر هو بطل الموقف ، فقد تكون واقعية متصورة ، مستمدة من تجارب الآخرين وواقع حياتهم ، ودور عمر فيها هو دور الوسيط الفنان ، الذي ينقل خبرته بهذا الواقع إلى الناس ، في صورة تعكس صدقه وواقعيته .

يحكى عمر : (١)

خَبَّرُوهَا بِأَنْسَى قَدْ تَزَوَّجْتُ	فَقَطَلْتُ تُكْتَمُ الْغَيْظُ سِرًّا
ثُمَّ قَالَتْ لِأُحْنَتِهَا وَلِأَخْبَرِي	جَزَعًا لَيْتَهُ تَزَوَّجَ عَشْرًا
وَأَشَارَتْ إِلَى نِسَاءٍ لَدَيْهَا	مَاتَرِي دُونَهُنَّ لِلْسُرِّ سِتْرًا
مَا لِقَلْبِي كَأَنَّهُ لَيْسَ مِنِّي	وَعِظَامِي أَحْأَالُ فِيهِنَّ قَتْرًا
مِنْ حَدِيثِ نُمَى إِلَى فُطَيْعٍ	خِلْتُ فِي الْقَلْبِ مِنْ تَلْظِيهِ جَمْرًا

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوق ٤ / ١٨٤٤ ومخط الآل ٢ / ٨٠١ وأمالى القال ٢ / ١٨٥ . فترا : ليونة

لعمري !! إن هذه حال لا يقف عليها ، ولا يصور واقعيتها النفسية على هذا النحو الدقيق ، إلا خبير بعواطف المرأة ، عليم بدفائن قلبها .

وإذا كان شوق في عصرنا الحديث ، قد عبر عن جانب من طبيعته الأنثى بعمامة ، والفتاة الشابة بخاصة ، هو حبها للثناء على جمالها ، وانتشائها بالحديث عنه ، وعلى الأخص من الرجل ، الذي ربما يخدعها عن نفسها بهذا الحديث ، في قوله (١) :

خدعوها بقولهم حسناء والغواني يغرهنّ الثناء
فاتقوا الله في قلوب العذارى فالعذارى قلوبهنّ هواء

فإن عمر بن أبي ربيعة يطلعنا على صورة أخرى للأنثى الخدرة ، التي لاتنخدع بمعسول الحديث ، لخبرتها بأسلوب بعض الرجال في خداع النساء ، فهي ترفض أن تنيل من كان هذا شأنه مراده ؛ لأنها ليست ساذجة يستهويها حلو القول ، وتستميلها الملاطفة ، ولأنها تخشى أن يهجرها بعد أن ينال منها وطرا : (٢)

بعثت وليدتي سحرًا وقلت لها : حذى حذرَكَ
وقولي في ملاطفة لزينب تُولي عَمَرَكَ
فإن داويت ذا سقمي فأخزي الله مَنْ كَفَرَكَ
فهزت رأسها عجباً وقالت : مَنْ بذا أَمَرَكَ
أهذا سحرَكَ ؟! النُسُوءُ ن قد خَبَرْتَنِي خبرَكَ
وقلن : إذا قضى وطراً وأدرك حاجة هجرَكَ

والحديث عن فن عمر بن أبي ربيعة في هذا الجانب من صورة المرأة يطول ، ونكتفي بما قدمنا ، ونموذج آخر يصور لونا من أحاديث النساء ، في مجالسهن الخاصة ، فيه التيه والدلال ، والزهو بالجمال ، وبتقدير الحب له ، وإشادته به ، وفيه أيضا العيرة تنهش قلوب النساء ، حين يتعرض الرجل لأنثى يصف جمالها ويطريه ، ويصل حديثه إلى مسامع صديقاتها أو أترابها ، فيزرع بذلك الحقد والغيرة في قلوبهن ، ويُنفَسْنَ عليها ماتوصف به من حسن وفتنة وجمال :

يصور هذا قول عمر (٣) :

(١) الشوقيات ١١٢ / ٢ .

(٢) الأغاني ١ / ٦٠ وسمط اللآلي ٢ / ٦٩٢ وأمالى القالي ٢ / ٣١٤ .

(٣) ديوانه ٣٢٠ والتذكرة السعدية ٥١٣ وديوان المعاني ١ / ٢٢٨ وفيه ٤ وتعرّت يوم حرّ ٤ .

ليت هندا أنجزتنا مائِعُدْ وشفت أنفسنا مما نَجِدْ
واستبدت مرة واحدةً إنما العاجز مَنْ لا يستبد
زعموها سألت جاراتها وتعرّت ذات يوم تبسّد
أكما ينعتنى تبصرتنى عَمُرِكُنَّ الله أم لا يقتصد ؟
فتضاحكن وقد قلن لها حسن في كل عين مَنْ تود
حسدَ حُمْلَنه من حسنها وقدما كان في الناس الحسد

ولبراعة عمر في هذا الضرب من الغزل ، عُذ من الشعراء الذين طوّروا الشعر العربي ^(١) .

٤ - هناك اتجاه آخر يعكس صورة للمرأة ، ينفرد بها الغزل في العصر الأموي ، وفي بيئة الحضرة الحجازي خاصة ، بل ينفرد بها غزل ابن أبي ربيعة على الأخص ، وهي صورة تبدو غريبة ، تنقض تقاليد الغزل المعروفة قبل عصره ، وعند غيره من معاصريه .

ففي غزل عمر تطالعنا نماذج عديدة ، يتحدث فيها الشاعر عن نفسه مزهوا بأنه متعلّق أنظار النساء ، وهو يتحدث بهذا حديثا مباشرا حيناً ، كما يبدو في قوله :

وكنّ إذا أبصرننى سعين فرقعن الكوى بالمحاجر

أو على لسان النساء حيناً آخر ، وفي هذا الحديث أو ذاك لا يعبر عن حبه ، بل عن حب الجميلات لإياه ، ولهفتن عليه ، واعتراضهن سبيله ، طالبات وُدّه ، ولا يصف وقع حب صاحبتة في نفسه ، وإنما يصف وقع حبه في قلب صاحبتة ، ومن خلال ذلك نستطيع أن ندرك إحساس عمر بالزهو والفخر ، « ولعل من مظاهر هذا الفخر أن ينطق به صواحبه في أقوالهن ، وأن يعبر عنه بذلك في أفعالهن ، فهن اللواتي يرسلن إليه الرسل ، وهن اللواتي يخرجن إليه ويغامرن من أجله ، ويستعطفه ، ويدعونه باكيات بين يديه ، ويدعون على أنفسهن من أجله ، ويدعون له بأن يحفظه الله ، وأن يجيروه حاضرا ومسافرا ، وأن يرده إليهن ، وما أكثر ما أشدن بجماله ، وأعجب بشبابه ، وتنين موافقته في ساعة صفاء ^(٢) » .

وهذا الحديث عن النفس قد لفت نظر الباحثين في شعر عمر ، لعدم إلفه في تقاليد الغزل ، ولما قد يوحى به من شذوذ في تكوين عمر النفسى ، يدفعه إلى أن ينزع في

(١) انظر : مقدمة ديوان بشار بن برد للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ٣٧ ، وانظر أيضا : تاريخ الشعر العربي

(د. البهني) ٣٥٠ ومقدمة ديوان عمر بن أبي ربيعة ٦٨ وفي الشعر الإسلامي والأموي (د . القط) ٢٧١

(٢) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ٣٨٩

غزله هذا المنزع الغريب ، الذى يجعل منه موضوعا للغزل ، ويجعل من المرأة الطرف المتغزل ، فيتبادل وإياها الموقف الغزلى ، فى وضع معكوس ، وعاطفة معكوسة .
 هكذا لاحظ الدكتور شكرى فيصل فى النص الذى نقلناه عنه قبل هذه الأسطر ، وهكذا لاحظ الدكتور طه حسين من قبله ، معللا هذا الاتجاه فى غزل ابن أبى ربيعة بما يشبه أن يكون إعجابا بالنفس ، أو افتتانا بالذات (نرجسية) فيقول (١) :
 « وقد فتن عمر النساء وتيمهن ، فأخذن يطربنه ، ويتهاكن عليه ، حتى فتن بنفسه ، فلم يتغن بحبه إياهن ، كما تغنى بجهن إياه » .

ورأى الأستاذ العقاد رأيا آخر فى تفسير هذا الجانب من صورة المرأة فى غزل ابن أبى ربيعة ، حيث أرجعه إلى « جانب أنثوى فى طبعه ، يظهر للقارىء من أبياته الكثيرة ، التى تنم عن ولع بكلمات النساء ، واستمتاع بروايتها ، والإبداء والإعادة فيها ، مما لا يستمره الرجل الصارم الرجولة ، ولأدل من ولعه بكلمات النساء على الجانب الأنثوى فى طبعه ، أنه كان يُشبهُهن فى تدليل نفسه ، وإظهار التمتع لطالباته ولعل جانب الأنوثة فيه لا يظهر من شئ كما يظهر فى تدليل اسمه ، بين تلقيب ، وكناية ، وتسمية ، كما يعهد فى أحاديث النساء ، فهو تارة أبو الخطاب ، وتارة المغيرى ، وتارة عمر الذى لا يخفى كما لا يخفى القمر ، وأشابه هذه الأنثويات التى يقارب بها المرأة فى المزاج ، ويسايرها فى الحديث ، ومن قبيل هذه الأنثويات ، أنه كان يقول :

لقد كنت وأنا شاب أعشق ولأعشق ... وهذا حديث من هو عاشق لنفسه ، قبل أن يكون معشوقا لغيره ، ففية خليقة المرأة ، أن تشعر بجنسها مطلوبة ، ولا تشعر بجنسها طالبة » (٢) .

وإلى قريب مما ذهب إليه الدكتور طه حسين من الافتتان بالنفس ، والإعجاب بالذات ، ذهب الدكتور شوق ضيف (٣) ، مع رعاية منه لأثر بيئة ابن أبى ربيعة العامة والخاصة فى هذا الاتجاه الغزل .

فهو يقرر هذه الظاهرة كما تبدو من واقع شعر عمر ، بقوله : « عمر فى ديوانه

(١) حديث الأربعة ١ / ٣١٤ .

(٢) شاعر الغزل ٤٠ - ٤٢ .

(٣) التطور والتجديد ٢٥٠ .

وغزله قد حول الغزل من الرجل إلى المرأة ، فالصورة العامة في غزله أنه معشوق لاعاشق ، وعمر في ذلك يعبر عن تطور جديد في الحياة العربية ، فقبله لم تكن نعرف شاعرا يصبح شخصه موضوع الغزل في غزله ، إنما شخص المرأة هو الموضوع المعروف للغزل ، وبعبارة أخرى ، كانت المرأة قبل غزل ابن أبي ربيعة هي المعشوقة ، أما في غزله ، فقد تحولت إلى عاشقة ، كما تحول عمر نفسه من عاشق إلى معشوق .

وفي رأى الدكتور شوقي ضيف أن عمر بذلك يعد شخصية فريدة في عالم شعراء الغزل « لأن عمر نفسه ليس من السهل أن يوجد مرارا ، إذ لابد للشاعر أن يكون له ثراء عمر ، وأن تكون له أمه ، التي عاشت له ، وعاشت تعشقه ، وأيضا لابد أن يوجد مجتمع مكة ، ومافيه من نساء أصبن شيئا من الحرية فكثير الاختلاط بينهن وبين الرجال ، على نحو ماكثر بين نساء مكة وابن أبي ربيعة » ثم ينتهى إلى القول بأن العاطفة قد انعكست عند عمر ، وشذت هذا الشذوذ الذى حوله من عاشق إلى معشوق .

ولانرانا نخالف هؤلاء الباحثين فيما وصفوا به هذا الاتجاه في غزل ابن أبي ربيعة ، الذى جعل منه معشوقا للنساء ، لأننا لامتلك هذه المخالفة ، إزاء نصوص شعره ، التى تصور النساء يطاردنه ، ويتمنين لقاءه ، ويتصدى لهن ، ويتوددن إليه بالنظرة وبالحركة ...

من مثل قوله : (١)

وَحَبَابُ الشَّوْقِ يَبْدِيهِ النَّظَرَ	فَعَرَفْنِ الشَّوْقَ فِي مَقْلَتِهَا
لَوْ أَتَانَا الْيَوْمَ فِي سُرٍّ عَمْرٍ	قَلْبُنْ يَسْتَرْضِيهَا : مُنِيَّتَنَا
دُونَ قَيْدِ الْمِيلِ يَعْدُو بِنِ الْأَعْرَ	بَيْنَمَا يَذْكُرُنُنِي أَبْصَرُنُنِي
قَالَتْ الْوَسْطَى : نَعَمْ ، هَذَا عَمْرٍ	قَالَتْ الْكُبْرَى : أَتَعْرِفُنِ الْفَتَى
قَدْ عَرَفْنَاهُ ، وَهَلْ يَخْفَى الْقَمَرُ ؟!	قَالَتْ الصَّغْرَى — وَقَدْ تَيَّمَّتْهَا
سَاقَهُ الْحَيْنَ إِلَيْنَا وَالْقَدْرُ	ذَا حَبِيبٌ لَمْ يَعْرِجْ دُونَنَا
جَمَلُ اللَّيْلِ عَلَيْهِ وَاسْتَبْطَرَّ	فَأَتَانَا حِينَ أَلْقَى بَرْكَهُ
مَرَمَرِ الْمَاءِ عَلَيْهِ فَتَضَرَّ	وَرَضَابُ الْمَسْكِ مِنْ أَثْوَابِهِ

(١) ديوانه ١٥١ والأغاني ١ / ٥١ والعمدة ٢ / ٩٩ . حباب الشوق : أقصاه . دون قيد الميل : يعنى على مسافة

أقل من الميل . الأعرج : فرس عمر

فهذه المرأة تشتاق رؤية عمر ، حتى ليبدو شوقها في عينها ، فيفضح سرها عند صاحباتها ، وما إن يطل عمر على جماعة النسوة حتى تميم به أخرى هي صفراهن ، وتبوح بحبه ، وتعجب به الوسطى ، وكانت الكبرى تعرفه من قبل ، أى أنهم جميعا أظهرن تأثيره فيهن ، وعبرن عنه ، وهل يكون الغزل شيئا غير هذا !؟

ويكفى في التعليق على هذه الأبيات قول رفيق عمر وصاحبه ابن أبى عتيق - وكان ذا بصر بالشعر - : « أنت لم تنسب بها ، وإنما نسبت بنفسك ، كان ينبغي أن تقول : قلت لها ، فقالت لى ، فوضعت خدى ، فوطئت عليه » (١) .

وهذه النظرة النقدية من ابن أبى عتيق ، تنبى عن خروج عمر عن المألوف في الغزل ، وتنبيهه إلى القاعدة ، التى ساز عليها الشعراء من قبله ، والتى جعلها ابن رشيق من مقاصد القول ، وعبر عنها بقوله « فإن نسب ذل وخضع » (٢) .

وهذه أخرى تمنى أن لا يفارقها عمر ، وتدعو له أن يحفظه الله بعنايته فى حله وترحاله (٣) :

وقولها لفتاة غير فاحشة أرائح ممسياً أم باكرٌ عمر ؟
الله جار له إما أقام بنا وفى الرحيل إذا ماضمه السَّفر

وأخرى تشكو صدوده ، وتحار فى تعليله ، وأخشى ما تخشاه أن يكون قد علّق أخرى (٤) :

فلست بناسٍ يوم قالت لأربع نواعم غُرّ كلهن لها رزُب
ألا ليت شعرى فيم كان صدوده أعلّق أخرى أم على به عتب
وأعجب من هذا قوله (٥) :

أبصرُها ليلةً ونسوتُها يمسين بين المقام والحجر

(١) الأغاني ١ / ٥١ والموشح ٢٠٤ والعمدة ٢ / ٩٩

(٢) العمدة ١ / ١٣٣

(٣) ديوانه ١١٤

(٤) أمالي القالى ٢ / ٤٢

(٥) ديوانه ١٤٥ والأغاني ١ / ٦٩ والموشح ١٦٣

قالت لترب لها ملاطفة: لثفسدَن الطواف في عمر
 قومي تصدئ له ليعرفنا ثم اغمزيه ياأخت في خفر
 قالت لها : قد غمزته فأنى ثم اسبطرت تشتد في أثرى

ولهذه الصورة دلالة خاصة ، لأنها لاتعبر — كسابقاتها — عن هيام هذه المرأة
 بحب عمر ، بقدر ماتدل على معاينة النساء له ، ورغبتهن في لفت نظره إليهن ، ليعرفهن ،
 والمأمول بعد ذلك أن يتحدث عنهن في غزله ، وهذا مايرضيهن منه ، حتى لو أدت هذه
 المعاينة إلى إفساد طوافهن .

وملاحظ آخر ، هو أن هذه المعاينة كانت من جماعة ، لامن واحدة منفردة ، وهى كذلك
 غالبا في غزله ، مما يؤيد ماسبق أن قلناه ، من أن الأمر في غزل عمر ليس أمر حب
 وعشق ، بقدر ماهو تعبير عن رغبة المرأة الحضرية في الأخذ بنصيها من النقلة الحضرية
 الجديدة ، وممارسة الحرية التى أتاحت لها فى الاتصال بعالم الرجال ، عن طريق الحياة
 الفنية فى هذا العصر ، مع الاحتفاظ كذلك بتقاليدها فى الصون والعفة والحفاظة .

وكان ابن أبى ربيعة أسبق من بعض معاصريه فى فهم هذه الروح الجديدة عند
 نساء الطبقة الممتازة ، اللاتى يدور غزله حولهن ، لابتجاوزهن ، وهى طبقة جمعت من
 عراقه الأصل ، وثرأ المال ، ورقة الذوق ، وترف الحياة ، مثل ماجمع عمر ، من أمثال
 سَكينة بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة ، والثيا بنت عبد الله من بنى أمية الأصغر ،
 وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وزينت بنت موسى الجُمحية ، وهند بنت الحارث
 المُرئية ، وابنة لمروان بن الحكم ... وغيرهن من المنتسبات إلى كبار البيوتات ، اللاتى
 تطلعن إلى إبراز مكانتهن فى مجتمعهن بالاتصال بالحركة الفنية فيه ، عن طريق أعلامها
 من الشعراء والمغنين والموسيقيين ، دون خوف من اتهامهن بريبة ، وهن ينتمين إلى هذه
 البيوتات ، ويعطين حق العفة والدين ، ويعطين مع ذلك حق النعمة والحضارة والجمال .

لم يفهم بعض معاصرى عمر هذا ، فأخذوا عليه انحراف غزله ، عن مألوف الغزل
 كذا فعل ابن أبى عتيق ، فى تعليقه على الصورة التى يقول فيها عمر :

قالت الصغرى وقد تيممتها قد عرفناه وهل يخفى القمر ...

وكذا فعل كثيرٌ عزة الشاعر حين وقف على الصورة الغزلية التى نتحدث عنها ،

فقد قال لعمر في مجلس ضمهما : يا أخا قريش ، والله لقد قلت فأحسنيت في كثير من شعرك ، ولكنك تخطيء الطريق ، تشبب بالمرأة ، ثم تدعها ، وتشبب بنفسك ، والله لو وصفت بهذا هرة أهلك ، كنت قد أسأت صفتها ، أهكذا يقال للمرأة ؟! إنما توصف بالخفر ، وأنها مطلوبة ممتعة ^(١) .

فكثير يرى في قول عمر هذا خروجاً على طريقة العرب في النسيب ، « والعادة عند العرب أن الشاعر هو المتغزل المتأوت ، وعادة العجم أن يجعلوا المرأة هي الطالبة ، والراغبة المخاطبة » ^(٢) ، فهذا أنسب لما هو معروف عند العرب من استقامة الطبع ، وغيرتهم على الحرم ، أما هذا الذي يفعله عمر في غزله ، فليس على سنن العرب ، بل أشبه بفعل العجم مع نسايتهم .

وهذه صورة أخرى فيها لون آخر من كلف النساء بعمر ، فيها الإعراب عن الود الخالص ، وفيها التصدى بالإشارة ، والسلام ، وفيها ما في سابقتها من الدلالة على الرغبة في إثارة انتباهه ، ولفت نظره ، نراها في قوله ^(٣) :

تصابى القلبُ وأدْكَرا صباه ولم يكن ظَهْراً
لزينب إذ تُجَدُّ لنا صفاء لم يكن كَدْراً
أليست بالتى قالت لمولاة لها ظُهُراً
أشيري بالسلام له إذا هو نحونا نظراً

وهاهى ذى صاحبة أخرى تقسم ليلة الرحيل ، وتردد القسم ، على أنها تحبه أكثر مما يحبها ، وأنها لو خُيرت ما اختارت دونه أحداً من الناس خلا وحبيبا ، يحكى هذا عمر في قوله ^(٤) :

: أَلِممْ بزَيْنَب إنَّ البَيْنَ قد أَفْدا قُلَّ التَّوَاء لئن كانَ الرِّحيلُ غدا
قد حَلَقْتُ ليلةَ الصُّورَيْنِ جاهدة وما على المرءِ إلا الحلفُ مجتهدا

(١) الموشع ١٦٣ وانظر العمدة ٢ / ١٠٠

(٢) العمدة ٢ / ١٠٠

(٣) ديوانه ٤٩٢

(٤) ديوانه ١ / ٤٥

لأختها ولأخرى من مناصفها لقد وجدت به فوق الذى وجدا
لو جمع الناس ثم اختير صفوهم شخصاً من الناس لم أعدل به أحداً
فأين عمر فى كل هذه الصور ؟ ومما شاعره نحو هؤلاء النسوة ، اللاتى يهمن به
وجدا ، ما بين باكية ، وشاكية ، ومشتاقة ، وعاتبة ، ومراسلة ، وغامزة ، ومسلمة ؟
لا يعنيه فى كل ذلك أن نعرف عواطفه نحوهن ، بل ربما كان يعينه أن يوحى بأنه
لا يبالى بهن ، وحسبه أن يؤدي ، من خلال هذه الصور جميعاً أن النساء كن به كلفات ،
متميمات ، قد أقرح الحب قلوبهن ، يتابعنه بالسلام والغمز والإشارات ، وهو يدل عليهن .
وهذا مما لفت أنظار النقاد فى عصره ، ومن بعد عصره ، فاختلّفوا فيه ، ما بين
معجب برقة نسييه ، وحلاوة كلامه كجميل بثينة ، الذى يقول عن قول عمر :
فلما تلاقينا عرفنا الذى بها كمثل الذى فى حذوك النعل بالنعل
فقلت وأرخت جانب الستر إنما معى فتكلم غير ذى رقبة أهلى
فقلت لها ماى لهم من ترقب ولكن سرى ليس يحمله مثلى
« هذا والله الذى أرادته الشعراء فأخطأته ، وتعللت بوصف الديار ^(١) » .
وعاتب زار عليه ، لانحرافه بالغزل عن أصوله وقواعده عند العرب ، فكان المفضل
الضبي يعيب شعره من أجل هذا ، ويقول : « إنه لم يرق كما رق الشعراء ، لأنه ماشكا قط
من حبيب هجراً ، ولا تألم لصد ، وأكثر أوصافه لنفسه ، وتشبيهه بها ، وأن أحبابه يجدون
به ، أكثر مما يجذبهم ، ويتحسرون عليه ، أكثر مما يتحسر عليهم » .
اتضح هذا الاتجاه إذن فى غزل ابن أبى ربيعة ، وبدا فيه عمر — كما يقول الدكتور
شوق ضيف ^(٢) — هو المتبوع لا التابع ، وهو المطلوب لا الطالب ، وهو المعشوق لا
العاشق ، فالنساء يفتن به ، ويتصددين له ، وينتھزن كل فرصة للقاءه ، ويشرن له باليد
حيناً ، وبالعين حيناً ، وهو فى كل ذلك لا يعنى ، ولا يلتفت ، ذلاً وتهاً ، وإعجاباً بنفسه
وجماله ... » .

(١) الشعر والشعراء ٢١٧

(٢) التطور والتجديد ٢٥٠

وكل هذه حقائق في شعر عمر لاسييل إلى إنكارها ، يؤيدها ما قدمناه من شعره ، وكثير غيره يضمه ديوانه .

وأما أن عمر كان معجبا بنفسه ، فنعم .

ولم لا يعجب بنفسه ، وهو الشاب الوسيم ، الموصوف بين شباب بنى مخزوم بأنه أفرعهم طولاً ، وأجهرهم جمالا ، وأبهرهم شارة ، وعارضة ، وبيانا ، وآنفهم زيا ومظهرا ؟ كان إذا فرغ من المناسك في موسم الحج يخرج من إحرامه ، فيلبس الحلل ، ويركب النجائب ، المنحضوية بالحناء ، عليها الطنافس والديباج ، ويسبل لمتة ، ثم يخرج ، عارضا وسامته وأبته على النساء من حجازيات وغير حجازيات .

وهو فوق ذلك وافر الثراء ، يعينه يساره على التفرغ للهو ، والتصدى للحسان ، وملاحقتهن ، والتشبيب بهن ، بينما كان الشعراء الغزليين من طبقته ، لهم ما يشغلهم عن التفرغ للغزل ، فقد كان الحارث بن خالد واليا لمكة ، وكان العرجى يخرج للجهاد في أرض الروم ، وابن قيس الرقيات ، مهتما بالسياسة .

وفوق هذا وذاك ، هو الشاعر المرموق ، الذائع الصيت ، يجري شعره على كل لسان ، وفي كل مجلس ، حتى ليقترح على الزهاد والعلماء مساجدهم ، وحلقات دروسهم — كما رأينا — ويتهافت المغنون والمغنيات على طلب شعره ، ليحيلوه إلى ألحان ، يرددونها صباح مساء .

بهذا وغيره غدا عمر بن أبى ربيعة نجما متألقا في سماء مجتمعه ، وطارت شهرته إلى أقاليم الدولة الإسلامية ، في العراق والشام وغيرها ، وعرف عنه في كل هذه البيئات ، أنه شاعر « يلهو ما يلهو ، ويتغزل ما يتغزل ، ثم لا ينسى أن يعلن مع هذا جاهدا أنه لا يستبيح محرما ، ولا يأتى بريئة ، ولا يزال على سنة الشعراء الذين يقولون مالا يفعلون » ^(١).

وكان طبيعيا أن تقبل عليه ظريفات المجالس ، اللاتي يدور الحديث عليهن ومنهن في عصره ، وكلهن من بنات الطبقة الاجتماعية المنعمة الالهية بمجالس السمر ، ومساجلات الغزل ، وكلهن من الراغبات في إظهار الفخر بجماهن ، وأن يعرف الناس

أنهنّ جميلات ، شأن النساء عادة ، وعمر وشعر عمر أقرب وسائلهن المتاحة للإعلان عن هذا الجمال والفوز بالشهرة في دنيا الملاحة ، ثم إنها وسيلة مأمونة العاقبة ، فعمر شاعر يقول ولا يحقق ، ويعرف لبنات طبقته حقهن من الصون ، وعدم التعرض لألسنة السوء .

كثرت النساء حول عمر ، وكل منهن حريصة على التودد إليه ، واحتلال مكان بارز من شعره الغزل ، ويخيل إلينا أن كثيرا من هؤلاء كن يتصددين له عن عمد ، ويشجعنه على التعزل بهن ، إرضاء لغرورهن ، وتنويعا بجمالهن ، وحبا للتحدث بأخبارهن ، فمما يذكر أن عمر لما شهب بفاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، في قوله (١) :

افعلّ بالأسير إحدى ثلاثٍ وافهميهم ثم رُدّي جوابي
اقتليه قتلا سريحا مريحا لا تكوفي عليه سوط عذاب
أو أقيدي فإنما النفس بالنف حس قضاء مفصّلا في الكتاب
أوصليه وصلا تقرّ به العي ن وشر الوصال وصل الكذاب
أعطت الذي جاءها بالآيات لكل بيت عشرة دنائير .

ولم يقتصر الأمر على حسنات الحجاز ، بل كان من بين القادمات في موسم الحج من خارج الحجاز ، من يفعلن هذا أيضا ، إذ كان يرضيهن أن يرجعن إلى بلادهن ، بأبيات يرويها الركبان ، ويفهم منها الأتراب المنافسات أنهن ذهبن إلى الحجاز ، فخلين ألباب رجاله ، وأطلقن ألسنة شعرائه ، وصرفهن عن الغزل بحسانه ، وقل في الحسان من ليست تغتر بمثل هذا الغرور في زمان عمر ، وفي كل زمان (٢) .

حق لعمر إذن أن يعجب بنفسه ، ولكنه ليس الإعجاب الشاذ ، المنبى عن اختلال في تكوينه النفسى ، أو المؤدى إلى التركيز على الذات ، والهيام بها (الترجسية) ، فما عرف عنه هذا الشذوذ في سلوكه ، ولا تحدث أحد من معاصريه ، ممن أعجب بغزله وشخصيته ، أو ممن ازور به وبها بما يفيد اختلالا في تكوينه النفسى ، ولا ينهض شعره أيضا ليدل على شيء من هذا ، فكل شاعر يُتاح له ما يتيح لعمر من شهرة ، وحظ في عالم

(١) الشعر والشعراء ٢١٧

(٢) شاعر الغزل (العقاد) ٥٠

النساء ، لن يجد بأسا من أن يتحدث عن نفسه ، ويزهو بكثرة علاقاته ، ويحفظونه عند المرأة ، كما تحدث عمر ، وقد يصطنع المبالغة والتحويل والاختراع في كل هذا ، كما اصطنع عمر ، ولايتهم مع ذلك بالشذوذ النفسى أو العاطفى ، وهل كانت مشيخة قریش تعجب بشعره ، ولا تعدل به شعرا قط ، وهى تعرف أن هذا الشعر ثمة شذوذ واختلال ؟

وشاعر هذا شأنه من الطبيعى أن يكون من بين النساء المزدحمات حوله من تحبه حقا ، فالمرأة لا تختلف عن الرجل في الميول ، وبخاصة في شئون الحب ، وقد تكون البادئة فيه ، وإن تلكأت أحيانا في إظهاره ، ومن هنا ، فكما كان عمر ينشد الجمال ويسعى إلى المرأة ، كانت هناك — ولاشك — نساء يحببته قبل أن يعرف بأمرهن ، بل كان منهن من تسعى إلى الاتصال به ، وتظهر الرغبة في التحدث إليه ، والتمتع بمجلسه ، فكان بهذا أسبق منه في الشعور بهذه العاطفة ، وأحيانا في إظهارها ، وكان هذا من أسباب حديثه عن نفسه ، والتغزل بها ، ولكنه صرح من ناحية أخرى حين سمع أن بعضهن يتشوقن للقاءه ، ويرغبن في التحدث إليه ، أنه كان أكثر منهن شوقا ورغبة فقال بيته السابق :

وقرئ أسباب الهوى لمتيَّم يقيس ذراعاً كلما قسَّن إصبعا

من هذا نستطيع أن نفهم أن عمر لم يكن شاذا في هذه الصورة التى قدمها للمرأة عاشقة كما ظن بعض الباحثين ، الذين نتفق معهم في وصف هذه الصورة في شعره ، ونخالفهم في تعليلها ، فقد كان من بين نساء عصره من أحببته حقا ، ومن أعجبين به حقا ومن توددن إليه كثيرا .

على أن صورة المرأة العاشقة في غزل عمر ، لم تكن دائما خالية من المشاركة العاطفية بينه وبين المرأة التى تهواه ، فما هذه الصورة — مهما كثرت نماذجها — إلا جانب من جوانب شعره الغزل ، وفي بعض نماذجها الأخرى ما يدل على أنه كان يتشوق للمرأة ويتودد إليها ، ويشكو أحيانا من صدها ، وسنعالج هذا الشعر عند دراسة صورة الرجل في غزل حضر الحجاز .

كما أن في بعض نماذجها ، التى يتحدث فيها عن فتنة النساء به ، ما يدل على أن الحب عنده عاطفة مشتركة ، وإعجاب متبادل ، فكلما أفصح له صاحبتة عن حبها ، أفصح هو عن حب لا يقل حرارة وإخلاصا .

من ذلك قوله ^(١) :

بنفسى من اشتكى حبه ومن إن تسخط أعتبه
ومن لا أبالى رضا غيره ومن قد عصيت له أقربى ...
وقوله : ^(٢) :

بنفسى من شفى حبه ومن جبه باطن ظاهر
ومن لست أصبر عن ذكره ولاهو عن ذكرنا صابر
ومن إذ ذكرنا جرى دمه ودعى لذكرى له مائر
ومن أعرف الود فى وجهه ويعرف ودى له الناظر

حتى فى موقف العتاب ، الذى يتحدث فيه عن نفسه ، على لسان المرأة العاتبة ،
سرعان مايكشف عن وجده بها ، كما تجد به ^(٣) :

أرسلت هند إلينا رسولا عاتبا أن مالنا لانراكا ؟
فيم قد أجمعت عنا صدودا أردت الصرم أم ماعداكا ؟
إن تكن حاولت غيظى بهجرى فلقد أدركت ماقد كفكا
قلت : مهما تجدى بى فإنى أظهر الود لكم فوق ذاك

وهكذا نرى عمر مثالا لغيره من الشباب الذين هبى لهم ماهيىء له ، والذين
يجبون حبا صادقا أحيانا ، ويلهون بالحب ، لهما بريئا أحيانا أخرى ، ثم يتحدثون عن ذلك
كله فيما بينهم ، أو يصورونه شعرا إذا كانوا شعراء كعمر ، ممثلين بهذا طبيعة الحياة فى
مجتمع حضرى .

بقيت تهمة الأنثوية التى فسر بها الأستاذ العقاد صورة المرأة العاشقة فى غزل

(١) ديوانه ٦٢ . أعتبه : أزال سب عتابه ، وكذا يُعْتَب .

(٢) ديوانه ١٣٨ . مائر : غزير جار .

(٣) ديوانه ٢٨٣

عمر ؛ لأنه حكى لغة الأنثى في هذه الصورة ، وذهب مذهب النساء في معانيه وأسلوبه .

والحق أن عمر برىء من هذه الوصمة ، براءته من دعوى الشذوذ النفسى والعاطفى ، فليس به أنوثة ولاخنوثة ، ولكنه شاعر فنان ، يرمى حق الفن فيما يختار من أساليب الأداء ، ومادام قد أجرى الشعر على لسان النساء ، وأعارهن موهبته في التعبير الفنى عن المشاعر ، ليكشفن عن مكنون صدورهن ، فمقتضى الإخلاص الفنى أن تكون لغة هذا الشعر لغة أنثوية ، لينة رقيقة ، تتاح من القاموس اللغوى لاجتماع النساء ، وإنه ليعاب لو أنطق النساء بلغة الرجال الصارمة ، التى يلاحظ الأستاذ العقاد خلوه هذا الشعر منها .

آية هذا كله أننا ينبغي أن لانتهم عمر في صحته النفسية ، ومزاجه العاطفى ، واستواء رجولته ، إذا مادعته دواعى الفن ، ووجهته خبرته الشخصية ، إلى تصوير بعض نساء عصره عاشقات ، هو موضوع عشقهن ، وإلا لاتهمنا تلميذه العرجى بمثل ذلك ، وهو الرجل الذى أسهم بجهداه في الدفاع عن ثغور الدولة الإسلامية .

ففى بعض شعره ما يشبه هذا الاتجاه عند أستاذه ، حيث يصوره عاشقا معشوقا ، من خلال الأسلوب الذى استخدمه عمر ، أسلوب الحوار .

من ذلك قوله (١) :

وما أنسَ مِلْأَشْيَاءَ لَأَنْسَ مَوْقِفًا لَنَاوِلَهَا بِالسُّفْحِ دُونَ ثَبِيرِ
وَلَا قَوْلَهَا — وَهَنًا — وَقَدْ بَلَ جِيْبَهَا سَوَابِقُ دَمْعٍ لَا يَحْفُ غَزِيرِ
أَنْتَ الَّذِى خَبَرْتُ أَنَّكَ بَاكِرٌ غَدَاةَ غَدٍ أَوْ رَاحِلٌ بِهِجِيرِ
فَقُلْتُ : يَسِيرٌ بَعْضَ شَهْرٍ أَغْيِبُهُ وَمَا بَعْضُ يَوْمٍ غَبْتُهُ يَسِيرِ

وبعد ، فمن أجل هذا الغزل الرقيق الحضرى في شعر عمر بن أبى ربيعة ، كان أكثر القدماء ، من الشعراء والنقاد والعلماء بالشعر مجمعين ، أو كالمجمعين ، على إكبار عمر

بن أنى ربيعة ، وتقديمه ^(١) يقول ابن أنى عتيق : « فلشعر عمر لوطّة في القلب ، وعلق بالنفس ، ودرك للحاجة مالميس لشعر غيره ^(٢) » .

٥ - ولايهمل الغزل الحضري الحجازي الجانب الحسي من صورة المرأة ، ولا نغنى بالحسية هنا ماهو مقابل للعواطف المجردة ، والتوحيد - نغنى الاقتصار على امرأة واحدة في غزل الشاعر - عند العذريين ، وإلا كان غزل حضر الحجاز في العصر الأموي حسيا خالصا كله ، إذ ليس فيه هذا التجريد في العاطفة والتسامي بها ، ولا اقتصار الشاعر على حب امرأة واحدة والتغزل فيها .

وإنما نغنى بالحسية ، الوصف المفصل للجمال الجسدى للمرأة ، مقتربا بإظهار الرغبة - أو الإيحاء بها - في الاستمتاع به .

والصورة الحسية بهذا المعنى هيئة الخطر في غزل حضر الحجاز ؛ إذ لم يتجاوز الشعراء فيها - على قلة عنايتهم به - الصفات الجسدية لثموج الجمال المثالي لمقاتن جسد المرأة ، التي خلعتها الشعراء الجاهليون من قبلهم على المرأة التي تغزلوا بها .

ولذا نجد هذه الصورة تكاد تتحد في وصف النساء جميعا عند هؤلاء الشعراء ، فمقاييس جمال الفم ، وريقه ، والشعر ولونه وبريقه ، والقَدّ وليونته واعتداله ، والخصر وضومره ، والردين وامتلائهما واستدارتهما ، والعيون واتساعها وفتورها إلى غير ذلك من مكونات الجمال في المرأة ، كلها واحدة ، أو متشابهة ، مما يخيل إلينا أن الشعراء كانوا يستعيرون عيون آبائهم وأجدادهم من الشعراء الجاهليين ، ولا ينظر الواحد منهم بعينه إلى صاحبة بعينها ، ليدرك ملامح جمالها المتفرد ، ويرسم له التشابه والصور المناسبة له .

فكل امرأة في هذا الغزل تسفر عن وجه كالقمر ، أو الشمس ، أو الصبح ، وتطل بعيني المها أو الجوّذر ، وكل فم حلو الرضاب كالشهد المذاب ، وكل عجيذة كالكتيب المهيل ، وكل قد كالغض ... إلى آخر هذه التشبيهات المعهودة في غزل سابقين .

(١) جريدة السياسة العدد (١٧) ديسمبر سنة ١٩٢٤ م (مقال الدكتور طه حسين)

(٢) الموشح ٢١٠

وكأنما كان هذا الوصف تقليدا فنيا ، على الشاعر ألا يهمله ، أو جزءا متعما لبناء القصيدة الفنية .

فلننظر — مثلا — في قول العرجي يصف جمال عيني صاحبتة ، ووجهها ، وساقها ، ولون بشرتها ، ولين جسمها ، واعتدال عودها ، وطراوته وتثنيه : ^(١)
 فبين حوراء لها صورة كالبدر قد قارن بالأسعد
 ممكورة الساقين رعبوبة كالغصن قد مال ولم يُخضد

فعينها واسعتان سوداوان ، ووجهها مستدير ، استدارة البدر يوم تمامه ، وساقها ممتلئتان ، وبشرتها بيضاء ، وعودها طرى طراوة الغصن المعتدل الغض ، الذى إذا انثنى لا ينكسر لليونته .

ولانجدنا بحاجة إلى وضع نماذج من غزل الجاهليين ، بإزاء هذا النموذج للمقارنة ، ولإثبات أن الآخر يتعقب الأول في هذه الأوصاف ، حذوك النعل بالنعل ، كما يقولون .

وأبو دهل الجمحي يذهب هذا المذهب التقليدى أيضا في وصف بعض مظاهر الجمال الجسدى لصاحبتة ، فيقول : ^(٢)

وهي زهراء مثل لؤلؤة العواص ميمرت من جوهر مسنون
 تجعل المسك واليلنجوج والنَّدَّ صلاءً على الكانون

فتشبيه بياض البشرة بلون اللؤلؤ المستخرج حديثا من صدفه ، ووصف ماتتطيب به من أنواع الطيب ، منقول نقلا من الشعر الجاهلى .

وحتى عمر الشاعر المستحدث ، حينما التفت — وقلما فعل — إلى جمال جسد صاحبتة ، أراح ملكته ، فلم يتمتع من بئر عبقريته ، وإنما اغترف من بحر الشعر الجاهلى .
 ونكتفى من هذا بقوله : ^(٣)

(١) ديوانه ١٢ . الأسعد : الين . ممكورة : ممتلئة . رعبوبة : بيضاء . بخضد : يكسر

(٢) الأغاني ٦ / ١٥٧

(٣) ديوانه ١٢٨ . الوحف : الشعر الأسود الغزير . الوديلة : المرأة .

قطوف ألوف غريرة وثيرة ماتحت اعتقاد المؤزر
سبته بؤخيف في العقاص مرجلي أثيث كقنوالنخلة المتكور
وخذ أسيل كالوذيلة ناعم متى يره راء يهّل ويسخر
وعينى مهاة في الخميطة مطفل مكحلة تبغى مراداً لجوذر
وتبسم عن غر شتيت بنانه له أشر كالأقحوان المنور... الخ

وأغلب الظن أن عمر في هذا الوصف قد وضع ديوان امرئ القيس بين يديه ،
ينظر في غزله الوصفى وينظم ، ولو رويانا من غزل امرئ القيس مايؤيد هذا لأطنا ،
وأمللنا ، وفي الإحالة مغنى ^(١) .

ويطول بنا القول لو استرسلنا في الاستشهاد لهذه الصورة الحسية في غزل شعراء
حضر الحجاز في العصر الأموى ، وماتعكسه من وصف تقليدى لحاسن المرأة ، ويكفى
أن نعلم أنهم في هذه الصورة كانوا عالة على الشعر الجاهلى من ناحية ، مستوفين لتقليد
فنى من ناحية أخرى .

— ٥ —

ثانيا : صورة الرجل في الغزل الحجازى :

الطابع الغالب على هذه الصورة ، أن يأخذ الشاعر في تصوير عواطفه نحو المرأة ،
التي يعشقها ، أو يلهو بها ، محلاً من خلال ذلك هذه العواطف ، إذ لم يعد الوصف
الحسى لمفاتن المرأة ، على النحو الذى كان مألوفاً عند الشاعر الجاهلى ، هو مايشغل
كثيرا الحب الغزل فى حضر الحجاز ، فقد أخذ يتجه إلى داخله — إن صح هذا
التعبير — متحدثا عن مشاعر الحب والصبابة ، مصورا معاناته فى حبه وصبابته .

ولا يقدح فى هذا الحب ، وتلك الصبابة مانلاحظه من عدم اقتصار الشاعر على
نموذج نسائى واحد فى كل غزله ، حيث نراه موزع النفس بين عدد من النساء ، لا يكاد
يستقر قلبه على إحداهن ، إلا ريثما تراحمها فيه من هى أجمل منها ، أو أكثر ظرفا ، أو أملح
دلالا ، أو أطيب حديثا ، أو أرق أحساسا ، فيقضى عمره متنقلا بهواه بين الحسان ،

(١) نجيل على كتابنا : أمراء الشعر فى العصر الجاهلى ١٥٤ — ١٦١

كالفراشة الهائمة بين أزاهير الرياض ، أو كالنحلة المنتقلة بين المروج ، ترتشف من هذه الزهرة وتلك ، باحثاً عن ألوان الجمال ، متذوقاً صنوفه ، يتصدى لكل ذات حسن وملاحة ؛ يتمتع حاسة الجمال فيه ، إن وجد عندها ماليس عند غيرها ، أو ليعرف قدر الجمال في صاحبته ، التي ارتضاها قلبه ، أكثر من غيرها وراقت في عينه ، لامتيازها على سواها ، تماماً كما فعل عمر بن أبي ربيعة ، وحكاها في قوله : (١) :

خرجتُ غداة النحرَ أَعترضُ الدُمى فلم أرأحلى منك في العين والقلب
فو الله ما أدري أحسنُا رُزقيته أم الحب أعمى مثل ما قبل في الحب

وينبغي أن نتأمل قول عمر « أَعترضُ الدُمى » لنذكر أن الشاعر إنما يعشق الجمال ، فالنساء عنده ماهن إلا معارض لهذا الجمال ، وحب الجمال لا يمكن أن يقف عند تجربة واحدة ، لأن هذا من سمة الحب ، الذي يسعى إلى تحقيق ذاته مع من يحب ، فلا يبقى له بعد هذا مطلب أو هدف ، وماهكذا عاشق الجمال ، الباحث دائماً عن زاد متجدد لتجاربه الفنية في دنيا الجمال ، لا يكاد يسكن إلى واحدة إلا ريثما يقع على غيرها ، وما يمنعه مادامت الفرص متاحة ، وظروف البيئة مساعدة ، ومواسم الحج تأتي إلى مدن الحجاز بالمليحات من كل حذب وصوب فهن حسان الشام ، وجميلات العراق ، من ذوات البيوتات والشرف ، والصيت الذائع في عالم الملاحة ، ومجالس الغناء ، ومجالس اللهو ، تجتذب النساء كما تجتذب الرجال ، وتفسح لهن مكاناً ، كما تفسح للرجال آخر ، والكل آمن في الأخذ بهذه المتع الفنية المباحة « ومن ثم لم تعد للعلاقات العاطفية هذه الحالة الرومانسية القديمة ، وانفسح الطريق أمام الصلات العابرة ، والمغامرات الطارئة ، التي لاتدوم إلا ريثما يستنفد الشاعر تجارب عمله الفني (٢) » .

والشاعر المغرم بالجمال يستطيع أن يرضى حسه به ، دون أن يتقيد بأخلاق الوفاء وآداب الحب ، ونحوال التضحية والصبر ، والتعذيب النفسى الذى لامنعه له ، عند من يجلس اليوم إلى المرأة ، أو نساء كثيرات مجتمعات ، ويجلس غداً إلى أخرى ، أو إلى كثيرات أخريات .

(١) ديوان المعانى ١ / ٢٢٨ والذاكرة السعدية ٥١٤

(٢) الشعر الأموى (د. فتوح) ١٩٢

ولم تكن تجارب شعراء الغزل في حضر الحجاز على ذلك كاذبة دائما ، أو متكلفة ، يعوزها الصدق الفني ، لأننا قد نتشكك في صدق هذه التجارب من الناحية الأخلاقية ، أى من حيث ارتباطها بواقع أخلاقى ، أو عدم ارتباطها ، وقد نرتاب في صدقها التاريخى ، ونعنى به وقوع الأخبار والأحداث التى تحدث بها الشعراء في تجاربهم ، غير أن هذا الشك يغدو فضولا لا موجب له ، إذا كنا نبحث في تجارب هؤلاء الشعراء ، عن صدق الشعور الذى يعبرون عنه ، وصدور ذلك الشعور عن مزاج أصيل ، لا تكلف فيه ، ولا اختلاق ؛ لأن الصدق الشعورى ثابت لهم من ثبوت مزاجهم وفطرتهم ، التى جبلوا عليها ، وهى الفطرة التى جعلتهم يغمون بالنساء ، والتحدث إليهن ، والتحدث عنهن ، وتمثيل ذلك في تجاربهم الفنية .

وشئ آخر يمكن أن نعلل به الصدق في تجارب الغزل عند شاعر الحجاز الحضرى ، هو أنه لم يكن يحب بعقله أو بقلبه فقط ، وإنما كان يحب بحسه أيضا ، فما إن يرتوى حسه من لون من ألوان الجمال فى المرأة ، حتى يتعلق بغيره ، أو كما يقول الدكتور طه حسين : « لم يكن حسه يطيع قلبه ، فىرى الجمال فى عشيقة ، ويميل إليها ، وإنما كان قلبه طوع حسه » ^(١) ، أو هو كما يقول عمر بن أبى ربيعة ^(٢) :

إنى امرؤ مولعٌ بالحسن أتبعه لاحظ لي فيه إلا لذة النظر

فليس حبه بالحب العذرى ، الذى يفرض على صاحبه التعلق بواحدة لا يعدها إلى غيرها .

أهم ملامح هذه الصورة :

١- بث الأشواق وشكوى المهجر :

كثيرا ما يتجه الشاعر الغزل فى حضر الحجاز إلى إبداء عواطفه نحو صاحبه ، محللا هذه العواطف فى بث يكاد يقرب من تجارب العذريين فى شكوى الحرمان ، والمعاناة من الوجد ، فتشيع نغمة حزينة بين ثنايا نماذجهم فى هذا الضرب من الغزل ، تكاد

(١) جريدة السياسة . العدد (١٧) . ديسمبر ١٩٢٤ م (مقال الدكتور طه حسين) .

(٢) الأغاني ١ / ٦٣

نخضعنا عن طبيعة هذه التجارب ، وتوهمنا أنها لشاعر لايشد من وراء تجربة الحب ، إلا الشعور بلذة أنه يحب ، وأنه مقيم على هذه العواطف والأحاسيس لايتغير ، ولايتحول .

ولنقرأ قول الأحوص فيمن دعاها عبلة (١) :

ألا يا عبيل قد طال اشتياقي إليك وشفنى خوف الفراق
بيت مخامرا أشكو بلائي لما قد غالنى ولما ألقى
كأنى من هواك أخو فراش تَجَلَّجَلُ نفسه بين التراقى
حلفت لك الغداة فصدقينى برب البيت والسبع الطباقي
لأنت إلى الفؤاد أشد حبا من الصادى إلى الكأس الدهاق

إن الأحوص هنا يرتدى ثوب الحب المخلص ، وإخلاصه ووفائه لصاحبه ، يدفعانه إلى تحمل معاناة هذا الشوق الطويل ، والقلق الممض من خوف الرحيل ، الذى أسقم نفسه وجسمه ، فغدا كالعليل لسكرات الموت ، وهو يتوسل إليها أن تثق بحبه ، وبإخلاصه ووفائه فيه . فهل هو حقا كما يقول ؟

نقرأ قوله فى الوجد بأخرى دعاها أم جعفر لنرى : (٢)

وإنى ليدعونى هوى أم جعفر وجاراتها من ساعة فأجيب
هيبنى امرءا إما بريثاً ظلّمته وإما مسيئاً مذنباً فيتوبُ
فلا تتركى نفسى شعاعا فإنها من الحزن قد كادت إليك تذوب
لك الله إنى واصل ماوصلتنى ومُثْنِ بما أوليتنسى ومُشِيب

هنا يكشف الأحوص عن طبيعة تجربته العاطفية ، وغايتها ، إنها تجربة حسية لاهية فى فلسفتها ، وفى غايتها ، فالهوى ليس وقفا على أم جعفر ، وإنما هو لها ولجاراتها ، والعاطفة تجول فى ميدان الأخذ والعطاء ، إن وصلته صاحبه وصلها وأثنى على هذا الوصال ، وإن أعرضت أعرض ، فهذا هو الاحتمال المقابل وإن لم يذكره ، من باب حذف مايعلم ، فلا نخضع إذن بهذا الاستعطاف الحار فى البيت الثانى ، ولا بهذا الذويان

(١) الموشح ٢٣١ .

(٢) ديوانه ٧٨ .

من الشوق في البيت الثالث ، بل هما موحيان بالغاية منهما ، وهى تجديد الوصل ، وبه يكون النوال والاستمتاع ، الذى يحرص الشاعر على الإشارة إليه في قوله بعد هذه الأبيات :

وَأَخَذَ مَا عَظِيتْ عَفْوَاً

وفى أم جعفر هذه يقول الأحوص أيضاً ^(١) :

لقد منعت معروفها أم جعفر وإنى لمعرفها لفقير
وقد أنكروا عند اعتراف زيارقى وقد وُغِرتَ فيها على صدور
أزور ولولا أن أرى أم جعفر بأبياتكم مادرت حيث أدور
أزور على أن ليس ينفكّ كلما أتيت عدو بالبنان يشير
وما كنت زوّاراً ولكن ذا الهوى إذا لم يزر لابد أن سيزرو

إنه يقرب من سمات العذريين في البيت الثالث ، الذى يوهم بأنه مكتف بمجرد رؤيا صاحبه ، ولو عن بعد ، بل قد تكفية رؤيا ديارها ، ولذا فهو يدور حولها ، لأنها ديارها ، ولأنه قد تسنح له فرصة رؤياها ، والأمر كله أنه محتاج لمعروف أم جعفر ، هذه هى الغاية ، التى من أجلها يدور حول الديار ، مغامراً مهدداً من الأعداء الذى يشيرون إليه كلما زار ديارها ، فالمغامرة هنا محسوبة بحيث تفضى إلى إدراك الغاية منها ، وهى تحصيل مطمع ، أو إشباع رغبة ، وإلا فهى مغامرة خاسرة ، قد يعدل عنها الشاعر ، الذى لا يصبر على هذا الأسلوب ، ولا يكتفى به ، فهو ليس من غواة الزيارة ، والدوران حول الديار ، ولكنه ذو هوى ومأرب يدفعه إلى الزيارة غداً إن لم يزر اليوم ، كما يصرح في البيت الأخير .

أما إن استيأس من بلوغ مأربه ، فإنه لن يصبر على الحرمان ، وفى التحول إلى غيرها مستراح ومغنم .

بهذا يهدد الأحوص في قوله : ^(٢)

(١) الموشح ١٦٣ .

(٢) المصدر نفسه .

فإن تصلى أصلك وإن تبنى بصرك قبل وصلك لأبلى
ورأى للمودة ذو حفاظ أوصل من يهش إلى وصالى
وأقطع جبل كل ذى ملق كذوب سريع فى الخطوب إلى انتقال

أردنا بهذا الإبانة عن أن ذهاب الشاعر الحضرى الحجازى إلى بث العواطف ،
وتحليل المشاعر ، وإكسابها سمة المعاناة من الحرمان ، والشكوى من الهجر ، لايسلك
تجاربه الغزلة فى نظام التجارب العذرية ، كما ارتأى بعض الباحثين المحدثين ^(١) .

وهذا رأى استقيناه من تجاربه التى قدمناها ، وغيرها مما يضمه شعره ، غير
متأثرين بسيرة الأحوص ، وما قيل فيها من نسبته إلى الفجور ، والتهالك على اللذات ،
والاستهتار بقيم الدين والمروءة ^(٢) ، فنحن لانتظر فى تجاربه بمقياس أخلاقى ، ولانستنطقها
للاستدلال على خلقه ودينه ، فهذا الصديق الأخلاقى لايشغلنا هنا ، وإنما مجال الدراسة
ومقامها الصديق الفنى ، وقد أثبتناه للأحوص وأصحابه الغزلين الحضريين الحجازيين فى
صدر هذا البحث .

وماقلناه عن تجارب الأحوص ، المصورة لجانب من صورة الرجل العاشق فى هذا
الغزل ، من حيث إبرازه شاكيا ، ملتاعا ، يعانى من الهجر ، ويتوسل فى طلب الوصل ،
ومن حيث ميل هذه الصورة إلى تحليل العواطف ، وصيغ قصة الحب بطابع غير سعيد ،
كل هذا نراه فى نماذج من غزل زملائه ، شعراء حضر الحجاز .

فعمر بن أبى ربيعة الذى رأيناه مزهوا بحظوته لدى النساء ، مصورا نفسه فى صورة
المعشوق ، نراه هنا عاشقا ، يشكو حرقة الجوى ، ولوعة الفراق ، وجراح القلب ، يفرح
باللقاء ، ويشقى بالهجر ، لايفتأ متوسلا إلى صاحبتة أن تجود عليه بالوصل ، بحيث
تأخذ تجاربه طابعا من البث العاطفى الحار ، يقرها هى الأخرى من تجارب العذريين ،
وتكاد تختلط بها .

من ذلك قوله : ^(٣)

(١) هو الدكتور عبد القادر القط فى كتابه : فى الشعر الإسلامى والأمرى ٢٦ — ٢١١

(٢) راجع تفصيل هذه السيرة فى : حديث الأربعاء ١ / ٢٦٦ — ٢٧٠

(٣) ديوانه ١٥٨

ألا ياهند قد زودت قلبي جوى حزني تضمنه الضمير
إذا ماغبت كاد إليك قلبي فدتك النفس من شوق يطير
يطول اليوم فيه لأراكم ويومي عند رؤيتكم قصير
وقد أفرحت بالهجران قلبي وهجرتك فاعلمي أمر كبير
فديتك أطلقي حبلى وجودي فإن الله ذو عفو غفور

هذه الآلام التي يكتنها عمر من هجر هند ، وقلبه الذي يكاد يطير شوقا إليها ،
أو الذي أثخن بجراح هجرها ، وهذا التوسل الحار ، والاستعطاف الذليل ، هو من
سمات المحب العذرى ، الذي يقصر عواطفه على واحدة ، لا يرى للأيام ، ولا للحياة معنى
إلا في قربها .

وقد عرفنا من قبل أن عمر وزملاءه كانوا يتطلعون إلى حياة عاطفية ، لا تتجرد فيها
عواطفهم تجرد العذريين ، ولا تلتصق بالمادية الحسية ، التصادق الحسين من شعراء الغزل
الجاهليين ، وأنهم يلهون بالحب أحيانا ، ولكنهم قد يكتوون بناره أحيانا أخرى ، إذ لا يجب
أن ننسى أنهم كانوا يعيشون في بيئة تحرص على تقاليد الصون من ناحية ، وتأخذ بالمباح
من متع الحضارة من ناحية أخرى ، وفي مثل هذه البيئة الوسط ، قد توجد صور من
الانفصالية بين مجتمع المرأة ، ومجتمع الرجل ، وقد يعلق قلب الشاعر بواحدة ممن لا تزال
هذه الانفصالية متحركة في تقاليد أسرتها ، فيعاني مثل هذه المعاناة التي تصورها
التجارب السابقة ، ويكون الفارق بين شعراء الغزل الحجازي ، والعذريين ، مرجعه قدرة
الأولين على التحول بعواطفهم من امرأة صعبة المنال ، إلى أخرى وصلها أيسر وأهون ،
وهنا تقدم لهم البيئة العديد من نماذج هذه المرأة .

هذا التفسير يصلح أن يكون أحد وسائلنا في تفسير مانجد من صورة العاشق
الحضري الحجازي ، التي تقرب من صورة العاشق العذري .

نستطيع أن نفسر مانجده فيها من وجد يباعد ما بين جفنيه ، فيقضى الليالي في
سهل مهموم ، وبكاء موصول ، فالحييب هاجر ، والقلب عالق ، والعذل لا يفيد ، وما من
سبيل له إلى التسلي إلا أن ييكي ، ويستبكي .

وهذه حال من أحوال عمر بن ربيعة ، ييشها في قوله ^(١) :

(١) الكامل للمبرد ٢ / ١٨٠ . التعريس : نزول المسافرين في آخر الليل للراحة . استقلوا : ارتحلوا .

عتيق : هو بن أبي عتيق صديقه .

ليت شعري هل أقولنّ لركب طالما عرّسْتُم فاستقلّوا
 بفلاةٍ هم لديها هجوع حان من نجم الثريا طلوع
 إن همي قد نفى النوم عني وحديث النفس شيء ولوع
 قال فيها عتيق مقالا فجرث مما يقول الدموع
 قال لي : ودّع سليمي ودّعها فأجاب القلب لأستطيع
 لاتلمني في اشتياقي إليها وابك لي مما تجن الضلوع

فتمرد القلب على السلوى ، هو من أخص خصائص الحب العذري ، والقطعة كلها كما نرى ، صورة من الهوى العذري ، ومن التصريح بالعجز واليأس المعروفين في غزل العذريين ، غير أننا على يقين من أن عمر قد تسلى عن هذه اللوعة ، حينما تحول بهواه إلى أخرى غير سليمي هذه .

ونستكمل هذه الصورة الملتاعة في شعر عمر ، بهذا النموذج الأخير ، الذي يمكن أن نعهده أقرب نماذجه في الباب اقتربا من روح العذريين ^(١) :

أعبدة ما ينسى مودتك القلب ولاهو يسليه رخاء ولا كرب
 ولاقول واش كاشح ذى عداوة ولابعد دار إن نأيت ولاقرب
 وماذاك من نُعمي لديك أصابها ولكن حباً مايقاربه حب
 فإن تقبلي يا عبد توبة تائب يتب ثم لا يوجد له أبدا ذنب
 أذل لكم يا عبد فيما هويتم وإني إذا مارأمني غيركم صعب
 وأعدّل نفسي في الهوى فتعقني ويأصرنى قلب بكم كلف صب
 وفي الصبر عمن لا يواتيك راحة ولكنه لا صبر عندي ولا لب

إن عمر في هذه الأبيات يفوق بعض العذريين في إظهار الوجد ، ولذعة الجوى ، والعجز اليائس عن الصبر ، فهل معنى هذا أن عمر كان عذري الهوى ؟ ما إلى هذا قصدنا ، ولا على هذا نستدل بهذه الصورة من شعره ، وإلا تناقضنا مع أنفسنا بين ما هنا ، وما رأيناه من غزله المعبر عن ميله إلى التنقل بهواه ، وكل ما عيناها أن عمر شاعر فنان مخلص لفنه ، ولذا فهو يعكس في شعره هنا وهناك صورة متكاملة لمجتمعه ، الذي كان يعيش نقلة حضارية خطيرة ، تجمع بين صرامة البداوة ، وتسامح الحضارة ، وهي نقلة

(١) ديوانه ٦٤ . يأصرنى : يعطفنى .

أحدثت نوعاً من التذبذب والحيرة بين مقتضيات الماضي ، ونوازع الحاضر .

ومن أبرز ما يعكس هذا الجانب الصارم من وجه الحياة الحجازية في حضر الحجاز الأموي ، نموذج للأحوص ، يصور تجربة تحكمت فيها التقاليد الحادة للحياة العربية في طورها آنذاك .

فهو يهوى أختاً لزوجته ، ولكنه مضطر إلى أن يكتم هذا الهوى ، ويحذر الحذر كله من أن يبدو ما يكشف سره ، فلا هو بمستطيع أن يكشفها بما يجد من هذا الحب ، ولا هو بمستطيع صبرا على هذه الحال .

ولكنه شاعر والشاعر يجد في القريض متنفساً لهواه ، فلينسب بها ، دون تصريح باسمها ، وليكن عنه بما شاء من الأسماء ، وحدث أن تزوجت حبيبته الغافلة ، فصعد زواجها قلبه ، وتخلّى عن حذره ، وكاد يدفعه اليأس من وصاها إلى الجنون ، فبكى الحرمان والهجر ، وتغنى بلذعة الشوق ، وصرعة الذكرى ، ثم أعلنها ثورة نائمة حاكمة على الزوج المحظوظ ، وعلى الأهل الذين سمحوا بزواجها منه ، داعياً عليه وعليهم ، صارخاً ببطلان هذا الزواج ، مهدداً الزوج بالويل والثبور إن لم يطلق حبيبته : (١)

أَنَّ نَادَى هَدِيلاً ذَاتَ فَلَجٍ	مَعَ الْإِشْرَاقِ فِي قَنَنِ حَمَامٍ
ظَلِلْتُ كَأَن دَمْعَكَ دُرٌّ سِلْكٍ	هَوَى نَسَقاً وَأَسْلَمَهُ النِّظَامُ
تَمَوْتُ مِنْ تَذَكُّرِ أُمِّ حَفْصٍ	وَجِلَّ وَصَالَهَا خَلَقُ رِمَامٍ
صَرِيحُ مُدَامَةٍ غَلَبَتْ عَلَيْهِ	تَمَوْتُ لَهَا الْمَفَاصِلُ وَالْعِظَامُ
وَأَتَى مِنْ دِيَارِكَ أُمِّ حَفْصٍ	سَقَى بِلْدَا تَحُلُّ بِهِ الْغَمَامُ
أَحْلَى النَّعْفِ مِنْ أَحَدٍ وَأَدْنَى	مَسَاكِنِ الشَّيْكََةِ أَوْ سِنَامِ

(١) ابن سلام ٦٦٦ - ٦٦٨ وتزيين الأسواق . ٣٢ وأمالى الزجاجي ٨٠ . الهديل : تزعم العرب أنه فرخ كان على عهد نوح عليه السلام فمات ضيعة وعطشا ، فما من حمامة إلا وهى تبكى عليه وتناديه . مستهام : استهلكه الحيام ، فذهب على وجهه عشقا ووجدأ . خلق : بال . رمام : متقطع ، جمع رمة ، وأصلها ما بقى من الحبل بعد قطعه . النعف : ما ارتفع عن مجرى السيل في الوادي . الشبيكة : من منازل حاج البصرة . سنم : جبل بين البصرة والنجامة . مطر : اسم زوج حبيبة الشاعر .

سلام الله يامطرُ عليها وليس عليك يامطرُ السلام
ولاغفر الإله لمنكحها ذنوبهم وإن صلوا وصاموا
فإن يكن النكاح أحلَّ شيء فإن نكاحها مطرٌ حرام
فطلقها فليست لها بكفٍ وإلا شق مفـرّقك الحسام

هذه النعمة الحزينة الشاكية ، نجدها أيضا في شعر عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، الذى يكاد قلبه يذوب وجدا وصباة ، ويضطرب اضطرابا شديدا ، كلما تذكر صاحبه التى فارقت ، ويملك الهم عليه أقطار نفسه ، يضيق بالدنيا ، وتضيق الدنيا في وجهه ^(١) :

كأن فؤادى في مخالب طائر إذا ذكرتكَ النفسُ شدَّ بها قبضا
كأن فجاج الأرض حلقة خائِم على فما تزداد طولا ولا عرضا

ويطول الليل على أى ذهبل الجمحى ، ويجا فيه الكرى ، ففى قلبه نار مضطربة ، تحرمه الرقاد ، وقد سعى الوشاة بينه وبين صاحبه (عَمَرَة) حتى أغضبوها عليه ، مع أنهم كانوا ممن يخلص لهم الود ، ويأتمنهم على السر ، ولكنهم لم يرعوا للسر حرمة ، ولم يستشعروا حرجا في إذاعته ، ومن ثم فهو يقطع الليل في هم وقلق ، تنتابه الوساس ، متقلبا بين اليأس والرجاء ، فإذا ما استبدبه اليأس انخرط في بكاء حار ، يقطع نياط القلب ^(٢) :

تطاول هذا الليل مايتبلّج وأعيت غواشى عِبرتى مائقرُج
وبت كئيباً ماأنام كأنما خلأل ضلوعى جمرة تتوهج
فطورا أمتنى النفسى من عمرة المنى وطورا إذا مالجّ لى الحزن أنشج
لقد قطع الواشون ماكان بيننا ونحن إلى أن يوصل الحبلى أحوج
رأوا عورة فاستقبلوها بألبهم فراحوا على مالا نحبّ وأدلجوا
وكانوا أناساً كنت آمن غيبهم فلم ينهم جِلْم ولم يتحرجوا

(١) ديوانه ٢٩

(٢) الأغاني ٦ / ٥١ وعبود الأخبار ٢ / ٢٢ وأمالى المرتضى ١ / ١١٩ أعيت : استعصت . مائقرج : مانفرج : لا تنكشف . أنشج : أبكى بصوت مرتفع . بألبهم : بجمعهم . تخلج (بكسر اللام وضمها) : تضطرب ، يعنى ما تذكره العامة (يعنى يترف) . المفلج : الذليل ، الذاهب القلب خوفا . الصرم : الهجر .

هم منعونا مانحب وأوقسدوا
ولو تركونا — لاهدى الله سعيهم —
لاؤشك صرف الدهر يَفَرِّق بيننا
وقلت لعبادٍ وجاء كتابها
وخططت في ظهر الحَصِيرِ كأننى
فلما التقينا لجلجت في حديثها
وإنى لمحجوبٌ عشية زرتها
وأعيا على القول والقول واسعٌ

علينا وشبوا نار صرّم تأجج
ولم يلحموا قولاً من الشرّ يُنسجُ
وهل يستقيم الدهر والدهر أعوج!!
لهذا ورئى كانت العين تخلج
أسيرٌ يخاف القتل وهان مُلْفِجُ
ومن آية الصرّم الحديث المُلْجَلِجُ
وكنت إذا ماجئتها لأعرجُ
وفي القول مُسْتَنٌّ كثيرٌ ومُخْرَجُ

هذه الأبيات من رائع ما قيل في تصوير العاشق المضطرب القلب ، القلق النفس ،
في موقف الصد والهجران ، لأنها عامرة بحرارة العاطفة ، دقيقة في تصوير الحيرة والقلق ،
والحزن المذهل (وخططت في ظهر الحَصِيرِ) والأمل الخائب

وأبو دهب قد أجاد تحليل كل هذه العواطف ، حتى نستطيع أن نعايشه فيها ،
فقد ظل في حيرة من الهجر المفاجئ ، يقلب الأمر ، فلا يدرك للهجر علة ، ولا يجد له
عند عمرة جرماً ، وبينما هو على هذه الحال ، بين هم وقلق ، وأرق ودموع ، جاء رسوفاً
عباد بكتاب منها ، تعبت عليه كشف سرهما ، وتندره القطيعة ، فيذهل الشاعر ، ويطير
قلبه شعاعاً ، ويثقل عليه ماقابلته به من إعراض وصدود ، ويحاول أن يعتذر إليها ، فيقف
لسانه في حلقة لايريم ، دهشة وهلعاً وألماً .

٢- صور من الضراعة والتوسل :

وهي صنو الصور السابقة ، ومن بابها ، وإنما أفردناها تحت هذا العنوان ، لأنها
لا تنزع منزع سابقاتها — غالباً — في الجنوح إلى التحليل العاطفى ، والعناية بالاث
المتنوع الأحاسيس ، وإنما تغلب عليها أساليب المبالغة في التوسل والضراعة ، وتقدير
العاطفة أكثر من تحليلها ، وهى على أية حال أقل درواناً في أشعار الغزلين الحجازيين ، من
الصور السابقة .

من ذلك قول الحارث بن خالد المخزومي ، معبرا عن حب مكين لصاحبه في قلبه ، يهديه إلى ديارها ؛ مهما ضاعت معالمها : ^(١)

إني وما نخرها غداةً مِنِّي عند الجمار تؤودها العُقل
لو بُدِّلتْ أعلا منازلها سُفْلاً وأصبح سُفْلاًها يعلو
فيكاد يعرفها الخبير بها فيرّده الإقواء والمَحْلُ
لعرفتُ مغناها بما ضَمِنَتْ مني الضلوع لأهلها قبلُ

فقد أوقعته المبالغة في تصوير مدى حبه لصاحبه ، فيما يشبه أن يكون دعاء على ديارها بالخراب ، أو على الأقل ، فيما يتشام به من ردىء الصور ، وقد عبر عن سوء هذا المعنى ، وقبح المبالغة فيه ، ابن أبي عتيق بقوله ^(٢) : « أما تطيرَ عليها حين قلب رَبعها ، فجعل عاليه سافلها ؟! مابقى إلا أن يسأل الله حجارة من سجيل !! » .

أما العرجي فيكتفى بالتوسل والضراعة إلى صاحبه ، أن تكون أكثر جودا بالوصل ، وأن تلبى نداء قلبه ، فتعرج عليه في طريقها من مِنِّي ، بعد أداء نسك المبيت بها ثلاث ليال ، فهذه هي الفرصة الوحيدة السانحة للقاء ، حيث يفترقان إلى الحول ^(٣) :

عُوجى علىّ وسلّمتُ جَبْرُ فيم الصدود وأنتُم سَفَرُ
مانلتقى إلا ثلاث مِنِّي حتى يفرق بيننا الثَّفَرُ
فالشهر ثم الحولُ يتبعه مالدهرُ إلا الحول والشهر

ويرينا ابن قيس الرقيات ، كيف يكون التهالك والخضوع أمام المرأة المعشوقة ، ويظهرنا على أساليب من الاستعطاف ، وألوان من معاني التوسل إلى صاحبه رقية ، وكأنما أغلق قلبه على حبا ، فلم يعد ينبض بحب سواها ، أو يستطيع التحول إلى غيرها ^(٤) .

(١) الموشح ٢١٠ ومصارع العشاق ٧٧ وأمالى القال ٢ / ١٧ . العقل : شد وظيف الذبيحة إلى ذراعيها توطئه لذبحها .

(٢) المصادر السابقة

(٣) الموشح ٢١٢

(٤) ديوانه ١٣٧ . امطينا : من المطل وهو عدم انجاز الوعد مرة بعد أخرى .

رُقِيَّ بِعَمْرِكُمْ لَاتَهْجُرُونَا وَمَتِينَا الْمُنَى ثُمَّ امْطَلِينَا
عِدِينَا فِي غَيْدٍ مَاشَتْ إِيَّانَا نَحْبُ وَلَوْ مَطَلَتْ الْوَاعِدِينَا
أَغْرُكُ أَنْتَى لِأَصْبِرَ عِنْدِي عَلَى هَجْرٍ وَأَنْتَ تَصْبِرِينَ
فَإِمَّا تَنْجِزِي عِدَّتِي وَإِمَّا نَعِيشِي بِمَا نُوْثِّلُ مِنْكَ حِينَا
تَقْنَنَ اللَّهُ فِيَّ رُقِيَّ وَآخِشَتِي عَقُوبَةً أَمْرَنَا لَانْقَتَلِينَا

إنه يرضى من صاحبه بمجرد التلويح بالأمل في الوصل ، من حين لآخر ؛ لأنه يعيش على هذا الأمل ، وكل ما يتمناه أن لا تقطع أمله بالإصرار على الهجر ، فإن ذلك يودى بنفسه ، ويسلبه روحه ، وإذن فلتتق الله فيه ، ولا تحرمه من أمل الوصال .

وأخيرا يعطينا الحارث بن خالد المخزومي صورة للعاشق حين يفقد الأمل في الوصل ، فيستسلم استسلام المغلوب على أمره ، ولكنه يقرب فيما يعبر عنه ، من طبيعة التجربة الغالبة في غزل الحضريين ، حين يللم جراح قلبه ، ويزجره عن هذا العشق ، الذى لا يكون من مثله .

نرى هذا في قوله ، وقد تزوج مصعب بن الزبير بعائشة بنت طلحة ، ورحل بها إلى العراق ، وكان الشاعر يهواها (١) :

ظَعَنَ الْأَمِيرُ بِأَحْسَنِ الْخَلْقِ وَغَدَا بِلِسْبِكَ مَطْلَعُ الشَّرْقِ
فَظَلِمْتُ كَالْمَقْهُورِ مُهْجُتُهُ هَذَا الْجَنُونُ وَلَيْسَ بِالْعَشَقِ

» » »

على أن غزل شعراء حضر الحجاز ، لا يأخذ دائما هذا الطابع التحليلي لمشاعر الحب ، والذي تغلب عليه سمة الإخفاق في العشق ، والشكوى والأنين من الهجر والاستعطاف والتوسل واليأس والخضوع ؛ لأن هذا يعكس سلبية تشبه سلوك الحب العذرى — كما رأينا — ولاتلائم كثيرا طابع الغزل الحسى اللاهى ، الذى يصدق عليه القول المأثور « لذة الهوى فى التنقل » .

ولابنغى أن نطمئن كثيرا إلى هذه التجارب الشاكية الباكية ، فى غزل هؤلاء الشعراء ، فنعتقد أنهم عفاوا فى حبهم ، وتساموا به ، مكتفين من لذة الحب بالنجوى والشكوى وبث الأشواق ، والتعبير عن الحنين إلى المرأة .. وما إلى ذلك من النوازع التى يصدر عنها العذريون فى غزلهم ؛ لأنهم كانوا فى غنى عن هذا كله ، لما أتاحتهم ظروف بيئتهم وحياتهم من فرص الوصل ، التى حكيناها .

ومن ناحية أخرى فإن هذه التجارب ، وإن كثرت نماذجها ، تعد قليلة بالنسبة لما خلفوه من تجارب تعبر عن الاتجاه الغالب ، نعى الاتجاه الحسى اللاهى المتطور ، أى أنها لاتعد ظاهرة ، أو مذهبا غالبا فى غزلهم ، فضلا عن أن بعضها وليد ظروف خاصة ، لاتتكرر كثيرا فى حياتهم ، كظروف العلاقة بين الحارث بن خالد وعائشة بنت طلحة ، التى تزوجها مصعب بن الزبير ، ورحل بها إلى العراق ، بعيدا عن الشاعر ، مع ماها من مكانة توجب على الشاعر مراعاة الاعتدال ، والتعفف فى التشبيب بها ، أو التغزل فيها ، وكذلك العلاقة بين الأحوص وأخت زوجها ، فطبيعة هذه العلاقة تحرم الوصل ، وتوجب عدم التلهى بها ، أو البوح بسرهما ، ولذا جاء غزله فيها ، تعبيرا عن برحاء الكتان ، مع أن شعاره ، الذى صرح به شعر له ، التهالك على اللذة ، واقتناص الفرصة للفوز بالمتعة ، فهو القائل ^(١) :

ألا لاتلمه اليوم أن يتبلدا فقد غلب المحزون أن يتجلدا
إذا كنتَ عزهاة عن اللهو والصبا فكن حجرا من يابس الصخر جلمدا
وما العيش إلا ماتلذ وتشتى وإن لام فيه ذو الشَّتان وفندا
وكثرة مادة الغزل فى شعر هؤلاء الحضرين ، تدور حول الصورة التالية :

٣- صورة العاشق المغامر :

الظاهرة الشائعة فى غزل حضر الحجاز ، هى التى نرى فيها صورة المحب ، تتخذ طابعا إيجابيا عمليا ، فى السلوك الذى يهجه هذا المحب للفوز بالوصال ، والاستمتاع بهوى الحبيب .

(١) أمالى الزجاجى ٧٥ والذكرة السعدية ٥٤٢ ومروج الذهب ٢ / ١٧٥ (البهية) ومصارع العشاق ٧٥ عزهاة : الذى لايجب لفظ فى طبعه . الشَّتان : العداوة .

هنا نجد الشعراء يتحدثون عن مغامراتهم العاطفية ، وزوراتهم الليلية ، حين يدبون إلى لقاء صواحبهم ، بالدار حيناً ، وخارج الدار حيناً آخر ، منتهزين غفلة الحراس ، أو متغفلين أعين الرقباء ، يتسترون بثياب الظلام ، ويتقافزون خلف السواتر ، فيقضى كل منهم حاجات الهوى ، ونزوات الشباب ، في خلوات سعيدة يقبل فيها على صاحبتهم ، وتقبل عليه ، ويحادثها ويحدثه ، ويعاتبها وتعاتبه ، ثم ينتهون إلى صفاء ، وقد يتعابثون في هوى برىء أو غير برىء ، ثم ينقلب الشاعر فيحكى ذلك كله في أسلوب من القص طريف ، مستعينا بمخيلة القصاص ، في استعادة الذكريات العذبة ، والإضافة إليها ^(١) ، مفصلاً حيناً ، وموجزاً حيناً آخر .

فهذه زورة ليلية يحدثنا عنها عمر بن أبى ربيعة ، قصد فيها إلى صاحبتهم وفاجأها بها مفاجأة أذهلتها ، فلطمت خديها جزعا من أن يفتضح الأمر ، وأيقظت رفيقة كانت تشاظرها المنام ، وعاتبته صاحبتها على جرأته ، ولكنه يعتذر إليها ، بأن قلبه لا يطاقعه على البعد عنها ، لشدة شوقه إليها .

ثم لا تلبث أن يغلبها الهوى ، فتستجيب لنزوته ، وتمضى الليل معه في قبل وعناق ، حتى إذا انبثق نور الفجر نهته بصوت جميل ، إلى أنه قد آن له أن يرحل عنها ، وودعته سائرة بجانبه ، نشوى بخمر الوصال ، حريصة على أن تسحب هى وصاحبتها ذبول الثياب على أثره ، كى لا يعرف الرقباء أنه زارها : ^(٢)

فجئت أمشى ولم يغف الأولى سمروا	وصاحبى هُندوأئسى به أئسر
فلم يرعها وقد نضت مجاسدها	إلا سواد وراء البيت يستسر
فلطمت وجهها واستنبت معها	بيضاء أنسة من شأنها الخفسر
ما باله حين يأتى — أخت — منزلنا	وقد رأى كثرة الأعداء إذ حضروا
قالت: أردت بذا عمداً فضيحتنا	وصرم حبل وتحقيق الذى ذكروا ؟!
هلا دسست رسولا منك يعلمنى	ولم تعجل إلى أن يسقط القمر

(١) راجع ٣٥٤ ، ٣٧٦ من هذه الدراسة .

(٢) ديوانه ١١٥ أثر السيف : بريقه . مجاسدها : جمع مجسد ، وهو القميص . الخصر : شدة البرد . زمرا : يعنى

بصوت حسن .

فقلت : داج دعا قلبى فأرقه ولا يتابعنى فيكم فينجزر
فبت ألتمها طوراَ ويمنعى — إذا تمايل — عنه البرد والخصر
حتى إذا الليل ولئى قالتا زَمَراً قوماً يعيشكما قد نورَ السحر
فقمْتُ أمشى وقامت وهى فاترة كشارب الخمر بطئ مشيه السكر
يسحين خلفى ذبول الخَزْ آونة وناعم العصب كيلا يُعرف الأثر

ولعلنا لاحظنا أن عمر يسترسل فى قص أحداث هذه المغامرة ، ووصف الحركة المادية والنفسية للزائر العاشق ، والمزورة المضطربة بين الحب والارتياح ، أكثر مما يتحدث عن ثمره هذه المغامرة ، التى يوجزها فى بيت واحد ، وفى إشارة سريعة ، لا تتكافأ مع ما بذل من جهد واحتياىل لتحقيق هذا اللقاء .

وفى رائيته المشهورة :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غدٍ أم رائح فمهجر

يقص أحداث مغامرة له فى أربعة وثلاثين بيتا ، واصفا ماتجشمه فى سبيل الوصول إلى صاحبتة ، وكيف قابلته ، وماذا قالا ، ويكتفى فى ذكر مأسفرت عنه هذه الزيارة بإشارة فى بيت واحد ، يقول فيه :

فبت قرير العين أعطيت حاجتى أقبل فاها فى الخلاء فأكثر

وهذه المتعة الحسية لاتتناسب مع ماتكبده الشاعر من جهد قبل اللقاء ، ومن أجله ، وكأنما كان هدفه تصوير هذا الجهد ، وذلك الاحتياىل بكل ما يحمله من لحظات نفسية ، فإذا انتهى إلى اللقاء ، فحسبه من الحديث عن نتيجته مجرد الإشارة أو الرمز .

من أجل هذا قلنا فى صدر هذا الفصل : إن حظ هذا الغزل من الجانب النفسى المعنوى ، أكثر من المتعة الحسية ، ^(١) ومن أجل هذا أيضا فرقنا بينه وبين الغزل الحسى الجاهلى فى التسمية ، فأطلقنا عليه « الغزل الحسى اللاهى المتطور » .

ولسنا هنا فى مقام مناقشة هذه المتعة الموجزة من الناحية الأخلاقية ، من حيث منافاتها للفضيلة والخلق ، وإنما نريد أن نبرز أن هذا الغزل لم يكن مترديا فى حماة الحسية ،

التي تعنى بتصوير المتع والشهوات تصويرا فيه كثير من العناية بالتجسيم والتفصيل والاسترسال .

ولنجد عمر في كل شعره الذى يحكى مثل هذه المغامرات ، يتجاوز هذا المنهج في الإشارة إلى المتع الحسية ، إشارة موجزة خاطفة .
ولنأخذ أيضا قوله ، بعد حديث طويل في التمهيد للقاء ، في حكاية زورة قام بها ^(١) :

فتجهمت لما رأتنى داخلا بتلهـف من قولها وتهدد
ثم ارعوت شيئا وخفـض جأشها بعد الطموح تهجدى وتوددى
فى ذاك ماقد قلت : إنى ماكثٌ عشرا فقالت : ما بدا لك فاقعد
حتى إذا ما العشرُ جنَّ ظلامها قالت : ألاحان التفرق فاعهد
واذكر لنا ماشئت مما تشتهى والله لانعصيك أخرى المسند
فيكتفى باللمح والإشارة إلى المتعة الحسية فى هذا اللقاء .

والعرجى تلميذ عمر بن أبى ربيعة ، أقرب شعراء الغزل الحضري إلى منهج عمر ، وطبيعة تجربته فى تصوير العاشق المغامر ، غير أنه أكثر احتفالا بالأسلوب وصقله وتماسكه من أستاذه ، وأقل جنوحا إلى محاكاة الحوار النسائي ، الذى يمتاز به الأسلوب العمرى ، ولا يضحى باستيفاء الصورة الشعرية — كما يفعل أستاذه — من أجل إجراء هذا الحوار ، بل يؤثر استقصاء الصورة والعناية بها ، وإن ضحى فى سبيل ذلك بجاذبية الحوار .

ومع ذلك فتجربة المغامرة فى غزل العرجى لا تخرج فى إطارها العام عن تجارب عمر فى هذا الضرب من الغزل .

فهو مثله يقوم بزوراته لصاحباته ليلا ، مدفوعا بشوق ملح ، أو مستجيبا لرسالة منها ، وهو مثله يصور مشاعر الحذر والخوف ، ويتحدث عن وسائل الاحتيال للوصول بالزورة إلى غايتها ، وهو مثله فى التعبير عما ينتاب صاحبه من روع من هول المفاجأة

(١) ديوانه ١٦ أخرى المسند : آخر الدهر ، يعنى لانعصى لك حاجة أبدا .

بالزيارة ، وعما ينتهى إليه الأمر من بث الطمأنينة فى نفسها واقتلاع الروع من قلبها ، حتى تسمح وتلين وتفرح باللقاء ، الذى ينتهى بوداع مشابه للوداع فى مغامرات عمر .

وربما اختلف منهج العرجى عن أستاذه ، بالإضافة إلى ماسبق ، من الإقلال من الحوار ، والاهتمام بالصورة — فى ميله إلى الاقتصاد فى القص ، والتركيز فى الوقائع والأحداث .

يظهر هذا فى إحدى مغامراته للقاء صاحبة له ، يذكر فيها أنها تأوى إلى قصر عال ، قد أسدلت الستور على نوافذه ، وقام الحراس على أبوابه ؛ تمنع العيون المتلصصة ، والزيارات المحرمة .

غير أن الشاعر يحتال للوصول إليها ، فيغافل الحارس ، وينصب الحبال ، ثم يتسلقها ، وتكلكل جهوده بالنجح ، فيسعد باللقاء ، وتنبه صاحبه على ما تحشم فى سبيل وصلها ثوابا حسنا ، إذ تبادله عنقا بعناق ، فى خوف وحذر ، خشية مدهامة الرقباء ^(١) :

لم أُحَلْ عنك ماحيت بؤدى	أبدأ أو يحول لون الغراب
دونها الحارس الشفيق عليها	قد تولى مفاتيح الأبواب
بمُنيّف كأنه ركن طَوْدٍ	ذى أواسٍ مُطمـرّ المحراب
وترقّيتُ بالحبال إليها	بعد هذءٍ وغفلة البواب
فجزّنتى بما عملت ثواباً	حسنا كنتُ أهل ذاك الثواب
اعتناقاً على مخافة عين	قد رُمِقْنَا بها وقوم غضاب

والمتعة الحسية هنا أيضاً لا تحظى من هذه الصورة إلا بلمحة سريعة فى البيت قبل الأخير ، وعبارة صريحة فى جزء من البيت الأخير .

وقد تكون هذه المغامرة ، أو الزيارة ، استجابة لرسالة من صاحبة الشاعر ، تضرب له موعداً بعد هدأة من الليل ، وتوصى بالحذر ، وتحذر من أعين الحراس والرقباء ، فيخف الشاعر للقيام بهذه الزورة ، مسترشداً بما نصحت ، مجتهداً فى البعد عن

(١) ديوانه ١١٦ . المنيف : القصر المرتفع . مطمر : مرض الستور . المحراب هنا : صدر البيت .

المخاوف ، ويسترسل في قص هذا كله في شيء من التفصيل ، مشيراً في النهاية إلى متعة هينة أصابها ، موجزا في التعبير عنها .

ومن التجارب التي تصور هذا في تركيز وإحكام تعبير وتصوير ، لايتوفر في تجارب ابن أبي ربيعة ، قول العرجي : (١)

حورٌ بعث رسولاً في ملاحظة
إلى أن اتنا هذءاً إذا غفلت
فجئت أمشي على هول أجشمه
إذا تخوفت من شيء أقول له
أمشي كما حركت ريج يمانيه
في حلة من طراز السوس مشربة
وهن في مجلس خالي وليس له
حتى جلست إزاء الباب مكتتماً
أبدن لي أعينا نجلاً كما نظرت
قالت كلابه : من هذا ؟ فقلت لها
أنا امرؤ جد في حب فأحرضني
لا تكليني إلى قوم لو أنهم
وأنعمي نعمة تجزي بأحسنها
هذا يميني رهن بالوفاء لكم
قالت : رضيت ولكن جئت في قمر
فبت أسقى بأكواسي أغل بها
حتى بدا ساطع للفجر نحسبه
ودعتهن ولا شيء يراجعني
إذا أردن كلامي عنده اعترضت
تكاد إذ رمن نهضاً للقيام معي

ثَقِفَا إذا عقل النساء الوهم
أحراسنا واقتضينا إن هم علموا
تجشم المرء هولاً في الهوى كرم
قد جف فامض بشيء قد ر القلم
غصناً من البان رطباً طله الديم
تعفو بهذابها ما أثرت قدم
عين عليهن أخشاها ولاندم
وطالب الحاج تحت الليل مكتماً
أدم هجان أتاها مصعب قطع
أنا الذي أنت من أعدائه زعموا
حتى بليت وحتى شفى السقم
من بغضنا أطعموا لحمي إذن طعموا
فظالما مسنى من أهلك النعم
فارضى بها ولأنف الكاشع الرعم
هلا تلبثت حتى تدخل الظلم !!
من بارد طاب منها الطعام والنسم
سنا حريق بليل حين يضطرم
إلا البنان وإلا الأعين السجم
من دونه عبرات فانشى الظلم
أعجازهن من الأنصاف تنقسم

ونلتفت هنا إلى ماسبق أن التفتنا إليه في التماذج السابقة ، من حرص الشاعر أولاً وقبل كل شيء على تصوير الأحاسيس التي تغلف محاولة الوصول إلى صاحبه ، وعلى ماينتهى إليه اللقاء من سحر ، أكثر من حرصه على التعبير عن اللذة الحسية ، فليس في هذه الصورة — المطولة نوعاً — إلا إشارات قليلة إلى الرغبة والاشتيا ، كالتى عبر فيها عن العيون النجل : « أبدين لى أعينا نجلا » وعن الفم العذب المذاق ، الطيب الرائحة : « من بارد طاب منها الطعم والنسم » وعن الأرداف الثقيلة والخصور النحيلة : « أعجازهن من الأنصاف تنقسم » ، ومع ذلك ، فهى إشارات باهتة ، تكاد تختفى وسط هذا الحشد من الوصف النفسى ، مما يضعف حظ الحسية من صورة العاشق المغامر .

— ٦ —

أهم الملامح الفنية في الغزل الحضري الحجازى :

بعد هذه الدراسة التى حاولت أن تبرز الملامح الهامة لهذا الفن الغزلى ، الذى لهجت به البيئة الحضرية الحجازية ، فى العصر الأموى ، نعتقد أنه قد اتضحت لنا بعض السمات ، التى يمكن أن تعد ملامح أصالة ، أو تطور ، يمتاز بها هذا الغزل .

١ — يكاد يخلو الغزل الحجازى اللاهوى من المجاهرة بالفحش ، والإلحاح على المعانى المكشوفة ، والانحراف إلى العبارات الفاضحة ، وماكان لشعرائه أن يجرعوا على هذه المجاهدة أو الكشف ، فأقليمهم منبع الدعوة الإسلامية ، وموطنها الأول ، الذى حملها على اكتاف رجاله ، إلى أنحاء الجزيرة العربية ، ومنها إلى سائر أقطار الأرض ، وفى مدنه — وبخاصة مكة والمدينة — قامت حلقات الدروس الدينية ، تبصر الناس بأمر دينهم ، وتشرح لهم كتابه العظيم ، وتروى أحاديث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، وتستنبط منها ومن القرآن أحكام الشريعة ، وترشد المسلمين إلى خيرى الدنيا والآخرة . وفى الحجاز عاشت طائفة كبيرة من بقايا الصحابة ، وكبار التابعين من أبناء المهاجرين والأنصار ، تُضرب إليهم أكياد الإبل لمعرفة الحلال والحرام .

فاذا أضفنا إلى هذا ماأشرنا إليه مرارا من حرص أهل الحجاز ، وبخاصة الأشراف والسادة — وماأكثرهم فى مدن الحجاز — على قيم الفضيلة ، وأخلاق الدين ، أدركنا مدى مافرضته بيئة حضر الحجاز على شعرائها الغزلين من رعاية حق الفضيلة

والدين ، وإن تسامحت معهم في بعض ما يعد من ظرف الكلام ، وتهاويل الشعراء ، وأخذت بعضهم أحيانا بالشدة ، لما رأَتْ في غزله ما يعد خروجاً واضحاً على تقاليد الصون والحفاظ على الأعراض والأخلاق من هجر الكلام .

بهذه الظاهره امتاز غزل الحجاز الحضري على الغزل الحسي الجاهلي ، الذي يكثر أن يصرح فيه الشاعر بما لا ينبغي الجهر به في عرف الأخلاق ، من صلة بين الرجل والمرأة ، وقد مرت بنا نماذج كثيرة ، تكشف عن طابع هذه الصلة في الغزل الحجازي ، ليس من بينها ما يشبه قول امرئ القيس مثلاً في معلقته المشهورة ^(١) :

فمثلك حبل قد طرقتُ ومرضع فألهيتها عن ذى تمامٍ مُحلول

وقوله المغرق في الحسية المادية ، الموغل في النزعة الجسدية الشهوانية ^(٢) :

ومثلك بيضاء العوارض طفلةً لعوب تنسني إذا ما قمت سريالي

إذا ما الضجيع ابتزها من ثيابها تميل عليه هونةً غير مجبال

فلما تنازعنا الحديث وأسمحت هصرت بغصن ذى شماريح ميال

وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا ورضتُ فذلت صعبةً أئى إذلال

فأصبحت معشوقاً وأصبح بعلها عليه القتائم سىء الظن والبال

فأين من هذا الفحش الصريح ، والجسدية العارية ، ماسقناه من مغامرات عمر

ابن أبى ربيعة ، والعرجي ، وغيرهما من شعراء حضر الحجاز ؟!

ويكفى أن نلتفت فقط إلى قول امرئ القيس « فلما تنازعنا الحديث » ، فهو

مشغول بالمتع الحسية ، وبشهوة الشهوة عن حكاية هذا الحديث الذى تنازعه ، أما

عمر وزملاء مدرسته ، فإن هذه الأحاديث ، وما يغلفها من مشاعر وأحاسيس مهمهم

الأكبر وشغلهم الشاغل .

إن كل بيت ، وكل عبارة في تجربة امرئ القيس تنضح بالتهتك ، وتنفوح برائحة

الجنس ، وليس من هذا شيء يذكر في تجارب الغزلين الحسينيين في حضر الحجاز .

(١) ديوانه ٥٨

(٢) ديوانه ٣٠ — ٣٢ وانظر كتابنا : أمراء الشعر في العصر الجاهلي ١٥٤ — ١٧٢

ولم يقتصر الميل إلى الحسية والكشف على امرئ القيس ، وتجاربه الغزلة ، فها هو ذا عبد بنى الحسحاس ^(١) ، يتلذذ برسم صورة فاضحة ، لمغامرة جنسية مع صاحبتة التى انقادت معه إلى الفحش ^(٢) :

وبتنا وسادانا إلى عُلْجانَةٍ وجَفِّفْ تهاداه الرياح تهاديا
توسِّدُنِي كَفًّا وتتنسَّى بمعصِم عَلَيَّ وتحوي رجلها من ورائيا
وهبت شمال آخر الليل قَرَّةً ولاثوبَ إلا درعُها وردائيا
فمازال بردى طيباً من ثيابها إلى الحول حتى أنهج الثوب باليا

ومثل هذه المعانى الفاحشة توحى تجرّبه المنحَلّ اليشكري ^(٣) ، المعبر عنها فى أبياته المشهورة ^(٤) :

ولقد دخلتُ على الفتا قَ الخِذْرُ فى اليوم المطيرِ
الكعاب الحسناء تثر قُلْ فى الدَّمَقْسِ وفى الحريرِ
فدفعتها فتدافعت مَشَى القطاة إلى الغديرِ
ولثمتها فتنفّست كنتنفسُ الظُّبى البَهِيرِ
فدنت وقالت يامنحُلُّ مايجسمك من حُرورِ
ماشفُ جسمى غير حُبِّكَ فاهدنى عنى وسيرى
وأحبها وتجنبنى ويحبُّ ناقثها بعيـرى

(١) هو سُخَيْمُ أو حية ، كان مولى الجنيد بن معبد ، من بنى الحسحاس ، ثم من بنى مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسد ، وهو حبشى أعجم اللسان ، ينشد الشعر ثم يقول : أَهْسَلْتُكَ ؟ يريد : أحسنت ؟! وكان عبد الله بن أبى ربيعة والد عمر اشتراه ، وكتب إلى عثمان بن عفان (قبل خلافته) : إني قد ابتعت لك غلاما حبشيا شاعرا ، فكتب إليه عثمان : لا حاجة لى به ، فإنما قصارى أهل العيد إن شيع أن يشبب بتسائهم ، وإن جاع أن يهجوهم ، فردّه عبد الله فاشتراه معبد ، فكان كما قال عثمان يشبب ببنته عميرة ، وفحش فشهرها . قال ابن سلام : ١٨٧ — وسمط اللآلى ٢ / ٧٢١ . الكلام ، وعده فى الطبقة التاسعة من فحول الجاهليين . انظر : ابن سلام ١٧١ — وسمط اللآلى ٢ / ٧٢١ .

(٢) ديوانه ١٩ وابن سلام ١٨٧ (الممدى) وتزيين الأسواق ١٤١ وسمط اللآلى ٢ / ٧٢١ . علجانة : نوع من الشجر . الحقف : الكتيب من الرمل . تهاداه الرياح : تنقله من مكان إلى آخر ، أنهج الثوب : بلى وخلق .

(٣) شاعر جاهلى قديم كان يشبب بهند أم عمرو بن هند أحد ملوك اللخمين ، كما انهم بالمتجردة زوج النعمان بن المنذر ، وعاصر التابعة فى بلاط هذا الملك . انظر : الشعراء والشعر ١٥٠ والأغاني ١٨ / ١٥٢ .

(٤) الأغاني ١٨ / ١٥٥ وشرح الحماسة للمرزوقى ٢ / ٥٢٧ — ٥٢٩ . البهر : العالى النفس من التعب .

وقد لانعدم بعض هذه الميول في الغزل اللاهوى الحجازى ، كقول عمر بن أبى ربيعة :

فلثمت فاهها آخذاً بقرونها شرب التزيف يبرد ماء الحشرج

فهذه صورة حسية شهوانية خالصة ، تمثل الشاعر مستغرقاً في التقبيل ، حتى يمتزج الريقان ، وكأنه محموم من شدة العطش ، قد جف لسانه ، فأقبل على الماء البارد ، من كوز رقيق صنع بالحيرة ، في نهم شديد .

وكقول عبد الرحمن بن حسان بن ثابت : (١)

وإن مال الضجيع بها فدعص من الكئيبان ملتبد مهيل

غير أن أمثال هذه المعانى في غزل حضر الحجاز قليلة ، تأخذ كثيراً طابع الإشارة السريعة ، ولايتولاها الشاعر بالتفصيل ، على خلاف مارأينا في الشعر الجاهلى ، من إغراق في الجسدية ، وانعماس في الغرائز الحيوانية ، وتصوير لأخطر هذه الغرائز .

٢ — العناية بالتحليل النفسى ، وتصوير الأشواق ؛ إذ لم تكن الصلة بين الشاعر وصاحبته ، في هذا الغزل قائمة أساساً على الناحية الجنسية المادية ، بقدر ما هي ممثلة في تبادل العواطف والأحاسيس ، والتغنى بمكانة المرأة في قلب الرجل ، وتأثيرها في حياته العاطفية ، على نحو مارأينا في صور كل من الرجل والمرأة في هذا الغزل ، وبخاصة في غزل عمر بن أبى ربيعة ، الذى يمثل غزله بكل سماته الفنية ، بمحمل خصائص الاتجاه الغزل في حضر الحجاز كله ، وأثر التقليد أو التطور ، أو الأصالة فيه ، والذى لولاه لحرم الغزل الحجازى من كثير من ملامح التطور والتجديد .

وليس كذلك الغزل الحسى الجاهلى في أكثر تجاربه وصوره ؛ إذ كان فيها منبعثاً عن شهوة جسدية ، قلما يفوق منها العاشق ، إلى تحليل العواطف والمشاعر ، وتصوير لدعة الشوق ، أو حرقة الفراق والهجر (٢) .

(١) ديوانه ٨٣ .

(٢) انظر في هذه النزعة الجسدية في الشعر الجاهلى ، وتعليلها : الغزل في العصر الجاهلى (د. الحوق) ٢٤٨ ومابعدها وراجع ماكتبناه في تعليلها ٣٠١ — ٣٢٢ من هذه الدراسة .

وفيما قدمناه من نماذج صورة المرأة والرجل في الغزل الحجازي ما يغنى عن الإطالة بإعادتها هنا .

٣- اعتماد الغزل الحجازي بعمامة ، على المكابدة للحب ، والإحساس الصادق بالجمال ، لأعلى التقليد والمحاكاة — اللهم إلا إذا جنح شعراؤه إلى وصف مظاهر الجمال في المرأة ، كما مر بنا — على عكس ما يلاحظ في كثير من نماذج الغزل الجاهلي ، وبخاصة تلك التي تصدر بها القصائد ، في الأغراض المختلفة ؛ إذ يغلب عليها تكلف العاطفة ، وافتعال المواقف .

وليس معنى ذلك أن الشاعر الجاهلي لم يعرف الحب ، أو أنه لم يتذوقه ، ويعايشه ، فلا جدال في أنه قد مر في الجاهلية ، في كل أزمنتها من الشعراء من قال في الغزل استجابة لعاطفة أخذت بنفسه ، ولكن الشعر الجاهلي لم يصل إلينا كله ، وإنما جاءنا أقله ، وهذا الذي جاءنا من غزله في مقدمات القصائد بخاصة ، يغلب عليه التقليد الصرف ، ويكفى أن نتأمل تلك المقدمات الطللية في قصائد النابغة الذبياني وذو الإصبع العدواني ، وبعض نماذجها في قصائد زهير بن أبي سلمى ، وغيرهم من الشعراء الحكماء ، أو المشغولين بالتكسب وشئون القبيلة كالنابغة ، لنرى مصداق ما ذكرنا .

أما شعراء الغزل الحجازي الحضري ، فيشهد شعرهم الذي قدمناه ، أو كثير منه ، بأنهم عرفوا الحب ، وأدركوا سر الجمال في عالم المرأة ، إدراك المنفعل ، لإدراك المقلد المحاكى ، فهم يصفون حركاتها ، وبجاسستها وأحاديثها ، مع رفيقاتها ، أو مع جواربها ، كما يصفون نزعاتها ، التي تضطرب في نفسها ، وتدفعها إلى فعل ماتفعل ، أو قول ماتقول ، وبذا جاءت صورتها حية أمام مدارك القارئ لغزهم ، وأحاسيسه .

٤- ظهور أسلوب القص والحوار ، وبروزه في كثير من نماذج هذا الغزل ، وبلوغه صورة من النضج ، جعلت منه ظاهرة أسلوبية في غزل ابن أبي ربيعة خاصة ، حيث يأخذ الشاعر في استحضار مادار بينه وبين صاحبتة ، وحكاية ماقال ومما قالت ، ومافعل ومما فعلت ، في أسلوب طريف جذاب ، تطل منه روح المرأة المتحضرة ، الآخذة بقسط من الحرية الاجتماعية في علاقتها بالرجل ، ومن ثم ، فهي لاتجد حرجا في إجراء حوار عاطفي مع صاحبها ، في خلوة ، أو أمام أترابها وصاحباتها ، بل كثيرا ما تجرى هذا الحوار

بينها وبينهن في مجالسهن ، تودع فيه ذُوبَ نفسها ، وتكشف عن مكنون قلبها ، وهن متجاوبات معها ، أو غياري منها .

وقد استطاع هذا الأسلوب أن يؤدي وظيفته في بناء العمل الشعري ، وربط أحداثه وأشخاصه ، وأداء الدفعات الشعرية بين طرفيه أو أطرافه ، وتحليل الموقف الغزلي ، وإنماء عناصره .

ونستطيع أن نذكر هذا الأسلوب في النواحي السابقة على ضوء قول عمر بن أبي ربيعة ، أستاذ هذا الأسلوب :

قلت : من أنت ؟ فقالت : أنا مَنْ شَفَّه الوجد وأبلاه الكمذ
نحن أهل الخيف من أهل منى مالمقتول قتلناه قود
قلت : أهلاً ، أنتمُ بغيتنا فَتَسْمَيْن ، فقالت : أنا هند

حوار جذاب بسيط ، أدى موقفا متكاملا ، جعل منه وحدة فنية متماسكة العناصر ، بحيث لو أسقطنا جملة حوارية واحدة لأختل الموقف الغزلي ، وانهار الموقف كله ، أو تصدعت أركانه .

ونحن لاننكر أن أسلوب الحوار والقص ، ممثل في نماذج من الشعر الجاهلي ، وبخاصة في غزل امرئ القيس ، أمير هذا الفن في العصر الجاهلي :

من ذلك قوله : (١)

فقلت : سباك الله ، إنك فاضحي أَلَسْتَ ترى السُّمَار والناس أحوالى ؟
فقلت : يُمين الله أبرحُ قاعداً ولوقطعوا رأسي لذيك وأوصالى

فامرؤ القيس يبرز قطاعا واحدا من الموقف الغزلي ، هو قطاع التنازع والمعارضة والمساومة ، ليوحى بأن صاحبه كانت متمنعة ، ولكنه سهلها ، وأسلس قيادها ، وليؤكد بطولته في ميدان الإغواء .

ومع ذلك فهذه اللمحة الحوارية ، وأمثالها في شعر امرئ القيس وفي شعر غيره من

أبناء عصره^(١)، لاتعكس ظاهرة أسلوبية، أو عنصراً أساسياً من عناصر الأداء في التجربة الغزلية الجاهلية، كما أنه لم يبلغ عند الجاهليين من الكثرة والافتنان، ما بلغه على أيدي شعراء الغزل الحجازي الحضري، وعلى الأخص ابن أبي ربيعة، الذي غلّافه بعض الباحثين المحدثين فعده مبتكراً له^(٢)، واعتدل آخرون فعده صاحب طريقته^(٣).

أما طابع القصّ، فيكاد ينفرد به ابن أبي ربيعة بين الشعراء الغزلين من أبناء بيئته، حيث ضمن وفرة من قصائده الغزلة، ما يقرب مما نعرفه الآن بالقصة القصيرة، بما وفّره لها من إطار نفسي وأحداث مادية، وشخصيات أساسية، وحوار بين الشخصيات، وصراع بين العواطف.

ونحن لاندعى أن هذا كله قد اكتمل في كل قصائده التي اعتمد فيها أسلوب القص، وتعد قصيدته الرائية المشهورة «أمن آل نعم» نموذجاً بارزاً في هذا الأسلوب، فالشاعر يحدث نفسه ويناجيها، أين خباء صاحبتة؟ وكيف يتعرفه في ظلمة الليل؟ فيدله قلبه عليه، ويقوده هواه، ولكنه ينتظر متحينا الفرصة، منتظراً خلود القوم إلى النوم، وانقطاع الأصوات، وغياب القمر... ثم يقص كيف احتال للوصول إلى غايته تتصارع في نفسه الرغبة والرغبة... وكيف روع صاحبتة برؤيته المفاجئة في فراشها، وكيف هدأ من روعها، حتى اطمأنت إليه، وفرحت به، وبادلته حواراً عاطفياً، أسعده، وكيف قضيا معاً وقتاً طيباً استغرق ما بقى من الليل، حتى إذا أذن الليل بمغيب، وأذنت ساعة الرحيل، قامت تودعه، وتُعْفَى بأذيال ثوبها على آثار أقدامه في الرمال.

فهذه القصيدة يتحقق فيها كثير من عناصر القصة القصيرة، وبهذا تعد هذه القصيدة وقصيدته الرائية الأخرى:

راح صبحي ولم أحيّ النّوّاراً وقليل لو عرجوا أن تُزارا
وعينية له مطلعها:

ألم تسأل الأطلال والمتربّعاً بيطن حليّات دوارس بلقعا

(١) راجع بعض نماذج من أسلوب الحوار الجاهلي في: الغزل في العصر الجاهلي (د. الحوفي) ٢٤٥ وما بعدها.

(٢) انظر: مقدمة ديوان بشار للشّخ الطاهر بن عاشور ٣٧

(٣) انظر: تاريخ الشعر العربي (الهييتي) ٣٥٠

إضافة جديده لبناء القصيدة في العصر الأموي .

وفوق هذا فقد اقتضى هذا الطابع القصصى في غزل ابن أبى ربيعة ، إضافات تجديدية أسلوبية أخرى ، كتطويع الألفاظ ووسائل الأداء الأخرى ، للأسلوب القصصى ، لكى تلائم سرد الأحداث ، وإدارة الحوار ، والتعبير عن لمسات أنثوية تقتضى الاقتراب من لغة الأداء في الحياة .

وكان عمر بارعا في هذا التطويع ، الذى ممكنه من المزاوجة بين اللحظات النفسية والمادية ، وإبراز الصراع النفسى ، وإدارة حوار طويل ، وخلق حركة درامية ، على نحو يمكن أن يعد إضافة جديدة أخرى للقصيدة العربية .

٥- استقلال التجارب الغزلية بالبناء الفنى للعمل الشعرى (القصيدة أو المقطعة) ، وظهور التخصص في هذه التجارب ، بينما لم يكن لفن الغزل وجود مستقل قبل هذا العصر في الأعم الأغلب ، فبالنسبة لماوصل إلينا من غزل الجاهليين ، لم نقف إلا على عدد قليل جدا من القصائد ، التى أفردت للغزل ، ولم يعالج قائلوها فيها إلا الغزل وحده ^(١) ، وحتى هذه القصائد الغزلية المستقلة في الشعر الجاهلى ، لا تضاهى في طول النفس مانراه في بعض قصائد الغزل الحجازى في العصر الأموى .

كما أننا لانعرف شاعرا جاهليا ، قصر حياته الفنية ، ونتاجه الشعرى على الغزل وحده ، ولم يطرق في شعره غرضا آخر من أغراض الشعر ، أما في العصر الأموى فنحن نعرف غير واحد من شعراء حضر الحجاز الغزلين ، قصروا فنهم الشعرى كله - تقريبا - على الغزل .

وبين أيدينا ديوان ضخم لعمر بن أبى ربيعة ، وديوان العرجى ، وشعر الحارث بن خالد المخزومى ، وليس في هذا كله إلا الغزل غالبا ، فكان عمر أول شاعر عربى يختص ديوانه لهذا الفن ، ويتفرغ للقول فيه حياته ، قال يونس بن حبيب ^(٢) : « وكان عمر

(١) راجع مقال الدكتور طه حسين في جريدة السياسة . العدد ١٧ بتاريخ ١٠ ديسمبر ١٩٢٤ م .

(٢) ابن سلام ٦٤٨

يصرح بالغزل ولا يهجو ولا يمدح » ، وتابعه في هذا تلميذه العرجي ، ومعاصره الحارث الخزومي .

٦- دقة الحس اللغوي في اختيار اللفظ والعبارة ، وتحري سهولتهما ، فهذا الشعر يجمع بين البصر الدقيق بالعربية ، والذوق الرقيق في الاختيار والاستعمال ، وطبعي أن يكون هذا الشعر الذي قيل ليفنى فيه ، متأثرا بما يقتضيه فن الغناء ، من سهولة اللغة ، وجاذبية الأساليب وبساطتها ، ولنتذكر — مثلا — قول عمر السابق :

ليت هندا أنجزتنا ماتعد	وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة	إنما العاجز من لا يستبد
زعموها قالت لجارت لها	وتعرت يوم حر تبرد
أكما ينعتني تبصرنني	عمركن الله أم لا يقتصد
فتضاحكن وقد قلن لها:	حسن في كل عين من تود

فهذه القطعة مثال في اللفظ السهل الرشيق ، والتركيب البسيط اليسر ، الملائم للتعبير عن هذه المعاني الرقيقة المنتزعة من الحياة ، حياة المرأة ، وميوها العاطفية الناعمة ، ويظهر الحس اللغوي الدقيق أيضا في هذه السخرية الواضحة في البيت الأخير ، حيث نم عنها الشاعر من خلال كلمات اختيرت بعناية من قاموس الحياة .

وننظر في قوله السابق أيضا:

قلت : من أنت ؟ فقالت : أنا من	شفه الوجد وأبلاه الكمذ
نحن أهل الخيف من أهل مني	مالقتول قتلناه قود
قلت : أهلا ، أنتم بغيتنا	فتسمين ، فقالت : أنا هند

إن هذه اللغة من السهولة بحيث تقرب من لغة الحياة العادية في موقف التعارف بين شخصين (من أنت ؟ أنا هند: ممن؟ من أهل الخيف من مني ، أهلا بك ..) .
بذا راج هذا الشعر بين أهل العصر ، وأقبل عليه الملحنون والمغنون ، وتهافتوا عليه ، وأحالوه إلى أغان عذبة ، شددت بها القيان في مجالس الغناء ، ورددتها الألسن بعد ذلك ، لا في بيعة الحجاز وحدها ، بل عبرتها إلى بيئات الغناء في العراق والشام أيضا .
والأخبار مروية في إلحاح الملحنين على شعراء الغزل بالحجاز ليدوهم بشعرهم

ليغنى فيه ، ومن الشعراء من كان يبذل للملحنين والمغنين جوائز سنوية ، ليحولوا شعره إلى ألحان ، ترددها المغنيات ^(١) .

ولعل في هذا مايفسر ميل الشعر الغزل في حضر الحجاز إلى الإكثار من المَقْطُعات ، لما كان هذا القالب القصير أنسب للتلحين والغناء ، وأسهل على الملحنين والمغنين والمغنيات من القصائد الطوال .

ونحب أن نختتم هذه الدراسة للغزل الحضري الحجازي ، بقول جرير الشاعر الغزل ، وقد قال له رجل من أهل المدينة : ياأبا حرزة ، إن شعرك (يعنى في الغزل) رفع إلى المدينة ، وأنا أحب أن تسمعى منه شيئا ، فأجابه جرير : « إنكم يأهل المدينة يعجبكم النسيب ، وإن أنسب الناس المخزومي » ^(٢) .

فقد تخرج جرير ، وهو من هو مكانة في الغزل ، أن ينشد غزلا في عقر بيثة أمير هذا الفن عمر بن أبى ربيعة .

وبعد : فنحن لانستطيع ، بعد هذه الدراسة ، أن نطمئن إلى القول بأن غزل الحجاز الحضري كان صورة من غزل الجاهليين الحسى ، ولانترضى أن نذهب فيه ، إلى حد القول بأنه في كل خصائصه كان فنا جديدا كل الجدة في العصر الأموى ، كما أننا لانراه جاريا على عرف الجاهليين ، وغاية مايينه وبين الغزل الجاهلى من فرق ، أنه فصل مالم يفصله الجاهليون ، وضخم مالم يضخموه .

ومعنى هذا ، أننا لانتفق مع هذه الآراء ، التى أشرنا إلى أصحابها في مقدمة هذا الفصل .

ولما نرى أن فن الغزل في بيثة الحجاز الحضرية ، قد أصاب ألوانا من التطور ، واستحدث بعض الملاح التي لم يعرفها شعر الغزل من قبل ، هى التى أبرزناها في دراسة نصوصه ، وفي جوانب من الحديث عن خصائصه .

(١) انظر في هذا : التطور والتجديد ٣٦٠ وتاريخ الشعر العربى (البيهقي) ١٤٥ — ١٤٧ .

(٢) الأغاني ١ / ٧٢

الفصل السادس

الغزل الغدري في بادية
الحجاز

تقديم :

الغزل العذرى ضرب من الغزل مشبوب العاطفة ، لا ينبعث عن مجرد الشعور بالعاطف والحب بين رجل وامرأة ، وإنما يقوم أساسا على نوع من العشق ^(١) عفيف . والعشق كما يقولون : ملك قاهر ، مسالكة لطيفة ، ومذاهبه غامضة ، وأحكامه جائزة ، ملك الأبدان وأرواحها ، والقلوب وخواطرها ، والعيون ونواظرها ، والعقول وآراؤها ، وأعطى عنان طاعتها ، وقوى تصرفها ^(٢) .

وهو بهذا أشبه بقوى خفية ، لا يوقف على كنهه ، ويدق على العقول إدراكه ، هو كما يقول الشاعر ^(٣) :

ونار الهوى تخفى وفي القلب فعلها كفعل الذى جادت به كف قاذح
وإنما يعرف العشق بآثاره ؛ حيث يعظم سلطانه على القلب ، ثم يتغشى على سائر الأعضاء ، فيبدى الرعدة فى الأطراف ، والصفرة فى الأبدان ، واللجلجة فى الكلام ، والضعف فى الرأى .

والعفيف منه ينحل الجسم ، ويسقم النفس ، وقد يقضى إلى ذهاب العقل ، يجذده مرور الزمن ، ولا تنفسه ولا تغيره إساءة المحبوب على الدوام .

وفى آثار هذا الضرب من العشق ، يقول قيس بن ذريح ^(٤) :

وللحب آيات تبين للفتى شحوب وتبرى من يديه الأشاجع
ويقول مجنون ليلى ^(٥) :

إنى جننت فهاتوا من جنت به إن كان ينفى جنونى لاتلومونى

(١) قيل : الحب أول الألفة ، والعشق : إفراط فى الحب ، عن عفة أو دعة ، أخذ من العشقة : وهى شجرة تعلق ، وتلتصق بما يليها ، وهى شجرة اللبلاب . انظر : أساس البلاغة (عشق) وتزيين الأسواق ١٥ وللاستزادة انظر : رسائل الجاحظ ٢ / ١٦٦

(٢) ديوان الصبابة (على هامش تزيين الأسواق) ١٢

(٣) أمالى القالى ٢ / ١٢٧ ومصارع العشاق ٣

(٤) تزيين الأسواق ٥١ وأمالى القالى ٢ / ٣٢١

(٥) ديوان الصبابة ١٢

والعشق بعامة يختلف باختلاف الأمزجة ، وتباين الطباع ، منه ماهو سريع التعلق والزوال ، ومنه بطيء التعلق والزوال ، ومنه سريع التعلق بطيء الزوال ، ومنه ماهو على العكس ، وهو على كل حال ليس موكولا إلى رأى فيملكه ، ولا إلى عقل فيدركه ، على حدّ قول عُليّة بنت المهدي (١) :

ليس خطب الهوى بخطب يسير لا يئبئك عنه مثل خبير
ليس أمر الهوى يُدبر بالراًى ولا بالقياس والتفكير
إنما الأمر فى الهوى خطرات مُحدثات الأمور بعد الأمور

فالعاشق مغلوب على أمره ، مسلوب الإرادة فى هواه وفعله ، ولم من العاشقين حاولوا أن يصرفوا قلوبهم عن عشقها ، وحملها على السلوان ؛ ليتخلصوا من عذابات الوجد ، ومرارة الحرمان ، ولكن هيهات !! فقد فقدوا سيطرة عقولهم وإرادتهم على قلوبهم .

حاول هذا مجنون ليلى فأخفق ، قيل : اجتمع إليه نساء أشفقن عليه مما به ، وقلن له : أما آن لك أن تصرف عنك هوى ليلى ؛ ليردّ إليك عقلك ؟ فإنها امرأة من النساء ، وفينا عنها كفاية ، فاختر إحداها ، فقال : لو ملكت لفعلت ، ولكنى مغلوب (٢) .

والعشق العفيف — وهو أصل الغزل العذرى وباعثه — تشتغل ناره ، ويرتفع أواره ويتمكن أشد التمكن ، مع الفراغ ، وكثرة محاولات التردد إلى المعشوق ، والعجز عن الوصول إليه .

وأكثر ما يتوفر هذا لأهل البادية ؛ ولذا شاع فيهم هذا النوع من العشق ، واشتهروا به ، وكثر موتاهم منه ، يقول عروة بن حزام (٣) :

وما عجبى موت المحبين فى الهوى ولكن بقاء العاشقين عجيب

من أجل هذا طار غزلهم المعبر عن هذا العشق ، موسوما بالغزل العفيف تارة ، وبالغزل العذرى تارة أخرى .

(١) تزيين الأسواق ١١

(٢) تزيين الأسواق ٦١

(٣) المصدر السابق ٧٠

والذى يعنينا هنا ، ليس كل شعر عبر فيه قائله عن عاطفة حب عفيف ، أيا كانت دوافعه ، وأيا كان موطنه ، فدرا ستنا تنصب أساسا على الاتجاه الغزل المعبر عنه بالحركة العذرية ، التى تتمثل فى شعر طائفة من الشعراء ، عاشوا جميعا فى عصر واحد هو العصر الأموى وزمن واحد ، وتنقلوا فى بيئات واحدة ، أو متقاربة ، فى وديان البادية الخصبية بالحجاز ، أو المتداخلة مع بوايد نجد القريبة منها ، وهم الذين سنتحدث عنهم بعد .

هؤلاء الشعراء عرف بعضهم بعضا ، وتناشد بعضهم أشعار بعض ، وانصرفوا انصرافا يكاد يكون تاما عما كان المجتمع العربى يضطرب به من أحداث كبرى ، وصراعات عنيفة فى ميدان السياسة ، أو غير ميدان السياسة ، كما انصرفوا — غالبا — عما اعتاد غيرهم من الشعراء أن يلتفتوا إليه من تجارب فى الوصف ، أو الرحلة ، أو المدح ، أو الرثاء ، وداروا جميعا فى فلك تجارب واحدة تقريبا ، هى تجارب العشق المقترن باللوعة والإخفاق والحرمان ، فتشابهت تجاربهم فى إطارها العام ، مع بعض الاختلاف اليسير فى التفاصيل والبدائيات والنهايات .

قصة العشق فى هذا الغزل نمط مألوف فى حياة هؤلاء العشاق العذرين ، فالشاعر يعشق صاحبتة ، وقد تكون ابنة عم له ، أو من ذى قرابته ، أو من فتيات الحى ، أو بعض الأحياء المجاورة ، وهذا العشق يضرب بجذوره — غالبا — إلى أيام الصبا ، ويحاول الشاعر تحقيق الوصل باللقاء ، أو بالزواج ، فيعرف أمره ، ويحال بينه وبين بغيته ، فالبينة ترى فى علائق العشق عارا ، وفى الشعر المعبر عن هذه العلائق عارا أكبر ، يحرم على الشاعر الزواج بمن تعشقها وتغزل فيها ، وحينئذ ليس للشاعر من حيلة إلا أن يتحول بطاقته العاطفية إلى الشعر ، يث فيه لواعج الشوق ، ولذعات الحرمان ، متأرجحا بين الرضا والسخط ، واليأس والأمل ، محاولا من حين إلى آخر أن يرى صاحبتة لحظات عابرة ، فى غفلة من الأهل ، وبعيدا عن عيون الرقباء والواشين ، تكون مددا جديدا لموهبته ، ومعينا لمزيد من الصور والمعانى والأحاسيس ، وقد تنزوج صاحبتة من غيره ، فتزداد لوعته اتقادا ، ويزداد الفراق حدة ، ويصبح العشق مجرد شعور مطلق يلف كيانه ، وذكرى مجردة يترجمها إلى صور فنية ونفسية فى شعره ^(١) .

هذا الإطار العام لقصة العشق في حياة الشعراء العذريين ، الذين نهتم بهم هنا ، هو الذى فصل تجاربهم الشعرية ، وميزها ، عن تجارب الشعراء الغزلين من غيرهم ، الذين يصيدون في غزلهم ، عن بواعث غير بواعثهم ، ويسيروا في درب غير دربهم ، وينقادون لتقاليد في التعبير والتصوير ألفها الشعر الغزل من قبلهم في الجاهلية ، غير تقاليد العذريين الجديدة في التعبير ، وفي اللغة ، ورسم الصورة الشعرية .

وبالجملة ، فإن مؤرخى الأدب يفرقون عادة بين هذا الاتجاه من الغزل ، والاتجاه السابق ، الذى أسميناه بالحسى اللاهوى ، بأن الغزل العذرى ضرب من الشعر يتحدث فيه الشاعر عن مشاعر العشق العفيفة ، التى تنشأ بين رجل وامرأة ، وتطفئ فيه نوازع الروح على نوازع الجوع الجسدى فتطمسه ^(١) ؛ لتعلقه أساسا بالروح ؛ إذ كانت ألطف من البدن ، فهذا العشق يشاكلها ^(٢) .

وينسب الغزل العذرى إلى بنى عُذرة ، وهى إحدى القبائل اليمنية ، التى هاجرت قديما إلى شمال الجزيرة العربية ، واشتهرت بالعشق العذرى ، والغزل المنبعث عنه ، فنسبا إليها ، حتى قالوا : « ليس حى أصدق فى الحب من بنى عذرة ، ولا تضرب الأمثال فيه إلا بهم ^(٣) » .

ومن بنى عذرة زعيم العذريين ، وأمير شعرائهم جميل بن معمر ^(٤) ، وصاحبه

(١) لمزيد من التفصيل راجع : الغزل فى العصر الجاهلى (د . الجوفى) ١٤٥ وتاريخ الشعر العربى (البهيتى)

(٢) تزيين أسواق ١٢

(٣) المصدر السابق ٨ وانظر : ديوان الصبابة ١٩٢ والنوادر للقالى ٢١٣

(٤) جميل بن معمر ، وقيل : بن عبد الله بن معمر ، من بنى عذرة ، يتصل نسبه بقضاعة ، شاعر فصيح صادق الصبابة عفيف ، نشأ في قومه بنى ربيعة العذريين بوادى القرى بين المدينة ومكة ، علق بثينة بنت يحيى بن ثعلب ، من قومه ، صغيين ، فلما شيا خطبها فرد ؛ لأن العرب كانت تستهجن أن تزوج من جرى بينهما عشق ، فكان يأتيها سرا فيتحادثان ، ويقال فى سبب العشق بينهما : أنه سرح إبله يوما بوادى البغيض وانسطح ، فأثت بثينة مع جوار يملأ الماء ، فعبثت بفيصل له ، فتصايبا ، وإلى هذا يشير جميل :

وأول ما قಾದ المودة بيننا بوادى بغيض يابئين سباب
وقلت لها قولا فجاءت بمثله لكل كلام يابئين جواب

(تزيين الأسواق ٣٢) .

ويقال : دخلت بثينة على عبد الملك بن مروان ، فرآها امرأة أدماء طويلة ، يُعلم أنها كانت جميلة ، فقال لها عبد الملك : ويحك !! مارجا منك جميل ؟! قالت : الذى رجت منك الأمة حين ولتك أمرها (الإمتاع والمؤانسة ٣ / ١٦٨ وتزيين الأسواق ٣٣ وديوان الصبابة ١٩٢ وما بعدها) وتوفى جميل سنة ٨٢ هـ بمصر قبل بثينة . انظر : مصارع العشاق ٢٥٧ والأغاني ٧ / ٧٢ وما بعدها وابن سلام ٦٤٨ ، ٦٦٩ وما بعدها (المدنى) .

بشينة ، ويروى الرواة أخبار طريفة حول شهرة هذه القبيلة بهذا اللون من العشق والغزل ، منها : ما يحكى عن عروة بن الزبير بن العوام — أحد فقهاء المدينة السبعة ^(١) — أنه قال لعذرى : إنكم أرق الناس قلوبا (يريد أصباهم إلى العشق) ؟ فقال : والله ، لقد تركت ثلاثين شابا خامرهم السمل (يعنى مهزولين) وما بهم داء إلا الحب ^(٢) .

ومنها : أنه قيل لأعرابي من العذريين : « ما بال قلوبكم كأنها قلوب طير تناث ، كما يناث الملح فى الماء ؟! أما تجلّدون ؟ فقال : إننا ننظر إلى محاجر أعين لا نتظرون إليها » ^(٣) .

ومنها : أن سعيد بن عقبة الهمداني سأل أعرابيا : ممّن الرجل ؟ فقال : من قوم إذا عشقوا ماتوا ، فقال سعيد : عذرى ورب الكعبة ، ثم سأله عن علة ذلك ، فقال : لأن فى نساءنا صباحة ، وفى فتياننا عفة ^(٤) .

وقد فات هذا الأعرابي أن يذكر أن فى نساءهم عفة أيضا ، فهذا هو ذا جميل يحتل ببشينة ، فيقول لها ، بعد أن شكّا شغفه بها : هل لك فى طيء ماى بما يفعل المتحابان ؟ فقالت : قد كنت عندى بعيداً من هذا ، ولو عدت إليه لن ترى وجهى أبداً ، فضحك جميل ، ثم قال : والله ما قتله إلا اختبارا ، ولو أجبت إليه لضربتك بسيفى هذا ، إن استطعت ، وإلا هجرتك ^(٥) .

ولعل هذا ، نعى العفة ، كان خلقا متوارثا فيهم ، رجالا ونساء ، يتواصون به ، ويحرصون عليه ، وثبته ظروف بيئتهم البدوية فى أخلاقهم ، كما سيأتى .

ويفهم من الروايات السابقة ، أن التسمية بالعذرية فى العشق والغزل قد عرفت فى العصر الأموى ، وأيضا يدل على هذا ما صرح به جميل ، فى خبر له مع رجل استضافه

(١) راجع هامش ص ٣٥٦

(٢) ديوان الصبابة ١٩٣ وتزين الأسواق ٨ ومصارع العساق ٢٠

(٣) عيون الأخبار ٢ / ١٣١

(٤) تزين الأسواق ٨ وديوان الصبابة ١٩٣ وقيل : إن جارية هى التى قالت : عذرى ورب الكعبة ، حينما سمعت هذا الأعرابي يقول ما قال (عيون الأخبار ٢ / ١٣١) .

(٥) تزين الأسواق ٣٢ وانظر : رسائل الجاحظ ٢ / ١٤٨

يدعى جعفرا ، صنع له خبزة ، فجعل الرجل يأكل ، ويحدث جميلا عن بنت عم له
يجبها ، حتى أتى على الخبزة ، فقال جميل ^(١) :

وقد راينى من جعفر أن جعفرا ألح على قرصى ويكى على جمل
فلو كنت عذرى العلاقة لم تكن بطينا ونساك الهوى كثرة الأكل

وهذه العلاقة العذرية ، أو الهوى العذرى ، هو ما نطلق على نتاجه الشعرى ، الغزل
العذرى .

— ٢ —

حول نشأة الغزل العفيف :

يميل الدكتور طه حسين إلى أن الغزل العفيف — المسمى فى العصر الأموى
بالغزل العذرى — أموى النشأة ، لم يألّفه الجاهليون ، أو على الأقل ، لم يحسنوا فهمه ، ولا
العناية به ^(٢) .

ويذهب الدكتور شكرى فيصل إلى أبعد من هذا ، فيرى أنه لم يكن من الممكن
أن يظهر هذا الغزل ، بقدر سيته وطهارته ، قبل عصر بنى أمية ^(٣) .

ومحور هذه الدعوى أن الغزل العذرى كان ثمرة للقيم الأخلاقية والروحية ، التى بشها
الإسلام فى البادية العربية ، والتى صفت نفوس الشعراء العذريين ، وأحالت العشق فيها
إلى البراءة والطهر والعفة ، وفى هذا يقول الدكتور شكرى فيصل ، مؤيدا مذهبه الذى
ذكرنا :

«... فالغزل العذرى تعبير عن وضع طائفة من المسلمين ، كانت تتخرج ،
وتذهب مذهب التقى ، وتؤثر السلامة والعافية على المغامرة والمخاطرة ، وترى أن النفس
أمارة بالسوء ... وأن النار قد حفت بالشهوات ، على حد تعبير الحديث الشريف ، وأنه

(١) ديوانه ١٨٢ وتزيين الأسواق ٣٤ والنوادر للقالى ٢١٣

(٢) حديث الأربعة ١ / ١٨٥ ، ٢ / ١٥ — ١٨

(٣) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ٢٣٤

من الخير لها أن تصبر) مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ، يريدون وجهه ، ولاتعد عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولاتطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه ، وكان أمره فُرطاً) ^(١) ، وأن تلتزم ما أمر الله به أن يلتزم (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله) ^(٢) ، ولذلك آثرت هذه الطائفة أن تعدل عن شهواتها ، فكانت مثلاً واضحاً للتربية الإسلامية ، في سموها وتعالها ... ومن العفة التي كان يواكبها الدين ، ومن الحب الذي كانت تواكبه الغريزة ، من هذا كله كان هذا الحب العذرى ... » ^(٣) .

ولسنا نذهب هذا المذهب ، بمعنى أننا لانرى أن العامل الدينى ، وما يترتب عليه من عفة وتقى ، هو الباعث الأساسى والوحيد للغزل العذرى العفيف ، لأمر أهمها :
أولاً: لاتستطيع أية دراسة علمية للغزل العفيف فى الأدب العربى القديم أن تنكر أن الغزل الجاهلى عرف العفة فى كثير من نماذجه ، التى عبر شعراؤها عن أشواق الروح ، أكثر مما عبروا عن الرغبة فى المتعة الجسدية ، فما الذى صَفَّى نفوس هؤلاء الشعراء الجاهليين ، ووجه عواطفهم إلى التسامى ، وغرس فيها الاتجاه بها إلى العفة والطهر ، ولم يكن الإسلام قد أشرقت شمسُه على الجزيرة العربية بعد ؟

وبين أيدينا دراسة علمية محققة لهذا الاتجاه فى غزل الجاهليين ، من نتائجها أن غزل الجاهليين والإسلاميين العذرى ، لا يكاد يختلف ، من حيث أنه غزل روحى ، لا أثر للنزوع الجسدى فيه ، غالباً ^(٤) .

ولو كان عامل الدين والتقى ، هو العامل الوحيد فى نشأة الغزل العذرى ، لكان النزوع إلى الجسدية فى غزل الإسلاميين ، أكثر ندرة منه عند العذريين الجاهليين ، وهذا غير صحيح على إطلاقه ^(٥) ، كما سنرى .

ثانياً : أن من أبرز سمات الغزل العذرى القصد إلى وصف العواطف الحارة

(١) مابين القوسين اقتباس من سورة الكهف الآية ٢٨

(٢) اقتباس آخر من سورة النور آية ٣٣

(٣) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام — ٢٣٢

(٤) انظر : الغزل فى العصر الجاهلى (د . الخولى) ١٩٠ وما بعدها .

(٥) انظر تفصيل ذلك ونماذج على صوابه فى المصدر السابق ١٩٩ وما بعدها .

الصادقة ، التي تعذب صاحبها وتعينه ، دون أن تتيح له لذة مادية ، وإنما اللذة الوحيدة ، التي يجدها هي لذة الألم بأنه يحب ، ويحب من لاسبيل إلى وصله ؛ ومن ثم فهو يسمو بعواطفه فوق نوازع الجسد — غالباً —

وهذه النزعة بعينها ، لم يخل منها الغزل في الجاهلية ، وصدر الإسلام ، فنحن واجدون لها نماذج في شعر عنترة ، وعبد الله بن عجلان النهدي ، والمرقشان ، الأكبر والأصغر ، وكلهم جاهليون ، وفي شعر عروة بن حزام ، وعبد الله بن علقمة العامري ، وهما من المخضرمين .

ويكفى أن نسوق نماذج قليلة من غزل هؤلاء الشعراء ، تفيض بالوجد ، وتعمر بالأحاسيس ، وتفصح عن الآلام ، وتعرب عن الوفاء ، والمعاناة الشديدة للحب ، والعفة فيه .

يقول المرقش الأكبر ^(١) :

أغالبك القلب للجوج صباةً	وشوقاً إلى أسماء أم أنت غالبه
يهيمُ ولا يعيا بأسماء قلبه	كذاك الهوى إمراره وعواقبه
أيلحى امرؤ في حب أسماء قدناى	بغم من الواشين وازور جانبه
وأسماء هم النفس إن كنت عالما	وبادى أحاديث الفؤاد وغائبه
إذا ذكرتها النفس ظلت كأننى	يزعزعنى قفقاف ورِدٍ وصالبه

فالمرقش حيران في أمره بين قلبه ، ونزوع نفسه ، أيتغلب قلبه فيظل على عشقه ، أم يتغلب نزوعه فينسى ؟ ولكنه يائس من رد قلبه ، لأنه هائم بأسماء ، فلا محل للوم اللائم ؛ إذ لاجدوى من لومه ، لأنه مصر على عشقه ، معلق القلب بمعشوقته ، على الرغم

(١) الأغاني ٥ / ١٨٣ قفقاف : ارتعاد . ورد : اسم للحمى . صالب : حمى فيها رعدة . والمرقش الأكبر يسمى عمر أو عوف بن سعد بن مالك ، يتصل نسبه ب بكر بن وائل . شاعر جاهل قديم ، عاصر المهلهل بن ربيعة ، وشهد حرب البسوس بين بكر وتغلب ، وهو أحد عشاق العرب المشهورين ، كان يهوى ابنة عمه أسماء بنت عوف ابن مالك . انظر : الأغاني ٥ / ١٧٩ والشعر والشعراء ٥٤ والمؤتلف ١٨٤ ومعجم الشعراء ٢٠١ ومعاهد التنصيص ١ / ١٦٣ وتزوين الأسواق ٨٤ والمرقش الأصغر ابن أخيه ويدعى عمرو بن حرملة ، أو ربيعة بن سفيان ، وصاحبته فاطمة بنت المنذر ، وأخباره في الشعر والشعراء ٥٦ ، ومصارع العشاق ١٤٧ في ضمن أخبار عمه .

مما أصابه من غمٍ لسعى الوشاة بينه وبينها ، وكيف يستمتع لمن يلومه ، وهذا العشق هو طَلَبَةُ نفسه ، التي رضخت لأوامر قلبه ، بل هو حديث هذا القلب ، مظهر منه وما استتر ، ولا يكاد ذكرها يخطر في نفسه حتى يهتز كيانه كله ، وكأنما قد أصابته حمى . فالحديث عن الوشاة ، وفقد السيطرة على القلب ، واعتلال النفس والبدن ، كلها من ملامح الغزل العفيف ، الناشئ عن العشق العفيف ، كما عرفناها في مقدمة هذا الفصل ، والتي سنراها أيضا عند العذريين الأمويين .

ويقول عبد الله بن العجلان ^(١) :

فارت هندا طائعا فندمت عند فراقها
فالعين تدرى دمة كالدّر من آماقها
متحلباً فوق الرّدا ء يجول من رفاقها
خود رداح طفلة ما الفحش من أخلاقها ...

فهو يبكي ندما على فراق هند ، التي كانت زوجه ، فأرغمه أبوه على تطليقها ، والرواية تحكى أنه ظل يشيب بها حتى مات كمدأ ، وهذا يشهد له بالوفاء في العشق ، والإخلاص لصاحبه ، وهذه بعض سمات الغزل العفيف .

وهل أدل على عفته من شهادة الشاعر نفسه ، بأن هنداً لم تكن تعرف الفحش ، وإنما كان يلذ له حديثها وعناقها قبل أن يطلقها ، ومن كانت كذلك لن يكون التغزل فيها إلا عفاً ، بريئاً من الفحش .

وعبد الله بن علقمة العامري ^(٢) ، عشق هو الآخر فعف ، وقتل على يد خالد بن

(١) هو أبو عمرة عبد الله بن العجلان النهدي القضاعي ، شاعر جاهلي مفلق ، أقل العشاق أياما ، عاش يكابد العشق ثلاثين سنة ، فهو أحد المتيمين من الشعراء ، ومن قتله العشق منهم ، وضرب به المثل في العشق كما ضرب المثل بعروة بن حزام ، قال قيس بن ذريح فيهما :

وفى عروة العذرى إن مت أسوة وعمرو بن عجلان الذى قتلت هند

(نزين الأسواق ٤٩) وهند هذه كانت امرأة ابن العجلان ثم طلقها فقدم ، ومات أسفا عليها ، قيل : قبل عام الفيل بأربعة أعوام . انظر : الأغاني ١٩ / ١٠٢ وشرح الحماسة للمزروع ٣ / ١٢٥٩ ونزين الأسواق ٧٥ ، ٧٧ ومخط اللآلئ ٢ / ٦٥٤

(٢) أحد بني عامر بن عبد مناة بن كنانة ، أدرك الإسلام ، ولم يسلم ، وقتله خالد بن الوليد ، وكان على رأس سرية وجهها الرسول ﷺ يوم فتح مكة ، إلى بني عامر ، وصاحبه حبيشة بنت خبيش عامرية أيضا . وقصتها مروية في : الأغاني ٧ / ٢٣ وما بعدها ونزين الأسواق ٨١ — ٨٢ ومصارع العشاق ٢٠٧

الوليد في الإسلام ، فلما قدم للقتل قال ^(١) :

فإن يقتلوني بأحبّيش فلم يدع هواك لهم منى سوى غلة الصدر
وأنت التي أخلّيت لحمي من دمي وعظمي وأسبلت الدموع على نحري
فردت عليه حبيشة : ^(٢)

ونحن بكنينا من فراقك مرة وأخرى وآسيناك في العسر واليسر
وأنت فلا تبعد فنعم فتى الهوى جميل العفاف في المودة والستر

ففضلا عما في غزله من ملامح غزل العذريين الأمويين ، من دلائل حرقة الهوى ، وأثر العشق في اصفرار البشرة ، واعتلال الجسم ونحوه ، فهناك شهادة صاحبه الصريحة بأنه عف الهوى ، جميل العفاف .

ثم يأتي عروة بن حزام ^(٣) ، فيلم في شعره الذي يحكي قصته مع ابنة عمه عفراء ، بأكثر ملامح شعر العذريين الأمويين ، فشعره يتميز بكل السمات الاجتماعية والنفسية والخلقية والفنية التي نجدتها من بعده في شعر سائر العذريين ، كما أن قصة عشقة تعكس الإطار العام ، الذي دارت فيه قصص العذريين الأمويين ، فقد أحب عفراء منذ كانا صغيرين ، وخطبها من عمه فلم يجبه لفقره ، فرحل إلى ابن عم آخر له موسر ليعينه على صداق عفراء ، وعاد بمائة من الإبل : ولكن عمه كان قد طمع فزوجها من رجل ثري ، رحل بها إلى موطنه في الشام ، ويدعى العم لعروة حين عاد أن عفراء ماتت ، ولكنه يكتشف الحقيقة بعد فترة ، فيأخذ في الهيام المعروف عند العذريين ، ويفجر الفقد ينابيع الشعر فيه ، فتفيض بشعر حافل بالآلام والأانات ، والذكريات ، واللوعة ، ثم لا يلبث أن ينال العشق من روحه وبدنه فيفارق الحياة ، وشفتهاء تردد بعض شعره في عفراء .

(١) تزيين الأسواق ٨١ ومصارع العشاق ٢٠٨ والأغاني ٧ / ٢٥ .

(٢) الأغاني ٧ / ٢٦ ومصارع العشاق ٢٠٨ .

(٣) من بنى ضبة العذريين ، شاعر مخضرم — عاش أيام عثمان — فتمكن في العشق ، وهو أول عاشق في الإسلام مات عشقا ، ولا يعرف له شعر إلا في ابنة عمه عفراء ، وهي بنت هصر أخي حزام ، كلاهما ابنا مالك ، بطن من بنى عذرة ، ولشدة معاناته في العشق ضرب به المثل بين العرب والمولدين توفي سنة ٣٠ وقيل : ٢٨ هـ . انظر : الأغاني ٢٠ / ١٥٢ ومصارع العشاق ٢٠٩ وفوات الوفيات لابن شاکر ٢ / ٣٣ وتزيين الأسواق ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ .

ومن شعره الذى يعكس الملامح العذرية ^(١) :

تحملت من عفراء مالميس لى به ولا للجبال الراسيات يدان
 فيارب أنت المستعان على الذى تحملت من عفراء منذ زمان
 كأن قطاة علق بجناحها على كبدى من شدة الخفقان
 جعلت لعراف الحمامة حكمه وعراف نجد إن هما شفيانى
 فما تركا من رقية يعلبانها ولا سلسوة إلا وقد سقيانى
 فقالا: شفاك الله ، والله مالنا بما حملت منك الضلوع يدان

فهذا شعر يعبر عن عاطفة حارة صادقة ملتاعة ، وعن معاناة فى الحب يغذيها الحرمان ، وفيه هذا الأسلوب الذى طالما رده الشعراء العذريون الأمويون ، أسلوب النداء (فيارب) .

وفى شعره أيضا تلك الرعدة التى تصيب عاشقين ، وحبسة اللسان عند لقاء صاحبة ، وتمرد القلب على السلوى ... الى آخر ما عرفنا من صفات العشق العذرى فى التقديم .

من ذلك قوله المشهور ^(٢) :

وإني لتعروني لذكرارك هزة وإني لتعروني لذكرارك هزة
 وما هو إلا أن أراها فجاءة فأنهت حتى ما أكاد أجيب
 وأصدف عن رأى الذى كنت أرتى وأنسى الذى أزمعت حين تغيب
 ويظهر قلبى عذرها ويعينها على فمالى فى الفؤاد نصيب ...

وسنرى الشعراء العذريين الأمويين يكثر من وصف تحول أجسامهم من ضنى العشق ، وما هو ذا عروة يتكرر صورة شخصية أصيلة ؛ لتصوير هذا التحول ، فيقول مخاطبا واشيين لا يكفان عن تعقبه ^(٣) :

أغركا منى قميص لبتيه جديد ووردا بمنة زهيان

(١) الأغاني ١٥٥/٢٠ ومصارع العشاق ١٣ ، ٢١٠ والنوادر للقال ١٥٩ عراف الحمامة : كاهن يقال له :
 رباح ابن راشد ، وكنيته أبو كحلاد ، مول لبني يشكر ، ويقال : كان له قرين من الجن .

(٢) الأغاني ٢٠ / ١٥٥ وأمالى المرتضى ١ / ٤٥٩ والشعر والشعراء ٢٣٨

(٣) الأغاني ٢٠ / ١٥٤

متى ترفعا عنى القميص تبينا بى الضّر من عفراء يافتيان
وتعرفا لحماً قليلاً وأعظما رفاقاً وقلبا دائماً الخفقان
على كبدى من حب عفراء قرحة وعيناي من وجْد بها تكفان
وروعة هذه الصورة فى أنها لاتتحدث عن هزاله كأنه حقيقة ملموسة ، يراها
الناس ، بل ترسم مفارقة بين ماقد يظنه الناس فيه من عافية ، إذ ينظرون إليه فى قميصه
الجديد ، وبرديه الينيين المشرقين ، وما ينطوى عليه من ضنى تجاوز الجسد إلى صميم
الوجدان .

وقد قصدنا بالإكثار من إيراد هذه النماذج من أشعار الجاهليين والمخضمين العفة ،
أن نبرز مافيه من ملامح سنراها من الملامح الأساسية فى غزل العذريين الأمويين ، من حرقة
الهوى ، ولذعات الشوق ، ومرارة الحرمان ، وندرة القرب ، وصعوبة الوصل ، وليس من
بينهم إلا شاعر واحد اعتنق الإسلام ، ومع ذلك فلا نراه إلا كزملائه أسير تقاليد البيئة
البدوية الاجتماعية القاسية ، التى تجعل من اتصال الرجل بالمرأة ، اتصال حب وهوى
وصمة عار ، تحرم على الشاعر الزواج بمن تحدث عن هواها فى شعره ، أو عرف بحبها .
إنه مجتمع شديد المحافظة ، تجرى فيه حياة العاشقين وفق تقاليد مرعية ، فما ينبغى
لمن يعشق أن يذيع أمره بين الناس ، ولا أن يقول شعرا فى صاحبه يشيع بينهم ، وإلا كان
قد ألحق العار بصاحبه وأهلها وقبيلتها جميعا ، وحق عليه أن يحرم منها إلى الأبد ، وأن
يستباح دمه إذا هو تعرض لها بعد معرفة أهلها علاقته بها .

فالقيم الأخلاقية التى يمثلها الغزل العذرى هى بنت البادية ، التى عاش فيها
العذريون فى الجاهلية والإسلام ، وإلى هذا يشير الأستاذ العقاد ، فى قوله ^(١) : « البادية
تتقيد ببعض القيود ، التى تستدعيها معيشة البدو ، ولاتستدعيها معيشة الحضريين ؛ لأن
المنفعة ضرورة من ضرورات الحياة بين أهل البادية ، ولانصاف من الاشتهار بمناعة الحوزة
بين الأعداء والنظراء ، وإلا طمع فيهم كل طامع وأول حوزة يحميها الرجل هى
المرأة ، فمن شرف البدوى أن تكون فتاته منيعة الحمى ، يتقاصر عنها لسان المتغزل ، كما
يتقاصر عنها سيف المغير » .

وإذن : فالمنعة أوجدت الحرمان ، والحرمان اقتضى هذا الحب العفيف ، والغزل العفيف ، يقول أبو عبيدة البكري : « الظفر بالمعشوقة يسقط شطر عشقيها (الحب) وأن النكاح يسقط الحب » ^(١) .

يعنى حرارة العاطفة وعفتها ، كذلك يرى الجاحظ أن الوصل يضعف العشق ^(٢) .

ثالثاً : لو أن العامل الدينى هو العامل الأساسى الوحيد فى نشأة الغزل العفيف ، لما انحرف الشعراء العذريون الأمويون عن العفة والتقوى ، باحتياهم على دخول بيوت لأزواج صاحبائهم ، والانفراد بهن ساعة من ليل أو نهار ، أو مراسلتهم ، وقد يضيق الزوج ، أو الأهل ذرعاً بالعاشق الذى لا يجدى معه تهديد ، ولا تثنية قوة ، فلا يجدون مناصاً من الشكوى إلى السلطان ، فيهدر السلطان دمه ، إن هو جاء بعد ذلك إلى ديار الأهل أو الزوج ، حدث هذا من جميل ^(٣) ، كما حدث مع توبة ^(٤) ، ومع مجنون ليلي ، الذى يعبر عن هذا فى قوله ^(٥) :

ألا حُجبت ليلي وآلى أميرها على يميناً جاهداً لا أزورها
وأوعدتني فيها رجال أبرهم أبى وأبوها حُشنت لى صدورها
كذلك أهدر معاوية دم قيس بن ذريح ، لكثرة تردده على ديار لبنى بعد أن طلقها ، وشكوى أهلها من ذلك ^(٦) .

وليس لهذا معنى إلا أن هؤلاء العذريين ، لم يكونوا أعفة ولا ثقة بالمعنى الكامل ، حقيقة أنهم كانوا يعفون ، وهذه العفة هى التى تفسر مافى شعرهم من الزهد البالغ ، والرضا ممن يعشقون بأقل القليل ، بل بمجرد التلويح بالأمل الذى لا يتحقق . كقول جميل ، مثلاً :

(١) سمط اللآلى ٢ / ٦٩٣

(٢) رسائل الجاحظ ٢ / ١٨٧

(٣) الأغاني ٧ / ٨٠ ، ٨١

(٤) المصدر نفسه ١٠ / ٦٣

(٥) ديوانه ١٤٦

(٦) الأغاني ٨ / ١١٧

وإني لأرضى من بنية بالذى لو أبصره الواشى لقرت بلبأله
بلا وبأ لأستطيع وبالنسى وبالأمل المرجو قد خاب آمله

ولكن هذه العفة لا تكفى وحدها دليلا على التقوى ، مع ما فى سلوكهم من صور
لا تتفق كثيرا مع الالتزام الذى يعرف به المتقون ، كما أنها لا تكفى وحدها فى تعليل نشأة
الغزل العذرى ، ونسبة هذه النشأة إلى العصر الأموى .

لابد إذن من هذا العامل الاجتماعى الذى أرجعناه إلى تقاليد البيئة البدوية ، وهو
الحرمان ، فيه يستقيم فهم ما عرفوا به من عفة من ناحية ، وما عرف عن سلوكهم الخاص
من ناحية أخرى .

كما أنه يفسر وجود هذا الضرب من الغزل العفيف فى الشعر الجاهلى ، ويدل على
أن نشأته لم تكن أموية خالصة ، كما ذكر الدكتور طه حسين ومن جاراه من الباحثين .
ومع ذلك فلا يسعنا إلا أن نؤكد أن الحياة الإسلامية كانت مشجعة على عفة
العشق وعذرية الغزل ، حتى فى البادية ، فقد سئل أعرابى ماذا كان يصنع لو ظفر
بصاحبتة ، ولا يراها غير الله ؟ فقال : إذن لأجعله أهون الناظرين ، ولكنى أفعل بها
ما أفعله بحضرة أهلها ، شكوى ، وحديث عذب ، وإعراض عما يسخط الرب ، ويقطع
الحب ^(١) .

وقيل لأعرابى آخر ليلة تزويج صاحبتة : أيسرك أن تظفر بها ؟ قال : نعم ، قيل :
فما كنت تصنع بها ؟ قال : أطيع الحب فى لثمها ، وأعصى الشيطان فى إثمها ^(٢) .
وروى الأصمعى : قيل لأعرابى : ماتصنع إن ظفرت بمحبوبتك ؟ قال : أمتع عيني
من وجهها ، وسمعى من حديثها ، وأستر منها ما يحرم كشفه ، إلا عند حله ^(٣) .

ذلك أن الإسلام خلق مجتمعا يخضع لقوانين وشرائع واضحة محددة ، تقوم على
تنفيذها حكومة منظمة ، وتتطلب من الفرد التنازل عن كثير من حريته الفردية السابقة

(١) سمط اللآتى ٢ / ٦٩٣ وديوان الصبابة ١٩٣

(٢) تزيين الأسواق ٨ وديوان الصبابة ١٩٤

(٣) تزيين الأسواق ٨

على الإسلام ، كما أنه نظم علاقة الرجل والمرأة على أساس من الرباط المقدس ، رباط الزواج ، وحظر الاندفاع وراء الغريزة الجنسية ، إلا من طريق هذا الرباط ، كما حرم البغاء ، وقذف الأعراض ، فسمما بالأخلاق إلى أجواز الفضيلة والطهر .

غير أن هذه القواعد الإسلامية ، لم تكن قاصرة على البداية دون الحضر ، بل إن المعروف عن البدو أنهم أقل تأثراً بالحياة الدينية من أهل الحضر ، والقرآن الكريم يشهد بذلك في قوله تعالى ^(١) : « الأعراب أشد كفرا ونفاقا ، وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله » .

ولهذا كان العامل الديني وحده ، نغنى التأثير بالإسلام ، وما يطالب به المؤمن من تقوى الله ، هو الباعث الوحيد لمن عفى في عشقه من أهل الحضر ، وبخاصة من العلماء المؤمنين ، المشهورين بزهدهم وتقواهم ، من مثل : عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد الفقهاء السبعة بالمدينة في العصر الأموي ، الذي يصرح في غزله بأنه تجنب إتيان الحبيب تأثماً ^(٢) .

كذلك كانت التقوى وراء عفة عروة بن أذينة ، أحد فقهاء المدينة وعبادها في شعره الغزل ^(٣) ، وكانوا يردون على من يلومهم في الحديث عن الهوى العفيف في شعرهم ، بأنه لابد لهم من أن ينفثوا ما في صدورهم .

وعبد الرحمن بن عمار الجشمي الملقب بالقسّ لشدة تقواه وورعه ، لما شغف بسلامة الجارية المغنية ، عبر عن شغفه في شعر غزل عفيف ، وما كانت عفته إلا بنت تقواه ، لابنت الحرمان ، أو حيلولة التقاليد الاجتماعية بينه وبين وصلها ، وقضاء حق الهوى معها ، ولأدل على ذلك مما يرويه صاحب الأغاني ، من أن سلامة قالت له يوماً : أنا والله أحبك !! فقال : وأنا والله أحبك !! قالت : وأحب أن أضع فمي على فمك ، قال : وأنا والله أحب ذاك ، قالت : فما يمنعك ؟ فوالله إن الموضع لخالي ، قال : أني سمعت الله عز وجل

(١) سورة التوبة ٩ / ٧٩

(٢) انظر هذا الغزل في : العقد الفريد ٣ / ٣٩١

(٣) المصدر السابق

يقول : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » وأنا أكره أن تكون خلة ما بيني وبينك تؤول إلى عداوة ، ثم قام وانصرف ، وعاد إلى ما كان عليه من نسك ^(١) .

ولا ينبغي أن يفهم مما ذكرنا أننا ننكر تأثير الإسلام في نفوس الشعراء البدو العذريين في العصر الأموي وأشعارهم ، فما إلى هذا قصدنا ، وإنما غرضنا أن نرد على من ذهبوا إلى أن العامل الديني كان سببا في نشأة فن جديد من الغزل في البادية في العصر الأموي ، هو هذا الغزل العذري .

على أن تأثير الإسلام في نفوس العذريين قضية لا يعلم إلا الله مدى حظهم منها ، ولا تملك إلا أن نتلمس مظاهر هذا التأثير في سلوكهم وأشعارهم ، أما سلوكهم فقد تحدثنا عن طرف منه رأيناه لا يلائم التقوى الكاملة ، وأما أشعارهم فإن تأثير الإسلام فيها يعرب عن نفسه من حين لآخر ، في بعض الصور والأفكار والمعاني ، والأساليب الجزئية وفي بعض الألفاظ أيضا ، تكثر هذه الملامح في شعر بعض شعرائهم ، وتختفى أو تكاد عند آخرين ، وهذا أمر طبيعي ، فالنفوس تختلف في استشعارها لروحانية الدين ، وفي مدى تقبلها للمواءمة بين اعتقادها وسلوكها ، كما تختلف في مدى صفائها الروحي ، وحساسيتها للتأثر ، وفطنتها لما ينفعها في حياتها الأولى والآخرة ، وقد يتفق كل هذا لبدوي ، ولا يتفق لحضري ، وقد يرزق به من يستجيب لفطرته السليمة ، أكثر ممن يفقه الدين بعقله وعلمه ، والله يهدي من يشاء .

وفي شعر مجنون ليلى نلمح بعض مظاهر التأثير الديني ، في قوله ^(٢) :

أما والذي يُبلى السرائر كلها ويعلم ماتبدى به وتغيب
لقد كنت مما تصطفى النفس خلة لها دون خِلان الصفاء حُجُوب

فالشاعر متأثر ببعض المعاني والألفاظ المستمدة من القرآن العظيم ، فقله : « يبلو

السرائر » مستمد من قوله تعالى : « يوم تُبلى السرائر ^(٣) » وقوله : « ويعلم ماتبدى به وتغيب » مستمد من قوله تعالى : « والله يعلم ماتبدون وماتكتمون » ^(٤)

(١) الأغاني ٨ / ٦

(٢) ديوانه ٥٩

(٣) الطارق ٨٦ / ٩

(٤) النور ٢٤ / ٢٩

وفي قوله ^(١) :

وتزعم لئلى أنسى لأحبهـا بلى واللىالى العشر والشفع والوتر
وواضح أن الشطر الثاني من البيت يستمد معناه ونص عبارته تقريبا ، من قوله
تعالى : « والفجر ، وليالٍ عشر ، والشفع والوتر » ^(٢) .

وفي قوله ^(٣) :

أحبك حتى يبعث الله خلقه ولى منك فى يوم الحساب حسيب
فالبعث والحساب معان إسلامية .

ويقول أبو صخر الهذلى ^(٤) :

أما والذى أبكى وأضحك والذى أمات وأحيا والذى أمره الأمر
وهذا قسم بمعان إسلامية قرآنية ، تتردد فى القرآن العظيم .

ويقول كثير عزة ^(٥) :

خليلي هذا ربّع عزة فاعقلا قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلّت
ولا تياسا أن يحو الله عنكما ذنوباً إذا صليتما حيث صلت
فالله هو الذى يحو الذنوب ، وهو معنى قرآنى ، ولفظ الصلاة هنا ومعناها
مأخوذ من معنى الصلاة الإصلاحى الشرعى .

هذا فضلا عن أساليب الدعاء ، والتضرع إلى الله ، والتوجه بالشكوى إليه
وغير ذلك مما يصدر عن النفوس المسلمة المعتقدة ، ويظهر فى شعر العذريين
الأمويين ، الذى سنعالجه بالدراسة فيما سياتى .

ومع ذلك فإن هذه التماذج وأشباهاها ، إن دلت على تأثر الغزل العذرى ، بوصفه
فنا شعريا ، بالدين والقرآن ، فإنها لاتدل بالضرورة على تأثر عاطفة العشق نفسها بالدين
والقرآن .

(١) ديوانه ١٦٣

(٢) الفجر ٨٩ / ١ - ٣

(٣) ديوانه ٥٥

(٤) عيون الأخبار ٤ / ١٣٨

(٥) ديوانه ٩٥

نخلص من هذه الدراسة إلى نتيجتين هامتين :

أولاهما: أن الغزل العفيف ليس فنا إسلاميا جديدا ، أضافه الشعراء العذريون الأمويون إلى فنون الشعر العرفي ، ولم يكن معروفا لسابقيهم من الشعراء ، فقد عرفه طائفة من الشعراء الجاهليين والمخضرمين ، وقالوا فيه نماذج من أشعارهم ، كما كان في جملة تجاربهم الشعرية ، التي حددت لهذا الفن إطاره العام ، وكثيرا من خصائصه النفسية ، ومعاله الفنية ، على النحو الذي رأيناه ، على ضوء دراستنا لبعض نماذجهم في الغزل العفيف . كذلك لم يكن فن الغزل العفيف مزدهرا في العصر الأموي ، ذوايا ، قليل الشأن في الجاهلية وصدر الإسلام ، وإنما كان رأينا مشمرا في هذه العصور جميعا ، حتى هذا القصص العذري ، الذي اشتهر في العصر الأموي ، نجد له شبيها في العصر الجاهلي ، ففي التراث الشعبي قصة عربية جاهلية ، تعبر عن العشق العفيف في أروع مظاهره ، ولاتقل في عناصرها ، وحياة أبطالها ، والإطار العام لأحداثها ، عن قصص العشق العذري في عصر بني أمية .

نعرف منها قصة قديمة ، ضاربة في القدم ، هي قصة مُضاض بن عمرو الجرهمي^(١) مع ابنة عمه « مَيَّ » بنت مُهلِيل بن عامر^(٢) ، فهي شبيهة بقصة مجنون ليلى في العصر الأموي ، ففيهما معا يعشق الشاعر ابنة عمه ، ويحرم منها ، ويموت لفراقها ، وكل من الشاعرين ضرب مثلا في زمانه للإخلاص في العشق ، وإتلاف نفسه في سبيله . وما قيل في مضاض الجرهمي ، قول رجل من أهل الطائف^(٣) :

أموت إذا جدَّ الفراق يثيرُ كما مات من حرِّ الفراق مُضاضُ

غاية الأمر أن العذريين الأمويين كانوا أنضج تجاربا ، وأرق أسلوبا ، وأكثر شفافية في غزلهم العذري ، فقاموسهم اللغوي يحوى من الألفاظ والعبارات والأساليب ، ما يميزون به عن سابقيهم ، كما تميزوا بمعان وألفاظ إسلامية ، لم يعرفها سابقوهم كما سنرى .

(١) مضاض بن عمرو بن الحارث الجرهمي ، عاشق جاهل قديم ، يقال : إن ابنة جَدِّه (رعدة) تزوجت نبي الله إسماعيل ، عليه السلام ، انظر : الأغاني ١٣ / ١٠٣ .

(٢) انظر تفصيل هذه القصة في : كتاب التيجان في ملوك حمير (أبو محمد بن هشام) ١١٨ .

(٣) المصدر السابق .

أما من حيث الكم الشعري ، فلا نستطيع أن نتخذ منه دليلاً على قلة اهتمام الجاهليين بهذا الفن ، أو قلة عنايتهم به ، على حد تعبير الدكتور طه حسين ، فر بما كان عند الجاهليين من شعراء الغزل العفيف قصص كثير ، وشعر عفيف كثير ، ضل طريقه إلينا ، في جملة ماضع من أشعار الجاهليين في أغراضهم المختلفة ، يقول أبو عمرو بن العلاء : « ما انتهى إليكم مما قالت العرب (يعني في الجاهلية) إلا أقله ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير » ^(١) ، وفي رواية لابن سيرين عن عمر بن الخطاب (ض) أن ما حفظ من الشعر الجاهلي هو أقله ، وماضع أكثره ، ويعمل هذا بتعليل حسن معقول ^(٢) .

أما قصص العشق العذري ، ومادار حولها من غزل عذري في العصر الأموي ، فقد وصل إلينا أكثر ذلك ، لما عرف في هذا العصر ، من الاهتمام بالرواية الأدبية ، والاتجاه إلى التدوين .

أما النتيجة الأخرى : فهي أن أثر الإسلام في الغزل العذري الأموي لا يتعدى — فيما نرى — أمرين :

١ — زيادة فرص الحرمان ، الذي كان السبب الرئيسي في نشأة العشق والغزل العذريين في البادية العربية ، بما جاء به الإسلام من قواعد صارمة في تحديد فرص الاتصال بين الرجل والمرأة ، وتنظيم العلاقة الحسية بينهما ، على أساس من الطهر ، في ظل رباط مقدس ، ومع ازدياد فرص الحرمان ، يكثر التسامى بعاطفة العشق ، والعفة فيه .

ولا يعني هذا أن الحرمان وحده هو باعث هذا الغزل ومؤججه ، في نفوس الغزلين العذريين في العصر الأموي ، فقد نفذ الإسلام إلى قلوب هؤلاء الشعراء العذريين ، ووجداناتهم — أو بعضهم على الأقل — ونمّت عن هذه الروح الدينية التقية بعض أشعارهم الغزلية ، فمما يسلم به أن الإسلام كان له أثر بعيد في سيطرة هذا الجيل من الشعراء على غرائزه ، وتساميه بها ، واستمساكه ، قدر الطاقة ، بالعفة والتقوى ، وخبر جميل مع بشية ، وماتضمنه من امتناعها عما دعاها إليه — مخبراً — من قضاء حق

(١) ابن سلام ٢٥ (المدي) .

(٢) المصدر السابق ٢٤ — ٢٥

الهوى ، مروى فيما مر بنا ، وهو شاهد صدق على ما نذكر هنا .

واحترام العلاقة الزوجية ، ورعاية حقها ، الذى أكدته الإسلام ، وأحاطه بسياج من الحقوق والواجبات ، من دوافع ليلي الأخيلية فى ردها على صاحبها توبة بن الحمير ، وكان قد عرض لها بحق الهوى : (١)

وذى حاجة قلنا له لاتبخ بها فليس إليها ماحيت سبيل
لنا صاحب لاينبغى أن نخونه وأنت لأخرى صاحب وحليل
٢- التأثر الفنى ببعض الصور والأفكار ، والمعانى والألفاظ ، المستمدة من آداب الإسلام وقيمه وتعاليمه بعامه ، ومن ألفاظ القرآن ومعانيه بخاصة .

— ٣ —

أشهر الشعراء العذريين الأمويين :

هذا ، وشعراء الغزل العذرى ، فى بادية الحجاز ، فى العصر الأموى كثيرون ، منهم من اقترن اسمه باسم صاحبه ، فاشتهر بذلك ، فيقال : مجنون ليلي ، وكثير غزة (٢) ، وقيس لبنتي ، وجميل بثينة ، وهو أنسب الأربعة (٣) .

ومنهم من اشتهر باسمه مجردا من الارتباط باسم صاحبه ، من هؤلاء : توبة بن الحمير — وصاحبه هى ليلي الأخيلية — ونصيب بن رباح — تعلق بامرأة تدعى أم بكر (٤) — وأبو صخر الهذلى — تعشق امرأة من قضاة تدعى أم حكيم — والصمة بن عبد الله القشيري — وصاحبه تدعى ربا ... وغيرهم .

(١) ديوانها ٩٥ وأمالى القالى ١ / ٨٩ ، وانظر تفسير الحاجة فى البيت الأول ، فى ديوانها ، فى الموضع المذكور .

(٢) هى عزة ابنة أبى بصرة الغفارى حميد بن وقاص المحدث ، من بنى ضمرة بن بكر بن عبد مناف (وفى تزوين الأسواق ٣٩ عزة بنت جميل بن حفص بن إياس بن عبد العزى من بنى ضمرة) ، يقال : كانت حلوة همراء ، نظيفة ، بارعة الحديث ، دخلت على عبد الملك بن مروان ، فقال لها : أنت عزة كثير ؟ فقالت : أنا عزة بنت حميد (وفى أمالى القالى ٢ / ١٠٩ : « أنا أم بكر الضميرية ») قال : فما الذى أعجب كثير منك — وكانت إذ ذاك مسنة — قالت : كلا يأمر المؤمنين ، فو الله لقد كنت فى عهده أحسن من النار فى الليلة القرة ، وكانت بالمدينة ، ثم نزلت مصر ، فقصدها كثير ، فوافاها توفيت والناس منصرفون عن جنازتها ، فوقف على قبرها وقال :

أقول ونضوى واقف عند قبرها عليك سلام الله والبعين تسفح
وقد كنت أبكى من فراقك حبة فأنت لعمري الآن أنسأى وأنزح

انظر : أمالى القالى ٢ / ١٠٩ والأغاني ٨ / ٢٦ ومعاهد التنصيص ١ / ١٨٣ وعيون الأخبار ١ / ١٤٧

(٣) تزوين الأسواق ٣١

(٤) كذا قيل فى أمالى الزجاجي ٢٠ وذكرها فى بعض شعره .

هؤلاء هم المشهورون في تاريخ الحركة العذرية الأدبية ، في العصر الأموي ،
ونتاجهم الشعري هو أكثر ما وصل إلينا ، من الغزل العذري ، في هذا العصر .

ويعد جميل بن معمر أمير هؤلاء العذريين جميعا ، وإمامهم في هذا الضرب من
الغزل ، بهذا شهد النقاد ، والعلماء بالشعر ، من القدماء والمحدثين ، وأقوالهم في هذا
كثيرة .

من ذلك ، ما ذكره أبو الفرج الأصفهاني ، رواية عن ابن سلام من أن جميلا
مقدم على أصحاب النسيب ^(١) ، في الإسلام ، ومن القدماء من قدمه على العذريين في
الجاهلية والإسلام ، وقال : « والله ما لأحد منهم مثل هجائه ولا نسييه » ^(٢) .

وكان كثيرٌ يقدمه على نفسه ، ويتخذة إماماً في هذا الفن ، ويقول ، إذا سئل عنه :
« وهل — علم الله عز وجل — ماتسمعون إلا منه » ^(٣) ، ويقول : « هل وطأ لنا النسيب
إلا بجميل » ^(٤) .

كذلك كان تُصيب يشهد لجميل بالتفوق في النسيب ، ويصرح بالأخذ عنه ،
« قاتلا : ذاك إمام المحبين ، وهل هدى الله — عز وجل — لما ترى إلا بجميل » ^(٥) .

ولا يشكك في صدق شهادة هذين الشاعرين كونهما تلميذين لجميل ؛ ذلك أن
جميلا كان ينتمى إلى مدرسة شعرية عرفت بجودة الفن ، وعلو الكعب فيه ، فقد كان
راويّة هُذبة بن خشرم العذري ، وهُذبة كان رواية الخطيئة ، والخطيئة راوية زهير بن أبي
سُلَمى وابنه كعب ^(٦) ، وزهير أحد ثلاثة هم أشعر أهل الجاهلية .

ومثل هذا قال المحدثون عن جميل ، حيث عدوه أستاذاً للمدرسة العذرية كلها في
الإسلام ^(٧) .

(١) ابن سلام ٥٤٥ (المدني) والأغاني ٧ / ٧٥

(٢) الأغاني ٧ / ٧٥

(٣) المصدر السابق ٧ / ٧٣

(٤) نفسه ٧ / ٧٦

(٥) نفسه ٧ / ٧٦

(٦) نفسه ٨ / ٧٣

(٧) انظر : تاريخ آداب اللغة (زيدان) ١ / ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، وتاريخ الشعر العربي (البهيتي) ١٦٥

— ٤ —

أهم اتجاهات الغزل العذرى فى العصر الأموى :

أبرز ما يعالجه الغزل العذرى فى العصر الأموى ، ويعبر عنه مايلى :

١- شكوى الحرمان مع غلبة الهوى :

ليس من شك فى أن كل شاعر من هؤلاء العذريين كان يطمح أن تبلغ علاقته بصاحبته غايتها المشروعة التى يقرها الدين والمجتمع ، غير أنه لسبب أو لآخر يقف المجتمع فى وجه هذه العلاقة ، فيفرش طريقها بالشوك ، ويقم فيه الحواجز والسدود ، ويغدو الشاعر العاشق طريد الأهل أو الزوج ، مهددا منهم ، أو من السلطة الحاكمة معهم ، محجوزا عن رؤية صاحبته ، متربصاً به إن حاول .

ولم يكن الشاعر — عادة — ليرزجر بالتهديد ، أو يعترف بما أقامه المجتمع فى طريقه من موانع وعقبات اجتماعية شديدة الصرامة ؛ ذلك أنه ليس عاشقا فقط ، ولكنه شاعر أيضا ، يرى فى علاقته الغرامية مصدر وحي وإلهام لشاعريته ، فلا يقعد عن محاولة الاتصال بملمهته ، وكلما أخفق أمده الحرمان بوقود متجدد لعواطفه ، فتلتب وتتلظى ، ومن هنا تقوم بين العاشق والمجتمع خصومة ، تدور على المواجهة والتحدى ، يسلك فيها المجتمع سبيل التهديد بالقوة ، أو بالسلطة ، أو بهما معا ، ويحتمى فيها الشاعر بالشعر ، يث فيه حرقة الوجد ، وشقاء الحرمان ، وشبوبة الهوى .

وقد يتجه الشاعر بشكواه إلى صاحبته ، فيضع بين يديها أمر سعادته وشقائه ، ويشكو إليها بثه وحزنه ، عليها تعينه على ما ابتلى به من عشق ، فتجود بالوصل .

كذا فعل جميل ، ولكن بثينة ضنينة بوصالها ، مما أسقم جسمه ، وأثار شفقة العدو والصديق عليه ، حين يراه على هذه الحال ، بل إنه ليشير شفقة الحمام فيبكي لبكائه ، ومع ذلك لايزيده الحرمان من وصلها ، والبعد عنها إلا وجدا بها ، وشوقا إلى رؤيتها ، وهو يتحسر على أيام عمره التى تمضى ، وقد تفاجئه المنية ، قبل أن ينعم بقربها ^(١) :

(١) ديوانه ٢٢٠ والأغاني ٧ / ٩ وتنسب للمجنون فى ديوانه ٢٩٥ وتزين الأسواق ٦٩

وأنت التي إن شئت كدّرت عيشتي وإن شئت بعد الله أنعمت باليا
وأنت التي مامن صديق ولا عدوا يرى نضو ماأبقيت إلا رثى ليا
ومازلتم يابئن حتى لو أننى من الشوق أستبكي الحمام بكى ليا
ومازادنى النأى المفرق بعدكم سلوا ولاطول التلاقى تقاليا
ألم تعلمى يا عذبة الريق أننى أظل إذا لم ألق وجهك صاديا
وقد خفت أن ألقى المنية بغتة وفى النفس حاجات إليك كما هى

ونلاحظ هذه الإشارات السريعة ، التى تجعل من عفة هذا الغزل موضع نظر ، لما شابهها جميل من رغبة تم عنها هذه الإشارات : « يا عذبة الريق » و « فى النفس حاجات » .

كما نلاحظ المعنى الدينى فى البيت الأول « إن شئت بعد الله » ، وهذا التكرار الذى يؤكد إحساس الشاعر بالوفاء والدوام على العشق ، والذى يعتمد على تكرار ضمير المخاطبة (أنت) فى بداية البيتين الأولين .

وقد يبلغ ضيق العاشق بوطأة الحرمان الناشئ عن صرامة المواجهة الاجتماعية ، أن يتمنى أمنيات هى — على قسوتها وشذوذ بعضها — نوع من الهروب بالوهم من قسوة الواقع المحروم ، الذى يصعب احتماله .

من هذا قول جميل ^(١) :

ألا ليتنى أعمى أصم تقودنى بثينة لا يخفى علىّ كلامها

فهو يتمنى من فرط الإحساس بالحرمان ، لو كانت به هاتان العاهتان ، على أن تقوده بثينة ، اكتفاء بلذة الصحبة ، والشعور بأنها تحادثه ، وإن لم يسمع حديثها . وهذا المعنى من عجيب ماعبر عنه فى مقام الدلالة على قسوة الحرمان ، واليأس من النوال ، ولعل هذا ماجعل سكينه بنت الحسين تقول لجميل : أفرضيت من نعيم الدنيا وزهرتها ، أن تكون أعمى أصم ، إلا أنه لا يخفى عليك كلام بثينة !؟
والرضا من المعشوقة بالقليل ، بل بأقل القليل ، ظاهرة واضحة فى أشعار العذريين

ففى ظل الحرمان يقنع جميل بكل ماتجود به بثينة ، مهما كان هينا ، مثيرا لشماته
 الوشاة ، فهو يقنع منها بالرفض الصريح للوصال ، وبالرفض المقنع ، وبالوعد الكاذب ،
 وبالنظرة الخاطفة ، وبالعام ينقضى لا يرى فيه وجهها ، هو قانع بعشقها على كل حال ،
 وحسبه لذة الألم فى هذا العشق ، فهى التى تستمد منها موهبته الفنية زادا : (١) :
 وإنى لأرضى من بثينة بالذى لو أبصره الواشى لقرت بلبائله
 بلا ، وبأن لأستطيع ، وبالمنى وبالأمل المرجو قد خاب آمله
 وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى وأخيره لانتلقى وأوائله
 بل هو قانع بما هو دون ذلك بكثير ، أن يلتقى طرفه وطرفها فى نظرة إلى
 السماء (٢) :

أقلب طرفى فى السماء لعلها يوافق طرفى طرفها حين تنظر
 بمثل هذه المعانى استقر فى نفوس الناس الإحساس بعفة هذا الغزل ، بالمعنى
 المحدود للعفة ودلالته على تجنب ما حرمه الدين فى العشق ، كما أن لها دلالة أخرى على
 ماهو من خصائص هذا الغزل العفيف ، وهى أن هذا العشق لا يفسده ولا يغيره الحرمان
 الدائم .

هكذا فعل الحرمان بجميل ، فلتنظر ماذا فعل بإخوانه العاشقين العذريين ؟
 أما كثير فإن الحرمان يقنعه بأدى صور الوصل ، بمجرد أن تمر به عزة من بعيد ،
 دون أن تحادثه ، أو ترد على حديثه ، وهو مكتف بهذا ، قرير العين به ، فالذى يرضيها من
 هذا الوصل البخيل يرضيه ، إبقاء على مودتها ، وخوفا من أن تقطع ما بينهما بالهجر
 التام : (٣)

يقر بعينى ما يقر بعينها وأحسن شئ ما به العين قررت
 كأنى أنادى صخرة حين أعرضت من الصم لو تمشى بها العضم زلت
 صفوحاً فما تلقاك إلا بخيلة فمن مل منها ذلك الوصل ملت

(١) ديوانه ٦٨ والتذكرة السعدية ٥٤٨ . اللابل : الهواجس والوساوس .

(٢) ديوان المعانى ١ / ٢٦٧

(٣) الموشح ١٥٩ وخزانة الأدب ٢ / ٣٨٢ (بولاق) .

وتوبة بن الحمير^(١) كسابقيه ، لا ينال الحرمان من تمسكه بعشق ليلي الأحيلية ، على الرغم مما أثاره هذا العشق من عداء قومها ، وكثرة الوشاة بينهما ، بل على الرغم من أنه حرم حتى من مجرد الاستماع إلى حديثها العذب ، فهو قانع بلذة المعاناة التي تثير بكاءه وشعره^(٢) :

تَمَسَّكَ بِجِلِّ الْأَحْيَلِيَّةِ وَاطَّارَحَ عدا الناس فيها والوشاة الأدانبا
فإن تمنعوا ليلى وحسن حديثها فلن تمنعوا منى البكا والقوافيا
ويلاحظ أن توبة هنا يتحدث عن الوشاة ، كما تحدث جميل عنهم من قبل (لو ابصره الواشي) والحديث عن الوشاة والرقباء مستفيض في غزل العذريين ، والشكوى من تعقبهم للعشاق في كل مكان ، إنما هي صورة من موقف المجتمع الصارم من علاقتهم غير المشروعة بصاحباتهم .

والمعاناة من هذا الحرمان ، عنصر من عناصر التجربة العذرية في الغزل ، يحاول العذريون مداراتها عن الناس حيناً ، ويشونها في أشعارهم حيناً آخر .
فهذا توبة بن الحمير يغلبه الوجد ، ويرح به الألم ، حتى تظهر دلائل السقم على وجهه في ذبول عينيه ، واعتلال بدنه ، ولكنه مع ذلك يحاول جاهداً أن يخفي مابه ، إذا ما سألته سائل عن حاله ، بإظهار طيب الحياة ؛ ذلك أنه محسود على مجرد صلته بليلاه ، وإن جهل الناس أنه لم يفز يوماً بوصلها ، ومع ذلك فهو راض قانع بمجرد أن يُذكر بها^(٣) :

إذا الناس قالوا : كيف أنت وقد بدا ضمير الذي بي قلت : صالح
وأغبط من ليلى بما لا أناله ألا كل ما قرّت به العين طائح

(١) هو من بني خفاجة ، وهم بطن من بني عُقيل بن كعب ، ثم من بني عامر بن صعصعة ، كان شريفاً كثير العارة ، ورعوا أنه كان لصاً ، ونفت عنه ليل صاحبه هذه التهمة في شعر لها بديوانها (ص ٩٧) ، وشعر يحب ليل الأحيلية ، وشهرت به ، عاش أيام الراشدين ، لكنه لم يعرف بالغزل إلا في العصر الأموي ، وقتل في صراع قبلي ، في خلافة معاوية ، على يد بني عوف بن عامر بن عقيل سنة ٧٠ أو ٧١ هـ ، ومات ليلة سنة ١٠١ هـ في طريقها إلى قتيبة ابن مسلم الباهلي ودفن بقومس ، وقيل بخلوان . انظر : الأمل ١ / ٩٠ وأمالى الزجاجي ٥٠ والشعر والشعراء ١٦٩ والأغاني ١٠ / ٦٣ وسقط اللآلئ ١ / ١٢٠ ، ٢ / ٢٥٧ وتزوين الأسواق ٩٦ والاشتقاق ٢٩٩

(٢) ديوانه ٥١

(٣) ديوانه ٤٩ وتزوين الأسواق ٩٨ ومصارع العشاق ١٨٦

ومن هذا الباب قوله ^(١) :

وفى من هوى ليلي هوى لو أبته ولو كان أَعْدَى الناس لى كان ينصحُ
هوى لم تغيره الحروب ولم يزل على عهد ليلي أو يزيد فَيَرَحُ

إنه مقيم على عهدها ، شديدة المعاناة من وجده بها ، بحيث لو بث هذا الوجد إلى عدو لرق لحاله ، ونصح له بمحاولة السلوان ، ولكن هيهات !! فالخروب الكثيرة التي خاض غمارها ، لم تستطع — على أهوالها — أن تنقص من هذا الوجد ، وإنما هو يزداد مع الأيام رسوخا ، وهكذا العشق ، كما حددناه من قبل ، يزداد جِدَّةً بمرور الزمن ، وتوالي الحرمان .

ألم يقل أبو صخر الهذلي هو الآخر : ^(٢) :

فلم أر مثلي أَيْأَسْتُ بعد علمها بوى ولا مثلي على اليأس يطلبُ

ويستبد إحساس ألى صخر بالحرمان ، الذى طال ، وقسوة الهجر ، وقد بلغ المدى ، حينما يرى أليفين من الوحش مصطحبان لايفترقان ، فهما يرحان آمنين ، وهو مع هذا الإحساس ، وعلى الرغم من هذه المعاناة ، التى أسلمته إلى اليأس من الوصل ، لايريد لعشق ليلي (وهى بنت سعد وتكنى أم حكيم) أن يخبو شعاعه ، فليزداد هذا العشق فى قلبه يوما بعد يوم ، وليلة إثر أخرى ، حتى يلقاها يوم الحشر على عشقه المكين ^(٣) :

أما والذى أبكى وأضحك والذى أمات وأحيا والذى أمره الأمر

لقد تركتني أحسد الوحش أن أرى أليفين منها لا يروعهما الذعر

فيا هجر ليلي قد بلغت بى المدى وزدت على مالم يكن بلغ الهجرُ

ويساحبها زدنى جوى كل ليلة وبأسلوة الأيام موعدك الحشر

ولانحسب أبا صخر ، وهو يحسد الوحش ، إلا متمنيا أن لو كان مثله ، ليهرب بصاحبته من الواقع الأليم ، وهى أمنية ، تواكب أمنية جميل السابقة أن يكون أعمى أصم تفوده بشينه ، وللسبب نفسه الذى ذكرناه هناك .

(١) ديوانه ٥٦

(٢) الأغاني ٢١ / ٩٧

(٣) عيون الأخبار ٤ / ١٣٨ وأمالى المرتضى ١ / ١٤٩ والتذكرة السعدية ٤٣٨

وأسلوب النداء المتكرر هنا ، كأسلوب تكرار الضمير (أنتِ) في شعر جميل السابق ، من حيث دلالتها على الإحساس العميق بالمعاناة ، مع الإصرار على الوفاء ، ودوام العشق . وإذا كانت هذه الرغبة في الهروب من مواجهة المجتمع ومعاناة الحرمان ، مقبولة — على قسوتها — إلى حد ما — فإن أمنية كثير أبعد قسوة ، وأشد شذوذاً ، وأمعن في الدلالة على المعاناة :

ألا ليتنا ياعزُّ كنا لِيذَى غِنَى بعينين نرعى في الخلاء ونعزُّب
كلانا به عُرَّ فمن يرنا يقل: على حسنبا جَرَبَاءُ تُعدى وأجرب
إذا ماوردنا مَنَهلاً صاح أهله علينا فما تنفك تُرمى وتُضرب

وهل أدل على وطأة الحرمان ، وشدة الإحساس به ، وبالضيق من عالم الرقابة والوشاة ، وترصد الأهل ، من هذه الصورة ، التي يرفض فيها الشاعر كل صورة من صور الحياة في المجتمع الإنساني ، ويفضل أن يكون بعيداً أجرب ، وصاحبه ناقة جرياء ، يفر الناس منها ، ويزجرانها بعيداً عنهم ، فيظل وإياها منفردين في عالم الحيوان ، آنسين به ، بعيداً عن عالم الإنسان !!

وعند قيس بن ذَرِيح^(١) ما عند أصحابه السابقين ، فهو يعاني معاناتهم من الحرمان ، وهو راض بهذه المعاناة ، قانع بالجرمان ، وإذا كان جميل يكفيه أن تصادف

(١) قيس بن ذَرِيح الكناني ، من بني ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، أخو الحسين بن علي (ض) من الرضاع ، أَرْضعت أمه الحسين ، وكانت منازل قومه بظاهر المدينة ، وبها توفي سنة ٨٦ ، ولبنى صاحبه بنت الحباب ، من بني كعب بن خزاعة ، وكانت تحته ثم طلقها بأمر أبيه ، أو أمه ، ثم ندم ، وقال :
وفارقت لبنى ضلة فكأننى قُرِنت إلى العيسوق ثم هَوِيتُ
فياليت أُن مت قبل فراقها وهل يُرجعن قول المفرط ليث ...
واعتُلف في آخر أمرها ، فقيل — وهو الأكثر — ماتا على افتراقهما ، وقد سبقته إلى الموت ، فبكاهما على قبرها في شعره ، ثم أغشى عليه ، فمات بعد ثلاث ، ودفن إلى جنبها ، وقيل : إن ابن أوى عتيق توسط عند زوجها فطلقها ، وتزوجها قيس . فذلك قوله :

جزى الرحمن أفضل ما يجازى على الإحسان خيراً من صديق
فقد جرت لإخواني جميعاً فما ألفت كابين أوى عتيق
سعى في جمع شمل بعد صدع ورأى جُرث فيه عن طريق ...

فقال له ابن أوى عتيق : أمسك عن هذا ، فما يسمعه أحد إلا ظنني قواداً !!

انظر : تزيين الأسواق ٤٩ ومط اللال ٢ / ٧١١ ، ١ / ٣٧٩ والأغاني ٨ / ١٠٧ ومجالس ثعلب ٢٨٥ والشعر

والشعر ٢٣٩ والمؤتلف ١٢٠

نظرته إلى السماء نظرة بثنية إليها ، فيلتقى طرفاهما في الكون الفسيح ، بعيدا عن الأعين ، فإن قيس بن ذريح ، يرضيه مأرضى جميل ، بل أقل مما أرضى جميل ، أن يضمه ولبنى الكون الفسيح ، ليلا ونهارا ، فهما يستظلان بسماء واحدة ، ويلفهما ليل واحد ، ويرقان معا ضوء فجر واحد ، ويتنسمان معا هواء واحداً ، ويشاهدان شمساً واحدة ساعة الغروب ، وهكذا تتسع تجربة الشاعر ، وترحب مشاعره ، وينفسح خياله ، اتساع الكون كله ورحابته وانفساحه ، بأرضه وسماؤه : (١)

أليسْتُ لُبْنَى تحت سَقْفٍ يُكْنِها وإيأى ، هذا إن نَأَتْ لى نافع
ويَلْبَسنا الليلَ البَهِيمَ إذا دجا ونبصر ضوءَ الفجر والفجر ساطع
تطأُ تحت رجليها بساطاً وبعضه أطأه برجلي ليس يطويه مانع
ويقول: (٢)

وإن تَكُ لُبْنَى قد أتى دون قرها حجابٌ منيع مألٍيه سيَلُ
فإنَّ نَسِيمَ الجَوِّ يجمع بيننا ونبصرُ قرْنَ الشمس حين تنزل
وتجمعنَا الأرضُ القرار وفوقنا سماء نرى فيها النجوم تحول
ويأتى نُصيب بن رباح ، فيضيف إلى تجربة الحرمان بعداً آخر يؤكد به ، ثبات هؤلاء العذرين على عشقهم ، وإخلاصهم فيه ، حتى وإن أساءت المعشوقة ، وملت ، وهجرت ، وتعللت باختلاق الذنب ، وبالغت في كل ذلك ، حتى كأنما صارت حرباً على صاحبها (٣):

بزينب أَلِمْتُ قبل أن يرحل الركبُ وقل إن تَمَلَّينا فما مَلَكَ القلبُ
وقل إن قَرَبَ الدار يطلبه العَدَى قديماً ونأى الدار يطلبه القربُ
وقل إن أُنلَ بالحُب منك مودةً فما فوق مالاقيت من حِكَم حُبٍ
وقل في تجنيها لك الذنب إنما عتابُك من عاتبت فيما له ذنب
وقل لها ياءمَّ عثمانُ حُلَّتْسى أُسَلِّمُ لنا في حينا أنتِ أم حرب؟!

(١) سمط اللآلى ١ / ٦١٨ وأمالى القال ٢ / ٣١٩ بساطاً : عنى به الأرض .

(٢) تزيين الأسواق ٤٧

(٣) الموشح ١٦٤ وأمالى القال ٢ / ١٩٩

وهكذا تتشابه تجارب الحرمان في شعر هؤلاء العذرين جميعا ، فكلهم مكتوب
بناره ، وكلهم راض من صاحبه بأقل القليل ، أو بلاشئ ، وكلهم ثابت على عشقه ،
لا يهدد بمقابلة الحجر بمثله ، كما رأينا في بعض شعر الحسين .

كما تتشابه أساليبهم ، المعبرة عن هذا كله ، حتى في ظاهرة التكرار لبعض
الكلمات في أوائل الأبيات ، كتكرار فعل الأمر (قل) في شعر نُصَيْب السابق ، وتكرار
ضمير المخاطب (أنتِ) عند جميل ، وأداة النداء (يا) عند أبي صخر الهذلي ، وهذا مما
جعل الرواة يخلطون في نسبة أشعار بعضهم إلى بعض ، فينسب شعر جميل للمجنون ،
أو شعر المجنون لجميل ، ويروى في ديوانيهما ، وكذا يخلطون بين شعر المجنون وشعر قيس
بن ذريح ، وأمثال هذا كثير في المصادر التي روت أشعار هؤلاء العذرين .

٢- تمرد القلب على محاولة السلوى :

من الطبيعي أن تحدث الشاعر العذرى نفسه بمحاولة الخلاص من ألم العشق
المحروم ، العنيف ، الحار ، الذي لا يبرده وصل ، أو أمل في وصل ، وربما نزعت إرادته
العاقلة إلى الرغبة في السلوى ؛ إراحة لقلبه المعذب ، وتخلصا من لدغة الحرمان ، ولكنه ما إن
يشاور قلبه حتى يتمرد هذا القلب عليه ، ويخرج عن طوع عقله وإرادته ، ويحيل أملهما
في النسيان والسلوى إلى سراب ، فإذا بالشاعر قد فقد سلطانه على قلبه ، وإذا بهذا
القلب يندفع في تيار العشق ، غير مستجيب لنزوع إرادة ، أو منطق عقل .

شاع هذا في دنيا العشاق ، وغدا معلما من معالم العشق في غزلهم العفيف ، وفي
هذا يقول الخليفة هارون الرشيد : ^(١) « قلب العاشق عليه مع مشوقه » ، ويقول عروة
بن حزام ^(٢) :

ويُضمر قلبي عُذْرَهَا وَيُعِينَهَا عَلَى فَمَالِي فِي الْفَوَادِ نَصِيبِ

ويقدم جميل صورة من نزوع نفسه إلى التعزى ، وقد يئس من تحسس الطريق إلى
قلب بثنية ، أو فلنقل : أمضه الحرمان ، فتطلعت نفسه إلى السلوى ، والتفت إلى قلبه في
مناجاة متوسلة ، ومناقشة يستعين فيها بالعقل والمنطق ، محاولا صرفه عن عشق صاحبه ،

(١) ديوان المعاني ١ / ٢٨١

(٢) أمالي المرتضى ١ / ٤٥٩

ولكن يبدو أن التفاهم بين عقله وقلبه كان معدوماً ، وسلطان فكره على وجدانه كان مفقوداً ، فلم يُجده منطق ، ولم ينفعه تعقل^(١) :

ألا مَنْ لِقَلْبٍ لَا يَمْلُ فَيَذْهَلُ أَفْقُ فَالتَعَزَّى عَنْ بَشِينَةِ أَجْمَلِ
سَلا كُلِّ ذِي وَدٍّ عَلِمْتُ مَكَانَهُ وَأَنْتِ بِهَا حَتَّى الْمَمَاتِ مُوَكَّلِ
فِيَا قَلْبَ دَغْ ذَكَرِي بَشِينَةَ إِنِّهَا وَإِنْ كُنْتُ تَهَوَّاهَا تَضُنُّ وَتَبْخَلِ
وَقَدْ أَيَّاسْتُ مِنْ ثِيْلِهَا وَتَجَهَّمْتُ وَلِلْيَاسُ إِنْ لَمْ يُقَدَّرَ النَّيْلُ أَمْثَلِ
وَكَيْفَ تَرْجِي وَصْلَهَا بَعْدَ بُعْدِهَا وَقَدْ جُذِّ حَبْلُ الْوَصْلِ مِمَّنْ تُوْمَلِ
وَإِنِ الَّتِي أَحْبَبْتَ قَدْ حِيلَ دُونَهَا فَكُنْ حَازِماً وَالْحَازِمُ الْمُتَحَوِّلِ
هَبْنِي بِرِيَا نَلْتَهُ بِظُلَامَةٍ عَفَاها لَكُمْ أَوْ مُذْنَباً يَتَنَصَّلِ

وهكذا يمضي جميل في معالجة قلبه ؛ ليبرأ من هذا العشق اليائس ، ولكنه لا يجد في النهاية أية استجابة من قلبه ، لما يريد حمله عليه ، فهو لا يطاوعه ، ولا ينقاد لإرادته ، فليس له ، والحال هذه ، من سبيل إلا العودة إلى ثبينة يستعطفها ، ويتوسل إليها ، علّها ترحم هذا القلب المعذب ، والنفس المغلوبة على أمرها .

ولقد بهم جميل بالسلوى ، ويعقد العزم على النسيان ، ويحشد إرادته للمضي في هذه السبيل ، فما إن يضع قدمه على الطريق حتى يرده قلبه ، ويشيه عن عزمه ، ويوهي عزيمته^(٢) :

أَهْمَ بِسَلْوَى عَنْكَ ثُمَّ تَرُدُّنِي وَتُثْنِنِي عَلَيْكَ الْعَوَاطِفُ
وَيَصْرُخُ قَيْسُ بْنُ ذُرْجِجٍ عَلَى قَلْبِهِ : وَيَحْكُ !! تَمَاسْكُ ، وَاصْطَبِرْ ، فَقَدْ رَحَلَتْ
لُبْنَى ، وَمَا مِنْ سَبِيلٍ إِلَى وَصْلِهَا ، مَهْمَا عَلَا وَجِيحُكَ ، وَطَالَمَا عَشْتَ بِالْقَرَبِ مِنْهَا ، لَكِنْ لَمْ
يَكُنْ مِنَ الْفِرَاقِ بَدٌّ ، فَهَذِهِ سَنَةُ الْحَيَاةِ ، لَا تَجْمَعُ إِلَّا لِتَفْرُقَ ، وَكَمْ فَرَقْتَ بَيْنَ قُلُوبٍ قَبْلُنَا^(٣) :
كَأَنَّيَ وَالْهَ بِفِرَاقِ لُبْنَى تَهِمُ بِفَقْدِ وَاحِدِهَا ثُكُولُ
أَلَا يَا قَلْبُ وَيَحْكُ كُنْ جَلِيداً فَقَدْ رَحَلَتْ وَفَاتَ بِهَا الذَّمِيلُ

(١) ديوانه ١٥٩

(٢) ديوانه ١٣٢

(٣) الأغاني ٨ / ١١١ . الذميل : السير اللين .

فإنك لا تطيق رجوعَ لبني إذا رحلت وإن كثر العويل
وكم قد عشتَ كمّ بالقرب منها ولكنّ الفراق هو السبيل
فصبراً كلُّ مؤتلفين يوماً من الأيام عيشهما يزول
وله في ذلك (١) :

إذا أمرتني العاذلات بهجرها أبت كبد من قولهنّ صديع
وكيف أطيع العاذلات وجبها يورقني والعاذلات هجوع

لقد تشابه قلب قيس وقلب جميل في التمرد على إرادة التسلي، والتحول عن عشقهما المورق، فتشابهت معانيهما، في المناجاة، ومحاولة إقناع القلب بالانقياد لنزوع النفس والإرادة، كما تشابه أسلوبهما في التعبير والأداء، من حيث الاعتماد على أساليب: النداء (فيا قلب — يا قلب) والاستفهام: (ألا من لقلب — وكيف ترجى — وكيف أطيع — وكم قد عشت) والأمر: (أف — دع — كن حازماً — كن جليداً — فصبراً). ولكن كثيراً مثل هذه التجارب مع قلبه، الذي لم يكن أقل تمرداً على السلوان من قلب جميل أو قلب قيس بن ذريح، فقدنا زعته نفسه مثلهما إلى السلوى، ووقف قلبه عقبة في سبيلها؛ لأن عشق عزة قد تمكن في قلبه، وعلق به، وقاد زمامه، فوقع في أسره، وهيئات الفكاك، والنتيجة: الحرمان من نعمة الصبر والسلوان (٢) :

ولقد أردت الصبرَ عنك فعاقتني علقَ بقلبي من هواك قديمٌ
وهو كزيميليه السابقين طالما حاول حمل قلبه على هجر عزة؛ لأنها لم توف له يوماً بوعده، ولم تجد أبداً بوصل، فيأنى عليه قلبه، ويرى الموت دون هذا الهجر: (٣)
قضى كلُّ ذى ذنٍ فوفى غريمه وعزةٌ ممطولٌ مُعنى غريمها
إذا سمعتُ نفسي هجرها واجتنابها رأيتُ غمراتِ الموتِ فيما أسومها
ولأنرى كثيراً يختلف عن إخوانه العاشقين العذرين، فيما عبر عنه، في المبحث

(١) سمط اللآلى ١ / ١٣٣ وديوان المعاني ١ / ٢٧٤

(٢) ديوانه ٢٦ وديوان الصباية ١٧

(٣) ديوانه ١٤٣ وانظر: التذكرة السعدية ٥٣٦ . ممطول: يقابل بالتسويق . معنى: معذب . غمرات

الموت: شدته .

السابق ، من لواجع الشوق ، وعذاب الحرمان ، والصبر عليه ، وتمنى الهروب بعزة من وجه المجتمع ، الذى يتحدى علاقتهما ، ويحاربها ، فالمعانى متشابهة ، وأسلوب المعالجة متشابه ، وكذا نراه هنا ، وفى كل باب طرقة معبرا عن قصته مع صاحبه ، لا يكاد يختلف فى كل ذلك ، ولا يخرج بتجاربه عن أطر تجاربهم .

ومع هذا يشكك القدماء فى صدق تجارب كثير ، ويرمونه بالافتعال ، وقد ينسبون إليه شعرا يؤيدون به ذلك الشك ، وهذا الافتعال ، فيرون له : ^(١)

هل وصل عزة إلا وصل غانية فى وصل غانية من وصلها خلف
ويشفعون هذا بروايات تهمه بالكذب والإدعاء فى العشق ، فيذكرون أن عبد الملك بن مروان قال له : احلف لتصدقنى فيما أسألك عنه ، ففعل ، فقال : اختر بين أن أزوجك عزة ، أو أعطيك ألف دينار ، قال كثير : بل الألف دينار ^(٢) .

ويدو أن هذا الطعن على صدق صباغة كثير قد ذاع ، وتأثر به الرواة والنقاد بعد عصره ، فأقروا سابقهم على ما ارتأوا فيه ، فأبو هلال العسكري يقرر « كان جميل يصدق فى حبه ، وكثير يكذب ^(٣) » .

ومن قبله عقد أبو الفرج الأصفهاني فى كتابه الأغاني فصلا عنوانه : « من ذكر أن كثيرا كان يكذب فى عشقه ^(٤) » ، جمع فيه ماقاله سابقوه ، وما روه فى الحكم على التجربة الغزلية عند كثير ، فليراجعه من شاء .

ونحن لانملك إلا أن نتوقف أمام هذه الروايات والأخبار ، التى روى بعضها عن معاصرين لكثير ، ولكننا نشير إلى روايات أخرى ، قد تلقى بعض الضوء على مدى صواب هذه الأخبار والروايات الطاعنة على كثير .

من ذلك مايرويه أبو الفرج نفسه وابن سلام أن أهل الحجاز يقدمونه ^(٥) ،

(١) عيون الأخبار ٢ / ٢٩ ومصارع العشاق ٥٤

(٢) سبط اللآلى ١ / ١٣٧ ومصارع العشاق ٥٤

(٣) ديوان المعانى ١ / ٢٦٨

(٤) ٨ / ٣٨ وانظر ابن سلام ٥٤٥ (المدنى)

(٥) الأغاني ٨ / ٣٨ وابن سلام ٥٣٤ ، ٥٤٠

وما يذكره ابن سلام من أنه شاعر فحل ، ولكنه منقوصٌ حظُّه بالعراق ^(١) ، والملاحظ أن أكثر الروايات والأخبار التي تقول بكذبه في العشق عراقية !!

وروى يونس بن حبيب عن ابن أبي اسحاق قوله : « كان كثيرٌ أشعر أهل الإسلام » ^(٢) .

وقد نضيف إلى ذلك ، أن كثيرا كان على مذهب الشيعة الكيسانية ، الذين يغفلون في محمد بن الحنفية — كما مر — فرما كان لمذهبه أثر في طعن من طعن في صدق نسبه .

فإذا احتكنا إلى تجاربه الغزلية ، التي بين أيدينا ، فكما قلنا ، لانجد فيها بعمامة ، ما يجعلنا ننساق لهذه الأخبار والروايات ، فهي ، من الناحية الفنية ، تدور في فلك تجارب غيره ، من شعراء الغزل العذري ، في بيئة وعصره ، وتعبر عن معان هي من جملة معانيهم غالبا ، وتصطبغ أساليب في الأداء ، لا تختلف كثيرا عن أساليبهم المتشابهة في أشعارهم .

ولجنون ليلي ^(٣) عتاب على قلبه ، يدعوه إلى ترك الهيام بليلي ، والاعتصام بالإفاقة واليأس ، ففي اليأس راحة ، وإلا فلن يجد هذا القلب من يواسيه ؛ حيث قد سلا العشاق ، وقد آن له بعد هذا الأمد الطويل من عذاب العشق أن يتسلى ، ويسلو ^(٤) :
 ألا أيها القلب الذي لج هائماً بليلي وليدا لم تُقَطَّعَ نِئَمُهُ
 أفق، قد أفاق العاشقون ، وقد أبى لما بك أن تلقى طيبيا تلامه
 فما لك مسلوب العزاء كأنما ترى نأى ليلي مَعْرُماً أنت غارمه

(١) ابن سلام ٥٤٠ (المدي) .

(٢) المصدر السابق

(٣) اختلف في اسمه واسم أبيه على أقوال كثيرة ، قيل : والصواب أنه عامر بن الملوح (معاذ) بن مزاحم من كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، فهو عامري النسب ؛ ولذا عرف بجنون بني عامر ، شاعر متم ، سقط شهيد العشق ، بعد أن أصيب بالهزال ، وتغير اللون والجنون ، قال أبو عبيدة : تزايد الأمر به حتى فقد عقله ، وكان لا يقر في موضع ، ولا يأنس برجل ، ولا يعلوه ثوب إلا مزقه ، وصار لا يفهم شيئا مما يكلم به ، إلا أن تذكر له ليلي ، فإذا ذكرت ألقى بالبدائه ، ورجع عقله (مصارع العشاق ٢٣٧) ، ووجد بين أحجار بالبادية ميتا . وصاحبه ليلي بنت مهدي بن سعد ، يتصل نسبهما في كعب بن ربيعة ، فهي عامرية أيضا ، وكنيتها أم مالك ، قيل توفيت قبله . وحياته وقصة حبه وشعره موضع خلاف كثير ، قيل : توفي سنة ٧٠ هـ ، انظر : الأغاني ١ / ١٦١ ، ٢ / ٢ ، ومجمع اللآلئ ١ / ٣٥٠ ، وتزيين الأسواق ٥٢ ومصارع العشاق ٢٣٦ ، ٢٥٩ .

(٤) تزيين الأسواق ٥٧

أَجْدُكَ لاَ يَنْسِيكَ لَيْلٍ مُلَمَّةٌ ثُلُمٌ ، ولا يَنْسِيكَ عَهْدُاً تَقَاذُمُهُ ؟!

ونلتفت إلى قوله : « ألا أيها القلب » وقوله : « أفق » والاستفهام في البيت الأخير ، لنذكر المشابهة بينه وبين زملائه العذريين في هذه الأساليب ، التي أبرزناها عند غيره ، أما معانيه ، فهي تدور حول النزوع إلى السلوان ، والعجز عنه ، لأن العشق ممكن ، والقلب متمرد ، لا يستجيب لعقل أو إرادة ، وهي المعاني التي رأيناها عند سابقيه ، ونراها عند الآخرين .

ومادام قلب المجنون لم يطاوعه ، فقد غدا على يقين من أمر هذا القلب ، ولم يعد يحاول حتى مجرد التفكير في صرفه عن ليلاه ، لعقم هذه المحاولة ، مادام عشقها ناشبا في قلبه ، شديد التمكن منه ، مهما زجر عنه ، فلن ينزجر ^(١) :

وقالوا : لو تشاء سلوت عنها فقلت لهم : فإني لأشاء
وكيف وحبها غلق بقلبي كما علقت بأرشيّة دلاء
لها حبّ تنشأ في فؤادي فليس له — وإن زجر — انتهاء
وعاذلة تقطعنى ملاماً وفي زجر العواذل لي بلاء

فقد اجتمع عليه بلاء العشق ، وبلاء العذل ، والشكوى من العذل والوشاة والرقباء ، من الظواهر المميزة في غزل العذريين ، وقد لاحظناها في نماذج سابقة لغير المجنون .

وتوبة بن الحمير يصرح كذلك بأن قلبه عصاه حين أراد صرفه عن حب ليل الأخيلىة ، ويتمنى لو كان أطاعه ، إذن لاستراح من عذاب الهوى ، ولوم اللاتمين ^(٢) :
يلومك فيها اللاتمون نصاحاً فليت الهوى باللاتمين مكانيا
لو أن الهوى عن حب ليل أطاعنى أطعت ولكن الهوى قد عصانيا
ويشارك أبو صخر الهذلي في هذا الاتجاه الغزل في شعر العذريين ، فمن تجاربه أنه كثيرا ما حاول أن يفك أسار قلبه من رقة الهوى ، فيمضى إلى صاحبه ليعلنها بأنه اعترم

(١) ديوانه ٤٢ . الأرشية : جمع رشاء ، وهو الخيل .

(٢) ديوانه ٥٣

هجرها ، وسلّ هواها من بين أضلعه ، فما إن يراها حتى يخر قلبه صريع العشق ، وتتناهى
أعراضه ، فيهتز كيانه كله بمجذبة الوجد ، ويهت ، فينسى ما كان قد اعتزم من الصرم ،
ولا ييادها بلوم ، أو عتاب ، خشية أن تحرمه رؤياها ، وتقطع واهى حبل وصالها ، ولكن
فعلت ، فيالسوء العاقبة : (١)

لقد كنتُ آتياً وفي النفس هجرها بتاتاً لأخرى الدهر ماطلع الفجر
فما هو إلا أن أراها فجاءة فأبته لاعرفٌ لدى ولا نُكر
وأنسى الذي قد كنت فيه هجرتها كما قد تُنسى لُبُّ شاربها الخمر
ويمنعني من بعض إنكار ظلمها إذا ظلمت يوماً وإن كان لي عُذر
مخافةً أني قد علمت لئن بدا لي المهر فيها ما على هجرها صبر
وإنّي لأدري إذا النفس أشرفت على هجرها ما يلفن بي المهر

هذا هو النمط العام في تجارب هؤلاء الشعراء العذريين ، يبدأ باتجاه إرادة الشاعر ،
ونزوع نفسه إلى السلوى ، أملاً في الخلاص من بلاء الحرمان ، وينتهي بتأني قلبه ،
وانسياقه في هواه ، وبين البداية والنهاية ، تتلون معاني هؤلاء الشعراء ، وتختلف بعض
صورها ، ولكنها تظل — عادة — دائرة في فلك هذا الإطار ، لاتكاد تتجاوزه .

غير أن قيس بن ذريح يحاول الخروج من رتابة التجربة ، بإحداث بعض التحوير
في إطارها العام ، فقلبه هو الذي يبدي الصبر والتجلد ، موهما صاحبه بالقدرة على
السلوان ، حتى إذا ما انقادت نفسه لهذا الوهم ، بان له أن هذا القلب قد خدعه وغواه
وعاد فانهار لوعة وصباية ، يذيق قيساً مرارة الوجد والحرمان ، فينحو عليه الشاعر
باللائمة ، وينذره بالموت كمدأ ، أو العيش مُعْنًى ، لأنه لن يطيق وطأة الحرمان (٢) :

أحدثنني يا قلب أنك صابر على المهر من لبنى فسوف تذوق؟!
أطعت وشاةً لم يكن لك فيهم خليلٌ ولا دان عليك شفيق
فمت كمدأ أو عيش مُعْنًى فإنما تحملني مالا أراك تطيق

(١) أمالي القالي ١ / ١٤٩ وانظر : تزيين الأسواق ٩

(٢) التذكرة السعدية ٥٢٤ والبيت الأول والثالث مرويان لمضرس بن الحارث المزني في ضمن قصيدة طويلة ، في

أمالي القالي ٢ / ٦٣

ومع ذلك فقلب الشاعر في النهاية هو المتمرد على السلوى ، والشاعر يلقي عليه مسئولية هذا التمرد ، فعاد الشاعر بذلك ليشارك إخوانه العذريين في هذا الاتجاه .

٣- صدق الصباية في العشق :

لايفتأ الشعراء العذريون يرددون التعبير عن صبايتهم ووجدهم بمن يتعشقونهم ، يقبلون فيه المعاني ، ويفتتون في الصور ، ثم يتعاورونها ، فتصير حقلا مشاعا بينهم ، تعينهم على ذلك المعاصرة ، أو قرب الزمن ، كما يساعدهم عليه ماعرف من رواية بعضهم لبعض ، أو تناشدهم أشعارهم فيما بينهم .

وهذا يفسر مانجده أحيانا ، من تكرار المعنى الواحد بعبارة تقريبا ، في شعر الشاعر الواحد أو في أشعار غير واحد منهم ، التي تصور صبايتهم ووجدهم في العشق ، كالذى نراه في قولهم :

- فإن يمنعوا عينيّ منها فمنّ لهم بقلبٍ له بين الضّلوع وجيب !!
 - فلن يمنعوا عينيّ من دائم البُكا ولن يخرجوا ماقد أجنّ ضميري
 - فإن تمنعوا ليليّ وحسن حديثها فلن تمنعوا عنيّ البُكا والقوافيا
 - فما هو إلّا أن أراها فُجاءةً فأبُتّ حتى ماأكاد أُجيب
 - فما هو إلّا أن أراها فُجاءةً فأبُتّ لاعرفٍ لدىّ ولا نُكُرُ
 - وإنيّ لتعرونيّ للذكراك هزة لها بين جسمي والعظام دبيب
 - وإنيّ لتعرونيّ للذكراك هزة كما انتفض العصفور بللّه القطر
- وغير ذلك كثير في تجارب صبايتهم .

وهذا التعاور للمعاني كان من العوامل التي جعلت أشعارهم تتشابه ، ويتداخل بعضها في بعض ، حتى ليصعب أحيانا تحقيق نسبة بعض الأشعار إلى من قالها منهم ، هذا فضلا عن تشابه تجاربهم ، وأساليب التعبير عنها ، على النحو الذي ذكرناه من قبل .

ويشعر القارىء لصور تجارب العذريين في الصباية أنه يإزاء شعر تشيع فيه حرارة العاطفة ، وتشع منه الأشواق ، وتتجلى فيه خلجات النفس ، من فرحة باللقاء ، إلى ألم للفراق ، ومن أمل في الوصل ، إلى يأس من النوال ، ومن إظهار التجلد والصبر ، إلى الخضوع التام ، والتسليم الحزين ... وهكذا .

ومن هنا طبعت أشعارهم بطابع حزين ، فهم لا يتحدثون عن تجارب سعيدة في العشق ، كما كان يفعل شعراء الغزل الحسى غالبا ، بل يتحدثون عما يحرق قلوبهم من لواعج الشوق ، وما قدر عليهم من حرمان ، وما يبعثه الحرمان من آلام وأحزان ، والحرمان يرسب العواطف ، ويمكن جذورها من النفس ، فتصدر هذه العواطف أكثر عمقا ، وأعنف انفعالا .

فلنقف مع جميل في تجربة من تجاربه في الصباية ^(١) :

وما ذكرتك النفسُ يابئُ من مرةٍ من الدهر إلا كادت النفسُ تتلفُ
والأعرنُ عربةً واستكانةً وفاض لها جارٍ من الدمع يذرفُ
وما استطرفت نفسي حديثا لخليةٍ أسرُّ به إلا حديثك أطرفُ
لعمرك لا ينفك حُبك فاعلمى جوى لازمى مادامت العين تطرفُ

فالقراءة المتذوقة لهذا الشعر تهدي إلى مافيه من عمق العاطفة ، وصدق الصباية ، إن مجرد ذكر بشية يستدر دمع جميل ، بل يكاد يخنقه بهذا الدمع ، ولننظر كيف تستكين نفسه ، وتستسلم للبكاء كلما ذكرها؟! وكيف تُجمل العاطفة الصادقة كل ما يتصل بالحبيب؟! فحديث بشية عند جميل أشهى من كل حديث ، أما وفاؤه لها ، وهيامه في عشقها فلن يتخلى عنهما إلا بالموت .

ودلائل هذا الإخلاص والوفاء والهيام كثيرة عند جميل ، منها ما يقسم عليه ، من أن جلده لم يمس غير جلدها دون حائل!! ولا صافحت بشرته بشرة لغيرها ، ويدعو على نفسه بالعمى إن كان كاذبا — كما تمنى العمى والصمم من قبل — وكيف يكذب ، وهو الذى إن مات ورُقِيَ بكلامها لدبت فيه الحياة ^(٢) :

حلفتُ يمينا يابئينة صادقاً فإن كنت فيها كاذباً فعميتُ
إذا كان جلدٌ غير جلدك مسنًى وياشرفنى دون الشعار شريتُ
ولو أن راقى الموت يرقى جنازتى بمنطقها فى الناطقين حيثُ
وهو القائل ^(٣) :

(١) ديوانه ١٣٢ . الخلة : الصداقة .

(٢) الموشح ١٥٩ والتذكرة السعدية ٥٠٣

(٣) المصدران السابقان

خليلى هل فيما عشتما هل رأيتما قتيلاً بكى من حب قاتله قبلى ؟
 وإن قرئت لاينقع القرب عندها وإن بُعدت زادتك خَبِلاً على خَبَلٍ
 وتتوافر دلائل الصباية عند جميل فى تجارب عديدة من أشعاره .

وإذا كنا قد رأينا جميلاً يهيج ذكر بيثية ، فإن أباً صخر الهذلى يحرك ذكر
 صاحبتة أيضاً كوامن العشق والصباية فى قلبه ، ولكنه لايعتريه الاستكانة التى تعترى
 جميل ، بل ينتفض جسمه كله وجداً وصباية ، كانتفاض العصفور إذا بلَّله القطر : (١)
 وإنى لتعرونى لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلَّله القطرُ
 صدقت ، أنا الصبُّ المصاب الذى به تباريح حب خامر القلب أو سخر
 هل الوجد إلا أن قلبى لودنا من الجمر قيد الرمح لاحترق الجمر ؟!

وهنا يستبطن أبو صخر إحساسه بالعشق ، ويقترّب من حقيقته ، التى عنها
 المفسرون لفلسفة العشق وكنهه ، بقولهم : إنه أشبه بقوى خفية ، فيراها أبو صخر فى
 صورة من صور القوى الخفية ، صورة السحر .

ويحتاج أسلوب الاستفهام عند أبى صخر (هل الوجد ...) وعند جميل (هل فيما
 عشتما هل رأيتما) وفى صور تجارب غيرهما ، إلى وقفة تفسر سرّ هذا الأسلوب المتكرر فى
 أشعار العذريين .

والذى نراه ، أن التجربة العاطفية عند الشعراء العذريين ، لما كانت تجربة استبطانية
 داخلية فى المقام الأول ، وكان التجاوب بينهم وبين عالم الناس من حولهم يكاد يكون
 معدوماً ، فإنهم يلجأون إلى التساؤل ، الذى قد يوجهه الشاعر منهم لنفسه أحياناً ، أو إلى
 من يتخيله — تجريداً — من الصحاب أو إلى صاحبتة ، أحياناً أخرى ، دون أن ينتظر
 منهم جواباً ، وإنما يُتبع الشاعر سؤاله بجواب من عنده ، أو تقرير ، يمثل الحركة النفسية
 الداخلية المنطوية على الحيرة والدهشة والقلق (٢) .

وإذا كان جميل أيضاً قد رأى فى بعض صوره أن الموت وحده هو الذى ينهى
 هيامه بيثية ، فإن الأمر ليس كذلك عند توبة بن الحمير ، الذى يصرح بأن الموت لن

(١) الأغاني ٢١ / ٩٧ وعيون الأخبار ٤ / ١٣٩ وأمالى القالى ١ / ١٥٠

(٢) فى الشعر الإسلامى والأموى ١٦٢

ينسيه كلفه وهيامه بليلى ، دليل هذا أنها لوخاطبت جسده المسجى فى القبر بعد الموت ،
لدبت فيه الحياة ، وأسرع يلبى النداء ، ويرد التحية ، على الرغم مما يحول بينه وبينها من
حجارة القبر ، وصخوره العريضة : (١)

ولو أن ليلي الأخيلىة سلّمت علىّ ودونى جَنَدَلْ وصفائح
لسلّمت تسليم البشاشة أو رَقَا إليها صدى من جانب القبر صائح

وهذا المعنى ، على ما فيه من مبالغة ، مصيب فى إيجائه بعمق المشاعر التى يمكنها
الشاعر لليلة ، كما أنه يشعرنا بمدى الحرمان ، الذى كان يعانیه توبة وأصحابه العذريون ،
ذلك الحرمان ، الذى جعل من مجرد سماع صوت الحبيبة أمنية لها تأثير بالغ فى قلوبهم .

ولعل هذا هو سر تردد هذا المعنى فى أشعارهم ، نجدّه هنا عند توبة ، ورأيانه من
قبل عند جميل :

ولو أن راقى الموت يرقى جنازقى بمنطقها فى الناطقين حيث
ونرى قريباً منه عند أبى صخر الهذلى فى قوله : (٢)

ولو تلتقى أصدائنا بعد موتنا ومن دون رَمْسِنَا من الأرض سَبَسَبُ
لظل صدى رَمْسَى ولوكنت رَمَّةً لصوت صدى ليلي يَهَشُّ ويَطرب

وهذا الذى يذكره أبو صخر (أو المجنون إذ تنسب الأبيات إليه فى بعض المصادر)
أقوى مما ذهب إليه توبة ؛ لأن تلاقى رُوحى ميتين أعظم فى جانب المبالغة من تلاقى حى
وميت ، وهذا ما يختاره الحكماء أيضاً ، فهم يقولون : إن استلذاذ الأرواح وإدراكها ، بعد
مفارقة الهياكل الجسمية ، أشد وأقوى (٣) .

ونجدّه عند قيس بن ذريح أيضاً ، غير أن قياساً ، يضيف إلى المعنى ما يجعله أدخل
فى باب التصور ، منه فى باب الافتراض ، كما يفهم من لفظة (لو) فى شعر جميل وشعر
أبى صخر .

(١) ديوانه ٤٨ . رقا : صاح .

(٢) الأغاني ٢١ / ٩٧ وتزيين الأسواق ٦٥ وينسب أيضاً لمجنون ليلي ، فكل منهما تدعى صاحبه ليلي .

(٣) تزيين الأسواق ٦٥

فروح قيس ولبنى قد تآلفتا في عالم الأرواح قبل أن يولدا ، ثم وهما بعد نطفة ، ثم في مهد الطفولة ، ونما هذا التآلف بنموهما ، ومن ثم ، فلن يضيع بموتهما ، بل سيتآلفان أيضا بعد الموت : (١)

تعلّق روحى روحها قبل خَلْقنا ومن بعد ما كنّا نطافاً وفي المَهْد
فَراد كما زَدْنَا فأصبح نامياً فليس وإن مِنّا بمنفصم العهد
ولكنّه باقٍ على كلِّ حادثٍ وزائرنا في ظلمة القبر واللّحد

وإذا كان هذا هو إحساس قيس بن ذريح بالصباية ، ومدى وثاقة علاقته بلبناه ، فلا يمكن إلا أن يكون صادقا وهو يحكى تجاربه في الوجد والصباية بصاحبته .

فهو يسقط صريع هوى لبنى ، وتعوده العائدات ، يسأله ما به ؟ وليس به من داء إلا عشقها ، والعشق داء شديد عند أمثاله ، ولادواء له إلا وصل المعشوق ، ويظل قيس متربّحاً رؤيا لبنى بين العائدات ، ففي رؤياها شفاؤه ، وإنه ليتمنى أن تحقّق هذه الأمنية ، ثم يموت ، ولكنها لا ترقّ لحاله ، فيا ويُح عقله ، لقد حُبل ، ووارحمته لقلبه ، الذى هدّه العشق (٢) :

عَيْدٌ قيسٌ من حبِّ لبنى ، ولبنى داءٌ قيس والحُب داءٌ شديد
وإذا عادنى العوائدُ يوماً قالت العين لأرى مَنْ أريد
ليت لبنى تعودنى ثم أقضى إنها لاتعود فيمن يَعُودُ
ونح قيس لقد تضمّن منها داءٌ خَبِلَ فالقلب منها عميد

وهو الذى أغلق عينيه عن كل مرأى سواها ، وقلبه دون كل عشق عدا عشقها ، وأذنه عن كل صوت إلا حديثها : (٣)

كأنى أرى الناس المحيين بعدها عصارة ماء الخنظل المتفلق
فتنكر عيني بعدها كل منظرٍ ويكره سمعى بعدها كل منطق

(١) عيون الأخبار ٢ / ١٤٥ ويزين الأسواق ٤٦

(٢) الأغاني ٨ / ١١٥ ويزين الأسواق ٤٦ . عيد قيس : مرض فعادته العائدات ، أى الزائرات . داء خيل : أى اضطراب في العقل . عميد : يعنى هدّه العشق .

(٣) الأغاني ٨ / ١١٠ ويزين الأسواق ٤٥

وليس هذا بغريب مادامت روحه فد تآلفت مع روح لبنى ، منذ أن كانتا في عالم الأرواح ، كما حكى من قبل .

ونصيبُ بن رباح له تجاربه أيضا في الصباية والوجد بأُم بكر ^(١) ، كابد من العشق مثل مالمقى فيه إخوانه السابقون ، وشقى به مثل شقائهم ، وعف كما عفوا :
 وفي كرمٍ عن الفحشاء ناءٍ كبعد الأرض عن جوِّ السماء
 وبث القريض أشجانه كما بثوا ^(٢) :

أرقُّ المُحبِّ وعاده سُهُدٌ لَطوارقِ الهمِّ التى تَرُدُّه
 وذكرت من رَقَّتْ له كبدي وأبى فليس ترقِّ لى كبْدُه
 ووجدتُ وجداً لم يكن أحدٌ من أجله بصابةٍ يجْدُه
 إلّا ابن عَجَلانَ الذى ثَبَلْتُ هندُ ففاتَ بنفسه كمدُه

فمجرد الذكر يهيج عليه الصباية ، ويحرك الأشجان ، فيجأر بالشكوى مما يجد ،
 تماما كما رأينا عند جميل وأبى صخر الهذلى ، ومن قبلهما عروة بن حزام ، في قوله :
 وإئنى لتعرونى لذِّكرارك هزّة لها بين جسمى والعظام ديبُ
 وينمى المجنون تجربة الصباية والوجد ، فيشرك فيها عناصر الطبيعة ، ويتخذ منها
 مثيرا لبث مايلقى من شقاء العشق .

فهو يرى في الظباء شبا بليلى ، ولذا سرعان مايفيض عليها من حبه وحنانه ، حتى
 ليرى صيدها حراما : ^(٣)

راحوا يصيدون الظباء وإننى لأرى تصيّدُها على حراما
 ويناجيها ، ويثنها أشواقه إلى شبيها : ^(٤)
 أيا شبه لئلى لاثرعى فإننى لك اليوم من بين الوحوش صديقُ

(١) تدعى زينب بنت صفوان بن غازى من بنى كنانة ، وكان نصيب يلهج بعشقها ، ويكى من حرقه الوجد بها ، إذ لا سبيل إلى وصلها لضعفه نسبه عند العرب وقيل : بل تزوجها : فماتت عنده . انظر : الأغاني ١ / ١٢٥ وسمط اللآلى ١ / ٢٩١

(٢) الأغاني ١ / ١٣٨

(٣) تزيين الأسواق ٤٠

(٤) سمط اللآلى ١ / ٣٨٠

ويأشبه ليلي لو تُقِيمَنَّ ساعةً لعل فؤادي من جَوَاهُ يُفِيقُ
فديتُك من أسْرِ دهاك لحبا فأنت لليلي ماحييتُ طليق
وقد تستجيب لمشاعره عناصر الطبيعة ، فتشاركه إياها ، وتناجيه كما يناجيه ،
ويسألها فتد الجواب ، وترق له ، كما رق لها : (١)

وأجهشتُ للتَوَادٍ حين رأيته وكبرَ للسرَّحان حين رآني
وأذريتُ دمع العين لما عرفته ونادى بأعلى صوته فدعاني
فقلت له : قد كان حولك جيرةٌ وعهدى بذاك الصُّرم منذ زمان
وقلت له : أين الذين عهدتُهُم بقريك في حفظٍ وطيب أمان ؟
فقال : مضوا واستودعوني ديارهم ومَنْ ذا الذي يبقى على الحدثان ؟

وما أكثر تجارب المجنون في الصبابة ، وكلها حار ملتهب بالشوق ، مفعم
بالإخلاص والوفاء ، شديد الإيحاء بهما وبالحنن الصادق ، تتعاقب فيها المعاني والألفاظ
والصور لتحكى صدق المعاناة :

فالويل له كل الويل إذا ماجنه الليل ، حيث ينفرد بنفسه ، بعد أن ولّى النهار ،
وولت معه الأماني ، وما كان يسلى به نفسه ، من الحديث مع الصُّحاب ، وأصبح هو
والهم حليفين ، وليت النوم يوافيه ، ولكن هيهات أن يهنا له المضجع ، والحنين إلى ليلي
يؤرقه ، وهو حنين دائم ، يوججه عشق راسخ في القلب ، لا يفصم عنه : (٢)

نهارى نهارُ الناس حتى إذا بدا لى الليل هزّنتى إليك المضاجع
أقضى نهارى بالحديث وبالمنسى وبجمعنى والهم بالليل جامع
لقد ثبتت في القلب منك مودةً كما ثبتت في الراحتين الأصابع

والملاحظ أن شعراء الغزل العذري ، لا يكادون يلتفتون إلى الطبيعة ، باعتبارها
خلفية للتجربة العاطفية ، أو كإطار للصورة الشعرية ، هم حقا يشركون عناصر من

(١) أمالي المرتضى ٢ / ٣١٠ وتزيين الأسواق ٥٩ . التوباد : جبل بموطن المجنون كان يرعى الغنم مع ليلي عنده

صغيرين .

(٢) ديوانه ١٨٥ والبيان الأولان لقيس بن ذريح في تزيين الأسواق ٥١ ، قيل : كان المجنون يتمثل بهما (انظر :

تزيين الأسواق ٥٣) وهما للمجنون في مصارع العشاق ٤٢٠ والثلاثة لقيس بن ذريح في أمالي القائل ٢ / ٣٢٠

الطبيعة في بعض صور تجاربهم ، كجبل التوباد في شعر الجنون ، والظباء عنده أيضا ، والليل أو الشمس ، أو القمر ، أو الأماكن ، عنده وعند غيره ، ولكنهم يربطون هذه العناصر ربطا سريعا بالتجربة العاطفية ، دون أية محاولة للتفنن في استقصاء الصورة الفنية للطبيعة ، فهي عندهم مجرد مثيرات تفجر عواطفهم ، فالليل هنا عند الجنون — مثلا — مجرد مثير لكوامن الأشجان ، التي غطى عليها سعى الشاعر بين الناس نهارا ، واشتغاله معهم بالحديث ، أو بما يشغلون به أنفسهم ، من شواغل حياتهم ، كما أن القمر والنجوم والرياح مجرد رموز سريعة للجمال ، أو الهم الطويل ، أو الشوق المبرح ، ولأنكاد نستثنى من تلك العجلة في الإلمام بمظاهر الطبيعة إلا حديثهم عن الورق والحمام ، وما يشبهه بكاؤها في نفوسهم من أشواق وأشجان ^(١) .

ثم هل عرفت أيها القارئ صنوف العشق ؟ بل هل علمت للعشق صنوفا ؟ لقد كابد قيس بن ذريح من عشق لبنى أصنافا ، لا يعرفها غيره من الناس ، راح يعدد طائفة منها ، ويعرفنا بها تعريف خبير بها ، عانى من آثارها ، واكتوى بلظاها: ^(٢)

أحْبَبْتُ أَصْنَافًا مِنَ الْحُبِّ لَمْ أَجِدْ	لَهَا مِثْلًا فِي سَائِرِ النَّاسِ يُوصَفُ
فَمِنْهُمْ حُبٌّ لِلْحَبِيبِ وَرَحْمَةٌ	وَمَعْرِفَةٌ مِنْى بِمَا يَتَكَلَّفُ
وَمِنْهُمْ أَنْ لَا يُعْرَضَ الدَّهْرُ ذِكْرُهَا	عَلَى الْقَلْبِ إِلَّا كَادَتْ النَّفْسُ تُثَلِّفُ
وَحُبٌّ بَدَأَ بِالْجَسَمِ وَاللَّوْنِ ظَاهِرٌ	وَحُبٌّ لَدَى نَفْسِي مِنَ الرُّوحِ أَلْطَفُ
وَحُبٌّ هُوَ الدَّاءُ الْعِيَاءُ بَعِينُهُ	لَهُ ذِكْرٌ تَغْدُو عَلَى فَادَنْفُ
فَلَا أَنَا مِنْهُ مُسْتَرِيحٌ فَمَيِّتٌ	وَلَا هُوَ مِنْى مَاحِيَتٍ مُخَفَّفُ

فقلبه يجمع لِلْبَنَى كل هذه الألوان من الحب ، منها : حب الرحمة ، وحب الشوق والحنين ، وحب النفس والروح ، وحب الضنى والسقم ، وأخيرا هذا الحب ، الذى هو الداء العياء ؟!

٤ — أثر الحب في اعتلال الجسد :

تحدثنا في صدر هذا الفصل عن العشق وسلطانه على القلب ، وهيمته على سائر

(١) للاستزادة انظر : في الشعر الإسلامى والأموى ١٣٤

(٢) التذكرة السعدية ٥٥٧ وانظر : ديوانه ١٢٤ والأغاني ٨ / ١٢٧ وانظر في التعليق عليها : القيم الروحية و

الأعضاء ، وآثاره فيها ، من رَعْدَةٍ في الأطراف ، وصفرة في الأبدان ، ولجلجلة في اللسان ، وضعف في الرأي .

وقلنا أيضاً: أن العفيف منه ينحل البدن ، ويسقم النفس ، وقد يفضى إلى خبل في العقل ^(١) .

ومرت بنا روايات مأثورة فيما أصاب العشاق الأعفة من علل في الجسم والعقل ، أودت بأرواح بعضهم ، نذكر منها ما تحدّث به سعيد بن عقبة الهمداني ، من أنه سأل أعرابيا من بني عذرة : ممن الرجل ؟ فقال : من قوم إذا عشقوا ماتوا ، فقال سعيد : عذري ورب الكعبة !!

وما حدّث به عروة بن الزبير ، من قوله لعذري : إنكم أرق الناس قلوبا ؟! فقال : والله ، لقد تركت ثلاثين شابا خامرهم السل ، وما بهم داء إلا الحب ^(٢) .

وأيا ما كان نصيب هاتين الروائتين وأمثالهما من الصحة والواقعية ، فإن شعر العذريين نفسه خير شاهد على ماتشير إليه ، من كون العاشق العذري مبتلى في صحته ، مصاباً في بدنه ، مسقماً في نفسه .

وهذا أمر طبيعى تقرره قواعد الصحة النفسية والبدنية ، فالهم ، وشدة الوجد ، والقلق ، والتأرجح بين اليأس والرجاء ، والاضطراب والحيرة والتردد فيما ينبغي أن يفعلوا ، وما لا ينبغي ، خشية فقد رضا الصواحب ، على النحو الذى نراه في قول أحدهم ^(٣) :

شكوتُ ، فقالت : كل هذا تبرُّمٌ بحبِّي أراح الله قلبك من حبِّي
فلما كتمت الحب ، قالت : لشدُّ ما صبرت ، وما هذا بفعل شجى القلب
وأذنو فتعصينى فأبعد طالباً رضاها فتعتد التباعد من ذنبى
فشكواى تؤذيها وصبرى يسوءها وتزع من بُعدى وتنفر من قرنى
فيا قوم ، هل من حيلة تعرفونها أشيروا بها واستوجبا الشكر من ربى

ويصور جانباً من هذا الهم والقلق ، والاضطراب قول نصيب ^(٤) :

(١) راجع ص ٤٢٥ من هذه الدراسة

(٢) راجع ص ٤٢٩ من هذه الدراسة

(٣) ديوان الصباية ١٤٣

(٤) تزيين الأسواق ٨٤ وانظر شرح الحماسة للمرزوق ٣ / ١٣٣٩

ومافى الأرض أشقى من محب وإن وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكيا أبداً حزناً محافة فرقة أو لاشتياق
فيكى إن نأوا شوقاً إليهم ويكى إن دنوا خوفاً الفراق
فتسخن عينه عند التناى وتسخن عينه عند التلاق

فما ظننا بمثل هذا الباكي على الدوام؟! وعلى أى حال تكون صحة نفسه
وبدنه؟! وليست هذه حال خاصة بنصيب ، فالصمة القُشَيْرِيّ^(١) ، يصور حاله مع
رَبِّا صاحبه قائلا: ^(٢)

إذا نأث لم تفارقنسى علاقتها وإن دثت فصدود العاتب الزارى
فحال عيني من يوميك واحدة تبكى لفرط صدود أو نوى دارٍ

هذه الأشعار لا تشكك في صواب ماتنقله وتصوره — إن تشككنا في الروايات
المأثورة — مما يبتلى به العشاق من قلق وحيرة واضطراب وهم دائم ، وبكاء متواصل ، وكل
هذا وغيره يشكل صدمات عاطفية ، وآلام نفسية ، هى معاول هدم ، تعمل في النفس
والجسم معا .

ليس غريبا ، إذن ، أن يكثر المجانين بين العذريين ، وأن يكثرُوا أيضا من شكوى
العلل الجسمية ، والأسمقام النفسية ، التى لا براء منها .

وقد مر بنا قول جميل :

وأنت التى مامن صديق ولإعدى رأى ينضو مائى إلا رثى ليا

(١) الصمة بن عبد الله بن الطفيل بن قره بن هبيرة — وقرة هذا وفد على النسي عليه السلام وأسلم — من بنى قشير ،
ثم من بنى عامر بن صعصعة ، شاعر بدوى غزل عفيف مقل ، من شعراء الدولة الأموية عالم بأيام العرب ووقائعها
ومواضعها ، وكثيرا ما يستند إليه الرواية الأصمعي وابن دريد ، وهو أحد من قتلهم العشق ، خرج إلى الشام ، فالتحق
بالفرسان ، ثم خرج في غزوة إلى بلد الديلم ، فمات بطبرستان سنة ٩٥ هـ ، تقريبا ، وصاحبه : ربّا بنت عُطَيْف بن
حبيب بن قره بن هبيرة العامرية ، خطبها الصمة فاشتط عليه أبوها في المهر ، ولم يعاونه أبوه ، فخرج إلى الشام غاضبا ،
وقالت ربّا عندئذ : تالله مارأيت كالأيوم رجلا باعته عشيرته بأبرة وطال مقامه بعيدا عن صاحبه فاشتاقها ، وندم على
تسرعه في البعد عنها . انظر : الأغاني ٥ / ١٢٤ وشرح الحماسة للمرزوقي ٣ / ١٢١٥ ، والمؤتلف ١٤٤ ومعاهد
التنصيص ٢ / ٨٧ وتزوين الأسواق ٨٧ ، والتذكرة السعدية ٣١٤ .

(٢) الأغاني ٥ / ١٢٦

فلم يُبق منه العشق إلا جسداً نحيلاً مهزولاً .

وقوله لضييفه الذى ادعى الهوى العذرى :

فلو كنت عُذرىّ العلاقة لم تكن بطينا ونسأك الهوى كثرة الأكل

هذا حق ، فالأكل شهوة يصد عنها الهم والقلق ، واضطراب النفس ، ولاشك فى أن الإنسان الذى لا يقبل على الطعام عن رغبة فيه ، يقل زاده ، ويهزل جسمه .

ومر بنا أيضا قول عروة بن حزام — قبل جميل وعصره :

متى ترفعا عنى القميص تبينا بى الضر من عفراء يافتيان
وتعترفا لحمأ قليلا وأعظما رقاأ وقلبا دائم الخفقان
على كبدي من حب عفراء قرحة وعيناي من وجدي بها تكيفان

أما مجنون ليلى فيفعل العشق فعله فى بدنه ، فإذا هو نحيل أشد النحول ، بارز الضلوع ، يكاد يظهر ماتحت أضلاعه للعيان ، وكأنه زجاجة تشف عما بداخلها : (١)

وَأَنْتِ الَّتِي صَيَّرْتَ جِسْمِي زُجَاجَةً تَنْشِئُ عَلَى مَا تَحْتَوِيهِ الْأَضَالِعُ

ولم يبق العشق منه إلا جلدا على عظام ، ولو استمر حاله على ما هو عليه ، سوف ينسحق جلده وعظمه ، كما يقول ، وليس لهذا صورة إلا بالموت : (٢)

ولم يبق إلا الجلد والعظم عاريا ولاعظم لى إن دام ماى ولا جلد

ويقلب صورة القارورة ، فيخلبها من محتواها ، ويصور بها عظامه التى أتى الهم على مُحْهَا فأخلاها منه (٣) :

سلبت عظامي لَحْمَهَا فتركها معرقة تضحي إليك وتُخَصَّرُ
وأخليتها من مُحْهَا فكأنها قوارير فى أجوافها الريح تصفُرُ

والجنون آفة من الآفات التى يرزأها العذريون ، وجنونهم أشد وأنكى من جنون مرضى العقول ، فهؤلاء إنما تعاودهم نوبات الجنون بين الحين والحين ، أما مجانين العشق ،

(١) ديوانه ١٨٥

(٢) نزين الأسواق ٦٠

(٣) أمالى القالى ١ / ١٦٣ ومصارع العشاق ١٥٣

ففقولهم ذاهبة في كل حال ، هذه رؤيا مجنون بنى عامر : ^(١)

قالت: جُننتُ على (أَيْش) فقلت لها الحب أعظم مما بالمجانين
الحب ليس يفيق الدهرَ صاحبه وإنما يُصرع المجنونُ في الحين
إني جُننتُ فهايتوا من جُننتُ به إن كان ينفي جنوني ، لاتلوموني
ومن إفراطه في تصوير سقم بدنه ، وشدة غوله ، من معاناة العشق ، قوله : ^(٢)
ألا إنما غادرتِ يائُمَ مالِك صدَى أينما تذهب به الريح يذهب
وقوله ^(٣) :

فلو أن ما أبقيت مني معلّق بعود ثُمَامٍ ماتاً ودَّ عودها
أما قيس بن ذريح ، فقد أصاب العشق والهجر عقله وقلبه وجسمه جميعا ، أما
عقله فهو مدخول مختل فاسد ، وأما قلبه فقد أصابته تباريح الهوى بالداء ، وأما جسمه
فمنهوك القوى ، ضعيف هزيل ، كالمصاب بداء السل : ^(٤)
بانت لُبَيْتِي فَأنتَ اليوم متبولٌ وإنك اليوم بعد الحزم مخبولٌ
فصرتُ من حب لُبْنَى حين أذكرها القلبُ مُرْتَهَنٌ والعقلُ مدخولٌ
والجسم مِنِّي منهوكٌ لَفِرْقَتِها يبريه طول سَقَامٍ فَهُوَ منحولٌ
كأننى يومَ وَلْتُ ما تكلمنى أخو هِيَامٍ مصابُ القلبِ مَسْلُولٌ
ومنذ صادت لبنى قلب قيس بن ذريح بسهام لحظها ، لم يبرأ من السقم
والسهد ؛ لأنه لم يسلمها أبدا ، حتى غدا طريق الفراش ، كومةً من جلد وعظم ، ليس فيه
من مظاهر الحياة إلا نَفْسٌ يتردد ، تظنه بعض العائدات ميتا ، وبعضهن رهين
موت ^(٥) :

-
- (١) بسط المسامر في أخبار مجنون بنى عامر للدمشقي ١ / ٢٦ وديوان الصباية ١٢ وفيه « قالوا جنت بمن
هوى فقلت لهم » .
وفي تزيين الأسواق ٥٨ ومصارع العشقا ٧٩ « قالت جنت على رأسي » ولعله تحريف (أيش) .
(٢) الكامل للمبرد ١ / ٢٦ ومحط اللآلئ ١ / ١٨١
(٣) الكامل للمبرد ١ / ٢٧ وينسب لابن الدمينية في سبط اللآلئ ١ / ١٨١ وليس في ديوانه . الثام : نبت
ضعيف . تأود : اهتز وتمايل .
(٤) ديوانه ١٣٨ والأغانى ٨ / ١١٣ . متبول : مذهب . مدخول : معيب . أخو هيام : المعنى مجنون من العشق .
(٥) الأغاني ٨ / ١٢٤ . مجيد : يتحرك ، يريد : أن به دوارا كدوار السكران ، الحشاشة : بقية الشيء ، يريد : بقية
من حياة ضعيفة .

رمتني لُبْنَى في الفؤاد بسهمها وسهم لُبْنَى للفؤاد صيودُ
 كَأَنَّي من لبنى سليمٍ مسهدُ يظل على أيدي الرجال يَمِيدُ
 وقائلة : قد مات ، أو هو ميتُ وللنفس منى أن تفيض رصيدُ
 أعالج من نفسي بقايا حُشاشةٍ على رَمَقٍ والعائدات تعودُ

وسقم العشق ليس له دواء ، إلا الموت ، بهذا يحدث قيس أيضا فيقول (١) :

تُبَاكِرُ أم تروح غداً رواحا ولن يَسْطِيعَ مُرْتَنُ براحا
 سقيم لا يُصاب له دواءُ أصاب الحبُّ مقتلَه فباحا
 وعذبه الهوى حتى براه كَبَّرِي القَيْنَ بالسَّقْنِ القداحا
 وكان يذيقه جُرْعَ المنايا ولو سَقَاه ذلك لاستراحا

وهاهو ذا أحد العذريين يدخل على معاوية بن أبي سفيان ، ويشكو مابه من وجد

بأبنة عم له ، فيجمع صنوفا من العلل والآلام ، تعاور العشاق العذريين (٢) :

في القلب منى نارُ والنار فيها شنار
 وفي فؤادي جمرُ والجمر فيه شرارُ
 والجسم منى نخلُ واللون فيه اصفرار
 والعين تبكي بشجوٍ فدمعها مدرارُ
 والحب داءٌ عسيرُ فيه الطَّيِّبُ يَحَارُ
 فليس لَيْلَى لَيْلًا ولا نهارى نهارُ

وهذه صورة من الصور ، التي تجمع كثيرا مما تفرق في أشعار العذريين الآخرين ،

مما يصور آثار العشق المدمرة في صحتهم النفسية والبدنية .

٥- الشُّكْوَى مِنْ صَدِّ الْحَبِيَّةِ :

أكثر العذريون من شكوى صَدِّ الحبيبة وإعراضها ، أو ندرة استجابتها للهوى ،

وعدم إنصافها في المودة .

(١) أمالي القالي ١ / ١٦٤

(٢) مصارع العشاق ٢٢٤ .

والحق أنهم يتجنّون عليها بهذه الدعاوى ، ويتغافلون عما هي مكبلةٌ به ، من قيود التقاليد الصارمة في البادية ، فما كانت هذه البدوية ممتعة بما تمتعت به أختها الحضرية ، من حرية أتاح لها الاتصال بالعاشق ومجالسته ومحدثته ، فضلا عن التعرض له — أحيانا — ومغازلته ، على نحو ما رأينا في الغزل الحضري .

يضاف إلى هذا أن كثيرات من صواحب العذريين قد تزوجن بغير من تعشقهن ، والزواج قيد آخر ، فوق قيود المنعة البدوية ، التي أشرنا إليها في صدر هذا الفصل ^(١) .

ويأتى عامل الدين ، الذى فرضَ على المسلمة واجبات تقتضيها مبادئ الفضيلة ، وسلامة المجتمع الإسلامى من مباءات الفساد ، وغوايات الإغراء ، كما يتطلبها صون أعراض المسلمين ، وإحاطتها بسياج من الطهر والنقاء ، بغية تحقيق النموذج الصالح للمرأة ، لتنهض برسالتها أمّا وزوجة ، نقول : يأتى عامل الدين ليدعم قيود العفة البدوية ، ويضيف إليها قيودا آخر .

وقيود المنعة والعفة ، ورعاية الحقوق والواجبات هذه ، هي التي تعبر عنها ليلي الأخيالية ، حينما عرض لها توبة صاحبها باقتضاء مارآه حقا للهوى ، بقولها ، السابق :

وذى حاجة قلنا له : لاتبّع بها فليس إليها ماحييت سبيل
لنا صاحب لاينغى أن نخونه وأنت لأخرى صاحب وحليل
تخالك تموى غيرها فكأنها لها من تظنّيها عليك دليل

ومادامت ليلي الأخيالية قد نهبت توبة إلى هذا الحق والواجب ، وارتضى توبه منها مايفرضانه من حرمان ، فليس من بأس عليها — فى رأيها — أن تبدى له من عواطفها مايعزّيه عن حاجته ، التي عرض بها ، ويرضى بعض هوى نفسه ، بعيدا عن هذه الحاجة ، التي لاسبيل إليها .

ويتولى توبة التعبير عما باحت به إليه ، فيقول ^(٢) :

قلت مخافة بيّنا وبكث له فالبين مبعوث على المتخوف

(١) راجع ماكتبناه عنها ص ٤٣٦ من هذه الدراسة .

(٢) أمالي القالى ١ / ١٦٨

لو مات شيءٌ من مخافةِ فرقةٍ لأمانتسى للبين طولُ تخوفٍ
ملاً الهوى قلبى فضقتُ بحمله حتى نطقْتُ به بغير تكلف

ومع أن ظروف حياة المرأة البدوية ، لم تكن مجهولة للعاشقين ، فإن كثيرا منهم لم يقدروا هذه الظروف ، ولم يلتفتوا إليها بدافع من شبوبة عواطفهم ، التى دفعت بهم إلى الدخول فى صراع مع المجتمع ، الذى يأخذهم بصرامة قيمه وتقاليده ، ويتمادى بعضهم فى تغافله وتحديه ، حينما يتجه إلى صاحبتة باللوم ؛ لأنها لاتظهر له حالها ، كما يظهر حاله ، ولاتبثه عواطفها ، كما يبدى عواطفه لها ، فيطالها بما لا تستطيعه من البوح ، حتى لو أرادته .

وأمعن من هذا فى التغافل أن يتخذ الواحد منهم التزام صاحبتة بقواعد الصون فى مجتمعها دليلا على انعدام الإخلاص والوفاء له .

وأعجب من هذا وذاك أن يأخذ العاشق مايدو على صاحبتة من صحة فى البدن ، واتزان فى الرأى والسلوك شاهدا على خلو بالها ، وبراءتها من العشق .

كذا فعل كثير ، فهو يعتب على عزة أن قلبها لايمكن له من الود والإخلاص ، مثل مايعمر به قلبه من عشقها والوفاء لها ، وآية هذا — فى نظره — أنها صحيحة البدن ، بينما سكن الداء جسمه من الوجد بها ، ولاينسى أن يرميها بعدم الإنصاف فى الود ، ويمتن عليها بأنه يقابل كل هذا منها بالحلم والصفح .

وكأنما كان يريد منها أن تتحدى كل القيم مثله ، وأن تنادى بأعلى صوتها بمجاهرة بعشقه ، أو تقول فيه شعرا ، كما يقول فيها !!

ولو أنصف لما انتظر من عزة أن تفعل شيئا من هذا أو أقل منه ، وكيف لها أن تبدى صفحتها ، وهى البدوية المتزوجة من غيره ، الحريصة على سمعتها ، وحقوق زوجها عليها ، يقول كثير : ^(١)

أفى الدّين هذا؟ إن قلبك سالمٌ صحيح وقلبي من هواك سقيم

وإن بجوفى منك داءٌ مُخامِراً وجوفك مما بى عليك سليم
لعمرك ما أنصفيتنى فى مودتى ولكننى ياعزُّ عنك حلیم
ثم يتجنى عليها مرة أخرى ، ويمتن بوفائه وإخلاصه ، والامتناع على غيرها من
أجلها ، فيقول (١):

ويعذبُ لى من غيرها فأعافها مشاربُ فيها مَقْنَعٌ لو أريدها
وأمْنُهَا أَقْصَى هَوَاى وَإِنِّى على ثقة من أن حظى صدودها
وربما كانت نغمة الامتنان هذه فى شعر كثير ، هى التى التفت إليها بعض قدامى
النقاد والشعراء ، وعنووها عندما اهتموا كثيراً بالكذب فى العشق (٢) .

ويتشكك الصمة القشيري فى صدق عواطف رثا صاحبته ، كما تشكك كثير
فى إخلاص عزة ، إذ يرى أنها لاتحن إليه ، بقدر مايجن إليها ، وإلا كان حالها كحالها ، ولو
فعلت ماكفكف دمعها ، وجداً دائماً بها (٣):

أما وجلال الله لو تذكريننى كذكرك ماكفكفت للعين مَدْمَعاً
فقلت : بلى والله ذكراً لَوَائِهِ يُصَبُّ على صُمِّ الصَّفا لتصدعا
ويعلق الصمة على ما أجابت به ، قائلاً : « لا والله ما صدقت فيما قالت » .

أما المجنون فهو عفيف بطبعه ، حتى فى عتابه ليلاه ، فهو يلومها لوماً شديداً ؛
لأنها لم تف بوعودها له ، حتى شمت به من كانوا يلومونه فى عشقها ، وهى بذلك قد
جعلته عُرضة للناس ، يسخرون منه ، ويهزءون بجنونه ، بينما نجت هى من كل لوم (٤):

وأنت التى أخلفتينى ما وعدتيني وأشمتَ بى مَنْ كان فيك يلومُ
وأبرزتيني للناس ثم تركتني لهم غرضاً أُرْمَى وأنت سليمٌ
وما كان أغناه عن هذه الآلام ، لو كان يملك أمر قلبه ، ولكن أنى له ذلك ، فهو
مغلوب على أمره ، كما ذكرنا من قبل .

(١) سمط اللآلى ١ / ١٤٠

(٢) راجع أقوالهم فى هذا ص ٤٥٦ من هذه الدراسة .

(٣) الأغاني ٥ / ١٢٦ وتزيين الأسواق ٨٨

(٤) ديوانه ٢٤٧

ويقسو أيضا جميل على بثينه في عتابه ولومه ، فيقابل بين حاله في الإخلاص لها والاستمسك بمجلها ، وحالها في صدها وهجرها ، وكأنما لا تبالى إن قتله الهجر (١) :

أَلَا قُمْ فَانْظُرْنَ أَخَاكَ رَهْنًا لبثنة في حبائلها الصّاح
أريد صلاحها وتريد قتلى فشتى بين قتلى والصلاح

أما قيس بن ذريح فيستسلم لإعراض لبنى عنه ، عندما تعرض لها في موسم الحج ، ويرى في الاستسلام واليأس راحة ؛ إذ لا سبيل إلى نيل المرام (٢) :

ويوم مني أعرضت عني فلم أقل بحاجة نفسي عند لبنى مقالها
وفي اليأس للنفس المريضة راحة إذا النفس رامت حطّة لاتألفها

وفي ظننا أن قيس بن ذريح ما كان ليستسلم ويأس ، لولا أن الموقف لا يسمح بمجرد عرض حاجته عليها في موسم أداء شعائر الحج ، فالاستسلام هنا موقفى لأكثر ، وإلا لشكى هو الآخر ، وأرسل القريض لائما ، أو عاتبا على الأقل ، فالبخل بالوصل ، والحجابه بالصد كثيرا ما أثارا أعصاب العاشقين العذريين ، فأنهالوا ، يلومون ويعتبون ، في لين حيناً ، وفي عنف حيناً آخر ، كما عَنف المجنون في لوم ليلاه ، وقسا جميل في عتاب بثينه ، وقد يضرع بعضهم إلى الله طالبا القصاص من صدته وهجرته ، وينسبها إلى طبع بخيل شحيح فيها .

من ذلك قول قيس بن ذريح (٣) :

أيا باعث الموقى أقدنى من التى بها نهلت نفسي سقاماً وعلت
لقد بخلت لو أنى سألتها قذى العين من سافى التراب لضنت
فإن منعت فالبخل منها سجية وإن بذلت أعطت قليلا ومننت

ومع هذا فلم تكن الحبيبة دائما كما صورها هؤلاء العذريون ، صادة ، معرضة ، سلبية تماما إزاء عواطف صاحبها ، والذي يبدو أن بعضهم كان لا يكفيه ، ولا يرضيه ،

(١) أمالى القالى ١ / ٢٢٠ وسمط اللآلى ١ / ١٣٨

(٢) ديوانه ١٤١

(٣) الأغاى ٨ / ١١٥

ماطالب به الصِّمَّة القشيري رَئياً صاحبه من مجرد أن تذكره كما يذكرها:
أما وجلال الله لو تذكرينني كذكرك ماكفكت للعين مدماً
وإنما كان يطلب منها أكثر مما تستطيع أن تمنحه ، فترفض ، فيتهمها بالصد
والبخل ، ويصب عليها لومه وتأنيبه .

وهاهي ذى بنية تصرح لجميل بأنها تهواه كما يهواها ، بل أكثر مما يهواها ، ومع
ذلك لايقنع ، ويطالبها بحق الهوى ، الذى تكابد منه مثل مايكابد ، وحينئذ تنكر عليه
مايطلب ، وتصده ؛ إذ لا تملك إلا الصدود ، فينصرف عنها غير راض : (١)

إذا قلت: ماني يابشينة قاتلى من الحب قالت : ثابت ويزيد
وإن قلت: رُدِّي بعض عقلى أعش به مع الناس قالت: ذاك منك بعيد
إذا فكرت قالت: قد أدركت ودّه وماضرتنى بخلى فكيف أجود ؟

نعم ، كيف تجود ؟! وتقاليذ الصون والمنعة فى البادية كالسيف المصلت ، دون
جودها بالوصل ، وجود أخواتها البدويات .

ولسنا ندرى كيف تصور هؤلاء العذريون الشاكون أن تتجاهل المرأة البدوية
تقاليذ بيئتها ، وتخرج على عرف العفاف وصيانة العرض ، وحسن السمعة فيها ؟!

أبدأ ، ماكان لها أن تفعل هذا ، وإلا كان أهون ماتلاقيه من رد فعل مجتمعتها ، أن
تلوك الألسنة سمعتها ، فنكون سبة وعارا لأهلها ، فإذا كانت زوجة — كما هو حال
كثيرات من صواحب العذريين الأمويين — كان أمرها فى ضرورة الحفاظ على سمعتها
وعرض زوجها آكد ، والتهاون فى شئ من هذا أكثر عارا ، وأسوأ عاقبة ، فللزوجة إطار من
الأدب والحشمة وصيانة شرف زوجها بين قومه ، قد حددته الأعراف ، وتشددت فيه
التقاليذ ، وأذاعه شعراء البدو ، وأشادوا به ، وامتدحوا نساءهم لحرصهم عليه .

كان هذا واضحا محددا فى البيئة البدوية منذ عصورها الجاهلية القديمة ،
فالشنفرى (٢) الشاعر الجاهلى القديم ، يثنى على زوجه ، ويعدد الصفات التى ينبغى أن

(١) الأغاني ٧ / ٧٩ وأمالى القالى ٢ / ٣٣

(٢) شاعر جاهلى قديم من الأوس بن الحجر بن الأزد ، وهو أحد الفتيالك ، والصعاليك العدائين المشهورين ،
يقال : قتل من بنى سلامان — وكان مولى لهم — تسعة وتسعين رجلا ، وهو صاحب لامية العرب المشهورة . انظر :
أسماء المغتالين ٢٣١ وشرح المفضليات ١٩٥ والأغاني ٢١ / ٨٧

نحرص عليها الزوجة في بيتته ، فيقول : (١)

لقد أعجبتني لاسْقُوطاً قنأُها إذا مامشتُ ولا بذات تَلْفُتِ
تَحُلُّ بِمَنْجَاةٍ مِنَ اللُّومِ بَيْتُهَا إذا ما بيوت بالمذمة حُلَّتْ
كَأَنَّهَا فِي الْأَرْضِ نَسِيّاً تَقْصَةُ على أُمِّهَا وَإِنْ تَكَلَّمْكَ تَبْلُتْ
أُمِيمَةٌ لَا يَخْزِي نَتَاهَا حَلِيلُهَا إذا ذُكِرَ النَّسْوَانُ عَفْتُ وَجَلَّتْ
إِذَا هُوَ أُمْسَى آبَ قُرَّةَ عَيْنِهِ مآب السعيد لم يَسَلْ أَيْنَ ظَلَّتْ

هذا هو نموذج الزوجة البدوية ، التي كانت بيتها تفخر به ، وتذيعه ، ليكون قدوة ومثلاً ، ومنه ندرك ، لماذا كانت صورة المرأة البدوية المعشوقة على هذا النحو الذى صورته الشعراء البدو العذريون .

— ٥ —

تعقيب

لنا بعد هذه الدراسة ملاحظات على هذا الغزل العذرى بعامه ، أكثرها شركة بين الجاهل منه والإسلامى ، وقليل منها خاص بهذا الغزل العذرى الأموى :

١ — نحو هذا الضرب من الغزل ، وكثرة النتائج الشعرى الذى قيل فيه ، وكثرة الشعراء الذين عالجوه فى البادية فى العصر الأموى ، وهذه الملاحظة قائمة على أساس ماوصل إلينا من نماذجه فى هذا العصر وسابقه ، مع مراعاة ماسبق أن أشرنا إليه فى مقدمة هذا الفصل ، من ضياع كثير من أشعار الجاهليين ، وربما كان فى ضمن ما فقد منها قدر من نتاج الغزل العفيف فى العصر الجاهلى .

هذا فضلاً عن ازدهار هذا الفن فى بوادى الحجاز وما صاقبها ، أكثر من الحضر ، لأسباب سبق ذكرها ، كما اشتهر عدد من شعرائه ، لفتوا إليهم أنظار التاريخ الأدبى ،

(١) شرح المفضليات ١٩٥ — ٢٠٠ . النسي : الشيء المفقود . تقصه : تتبعه وتبحث عنه ، أى أنها تلقى بعصرها إلى الأرض حياء واستقامة . أمها : قصدها الذى تريده . تبليت : توجز فى كلامها . النثا : ما يتحدث به عن الإنسان من حسن أو سئى .

وحظوا باهتمام العلماء بالشعر ونقاده من القدماء والمحدثين ؛ وبذا احتل غزل العذريين الأمويين مكانا بارزا بين فنون الشعر التي راجت في العصر الأموي

٢- قضى كل محب عذرى حياته ، أو أكثر حياته ، وقلبه معلق بحبيبة واحدة لايعدها ، ولايتسع لغيرها ، ولايرى وجودا لسواها ، أو شبيها لها ينبض بعشقها قلبه ، وتحمل في هذا العشق آلاما وأهوالا ، أسقمته ، وأذهلته ، أو قتلته .

وذهاب بعض الشعراء ضحية العشق والهوى سمة العذريين في الجاهلية والإسلام ، فقد قتل العشق عبد الله بن العجلان وهو جاهلي ، كإمات عروة بن حزام عشقا ، وهو من المخضرمين ، الذين لم يدركوا عصر بنى أمية .

وتشير بعض أشعار العذريين الأمويين إلى ظاهرة الاختصار على عشق امرأة واحدة ، وقصر كل منهم غزله عليها .

وفي هذا يقول قيس بن ذريح :

تعلق روحي روحها قبل خلقنا ومن بعد ماكننا نطافا وفي المهد
فزاد كما زدنا فأصبح ناميا فليس وإن متنا بمنقصم العهد
ولكنه باق على كل حادث وزائرنا في ظلمة القبر واللحد

فقد ربط التألف الروحي بين قيس وصاحبتة ، لا في حياتهما فقط ، وإنما من قبلها ، وسيظل بعد وفاتها .

ويذكر نصيب بن رباح ، أن عينه لا ترى سوى صاحبتة ، ونفسه لا تنطلق لغيرها ، ولا تنفع إلا بها ^(١) :

فلا النفس ملثها ولا العين تنتهي إليها سوى في الطرف عنها فترجع
رأثها فما تترد عنها سامة ترى بدلا منها به النفس تقنع

ويقول جميل ، مخاطبا قلبه : ^(٢)

سلا كل ذي ودٌ علمت مكانه وأنت بها حتى الممات موكل

(١) الأغاني ١ / ١٤٠

(٢) المصدر السابق ٧ / ٩٢

وصاحبة جميل هي بثينة ، وقلبه هائم بها ، لن يتحول إلى سواها حتى آخر عمره .
ومن دلائل هذا الكلف بامرأة واحدة عند العذريين ، ماروى من محاولات الأهل
والأصدقاء لصرف قلب الشاعر عن عشق من أشقاه عشقها ، دون جدوى ، كالذى
ذكرناه من شأن مجنون ليلي مع النسوة اللاتي عرضن عليه أن يختار إحداهن ، ليصرف
قلبه إليها بدلا من ليلاه ، وردة عليهن بقوله : « لو ملكت لفعلت ، ولكنى مغلوب » (١) .
وما يروى من أن بعض النسوة حاولن صرف جميل عن بثينة ؛ ليخلو قلبه لهواهن ،
ولكنه صدهن ، معلنا أنه قد أحب ، ولن يزول حب من هواها من قلبه ، لأنه وقف على
حبها (٢) .

ومن قوله في ذلك أيضا : (٣)
ضمنتُ لها أن لأهيم بغيرها وقد وثقت منى بغير ضمان
ويقول كثيرٌ مخاطبا عزة (٤) :
وأقسم ما استبدلت بعدك خُلَّةً ولالك عندى فى الفواد قسم
فهو يقسم لصاحبتة أنه لن يتخذ صاحبة غيرها ، ولن يشاركها في قلبه أخرى .
٣ — من العذريين الأمويين خاصة من قصر كل نتاجه الشعري ، أو كاد — على التغزل
في صاحبتة ، يدير حولها هذا الشعر .

منهم جميل ، الذى لانجد له في ديوانه شعرا في غير الغزل ، اللهم إلا مُقطَّعات
قليلة في المدح والهجاء والفخر ، وبعضها شديد الاتصال بغزله ، إذ كان هو السبب
فيها ، والباعث عليها (٥) .

ومنهم ، قيس بن ذريح ، وبين أيدينا ديوانه المجموع ، وليس فيه بيت واحد في غير
الغزل ، ولم يرو أحد من رواة أخباره أنه قال شعرا في غرض آخر ، ومعنى هذا ، أنه وقف
موهبتة على هذا الفن ، فلم يعده .

(١) راجع ص ٤٢٦ من هذه الدراسة .

(٢) الأغاني ٧ / ٧٧

(٣) تزيين الأسواق ٣٨

(٤) يقال : إن كثيرا لم يبر بقسمه هذا لعزة ، وإنه هوى بعدها امرأة من قومه ، يقال لها أم الحويث (عيون

الأخبار ١ / ١٤٨) . وانظر ديوانه ١٢٩ .

(٥) انظر : مقدمة ديوانه ١٢

وما قلناه عن ديوان قيس بن ذريح ، ينطبق تماما على ديوان مجنون ليلى ، فشعره المجموع فيه ، يخلو من غير الغزل وما يتصل به .

وهذا التخصص في الغزل العذرى شبيه بما رأيناه ، من تخصص في الغزل الحضرى الحسى ، وكلاهما تطور جديد ، يمتاز به الغزل الحجازى فى البداية والحضر ، فى العصر الأموى ؛ إذ لا نعلم شاعراً جاهلياً قصر شعره كله ، أو كثرته ، على القول فى الغزل ، وكل مانعلمه أن قلة من الشعراء الجاهليين ، أفردوا قصائد لهذا الفن ، ولم يجمعوا إليه فناً آخر ، فى هذه القصائد ^(١) .

٤ — تشابه أشعار العذريين بعامة ، فقد كان لدوران قصة العشق عندهم داخل إطار محدد ، وعلى نمط مألوف فى حياة هؤلاء العشاق ^(٢) ، أثره فى تشابه معانيهم ، وعناصر تجاربهم ، مما أدى إلى اختلاط غير قليل من أشعارهم بعضها ببعض ، فنرى أبياتاً لشاعر قد أقحمت على قصيدة لشاعر آخر ، ونرى ما ينسب إلى أحدهم فى مصدر ينسب إلى غيره ، فى مصدر آخر .

من ذلك هذان البيتان :

وَأَنْتِ التِّى إِنْ شِئْتُ كِدَرْتُ عَيْشَتِي وَإِنْ شِئْتُ بَعْدَ اللَّهِ أَنْعَمْتُ بِأَلْيَا
وَأَنْتِ التِّى مَأْمَنَ صَدِيقٌ وَلَا عِدَا يَرَى نَضْوَ مَا بَقِيَتْ إِلَّا رُثَى لِيَا

إذ ينسبان لجميل فى الأغاني ^(٣) ، وهما فى ديوانه فى جملة أبيات له ، وينسبان للمجنون ، فى تزيين الأسواق ^(٤) فى ضمن أبيات له ، وهما أيضاً فى ديوانه المجموع .

ومنه أيضاً ، هذه الأبيات :

نَهَارِي نَهَارِ النَّاسِ حَتَّى إِذَا بَدَا لَيْلَى اللَّيْلِ هَزْتَنِي إِلَيْكَ الْمُضَاجِعُ
أَقْضَى نَهَارِي بِالْحَدِيثِ وَبِالْمُنَى وَبِجَمْعِنِي وَبِالْهَمِّ بِاللَّيْلِ جَامِعُ

(١) انظر : الغزل فى العصر الجاهلى (د . الحوفى) .

(٢) راجع هذا المخط ٤٢٧ ، ٤٥٩ من هذه الدراسة .

(٣) ٩٠ / ٧

(٤) ٦٩

لقد ثبتت في القلب منك مودة كما ثبتت في راحتين الأصابع
فهي تنسب لجنون ليلي في مصارع العشاق^(١)، وهي في ديوانه، وينسب الأولان
منها لقيس بن ذريح في تزيين الأسواق^(٢)، والأبيات الثلاثة لقيس بن ذريح في الأمالي
للقالى^(٣).

وفي ديوان قيس بن ذريح، وكذا في التذكرة السعدية^(٤)، هذه الأبيات له :
أحدثتنى يا قلب أنك صابر على الهجر من لبنى فسوف تذوق
أطعت وشاة لم يكن لك فيهم خليل ولادان عليك شفيق
فمت كمداً أو عش مُعْنَى فإنما تحملننى مالا أراك تطيق
وينسب البيتان الأول والثالث منها، لمضر بن الحارث المزني في ضمن قصيدة
طويلة له، في الأمالي للقالى^(٥).
والأمثلة على هذا الخلط بين أشعار العذريين الأمويين كثيرة^(٦)، وفيما ذكرناه
ما يكفي للتدليل على صواب ذلك.

ولم يقتصر الأمر على هذا، فقد أدى تشابه تجاربهم، وكثير من وسائل تعبيرهم
عنها^(٧)، وفقر هذه التجارب، من حيث تنوع المواقف، التي تتصل بالتجربة،
العاطفية، كمواقف الوداع، أو اللقاء، والأحداث، أدى هذا كله إلى سهولة الوضع
والتزيد في أشعارهم على مدى العصور، فالإطار العام لتجاربهم محدود كما ذكرنا،
وروحهم العاطفية، وأحاسيسهم العذرية، كالحرمان، والشكوى، والوفاء، وتحدى
المجتمع، والرغبة في الهروب... وغير ذلك، شائع في تجاربهم، مشترك بينهم، كما أن
تقاليدهم الفنية في الأداء متشابهة، فأساليب النداء، والندبة، والاستفهام، وتكرار
ألفاظ بعينها، أو عبارات بذاتها، ظاهرة بارزة في أشعارهم جميعا تقريبا، مما سهل الوضع

(١) ٤٢٠ (٢) ٥١

(٣) ٣٢٠ / ٢ (٤) ٥٢٤

(٥) ٦٣ / ٢

(٦) انظر مثلا : الشعر والشعراء ٢٢٠

(٧) نبيها كثيرا إلى هذا التشابه خلال دراسة نماذجهم في الاتجاهات المختلفة . راجع ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٣ ،

عليهم ، والتزيد في أشعارهم للرواة ، وجامعى شعرهم ، يقول ابن قتيبة في مقام الحديث عن مجنون ليلى ^(١) : « على أنهم قد نخلوه شعرا كثيرا رقيقا يشبه شعره » .

٥ — القارىء المتذوق في أشعار العذرين بعامة يحس أنه بإزاء تجارب تتميز بالمعاناة الصادقة ، حيث تشيع فيها حرارة العاطفة ، وتشع منها الأشواق ، وتتجلى فيها خلجات النفس ، مما طبع هذا الغزل بطابع عاطفى حزين ، إذ كانوا يعبرون فيه — غالبا — عن حرقة القلوب ، وتباريح آلام الهوى ، ولذعات الحرمان ، ومعلوم أن الأحران والآلام والحرمان كلها تجارب ، ترسب العواطف ، وتغلغل جذورها في النفس ، فتصدر هذه العواطف أكثر حرارة ، وأبعد عمقا ، وأعنف انفعالا .

لهذا كان لشعر العذرين علق شديد بالقلوب ، وصدى قوى في المشاعر ، فهو حديث القلب للقلب ، وقديما قالوا : « أحسن الشعر ما دخل القلب بلا إذن ^(٢) » وهؤلاء مامنهم من أحد إلا عشق ، واصطلى بنار العشق ، واحتمل في عشقه مبرح الآلام ، وصور بشعره خلجات قلبه ، وماتجيش به أعماق نفسه .

لقد عرف الشعراء العذريون العشق إخلاصا ، وتفانيا ، ومكابدة مهلكة ، تنقرح عيونهم من البكاء الشديد ، وتفتت أكبادهم من الحزن العميق ، والألم المتواصل والسقم المضنى ، حتى ليخرج الشاعر منهم أحيانا عن طوره ، ويفقد توازن نفسه ، فيجن جنونه ، أو يتمنى الموت ، لأنه أرحم من حياة قاسية ، تحكم بينه وبين الحبيب بالتباعد والشتات .

يقول ابن ذريح ^(٣) :

لقد عذبتنى يا حب لبنى فققَ إما بموتٍ أو حياة
فإن الموت أروح من حياة تدوم على التباعد والشتات
والعذريون في هذا وغيره — كما رأينا — على شاكلة واحدة تقريبا ، في الوجد والمعاناة ، فالعشق عندهم ، كما تكشف عنه أشعارهم السابقة ، معاناة قاسية ، تؤدى

(١) الشعر والشعراء ٢٢٠

(٢) مصارع العشاق ٢٢٢

(٣) الأغاني ٨ / ١٢٢

بصاحبها إلى الهزال ، والاصفرار ، والنحول ، ثم الموت .

والعاشق العذرى رقيق حساس ، صادق فى عشقه حتى الموت ... أما داؤه فهو الحبيب المعبود ، ودون الوصول إليه أهوال .

هكذا كان العذريون جميعا ، وكان شعرهم فى كل هذا معبرا عن ذواتهم تعبيرا صادقا ، مازال يهزنا إلى اليوم ، بمافيه من حرارة العاطفة ، وصدق الشعور ، ولاحتماله لأكثر من مستوى للتلقى والتذوق .

٦ - الأصل فى الغزل العذرى أن يكون عفيفا ، بحكم ظروف بيئته ، التى عرفناها وبحكم طبيعة تكوين شغرائه النفسى ، ومارزقوا من ميول طبيعية ، أو تهذيبية ، هيأتهم لتقبل هذا النوع من العشق ، وتحمل تبعاته ، والصبر على مكارهه .

وقد كان غزل العذريين عفيفا غالبا ، فكثيرا ماتحدثوا عن عفتهم فى العشق ، وبراءتهم من الفحش ، كما أشاد بعضهم بعفة صاحبتهم ، وأثنى على طهارة خلقها وسلوكها .

يقول مضر بن المزني : (١)

أذودُ سوامَ الطَّرْفِ عنك وماله إلى أحدٍ إلّا إليك طريق
تتوقُ إليك النفس ثم أردها حياءً ومثلى بالحياء حقيق

ويقول جميل : (٢)

وإني لأغضي الطرف عنها تسترًا ولئى نَظَرٌ لولا الحياء شديدُ

ويقول نصيب بن رباح : (٣)

ولئى كرم عن الفحشاء ناءٍ كبعد الأرض عن جو السماء
فأخلاقه الكريمة تباعد بينه وبين فاحش القول والسلوك ، بعد الأرض عن

(١) مضر بن قرطبة بن الحارث ، أحد بنى صبح بن عوف ، من مزينة ، شاعر محسن مقل ، كان يعف فى غزله ، انظر المؤلف ١٩١ وأمالى القالى ٢ / ٢٦٢ والتذكرة السعدية ٥٤٠ .

(٢) ديوان المعاني ١ / ٢٢٨ .

(٣) الأغاني ١ / ١٣٦ .

السماء ؛ ولذا فإن الحياء يمنعه من رفع بصره طويلاً إلى صاحبتة ، فما هو إلا أن تقع عينه عليها حتى يرتد طرفه سريعاً ، حياءً وتحشماً ، مع شدة وجده بها : (١)

فلا النفس ملتها ولا العين تنتهي إليها سوى في الطرف عنها فترجع ويتحدى توبة بن الحمير زوج ليلي الأخيلية ، أن يرى في علاقته بها ما يشين ، فما تمثلت هذه العلاقة يوماً في غير زيارتها ؛ لإلقاء السلام عليها ، وإنه ليقسم على ذلك : (٢)

على دماء البذن إن كان زوجها يرى لي ذنباً غير أنى أزورها
وأنى إذا مازرتها قلت : يا أسلمى فهل كان في قولي : أسلمى ما يضرها !!
وشهدت ليلي صاحبتة له بهذه العفة ، وتمام الحياء (٣) :

فتى كان أحيا من فتاة خريدة

وكثيرٌ يحدد علاقته بعزة بأنها تقوم على المودة الصافية ، والبعد عن الفحش : (٤)

وقال خليلي : ما لها إذ لقيتها غداة السنا فيها عليك وجوم
فقلت له : إن المودة بيننا على غير فحش والصفاء قديم

ومع هذه العفة البادية في أشعار العذريين ، فإن نفوسهم كانت تنازعهم إلى ما كانت تصبو إليه نفوس غيرهم ، ولكنهم ، وقد حيل بينهم وبين ما يشتهون ، اكتفوا بتجربة العشق نفسها ، فعف قلوبهم ولسانهم ، إلا قليلاً .

فقد نجد في بعض تجاربهم ما يدل على أن رغباتهم الحسية لم تُكبت تماماً ، وأنها كانت تطفو إلى سطح خيالهم ، فتداعبه من حين لآخر .

كانت لتوبة حاجة في ليل ، نزعت نفسه إليها ، فأسر بها لصاحبتة ، ولكنها سرعان ما ردت إلى ما ينبغي لمثلها من العفة قائلة :

وذى حاجة قلنا له لاتبع بها فليس إليها ما حبيت سبيل

(١) الأغاني ١ / ١٤٠

(٢) ديوانه ٣٨

(٣) ديوان المعاني ١ / ٤٤ ، وديوانها ٨٠ وفيه : « وتوبة أحيا من فتاة حبيبة .. » .

(٤) الأغاني ١١ / ٥١

وتمنى جميل أن يذوق عذوبة ريق بثينة ، وكان يخشى أن تفاجئته المنية ، وفي نفسه حاجات لم يقضها من صاحبته :

ألم تعلمي يا عذبة الريق أنني أظل إذا لم ألق وجهك صاديا
وقد خفت أن ألقى المنية بغتة وفي النفس حاجات إليك كما هيأ
فأى حاجات كان جميل يأمل أن ينالها قبل أن يموت ، إن لم تكن شيئا من المتع الحسية ،
التي يتطلع إليها الرجال من النساء ؟!

وقد صرح ببعض هذه المتع في شعر آخر يقول فيه^(١) :

فياليت شعري هل أبيتن ليلةً كليتنا حتى يرى ساطع الفجر
تجود علينا بالحديث وتارة تجود علينا بالرضاب من الثغر
فلا تقتليني يابثين ولم أصب من الأمر مافيه يحل لكم قتلى
وجميل بهذه المعاني أقرب إلى الحسين منه إلى العذرين !!
وهو حسي خالص في قوله الآخر :

وبيض غريرات ثنى خصورها إذا قمن ، أعجاز ثقال وأسوق
غرائر لم يعرفن بؤس معيشة يُجنُّ بهن الناظر المنتسوق

ولكن هذا قليل في شعره ، ولعل مرده إلى نزعة تقليد غزلية ، كانت تراود الغزلين
العذرين بصفة عامة ، إذا بداهم أحيانا أن يصفوا محاسن من يتعشقون .

حتى المجنون نازعته نفسه إلى اللهو مع ليلي ، ولو ساعة ، تعدل الدنيا كلها :^(٢)
وساعة منك ألوها ولو قصرت أشهى إلى من الدنيا ومافيا
وأراد حملها على أن تبادل القبلات ، فصدته في غضب وإباء شديدين^(٣) :
إذا سمئها التقبيل صدت وأعرضت صدود شمس الخيل صل للجامها
وفي أخباره أنه مر يوما بزواج ليلي ، وهو جالس يصطلي ، في يوم شات ، فوقف عليه ، ثم
قال :^(٤)

(١) ديوانه ١٠٣ وخط اللآلي ٢ / ٦٦٠

(٢) تزيين الأسواق ٦١

(٣) ديوانه ٢٤٩ . صل : صوت

(٤) بسط المسامر في أخبار مجنون بنى عامر ٣٦ والأغاني ١ / ١٦٩ وتزيين الأسواق ٦٣

برئكَ هل ضَمَمْتَ إليك ليلي قُبيل الصبح أو قَبِلْتَ فاها
 وهل رَفُتْ عليك قرون ليلي رِفِيفَ الْأَقْحُوَانَةِ في نداها
 فقال : اللهم ، إِذْ حَلَقْتَنِي ، فنعم ، فقبض المجنون بكلتا يديه قبضتين من
 الجمر ، فما فارقهما حتى خر مغشياً عليه ، فسقط الجمر مع لحم راحتيه .
 وقد يكون هذا من الأخبار ، التي وضعت للسمر ، أو لتفسير هذا الشعر ، وأيا
 ما كان حظ مثل هذا الخبر من الواقع والحقيقة ، فإن واضعه - على فرض وضعه - كان
 على دارية بوجود مثل هذه التوازع الحسية عند المجنون وغيره من العذريين ، وأن من كان
 يُسمِركم به ، كانوا يدركون ما يدركه ، وإلا لما قبلوا منه مثل هذا الخبر ، ورووه عنه .
 وما يروى في هذا الباب ، أن أم البنين زوج الوليد بن عبد الملك - أو سكينه بنت
 الحسين أو عائشة بنت طلحة - قالت لعزة ، صاحبة كثير : أخبريني عن قول كثير :
 قضى كل ذي دين فوقِّي غريمه وعزة ممطوّل معنًى غريمها
 أخبريني ما ذلك الدين ؟ قالت : وعدته قبله ، فخرجت منها^(١) .

ثم ألا يدل ما عبروا عنه من أوصاف جسدية لصواحبه ، على عدم براءة نوازع
 العشق عندهم من الرغبات الحسية ؟ وإلا فيماذا نفس قول جميل السابق - وإن كان
 تقليدياً - وقول قيس بن ذريح ، يصف محاسن بُنَيَّ^(٢) :
 إذا مامشت شبراً من الأرض أرحفت من البهر حتى ماتزيد على شبر
 لها كَفَلَّ يرتجُّ منها إذا مشت ومتن كغصن البان منضمر الخضر
 وقول المجنون يصف جمال ليلي^(٣) :

بيضاء خالصة البياض كأنها قمر توسط جناح ليل مبرد
 موسومة بالحسن ذات حواسد إن الجمال مظنةٌ للحسد
 وترى مدامعها تفرق مقلّة سوداء تعرب عن سواد الإثمد
 هذه الأشعار وأمثال لها قاطعة الدلالة ، على أن المحب العذري لم تبرأ دوافعه تمام

(١) وفيات الأعيان ١ / ٥٤٨ ومصارع العشاق ٢٧٥ وخزانة الأدب ٢ / ٣٨٢ والشعر والشعراء ٢٣ .

(٢) تزيين الأسواق ٤٦ .

(٣) تزيين الأسواق ٦١ .

البراءة من الرغبة في المتعة الجسدية بمن يعشقها ، وإن كانت هذه الرغبات ظلت حيصة خياله الشعري ، لم تتجاوزه إلى دنيا الواقع والحقيقة ؛ إذ لم يكن في استطاعة البدوية المعشوقة أن تمنح صاحبها شيئاً من هذه المتعة ، حتى لو أرادت .

٧ - قلة اعتماد الغزل العذري على أسلوب الحوار ، وهذا راجع إلى الصد ، الذي كان يلاقيه العذريون من صواحبهم ، وماترتب عليه من ندرة اللقاء والوصل ، كما أن العذريين في العصر الأموي كانوا يعيشون في ظل قيم بيئية تشبه إلى حد كبير - فيما عدا التأثير الديني - قيم البيئة التي كانت تحكم المجتمع الجاهلي ، والتي أدت بدورها إلى ضعف هذا الأسلوب في أشعارهم الغزلية ، إذا استثنينا بعض نماذج منه واضحة في شعر امرئ القيس ؛ إذ كان أميراً وابن ملك ، وأتيح له مالم يتح لغيره من الاتصال ببعض النساء ، فضلاً عما عرف به من الجرأة ، والمغامرة ، فكان بذلك فاتح باب الشعر القصصي ، المرتكز على الحوار ، وممهد سبيله لكل من سلكه من بعده ، كعمر بن أبي ربيعة^(١) وغيره .

وجميل أكثر زملائه التفاتاً لهذا الأسلوب في أدائه الشعري ، إذ حاول أن يرسم بعض المواقف الحوارية بينه وبين بثينة ، من مثل قوله السابق :

إذا قلت : ماى يابينة قاتلى من الحب قالت : ثابت ويزيد
وإن قلت : ردى بعض عقلى أعش به مع الناس قالت : ذاك منك بعيد

وأحياناً يمتد الحوار في بعض تجارب جميل الغزلية ، فيأخذ صورة أقل سذاجة من حوار السابق ، الذى يقوم على القول وردة ، في سرعة وإيجاز شديدين ، من ذلك قوله^(٢) :

معارف أطلال لبشة أصبحت	معارفها قفراً من الحى بلقعا
معارف للخود الذى قلت : أجمل	إلينا فقد أصفيت بالود أجعاً
فقلت : أفق ماعدنا لك حاجة	وقد كنت عنا ذا عزاء مشيعاً
فقلت لها : لو كنت أعطيت عنكم	عزاء لأقللت الغداة التضرعاً
فقلت : أكل الناس أصبحت مانحاً	لسانك كيما أن تغر وتخدعاً

(١) راجع ماكتبناه عن هذا الأسلوب في غزل امرئ القيس ، في كتابنا : أمراء الشعر في العصر الجاهلي

١٦٥ ، ١٧٠ - ١٧٢

(٢) ديوانه ١٢٤ . بلقع : خال من الأنيس . أجمل : ابذل الجميل . مشيع : ذو أنصار .

غير أن هذا الحوار لا يمثل عنصراً فعالاً في بناء العمل الفني وإيمائه عند العذريين ؛ لضعف عنصر الحدث ، وقلة الشخصيات في تجاربهم ، إذ يقتصر الحوار على شخصين ، وغالباً ما يكونان الشاعر وصاحبه .

وأين هذا الحوار الساذج ، من أسلوب الحوار القصصى الجذاب ، الذى ينهض بتحليل الموقف الغزلى وإيماء عناصره ، فى غزل الحضريين ، من أمثال عمر بن أبى ربيعة والعرجى ... وغيرهما .

٨ — يقترب الغزل العذرى من الغزل الحضري الحسى ، من حيث البناء الفني للعمل الشعري ، حيث تحققت لكل منهما وحدة الموضوع ، التى تفتقدها كثير من القصائد فى الشعر الجاهلى والإسلامى ، عند غير شعراء الغزل الحجازى بنوعيه .

فبالنسبة للغزل العذرى الأموى ، نجد القصيدة العذرية تصور عواطف مجردة فى العشق ، تعبر عن حالات شعورية متجانسة ، أو متقاربة ، من الحرمان ، والشوق ، وتصوير الآلام ، والذكريات الحزينة المحرومة ، وجذبات الوجد ونحوها ، مما يضيف على القصيدة أو المقطعة العذرية نوعاً من الانسجام الشعورى ، تترايط فيه هذه المشاعر ، وتتعانق ؛ لتحقيق لها وحدة فنية واضحة فى جوها العام .

هذه النظرة عامة ، لانستقصى كل نماذج الغزل عند العذريين ، بمعنى أن هذه النماذج قد تفاوتت بالنسبة لحظها من وحدة البناء الفني ، من حيث ترتيب أجزائها وتماسكها ، فتبرز هذه الوحدة وتتضح فى بعضها ، ويقل حظها من التماسك فى نماذج أخرى ، بل قد تختلف من شعر شاعر إلى آخر ، كما تختلف فى القصائد الطوال عنها فى القصائد الأقل طولاً .

وبصفة عامة ، كلما طالت القصيدة العذرية ، قل تماسكها ، واختل ترتيب أجزائها ، وأصبحت كيانا يضم جزئيات شعورية متناثرة ، لا يربط بينها إلا طبيعة التجربة العاطفية العامة ، بحيث يمكن المخالفة فى ترتيب عناصرها ، أو إسقاط بعضها دون أن يلاحظ هذا النقص فيها .

أما المقطعات العذرية ، فهى أقوى نماذج الغزل العذرى تحقيقاً للوحدة الشعورية والفنية وأوفرها حظاً منهما ، وأكثرها استقصاء للحظة الشعور ، أو الصورة الشعرية ، لأنها

تعالج في الغالب خاطرة واحدة ، أو حالة نفسية متميزة إلى حد ما ، حتى يمكن في كثير من الأحيان أن نلخصها ، أو نلخص طبيعة تجربتها في عبارة ، نجعل منها عنواناً لها ، ولعل هذا مايسّر لبعض محققي دواوين العذريين ، أن يقدموا مقطعات غزلهم تحت عناوين ، في عصرنا هذا ، وليس هذا شيئاً جديداً كل الجدة على الشعر العربي القديم ، لكنه لماً مثل ظاهرة تكاد تطرد في المقطعات أو القصائد القصيرة العذرية ، عُدّ مخالفة جديدة ، أو كالجديدة لطبيعة القصيدة العربية القديمة بشكل عام .

ومن نماذج اكتمال الوحدة الموضوعية والفنية في المقطعات العذرية ، هذه المقطعة أو القصيدة القصيرة لجميل ، التي تعالج معنى الشوق الملهوف ، والوفاء الصادق ^(١) :

ألا هل إلى إلمامة أن ألمّها بثينة يوماً في الحياة سبيل ؟
على حين يسلو الناسُ عن طلب الصبا وينسى أثباع الوصل منك خليل
فإن هي قالت : لاسبيل ، فقل لها : عناء على العذرى منك طويل
ألا لأباهي جفوة الناس إن بدا لنا منك رأى يابثين جميل
وما لم تطيعي كاشحاً أو تبَدلى بنا بدلاً أو كان منك ذهول
وإن صباباتي بكم لكثيرة بثن ، ونسيانيكُم لقليل
يقيقك جميل كل سوء أَمَالُهُ لديك حديث أو إليك رسول ؟
وقد قلت في حبي لكم وصباتي محاسن شعر ذكرهن يطول
فإن لم يكن قولي رضاك فعلُمي هبوب الصبا يابثُن - كيف أقول ؟
فما غاب عن عيني خيالك لخطبة ولا زال عنها والخيال يزول

إنها نغمة مناسبة تبدأ بالتطلع والمنى ، وتتوسط بالتحنان والتلطف ، وتنتهي بالتسليم والثبات على العشق ، والإغراب عن الإخلاص فيه ، ومن هنا جاءت كُلاًّ متماسك الأجزاء ، أى عبث بجزء منه ، أو الإخلال بوضعه وترتيبه ، يفسده ويقوض أركانه .

وقد تكون مقطعة الصُّمة القشيري في الحنين إلى رثاً وتذكرها ، من النماذج التي تعكس الوحدة الفنية الشعورية المتكاملة ، القائمة على تصوير حركات النفس ، من اللوم

والحزن اليأس ، والحنين الجارف ، والحسرة المحرقة^(١) :

أَمِنْ ذِكْرِ دَارِ الرَّقَاشِينَ أَصْبَحْتَ بِهَا عَاصِفَاتُ الصَّيْفِ بَدَأَ وَرُجَّعَا
حَنَنْتُ إِلَى رَيَّا وَنَفْسِكَ بَاعَدْتُ مَزَارِكَ مِنْ رَيَّا وَسَعْيَا كَمَا مَعَا
فَمَا حَسُنَ أَنْ تَأْتِيَ الْأَمْرَ طَائِعًا وَتَجْزِعَ أَنْ دَاعِيَ الصَّبَابَةِ أَسْمَعَا
كَأَنَّكَ لَمْ تَشْهَدْ وَدَاعَ مَفَارِقِ وَلَمْ تَرَّ شَعْبِي صَاحِبِينَ تَقْطَعَا
بَكَتْ عَيْنِي الْيَسْرَى فَلَمَّا زَجَرْتَهَا عَنِ الْجَهْلِ بَعْدَ الْحَلَمِ أُسْبِلْتَا مَعَا
تَلَفْتُ نَحْوَ الْحَيِّ حَتَّى وَجَدْتَنِي رَجَعْتَ مِنَ الْإِصْفَاءِ أَلْوَى وَأَجْزَعَا
وَأَذْكَرَ أَيَّامِ الْجَمَى ثُمَّ انْتَنَى عَلَى كِبْدِي مِنْ خَشْيَةٍ أَنْ تَصْدَعَا
فَلَيْسَتْ عَشِيَّاتُ الْحَمَى بِرَوَاجِعِ عَلَيْكَ وَلَكِنْ خَلَّ عَيْنِكَ تَدْمَعَا

ولما كانت التجربة العذرية قائمة في الغالب ، على هذا التعبير الشعوري ذى الطابع الحزين ، توافر حفظها من الانسجام والترابط بين أجزائها ، بحكم هذا الإطار الشعور الغالب .

٩ - نهض شعر العذريين بعامية ، والأمويين بخاصة ، بتطوير المعجم الشعري ؛ إذ كانت تجاربهم العاطفية المباشرة تقتضيهم الاعتماد على الألفاظ ذات الدلالات الشعورية القوية ، والطاقة الانفعالية الواضحة ، كما تتطلب منهم الجنوح إلى العبارات البسيطة الجلية ، التي تعكس بساطة تجاربهم ووضوحها .

ومن خلال دراستنا السابقة لأشعار العذريين لاحظنا مرارا ، أن تجاربهم واضحة محدودة المعالم والأبعاد ، لا تكاد تختلف كثيرا من شاعر إلى آخر ، كما أنها وليدة جيشان عاطفى متصل ، يمشى - غالبا - في تيار واحد ، يخلو من المفارقة والتركيب والتلوين ، مما جعل شعرهم أشبه بالشعر التلقائى ، الذى يعبر فيه الشاعر تعبيراً مباشراً عما يجده ، ويحس به ، لا يتكلف أو يتعسف في المعنى أو اللفظ ، وأنسب لغة لهذا الشعر التلقائى ، هي الألفاظ المألوفة المشتركة بين الناس ، التى اكتسبت من الحياة والممارسة قدرة على التأثير ، والإيحاء في مجال التعبير العاطفى .

(١) شرح الحماسة للمرزوق ٣ / ١٢١٥ والأغانى ٥ / ١٢٧ وأمالى القالى ١ / ١٩٣

ويصاحب تلك البساطة ، وهذا الوضوح في اللغة ، بساطة ووضوح في الصورة الشعرية ، وما حاجة الشاعر العذري إلى التركيب والقصد إلى الاقتنان في هذه الصورة ؟ وهو إنما يعتمد في شعره التلقائي على إحياء الألفاظ ، وحرارة العاطفة ، يقول الدكتور شكرى فيصل ، بعد أن عرض نماذج من شعر جميل ^(١) : « ونحن لانحس لدن قراءة هذه القطع أننا أمام فنان يعمل عقله في شعره ، وإنما نحس أننا أمام شاعر يتحدث بنفسه عما يجيش بنفسه ، ومن هنا لم نشهد عند جميل ما كنا شهدناه عند الشعراء الجاهليين من كثرة التشابه والصور .. تمضى القطعة كلها ، وليس فيها أية صورة أو استعارة ، وتنساب على أنها حديث عادي ، وحكاية حال يقصها الشاعر ، ولكنها يقصها في أسى وزفرة ، ويعرضها ، ولكنها يعرض معها قلبه وانفعالاته ، فإذا هذه الانفعالات ، وما يصحبها من مشاهدة الحياة الداخلية وتقلقلها ، والتأثرات التي تكسوها ، تعوض عن الصورة التي تعود الشعراء أن ينسروها في قطعهم بين البيت والبيت ، والشرط والشرط ، ومن هنا لم تكن البراعة الفنية عند جميل ، وعند أمثاله ، من الشعراء العذريين في أساليبهم البيانية ، وإنما كانت قبل كل شيء ، وأكثر كل شيء ، في تعرفهم لسرائر النفوس ، وفي عرضهم لها عرضاً يسيراً » .

ونستطيع أن نضيف إلى مذكره الدكتور شكرى فيصل ماسبق أن أشرنا إليه ، من اعتماد العذريين على الألفاظ العاطفية ، القوية الإحياء ، الانفعالية ، الشديدة التأثير ، فقد دفعوا إلى ميدانهم الشعرى بحشد من هذه الألفاظ ، على نحو غير مألوف من قبل ونظموا منها عباراتهم الشعرية ، فأكسبت شعرهم مذاقاً خاصاً ، وأعطته قيمة فنية ولغوية ميزته عن شعر سابقيهم ومعاصريهم .

ولنتأمل هذين البيتين :

ولى كبد مقروحة من ييعنسى بها كبداً ليست بذات قروح
أئن من الشوق الذى فى جوانبى أنين غصيص بالشراب جريح

فالكبد المقروحة ، والأنين ، وهذه الصورة البسيطة لجريح يغص بالشراب ، تعبير مباشر صريح واضح ، لا يتحرج الشاعر فيه من أن يكشف ما يعتلج في داخله من حرقة ، أو يثقلها من ألم ويأس .

ويقال مثل هذا ، فيما اختاروا من صيغ ذات دلالة عاطفية مباشرة قوية ، تتردد كثيرا في تجاربهم الشعرية ، وقد أشرنا إلى بعضها خلال دراستنا لبعض تجاربهم ، ولاحظنا تكرارها في نماذجهم ، كصيغ الندبة ، والنداء ، والاستفهام ، والأمر ، والتمنى ، وتكرارهم لهذه الصيغ إنما هو محاولة منهم للاستعاضة بها عن الصور التشبيهية والمجازية ، في إبراز أحاسيسهم ، وتقوية الإحساس بها .

ولا ستفاد هذا الأسلوب ، أو هذا الاتجاه التعبيري في شعر العذرين ، وفيما أوردناه من نماذجهم ، نضرب عن التمثيل له هنا ، اكتفاء بما مر ، فقط ، نسوق نموذجا واحدا للتذكير بقيمة هذا الاتجاه ، ويتمثل في صيغة التمني ، في قول جميل السابق :

فياليت شعري هل أبيتن ليلة كليلتنا حتى نرى ساطع الفجر
فياليت رى قد قضى ذاك مرة فيعلم رى عند ذلك ماشكرى !!

أخيرا ، فإن التلقائية التي امتاز بها الغزل العذري ، وما صاحبها من وضوح وسهولة في اللغة ، والعبارة والصورة ، وما واكبها من توافر التنعيم الموسيقي ، تعد ظاهرة أكثر وضوحا وتطورا في شعر الأمويين ، منها في شعر الجاهليين .

ولسهولة هذا الغزل العذري الأموي ، وما يتسم به من تلقائية عذبة ، أقبل الملحنون والمغنون عليه ، كما أقبلوا على قصيمه الغزل الحضري الأموي ، إقبالا ملحوظا ، حتى بلغت الأصوات التي غنيت في شعر جميل تسعة وعشرين صوتا ^(١) ، كما أخذ المغنون عدة ألحان من شعر قيس بن ذريح ^(٢) ، وغيره من العذرين الأمويين .

والحمد لله أولا وآخرا

(١) انظر مقدمة ديوانه ١٧

(٢) انظر مقدمة ديوانه ٥١

فهرس المصادر والمراجع

- ١ — القرآن الكريم
- ٢ — آداب الشافعى ومناقبه : أبو محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم الرازى — حلب ١٩٥٣ م
- ٣ — اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى : د . محمد مصطفى هدارة — دار المعارف بمصر ١٩٦٣ م
- ٤ — أخبار النساء : ابن القيم الجوزية : طبعة التقدم ١٣١٩ هـ
- ٥ — أدب السياسة فى العصر الأموى : د . أحمد الحوفى — الطبعة الثالثة ١٩٦٩ م
- ٦ — أدب الخوارج : د . سهر القلماوى : لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥ م
- ٧ — الأدب فى عصر النبوة والراشدين : د . صلاح الدين الهادى — الطبعة الثانية ١٩٨٠ م
- ٨ — أساس البلاغة : أبو القاسم الزمخشري : دار الكتب المصرية ١٩٥٣ م
- ٩ — أسماء المختالين والأشراف : محمد بن حبيب (نوار المخطوطات)
- ١٠ — الاشتقاق : أبو بكر بن دريد : طبعة الخانجى ١٩٥٨ م
- ١١ — أصل الشيعة وأصولها : آل كاشف الغطاء الطبعة العاشرة ١٩٥٨ م
- ١٢ — الأعلام : خير الدين الزركلى : مطبعة كوستا — القاهرة ١٩٥٤ م
- ١٣ — الأغانى : أبو الفرج الأصبهانى : السامى ، وطبعة دار الكتب .
- ١٤ — ألقاب الشعراء : محمد بن حبيب (نوار المخطوطات) ١٩٥٤ م
- ١٥ — الأمالى : أبو على الفالى — طبعة بولاق ١٣٢٤ هـ
- ١٦ — أمالى الزجاجى : أبو القاسم الزجاجى — طبعة السعادة ١٣٢٤ هـ وطبعة المدنى ١٩٦٣ م
- ١٧ — أمالى المرتضى : الشريف على بن الحسين الموسوى : طبعة الحلبي ١٩٥٤ م
- ١٨ — الإمتاع والمؤانسة : أبو حيان التوحيدى : طبعة مكتبة الحياة — بيروت
- ١٩ — أمراء الشعر فى العصر الجاهلى : د . صلاح الدين الهادى — القاهرة ١٩٧٥ م
- ٢٠ — أنساب الأشراف : البلاذرى (الجزء الرابع) الطبعة الأوربية .
- ٢١ — أيام العرب فى الإسلام : أبو الفضل إبراهيم وعلى البجاوى — الطبعة الثالثة — الحلبي ١٩٦٨ م
- ٢٢ — بدائع البدائه : على بن ظافر الأزدي (على هامش معاهد التنصيص) .
- ٢٣ — البداية والنهاية : ابن كثير — طبعة السعادة ١٩٣٢ م
- ٢٤ — بسط المسامر فى أخبار مجنون بنى عامر : أبو عبد الله محمد بن على الدمشقى — القاهرة ١٩٦٤ م

- ٢٥ — بلاغات النساء : أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر — القاهرة ١٩٠٨ م
- ٢٦ — البيان والتبيين : أبو عثمان الجاحظ — طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٨ م
- ٢٧ — تاريخ آداب اللغة العربية : جورجى زيدان — الطبعة الثالثة ١٩٣٦ م
- ٢٨ — تاريخ الإسلام السياسى : د حسن إبراهيم — الطبعة الرابعة ١٩٥٧ م
- ٢٩ — تاريخ الأمم الإسلامية : الشيخ محمد الخضرى — الطبعة السادسة ١٣٧٠ هـ
- ٣٠ — تاريخ الشعر السياسى : أحمد الشايب — مطبعة النهضة المصرية ١٩٥٣ م
- ٣١ — تاريخ الشعر العربى حتى أواخر القرن الثالث الهجرى : د . محمد نجيب البهيتى — دار الكتب ١٩٥٠ م
- ٣٢ — تاريخ الشعوب الإسلامية : كارل بروكلمان (مترجم) بيروت ١٩٤٨ م
- ٣٣ — تاريخ الطبرى : محمد بن جرير الطبرى — طبعة الحسينية ، دون تاريخ
- ٣٤ — تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى : د . على حسن الخربوطلى — دار المعارف بمصر ١٩٥٩ م
- ٣٥ — تاريخ الفلسفة فى الإسلام : ت . ج . دى بور (مترجم) القاهرة ١٣٩٨ هـ
- ٣٦ — تاريخ النقااض فى الشعر العربى : أحمد الشايب — طبعة الاعتقاد ١٩٤٦ م
- ٣٧ — تحفة الأحوزى بشرح جامع الترمذى : الحافظ أبو العلى المباركفورى — دار الفكر ١٩٧٩ م
- ٣٨ — التذكرة السعدية فى الأشعار العربية : محمد بن عبد الرحمن العبيدى — طبعة النجف ١٩٧٢ م
- ٣٩ — تزيين الأسواق : داود الأنطاكى — دار الطباعة ١٢٩١ هـ
- ٤٠ — تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام : د . شكرى فيصل
- ٤١ — التطور والتجديد فى الشعر الأموى : د . شوقى ضيف — الطبعة الثانية ١٩٥٩ م
- ٤٢ — تفسير الطبرى (جامع البيان فى تفسير القرآن) : ابن جرير الطبرى — طبعة بولاق ١٣٢٥ هـ
- ٤٣ — تيارات ثقافية بين العرب والفرس : د . أحمد الحوفى — الطبعة الثالثة ١٩٧٨ م
- ٤٤ — جريدة السياسة : العدد ١٧ بتاريخ ١٠ ديسمبر ١٩٢٤ م
- ٤٥ — جميل بثينة : عباس محمود العقاد — دار المعارف بمصر ١٩٥٤ م
- ٤٦ — حديث الأربعة : د . طه حسين — دار المعارف بمصر ١٩٥٩ م

- ٤٧ — حلية الأولياء : أبو نعيم الأصبهاني ١٩٣٥ م
- ٤٨ — الحماسة : أبو تمام — بتحقيق الدكتور عبد الله عسيان — الرياض (١٩٨١ م)
- ٤٩ — حماسة الظرفاء : أبو محمد العبدلكاني — دار الحرية للطباعة — بغداد ١٩٧١ م
- ٥٠ — حياة الشعر في الكوفة : د . يوسف خليف — دار الكاتب العربي ١٩٦٨ م
- ٥١ — الحيوان : أبو عثمان الجاحظ — طبعة السعادة ١٣٢٥ هـ
- ٥٢ — خزانة الأدب : عبد القادر البغدادي — طبعة بولاق ١٢٩٩ هـ
- وطبعة السلفية ١٣٥١ هـ
- ٥٣ — الخوارج والشيعة : يوليوس فلهوزن (مترجم) القاهرة ١٩٥٨ م
- ٥٤ — دراسات في الشعر الجاهلي : د . محمد أبو الأنوار — القاهرة ١٩٧٥ م
- ٥٥ — دولة الأمويين : د . علي حبيبة — القاهرة ١٩٧٨ م
- ٥٦ — ديوان الأخوص (شعر الأخوص الأنصاري) بعناية عادل سليمان — القاهرة ١٩٧٠ م
- ٥٧ — ديوان الأخطل (شعر الأخطل) طبعة الكاثوليكية — بيروت ١٨٩١ م
- ٥٨ — ديوان أبو الأسود الدؤلي : بعناية محمد حسن آل ياسين — بيروت ١٩٧٤ م
- ٥٩ — ديوان امرئ القيس — طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٥ م
- ٦٠ — ديوان بشار بن برد : بتحقيق الشيخ محمد الطاهر بن عاشور — القاهرة ١٩٥٠ م
- ١٩٥٧ م —
- ٦١ — ديوان توبة بن الحُمير — مطبعة الإرشاد — بغداد ١٩٦٨ م
- ٦٢ — ديوان جرير : نشرة الصاوي .
- ٦٣ — ديوان جميل بثينة : بتحقيق الدكتور حسين نصار — الطبعة الثانية ١٩٦٧ م
- ٦٤ — ديوان حسان بن ثابت : بعناية البرقوق — طبعة السعادة ، دون تاريخ
- ٦٥ — ديوان زهير بن أبي سلمى : بعناية الدكتور أحمد طلعت — بيروت ١٩٦٨ م
- ٦٦ — ديوان سُحَيْم عبد بنى الحسحاس — دار الكتب المصرية ١٩٥٠ م
- ٦٧ — ديوان سرافقة البارقي : بعناية الدكتور حسين نصار .

٦٨ - ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني : بتحقيق الدكتور صلاح الدين الهادي - دار المعارف بمصر ١٩٦٨ م

٦٩ - ديوان الصبابة : ابن أبي جحلة المغربي (على هامش تزيين الأسواق) .

٧٠ - ديوان طرفة بن العبد : بعناية الدكتور علي محمد الجندى - القاهرة ١٩٥٨ م

٧١ - ديوان الطرماح بن حكيم : بعناية الدكتور عزت حسن - وزارة الثقافة بدمشق

١٩٥٦ م

٧٢ - ديوان عبد الرحمن بن حسان بن ثابت : طبعة بغداد ١٩٧١ م

٧٣ - ديوان عبد الله بن الزبير الأمدي (شعر عبد الله ...) جمع يحيى الجبوري -

بغداد ١٩٧٤ م

٧٤ - ديوان عبيد بن الأبرص : بتحقيق الدكتور حسين نصار - القاهرة ١٩٥٧ م

٧٥ - ديوان العرجي : بعناية خضر الطائي وآخر - بغداد

٧٦ - ديوان عمر بن أبي ربيعة : بعناية محمد محي الدين : طبعة السعادة ١٩٦٠ م

٧٧ - ديوان الفرزدق : نشرة الصاوي ١٩٣٦ م ، ونشرة بيروت .

٧٨ - ديوان ابن قيس الرقيات - بيروت .

٧٩ - ديوان قيس بن الخطيم : بعناية الدكتور إبراهيم السامرائي وآخر - بغداد

١٩٦٢ م

٨٠ - ديوان قيس بن ذريح : بتحقيق الدكتور حسين نصار - القاهرة ١٩٦٠ م

٨١ - ديوان كثير عزة : بتحقيق إحسان عباس - دار الثقافة - بيروت ١٩٧١ م

٨٢ - ديوان الكميت بن زيد (هاشميات الكميت) .

٨٣ - ديوان لبيد بن ربيعة : بتحقيق إحسان عباس - الكويت ١٩٦٢ م

٨٤ - ديوان ليلى الأخيلية : طبعة دار الجمهورية ببغداد ١٩٦٧ م

٨٥ - ديوان مجنون بنى عامر : بعناية عبد الستار فراج .

٨٦ - ديوان المعاني : أبو هلال العسكري - طبعة المقدسي ١٣٥٢ هـ

٨٧ - ديوان نابغة بنى شيبان : طبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٢ م

٨٨ - ديوان النابغة الذبياني - بعناية كرم البستاني - بيروت ١٩٦٣ م

- ٨٩— ذيل الأمالي : أبو على القالى (ملحق بالأمالي)
- ٩٠— رسائل الجاحظ : أبو عثمان الجاحظ — طبعة الخانجي ١٩٦٤ م
- ٩١— زهر الآداب : أبو إسحاق الحصرى — طبعة الرحمانية ١٩٢٥ م
- ٩٢— سمط اللآلئ : أبو عبيدة البكرى — طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦ م
- ٩٣— سنن أئى داود — طبعة دار إحياء النسبة النبوية — دون تاريخ .
- ٩٤— سنن ابن ماجه — طبعة الحلبي ١٩٥٤ م .
- ٩٥— السيرة النبوية (سيرة ابن هشام) الطبعة الثانية — الحلبي ١٩٥٥ م
- ٩٦— شاعر الغزل : عمر بن أئى ربيعة : عباس محمود العقاد — دار المعارف بمصر ١٩٦٥ م
- ٩٧— شرح ديوان الحماسة للمرزوقى — طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٢ م
- ٩٨— شرح رسالة الحور العين : ابن نشوان الحميرى — طبعة السعادة ١٩٤٨ م
- ٩٩— شرح المفضليات : أبو القاسم محمد بن الأنبارى — طبعة بيروت ١٩٢٠ م
- ١٠٠— شرح نهج البلاغة : ابن أئى الحديد — طبعة الحلبي ١٩٥٩ م
- وطبعة دار الكتب العربية الكبرى بمصر ١٣١٩ هـ
- ١٠١— شعراء النصرانية : لويس شيخو — بيروت ١٨٩٠ م
- ١٠٢— الشعر الأموى ، دراسة فى التقاليد والأصالة الفنية : د . محمد فتوح — القاهرة ١٩٧٧ م
- ١٠٣— شعر الحرب : د . على محمد الجندى — مطبعة الرسالة ١٩٥٨ م
- ١٠٤— شعر الخوارج : جمع لإحسان عباس — دار الثقافة — بيروت ١٩٦٣ م
- ١٠٥— الشعر والشعراء : أبو محمد بن قتيبة — الطبعة الثانية — المعاهد ١٩٣٤ م
- ١٠٦— الشعر العربى بين الجمود والتطور : د . محمد عبد العزيز الكفراوى — القاهرة ١٩٥٨ م .
- ١٠٧— الشمآخ بن ضرار الذيبانى ، حياته وشعره : د . صلاح الدين الهادى — دار المعارف بمصر ١٩٦٨ م
- ١٠٨— الشوقيات : أحمد شوقى — المكتبة التجارية بمصر .

- ١٠٩ — الشيعة في التاريخ : الشيخ محمد حسن الدين — الطبعة الثانية — بيروت ١٩٧٩ م
- ١١٠ — الشيعة في الميزان : محمد جواد مغنية — دار التعارف ببيروت — دون تاريخ .
- ١١١ — ضحى الإسلام : أحمد أمين — الطبعة الثالثة ١٩٤٣ م
- ١١٢ — طبقات الشعراء : ابن المعتز — طبعة المبنى ١٩٧٤ م
- ١١٣ — طبقات فحول الشعراء — محمد بن سلام الجمحي — دار المعارف بمصر ١٩٥٢ م
- وطبعة المبنى ١٩٧٤
- ١١٤ — الطبقات الكبرى : أبو عبد الله محمد بن سعد — طبعة بيروت ١٩٥٧ وطبعة ليدن .
- ١١٥ — العبر في خبر من غبر : أبو عبد الله الحافظ الذهبي — طبعة الكويت ١٩٦٠ م
- ١١٦ — عقائد الإمامية : الشيخ محمد رضا المظفر الطبعة الثامنة — القاهرة ١٩٧٣ م
- ١١٧ — العقد الفريد : ابن عبد ربه — طبعة الجمالية ١٩١٣ م
- وطبعة بولاق ١٢٩٣ هـ
- ١١٨ — العقيدة والشريعة في الإسلام : جولد زهر (مترجم) دار الكاتب المصري ١٩٤٦ م
- ١١٩ — عقيدة الشيعة : دوايت . م . رونلدسن (مترجم) — طبعة السعادة ١٩٤٦ م
- ١٢٠ — عيون الأخبار : أبو محمد ابن قتيبة — دار الكتب المصرية ١٩٢٥ م
- ١٢١ — الغزل في العصر الجاهلي : د . أحمد الحوفي — الطبعة الثالثة ١٩٧٣ م
- ١٢٢ — فجر الإسلام : أحمد أمين — الطبعة الثانية — الاعتماد ١٩٣٣ م
- ١٢٣ — الفرق بين الفرق : عبد القاهر البغدادي — طبعة المعارف — دون تاريخ .
- ١٢٤ — الفهرست : ابن النديم — طبعة الرحمانية ١٣٤٨ هـ
- ١٢٥ — فوات الوفيات : ابن شاکر الکتبی — طبعة بولاق ١٢٨٣ هـ
- ١٢٦ — في الشعر الإسلامي والأموي : د. عبد القادر القط — بيروت ١٩٧٩ م
- ١٢٧ — القاموس المحيط : مجد الدين الفيروزبادی — الطبعة الثانية — الحسينية ١٣٤٤ هـ

- ١٢٨— قصة الحضارة الفارسية : ول . ديورانت (مترجم) القاهرة ١٩٥٢ م
- ١٢٩— القيم الروحية في الشعر العربي : ثريا عبد الفتاح مَلَحَس — بيروت .
- ١٣٠— الكامل (في التاريخ) : ابن الأثير — الطبعة الأممية .
- وطبعة بيروت ١٩٦٥ م
- ١٣١— الكامل (في اللغة والأدب) : أبو العباس المبرد : المطبعة الأزهرية ١٣٣٩ هـ
- وطبعة الاستقامة ١٣٦٤ هـ
- ١٣٢— كتاب التيجان في ملوك حمير : أبو محمد عبد الملك بن هشام — طبعة حيدر
- أباد ١٣٤٧ هـ
- ١٣٣— كُنَى الشعراء : محمد بن حبيب (نواذر المخطوطات) القاهرة ١٩٥٤ م
- ١٣٤— المُوْتَلَف والمُخْتَلَف : أبو القاسم الآمدي — طبعة القدسي ١٣٥٤ هـ
- ١٣٥— مجالس ثعلب : دار المعارف بمصر ١٩٦٠ م
- ١٣٦— مجالس العلماء : أبو القاسم الزجاجي — طبعة الكويت ١٩٦٢ م
- ١٣٧— المختصر في أخبار البشر : أبو القدا — طبعة الحسينية دون تاريخ
- ١٣٨— مروج الذهب : أبو الحسن المسعودي — طبعة السعادة ١٩٥٨ م
- وطبعة البية ١٣٤٦ هـ
- ١٣٩— مسالك الأبصار في ممالك الأمصار : ابن فضل الله العمري — دار الكتب
- المصرية ١٩٢٤ م .
- ١٤٠— مصارع العشاق : أبو جعفر السراج — طبعة الجوائب — القسطنطينية
- ١٣٠١ هـ
- ١٤١— معاهد التنصيص : عبد الرحيم بن عبد الرحمن العباسي — طبعة البية
- ١٣١٦ هـ
- ١٤٢— معجم الأدباء : ياقوت الحموي — طبعة دار المأمون ١٩٣٦ م
- ١٤٣— معجم البلدان : ياقوت الحموي — طبعة السعادة ١٩٠٦ م
- ١٤٤— معجم الشعراء : أبو عبد الله المرزباني — طبعة القدسي ١٣٥٤ هـ
- ١٤٥— المعرّون والوصايا : أبو حاتم السجستاني — طبعة الحلبي ١٩٦١ م
- ١٤٦— المفضليات : المفضل بن محمد الضبي — دار المعارف بمصر ١٩٦١ م

- ١٤٧— مقاتل الطالبين : أبو الفرج الأصبهاني — طبعة الحلبي ١٩٤٩ م
- ١٤٨— المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية (الشواهد الكبرى) : بدر الدين العيني — على هامش خزانة الأدب طبعة بولاق .
- ١٤٩— مقالات الإسلاميين : الإمام أبو الحسن الأشعري — النهضة المصرية ١٩٥٠ م
- ١٥٠— مقدمة ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون — المطبعة الأدبية — بيروت ١٩٠٠ م
- ١٥١— الملل والنحل : أبو الفتح الشهرستاني — المطبعة الأدبية ١٣١٧ هـ (على هامش كتاب الفصل لابن خزم) .
- ١٥٢— الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء : أبو عبد الله المرزباني — طبعة السلفية ١٣٤٣ هـ
- ١٥٣— النقائض : أبو عبيدة معمر بن المثنى — طبعة ليدن ١٩٠٥ م
- ١٥٤— النوادر : أبو علي القالي (ملحق بالأمل) .
- ١٥٥— وفيات الأعيان : ابن خلكان — طبعة السعادة ١٩٤٨ م
- ١٥٦— وقعة صفين : نصر بن مزاحم المنقري — طبعة الخانجي ١٩٨١ م

فهرس الموضوعات

٥ - ٣ تقديم
-------	-------------

الفصل الأول

أبرز العوامل التي وجهت الشعر في العصر الأموي ٦٨ - ٧

٧ تقديم
---	-------------

عوامل سياسية :

٨ الفتنة في عهد عثمان
١٢ النزاع بين علي ومعاوية
١٨ موقعة صفين ونتائجها
٢١ اتجاه معاوية إلى توريث الخلافة بالعهد لابنه يزيد ونتائج ذلك
٢٤ خروج الحسين بن عليّ على يزيد بن معاوية ونتائجها
٢٨ خروج عبد الله بن الزبير
٣١ تأثير الظروف السياسية في ازدهار الحركة الشعرية في العصر الأموي

الأحزاب السياسية في العصر الأموي (دعاواها وعقائدها) :

٣٣ حزب الشيعة
٤٣ الحزب الأموي
٤٦ الخوارج
٥٠ الزبيريون

عوامل اجتماعية وجهت بعض فنون الشعر في هذا العصر :

٥٢ صحوة العبيات القبلية
----	----------------------------

- التخطيط القبلي لمدينتي العراق : البصرة والكوفة ٥٣
- الثراء والترف والفراغ في حضر الحجاز ٥٧
- ظروف الحياة في البادية ٦١
- الاتجاه إلى اللهو والمجون في بعض بيئات العراق والشام : أسبابه
ونواتجه ٦٢

عوامل ثقافية وعقلية :

- مجالس الصحابة وحلقات الدرس وأثرها في إشاعة روح الزهد ٧١
- ظهور المذاهب الكلامية وتأثيرها في توجيه الشعر ٧٤
- بدايات النظر في العلوم الدخيلة ، والاتجاه إلى الترجمة من الثقافات
غير العربية ٧٧
- أهم الاتجاهات الشعرية المتأثرة بهذه العوامل في العصر الأموي ٧٨

الفصل الثاني

شعر الخصومات السياسية ٧٩ - ٢٣١

تقديم :

- مفهوم السياسة في الإسلام ٨٠
- احتدام الصراع حول منصب الخلافة ٨١
- المقصود بالشعر السياسي ٨١
- اختلاف مسار الشعر السياسي الأموي ٨١

الشعر السياسي في ظل الأحزاب السياسية :

- شعر الشيعة ٨٧ - ١٢٨
- الاتجاهات الموضوعية لشعر الشيعة ٨٨

١٨٨	إظهار المحبة لآل البيت
٩١	الاحتجاج لحق الأئمة في الخلافة
	إبراز الجوانب الإنسانية والدينية في شخصية أئمة الشيعة (المدح
١٠١	السياسي)
١٠٦	إظهار الحزن على الأئمة الشهداء (الرثاء السياسي)
١١٤	التصدي لخصوم الشيعة (الهجاء السياسي)
١١٩	الدعاية لعقائد الشيعة (الشعر المذهبي)
١٢٦	نظرات فنية في شعر الشيعة السياسي
١٢٩ - ١٦٤	شعر الأمويين
١٢٩	كثرة الشعر والشعراء في ميدان الحزب الأموي
١٣٠	شيوخ التكسب بين شعراء الأموية
١٣١	شعراء أخلصوا للأموية
	الاتجاهات الموضوعية لشعر السياسة الأموية : صور من الإشارة ببنى
١٣٤	أمية والاحتجاج لخلافتهم (المدح السياسي)
١٤٦	التصدي لأعداء بني أمية (الهجاء السياسي)
	تخليد ذكر من قضوا من زعماء الحزب الأموي وأبطاله (الرثاء
١٥٦	السياسي)
١٦٢	نظرات فنية في شعر الأموية السياسي
١٦٤ - ٢٠٧	شعر الخوارج
١٦٤	الملاحم الهامة لشخصية الخوارج الإنسانية والدينية والسياسية
١٦٩	الاتجاهات الموضوعية لشعر الخوارج
١٦٩	صور من شخصية الخوارج المذهبية
١٧٦	صور من شخصية الخوارج الدينية والبطولية
١٨٥	نظرة الخوارج إلى مخالفهم (هجاء الخصوم)

١٩٠	تمجيد شهداء الخوارج (الرثاء)
١٩٧	نظرات فنية في شعر الخوارج السياسى
٢٢٧ - ٢٠٧	شعر الزبيرين
	قصر فترة حياة هذا الحزب وسياسة زعيمه أضعفت خطه من الشعر
٢٠٧	والشعراء
٢١٤	الاتجاهات الموضوعية لشعر الزبيرين السياسى
٢١٤	التنويه بآل الزبير ومحاولة تأييد خلافتهم
٢١٩	التصدى لخصوم دعوى ابن الزبير
٢٢٤	رثاء قتلى الزبيرين
٢٢٦	نظرات فنية في شعر الزبيرين السياسى
٢٢٧	تعقيب على الشعر السياسى بعامة في العصر الأموى

الفصل الثالث

شعر الخصومات القبلية

٢٣٣ - ٢٦٤

٢٣٥	الفرق بين شعر الخصومة القبلية والخصومة السياسية
	أهمية العصبية القبلية في الحياة العربية الجاهلية بعامة وفي الشعر السياسى
٢٣٦	بخاصة
٢٣٧	العصبية القبلية في صدر الإسلام ثم في العصر الأموى
٢٣٨	موقعة صفين رددت النعمات الأولى لشعر العصبيات القبلية
٢٤٢	دواعى الخصومة بين أشهر العصبيات القبلية في العصر الأموى
٢٤٢	الخصومة القبلية بين قيس وتميم
٢٤٣	وبين قيس وتغلب
٢٤٤	وبين قيس واليمانية
٢٤٦	شعر الخصومة بين قيس وتميم

- شعر الخصومة بين قيس وبكر من ربيعة ٢٤٩
 شعر الخصومة بين قيس وتغلب من ربيعة ٢٥٠
 شعر الخصومة بين قيس واليمنية ٢٥٤
 شعر الخصومة بين بطون من قبيلة واحدة ٢٥٧
 تعقيب على شعر الخصومات القبلية في العصر الأموي ٢٦١

الفصل الرابع

شعر الخصومة الفردية الأدبية (النقائض)

٢٦٥ - ٢٤٢

- معنى هذه الخصومة والفرق بينها وبين الخصومة السياسية والقبلية ٢٦٧
 المقصود بالنقائض ٢٦٨
 الأصول الفنية لشعر النقائض ٢٧٠
 نشأة فن النقائض وتطوره ٢٧٣
 موقف شعراء العصر الأموي من اصطناع هذا الأسلوب الشعري ٢٨٠
 شعراء المناقضات العامة ٢٨١
 نقائض الفحول ٢٨٦
 نقائض جرير والفرزدق وحظها من التطور أو التجديد ٢٨٦
 العناصر الدينية في نقائض الفحول ٣١١
 نقائض جرير والأخطل والموازنة بينها وبين نقائض جرير والفرزدق ... ٣١٥
 تعقيب : ملامح التطور والتجديد في النقائض الأموية بعامة ٣٣١
 قيمة النقائض الأموية من النواحي التاريخية واللغوية والأدبية ٣٣٤

الفصل الخامس

الغزل في حضر الحجاز

٣٤٢ - ٤٢٢

- لماذا آثرنا تسمية هذا الغزل بالغزل الحسي المتطور اللاهني ٣٤٥
 آراء لبعض الباحثين المحدثين في حظ هذا الغزل من التقليد والتطور
 والتجديد ٣٤٧

تصور عام لبيئة هذا الغزل وظروفها الحضارية والفنية ٣٤٩
صور المرأة في الغزل المجازي وأبرز ملامحها :

الترف والتنعم والتحضير ٣٥٩
 مقارنة هذا الملمح بنظيره في غزل الجاهليين ٣٦٢
 الصلة بين المرأة والرجل في الغزل المجازي الأموي ٣٦٤
 العناية بتحليل مشاعر المرأة ونزعاتها النفسية ٣٧٤
 تفرد غزل عمر بن أبي ربيعة بتصوير نفسه معشوقا ومناقشة بعض الآراء
 في تفسير هذا الاتجاه في غزله ٣٧٩
 الجانب الحسي في هذا الغزل ٣٩١

صور الرجل في الغزل المجازي وأبرز ملامحها :

الكلف بالجمال في معارضه المختلفة من النساء ٣٩٣
 من أهم ملامح صورة العاشق في هذا الغزل : بث الأشواق وشكوى
 الهجر ٣٩٥
 الفرق بينه وبين الغزل العذري في هذا الملمح ٣٩٧
 صور من الضراعة والتوسل ٤٠٣
 صورة العاشق المغامر ٤٠٦
 أهم ملامح الفن في الغزل المجازي الحضري ٤١٢

الفصل السادس

الغزل العذري في بادية الحجاز

٤٢٣ - ٤٩٣

تقديم في معنى العذرية والعشق والغزل العفيف ٤٢٥
 حول نشأة هذا الضرب من الغزل ٤٣٠
 رأى في تأثر نشأة هذا الغزل بالعامل الديني ، ومناقشة هذا الرأى ٤٣١
 أشهر الشعراء العذريين الأمويين ٤٤٤
 أهم اتجاهات الغزل العذري الأموي ٤٤٦

- ٤٤٦ شكوى الحرمان مع غلبة الهوى
 ٤٥٣ تمرد القلب على محاولة السلوى
 ٤٦٠ صدق الصباية فى العشق
 ٤٦٧ أثر الحب فى اعتلال الجسد
 ٤٧٢ الشكوى من صد الحبيبة
 ٤٧٨ تعقيب على الملاح الفنية للغزل العذرى الأموى
 ٤٩٤ فهرس المصادر والمراجع

★ ★ ★

رقم الإيداع ١٩٨٦/٥٣٦٥ م

الترقيم النوى ٣ - ٢٤ - ٥٠٥ - ٩٧٧

الناشر
مكتبة الخانجي بالفايزة